

الخليج العربي

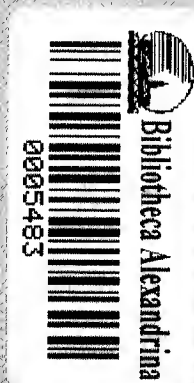
دراسة لتأنيخ الإمارات العربية

في

عصر التوسع الأوروبي الأول

دكتور جمال زكريا قاسم

دار
الفكر العربي



الخليج العربي

دراسة لتاريخ الإمارات العربية

في
عصر التوسع الأوروبي الأول

١٥٠٧م - ١٨٤٠م

دكتور جمال زكريا قاسم

أستاذ التاريخ الحديث
كلية الآداب - جامعة عين شمس

ملزمة الطبع والنشر

دار الفكر العربي

١١ شارع مولانا - القاهرة
ص ١٣٠ - ت: ٧٦٠٥٢٣

فهرس الموضوعات

الصفحة

٥	تصدير
٩	مقدمة
		الفصل الأول :
٤٣	الغزو البرتغالي .
		الفصل الثاني :
		الأوضاع السياسية في الخليج العربي في أعقاب انهيار
٩٣	السيطرة البرتغالية .
		الفصل الثالث :
١٢٣	الأوضاع الداخلية في عمان
		الفصل الرابع :
١٥٩	المنافسات التجارية والسياسية في الخليج العربي .
		الفصل الخامس :
٢٠٥	عمان وشرق إفريقيا .
		الفصل السادس :
٢٣٧	التنظيمات القبلية في الساحل الجنوبي للخليج العربي .
		الفصل السابع :
٢٦٥	القواسم وعلاقتهم بالقوى المجاورة .
		الفصل الثامن :
		توغل النفوذ البريطاني في الساحل الجنوبي للخليج
٢٩١	العربي

صفحة

الفصل التاسع :	اتفاقيات الهدنة وتدعيم النفوذ البريطاني	٣٣٣
الفصل العاشر :	التنظيمات السياسية والقبائلية في الساحل الشمالى للخليج العربى	٣٥٧
الفصل الحادى عشر :	استقرار آل صباح فى حكم الكويت	٣٨٥
الفصل الثانى عشر :	نشأة إمارتى البحرين وقطر	٤٠٩
الفصل الثالث عشر :	البحرين فى العلاقات البريطانية الفارسية ١٨١٤ -	٤٣١
الفصل الرابع عشر :	مصر وإمارات الخليج العربى ١٨١١ - ١٨٤٠	٤٥١
الخاتمة		٤٨١
الملاحق		٤٨٧
المصادر والمراجع		٥١١



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

بصدور هذا الكتاب نكون قد انتهينا من وضع دراسة شاملة لتاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر . وقد شملت هذه الدراسة بما فيها ذلك الكتاب الذي تقدمه اليوم أربعة مجلدات تناولنا فيها تاريخ الإمارات العربية في الخليج العربي بين عامي ١٥٠٧ و ١٩٧١ أي منذ بداية الاستعمار البرتغالي في أوائل القرن السادس عشر الميلادي حتى استكمال إمارات الخليج استقلالها السياسي وظهورها في شكل دول حديثة عقب انسحاب الوجود العسكري البريطاني من الخليج بنهاية عام ١٩٧١ .

ولذا كان من المتفق عليه اصطلاحاً بين كثير من المؤرخين على تحديد السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادي باعتبارها تشكل بداية لتاريخ العرب الحديث وذلك قياساً على التقسيم الأوربي إلا أنه ينبغي أن نقرر هنا أن القياس مع الفارق الكبير ونعني بذلك بين التطورات السريعة التي سار فيها العالم الأوربي في القرون التالية منذ بدء نهضته الحديثة وبين الانهيار السريع الذي تعرض له العالم العربي منذ بداية هذه الفترة . وهذه الظاهرة نكاد نلمسها وضحة تماماً في منطقة الخليج العربي التي كانت أول جزء في العالم العربي يتعرض لظلال الاستعمار الأوربي في العصر الحديث . كما قدر لها أن تكون آخر منطقة عربية يجلو عنها الاستعمار في عصرنا الحاضر . ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن الغزو البرتغالي الذي تعرضت له منطقة الخليج العربي

لم يكن سبباً في أفول المنطقة حضارياً وسياسياً واقتصادياً فحسب بل كان سبباً في أفول الحضارة الإسلامية بصفة عامة .

وإذا كنا قد اتخذنا من القرن السادس عشر نقطة بداية لهذه الدراسة باعتبار السنوات الأولى من ذلك القرن توابك مطلع العصور الحديثة بصفة عامة ؛ كما أنها شهدت أول حركة استثمارية أوروبية تصل إلى منطقة الخليج العربي في العصر الحديث ، ونعني بها حركة الاستعمار البرتغالي بصفة خاصة ، إلا أنه قد ثار أماننا نقطة عاطفية وهي أنه قد يصعب على المؤرخ العربي أن يبدأ التاريخ الحديث لأحد أجزاء الوطن العربي بالغزو والاستعمار هذا فضلاً عن أن الفترة الزمنية موضوع الدراسة هي في مجموعها فترة تسلط استعماري ، ومع ذلك فإن مما يخفف ذلك الشعور تلك الصفحات التي أمكن تسجيلها لأبناء الخليج في كفاحهم لتحرير المنطقة من الاستعمار البرتغالي ، ثم مقاومتهم للاستعمار الهولندي ومحاولتهم التصدي للوجود البريطاني في مراحل الأولى ، ونجاحهم في المحافظة على كياناتهم ومقوماتهم الذاتية وإكساب الخليج شخصيته العربية رغم التحديات الكثيرة التي واجهوها ولا غرو في ذلك فإن العصور الحديثة في تاريخ الخليج العربي شهدت الغزو البرتغالي وما أعقبه من تنافس بين الدول الأوروبية في تلك الحقبة التي أطلق عليها المؤرخون عصر التوسع الأوربي الأول والتي انتهت بنجاح بريطانيا في تمكين سيطرتها على الخليج بعد تخلصها من القوى المنافسة لها .

والفترة من بداية الغزو البرتغالي حتى نجاح بريطانيا في تدعيم سيطرتها على الخليج والتي تقع بين عامي ١٥٠٧ و ١٨٤٠ هي الفترة التي تتحدد بها دراستنا في هذا الكتاب . وليس من شك في أن امتداد الفترة الزمنية هذا الامتداد الواسع قد أثارت أماننا العديد من الصعوبات والتي يبرز من بينها تجميع الوحدات السياسية في المنطقة وتعدددها سواء كان ذلك بسبب طبيعتها القبلية أو بسبب تأثير السياسة البريطانية في تكريس تفككها

وتغيرها قوة وضعفا بالإضافة إلى تضارب اتباعها في ولائاتهم السياسية والقبلية رغم عدم وجود فوارق إثنولوجية أو اجتماعية للمجموعات البشرية المنتمة إليها ، ومن ناحية أخرى فإن الأمر لم يقتصر على التنوع في التشكيلات السياسية التي ظهرت في المنطقة ، وإنما يضاف إلى ذلك علاقاتها بالقوى الأجنبية والقوى الإقليمية المجاورة لها. وقد حرصنا على التركيز على المقومات الدائمة لتلك التشكيلات السياسية بحيث لم نأجأ إلى معالجتها في إطار المصالح الاستعمارية ، كما فعلت ذلك كثير من المصادر الأجنبية ، التي تناولت تاريخ المنطقة بوجهة نظرها الخاصة مما ترتب على ذلك ظهور الكثير من المفاهيم والأحكام الخاطئة التي أصبحت في حاجة ماسة إلى رؤية موضوعية جديدة .

وإذا كانت الفترة الزمنية التي يتناولها هذا الكتاب تشكل من حيث ترتيبها الزماني الجزء الأول من دراستنا الشاملة لمنطقة الخليج التي قدر لنا أن نضطلع بها منذ منتصف الخمسينيات إلا أنه قدر لتلك الدراسة أن تأتي متأخرة عن سابقتها ، وعلى الرغم من أن هذه الدراسة التي يشملها هذا الكتاب يمكن أن ننهي بها دراستنا عن تاريخ الخليج العربي إلا أن الأمل لا يزال يراودنا في أن نتبع هذه الدراسة بدراسة تالية نعالج فيها التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية السريعة التي تشهدها منطقة الخليج العربي منذ الاستقلال حتى وقتنا الحاضر .

ولعل مدين في وضع هذه الدراسة ونشرها إلى تلك الرغبة القوية التي ظلت تراودني طيلة السنوات العشر الماضية منذ ظهور كتابي الأخير عن الخليج العربي دراسة لتاريخه المعاصر في عام ١٩٧٥ ، بضرورة تغطية الفترة الزمنية التي لم أتناولها بشكل متكامل في دراساتي السابقة لمنطقة الخليج العربي ولعلني بنشر هذا الكتاب أكون قد أنجزت دراسة متصلة الحلقات لمنطقة الخليج العربي في تاريخها الحديث والمعاصر وهو الهدف الذي شغل اهتماماتي وكرست له حياتي العلمية منذ ما يقرب من ثلاثين عاما .

بنى أن نشير هنا أنه على الرغم من الحجم الكبير الذى وصل إليه هذا الكتاب إلا أنه لا يشكل مع ذلك سوى المعالم الرئيسية للفترة موضوع الدراسة التى حرصنا على معالجتها دون الخوض فى التفاصيل الاستعمارية التى حفلت بها المصادر الأجنبية التى تناولت تاريخ المنطقة من وجهة نظر المصالح الاستعمارية . ولذا فقد يكون من دواعى الغبطة لإقبال المؤرخين والباحثين العرب فى السنوات الأخيرة على دراسة تاريخ الخليج العربى بوجهة نظر عربية دون الإخلال بالموضوعية وهى ظاهرة تستحق التنويه . .

وعلى الله قصده السبيل :

للقاهرة ١٩٨٥/٥/١١

جمال زكريا قاسم

مقدمة

تتميز المبرة الزمنية التي يعالجها هذا الكتاب بثراتها في مصادرها وأحداثها التاريخية ولعل أول أحداث تلك الفترة الغزو البرتغالي الذي تعرضت له منطقة الخليج العربي ومن ثم كان تحديدنا للوصول البرتغاليين إلى سواحل الخليج العربي في عام ١٥٠٧ نقطة انطلاق لهذه الدراسة . وبما لاشك فيه أن نجاح البرتغاليين في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى سواحل الهند الغربية : ثم اتجاهاهم إلى احتكار تجارة الشرق بالسيطرة على المنافذ البحرية التي كانت تعبر منها في البحر الأحمر والخليج العربي في طريقها إلى أوروبا ، عبر موانئ البحر المتوسط ، بشكل نهاية عصر قديم وبداية عصر جديد يختلف اختلافا كبيرا عن العصر الذي سبقه ، ذلك أن منطقة الخليج العربي التي كانت تعبر عن عصر ذهبي في الملاحة والتجارة خلال الفترة التي سبقت مجيء البرتغاليين إلى بحار الشرق لم تلبث أن فقدت أهميتها التجارية بتحول التجارة إلى الطريق البحري المباشر حول إفريقيا إلى موانئ الأطلنطي في غرب أوروبا ، وانتقلت منطقة الخليج العربي إلى مرحلة من التدهور والانكماش منذ بداية العصور الحديثة بل إن أوضاع الخليج المتدهورة في تلك المرحلة لم تلبث أن أحدثت تأثيرها على بقية أجزاء العالم العربي وبصفة خاصة على الأقطار العربية التي كانت تمر من خلالها تجارة الشرق عبر بحارها وموانئها وتستفيد من وراء ذلك فائدة كبيرة . ومن ناحية أخرى فقد أتى الغزو البرتغالي لمنطقة الخليج العربي بمرحلة جديدة من تاريخ الشرق العربي وهي المرحلة التي يمكن أن نطلق

عليها مرحلة التوسع الأوربي الأول ، وهي المرحلة التي تمتد من وصول البرتغاليين إلى بحار الشرق في أواخر القرن الخامس عشر حتى استطاعت بريطانيا تدعيم نفوذها في تلك البحار منذ السنوات الأولى من القرن التاسع عشر ، إذ أن المجال لم يترك للبرتغاليين وحدهم في تجارة الشرق وإنما نافس البرتغاليين العديد من القوى الأوروبية وعلى الأخص هولندا وفرنسا والبلجيترا التي حرصت كل واحدة منها على الحصول على مراكز تجارية لها على طول الطرق البحرية الموصلة إلى مناطق نفوذها في الهند أو جزر الهند الشرقية . ولاتمكن أهمية هذه المرحلة في تنافس القوى الأوروبية فيما بينها فحسب وإنما في جهود القوى الإسلامية والعربية للتخلص من نفوذ البرتغاليين واحتكارهم التجاري أيضا . وقد بدأ الأتراك العثمانيون الذين تصددوا لزعامة العالم الإسلامي منذ السنوات الأولى من القرن السادس عشر صراعهم ضد البرتغاليين على غرار ما فعله المماليك قبيل زوال دولتهم . ولكن الصراع العثماني البرتغالي لم يكن صراعا متكافئا من حيث موازين القوى البحرية والعسكرية^(١) ، ولا غرو في ذلك فقد أثبتت منطقة الخليج العربي بحكم طبيعتها البحرية وفي مختلف عصورها التاريخية على أن القوة البحرية هي القوة الوحيدة القادرة على السيطرة على ضفافها ومما يؤكد ذلك أنه على أثر انتهاء العصر الذهبي للملاحة والتجارة الإسلامية في الخليج العربي والمحيط الهندي تمكنت القوى الأوروبية ، التي تميزت بتفوقها في المجال البحري كالبرتغاليين والهولنديين والانجليز ، من السيطرة على مقدرات المنطقة ولم تجد مقاومة إلا من القوى البحرية التي ظهرت في منطقة الخليج العربي واستطاعت أن تنازعها البقاء فيها كما حدث في صراع اليعاربة ضد البرتغاليين أو محاولات القواسم وغيرهم من القوى المحلية الأخرى التصدي للقوة البحرية الانجليزية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي على نحو ما سوف

(١) صالح أوزبران : البرتغاليون والأتراك العثمانيون في الخليج العربي ص ٨ ترجمة الدكتور عبد الجبار ناجي - منشورات مركز دراسات الخليج العربي - جامعة البصرة ١٩٧٩ .

نتعرض له فيما بعد . على أنه يهمننا الإشارة في هذا المجال إلى أنه إذا كان التفوق البرتغالي أمراً لا مفر منه في محصلة الصراع العثماني البرتغالي في مياه الخليج نتيجة للأسباب التي أشرنا إليها فإنه يمكننا أن نضيف إلى جانب ذلك عوامل أخرى أدت إلى إحراز البرتغاليين لذلك التفوق . ولعل من أهم تلك العوامل الصراع المذهبي بين القوتين الإسلاميتين الكبيرتين ونعني بهما الدولتين الصفوية والعثمانية . ومما يسترعى الانتباه أكثر مما يبعث على الدهشة ما سوف نلاحظه في بعض مراحل ذلك الصراع من تحالف بعض شابات الدولة الصفوية مع البرتغاليين أو مهادنة العثمانيين للبرتغاليين ! ^(١) . أما على صعيد القوى الإسلامية الحامية فقد فشل الأتراك العثمانيون في تكوين تكتل إسلامي وربما يرجع السبب في ذلك إلى بعض الأساليب التعسفية الشاذة التي صدرت عن بعض القباطنة العثمانيين الأمر الذي أدى إلى شيوع أجواء من عدم الثقة بينهم وبين بعض الأمراء المحليين .

وعلى الرغم من أن الدولة الصفوية قد اعتمدت على مؤازرة الانجليز لها في التخلص من النفوذ البرتغالي كما ظهر ذلك واضحاً على عهد الشاه عباس الكبير الذي استطاع بفضل مؤازرة الإنجليز له أن يسقط قلعة البرتغاليين الحصينة في هرمز في عام ١٦٢٢ إلا أنه قد ترتب على تلك المؤازرة أن استبدلت فارس النفوذ البرتغالي بالنفوذ الانجليزي ^(٢) .

وعلى عكس فارس اعتمدت القوى العربية في الخليج العربي بزعامة اليعاربة في عمان في تحرير شواطئها من النفوذ البرتغالي على جهودها الذاتية وتمكنت تلك القوى بفضل اتحادها من أن تحقق انتصارات كبيرة ضد البرتغاليين في الخليج العربي ولم تكتف بذلك فحسب وإنما تتبعت البرتغاليين

(١) صالح أوزبران مرجع سبق ذكره ص ٣٣ .

Sykes, P. History of Persia Vol II P. 190. (٢)

في معاقلمهم الرئيسية في سواحل الهند وشرق أفريقيا . ولعل من الصفحات المشرقة في هذا الصراع ذلك التحدى الصلب الذى واجهته به القوى العربية البرتغاليين ، ونجاح البحارة في عمان في أن ينزعوا من البرتغاليين اعترافا بكسر الاحتكار التجارى والاعتراف بحرية الملاحة في الخليج العربى والمحيط الهندى لجميع الأجناس ، وبذلك كان عرب الخليج من أوائل الشعوب التى تنبعت إلى أهمية ذلك المبدأ الذى أصبحت تقره المواثيق والأنظمة الدولية في عصرنا الحاضر^(١). على أن ما يثير الانتباه حقيقة ذلك التفوق الكبير الذى أحرزته القوى العربية المحلية على أعنى الامبراطوريات البحرية في مطلع العصور الحديثة ، وهذا التفوق يحتاج إلى تشخيص العوامل التى مكنت لتلك القوى العربية التى مهما قيس بموازين القوى البحرية في عصرها فهى لاتعادل أن تكون قوى محلية صغيرة ولكنها استطاعت ، وهذا هو الجديد في الأمر ، أن تصل إلى مجال الصدارة البحرية بفضل نجاحها في استغلال الطاقات البحرية الكامنة في أبنائها ، كما استطاعت بفضل اتحادها مع غيرها من القوى المجاورة لها أن تزيج عن كاهلها المعاناة التى تعرضت لها من جراء تعسف السيطرة البرتغالية ، وساعدها على ذلك الظروف السياسية الحرجة التى كانت تمر بها الامبراطورية البرتغالية والتي أدت في نهاية الأمر إلى أفولها ثم انهيارها وترتبط تلك الظروف السياسية بالعوامل الخارجية ، وكذلك بالعوامل الذاتية التى أثرت على الامبراطورية البرتغالية . وتتمثل العوامل الخارجية التى أثرت على قوة البرتغاليين في الشرق في تلك المنافسات الاستعمارية الشديدة التى تعرضوا لها من قبل الهولنديين والانجليز ، أما العوامل الذاتية فتربط ارتباطا كبيرا بسوء السياسة التى انتهجها البرتغاليون في بحار الشرق وما اتسمت به من تعسف واحتكار وسوء معاملة الأهالى ، والأهم من ذلك عدم مقدرة البرتغال ، وهى دولة محدودة المساحة قليلة السكان ، في السيطرة على إمبراطورية ساحلية ضخمة امتدت عشرات الآلاف من الأميال من

Kassem G. Z. Omani—Portuguese Conflict in the 17th (١)
Century. CF. Bulletin of Arab Research and Studies Insti-
tute—Cairo 1980.

لشبهونه إلى كاليكوت ، هذا بالإضافة إلى فقدان البرتغال استقلالها السياسي
مختصوها للتاج الإسباني على عهد الملك فيليب الثاني واستمرارها تحت التبعية
الإسبانية قرابة ستين عاماً ١٥٨٠ - ١٦٤٠ (١) .

ويمكننا بشيء من التجاوز تحديد نهاية القرن السابع عشر أو السنوات
الأولى من القرن الثامن عشر باعتبارها تشكل المرحلة النهائية من مراحل
أفول الإمبراطورية البرتغالية في الشرق ، ولعل أهمية تلك المرحلة تكمن في
التطورات البالغة الأهمية التي وصلت إليها منطقة الخليج العربي والتي كان
من أبرز خصائصها انفساح المجال أمام القوى العربية كي تؤكد لنفسها السيادة
في الخليج العربي ، إذ أن أهم ما يسترعى انتباه الدارس لتاريخ الخليج العربي
في النصف الأول من القرن الثامن عشر عودة موجات المد العربي إلى استئناف
نشاطها من داخل الجزيرة العربية إلى سواحل الخليج وذلك بعد فترة انكماش
وركود استمرت أكثر من قرنين من الزمان ولم يقتصر الأمر في تلك الفترة
التي نتحدث عنها ، وهي الفترة التي أعقبت انهيار النفوذ البرتغالي في الخليج
على مجرد هجرات تقليدية ، وإنما اتخذت تلك الهجرات اتجاهاً جديداً يتناسب
وشعور عرب الخليج بقوتهم الفعلية وسيادتهم البحرية مما دفع بهم إلى
تكوين تشكيلات سياسية أخذت طريقها إلى النمو حتى اصطدمت بالاستعمار
البريطاني خلال القرن التاسع عشر . ولعل من أبرز التشكيلات السياسية
تلك التشكيلات التي نجمت عن هجرات العتوب من أواسط نجد إلى سواحل
الخليج العربي . ففي السنوات الأولى من القرن الثامن عشر استقرت في
الكويت تجمعات العتوب من آل صباح وآل خليفة والجلهمة ثم امتدت
هذه التجمعات أو فروع منها بعد ذلك إلى كل من قطر والبحرين ، أما في
منطقة الساحل الجنوبي للخليج العربي فقد ظهرت حول منتصف القرن الثامن
عشر قوة بحرية كبيرة بزعامة القواسم الذين برزوا إلى القوة في أعقاب
انهيار دولة اليعاربة في عمان واستفادوا من انهيار القوة البحرية الفارسية

Pearce, Zanzibar, The Island Metropolis of Eastern (١)
Africa P. 87.

وعن ازدهار وانهيار الإمبراطورية البرتغالية يمكن الرجوع إلى
Boxer, C.R. Four Centuries of Portuguese Expansion London 1961.

وانشغال فارس في صراعاتها الداخلية في السنوات التي أعقبت اغتيال نادر شاه في عام ١٧٤٧^(١) في تدعيم كياناتهم ، وقد اتخذ القواسم من رأس الخيمة مركزا لهم يديرون منه عملياتهم البحرية ضد أساطيل الدول الأوربية ولم تفتصر سيطرتهم على القسم الشمالى من الساحل الجنوبي للخليج العربى وإنما امتد نفوذهم إلى كثير من البنادر والجزر والموانئ الواقعة على الساحل الشرقى للخليج . ولما جانب قوة القواسم البحرية ظهرت في ذلك الوقت أيضا قوة برية تألفت من مجموعة من القبائل يزعمها بنى ياس اتخذت من واحة ليوا في منطقة الظفرة مركزا لها ثم لم تلبث أن امتدت إلى جزيرة أبو ظبي والمناطق المحاورة لها لتسهم في إبراز إحدى التشكيلات السياسية التي ظهرت في منطقة الخليج العربى في بداية النصف الثانى من القرن الثامن عشر^(٢) .

وحول هذه الفترة التي نتحدث عنها وهى الفترة التي أعقبت انهيار الامبراطورية البرتغالية في الشرق انتقلت السلطة السياسية في عمان من أسرة اليعاربة إلى أسرة البوسعيد ١٧٤١ واستطاعت الأسرة الجديدة ، التي لا تزال تحكم في سلطنة عمان حتى وقتنا الحاضر ، أن تصل إلى أقصى تفوقها وازدهارها في النصف الأول من القرن التاسع عشر حين كونت امبراطورية ضخمة امتدت على طول سواحل شرق إفريقيا من رأس جردفون شمالا حتى حليج دجلادو شمال موزمبيق جنوبا ، كما امتد نفوذها الاقتصادى في دواخل القارة الأفريقية حتى بلغ منطقة البحيرات الاستوائية وأعلى الكونغو^(٣) .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أنه عاصر ظهور تلك التشكيلات السياسية في الخليج العربى في القرن الثامن عشر فترة هامة من فترات التنافس الاستعماري

(١) جمال زكريا قاسم: الخليج العربى، دراسة اتاريخ الامارات العربية ١٨٤٠-١٩١٤ انظر تقديم الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم - القاهرة - جامعة عين شمس ١٩٦٧ .
(٢) راجع الدراستين الخاصتين بالقواسم وبنى ياس في مختارات حكومة بومباي .

Bombay Government, Selections from the Records of
Bombay Government Vol. XXIV—Bombay 1856 cf. Historical Sketch of the Joasmee P. 299 ff and Benihas Tribes of Arabs P. 461 ff.

(٣) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ص ٢٠٥ - ٢٠٦ مهند البحوث والدراسات العربية - القاهرة ١٩٧٥ .

بين إنجلترا وهولندا وفرنسا، والأمر الذى لا شك فيه أن انشغال تلك القوى الاستعمارية بشئون تلك المنافسات والمنازعات فيما بينها هو الذى أتاح المجال لتلك الوحدات السياسية التى أشرنا إليها أن تصل إلى تحقيق درجة من النمو والسيادة على شواطئها، ولكن ما كادت بريطانيا تتخلص من المنافسات الاستعمارية التى واجهتها حتى أخذت تنصدى لتلك التنظيمات، واستطاعت بفضل صداقتها لسلطان مسقط وتحييدها للسعوديين، أو تخلصها من نفوذهم على أثر سقوط عاصمتهم الدرعية على يد إبراهيم باشا فى عام ١٨١٨ أن تركز عملياتها البحرية ضد القواسم، الذين أظهروا مقاومة بأسلة أجبرت بريطانيا على إرسال العديد من الحملات البحرية إلى سواحلهم، وكان مما ساعد القواسم على النصدى للحملات البريطانية المتعاقبة الطبيعة الجغرافية التى يتميز بها الساحل الجنوبى للخليج، وصعوبة الملاحة فى مياهه بسبب وجود الألسنة الرملية والشعاب المرجانية والجزر المغمورة؛ فضلا عن وجود الأخوار والخلجان الضيقة التى استخدمها القواسم بمثابة ملاجئ طبيعية لسفنهم، ولعل ذلك هو الذى سيدفع بريطانيا بعد توقيعها لمعاهدة السلام العامة مع القبائل العربية فى الساحل الجنوبى للخليج العربى فى عام ١٨٢٠ إلى إجراء عمليات المسح البحرى التى أسهمت فيها البحرية الهندية بالدور الكبير.

ومما تجدر الإشارة إليه أن معاهدة السلام العامة هى التى وضعت أسس التجزئة فى منطقة الساحل الجنوبى للخليج إذ تبع توقيع تلك المعاهدة اخضاع الساحل للمراقبة البحرية البريطانية، كما تم لبريطانيا فرض سلسلة من اتفاقيات الهدنة البحرية التى وقعها شيوخ الساحل والتى على أثرها أصبح الساحل الجنوبى للخليج العربى يعرف بساحل الهدنة أو الساحل المتصالح أو الساحل المهادن Trucial Coast وذلك بعد أن كان يطلق عليه فى الخرائط والمصورات الجغرافية التى وضعت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بساحل القرصان (١) Pirate Coast.

Great Britain F.O. No. 67 the Persian Gulf P. 44 (١)
London 1920 see also Sanger, Richard, The Arabian Peninsula P. 172 Cornell University Press 1954.

وما يستلفت النظر ما صورته المؤرخون الأوروبيون عن تاريخ الخليج العربي منذ بداية القرن السادس عشر حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر بأنه كان قصة متصلة الفصول للصراع الأوربي متجاهلين الدور المهم والأساسي لسكان المنطقة فلم يخصصوا تاريخ الخليج الحديث بمجىء البرتغاليين إليه وفرض سيادتهم على المنطقة ثم مجىء الهولنديين والانجليز ونجاحهم في التخلص من البرتغاليين ثم انفراد الانجليز بالنفوذ في الخليج منذ أواخر القرن الثامن عشر على أن الواقع التاريخي لا يتفق مع هذا الوصف إذ أن تصفية الوجود البرتغالي في الخليج لم تتم على يد الانجليز والهولنديين بل تمت على يد فريق من عرب الخليج، وتصفية الوجود الهولندي لم تأت نتيجة التفوق الانجليزي بل أتت نتيجة لجهود فريق آخر من عرب الخليج^(١)، وقد يكون حقيقة أن الانجليز قد نجحوا في بسط نفوذهم وسيادتهم ولكن ذلك لم يتم إلا بعد معاناة شديدة استغرقت سنوات عديدة من القرن التاسع عشر. ولم تكن القوى المحلية هي القوى الوحيدة التي كان على بريطانيا أن تواجهها بل كان عليها أن تواجه إلى جانب ذلك القوى الإقليمية الممثلة في السعوديين وفارس، وكذلك القوات المصرية حين توغلت في دواخل الجزيرة العربية ووصلت إلى سواحلها الشرقية على عهد محمد علي باشا، وقد استطاعت بريطانيا التخلص من هذه القوى بانسحاب القوات المصرية من نجد وسواحل الخليج العربي خلال الأزمة المصرية التركية ١٨٤٠/١٨٤١، وتعهدت الدولة السعودية الثانية على عهد الامام فيصل بن تركي ١٨٤٢/١٨٦٥ بعدم التوسع على حساب الامارات العربية المرتبطة بمعاهدات خاصة مع بريطانيا، أما النزاع بين بريطانيا وفارس فقد اقتصر على المحادثات النظرية بشأن الادعاءات الفارسية على البحرين وغيرها من إمارات الخليج

(١) عبد الأمير أمين : مقاومة إمارات شرق الجزيرة العربية وقبائل الخليج العربي للتغلغل الاستعماري الأوربي ١٥٠٠ - ١٨٢٠ - من أعمال ندوة التجارب الوندوية العربية المعاصرة - تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة ص ٥٣ - ٥٤ - مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨١ .

واستطاعت بريطانيا في ظل تلك الأوضاع التي تحركت لصالحها أن تدغم نفوذها في الخليج العربي في إطار ما اسمنته بالسلام البريطاني Pax Britannica .

وقد حرصنا في تتبعنا لأحداث الخليج العربي خلال الفترة موضوع الدراسة على إبراز صراع القوى الخارجية وتأثيرها على الأوضاع المحلية بالإضافة إلى علاقات القوى المحلية بعضها ببعض الآخر وعلاقتها بالقوى المجاورة لها وذلك في ضوء السياسة البريطانية التي أصبحت منذ بداية القرن التاسع عشر هي المحور الذي تدور حوله أحداث الخليج العربي .

وعلى الرغم من اشتراك كثير من الدوائر البريطانية في سياسة وإدارة شئون الخليج العربي خلال فترة السيطرة البريطانية إلا أن الفترة الزمنية التي نعالجها في هذه الدراسة قد اقتصرنا على شركة الهند الشرقية البريطانية التي بدأت علاقتها بمنطقة الخليج منذ عام ١٦١٦^(١) ولما كانت هذه العلاقة لم تقتصر على النواحي التجارية وإنما تعدتها إلى المجالات السياسية فإن التساؤل الذي يثار هنا هو كيف أمكن لمؤسسة تجارية أن تبنى علاقة سياسية بالخليج العربي ؟ ولعل التطور الذي حدث في صلاحيات تلك الشركة هو الذي يعطى إجابة لذلك التساؤل إذ أن الشركة على الرغم من نشأتها كمؤسسة تجارية بحتة إلا أنها لم تلبث أن تطورت وأخذت تكتسب طابعاً سياسياً بعيد المدى وكان أبرز معالم ذلك التطور حين ظهر في بريطانيا اتجاه منافس ضد شركة الهند وتمكنت مجموعة من رجال الأعمال الإنجليز أن تصدر مرسوماً برلمانياً في عام ١٦٩٨ يقضى بتأسيس شركة لهم تحت اسم الجمعية العامة للتجارة مع الهند الشرقية ودخلت هذه المجموعة في صراع مع شركة الهند وهذا الصراع أدى مؤقتاً

(١) من أفضل المصادر التي وضعت عن شركة الهند الشرقية البريطانية تلك التي وضعها

جيمس بروس James Bruce بعنوان :

Annals of the Honourable East India Company London 1810.

(م ٢ - الخليج العربي)

إلى فقدان الإنجليز لمركزهم في الهند والخليج العربي على أنه في عام ١٧٠٨ اتحدت المؤسستان باسم اتحاد إنجلترا للتجارة مع الهند الشرقية ومنذ ذلك الوقت بدأت الشركة تكتسب طابعا قوميا حتى أنها حصلت من الملك على مرسوم بتعيين سفير لها لدى بلاط امبراطور المغول كما خول لرئيس مجلس إدارة الشركة صلاحيات قنصلية ومنح رتب مدنية وفي عام ١٧٨٤ أصدر البرلمان البريطاني قانونا تشكلت بمقتضاه هيئة إدارية للإشراف السياسى والعسكرى والمالى على الممتلكات البريطانية في الهند نيابة عن الحكومة البريطانية وبعد ذلك التاريخ انتقل التوجيه السياسى من الشركة إلى الحاكم العام في الهند وإلى مجلس الوزراء في لندن وكان ذلك تمهيدا لانتقال الادارة من الشركة إلى الدولة وهو الأمر الذى تحقق بعد ثورة الهند في عام ١٨٥٧ حيث تغير لقب الحاكم العام إلى نائب الملك في الهند Vice Roy

ويبدأ الدور التجارى في علاقة شركة الهند البريطانية بمنطقة الخليج حين تمكنت الشركة في عام ١٦١٦ أن تؤسس لها وكالة تجارية في ميناء جاسك على الساحل الشرقى للخليج وكان ذلك بفضل الصداقة التى ربطت بين الشركة وبين الشاه عباس الكبير ١٥٨٧ / ١٦٢٩ ومن المعروف أن التقارب الانجليزى الفارسى كان مرجها أساسا ضد البرتغاليين الذين كانوا يسيطرون على كثير من موانئ الخليج العربى وقد حصلت الشركة على ميناء جاسك على أثر فرمان الذى أصدره الشاه عباس في أكتوبر ١٦١٥ والذى كان ينص على أنه يجوز للشركة أن تقيم مستودعات في فارس وأن تعين وكلاء لها ومن ثم وقع اختيار البعثة الانجليزية التى أوفدت من قبل شركة الهند الشرقية البريطانية إلى البلاط الفارسى على ذلك الميناء الذى استمر يعمل في خدمة التجارة الانجليزية حتى عام ١٦٢٤ حين انتقل الانجليز منه إلى ميناء جمبرون (بندر عباس) وكان هذا المستودع الجديد جزءاً من عطاء الشاه عباس لشركة الهند حين ظاهرته على البرتغاليين في هرمز في عام ١٦٢٢^(١).

ومما يستلفت النظر أنه حتى منتصف القرن الثامن عشر لم توجه شركة الهند

Sykes, Sir Percy, A History of Persia Vol. II P. 190. (١)
London 1951.

الشرقية اهتماماً كافياً إلى منطقة الخليج العربي وذلك باستثناء بعض المعاملات التجارية وأعمال ذلك يرجع إلى أن جهودها كانت موجهة لإحراز مراكز لها في شبه القارة الهندية حتى تحقق لها ذلك بالفعل في معركة بلاسية عام ١٧٥٧^(١) وعموماً فقد مرت علاقة شركة الهند الشرقية البريطانية بالخليج العربي بعدة مراحل تميزت المراحل الأولى منها باتجاه الشركة إلى الانخراط مع فارس ثم إلى ممارسة التجارة دون دفع رسوم جمركية بل والمشاركة في الرسوم التي تأتي من التجار الآخرين نتيجة الامتيازات التي حصلت عليها الشركة من فارس أما المراحل الأخيرة فقد نجحت الشركة بفضل إنشائها وكالة بوشهر في عام ١٧٧٦ أن تدخل في النسيج السياسي للخليج ولعل ذلك مما يدفع بنا إلى القول إلى أنه إذا كانت جاسك هي بداية الشركة في الخليج، وجمبرون والبصرة من مراكز المراقبة على أبواب الهند فلن بوشهر غدت نواة النفوذ البريطاني الذي امتدت أطرافه إلى الخليج العربي^(٢).

لقد استمرت علاقة شركة الهند الشرقية البريطانية بالخليج حتى نهاية القرن الثامن عشر يغلب عليها الطابع التجاري أكثر من الطابع السياسي كما أن المراكز البريطانية التي تأسست في الخليج حتى ذلك الوقت كانت مراكز تجارية أكثر من كونها مراكز سياسية على الرغم من تجهيزها بقوات عسكرية لتمكينها من الصمود أمام المنافسات التجارية الأوروبية التي كانت تتعرض لها والتي كانت تأخذ شكلاً عسكرياً في كثير من الأحيان كما يلاحظ أيضاً أن اهتمام شركة الهند الشرقية لم تكن وجهته في تلك الفترة الساحل الغربي من الخليج بل كانت وجهته الساحل الشرقي حيث فارس كذلك كان يمتد نظر الشركة إلى العراق العثماني وذلك باستثناء بعض الفترات التي ظهر فيها اهتمام الشركة بالساحل العربي للخليج ولعل أهم تلك الفترات

(١) Grover, B.L. and R.R. Sethi, Studies in Modern Indian History Delhi 1963 P. 41.

(٢) عبد العزيز عبد الغنى : حكومة الهند البريطانية والادارة في الخليج العربي دراسة وثائقية ص ص ٩٢ — ٩٣ — الرياض ١٩٨١ .

فلك الفترة الواقعة بين عامي ١٧٧٦ و ١٧٧٩ حين تحول بريد الشركة الصحراوى إلى الكويت خلال احتلال الفرس لميناء البصرة أو حينما انتقلت الوكالة التجارية التابعة لشركة الهند الشرقية من البصرة إلى الكويت في عام ١٧٩٣ بسبب بعض الخلافات التي نشبت بين موظفي الوكالة والسلطات العثمانية في البصرة وإن كان ذلك لم يدم إلا لفترة قصيرة لم تلبث بعدها أن عادت الوكالة التجارية إلى مركزها السابق في البصرة^(١) ، على أنه منذ نهاية القرن الثامن عشر استجذبت بعض العوامل التي دفعت شركة الهند الشرقية البريطانية أن تتحول بعلاقاتها بالخليج من علاقات تجارية إلى علاقات سياسية واستراتيجية وحدث ذلك بعد أن تمكنت الشركة من أن تبسط سيطرتها على أقاليم واسعة في الهند وبدأ يتغير وضعها من مجرد مؤسسة تجارية إلى سلطة سياسية ، وبظهور الإمبراطورية البريطانية في الهند إلى الوجود أصبح من المحتم أن تكتسب منطقة الخليج العربي أهميتها السياسية والاستراتيجية بالنسبة لتلك الإمبراطورية بسبب قرب موقع المنطقة من خطوط المواصلات البريطانية إلى الهند . وتمثل السنوات العشر التي أعقبت حرب السنوات السبع فترة متميزة في تاريخ شركة الهند الشرقية البريطانية في الخليج العربي إذ أخذت الشركة تمارس نشاطا عسكريا وسياسيا لم تكن قد مارسه طيلة تاريخها الطويل ، وكان الوضع السياسي العام في أوروبا ووضع الشركة الخاص في الهند ملائمين لقيام الشركة بدور فعال في الخليج فقد انتهت حرب السنوات السبع وحقق صلح باريس الذي جاء في أعقابها مكاسب للإنجليز في أمريكا والشرق فقد طرد الفرنسيون من كندا وقضى على نفوذهم في الهند وأحكمت الشركة سيطرتها على البنغال أغنى الأقاليم الهندية على الإطلاق وصارت الشركة في وضع يمكنها من توجيه ممارسة

Brydges (Sir Harford Jones), An account of Transaction (١)
of His Majesty's mission to the court of Persia in
the years 1807—1811 to which is appended a brief
History of the wahabees Vol. II P. 13 London 1871.

أعظم لشئونها في الخليج ومن ثم تميزت الشركة بعد عام ١٧٦٣ بتكريس جزء كبير من جهودها الدبلوماسية والعسكرية في الخليج، وجاء القرن التاسع عشر بتطورات جديدة ومهمة بالنسبة إلى الخليج العربي فإن حروب الثورة الفرنسية و نابليون بونابرت وغزوه لمصر وتهديده خطوط المواصلات الإمبراطورية البريطانية في الشرق أظهر لبريطانيا بوضوح الأهمية الاستراتيجية للمنطقة ومن ثم أخذت تكرر جهودها العسكرية والسياسية لتعزيز نفوذها وبسط سيادتها عليها والأمر الذي لاشك فيه أن محاولة بونابرت اتخاذ مصر قاعدة للوثوب إلى الهند كان لها أثر كبير في الجهود التي بذلتها بريطانيا لتأمين مصالحها الاستراتيجية في السواحل الشرقية للجزيرة العربية والوقوف بصلافة في وجه أية محاولة تبذل في سبيل زعزعة المركز البريطاني في الهند ولذلك يمكننا أن نعتبر المعاهدة التي وقعت بين شركة الهند الشرقية البريطانية وسليمان بن أحمد سلطان مسقط في عام ١٧٩٨ أول ملامح تغير العلاقات البريطانية مع منطقة الخليج ونعني بذلك التحول من الناحية التجارية إلى الناحية السياسية^(١). وقد استمر الاهتمام البريطاني السياسي والعسكري يتزايد بمنطقة الخليج العربي بعد زوال التهديدات الفرنسية للانجليز وذلك بنجاحهم في إجلاء الحملة الفرنسية من مصر في عام ١٨٠١ ثم باسقاطهم للمستعمرة الفرنسية في جزيرة موريس في عام ١٨١٠ ولم يأت منتصف القرن التاسع عشر حتى كانت شركة الهند الشرقية البريطانية قد فرضت هيمنتها السياسية والعسكرية على الساحل الجنوبي للخليج بما في ذلك سلطنة مسقط وعمان ومشيخات الساحل العماني.

وما تجدر الإشارة إليه أن شركة الهند الشرقية البريطانية قسمت إدارتها في الهند إلى ثلاثة مراكز رئيسية هي بومباي ومدراس والبنغال واستمر هذا

Aitchison C.U. A collection of Treaties, Engagements (١)
and Sands relating to India and Neighbouring Count-
ries, Calcutta 1929 vol. XII pp. 207—208.

التقسيم الإداري قائماً حتى قيام ثورة الهند الكبرى عام ١٨٥٧ وكانت حكومة بومباي بحكم موقفها الجغرافي هي المختصة بالقسم الغربي من المحيط الهندي وبذلك كانت منطقة الخليج العربي والبحر الأحمر تدخل في مجال اختصاصها . وقد بذلت حكومة بومباي مجهودات كبيرة لإحكام سيطرتها على منطقة الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر^(١) ونتيجة للور الجديد الذي كان على حكومة بومباي أن تقوم به تغير لقب الممثل البريطاني التابع لها من المقيم البريطاني في بوشهر إلى المقيم البريطاني في الخليج كما تغيرت مسئولياته تبعاً لذلك من مسئوليات تجارية محدودة إلى مسئوليات سياسية وعسكرية وقد استمر المقيمون البريطانيون التابعون لحكومة بومباي بديرون شئون الخليج ويملكون الصلاحيات الواسعة للتصرف بما في ذلك عقد الاتفاقيات وإبرام المعاهدات والقيام بالأجراءات العسكرية والبحرية التي تحقق أمن الوجود البريطاني في المنطقة خلال الفترة من عام ١٨٢٠ إلى عام ١٨٥٧ وذلك باستثناء بعض الفترات الطارئة التي تحول فيها الخليج إلى اهتمام وزارة الخارجية البريطانية في لندن وخاصة خلال وقوع الأزمتهن الفارسية والمصرية وقد ظهر ذلك واضحاً في معارضة وزير الخارجية البريطانية اللورد بالمرستون Palmerston للتوسع المصري في الخليج العربي على عهد محمد علي في عام ١٨٣٨/١٨٤٠ .

وقد يكون من المفيد ختاماً لتلك الصورة أن نوضح هنا إلى أنه أعقب قيام ثورة الهند ، كما سبق أن أشرنا ، إعادة تنظيم الإدارة البريطانية حيث صدر من أجل ذلك مرسوم ملكي نص على حل شركة الهند الشرقية البريطانية وبذلك أصبحت شئون الهند والمناطق التابعة لها يتم تصريفها عن طريق

Bombay Government, Selections from the Records of (١)
the Bombay Government CF. Historical and other Information Connected with the Province of Oman, Muscat, Bahrein and other Places in the Arabian Gulf
Vol. XXIV Bombay 1856.

وزارة الهند كما اقتضى الأمر إيجاد منصب جديد هو منصب نائب الملك في الهند وقد استمر ذلك المنصب قائماً حتى استقلال الهند والباكستان في عام ١٩٤٧ حين انتقلت إدارة شئون الخليج إلى وزارة الخارجية البريطانية وتحولت وزارة الهند إلى وزارة العلاقات الخارجية لدول الكومنولث^(١).

وإلى جانب الزحف البريطاني على الخليج العربي كانت هناك مشكلة أخرى تمثلت في الادعاءات الفارسية التي ظهرت نتيجة عوامل اقتصادية تمثلت في وجود مغاصات اللؤلؤ في الماضي أو ظهور النفط في السنوات الأخيرة وكانت فارس تتمسك بتسمية الخليج بالفارسي وتؤكد بعض ادعاءاتها الإقليمية على أساس تلك التسمية وإن كانت الأسماء في اعتقادنا لا تشكل حقوقاً كما أنها لا تتمشى مع الواقع في كثير من الأحيان فمن الوجهة الجغرافية تبلغ طول السواحل العربية للخليج نحو ضعف سواحل الفارسية هذا فضلاً عن أن الساحل الشرقي الذي يخضع لسيطرة إيران في الوقت الحاضر كانت تقطنه ولا زالت قبائل عربية منها بنو كعب وبنو تميم^(٢) وأغلب سكانه من أصول عربية وإن كان معظمهم قد استعجم وفشت بينهم اللغة الفارسية وإلى عهد قريب كان يطلق اسم عربستان على أجزاء كبيرة من ذلك الساحل ومعناها أرض العرب ولعل ذلك كان اعترافاً ضمناً من فارس أو من اللغة الفارسية على الأقل بعروبة هذا الساحل^(٣). وليس من شك في أن استقرار القبائل العربية على الساحل الشرقي للخليج قد أكد صفته العربية من الجانبين. ولعل من المفيد أن نشير هنا إلى أن قبائل بني كعب قد دخلت عربستان في القرن السابع عشر الميلادي وهي تنتمي إلى قبيلة الأزد المعروفة في الجزيرة العربية وفي منطقة عربستان قويت سلطتها بسرعة، واستطاع شيخها العربي أن يحتفظ باستقلاله

(١) جمال زكريا قاسم : مختارات من وثائق الكويت والخليج العربي من ٥ — جامعة الكويت ١٩٧٢ .

(٢) السويدي (أبو الفوز البغدادي) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ص ٤٦ بغداد

١٢٨٠ هـ .

(٣) تشكل عربستان في الوقت الحاضر جزءاً من إقليم خوزستان وعاصمته الأهواز .

عن كل من فارس والدولة العثمانية ولذلك لم تكن العلاقات بين بني كعب وجيرانهم علاقات هادئة مما يفسر لنا كثرة التعدييات التي كانت تقوم بها سفنهم وقيام العديد من الحملات التأديبية التي اشترك فيها العثمانيون والفارس والإنجليز ضد شيوخ بني كعب . وفي عام ١٨٣٧ نجح العثمانيون في إخضاع إمارة الحمرة - وهي الإمارة التي أنشأتها تلك القبائل - وإن كانوا قد انسحبوا منها بعد احتلال قصير . ومما هو جدير بالذكر أن المنافسة العثمانية الفارسية ظلت قائمة على هذه الإمارة حتى تم توقيع معاهدة أرضروم الثانية بين الدولتين في عام ١٨٤٧ والتي نصت على اعتبار الحمرة جزءاً من الأراضي الفارسية^(١) وإن كانت فارس لم تمارس في واقع الأمر سيطرة فعلية على تلك الإمارة التي ظل يحكمها أمراء من العرب حتى انهيارها وانضمامها إلى إيران في عام ١٩٢٥ في أعقاب الحرب العالمية الأولى وصارت تعرف باسم خور مشهر وكان ذلك تمهيداً مع سياسة التفريس التي اتجه إليها الحكم القومي في إيران على عهد رضا شاه بهلوي^(٢) .

ومما يستلفت النظر أن سكان الساحل الغربي كانوا هم المتغلبون في الخليج وقد اهتموا بالملاحة والتجارة وقامت على هذا الساحل دول كبيرة تملك الأساطيل الضخمة كما هو الحال في سلطنة مسقط وعمان في القرنين السابع عشر والثامن عشر وحتى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وقد عبر كثير من العرب إلى السواحل الشرقية للخليج ولا تزال توجد حتى الآن أقليات كبيرة من العرب أو على الأقل من أصول عربية في هذه السواحل كما قدر لسلطنة مسقط أن تحكم أجزاء كثيرة من السواحل الشرقية للخليج في غضون القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وخضعت كثير من الجزر والموانئ الفارسية لإدارتها

(١) مصطفى عبد القادر النجار : التاريخ السياسي لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربي في شط العرب - دراسة وثائقية - منشورات جمعية الدفاع عن عروبة الخليج - البصرة ١٩٧٤ ص ٧٦ .

(٢) جمال زكريا داسم : الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠-١٩١٤ ص ٣ - جامعة عين شمس ١٩٦٧ .

العربية كما حدث بالنسبة لجزيرتي قشم وهرمز وميناء بندر عباس وغيرها (١).

ولعل ما أوردناه يوضح لنا أن الخليج العربي قد احتفظ بشخصيته العربية أما عن التصاق الصفة الفارسية بالخليج فقد كانت ناشئة عن التسمية الإغريقية القديمة إذ لم يتمكن الإغريق من التعرف إلا على السواحل الفارسية فقط. وحدث ذلك أثناء فتوحات الإسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد حين كلف هذا الفاتح المقدوني قائد أسطوله نيارخوس (٢) خلال حملته المشهورة على الهند بالذهاب إلى الخليج لسبر غور مياهه واكتشاف مصب الفرات (٣٢٦ ق. م) فر بالساحل الشرقي للخليج الذي تطل عليه فارس مما دعا الإغريق إلى إطلاق التسمية الفارسية وظلت تلك التسمية غير الدقيقة متداولة منذ هذا التاريخ حتى تدفق المد العربي إلى الخليج في ستينيات ذلك القرن ، هذا مع التسليم بأن كثيراً من المؤرخين القدامى أدركوا عدم دقة التسمية فالمؤرخ الروماني بلينيوس Pliny يشير في كتاباته لدى وصفه المدينة خاراكس Charax إلى التسمية الصحيحة للخليج حين يذكر أن المدينة تقع في أقصى طرف الخليج العربي حيث يبدأ الجزء الأعظم من العربية السعيدة كذلك درج كثير من الجغرافيين العرب على تسمية الخليج العربي بـخليج البصرة ومكمله خليج عمان كما أطلق بعض المصنفين العرب على الشاطئ الممتد من البصرة حتى عمان بخط عبد القيس كما جرت في بعض الأحيان تسميته بالبحرين (٣).

وعلى الرغم من أن كثيراً من الكتاب الفرس يؤكدون أن فارس استطاعت في فترات متقطعة من التاريخ وخاصة على عهد الميديين والساسانيين أن تبسط سيادتها على البصرة والبحرين وعمان وغيرها من المراكز الواقعة على الساحل الغربي للخليج فإنه من الملاحظ أن ذلك كان عملاً مؤقتاً لم يدم

Curzon, George N Persia & the Persian Question (١)
Vol. II p. 423 London 1892.

(٢) صادق نشأت (ميرد آماد) تاريخ الخليج السياسي (ترجمة وتحقيق) ص ٨-١١

(٣) يافوت الحموي — معجم البلدان ج ٣ ص ٤٤٩، فاروق عمر فوزي : الخليج

العربي في المصور الإسلامية ص ١١-١٢ دار القلم ، د١ ١٩٨٣ .

طويلا ولم ينجم عنه أى تغيير فى التركيب الاجتماعى فى السواحل العربية بعكس ما حدث للسواحل انقارسية من تغيرات أساسية عندما قدر للعرب أن يندفعوا تحت لواء الدين إلى ما وراء جبال البختيارى فى الأراضى الفارسية^(١).

والأمر الذى لاشك فيه أن شيوع اسم الخليج العربى فى الوقت الحاضر يجرى مطابقا للواقع إلى حد كبير خاصة إذا ما غلبنا طول سواحلها التى تطل عليها الهضبة الفارسية ولذلك لم يكن من العجيب أن تافت التسمية الفارسية للخليج نظر كثير من الرحالة الأوربيين من أمثال كارستن نيبور Niebuhr الذى جاب أطراف الجزيرة العربية فى عام ١٧٦٢ لكى يدون أخبار رحلته فى مؤلفاته الشهيرة عن الجزيرة العربية وترك لنا فى تلك المؤلفات وصفا شيقا للقبائل العربية فى الخليج وذكر لنا بشىء من التفصيل أسماء هذه القبائل وعلاقة بعضها ببعض الآخر وتميز من بين جميع الرحالة الذين زاروا الخليج خلال القرن الثامن عشر بدقة الملاحظة وكان أكثرهم إدراكا للدور المهم الذى يلعبه العرب فى الخليج^(٢)، وأكد خطأ الجغرافيين الأوربيين فى اعتبار سواحل الخليج تابعة للملوك الفرس حيث قرر أن هذه السواحل أبعد ما تكون عن ذلك إذ أن العرب يسيطرون على الشواطىء البحرية للامبراطورية الفارسية من مصب نهر الفرات إلى مصب الاندلس وأن المستوطنات العربية على الساحل الفارسى مستقلة تماما عن فارس ويستخدم أفرادها اللغة العربية ويمارسون نفس العادات والتقاليد التى يتميز بها بقية اخوانهم العرب سكان الجزيرة العربية^(٣). وفى السنوات المعاصرة دافع الكاتب جان جاك بيربى عن عروبة

(١) جان جاك بيربى : الخليج العربى (مترجم) ص ٢٦ بيروت ١٩٥٩ .

(٢) عبد الأمير أمين : القوى البحرية فى الخليج العربى فى القرن الثامن عشر ص ص

٧٦ - ٧٧ بغداد ١٩٦٦ .

(٣) Neibuhr (Carsten), Travels through Arahia and other countries in the East Vol. II P. 103.

الخليج وإن سمي كتابه بالخليج الفارسي مجازاً للتسمية التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، كذلك أشار الكاتب الإنجليزي رودريك أوين Owen إلى الفكرة التي كانت تراوده عن منطقة الخليج قبل زيارته لها في منتصف الخمسينيات واعترف بالخطأ الذي وقع فيه مؤكداً غرابة تسمية الخليج بالفارسي^(١) .

وعلى الرغم من أننا قد استرسلنا بعض الشيء في مناقشة تسمية الخليج العربية أو الفارسية فإن الأمر في قناعتنا لا يعتمد على المسميات إذ من المعروف بداهة أن الأسماء لا تؤلف حقوقاً إنما العبرة بواقع الخليج ومسمى وعى أبنائه بالحفاظ على هويتهم العربية .

وتتميز فترة الدراسة التي نعالجها في هذا الكتاب بثرائها في مصادرها ووثائقها المتنوعة التي لا غنى عنها للباحث ولكن الأمر الذي يثير الانتباه غلبة المصادر الأجنبية على المصادر العربية والمحلية وكان من نتيجة ذلك اعتماد الدراسات التاريخية التي صدرت عن الخليج العربي في عصوره الحديثة على تلك المصادر بل لقد وصل الأمر إلى الاعتماد على الوثائق الأجنبية بشكل مكثف بحيث أصبحت بعض دول الخليج تعتمد على هذه الوثائق في عرض أو إيجاد حلول لخلافاتها الإقليمية . ولعل السبب في كثرة المصادر والوثائق الأجنبية خضوع الخليج لمدة أربعة قرون لأنواع مختلفة من السيطرة الأجنبية البرتغالية والهولندية والفارسية والعثمانية والبريطانية مما أدى إلى تنوع تلك الوثائق وإن كانت المجموعة البريطانية هي بطبيعة الحال أوسع مجموعة من الوثائق والمصادر التي صدرت عن منطقة الخليج إذ أن الإنجليز أخذوا يولون اهتماماً زائداً بالمنطقة منذ تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية في بداية القرن السابع عشر^(٢) . ومن ثم حظيت المصادر والوثائق البريطانية بالنصيب الأوفى من عناية الباحثين ومن هذه المصادر تقارير الرحالة الأوروبيين الذين قاموا برحلات في بعض مناطق الخليج

Owen, Roderick. The Golden Buble — Arabian Gulf (١)
Documentary P. 13 London 1937.

Low, Charles R. History of the Indian Navy 1613— (٢)
1863 2 Vols. London 1847.

والجزيرة العربية ابتداء من كارستن نيبور ومرورا ببيكنجهام ولستند وبالجراف وغيرهم كثيرين هذا بالإضافة إلى بعض الدراسات الهامة التي صدرت في القرن الماضي ومن أبرزها دراسة شارل لو Low عن تاريخ البحرية الهندية ١٦١٣ - ١٨٦٣ وتقرير هارفورد جونز برديجز عن بعثة حكومة صاحب الجلالة البريطانية إلى البلاط الفارسي ١٨٠٧ / ١٨١١ وقد ذيل هذا التقرير بتأليف واف عن تاريخ الحركة الوهابية وقيام الدولة السعودية الأولى^(١). كذلك ينبغي الإشارة إلى دراسة صموئيل ميلز Miles الذي عمل وكيلا سياسيا وقنصلا عاما لبريطانيا في مسقط في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي وتقع هذه الدراسة في مجلدين ركز فيهما على أقطار وقبائل الخليج العربي. وقد عرف عن ميلز اهتماماته الواسعة بالتاريخ والتراث المحلي للمنطقة التي عمل فيها^(٢).

أما عن أبرز المصادر التي وضعت عن تاريخ الخليج العربي في أوائل القرن الحالي فهي دراسة جورج لوريمر Lorimer وتتكون من قسمين كبيرين تناول القسم الأول النواحي التاريخية أما القسم الثاني فقد تناول الأوضاع الجغرافية والقبلية والاجتماعية، ويعد القسم التاريخي من أوفى الدراسات وأشملها في تناول أحداث الخليج وأواسط الجزيرة العربية والعراق وفارس منذ أوائل القرن السادس عشر حتى السنوات الأولى من القرن العشرين. وتستمد هذه الدراسة صفتها الرسمية من أنها وضعت بتكليف من حكومة الهند البريطانية وقد طبع القسم الجغرافي في عام ١٩٠٨، والقسم التاريخي في عام ١٩١٥ بمدينة كلكتا ولم يطبع « دليل الخليج الفارسي » وهو الاسم الذي عنون به هذا المصدر^(٣) إلا بأعداد قليلة وزعت على الموظفين الرسميين في

Brydges, Harford Jones, An account of Transaction (١) of His Majesty's Mission to the court of Persia with a brief Notes of Wahabbees. London 1871.

Miles, Samuel, The countries and Tribes of the Persian Gulf 2 Vols. London 1919. (٢)

Lorimer. G.G. The Gazetteer of the Persian Gulf. (٣) Oman and Central Arabia 2 Vols. Calcutta 1915.

حكومة الهند واعتبر عند صدوره في حكم الوثائق السرية التي لا يجوز الاطلاع عليها أو تداولها إلا بعد انتهاء الفترة الزمنية التي كانت تفرضها الحكومة البريطانية على حظر تداول وثائقها ولذلك لم يسمح بتداول هذا المصدر بين الباحثين إلا بعد انتهاء هذه الفترة حيث وافقت وزارة الكومنولث على نشره ومن ثم صدرت طبعة حديثة لذلك المصدر الهام في عام ١٩٧٠ وقد يكون من دواعي الغبطة ما أقدم عليه المكتب الثقافي بديوان حاكم قطر من إخراج ترجمة عربية وأخرى معدلة للقسمين التاريخي والجغرافي من هذا الدليل .

وعلى الرغم من أن دليل الخليج ينسب تأليفه إلى جورج لوريمر وكان واحداً من المسؤولين السكبار في حكومة الهند البريطانية إلا أن هذه الموسوعة الضخمة لا يمكن أن تكون من إعداد فرد واحد ، والأمر الذي لاشك فيه أن فريقاً من الباحثين والسياسيين والعسكريين والجغرافيين عاونوا لوريمر في تجميع المعلومات اللازمة لوضع ذلك الدليل الذي يعزى فكرته إلى اللورد كيرزون Curzon نائب الملك في الهند ١٨٩٩ / ١٩٠٤ حين قرر في عام ١٩٠٣ وضع دليل شامل عن الخليج العربي يتناول النواحي التاريخية والجغرافية و القبلية والاجتماعية وغيرها ويحتل أن يكون كيرزون قد قرر ذلك خلال زيارته المشهورة لسواحل الخليج العربي وحط في خلالها في إمارة الشارقة في نوفمبر ١٩٠٣ حيث ألقى خطبته المشهورة على شيوخ الساحل العماني وكان لوريمر مرافقاً لكيرزون في تلك الزيارة التي في خلالها أبدى كيرزون رغبته في تجميع معلومات كافية يمكن أن يستعين بها المسؤولون البريطانيون في وقت اشتدت فيه أهمية الخليج السياسية والعسكرية وتعرضت بريطانيا لخطر التنافس من قبل الدولة العثمانية من ناحية والدول الأوروبية كفرنسا وروسيا وألمانيا من ناحية أخرى. وعلى الرغم من تقديرنا لأهمية ذلك الدليل إلا أنه ينبغي أن نقرر أن النزعة الاستعمارية كانت تغلب عليه شأنه في ذلك شأن غيره من المصادر الأجنبية الكثيرة التي وضعت عن الخليج العربي في القرن التاسع عشر .

أما عن الوثائق التي كان يتحتم علينا الرجوع إليها في إعداد تلك الدراسة فنبيرز من أهمها وثائق شركة الهند الشرقية البريطانية المتعلقة بالخليج العربي وبصفة خاصة سجلات الوكالات Factory Records والتي يرمز لها اختصاراً بـ F.R. والوكالة في ذلك الوقت كانت مقر ممثل شركة الهند الشرقية البريطانية ومستودعاً للبضائع المخزونة الخاصة بالشركة في هذا الموقع ثم أضيفت إليها مع تطور الأحداث بعض التحصينات ومساكن للموظفين الإنجليز وكان يطلق على كل هذا كلمة الوكالة. ومن المعروف أن شركة الهند البريطانية قد نشطت في فتح وكالات لها خارج الهند وخاصة في فارس ومنطقة الخليج العربي. ويحفل أرشيف الوكالات بالعديد من المراسلات الخاصة بتأسيس الشركة والمنافسات التي كانت تتعرض لها من قبل الشركات التجارية الأخرى وعلاقتها بمنطقة الخليج وغيرها من المناطق كما تشمل بالإضافة إلى ذلك على تقرير الوكلاء الإنجليز في المراكز التجارية التي أقامتها الشركة في كل من البصرة وبندر عباس وبوشهر وجاسك وغيرها من الموانئ العربية أو الفارسية كما توجد بها تقارير على درجة كبيرة من الأهمية عن التجارة البريطانية مع فارس والجزيرة العربية إلى جانب الإشارة إلى الأحداث السياسية التي كانت تؤثر على حركة التجارة كاحتلال الفرس للبصرة ١٧٧٦ / ١٧٧٩ أو النشاط الوهابي في سواحل الخليج العربي والعراق في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر^(١).

وقد تصعب قراءة هذه الوثائق بسبب طريقة الكتابة في القرنين السابع عشر والثامن عشر ونعني بذلك اختلاف أشكال الحروف اللاتينية عن الحروف الحالية المستخدمة في الكتابة إلى جانب نسخها باليد كما أنها غير مصنفة في جملتها بمعنى أنها لم ترتب حسب الموضوعات ولكنها جمعت على أساس تتابع السنوات وطبقاً لأوراق ومجلدات الإدارات المختلفة وتقارير المجالس السياسية والسرية وإدارات شركة الهند ومجلس الرقابة مما يتطلب من

(١) جمال زكريا قاسم : مختارات من وثائق الكويت والخليج العربي، مطبوعات جامعة الكويت رقم ٨ - الكويت ١٩٧٢.

الباحث جهداً للتعرف على ما يريده من معلومات في هذه المجموعات الضخمة من المجلدات ذات الموضوعات المتناثرة على تتابع السنين وكل هذه الأمور لا شك في أنها تشكل صعوبات أمام الباحث ومع ذلك فإنه لا مناص من الرجوع إليها لما تشكله من أهمية بالغة بالنسبة للأوضاع التجارية من ناحية ولما يتخللها من بعض الأحداث التاريخية من ناحية أخرى . وقد ركزنا بصفة خاصة على الوثائق الخاصة بوكالات البصرة وجمبرون (بندر عباس) وبوشهر والكويت وعلى المراسلات التي كان يبعث بها موظفو الوكالات المعينون في بعض موانئ الخليج إلى المركز الرئيسي للشركة .

كذلك كان لا بد لنا من الرجوع إلى التقارير والمراسلات الخاصة بشئون الخليج ومعظم تلك التقارير كان يضعها الوكلاء الوطنيون Native Agents التابعون للمقيم البريطاني في الخليج وكان مقرهم الرئيسي في إمارة الشارقة وذلك منذ عام ١٨٢٣ حين بدأت بريطانيا تستعين بأولئك الوكلاء في أعقاب عقد معاهدة السلام العامة في عام ١٨٢٠ . ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الوكلاء الوطنيين لم يكونوا وطنيين بمعنى الكلمة إذ كان معظمهم من الفرس أو الهنود الذين استوطنوا إمارات الساحل العمانى وقد حفلت تقاريرهم ومراسلاتهم بتوضيحات مسهبة لأوضاع مشيخات الساحل وعلاقة بعضها ببعض الآخر من ناحية وعلاقتها بالانجليز من ناحية أخرى إلى جانب تفصيلات كثيرة عن أوضاع تلك المشيخات الداخلية وكذلك معلومات عن الامارات العربية الأخرى كالكويت وقطر والبحرين وعلاقتها بالقوى المجاورة لها . ويمكن أن نضيف إلى هذه التقارير المكاتبات السياسية والقنصلية والإدارية التي كان يضعها الوكلاء والقناصل البريطانيون في مسقط وكان هؤلاء يحتلون المرتبة الثانية من حيث الأهمية في الخليج بعد المقيم البريطاني كما كانوا يحكم الوضع القانوني لسلطنة مسقط وعمان يتبعون حكومتى الهند ولندن معاً باعتبارهم قناصل من قبل الحكومة البريطانية ووكلاء معتمدين من قبل حكومة الهند .

وإلى جانب تلك الوثائق الهامة حفلت المكتبة السياسية والسرية لوزارة الهند بمصادر ومجموعات وثائقية على جانب كبير من الأهمية نخص منها مجموعة سالدانها Saldanha التي تشتمل على أوراق الدولة الخاصة بحكومة بمباي وعلاقتها بالخليج العربي في الفترة من القرنين السابع عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر كما تشمل مجموعة سالدانها بالإضافة إلى ذلك على عدة مختصرات تاريخية شاملة عن بعض إمارات الخليج كمسقط وقطر والبحرين ومشيخات الساحل العماني^(١). وتحتوي هذه المختصرات على التقارير والمراسلات التي كان يبعث بها موظفو الوكالات البريطانية في فارس والعراق وبعض القواعد الأخرى في الخليج إلى رئاسة الشركة البريطانية وهي تتنوع من كونها تقارير ورسائل تجارية إلى وصف للأحداث التاريخية التي كانت تجري في هذه المناطق في السنوات الخاصة بكتابة تلك التقارير أو الرسائل إلى جانب وصف الظروف التي كان يعيش فيها موظفو الوكالات في المناطق المقامة فيها ، كما احتوت مختارات سالدانها على الكثير من مراسلات وكلاء الشركة إلى السلطات العثمانية والفارسية والتي كان يستهدف منها توثيق العلاقات الاقتصادية أو الحصول على امتيازات للتجارة البريطانية إذ كانت شركة الهند الشرقية البريطانية حريصة إزاء المنافسة التي تواجهها على الحصول على امتيازات تعطي الأولوية لتجارها في الدول الشرقية التي كانت تتعامل معها خاصة فارس والدولة العثمانية ولدينا بصدد ذلك تقرير المستر جون مالكولم Malcolm مبعوث شركة الهند الشرقية البريطانية إلى البلاط الفارسي في عام ١٨٠٠ ، كذلك العديد من تقارير موظفي الوكالات البريطانية في كل من البصرة وبوشهر وبندر عباس . وليس من شك في أن هذه المختارات المشار إليها أفادت إلى حد كبير في تخفيف بعض الصعوبات التي يواجهها الباحث بالنسبة للسجلات الرئيسية لشركة الهند الشرقية البريطانية وإن كانت بحكم كونها مختصرات لا تحل المشكلة تماماً .

(١) East India Connexion with the Persian Gulf (1600—1800), Selection from Bombay State Papers, CF, precis of correspondence regarding Trucial States (1839—1905)

وإلى جانب الوثائق غير المنشورة هناك الكثير من الوثائق المنشورة التي تبرز من بينها مجموعة أيتشيسون Aitchison عن المعاهدات والاتفاقيات والسندات البريطانية المرتبطة بالهند والأقطار المجاورة لها ^(١) وكان. أيتشيسون قد كلف من قبل حكومة الهند بإعداد هذه المجموعة التي صدرت طبعها الأولى في عام ١٨٧٦ في اثني عشر مجلدا ركزت المجلدات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة منها على منطقة الخليج وما يجاورها. وقد سبقت مجموعة أيتشيسون مجموعة وثائقية أخرى ربما كانت هي المصدر الرئيسى لمجموعة أيتشيسون وهي المجموعة التي نشرها هيوتوماس عن معاهدات شركة الهند الشرقية البريطانية مع الأمراء الوطنيين في غرب الهند والبحر الأحمر والخليج العربي ^(٢). وقد كلف هيوتوماس بإعداد هذه المجموعة من قبل حكومة بومباي التي كانت تشرف على هذه المناطق بحكم مجاورتها لها وقد نشرت هذه المجموعة في عام ١٨٥١ وهي فيما نعلم تعد من أقدم المجموعات الوثائقية المنشورة عن المعاهدات بين شركة الهند الشرقية البريطانية ومنطقة الخليج العربي، وهي تركز بطبيعة الحال على المعاهدات المبرمة مع سلطنة مسقط ومشيخات الساحل العماني إذ أن النفوذ البريطاني لم يكن قد وصل في الفترة التي أعدت فيها هذه المجموعة إلى أبعد من الساحل الجنوبي للخليج باستثناء اشتراك البحرين في المعاهدة العامة التي أبرمت مع شيوخ الساحل العماني في عام ١٨٢٠.

وإلى جانب مجموعة هيوتوماس نشرت حكومة بومباي مختارات من سجلاتها تناولت النواحي التاريخية وغيرها من المعلومات الأخرى الخاصة

(١) Aitchison, C.U. A collection of Treaties, Engagements (١) and Sands relating to India and Neighbouring Countries Vols 10—12 Calcutta 1929.

(٢) Hughes (Thomas). Treaties, Engagements, and Agreements between the Honourable East India Company and the Native Princes, chiefs and States in Western India, the Red Sea, the Persian Gulf etc. Bombay 1851.

بمسقط وعمان والبحرين والكويت وغيرها من إمارات الخليج الأخرى كما حفلت بمجموعة أخرى من التقارير السياسية والقنصلية الهامة التي تضمنت دراسات عن الأوضاع السياسية والتكوينات القبلية لإمارات الخليج العربي إلى جانب دراسات خاصة عن تطورها السياسي وعلاقتها بحكومة بومباي منذ السنوات الأولى من القرن الثامن عشر أى منذ ظهور معظم تلك الوحدات السياسية حتى تاريخ الانتهاء من وضع تلك المختارات في منتصف القرن التاسع عشر^(١). وقد شارك في وضع وثائق حكومة بومباي المقيمون البريطانيون ومساعدوهم الذين تعاقبوا على المقيمة البريطانية في الخليج حتى تاريخ وضع تلك المجموعة كذلك شارك في وضع بعض هذه التقارير ضباط البحرية الهندية الذين قاموا بزيارات استطلاعية في المنطقة كما حفلت هذه المختارات أيضاً بالمعاهدات والاتفاقيات التي أبرمها المقيمون البريطانيون مع مسقط ومشيخات الساحل الجنوبي للخليج العربي إذ كان للمقيمين البريطانيين في الخليج في الفترة التي تضمنتها تلك المختارات صلاحيات وسلطات واسعة حيث كان مغولا لهم حق إبرام المعاهدات والتصرف في شئون المنطقة وكانت حكومة بومباي أو حكومة الهند فيما بعد تكتفى بالمصادقة على ما يبرم من معاهدات ولم يحدث لحكومة الهند أن اعترضت على المعاهدات التي يبرمها المقيمون البريطانيون إلا فيما حدث بالنسبة لمعاهدة شيراز الخاصة بالبحرين والتي أبرمها الكولونيل روس Ross المقيم البريطاني في الخليج مع أمير مقاطعة فارس في عام ١٨٢٠ وذلك لتجاوزه في الصلاحيات المخولة له من قبل حكومة الهند فضلاً عن أن عقد هذه المعاهدة لم يكن يتماشى مع السياسة التي اختطتها الحكومة البريطانية بالنسبة للخليج العربي.

وتشتمل مختارات حكومة بومباي على معلومات تاريخية على جانب كبير من الأهمية عن مسقط وإمامة عمان منذ ظهورها كوحدة سياسية على

(١) Historical Sketch of the Rise and Progress of the Government of Muscat (1614—1844).

عهد اليعاربة في السنوات الأولى من القرن السابع عشر، كما تتناول مختارات حكومة بومباي التشكيلات السياسية والتنظيمات القبلية في الخليج التي برزت في السنوات الأولى من القرن الثامن عشر فهناك تقرير عن القرن وهو التسمية القديمة للكويت وضعه جون فيليكس Felix من ضباط البحرية البريطانية في الهند^(١) وهناك تقرير آخر عن مشيخات الساحل المهادن بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الوثائق المتعلقة بشركة الهند الشرقية البريطانية وعلاقتها بقبائل الساحل العماني خلال الفترة من ١٨٠٦ إلى ١٨٥٣ وهي الفترة التي أبرمت في خلالها الكثير من المعاهدات والاتفاقيات التي بدأت باتفاقية عام ١٨٠٦ ثم تابعت حتى تم توقيع اتفاقية الصلح البحري الدائم في عام ١٨٥٣، وإلى جانب ذلك حفلت مختارات بومباي ببعض الدراسات الهامة الخاصة بالقواسم وبنى ياس وبوفلاسة^(٢) إلى جانب دراسات أخرى عن اتحاد قبائل العتوب الذي تشكل من آل خليفة وآل صباح والجلاهمة وقد ظهر ذلك الاتحاد في عام ١٧١٦ ثم تعرض إلى الانهيار بعد انفصال آل خليفة ثم الجلاهمة^(٣). كذلك أفرجت مختارات حكومة بومباي دراسة موجزة عن الحركة الوهابية وانتشارها بين قبائل ومشيخات الساحل الجنوبي للخليج^(٤) كما ركزت بصفة خاصة على العلاقات التي كانت قائمة بين حكومة الهند والقبائل العربية خاصة قبيلة القواسم حيث تتبع وصولهم إلى القوة في عام ١٧٤٧ حتى انهيار نفوذهم البحري في عام ١٨٥٣^(٥).

Extracts from a Report on the Harbour of Grane (١)
(Koweit) by J. Felix, Indian Navy.

Historical Sketch. of Joasmee, Beniyas, Boo Felasa (٢)
Tribes of Arabs.

Historical Sketch of the Utoabee tribe of Arabs (٣)
(1795-1853), Bombay Govt. op cit. Vol. XXIV pp. 437-460.

Ibid, pp. 427-460 (٤).

Historical Sketch of the Joasmee Tribe of Arabs (٥).
1747-1853, Vol XXIV pp. 299-359.

وتعتبر وثائق حكومة بومباي ذات فائدة محققة لمن يحاول تتبع أسس السياسة البريطانية في منطقة الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ولما كانت بريطانيا قد نجحت في التوغل في منطقة الخليج العربي خلال هذه الفترة تحت حجة قمع القرصنة وتجارة الرقيق فإننا نجد الكثير من الصفحات التي خصصتها تلك المختارات عن الدور الذي قامت به بريطانيا لقمع القوى البحرية في المنطقة ^(١).

وإلى جانب المصادر والوثائق البريطانية التي تشكل الغالبية العظمى من المادة التاريخية التي أمكننا الرجوع إليها تجدر الإشارة إلى وثائق وزارة الخارجية الفرنسية Archives des Affaires Etrangères ووثائق وزارة المستعمرات الفرنسية Archives des colonies وبصفة خاصة الوثائق المتعلقة بمستعمرة موريس الفرنسية التي كانت تعرف باسم جزيرة فرنسا Isle de France حيث تتناول العلاقات التي كانت تربط هذه المستعمرة الفرنسية بسلطنة مسقط وعمان منذ سيطرة فرنسا على هذه المستعمرة في عام ١٧١٥ حتى سقوطها في أيدي الإنجليز في عام ١٨١٠. ومن المفيد الإشارة أيضا إلى المجموعة الدراسية والوثائق الهامة التي نشرها القبطان شارل جيان Guillaïn عن شرق إفريقيا ولما كان الشرق الإفريقي قد شكل في جانب كبير من تلك الفترة التي نتعرض لها بالدراسة القسم الآخر من سلطنة مسقط لذلك حفلت مجموعة جيان بالكثير من الأحداث والوثائق المتعلقة بسلطنة مسقط وعمان وعلاقتها بالقوى الأجنبية والقوى الإقليمية المجاورة لها في الخليج العربي وشرق إفريقيا ^(٢).

(١) Slave Trade. paper relative to. the measures adopted by the British Govt. between the years 1820-1844 pp. 635-687.

(٢) Guillaïn, Charles : Documents sur l'Histoire, la Geographie et le Commerce de l'Afrique Orientale 3 Tomes, Paris Paris 1856.

وبصفة عامة تأتى المصادر الفرنسية فى مرتبة تالية بعد المصادر البريطانية لأنها تقتصر على بعض القترات التى كانت لفرنسا فيها اهتمامات خاصة بالمنطقة وعلى وجه التحديد خلال الصراع الإنجليزى الفرنسى فى مسقط فى القرن الثامن عشر والذى تصاعد خلال عهد الحملة الفرنسية على مصر والسياسة النابليونية فى الشرق ، وأخيراً أثناء احتدام التنافس الاستعمارى بينها وبين إنجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين . أما الوثائق الأمريكية فهى تقتصر خلال فترة دراستنا على العلاقات الاقتصادية بين الولايات المتحدة الأمريكية وسلطنة مسقط وزنجبار حيث أبرمت الولايات المتحدة الأمريكية معاهدة تجارية مع مسقط فى عام ١٨٣٣ واقتصر نشاطها الاقتصادى فى مقاطعات الشرق الأفريقى التى كانت تابعة لسلطنة مسقط حتى انفصالها عنها فى عام ١٨٦٢ .

ولابد أن نشير فى هذا المجال إلى أهمية الأرشيف الفارسى فى دراسة علاقة فارس بمنطقة الخليج العربى ومن المؤكد أن دراسة الوثائق الفارسية يمكن أن تأتى بعمق أكبر فى دراسة تاريخ المنطقة وعلى الرغم من أنه لم يقدر لنا الرجوع إلى الوثائق الفارسية إلا أنه أمكننا الرجوع إلى مجموعة من المراجع الفارسية أو المعربة عن الفارسية ومنها الدراسة التى وضعها عباس إقبال وعنوانها « مطالعات در باب بحرين وسواحل وجزاير خليج فارس » ودراسة صادق نشأت ميرأمد عن تاريخ الخليج السياسى وعلى رضا ميرزا « أسانيد الخليج الفارسى » إلى جانب بعض الدراسات الأكاديمية التى وضعها باحثون إيرانيون ونشرت باللغة الانجليزية وتبرز من بينها دراسة فريدون اميات ودراسة عباس فاروق وتركز هاتان الدراستان على تاريخ البحرين والمباحثات الانجليزية الفارسية بشأن وضعية تلك الجزر^(١). وكان لابد لنا من مناقشة الدراسات الفارسية عن الخليج بوجهة

(١) Farroughy, Abbas, Bahrein Islands New York 1951
 Adamyiat, F Bahrein Islands, A legal and diplomatic study
 of the British Iranian controvsey New York 1965.

نظر موضوعية وخاصة أن معظم تلك الدراسات اتخذت جانب المطالبة بالسيادة الفارسية على كثير من جزر وإمارات الخليج العربي لاسيما البحرين بل إن بعض هذه الدراسات وضعت بتكليف من وزارة الخارجية الإيرانية لتدعيم وجهة نظر سياسية معينة بالنسبة للدعوات الإيرانية على الخليج العربي التي تصاعدت خلال الستينيات من ذلك القرن .

أما عن الوثائق والمصادر التركية والتي يوجد أغلبها في قصر يلدز باستانبول فربما تكمن صعوبة الرجوع إليها رغم ثرائها بالمادة التاريخية إلى مشكلة عدم تنظيمها بالإضافة إلى ما تحتاجه دراسة الوثائق التركية من دراية كافية باللغة التركية القديمة وبأسلوب الكتابة الذي كان شائعاً في الفترة العثمانية (خط القرمة) وقد يكون من دواعي الغبطة ما توليه الدوائر العلمية العالمية في الوقت الحاضر من اهتمام بالفترة العثمانية والعمل على التعرف على وثائقها ومن المفيد أن نشير بصدد ذلك إلى اللجنة العالمية للدراسات العهد العثماني والفترة السابقة له والتي يرأسها البروفيسر روبرت مونتران وكذلك اللجنة العربية للدراسات العثمانية التي أعلن عن قيامها في تونس عام ١٩٨٢ وكان لنا حظ المشاركة في تأسيسها . وفي محاولة التعرف على السياسية العثمانية في منطقة الخليج العربي في بعض فترات هذه الدراسة كان اعتمادنا على أرشيف البصرة المحفوظ في السجلات البريطانية العامة في لندن كذلك اعتمادنا على بعض الدراسات التي ارتكزت على الوثائق العثمانية ومن بينها الدراسة القيمة التي وضعها صالح أوزبران بعنوان « البرتغاليون والأتراك العثمانيون في الخليج العربي »^(١) .

وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أن الوثائق البرتغالية تحفل بمادة تاريخية كبيرة خاصة وأن البرتغاليين كان لهم سبق الاتصال بمنطقة الخليج العربي وسواحل الجزيرة العربية منذ السنوات الأولى من القرن السادس

(١) صالح أوزبران : البرتغاليون والأتراك العثمانيون في الخليج العربي - البصرة

عشر الميلادى واستمرت علاقتهم بمنطقة الخليج ما يقرب من قرنين من الزمان وإذا كانت مشكلة اللغة قد حالت دون دراستنا لتلك الوثائق إلا أننا قد حاولنا سد هذه الثغرة بالرجوع إلى طائفة من المصادر البرتغالية التي ترجمت إلى اللغة الانجليزية والتي نخص من بينها مذكرات أفونسودى البوكيرك^(١) ورحله تكسيريا^(٢) Teixiera ودورات باربوسا^(٣) Barbosa ودراسة فارياسوسا عن آسيا البرتغالية^(٤) . ومع ذلك فإنه توجد كميات ضخمة من الوثائق المتعلقة بالخليج العربى فى توريه دى تومبو Torre Do Tombo وهو المبنى الرئيسى للأرشيف البرتغالى فى لشبونة وتشتمل على المنشورات الملكية المتعلقة بالمستعمرات البرتغالية ومملكة هرمز بصفة خاصة بالإضافة إلى رسائل نائب الملك فى الهند والأهم من ذلك مجموعة الوثائق الموسمية Livros das Monsoes المتعلقة بالمحيط الهندى وتحتوى على مراسلات بين التاج البرتغالى ونائب الملك فى جوا وتوجد مخطوطات من هذه الكتب الموسمية فى جوا والأرشيف الوطنى بلشبونة^(٥) . كذلك يوجد فى الأرشيف البرتغالى مجموعة من الوثائق التى كتبت بلغات شرقية وجمعت تحت عنوان « الوثائق العربية » وتناولت كل ما يتصل بأفريقيا والمحيط الهندى^(٦) وقد نشر العالم الفرنسى جان

The Commentaries of Great Alfonso delboquerque (١)
Translated by Gravy Birch, London 1881, Hakluyt society

Travels of Pedro Teixeira with his kings of Hormuz, (٢)
London 1902.

The Book of Durate Barbosa, (٣)

Fariya Sousa, Asia Porrugnesa. (٤)

Boxer, C.R. Some Aspects of the Struggle between (٥)
the Omanis and the Portuguese AD. 1650-1730.

ولتعرّف على الأرشيف البرتغالى بجوا راجع دراسة بوكسر بعنوان

Glimpse of the Goa Archives-Bulletin of SOAS Vol.
XIV pp. 299-324 London 1952.

CF. Arabie Documents in the Torro Do Tombo Na- (٦)
tionaal Archives by Dr. Antonio Dias Farinha pp. 63-67.

أوبين Aubin بعض هذه الوثائق الفارسية والعربية في كتاب بعنوان بحار الهند البرتغالية . ولا يزال الأرشيف البرتغالي منعجا كبيرا لمنطقة الخليج العربي يشابهه في ذلك الأرشيف الهولندي حيث ظهر النشاط الهولندي واضحا في الخليج في منتصف القرن الثامن عشر. وقد أمكن الرجوع إلى مختصرات لبعض الوثائق الهولندية المترجمة عن الانجليزية والمتعلقة بشركة الهند الشرقية الهولندية ووكالاتها التجارية في جمبرون ومستعمراتها في جزيرة خرج وتتناول بعض المراسلات المتبادلة بين القناصل الهولنديين وبين الحكومة العليا في باتافيا .

أما الوثائق المصرية المعروفة بوثائق عابدين والمحافظة حاليا بدار الوثائق القومية بالقاهرة فتتناول موضوعات كثيرة متعلقة بالتوسع المصري في الخليج والجزيرة العربية على عهد محمد علي ويمكن الرجوع إليها في محافظ الحجاز وبحربرا وهي تشكل مادة تاريخية لاغنى عنها لكل من يتصدى لعلاقة مصر بمنطقة الخليج العربي على عهد محمد علي .

وتمدنا المصادر المحلية بمادة أولية هامة عن إمارات الخليج العربي ولعل من أبرز تلك المصادر المخطوطات المتعددة التي وضعها المؤرخ العماني حميد بن رزيق والتي تناول فيها تاريخ الأئمة والسادة البوسعيديين حتى عهد سعيد بن سلطان ١٨٠٦/١٨٥٦ والجدير بالذكر أن بعض هذه المخطوطات ترجمت إلى اللغة الانجليزية ونشرها جورج برسي بادجر وهو أحد الباحثين الثقات في تاريخ عمان بعد أن أضاف إليها مقدمة تاريخية تحليلية امتد بها إلى عام ١٨٧١ (١) . كذلك تجدر الإشارة إلى مخطوطة عمانية ظلت مجهولة المؤلف حتى عثر على نسخة منها في الدمام تحمل اسم سرحان بن سعيد الأزكوى ، واشتهرت هذه المخطوطة التي تتناول تاريخ عمان منذ أقدم العصور حتى عام ١٧٢٨ بسبب ترجمتها إلى اللغة الانجليزية وقام بهذه الترجمة المستر روس E.C. Ross

وكان معتمدا بريطانيا في مسقط وقد نشرت هذه الترجمة في مجلة الجمعية لآسيوية في البنغال في عام ١٨٧٤ تحت عنوان حوليات عمان^(١) . كذلك تجدر الإشارة إلى مخطوطة المعولى بعنوان قصص وأخبار جرت في عمان . ومن المهم أن ننوه بالدور الهام الذى تقوم به وزارة الثقافة والتراث القومى بسلطنة عمان فى الاهتمام بنجميع المخطوطات المتعلقة بتاريخ عمان بصفة خاصة وتاريخ الخليج العربى بصفة عامة وكان من نتيجة ذلك أن وجدت كثير من المخطوطات الهامة طريقها إلى النشر والتحقيق بعد أن كانت حبيسة المكتبات الأجنبية أو فى حوزة بعض الأفراد والأسر^(٢) . ولا شك أن دراسة المصادر المحلية هى من الأمور الهامة التى ينبغى أن يركز عليها الباحثون فى تناولهم لتاريخ الخليج العربى حتى يمكن الخروج عن طوق الخضوع المطلق للمصادر والوثائق الأجنبية .

وقد حرصنا فى وضعنا لتلك الدراسة أن نتتبع أربعة محاور رئيسية تناولنا فى المحور الأول الغزو البرتغالى لمنطقة الخليج العربى والمنافسات التى تعرضت لها البرتغال من قبل القوى الأوروبية المنافسة ثم أبرزنا إلى جانب ذلك الدور الذى قامت به القوى العربية المحلية فى التخلص من السيطرة البرتغالية .

أما المحور الثانى فقد ركزنا فيه على ظهور ونمو التشكيلات القبلية التى أخذت جانبا من التنظيم السياسى فى أعقاب انهيار السيطرة البرتغالية من سواحل الخليج العربى وبصفة خاصة تحالف القواسم وبنى ياس فى الساحل

(١) Ross. E.C. of Oman by Sirhan Bin Said from old days until 1728.

(٢) انظر على سبيل المثال الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين تأليف حميد بن محمد بن رزىق ١٢٧٤ هـ وكذلك بدر التمام فى سيرة السيد الهمام سعيد بن سلطان تأليف ابن رزىق وتحقيق عبد المنعم عامر والدكتور محمد مرسى عبد الله . وكذلك سيرة الامام ناصر بن مرشد تأليف عبد الله بن خلفان بن قيسر وتحقيق عبد الحميد القيسى . وقد نشرت هذه المخطوطات وزارة الثقافة والتراث القومى بسلطنة عمان .

الحنوبى من الخليج وتنظيمات العتوب فى الكويت وقطر والبحرين
وتتبعنا فى المحور الثالث تطور السياسة البريطانية فى الخليج وذلك منذ أن
بدأت بريطانيا تنفذ إلى المنطقة تجارياً ثم سياسياً وما تبع ذلك من تصاعد
نفوذها العسكرى . علاقتها بالوحدات السياسية فى الخليج حتى النصف الأول
من القرن التاسع عشر .

أما المحور الأخير من محاور هذه الدراسة فقد عالجنا فيه علاقات
القوى المحلية فى الخليج بالقوى الإقليمية المجاورة لها وعلى وجه خاص
فارس والدولة السعودية الأولى وجانباً من عهد الدولة السعودية الثانية بالإضافة
إلى علاقة محمد على بامارات الخليج العربى حين وصلت قواته إلى المنطقة فى
النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وما ارتبط بسياسة محمد على فى الخليج
من أزمات سياسية مع بريطانيا واتخذنا من انسحاب القوات المصرية من
الخليج والجزيرة العربية فى عام ١٨٤٠ معلماً تاريخياً أنهينا به دراستنا هذه
التي نرجو أن نكون قد وفقنا فى تناولها .



الفصل الأول

الغزو البرتغالي

دور الخليج العربي في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب - الازدهار الاقتصادي في مدن وموانئ الخليج العربي قبل مجيء البرتغاليين - اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وأثره على تجارة الخليج - القوى السياسية في الخليج العربي قبل الغزو البرتغالي - مملكة هرمز - بنو جبر في الاحساء والبحرين - الصراع بين النباهنة والاباضيين في عمان البوكر والعمليات العسكرية الأولى - استسلام هرمز - مقاومة عرب الخليج للسيطرة البرتغالية وثورة ١٥٢١ ، معاهدة ميناب - سقوط الحكم الوطني في هرمز - المواجهة الممائية للبرتغاليين - انهيار النفوذ البرتغالي في الخليج العربي . .

الفصل الأول

الغزو البرتغالي

استمر الخليج العربي محتفظاً بسماته ومقوماته العربية طيلة العصر الإسلامي المزدهر، وهو العصر الذي شهد تفوقاً في القوى الملاحية والتجارية العربية ليس في الخليج العربي فحسب وإنما في بحار الشرق بصفة عامة إلى أن أخذت هذه القوى تصاب بالتمزق الشديد الذي حدث نتيجة الزحف الاستعماري على بحار الشرق الذي استهله البرتغاليون في أعقاب نهضتهم الملاحية والاستكشافية الكبرى وما تبعها من أحكام سيطرتهم على المنافذ العربية التي كانت تمر منها تجارة الشرق إلى أوروبا عن طريق البحر الأحمر والخليج العربي^(١).

وبصفة عامة يمكن أن نطلق تعبير العصر الذهبي للملاحة والتجارة في الخليج العربي على الفترة التاريخية الممتدة من أواسط القرن الثامن حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي أو على وجه التحديد بين عامي ٧٥٠ و١٥٠٧م حين كانت موافى الخليج العربي تقوم بدور رئيسي في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب، وتحدد هذه الفترة من نشوء الخلافة العباسية في بغداد حتى وصول البرتغاليين إلى مياه الخليج العربي في عام ١٥٠٧. وكان الخليج العربي خلال هذه الفترة يعد واحداً من أهم المعابر التجارية في آسيا وعن طريقه كانت تمر منتجات الهند والصين والأرخبيل الشرقي إلى أسواق فارس والشام

Lockhart L. The Fall of the Safavi Dynasty and (١) the Afghanistan occupation to Persia P. 182 Cambride 1938.

وعن الازدهار العربي الملاحى في المحيط الهندي انظر آدم متز ج ٢ ص ٤٣٩-٤٤٣
ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده وكذلك فضلو حوراني : الملاحة العربية في المحيط الهندي القاهرة ١١٥٨ .

والجزيرة العربية والعكس من ذلك كانت تعبر السلع الواردة من الجزيرة العربية وفارس وأوروبا من نفس هذا الطريق إلى الهند والشرق الأقصى وقد ساعد هذا الانتعاش التجاري على ظهور كثير من المدن والموانئ التجارية على ضفاف الخليج كالبحرة والبحرين وسيراف وقيس وبوشهر وهرمز وغيرها، وقد حققت تلك المدن والموانئ قدراً كبيراً من الثروة والأزدهار ولكن هذه المدن رغم ازدهارها وراثتها كانت تتأثر بضغط الأحداث السياسية التي كانت كثيراً ما تتوالى على المنطقة مثل حركة القرامطة في البحرين وسقوط الدولة العباسية في بغداد وغزوات المغول المدمرة وقيام امبراطورية الصفويين إلى أن طواها الفناء عند اكتشاف البرتغاليين للطريق البحري المباشر إلى الهند وتحويلهم تجارة الشرق إلى الطريق المكتشف الجديد الذي عرف بطريق رأس الرجاء الصالح وذلك منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادي^(١).

ومما تجدر الإشارة إليه أنه في خلال فترات الازدهار الاقتصادي للخليج العربي في المرحلة التي سبقت مجيء البرتغاليين كان لعرب الخليج أدوار رئيسية في تجارة الشرق^(٢) وكانوا كأقرانهم الحضارة من بين أوائل المسلمين الذين سلكوا الطريق البحري إلى الصين وقاموا بدور أساسي في إنشاء العديد من المدن والموانئ التجارية على طول السواحل الشرقية للقارة الأفريقية من رأس جرد فون شمالاً حتى خليج دجلادوجنوباً^(٣) وبينما كان العرب والمسلمون سادة على التجارة في بحار الهند كان الإيطاليون من أهالي جنوة والبندقية

(١) Kelly, John A., Britain and the Persian Gulf 1498-1885 pp. 6-8 London 1963.

(٢) Landen, R.G. Oman since 1856. Disruptive modernization in a traditional Arab Society p. 11 Princeton University Press 1968.

(٣) جمال زكريا قاسم : استقرار العرب في ساحل شرق أفريقيا المجلد العاشر من حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس، وكذلك صالح العابد ، دور القوام في الخليج العربي ١٧٤٧ - ١٨٢٠ ص ٣٦ - ٣٧ بغداد ١٩٧٦ .

أوفلورنسه وغيرها يحتكرون الوساطة التجارية في البحر المتوسط بين آسيا وأوروبا . ومن المعروف أن التجارة بين الشرق والغرب كانت منذ القديم تسلك أحد طريقين إما طريق البحر الأحمر ومصر أو طريق الخليج العربي والشام ، ولما كان كل من الطريقين يقع تحت السيطرة الإسلامية المباشرة فإن ذلك كان سبباً في أن يبحث تجار الفرنجة عن طريق آخر يصلهم ببلاد الشرق مباشرة وظلت تلك الفكرة تراود الأوروبيين فترة طويلة من الزمن تغذيها حدة الاضطرابات والأزمات السياسية التي كانت تتعرض لها تجارة الشرق بين حين وآخر وتؤثر فيها تأثيراً شديداً^(١) . ويمكننا أن نسوق بصدد ذلك مقدار ما أحدثته الغزو المغولي لفارس والعراق على يد تيمور لك في عام ١٢٥٨ م من آثار سيئة على تجارة الخليج العربي وعلى دوره في الوساطة التجارية التي كان يقوم بها بين الشرق والغرب بالإضافة إلى تأثير ذلك الغزو في الوقت نفسه على طريق التجارة البري الوعر الذي كان يسلك أواسط آسيا إلى شبه جزيرة الأناضول . ومما تجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من أن الظروف السياسية المضطربة كانت تجعل تجار الفرنجة يفضلون التعامل مع ذلك الطريق رغم قسوة مسالكه والخطورة التي كانت تتعرض لها قوافل التجارة العابرة فيه إلا أن فتح الأتراك العثمانيين للقسطنطينية في عام ١٤٥٣ م جعل المسلمين يتحكمون في تجارة هذا الطريق أيضاً ولعل ذلك مما حفز الأوروبيين إلى التطلع إلى طريق آخر يتخلصون به من الوساطة الإسلامية في تجارة الشرق فضلاً عن تعرض تجارتهم لخطر التوقف في بعض الأحيان بسبب الاضطرابات السياسية التي كان يتعرض لها المشرق الإسلامي ناهيك عن وصول تجارة الشرق إلى أوروبا بأثمان باهظة بسبب ما كان يفرضه عليها المالك في مصر والشام من مكوس جمركية متعددة ، وبسبب ما كان يقوم به تجار جنوة والبندقية من مغالاة في وساطتهم التجارية حين كانت تصل هذه التجارة إلى موانئ البحر المتوسط ويحملونها بسفنها إلى الأسواق الأوروبية^(٢) ، ومن ثم كان واضحاً أن اكتشاف

(١) ج . ج . لوريير : دليل الخليج - القمم التاريخي ج ١ ص ٣ الدوحة ١٩٦٧ .

(٢) شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية - ترجمة توفيق اسكندر وأحمد عزت

عبد الكريم ص ١٤٧ وما بعدها ، الجمعية الملكية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٤٧ .

طريق بحرى مباشر غير مطروق بين أوروبا والشرق سيعود بثروة ومكانة عظيمتين على الدولة التى تستطيع اكتشاف ذلك الطريق والإفادة منه .

وكانت البرتغال هى الدولة البحرية الأولى التى كرسّت أكبر قدر من جهودها فى البحث عن هذا الطريق وحدث ذلك منذ بداية العصور الحديثة حين بدأت تزول كثير من الأوهام والخرافات التى كانت تغلف أذهان الأوربيين . وساعد على التقدم البحرى فى البرتغال تشجيع ملوكها وأمرائها لذلك النشاط . وظهرت بداية التحول الجديد فى سير التجارة العالمية حين تمكن بارتلميو دياز Barthlemeo Diaz وكان واحدا من المغامرين البحريين الذين وجدوا اهتماما وتشجيعاً من فيكتور عمانويل Emanuel ملك البرتغال من الوصول إلى أقصى الطرف الجنوبى من القارة الإفريقية وعلى الرغم من أنه لم يتمكن من العبور للوصول إلى سواحلها الشرقية وسواحل آسيا الغربية بسبب العواصف الشديدة التى تعرض لها مما اضطره للعودة إلى البرتغال إلا أن ذلك لم يثن الملك عمانويل عن تشجيع سلسلة المحاولات الأخرى التى تمكن فاسكودى جاما Vasco De Gama فى إحداها من اجتياز الطرف القصى من القارة الإفريقية الذى أصبح يعرف باسم طريق رأس الرجاء الصالح بدلا من رأس العواصف . ونجح فاسكودى جاما فى الوصول إلى الهند فى أغسطس ١٤٩٧ وانتهت رحلته بعودته إلى لشبونة فى سبتمبر ١٤٩٩ واعتبرت رحلته هذه من أشهر الرحلات الكشفية فى التاريخ (١) .

وكانت النتيجة السريعة والمحقة لتلك الرحلة ثورة فى تجارة أوروبا ومجدا عظيما لبرتغال حتى أن ملوكها أصبحوا يطلقون على أنفسهم سادة الفتح والملاحة والتجارة فى الهند والحبشة وجزيرة العرب وفارس وسرعان ما صدق

(١) Grenville, Freeman, Select Documents, The East (١)
African Coast pp. 52-53, Oxford, 1962 CF. Raventstein,
Journal of the first voyage of Vasco da Gama, Hakluyt
Society pp. 32-46, London 1898.

البابا على هذا اللقب^(١) على أن ذلك المجد الذى حظيت به البرتغال إنما تم على حساب زوال السيادة الإسلامية على التجارة بين آسيا وأوروبا ولم يقتصر الأمر على تدهور الأوضاع الاقتصادية الإسلامية فحسب وإنما كان واضحا أن فاسكردى جاما بوصوله إلى سواحل الهند قد وضع أول ركيزة للاستعمار الأوروبى للشرق الإسلامى فى العصر الحديث^(٢) ومن ناحية أخرى أثر اكتشاف الطريق البحرى المباشر تأثيرا سيئا على تجارة الخليج العربى نتيجة سياسة الاحتكار التى طبقها البرتغاليون فى تعاملهم مع أسواق الشرق وتحويلهم التجارة إلى الطريق المكتشف الجديد مما ترتب عليه تأثير اقتصادى سىء على عرب الخليج الذين كانوا يهجنون أرباحاً كثيرة من جراء عبور التجارة الآسيوية وخاصة تجارة التوابل التى كانت تجد رواجاً كبيراً فى الأسواق الأوربية فى مياهم ويشهد بذلك ازدهار مدنهم وموانئهم ذلك الازدهار الذى اعترف به البرتغاليون أنفسهم^(٣) ولعل من سخریات التاريخ أن الملاح العربى الشهير شهاب الدين أحمد بن ماجد هو الذى قاد سفينة فاسكودى جاما من مالينده فى شرق إفريقيا عبر المحيط الهندى إلى كاليكوت على سواحل الهند الغربية كما تشير إلى ذلك بعض الروايات التى إن تحقق ما ورد بها فإن ذلك البحار العربى الخليجى المولد^(٤) يكون قد ساعد - من غير إدراك -

(١) Philips (wendell) Oman, A History p. 30 London 1967

See also Kassim, G. Omani Portuguese conflict in the 17th century - Bulletin of the Institute for Arab research and studies Vol X Cairo 1980.

(٢) صادق نشأت : تاريخ الخليج السياسى - ترجمة وتحقيق أحمد كمال حلمى وبدر الخصوصى ص ٦٠ الكويت ١٩٧٢ .

(٣) The Commentaries of the Great Alfonso dalbouquer- (٣) que Translated by W. Gray P. 187 N. Hakluyt Society London 1284.

(٤) ولد فى راس الخيمة وتدرّب على فنون الملاحة فى سواحل الخليج العربى ومن أبرز مؤلفاته كتاب الفوائد فى أصول علم البحر والقواعد وحاروة الاختصار فى أصول علم البحار إلى

(م ٤ - الخليج العربى)

على إنهاء السيادة الإسلامية على تجارة المحيط الهندي وحرمان منطقة الخليج العربي من مصدر أساسي من مصادر ثروتها تلك الثروة التي أقامت مدناً بل ودولاً تجارية عظيمة الثراء كدولة هرمز التي ستعرض لها فيما بعد^(١). وما لبث البرتغاليون بعد وصولهم إلى مصادر تجارة الشرق أن صاروا المسلمين بعنف وقسوة واستطاعوا أن يقضوا على وساطتهم التجارية^(٢) ويحتكروا التجارة لأنفسهم ويضعفوا ما كان للعرب والمسلمين فيها من نشاط ظاهر ناهيك عما اتسم به الصراع الذي نشب بين البرتغاليين والمسلمين بنزعات غير إنسانية وتعصب ديني صارح أعاد إلى الأذهان ذكرى الحروب الصليبية في العصور الوسطى^(٣).

وقد بادرت الدول الإسلامية التي كان يهمها استمرار التجارة عبر الطرق البرية والبحرية القديمة بمساعدة القرى المحلية الإسلامية في صراعها ضد البرتغاليين فقامت دولة الماليك التي كانت تحكم مصر والشام والجزيرة واليمن بالتعاون مع تلك القوى وكذلك مع البنادقة التي أنهارت تجارتهم بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ووجدت المصالح الاقتصادية بينهم وبين القوى الإسلامية بزعمارة الماليك للتصدي للسيطرة البرتغالية. ونشط السلطان قنصره الغوري نشاطاً سياسياً وعسكرياً حيث طلب من القوى

جانب مجموعة من الأراجيز والمرشحات الملاحية وتوجد مجموعات من مؤلفاته المخطوطة في المكتبة الوطنية بباريس وقد حقق بعضها منها المستشرق الفرنسي جبريل فيران Ferranad الذي يرجع إليه الفضل في اكتشاف تلك المخطوطات.

(١) دونالد هول، عمان ونهضتها الحديثة (مترجم) مؤسسة سايس الدولية لندن (بدون تاريخ) ص ٢٨.

(٢) يجدر الإشارة هنا إلى أن كثيراً من الباحثين الأوروبيين قد أطلقوا على الوساطة التجارية التي كان يقوم بها العرب الاحتكار التجاري والمعروف أن النشاط البحري هو الذي جعل لهم دوراً في تجارة الشرق وليس احتكارهم للتجارة كما فعل البرتغاليون راجع ج. ج. لوريمر ج ١ ص ٣ الدوحة ١٩٦٧.

(٣) الشيخ زين الدين - تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين - نشر دافيد لويو لشبونة ١٨٩٨ ص ٤٥.

الأوربية أئندخل لوقف الغزو البرتغالى ومنعهم من المضى فى سياسة الاستغزاز الدينى للمسلمين وذهب فى تحذيره إلى حد التهديد بتدمير الأماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين ومنع الحج إلى الأراضى المقدسة المسيحية فيها^(١). وفى تحركه العسكرى وجه حملة من ميناء السويس بقيادة حسين الكردى باش تجريد الهند وصلت إلى الساحل الغربى للهند فى منتصف عام ١٥٠٨. والمقت مراسيا فى ميناء ديو Deo وكان ذلك الميناء يتبع سلطنة كجرات الإسلامية التى استنجدت بالمماليك^(٢) ولكن هزيمة الأسطول المصرى المملوكى فى المعركة البحرية التى دارت فى عام ١٥٠٩ وضعت نهاية للتفوق الملاحى الإسلامى ابتداء منذ ذلك التاريخ حقبة جديدة من السيطرة الاستعمارية الاحتكارية على تجارة الشرق خاصة بعد أن فشل المماليك فى محاولتهم الوصول إلى الهند بعد معركة ديو^(٣) مما أدى إلى الإطاحة بمشروعاتهم فى المحيط الهندى. حقيقة أن الأتراك العثمانيين تصدوا للبرتغاليين وبدلوا عدة جهود بهدف إعادة الحياة إلى الطرق التجارية القديمة وكان ذلك بعد فتحهم لأقطار المشرق العربى فى الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق إلا أن جهودهم لم يقدر لها النجاح. كذلك فشل الصفويون فى التصدى للبرتغاليين بسبب افتقارهم إلى القوة البحرية الفعالة التى كانت ضرورة حتمية لمنازلة البرتغاليين لما تميزت به امبراطوريتهم بتفوقها فى ميزان القوى العسكرية البحرية وبما تجدر الإشارة إليه أن البرتغاليين لم يكتفوا بتحويل تجارة الشرق إلى الطريق البحرى المباشر إلى غرب أوربا، طريق رأس الرجاء

(١) عبد العزيز الشناوى : المراحل الأولى لوجود البرتغالى فى شرق الجزيرة من ٦٥٢ - ٦٥٤ من أعمال مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ج ٢ الدوحة ١٩٧٦ .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٤ تحقيق محمد مصطفى من ١٨٥ القاهرة ١٩٦٠ .

(٣) عن هزيمة ديو البحرية انظر :

Barbosa (Durate), A Description of the Coasts of East Africa and Malabar in the begining of the Sixteen Century Trans. by H. Stanley pp. 75-76 Haklyut Society, London 1866.

الصالح ، وإنما عملوا على احكام سيطرتهم على الطرق البحرية الأخرى حتى تصبح جميع منافذ التجارة في أيديهم ومن ثم اتجهوا إلى السيطرة على الخليج العربي لمنع التجارة من النفاذ منه إلى نهر الفرات وسواحل اليمانات أو الاستفادة من مرور هذه التجارة لصالحهم إمعاناً في تطبيق سياستهم الاحتكارية^(١) وقد سيطرت الروح الصليبية على ضباط البحرية البرتغالية الذين نشأوا في وقت كان الصراع فيه يدور على أشده بين المسلمين والمسيحيين في شبه جزيرة أيبيريا فأشربوا في قلوبهم الرغبة العنيفة في الانتقام من المسلمين ويجسد هذه الحقيقة الضابط البحري الفونسو دي البوكيرك الذي استهل حياته العسكرية في الجيوب البرتغالية على سواحل المغرب ثم انتقل إلى ميدان الصراع الصليبي في بحار الشرق وقد كلف البوكيرك من قبل عما نويل الثاني ملك البرتغال بأعداد مشروع يهدف إلى انشاء امبراطورية برتغالية كبيرة في الشرق ولذلك علق البوكيرك أهمية كبيرة على بناء القلاع العسكرية الحصينة وانتزاع اعتراف الحكام المحليين بالبرتغال كسلطة مهيمنة ولتحقيق هذا المشروع اتجه إلى تدمير الأساطيل المحلية والتخلص منها كما قام بأعمال شاذة غير إنسانية ضد البحارة المسلمين وإلى الفونسو دي البوكيرك ينسب بناء مجموعة من الحصون البرتغالية التي وصفت بالحصون التي لا تقهر في كل من هرمز ومسقط والبحرين ولا تزال هذه الحصون باقية حتى يومنا هذا شاهدة على ما كان عليه البرتغاليون من غلظة وتسلط .

وكان أبرز ما استهدفه البوكيرك تخطيم مملكة هرمز التي كانت تتمتع براء كبير طيلة العصور الوسطى . ويمكن تأريخ بداية العمليات العسكرية البرتغالية في الخليج حين تحركت ستة عشر سفينة برتغالية في عام ١٥٠٧ يقودها البوكيرك بنفسه للسيطرة على هرمز لأهمية موقعها الاستراتيجي كمنفذ للخليج وباعتبارها أقوى تنظيم سياسي واقتصادي عرفته المنطقة في

(١) Bent, Theodore, Southern Arabia. P. 50 London 1905

ذلك الوقت^(١). ولذلك قد يكون من المفيد أن نتفهم الأوضاع السياسية في الخليج العربي في الفترة التي سبقت مجيء البرتغاليين إلى سواحل الخليج العربي ومن الطبيعي أن نبذل حديثنا بمملكة هرمز التي كانت كما ذكرنا من أهم وأقوى التنظيمات السياسية والتجارية. وقد أخذت تلك المملكة مركزها التجاري منذ القرن الحادي عشر الميلادي^(٢) واستطاعت أن تتبوأ مكان الصدارة في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي حين أصبحت أهم منطقة لتجميع السلع التجارية في الخليج وأكبر منافس لميناء قيس الذي حل خلال الفترة من القرن الثاني عشر إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي محل ميناء سيراف الذي كان من أهم الموانئ التجارية في الخليج العربي^(٣).

وعلى الرغم من أن الكتاب الفرس يؤكدون على أن مدينة هرمز كانت مدينة فارسية بحكم نشأتها إلى أنه لا مجال للشك هنا أن المدينة أخذت صبغة عربية حين اندفعت إليها القبائل العربية بعد الفتح الإسلامي لفارس وأكثر من ذلك كما يؤكد بعض الباحثين أن أصل الأسرة المالكة التي تعاقبت على حكم هرمز ترجع إلى أصول عربية كما كان أمراؤها سنيين على خلاف المذهب الشيعي السائد في بلاد فارس. أما المصنفون الجغرافيون المسلمون كالاصطخري والمقدسي والادريسي فلم يذكروا على عالمية المدينة حين يتحدثون عن سكانها الذين يخالفهم الكثير من التجار الفرس والهنود والزنج والبلوش والترك والعرب والأوربيين إلى الحد الذي كانت تظهر فيه المدينة كم منطقة تجمع عالمية وإن احتفظت مع ذلك بطابعها العربي والإسلامي. واستمرت هرمز تحتل مكان الصدارة والتجارة البحرية إلى أن قضت جمحافل

Wilson, Sir Arnold, The Persian Gulf an Historical (١) sketch from the Earliest times to the begining of the 20th century P. 185 London 1954.

Aubin, Jean, les Princes d'Ormuz du XIIIe au XVe (٢), Siecles P. 7 ff', Mare Lusindicum 11, 1973.

Ibid, P. 120 ff.

(٣).

المغول على الدولة العباسية وسقطت عاصمتها بغداد في عام ١٢٥٨ م وحينئذ لم تسلم هرمز من الفوضى والدمار خاصة بعد أن تمكن المغول في عام ١٣٠١ م من الاغارة على المدينة والاستيلاء على كل شيء نفيس فيها وأعملوا الذبح والتقتيل في سكانها . وقد لارحالة ماركوبولو Marcopolo أن يكون آخر شاهد على عظمه هرمز حين زارها في عام ١٢٩٢ م وأعطانا وصفا شائعا عنها وأفاض في الحديث عن جوانب كبيرة من حركتها التجارية (١) . ومما يستلفت النظر أن الطاقة التجارية الكبيرة التي تمتع بها سكان هرمز لم تجعلهم يستسلمون لغارات المغول المدمرة وإنما انتقلوا بأمرهم بهاء الدين إلى جزيرة قيس ثم إلى جزيرة صغيرة عرفت باسم جزيرة جرون لا تبعد كثيرا عن مدينتهم القديمة وأخلوا من هناك يزاولون نشاطهم التجاري وبمضى الزمن أخذت جزيرة جرون تنعش اقتصاديا وتستعيد مجد هرمز القديمة وتبعنا بعظمة مدينتهم السابقة هرمز أطلقوا على الجزيرة الجديدة اسمها التي نمت وأصبحت عاصمة لأكبر تنظيم سياسى وتجارى شهدته منطقة الخليج العربى حيث اشتملت على جزء كبير من سواحل شبه الجزيرة العربية من ناحية وسواحل فارس الجنوبية من ناحية أخرى كما امتد نفوذها الإدارى على طول السواحل الغربية للخليج حتى البصرة واستمرت كذلك قرابة مائتى عام حتى استولى البرتغاليون عليها منذ وظنت أقدامهم الخليج العربى في أوائل القرن السادس عشر الميلادى (٢) .

ومما يذكر أن جزيرة هرمز التى كانت قاعدة لتلك المملكة المترامية الأطراف كانت من بين المناطق الهامة التى زارها الرحالة ابن بطوطة وذلك

CF. Ricci A. Travels of Marco Polo (١)

(٢) لعل من أوفى الدراسات التى كتبت عن أمراء هرمز وملوكها بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر دراسة جيان أوبان .

CF. Jean Aubin : les Princes d'Ormuz du XIIIe au XVe siecles.

في رحلته الأولى التي قام بها في الفترة من ١٣٢٥ إلى ١٣٤٩ م^(١) وقد خلف لنا وصفاً ممتعاً عن هرمز وسلطانها وتجارها وحياتها الاجتماعية وقدم لنا صورة شيقه عما كانت عليه المملكة من عظمة وثراء وفي وصفه للجزيرة ذكر أن مدينة هرمز مدينة كبيرة بها أسواق حافلة وأنها مرسى السند وفارس وخراسان والهند ومنها كانت تحمل سلع الهند إلى العراق وفارس وخراسان . وقد بدأ ابن بطوطة رحلته إلى هرمز حين توجه إليها من بلاد عمان وقام أولاً بزيارة المدينة القديمة التي وجدها خاوية مهذمة لأحياة فيها وليس بها سوى القليل من صيادي السمك الذين اتخذوها ملجأ لهم لقضاء أوقات راحتهم وذكر ابن بطوطة أن هرمز الجديدة تبعد عن هرمز القديمة قرابة ثلاث فراسخ وأنها تقابلها من ناحية البحر وأبدى إعجابه بأسواق المدينة المجهزة تجهيزاً حسناً كما وصف سلطان هرمز قطب الدين بالكرم والتواضع والأخلاق النبيلة غير أنه وجده مشغولاً ومتهيباً للحرب ضد أخيه نظام الدين وذكر ابن بطوطة أنه استقى معلوماته التاريخية عن مملكة هرمز من وزير السلطان شمس الدين محمد بن علي والقاضي عماد الدين الشونكاري وقد اسهب ابن بطوطة في الحديث عن حياة السكان واعتمادهم في معيشتهم على السمك والتمر الذي كان يجلب إليهم من البصرة وعمان واسترعى نظر ابن بطوطة ندرة مياه الشرب الذي هو غالى الثمن يجمع عن طريق الأمطار وذكر أنه هناك صهاريج وخزانات صناعية كبيرة لجمع المياه حيث يذهب الناس لجلب مياه الشرب بآنية كبيرة من القرب يملأونها ويحملونها على ظهورهم .

ولم يكن الرحالة المسلمون وحدهم الذين استرعى انتباههم أهمية هرمز وإنما جذبت شهرة الجزيرة انتباه عدد كبير من الرحالة الأوروبيين نذكر من بينهم الرحالة لودفيج وارتمان wartheman الذي زار الجزيرة في عام ١٥٠٢ أى في السنوات القليلة السابقة مباشرة لوصول البرتغاليين إلى هرمز وكان

(١) راجع أبو عبد الله محمد بن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأسفار وغرائب الأمصار ج ١ القاهرة ١٩٣٣ .

بكتابتها عنها خبر شاهد على عظمتها ومما ذكره بصدد ذلك أنه كان يوجد بمينائها ما يزيد أحياناً على ثلاثمائة سفينة تجارية لمختلف بلدان العالم راسية على أرصفتها البحرية كما كان يقيم فيها بصفة دائمة أكثر من أربعائة تاجر وأن معظم تجارتها كانت من اللؤلؤ والأحجار الكريمة والحرير والعقاقير والتوابل كما قدم الأب بيير رانيل Raynal وصفاً شيقاً لعظمة المدينة وازدهارها التجاري وأشار إلى أن التجار يقدون إلى هرمز من جميع أنحاء العالم ويتبادلون السلع ويعقدون الصفقات التجارية في هدوء يندر أن نجد مثيله في أى مكان تجارى آخر . كما ذكر الرحالة البرتغالى دورات باربوسا Barbosa أن المدينة ليست كبيرة على قدر ما هى جميلة ووصف بيوت أثريائها بأنها أشبه ما تكون بالمتاحف لما تحويه من تحف وقطع أثاث واردة من الهند والصين والسجاد الفارسي الفاخر والقناديل المصرية ذات النقوش الشرقية البديعة^(١) ولا شك أن الازدهار التجاري الذي تمتعت به جزيرة هرمز كان يعود بالدرجة الأولى إلى موقعها الاستراتيجي في المضائق المؤدية إلى الخليج العربي وأضيف إلى ثرائها التجاري الدخل الذي كانت تحصل عليه من المكوس الجمركية التي كانت تفرضها على المواني التابعة لها حتى قدر دخل الدولة من هذه الرسوم وحدها بأكثر من ستين ألف ريال هذا إلى جانب استغلالها بمصادر اللؤلؤ التي أضافت إليها مصدراً هاماً من مصادر ثروتها .

وعلى الرغم من المساحة الصغيرة للجزيرة فإن ملوك هرمز كانت لهم سلطة شكلية فقط إذ تركزت السلطة الفعلية في أيدي مجموعة أوليغاركية من التجار وعلى أية حال فقد ساعد على نمو وازدهار الجزيرة بعدها عن مراكز القلاقل السياسية داخل فارس^(٢) ورغم أن الجزيرة كانت تجمع

(١) عبد السلام عبد العزيز فهمي : ملكة هرمز المهدى في نشأتها وازدهارها والعبارة في سقوطها واستسلامها بحث منشور في مجلة الرب الكويت .

(٢) علي عبد الرحمن أبها حسين : من تاريخ العتوب خلال المخطوطات والوثائق بحث منشور في أعمال الحلقة الرابعة لمراكز دراسات الخليج والجزيرة العربية - أبو ظبي نوفمبر

الكثير من الأجناس إلا أن اللغة العربية كانت لغة التعامل كما كان أغلب سكانها من العرب إذ أن طبيعة النشاط البحري التجارى ساعدت على أن يبرز فيه بحارة وتجار من اليمن وعمان والخليج العربى . واستطاعت هرمز بنشاطها التجارى أن تكون من أعظم الدول التى شهدت المنطقة عظمة وثراء وربما يرجع سبب ذلك الازدهار إلى أن دائرة النشاط التجارى قد اتسعت فى نهاية العصور الوسطى فلم تعد مقصورة على نقل التجارة بين الهند وسواحل شرق إفريقيا إلى قلب العالم الإسلامى بل أصبحت جزيرة هرمز تمثل الحلقة الهامة فى نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب خاصة حين دخلت المدن الإيطالية ذلك الميدان وأصبحت هرمز مثالا يضرب على الثراء ويعرفها رجل الشارع الأوربى واعتبارها خاتم العالم وأن من يمتلكها يمتلك العالم بأسره (١) .

ولعل من ينظر الآن إلى تلك الجزيرة التى تكاد تكون خالية من السكان يدهش كثيرا حين يعرف أن سكانها كانوا يبلغون فى الفترة التى سبقت مجيء البرتغاليين أكثر من أربعين ألف نسمة وأنهم كما سبق أن أوضحنا وطبقا لروايات الرحالة المأصرين كانوا يعيشون على مستوى عال من الرفاهية والثراء بالرغم من أنهم كانوا يحضرون جميع احتياجاتهم الرئيسية من خارج الجزيرة بما فى ذلك مياه الشرب التى كانوا يضطرون إلى نقلها من خارج الجزيرة إذا ما قلت الأمطار . وقد اشتهر من بين ملوك هرمز السلطان

(١) لم تحصل هرمز على شهرة تجارية فحسب بل حصلت على شهرة فى عالم الأدب حين أشاد بها بعض الكتاب والشعراء وعلى رأسهم الشاعر الانجليزى جون ميلتون Melton فى ديوانه الفردوس المفقود Lost Paradise حيث أورد بيتا من الشعر جاء فيه إذا كان العالم مجرد خاتم فإن هرمز هى جوهرة Ormuz If all the world were mere a ring the Diamond should bring

كما كتب فى نفس القصيدة متحدثا عن الشيطان :

مرتفعاً على عرش سام يليق بالملوك ويطغى دون عناء على ثروة هرمز وانت
أو حيث مذق الشرق الفنان بأغنى الأيادى اللالى والذهب البربرى على ملوك بلاده
انظر دونالد هول : عمان ونهضتها الحديثة - رجع سبق ذكره ص ٢٦ .

قطب الدين فيروز شاه الذي حكم حتى عام ١٤١٧ م وكان يلقب بملك هرمز والبحرين والاحساء والقطيف وهو السلطان الذي كان قائماً بالحكم حين زار ابن بطوطة الجزيرة كذلك اشتهر من بين سلاطين هرمز سيف الدين مهار الذي حكم حتى عام ١٤٣٥ م وكان يوصف بأنه صاحب هرمز والبحرين وكان يتبعه كل من عمان والقطيف وقلهات^(١).

ومع بداية القرن الخامس عشر بدأ الضعف يدب في كيان هرمز بسبب تفاقم الصراع بين افراد الأسرة المالكة ولعل ذلك الصراع هو الذي شجع القبائل العربية المنتشرة على طول السواحل الشرقية للجزيرة العربية للتخلص من تبعية هرمز والأمر الذي لاشك فيه أن عدم وجود سلطة مركزية قوية هي التي ساعدت المناطق التابعة لهرمز على الاستقلال خاصة وأن هذه المناطق كانت تختلف في تبعيتها لهرمز بين التبعية الاسمية والفعلية فعلى حين كانت مناطق القطيف والاحساء تعين حكامها كان حكام البحرين يعينون من قبل ملوك هرمز مباشرة كما أن الامتداد الكبير الذي بلغته هذه الدولة كان عاملاً هاماً من عوامل تقويضها إذ استطاعت أن تبسط سلطانها السياسي على أجزاء مترامية من شواطئ الخليج وجزره شملت السواحل العمانية وامتدت حتى القطيف شمالاً كما دخلت جزر البحرين وجزيرة قشم في تبعيتها إلى جانب قسم كبير من السواحل الفارسية المطلة على الخليج وكانت كل هذه المناطق تشكل جزءاً من تلك الدولة الواسعة الثراء . ومن الطبيعي أن يؤدي تفسخ مملكة هرمز إلى افساح المجال لظهور مجموعة من القوى السياسية خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي واستطاعت تلك القوى منازعة هرمز في سيادتها وظهر ذلك واضحاً على عهد الملك سيف الدين مهار الذي شهد حكمه اضطراباً سياسياً وصراعاً أسرياً خطيراً مكن لبني جبر من الإطاحة بسيادته وأحرزوا نجاحاً في انتزاع الإحساء والقطيف من أيدي حكامها السابقين الذين كانوا خاضعين لماوك هرمز . وساعد بنو جبر على

تثبيت نفوذهم في الاحساء ذلك الصراع الأسرى الذي كان قائماً بين سيف الدين مهار وأخيه فخر الدين تورانشاه بل أن ذلك الصراع أعطى لبني جبر فرصة التدخل في مملكة هرمز ذاتها حين استعان بهم فخر الدين ضد أخيه وعندما انتهى الأمر بفوزه على أخيه ووصوله إلى الحكم في عام ١٤٣٩ كانت المكافأة التي غنمها بنو جبر هي التوسع في رقعة أراضيهم حين ضموا القطيف وما كاد ينتصف القرن الخامس عشر حتى كان بنو جبر قد نجحوا في السيطرة على البحرين وامتدوا إلى بعض أقاليم نجد وتمكنوا من تسير دفعة أمورهم مستقلين تماماً عن مملكة هرمز وأصبح شيخ بني جبر يلقب بسلطان البحرين والقطيف والاحساء ورئيس أدلى نجد ولم يقتصر امتداد سيطرة الجبور على تلك المناطق المشار إليها وإنما امتد نفوذهم إلى كثير من المقاطعات والموانئ العمانية وكان هذا التعاطف في النفوذ الذي بلغه الجبور دافعاً لاستئناف الصراع بينهم وبين ملوك هرمز وكان من سوء الطالع أن يواكب ذلك الصراع وصول البرتغاليين إلى سواحل الخليج فعملوا على تعميقه تحقيقاً لمصالحهم^(١).

وبينا كانت الأوضاع في الاحساء والبحرين تتأرجح بين سيطرة بني جبر وسيادة مملكة هرمز كانت الأوضاع السياسية في إقليم عمان أكثر اضطراباً ففي الوقت الذي كانت فيه المناطق الساحلية من عمان في قبضة ملوك هرمز كانت المقاطعات الداخلية في أيدي الملوك النبهانيين الذين كانوا يخوضون صراعاً دائماً ضد الاباضيين المتحمسين لبعث الامامة الاباضية وكان يدفع الاباضيين إلى خوض ذلك الصراع رغبتهم في التخلص من نفوذ هرمز والنباهنة معاً. وحول منتصف القرن الخامس عشر نجح الامام عمر بن محمد الحاروشي في انتزاع الحكم من النباهنة وأعلن بعث الامامة الاباضية إلا أنه لم يلبث أن أطيح به من قبل النبهانيين بعد سنوات قليلة قضاهما في الحكم

(١) عبد اللطيف الحميدان : التاريخ السياسي لامارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية العدد ١٦ من مجلة كلية الآداب - جامعة البصرة ١٩٨٠ .

ولعل ذلك مما جعله يستعين بنى جبر فى الاحساء الذين نجحوا فى إعادة تنصيبه
إماما على عمان فى عام ١٤٨٧ وطرده الملك النهانى سليمان وكان من الطبيعى
أن تصبح عمان الداخلى فى دائرة نفوذ بنى جبر خاصة حينما تجدد القتال
بين الاباضيين والنهانيين على عهد الامام محمد بن اسماعيل الذى خلف
الامام الحروصى الذى نجح فى قتل الملك سليمان النهانى بفضل استعانته
بالجبور فى عام ١٥٠٠ .

ولعل ما يؤكد تفوق نفوذ بنى جبر فى عمان أن البرتغاليين حينما دخلوا
الخليج أول مرة فى عام ١٥٠٧ تحدثوا عن قوتهم حتى أن الفونسو دى
الوكيرك ذكر أن عمان الداخلى كانت خاضعة لشيخ من شيوخهم الذى
وصفه بملك الجبور وذكر أن جميع جزيرة العرب تدين له بالولاء وعلى
الرغم من أن ذلك الوصف يحمل الكثير من المبالغة إلا أنه يحمل أيضاً كثيراً
من الحقائق فالأمر الذى لاشك فيه أن الجبور كانوا قد تمكنوا حول بداية
القرن السادس عشر من السيطرة على كثير من المقاطعات الداخلية فى الجزيرة
العربية بالإضافة إلى الاحساء والقطيف والبحرين وعمان الداخلية والساحلية
ويؤكد ذلك ما أشار إليه المؤرخ البرتغالى باروس Barrotz من أن الجبور
كانوا يشنون هجمات مستمرة على مملكة هرمز وأنهم كانوا يشكلون خطراً
عليها وسوف نشير فيما بعد إلى السلطان أجود بن زامل الجبرى الذى كان
من أشهر سلاطنة الجبور والذى بلغت سلطة الجبور على عهده أقصى
اتساع لها فى الاحساء والقطيف والبحرين وعمان ونجد بل إنه كان يفرض
الجزية على بعض ملوك العجم المجاورين له .

نخلص من ذلك أن الصراع الذى كان قائماً بين ملوك هرمز وشيوخ
الجبور كان هو الوضع السائد فى الخليج حين وصل البرتغاليون إلى سواحل
وعلى الرغم من أن الجبور كانوا هم القوة المساعدة إلا أن هرمز

كانت هي القوة الرسمية المتصدية لزعامة الخليج وكان عليها أن تتكفل بحماية الخليج من الغزو البرتغالي المفاجيء رغم التفكك السياسي الذي كانت تعاني منه^(١) ولعل مما يلفت النظر أن الدولة الصفوية الناشئة في فارس حول ذلك الوقت لم تتعاون مع مملكة هرمز في هذه المهمة وتلك الملاحظة لها أهميتها الخاصة لأنها دليل واضح على عدم تبعية هرمز للدولة الصفوية أو للدول التي سبقتها في فارس وذلك خلافا لادعاءات بعض الكتاب الإيرانيين المعاصرين الذين تمادوا في تطبيق النظرة القومية على ذلك العهد إلى حد ادعائهم بأن نفوذ فارس كان يمتد على طول سواحل شرق الجزيرة العربية باعتبار تبعية هرمز للسيادة الفارسية^(٢) وحقيقة الأمر كما سبق أن أشرنا أن مملكة هرمز لم تكن دولة عربية أو فارسية وإنما كانت دولة اسلامية تضم مختلف الجنسيات التي تسكن حول شواطئ الخليج ويؤمها عدد كبير من العناصر الاسلامية الأخرى وإن تمتع فيها العرب بالنفوذ الأدنى .

وعلى الرغم من أن البرتغاليين بدأ أول احتكاكهم بمنطقة الخليج العربي بوصولهم إلى هرمز في عام ١٥٠٧ إلا أن عملياتهم العسكرية لم تظهر واضحة في هذه الفترة المبكرة من أوائل القرن السادس عشر إذ اضطرت البرتغاليون إلى وقف عملياتهم في هرمز بهدف التفرغ لحرب المماليك في المحيط الهندي ولم يعاود البرتغاليون اهتمامهم باخضاع هرمز إلا بعد ذلك بعدة سنوات وعلى وجه التحديد في عام ١٥١٥ . ومما يستوجب الأسف أنه في خلال تلك الفترة التي انصرف فيها البرتغاليون مؤقتا عن هرمز لم تظهر تكتلات عربية في منطقة الخليج العربي بهدف مواجهة التحديات البرتغالية وإنما على العكس من ذلك أخذت منطقة الخليج تعاني قدرا

(١) Adamiyat, F. Bahrein Islands Alegal and Diplomatic (١) Controversy P. 14. New York, 1955.

(٢) صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ص ١٠-١١ القاهرة ١٩٧٤ .

كثيرا من التفكك مما سيسهل عمل البرتغاليين فيما بعد ففقد انصرفت سياسة ملوك هرمز إلى محاولة سحق النفوذ المتصاعد الذي وصل إليه بنو جبر في شرق الجزيرة العربية . ففى عام ١٥١١ قام الوزير خوجه عطاء الذى كانت بيده مقاليد السلطة في هرمز بارسال حملة عسكرية إلى البحرين نجحت في احتلالها وانتزاعها من أيدي شيوخ بنى جبر الذين كانوا قد نجحوا في مد السيطرة عليها على عهد سلطانهم أجود بن زامل قبل ذلك الوقت بقليل وعلى الرغم من نجاح هرمز في استعادة البحرين إلا أن شيوخ بنى جبر أعادوا السيطرة عليها والأمر الذى لا شك فيه أن الصراع السياسى الذى حدث بين أكبر قوتين محليتين في الخليج العربى في ذلك الوقت ونعنى بهما مملكة هرمز ومشيخة الجبور قد أفاد منه البرتغاليون فائدة كبيرة فمن الثابت لدينا أن البرتغاليين اتجهوا إلى الاستعانة ببعض القوى المحلية وتأليبها ضد الهجمات المتكررة التى كان يشنها شيوخ بنى جبر المتمركزين في بعض المقاطعات الساحلية من عمان^(١) .

وعلى الرغم من أن هناك الكثير من المصادر التى تحدثت عن المقاومة التى قام بها عرب الخليج ضد البرتغاليين في الفترة التى واكبت انهيار نفوذهم في النصف الأول من القرن السابع عشر إلا أن المقاومة التى وجهها عرب الخليج ضد البرتغاليين عند بداية تسلطهم على الخليج العربى في أوائل القرن السادس عشر لم تظفر بما تستحقه من دراسة ولا تزال في حاجة إلى تسليط مزيد من الأضواء عليها . ولعل بنو جبر كانوا هم القوة العربية التى تحدث السيطرة البرتغالية في عنقوان قوتها ويؤكد ذلك أن كثيرا من المصادر البرتغالية قد اعترفت بقوة الجبور وتحسيسهم للنفوذ البرتغالى كما يتضح ذلك من تعليقات الفونسودى البوكيرك ومن كتابات المؤرخ والرحالة البرتغالى فاريا سوسا^(٢) إذ يؤكد لنا البوكيرك أنه عندما حاصر ميناء صحار وصلت

(١) على عبد الله أبا حسين : بحث سبق ذكره .

(٢) John Steven's Translation of Manuel de Faria e Sousa, The Portuguese Asia Vol. I Part II P. 126 FF

إلى الميناء نجدات عربية كانت تتألف من عشرة آلاف مقاتل بزعامة شيخ من شيوخ بني جبر وحينما حاصر البرتغاليون مسقط في عام ١٥٠٧ سارع أحد زعماء بني جبر إلى نجدة المدينة وأكدت كثير من التقارير البرتغالية أن مقاطعات بني جبر كانت تمتد امتدادا كبيرا على طول سواحل الخليج وأن أبناء السلطان أجود الذي حكم خلال الفترة من ١٤٧١ إلى ١٤٩٦م أى قبل وصول البرتغاليين إلى منطقة الخليج بعدة سنوات كانوا يتقاسمون السلطة السياسية فيما بينهم وكان أكبرهم يقيم في عمان ويدين له أخواه الآخرون بالولاء وقد اشتهر من بينهما محمد بن أجود الذي كان يحكم البحرين والاحساء والقطيف والأمر الذي لاشك فيه أن هيمنة البرتغاليين على هرمز منذ عام ١٥١٥ سوف تؤدي إلى مواجهتهم لبني جبر وذلك بسبب الصراعات التي كانت قائمة بين ملوك هرمز وشيوخ الجبور وكان من الطبيعي أن يعتمد البرتغاليون إلى مساندة ملوك هرمز للتخلص من نفوذ الجبور الذي وصل إلى درجة كبيرة من القوة والامتداد.

العمليات العسكرية البرتغالية في الخليج العربي :

منذ أن عهد إلى الفونسودي البوكيرك قيادة الأسطول البرتغالي في بحار الهند كان يهدف في الدرجة الأولى إلى السيطرة على هرمز باعتبارها مفتاحا للخليج العربي يستطيع بها أن يسيطر على مياحه . ومما يذكر أن البوكيرك وقد اشتهر بعنفه وصلابته قد عمد وهو في طريقه إلى هرمز إلى إحراق وتدمير كل السفن الوطنية التي التقى بها معلنا بذلك الحرب على كل من يعارض سلطة البرتغاليين في البحر كما عمد أيضا إلى إشعال النيران في الموانئ العربية التي مربها كقريات ومسقط وخورفكان وهكذا كان خليج عمان أول منطقة تشهد فظاعة الغزو البرتغالي وقسوته .

*London 1695 see also Commentaries of the Great Alfonso =
 Dalboquerque translated from the Portuguese edition 1774,
 notes and introduction by Walter de Gray Birch vol. I
 P. 75 Haklyut Society 1885.

وكان الغزو البرتغالى لمنطقة الخليج العربى سببا فى التدهور الاقتصادى الذى ألم بها وعانت الموانىء العمانية من آثار ذلك التدهور حيث كانت أول الموانىء فى الخليج تعرضا لذلك الغزو بعد ما كان لها من أهمية بالغة فى تجارة المحيط الهندى وكان بحارتها على درجة عالية من الكفاءة ومما يذكر أن البوكيرك قد اعتمد كما اعتمد فاسكودى جاما من قبله على المرشدين العمانيين من سكان المدن الساحلية العمانية التى كانت على درجة كبيرة من الازدهار وأكد أنه يدين بفتوحاته والأحرى بتساطفه على السواحل العربية للبحر الأحمر والخليج العربى إلى خارطة بحرية متقنة من صنع أحد الربابنة العرب وذكر فى تعليقاته بصدد ذلك أن ملاحاً عربياً يدعى عمر وقع فى أسر البرتغاليين عند جزيرة سقطره وكان رباناً عظيماً ذا معرفة جيدة بالسواحل العربية وقد صعبه البوكيرك معه واستحوذ منه على مرشد للطرق البحرية مبين عليه جميع موانىء مملكة هرمز وكان ذلك المرشد الملاهى من صنع ذلك الملاح العربى^(١) ولم تخل العمليات البرتغالية العسكرية الأولى رغم ضراوتها من مقاومة عربية تصدت لها فبعد أن استولى البوكيرك على قرىات توجه إلى مسقط فوجدها معززة بالرجال الذين لجأوا إليها من جميع الجهات بعد سماعهم بالتدمير الذى حل بقرىات^(٢) وكانت مسقط من أقوى المعاقل العمانية وكانت مزودة بوسائل دفاع قوية وبقوة من الجنود الذى جاءوا إليها من داخل البلاد^(٣). وعندما وصل الاسطول إلى ميناء مسقط حضر عرب مسقط على رأس وفد كبير من قبل شيخ بنى جبر وناشدوا البوكيرك عدم تعريض المدينة لأى تدمير وأبدوا رغبتهم فى التبعية للبرتغاليين ودفع ما يقرره القائد البرتغالى من ضريبة كالتى كانوا يدفعونها للملك هرمز

(١) أنور عبد الحليم : ابن ماجد الملاح ص ٤٧ العدد ٦٣ من سلسلة أعلام العرب - القاهرة ١٩٦٦ .

(٢) Commentaries of the Great Alfonso Dalbouquerque (٢) vol. I P. 75—77.

(٣) ويلسن : تاريخ الخليج (مترجم) ص ٦٧ وزارة التراث القومى والثقافة - سلطنة عمان ١٩٨١ .

وفيا يبدو أن هذه المفاوضات لم تكن إلا مراوغة من شيوخ بنى جبر. ولذلك بادر البوكيرك ، حين أحس بأن عرب مسقط قد أخذوا يستعملون في الخفاء لتنظيم صفوفهم للمقاومة والدفاع عن بلادهم بقصف المدينة ، وحين ناشده السكان ألا يدمر المدينة أو يحرقها وافقهم على ذلك بشرط أن يدفعوا ١٠,٠٠٠ زرافين^(١) ؛ على أن يصل إليه المبلغ في اليوم التالى. وعندما لم يصله المبلغ أصدر أوامره باشعال النار في البلدة بما في ذلك مساجدها والسفن الراسية في مينائها ولم يطلق سراح سوى بعض الشيوخ والنساء بعد أن أمر بجدع أنوفهم وآذانهم^(٢) . ولم يلبث بعد ذلك أن أوقف عملياته العسكرية في مسقط متوجها إلى حصار هرمز .

وقبل أن نعرض للعمليات العسكرية في هرمز قد يكون من المفيد الإشارة هنا إلى أن البوكيرك رغم ما عرف عنه من تسلط وقسوة إلا أنه كان يبدو إعجابه بالازدهار الاقتصادى الذى كانت عليه المدن العمانية وفيا يبدو أن الزراعة تركت انطبعا قويا لدى البوكيرك فكتب عن قلعات ، وهى أول ميناء تصل إليه سفنه في الخليج ، أن كل مؤن سكانها من القمح والشعير والذرة والتمور تأتى إليها من الداخل الذى يفيض بهذه المحاصيل ، كما ذكر عن قلعات بأنها ميناء عظيم للشحن البحرى إذ كانت تأتى إليها الكثير من السفن لنقل التمور والحيول إلى الهند . أما عن مسقط فقد ذكر عنها أنها مدينة كبيرة كثيفة السكان محاطة من الداخل بسلسلة من الجبال الشاهقة وأما على الجانب الساحلى فهى تطل على البحر ومينائها صغير محمى من جميع الجهات من العواصف ، وهى المنطقة الحرة الرئيسية لمملكة هرمز ولا بد أن تمر فيها جميع السفن التى تزاول الملاحة في هذه المناطق وذلك للاحتماء من الساحل المواجه الذى تكثر فيه المياه الضحلة . وذكر البوكيرك أن مسقط

(١) يبادل الزرافين ما يقرب من ثلاثمائة ريال .

(٢) ويلسون، أرنولد : مرجع سبق ذكره ، ص ٦٨ .

تعد جزءاً من مملكة هرمز وإن كانت مقاطعاتها الداخلية تخضع لحكام الجبور التي تمتد سلطتهم جنوباً إلى عدن وشمالاً إلى سواحل الخليج ومنها إلى نجد والحجاز^(١). كما وجد البوكيرك في صحار مدينة جميلة ذات منازل أنيقة ولاحظ أن الأراضي الواسعة الممتدة وراءها مزروعة بالقمح والذرة والشعير كما أن تربية الماشية والحيول تكثر بتلك المزارع لوجود المراعي والأشجار بها^(٢)، ومن صحار اتجه الأسطول البرتغالي إلى خورفكان وبما أن سكانها هبوا لمقاومة البرتغاليين فقد قام البوكيرك بتدميرها ونهبها وقطع آذان وأنوف الأسرى^(٣)، ومن خورفكان اتجه الأسطول البرتغالي إلى رأس مسندم ومنها إلى هرمز.

وفي هرمز تصدى لأسطول البوكيرك أكثر من أربع مائة سفينة منها ستون سفينة كبيرة الحجم كان قد خصصها ملك هرمز لحراسة الجزيرة والدفاع عنها ولم يكن البوكيرك يمتلك أكثر من سبع سفن حربية كبيرة لم يتجاوز عدد بحارتها أكثر من أربع مائة وستون شخصاً غلب أن البوكيرك القائد المتهلك لم يجد في قلة عدد السفن والجنود ما يمنعه من نيل مأربه في الاستيلاء على الجزيرة^(٤). وقد أبدى البرتغاليون استماتة في القتال حين بدءوا الهجوم وخاصة حينما أكد البوكيرك لجنوده أنه لا خيار لهم بين أمرين إما الانتصار أو يقطع المسلمون رؤوسهم وأعناقهم ويحملونها ضمن غنائمهم! ولدينا الكثير من التفاصيل عن معركة هرمز التي تعد أقوى المعارك البحرية التي خاضها البرتغاليون في بلاد الخليج العربي، حيث ذكر فارياسوسا أنه عند وصول البوكيرك إلى هرمز كان يحكمها سيف الدين وهو فتى صغير وكان يرأس مجلس البلاد ويدير أمور الدولة خوفاً عطاء وكان رجلاً حاذقاً

(١) Commentaries of Alfonso dalboquerque P. 78 FF.

(٢) دونالد هول : مرجع سبق ذكره ص ٢٩ .

(٣) ويلسن : مرجع سبق ذكره ص ٦٩ .

(٤) Steven, John, Manuel de Faria e Sousa, the Portuguese Asia vol. II pp. 250 FF.

شجاعاً بدأ استعداداه للقتال عندما سمع بما فعله البوكيرك في البلدان التي مر بها والتي كانت تعد تابعة لهرمز ولذلك بادر بالاستيلاء على جميع السفن الموجودة في الميناء واستأجر بعض الجنود من الأقاليم المجاورة وخاصة من الفرس والبلوش، وهكذا عندما وصل البوكيرك إلى هرمز كان قد احتشد في الميناء ما لا يقل عن ثلاثين ألف جندي كما كان في الميناء ما يقرب من أربعمئة سفينة مسلحة بالمدافع إلى جانب عدد لا يحصى من زوارق الشاطئ يستقلها مقاتلون خبراء في رمي الرماح والسهام^(١). وبالإضافة إلى ذلك عمل خووجه عطاء على استنفار ملوك المسلمين لنصرة هرمز ولجأ إلى الشاه إسماعيل الصفوي يلتمس منه العون والمساعدة ولكن الشاه لم يكن في وضع يسمح له بمساعدة هرمز إذ كان قد بدأ صراعه ضد السلطان سليم الأول سلطان الدولة العثمانية وكانت استعداداته العسكرية ضد العثمانيين في الشمال الغربي من بلاده تحول دون إرسال جزء من قواته إلى هرمز^(٢). ومن ناحية أخرى فيبدر أن الشاه إسماعيل الصفوي لم يعر حملة البوكيرك اهتماماً كبيراً إذ كان يعتقد أنها نوع من المناوشات التي تتلاشى بالسرعة التي بدأت بها ولذلك لم يفعل أكثر من تهديته رسول سيف الدين ملك هرمز مؤكداً له شدة اهتمامه بشئون امبراطوريته وعدم سماحه لأى مغير بأن يعيث بوحدة الأراضي الفارسية!

بدأت معركة هرمز بقصف البرتغاليين لجموع المقاتلين الذين احتشدوا على شواطئ الجزيرة وأحدث قصف المدفعية البرتغالية خسائر مروعة نظراً لتكلس المقاتلين ووقوفهم في مواجهة البرتغاليين في منطقة لا يزيد طولها عن ثلاثة أميال، وقد شعر المسلمون من أول وهلة أنه لا طاقة لهم بمنازلة البرتغاليين في الوقت الذي حاول فيه البوكيرك أن يثنى ملك هرمز عن مواصلة القتال ويدخل في طاعة ملك البرتغال ولكن الشيخ عطاء رفض أى نوع من

(١) المصدر السابق وكذلك ويلسن : مرجع سبق ذكره ص ٦٩ — ٧٠ .

(٢) Kelly, J., op. cit. P. 6.

الاستسلام وكان من رأيه مراوغة البرتغاليين وتفويت الفرصة عليهم أملا في أن تصل نجادات من المسلمين وشيوخ الخليج، ولما تكشفت لالبوكيرك مراوغة الشيخ عطاء أصدر أوامره باقتحام الميناء وتدمير واحراق جميع السفن التي أيدت عن آخرها^(١). وأجريت المفاوضات المسلحة بين الطرفين حين كانت مدافع الاسطول البرتغالي موجهة إلى الميناء حيث أعلن ملك هرمز ولاءه للبرتغاليين وتضمنت نصوص المعاهدة على أن يدفع ملك هرمز للبرتغاليين جزية سنوية قدرت بخمسة عشر ألف زرافين وعمد البرتغاليون إلى تأكيد سيادتهم على هرمز بطريقة تعسفية حيث أصدروا أوامره بمنع أية سفينة من ممارسة الملاحة في الخليج قبل حصولها على تصريح من السلطات البرتغالية وبذلك كتب البرتغاليون السطر الأول في سيادتهم البحرية والتجارية على الخليج العربي . وعلى أثر استيلاء البوكيرك على قلعة المدينة بدأ يستعد في بناء حصن كبير عرف فيما بعد بحصن النصر *Visa Senhora Da Victoria* وكان ذلك الحصن هو الأول في سلسلة كبيرة من القلاع والحصون العسكرية الشهيرة التي شيدها البرتغاليون على سواحل البلدان المطلة على الخليج العربي والمحيط الهندي^(٢)، ومن ذلك الحصن سوف تركز سيطرة البرتغاليين على الخليج العربي طيلة فترة استعمارهم التي استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان وأصدر البوكيرك أوامره المشددة بأن يتم بيع السلع البرتغالية بأسعار رخيصة بهدف كسب الأسواق التجارية لصالح البرتغال . والجدير بالذكر أن قبول ملك هرمز دفع الجزية إلى البرتغاليين قد أحدث أزمة سياسية بين فارس والبرتغال فعلى أثر مطالبة الشاه اسماعيل الصفوي للملك هرمز بدفع الجزية المفروضة عليه في كل عام طلب الأخير من البوكيرك بأن يوضح له ما يجب أن يفعله لإزاء هذا الطلب وكان رد البوكيرك هو أن مملكة هرمز قد أصبحت تابعة للملك البرتغال وأنه حصل عليها عن طريق

(١) ويلسن ، أرنولد : مرجع سبق ذكره ص ٧٠ — ٧١ .

(٢) هول (دونالد) : مرجع سبق ذكره ص ٢٩ انظر أيضا صادق نشأت تاريخ الخليج السياسي ص ٦١ — ٦٢ .

الحرب وبالتالي فإن على ملك هرمز أن يعلم بأنه في حالة دفع جزية لأي ملك آخر غير ملك البرتغال فإنه سوف يخلع من منصبه وتقلد السلطة لشخص آخر لا يخاف الشاه ! وأرسل البوكيرك إلى مبعوث الشاه اسماعيل الصفوي إلى هرمز كمية من الدخائر والأسلحة باعتبارها هي الجزية التي يمكن للملكة هرمز أن تدفعها إلى فارس . كما هدد البوكيرك مبعوث الشاه بأنه سوف يضع جميع المناطق الساحلية التابعة لفارس تحت سلطة البرتغاليين ^(١) .

على أنه مما تجدر الإشارة إليه أن البرتغاليين رغم انتصارهم في هرمز إلا أنهم لم يلبثوا أن أوقفوا عملياتهم العسكرية في الخليج العربي وفي تقديرنا أن ذلك يرجع إلى أسباب كثيرة يبرز من بينها اتجاههم إلى مواجهة قوة الماليك التي كانت في طريقها إلى المحيط الهندي هذا بالإضافة إلى أن البوكيرك بدأ يواجه حركات عصيان من بحارته ^(٢) . وهذه الحركات كانت تعد ظاهرة تميزت بها البحرية البرتغالية ويرجع سببها إلى أن كثيرا من البحارة البرتغاليين ومعظمهم من المغامرين كانوا قد قطعوا المسافات الطويلة لكي يحصلوا على الثروة من استغلال بلاد الهند الغنية ولذلك ساءهم أن يزج بهم في مغامرات عسكرية على طول سواحل بلاد العرب المجذبة ومع نجاح البوكيرك في قمع حركات التمرد التي واجهها إلا أنه واصل سياسة الانسحاب من هرمز وكان ذلك بناء على تعليمات وصلت إليه من فرانسيسكو دي الميدا D'Almeida أول نائب للملك البرتغال في الهند وكان يأمره في تلك التعليمات بفك الحصار على الفور . ومما تجدر الإشارة إليه بصدد ذلك أن دالميدا كان يختلف في الرأي مع البوكيرك ولا يشاركه في نزاعه المتشدد إذ كان يعتقد أنه ليس للبرتغال إمكانات بشرية لإقامة مستعمرات بعيدة عن الهند ولذلك يجب الاقتصاد على إنشاء وكالات لمزاولة الأعمال التجارية والاعتماد على

(١) ويلسن ، أرنولد : مرجع سبق ذكره ص ٧١ .

(٢) Faria e Sousa, The Portuguese Asia Vol. II pp. (٢)

السيطرة البحرية وهذه السيطرة كفيلة بالقضاء على التجارة الإسلامية وفي تلك الحالة ستختفي هرمز من تلقاء نفسها دون حاجة إلى احتلال عسكري فعلى . ولكن عام ١٥٠٩ لم يلبث أن شهد حدثين هامين كان لهما أثر كبير في تاريخ الخليج العربي ؛ ويرتبط الحدث الأول بهزيمة الأسطول المملوكي في ديو وما ترتب على تلك الهزيمة البحرية من احكام القبضة البرتغالية على بحر الشرق^(١). أما الحدث الثاني فقد ارتبط بعزل فرانسيسكو دى الميدا وتولية البوكيرك في منصب نائب الملك في الهند خلفا له . وعلى الرغم من أن دالميدا قد حقق انتصاراً بحرياً كبيراً على القوى الإسلامية بزعامة المماليك في ديو إلا أن قرار الملك البرتغالي فيكتور عما نويل كان صريحاً في عزله من منصبه ولعل ذلك يرجع إلى مخاوف ملك البرتغال من أن انتصار ديو قد يؤدي إلى تثبيتته في مركزه وخاصة أن دالميدا كان قد قضى ما يقرب من أربع سنوات في ذلك المنصب ١٥٠٥-١٥٠٩ ، ومثل هذه الفترة كانت تعد فترة طويلة بالقياس إلى الأنظمة البرتغالية التي وضعوها لحكم امبراطوريتهم وكانت تقضى بالأب يبقئ نائب الملك في الهند أو الموظفين العظام في مراكزهم أكثر من ثلاث سنوات ؛ حتى لا يغريهم بعسد المسافة بتحقيق مكاسب شخصية والاستفادة من صعوبة مراقبة حكومة لشبونة لهم .

وكان من أول أعمال البوكيرك حين وصل إلى الهند أن نقل مقر منصبه من كوشين إلى جوا الواقعة على ساحل ملبار والمطلية على بحر العرب ودل هذا الاجراء على اعتزام البوكيرك توجيه عملياته العسكرية نحو البحر الأحمر والخليج العربي كما أصبحت جوا منذ عام ١٥١٠ المركز الرئيسي للممتلكات البرتغالية في آسيا .

وليس من شك في أن طموحات البوكيرك هي التي مهدت الطريق لإنشاء امبراطورية برتغالية في الشرق وكانت اهتماماته تتجه إلى إقامة التحصينات

(١) Dodwell, H.H. and others, The Cambridge Shorter History of India pp. 385—389.—Delhi.

والقلاع العسكرية في كل مكان يوجد للبرتغاليين فيه مركز تجارى ولم يكن ذلك لغرض حماية التجارة البرتغالية فحسب وإنما كان الهدف هو أن يتمكن البرتغاليون من تدعيم نفوذهم في تلك المناطق واخضاع حكامها وشعوبها لسيطرتهم^(١). ولما كانت هرمز هي السوق الرئيسية لمنطقة الخليج فقد صمم البوكيرك على إعادة السيطرة عليها واعتقد أنه لو نجح في احتلالها فإن ذلك سيخوله سلطة مطلقة على تجارة الخليج العربي^(٢). ولذلك بادر في عام ١٥١٣ برسالة حملة بقيادة القائد البرتغالى بىرو الذى شدد حصاره على الجزيرة^(٣)، ولم يتردد أثناء عمليات الحصار وخلال المفاوضات في طعن الشيخ عطاء مستشار أمير هرمز ولم يجد الأمير سيف الدين مفرا من الاستسلام حيث فرض عليه البرتغاليون شروطا قاسية كان من بينها قبول حماية البرتغاليين في مقابل الابقاء على الحكم الوطنى في الجزيرة بالإضافة إلى دفع غرامة عسكرية وجزية سنوية كبيرة لحكومة البرتغال إلى جانب منح البرتغاليين مزايا في المعاملات التجارية كان من أهمها إعفاء البضائع البرتغالية من الضرائب، كما تعهد الأمير سيف الدين بتقديم الخيامات والعمال اللازمين لاستكمال بناء القلعة العسكرية التى وضع البوكيرك أساسها خلال حصاره لهرمز قبل ذلك بعدة سنوات^(٤). وفي هرمز استهدف البرتغاليون القضاء على التجار الوطنيين من عرب وفرس وغيرهم حيث كانوا يعتقلون البعض منهم بحجة خطرهم ومعاداتهم للنظام البرتغالى ويفتشون متاجر البعض الآخر وينهبونها ويستولون على ما فيها من ذهب ومجوهرات وبضائع متذرعين في ذلك بأوهى الأسباب كما منع البرتغاليون الصلاة في المسجد الجامع في هرمز واعتبروا عدم التعاون مع البرتغاليين جرما يعاقب مرتكبه بالموت^(٥). وعلى

(١) ويلسن : مرجع سبق ذكره ص ٦٤-٦٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٦ .

(٣) محمد بن عبد الله السالى وناجى عساف : عمان تاريخ يتكلم ص ص ١٧٩ - ١٨١

دمشق ١٩٦٣ .

(٤) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج ج ١ ص ٧ .

(٥) Travels of Teixeira pp. 265-266 London 1902.

الرغم من أن الشاه اسماعيل الصفوى احتج على الاعتداء البرتغالى على هرمز إلا أنه لم يقم بدور إيجابى ضد البرتغاليين إذ كان منشغلاً بصراعه ضد العثمانيين وكانت هزيمته فى جالديران ١٥١٤ سبباً فى مهادنته للبرتغاليين خاصة بعد التفوق الذى أحرزوه فى هرمز على أمل الاستعانة بهم ضد العثمانيين ، واستغل البرتغاليون من ناحيتهم الصراع الصفوى العثمانى لى ينفذوا إلى صداقة الصفويين وبصدد ذلك أرسل البوكيرك مبعوثاً من قبله يدعى روى جويز إلى الشاه اسماعيل ومعه رسالة من البوكيرك يبدى فيها تقديره للشاه بسبب احترامه للمسيحيين فى بلاده ويعرض عليه الأسطول والأسلحة والجنس لاستخدامها ضد قلاع الترك فى الهند ؛ وأنه إذا أراد الانتفاض على بلاد العرب أو مهاجمة مكة فسيجده بجانبه أمام جدة أو فى عدن أو البحرين أو القطيف أو البصرة أو على امتداد الساحل الفارسى وسينفذ له كل ما يريد كما أوصى البوكيرك مبعوثه بابر از عظمة البرتغال وما حققته من انتصارات فى إفريقيا والهند وأمره بالتعرف على أوضاع المسيحيين فى فارس وأن يعرض على الشاه مشروعاً للتحالف العسكرى بينه وبين البرتغاليين تكون من ثمرته أن تأخذ فارس مصر وتأخذ البرتغال فلسطين . ولم يكن لذلك المشروع الخيالى أى أثر إيجابى بطبيعة الحال غير أنه لما كان أهالى هرمز يتوقعون أن يضحى ببلادهم فى حالة نجاح مهمة المبعوث البرتغالى فقد دبروا حيلة لسمه والتخلص منه وانقطعت أخبار جويز منذ ذلك الوقت^(١) . وفى عام ١٥١٤ لاحظ البوكيرك أن ملك هرمز أصبح صنيعة فى يد الشاه وأنه من المحتمل أن يطرد البرتغاليين من هرمز ولذلك قام البوكيرك بزيارة عسكرية إلى هرمز وفى خلالها تم التوصل إلى اتفاق بين الفرس والبرتغاليين سمح بموجبه لملك هرمز بالاستمرار فى ممارسة سلطاته باسم ملك البرتغال وعين ابن أخيه بيرو قائداً على قلعة هرمز ورحل البوكيرك إلى الهند على ظهر السفينة فلورا دى روزا وكانت حالته الصحية متدهورة حتى أنه مات فى جوا فى فبراير ١٥١٥^(٢) ؛ عقب وصوله إليها مباشرة . ومما تجدر

(١) صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ص ١٧ .

(٢) ويلسن : مرجع سبق ذكره ص ٧٥ وكذلك ج . ج لوريمر دليل الخليج ج ١ ص ٨

الإشارة إليه أن نجاح البرتغاليين في تثبيت نفوذهم في هرمز أكد للصفيوين أن البرتغاليين قد أصبحوا يشكلون قوة بحرية لا قبل لهم للتصدي لها وبدأوا يعملون منذ ذلك الوقت على كسب صداقتهم للانتقام من العثمانيين ففي عام ١٥١٥ وصل مبعوث من الشاه إسماعيل الصفوي إلى قاعدة البرتغاليين في هرمز وكان يحمل عدة مطالب من بينها أن تقدم البرتغال سفنها لفارس كي تمكنها من احتلال القطيف والبحرين وأن يساعد البرتغاليون الشاه في قمع ثورة قامت ضده في مكران وأن تكون جوا - مركز البرتغاليين في الهند - مفتوحة للتجارة الفارسية^(١)، ورحب البرتغاليون بطبيعة الحال بتلك الاتفاقية التي ضمنوا بها تقاعس فارس عن نشاطها العسكري في الخليج العربي .

وعلى أثر وفاة البوكيرك تم تعيين سواريز Soarez خلفاً له في منصب نائب الملك في الهند واتباع الحاكم الجديد سياسة كانت تختلف تماماً عن سياسة سلفه وكان لتلك السياسة أثر كبير في تطور الأحداث السياسية والاقتصادية في منطقة الخليج ذلك أن سواريز كان يهدف إلى انعاش التجارة البرتغالية سلمياً دون اللجوء إلى التنكيل أو البطش ومن ثم بادر إلى تعيين ضباط برتغاليين لتحصيل الضرائب من المراكز التي أقامها البرتغاليون في هرمز وغيرها ، وفي عهد سواريز تغيرت معالم السياسة البرتغالية في الشرق إذ كان البرتغاليون قبل ذلك الوقت يعتمدون على قوتهم العسكرية وليس على ثروتهم أما بعد ذلك فقد انغمسوا في التجارة بل ونحول القادة العسكريون إلى تجار^(٢) ، إذ هدفت السياسة البرتغالية الجديدة إلى إطلاق المجال للنشاطات التجارية التقليدية في الخليج ولكن بشرط أن يتم ذلك تحت إشراف البرتغاليين وهاندتهم وتمكن البرتغاليون بفضل ذلك التحول من تحقيق العديد من المكاسب والاستفادة من الأنماط التجارية التقليدية وقد بدأت بالفعل كميات كبيرة من البضائع تتدفق إلى الخليج العربي والبحر الأحمر ولعل ذلك ينفي

(١) صالح أوزبران : البرتغاليون والأتراك العثمانيون في الخليج العربي ص ١٩ - ٢٠
البصرة ١٩٧٩ .

(٢) ويلسن : مرجع سبق ذكره ص ٧٨ .

ما تردد ذكره بين كثير من الباحثين من أن وصول البرتغاليين إلى الهند بعد اكتشافهم الطريق رأس الرجاء الصالح قد قضى تماماً على الطرق البحرية التقليدية التي كانت تمر بها تجارة الشرق في طريقها إلى أوروبا . ومع ذلك فإن تلك السياسة المرنة التي اتبعتها لوبو سواريز وأعاد بها النشاط التجاري إلى حد كبير لموانئ الخليج لم تخفف الأضرار التي كان يعاني منها التجار العرب والمسلمين . وكانت هذه الأضرار تتمثل في عبء الضرائب التي كانت تفرض عليهم وبذلك لم ينظر عرب الخليج إلى السياسة الجديدة على أنها كانت تستهدف تخفيف السيطرة الاحتكارية وإنما نظروا إليها باعتبارها زيادة في التحكم والسيطرة البرتغالية . ولم تلبث أن استعرت الكراهية في نفوس عرب الخليج بسبب التعسف في فرض الضرائب بالإضافة إلى التسلط العسكري البرتغالي الذي لم يقتصر على هرمز وإنما امتد إلى غيرها من موانئ الخليج وخاصة حينما اتجه البرتغاليون بحكم حمايتهم لهرمز وتصرفهم في شئونها إلى السيطرة من خلالها على البحرين والاحساء والقطيف وغيرها من المناطق التي كانت تابعة لمملكة هرمز فباسم ملك هرمز خاض البرتغاليون صراعاً ضد بني جبر في البحرين والاحساء والقطيف وفيما يرجع أن ملوك هرمز اضطروا إلى هذا الصراع بعد أن ألزمهم البرتغاليون بدفع جزية سنوية كبيرة لم يكن في طاقتهم دفعها إلا بالسيطرة على البحرين والمناطق الأخرى التي كانت تابعة لهم واستقل بها بنو جبر وتشير المصادر البرتغالية^(٢) لتلك الفترة التي نتج عنها إلى أن ملك هرمز طورانشاه الذي خلف سيف الدين أظهر للبرتغاليين عجزه الكامل عن دفع المبالغ التي الزموا بها وعلل ذلك بأن حاكم البحرين مقرر بن زامل من بني جبر لم يكن يدفع له بانتظام المبالغ المالية التي كانت مقررة عليه سنوياً من موارد البحرين وأكثر من ذلك أنه بدأ ينتهج سياسة هدف بها إلى الانفصال عن مملكة هرمز مشتهراً فرصة خضوعها للسيطرة البرتغالية .

Steven (John), cf, Manuel de Faria e Sousa, The (١)
Portuguese Asia vol. II pp. 256—258.

(٢) على عبد الرحمن أبو حسين : بحث سبق ذكره .

ومن ثم توحدت مصالح البرتغاليين مع مصلحة طورانشاه في قيام تحالف بينهما ، وكان ذلك التحالف يستهدف استعادة ممتلكات هرمز . وتعرضت البحرين بالفعل لهجوم برتغالي - هرمزي مشترك في عام ١٥٢٠ أثناء تغيب السلطان مقرن بن زامل حيث كان قد سافر في ذلك العام إلى مكة لتأدية فريضة الحج وتولى المقاومة الشيخ حميد وهو قريب له كان قد أنابه عنه في الحكم قبل سفره . وعندما عاد السلطان مقرن قام بتجميع قواته وتعزيز استحكاماته في البحرين والقطيف في الوقت الذي عاود فيه البرتغاليون والهرمزيون هجومهم في يولييه ١٥٢١ وكانت القوات التي أعدها ملك هرمز تتكون من ثلاثة آلاف مقاتل من المرتزقة العرب والفرس تحملهم مائتي سفينة ويقودهم وزير ملك هرمز الرئيس شرف الدين أما القوة البرتغالية فكانت تتكون من أربعائة مقاتل تحملهم بضع سفن كبيرة الحجم مزودة بالمدافع الكبيرة بقيادة أنطونير دى كوريا الذي يعرف في المصادر البرتغالية ببطل البحرين . واستطاعت القوات الهرمزية والبرتغالية المشتركة دخول البحرين حيث نزلوا على مقربة من المنامة في الجزيرة الرئيسية ورغم البسالة التي قام بها السلطان مقرن في محاولته رد ذلك الهجوم الكاسح إلا أنه لم يابث أن وقع أسيرا في أيدي البرتغاليين الذين بادروا بإعدامه ولاشك أن ذلك أدى إلى انهيار معنويات قواته التي انسحبت إلى القطيف وكان مقرن بن زامل أول حاكم في شرق العالم الاسلامي يلقى حتفه في معركة ضد المستعمرين البرتغاليين . ومما تجدر الإشارة اليه أننا نجد اشارات إلى تلك الأحداث رواها المؤرخ المصري ابن إياس ولكن مما يسترعى الانتباه أنه وصف السلطان مقرن بالتخاذل وأنه بعد وقوعه في أسر البرتغاليين أخذ يتوسل اليهم بالمال للبقاء على حياته^(١) . وعلى العكس من ذلك نجد المصادر البرتغالية تصف السلطان مقرن بالشجاعة والصمود بل أننا نجد في تلك المصادر ما يناقض رواية ابن إياس حول مصير ذلك السلطان فبينما يفهم من رواية ابن إياس أن السلطان مقرن قد وقع حيا في أيدي البرتغاليين أثناء حروبه معهم ؛ وأنه عرض عليهم أموالا كثيرة ليطلقوا

(١) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٥ ص ٤٣١ .

سراحه إلا أنهم رفضوا ذلك وقتلوه ، نجد المصادر البرتغالية وكتابتها كانوا قريين من أرض المعركة يؤكدون أن السلطان مقرن مات متأثراً بجراحه وأن قائد قوات هرمز هو الذي أمر بعض ضباطه بانتزاع جثته حيث قاموا بقطع رأسه وحملوها إلى هرمز^(١) . ومع ذلك فإذا صححت رواية ابن إياس فمن المحتمل أن تكون قد دارت مفاوضات بين السلطان مقرن والبرتغاليين قبل الهجوم أو في خلاله أبدى فيها استعداداً بأن يدفع للملك هرمز ما في ذمته من ديون إلا أن اشتداد المعارك التي راح ضحيتها كانت تؤكد أن هذا العرض كان مصيره الفشل . وهكذا انتهى الأمر بنجاح البرتغاليين وملك هرمز في انتزاع البحرين ، وتم تعيين حاكم من هرمز على البحرين يستند على حامية برتغالية وفضلاً عن ذلك فقد بادر البرتغاليون ببناء قلعة ضخمة في الجزيرة الكبرى لا تزال أطلالها قائمة حتى يومنا هذا^(٢) . وعلى الرغم من النجاح الذي أحرزه البرتغاليون والهرمزيون في السيطرة على البحرين إلا أنهم لم يتمكنوا من التقدم إلى القطيف بسبب عنف المقاومة العربية وخوفاً من أن يزج بهم عرب القطيف إلى داخل الجزيرة العربية .

ولم يكن مصرع السلطان مقرن وخضوع البحرين حدثاً عابراً وإنما أحدث صدى كبيراً ورنه حزن وأسى في أنحاء الخليج العربي بل إن ابن إياس نفسه الذي اتهم السلطان مقرن بالتخاذل على نحو ما أشرنا إلى ذلك لم يردد في أن يعبر عن حزنه ويعلق على استشهاده بأنه كان من أشد الحوادث في الإسلام وأعظمها . وقد يكون من المفيد بصد ذلك أن ننقل جزءاً من النص الذي أورده ابن إياس في حوادث عام ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م حيث جاء فيه « وأشيع قتل الأمير مقرن أمير عرب بني جبر متملك جزيرة البحرين إلى بلاد هرمز الأعلى وكان أميراً جليل القدر معظماً مبهجلاً في سعة من المال مالكي المذهب سيد عربان المشرق على الإطلاق وكان قد أتى إلى مكة وحج في العام الماضي

(١) Commentaries, Op, cit. vol. IV pp. 165 ، 192—174.

(٢) لا تزال أطلال القلعة البرتغالية قائمة حتى اليوم على الساحل الشمال للجزيرة الكبرى في البحرين وتعرف حالياً باسم قلعة العجاج شاهدة على الاحتلال البرتغالي للبحرين . انظر ج . ج لوديمر ج ٣ ص ٢٦٧ .

وكان يجلب إلى مكة اللؤلؤ والمعادن الفاخرة من المسك والعنبر والعود القهاري والحريز الملون وغير ذلك من الأشياء التحفة ، قيل إنه لما دخل إلى مكة والمدينة تصدق على أهل مكة والمدينة بنحو خمسين ألف دينار فلما حج ورجع إلى بلاده لاقتة الفرنج في الطريق وتناحرت معه فانكسر الأمير مقرن وقبضوا عليه باليد وأسروه فسألهم بأن يشتري نفسه منهم بألف ألف دينار فأبوا الفرنج ذلك وقتلوه بين أيديهم ولم يغن عنه ماله شيئا وملكوا قلعتها التي هناك واستولوا على أموال الأمير مقرن وبلاده وكان ذلك من أشد الحوادث في الإسلام وأعظمها وقد تزايد شر الفرنج على شواطئ البحر الأحمر وسواحل المحيط الهندي والأمر لله تعالى ^(١) .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من التحالف الذي حدث بين البرتغاليين ومملكة هرمز إلا أنه لم ينقض وقت يذكر حتى تبين للملك طور انشاء سطوة البرتغاليين واستغلالهم لهرمز وأنهم لم يهدفوا من ذلك التحالف إلا التمهيد لسيطرتهم العسكرية والتجارية على المنطقة وتأكد له ذلك حينما بادر البرتغاليون بتعزيز استحكاماتهم العسكرية وطلبوا منه اطلاق يدهم في التجارة والملاحاة في جميع المناطق الخاضعة لسيادته في الخليج، العربي ومن ثم أخذ طور انشاء يترقب فرصة تسنح له ولعماله سواء من كان منهم في عمان أو البحرين أو غيرها من مقاطعات الخليج الأخرى بهدف التحرر من السيطرة البرتغالية وسرعان ما جاءت تلك الفرصة حين وصلته الأنباء بأن البرتغاليين يواجهون صعابا في الهند وأصبحوا مضطرين إلى سحب جزء كبير من قواتهم في الخليج لمواجهة مشاكلهم هناك ولذلك بادر طور انشاء باصدار أوامره السرية إلى كل الرؤساء التابعين له في عمان والبحرين والقطيف لاعلان الثورة ضد البرتغاليين ، وتمكن عرب الخليج من أن يقضوا على عدد كبير من البحارة والجنود البرتغاليين وخاصة في البحرين حيث انتقم سكانها شر انتقام من البرتغاليين لمقتل أميرهم مقرن .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٥ ص ٤٣١ .

وقعت هذه الثورة في ٣٠ نوفمبر ١٥٢١ ويرجع أرنولد ويلسن سببها إلى تعيين بعض المسؤولين البرتغاليين كمشرفين على الجمارك في هرمز وأنهم بسبب معاملتهم الصلغة تسببوا في قيام تلك الثورة حين أخذ سكان الخليج يضيّقون بالحكم البرتغالي بما اتصف به من قسوة وتعسف في جمع الأموال دون ضوابط^(١). هذا بالإضافة إلى ما سبق أن أشرنا إليه من أن ملوك هرمز لم يلبث أن تبينوا بأنفسهم مدى استبداد البرتغاليين وأن اتجاّهم للتحالف معهم لم يكن إلا مجرد حجة تذرّعوا بها لفرص سيطرتهم على شعوب الخليج باسمهم^(٢).

ومما تجدر الإشارة إليه أن كثيراً من المصادر الأجنبية قد تعرضت لتلك الثورة ولعل أبرز ما نعرفه عنها جاء في دراسة ميلز Miles الذي ذكر أنه في عام ١٥٢١ حدثت ثورة منظمة شملت الساحل العربي وجزيرة البحرين بسبب عدم رضا ملك هرمز عن التدخل البرتغالي المباشر في تنظيم دخل مملكته ونتيجة لتدخل البرتغاليين المستمر في أعمال الجمارك، وذكر أن ملك هرمز ووزرائه هم الذين خططوا لتلك الثورة حيث أرسلوا الكتب إلى عمالهم التابعين لهم على الساحل العربي للخليج لأحداث الثورة في جميع هذه الأماكن في وقت واحد^(٣)، ولذلك فإن من الأمور التي تبعث على الاهتمام أكثر مما تثير الدهشة أن يتوصل عرب الخليج في ذلك الوقت المبكر إلى خطة محكمة لتوقيت الثورة ومهاجمة الحصون البرتغالية دفعة واحدة وهو الأمر الذي أدى إلى إيقاع خسائر فادحة بالبرتغاليين بل كادت هذه الثورة تقضي على الوجود البرتغالي برمته خاصة حين ثار سكان البحرين وقتلوا قائد الحامية البرتغالية وعدداً كبيراً من جنودها. ومع ذلك فإنه على الرغم من التقدم السريع الذي أحرزه الثوار إلا أن هذه الثورة فشلت في تحقيق هدفها

(١) ويلسن ، أرنولد : مرجع سبق ذكره ص ٧٩-٨٠ .

(٢) عباس إقبال : مطالعات در باب بحرين وسواحل وجزاير خليج فارس ص ٦٣ - ٦٤ القاهرة ١٩٥٦ .

Miles (Samul), Countries and Tribes of the Persian (٣)
Gulf vol. II P. 150 ff. London 1919.

وربما يعزى ذلك في الدرجة الأولى إلى الخلافات التي كانت لاتزال قائمة بين شيوخ الجبور ومملكة هرمز؛ ومن ثم وجد البرتغاليون في تلك الخلافات فرصة سانحة لاستغلالها وخاصة حينما تعهد الشيخ حسين بن سعيد من شيوخ بني جبر، وكان يسيطر على معظم المناطق العمانية، للقائد البرتغالي دون لوبز Lopes بمهاجمة صحار التي كانت خاضعة في ذلك الوقت لمملكة هرمز من البر في الوقت الذي يقوم فيه البرتغاليون بمهاجمتها من البحر ووعدهم البرتغاليون الشيخ حسين بأن يسندوا إليه الحكم في صحار بشرط اعترافه بالسيادة البرتغالية، ونتيجة للإمدادات التي وصلت للبرتغاليين من مسقط فقد طور انشاه الأمل في نجاح الثورة وبالتالي بدأ يتخذ إجراءات انتقامية ضد البرتغاليين في هرمز كما أشعل النيران في المدينة حيث ظلت مشتعلة بها عدة أيام.

ومما يجدر الإشارة إليه بصدد ذلك أن كثيراً من الكتاب الإيرانيين يركزون على هذا الموقف المتخاذل الذي وقفه فرع الجبور في عمان واعتبروه بمثابة خيانة قام بها العرب^(١) وناقضوا أنفسهم في تغاضيبهم عن تحالف الشاه إسماعيل الصفوي مع البرتغاليين وفي موقف ملوك هرمز الذين أتاحوا الفرصة للبرتغاليين لتثبيت أقدامهم في الخليج على نحو ما أشرنا إليه وفي اعتقادنا أن الأمر لم يكن خيانة قام بها بنو جبر في عمان وهم الذين أبدوا صلابة وشجاعة منقطعة النظير في مقاومتهم للبرتغاليين عند بدء تسلطهم على المنطقة وإنما كان سبب الموقف الذي اتخذته بنو جبر في عمان يرجع أساساً إلى أن طبيعتهم البدوية طغت على نفوسهم واستبدت بهم الرغبة للانتقام من ملك هرمز الذي سبق له أن تعاون مع البرتغاليين مما كان سبباً في قتل زعيمهم الكبير مقرن بن زامل؛ ولعل ما يؤكد ذلك تمكنهم من قتل الملك طور انشاه الذي كان قد التجأ إلى جزيرة قشم هرباً من البرتغاليين بعد فشل ثورته حيث أرسل الشيخ حسين بن سعيد زعيم بني جبر في عمان بعض أتباعه ليثأروا منه وبذلك نجح بنو جبر وإن كان ذلك على حساب القضية العامة، في تصفية

(١) عباس إقبال - مرجع سبق ذكره ص ٦٣ - ٦٥.

حسابهم مع عدوهم اللود طورانشاه الذى حل محله فى مملكه هرمز الأمير محمد شاه ولم يكن قد تعدى الثالثة عشرة من عمره^(١) .

انهيار الحكم الوطنى فى هرمز :

كان من الطبيعى أن يؤدى فشل ثورة هرمز إلى وضع نهاية للحكم الوطنى. فى هرمز إذ أنه فى أعقاب فشل تلك الثورة أخذ البرتغاليون يحولون حمايتهم المقنعة إلى تسلط عسكري سافر كما أخذوا يخضعون المملكة والمناطق التابعة لها إلى شتى أساليب الضغط والإرهاق حتى أن سكانها أخذوا يفرون بأنفسهم إلى جزر وموانئ الخليج الأخرى . ومع ذلك فإن البرتغاليين لم يتمكنوا بأسلوبهم التعسفى أن يديروا الحركة التجارية فى الخليج ، وبدأ الركود الاقتصادى يتضح فى مملكة هرمز ، وانتهت البقية الباقية من عمراتها الحضارى . وازدهارها الذى عاشته من قبل ، واعتمد البرتغاليون فى سيطرتهم على هرمز التى استمرت حتى عام ١٦٢٢ على معاهدة ميناب ١٥٢٣ ، وهى المعاهدة التى عقدها دورات ميز Meize نائب الملك فى الهند مع أمير هرمز الجديد محمد شاه الذى خلف طورانشاه فى الحكم فى يولية ١٥٢٣ واستندت تلك المعاهدة على المعاهدة السابقة التى عقدها البوكيرك مع سيف الدين ، وبمقتضى معاهدة ميناب تعهد الأمير محمد شاه بتسليم هرمز للبرتغاليين متى طلب ذلك ملك البرتغال وشددت بنود المعاهدة من قبضة البرتغاليين على هرمز وإذا كان البرتغاليون قد اعترفوا لمحمد شاه بالحكم إلا أنه كان واضحا فقدانه لسلطاته تماما بخضوعه للإدارة البرتغالية مما كان يعنى فى حقيقة الأمر سقوط الحكم الوطنى فى هرمز ، ويتضح لنا ذلك من شروط المعاهدة التى نصت على زيادة قيمة الجزية التى يدفعها ملوك هرمز سنويا إلى البرتغاليين حيث وصلت إلى ٦٠,٠٠٠ زيرافين ، كما أقرت معاهدة ميناب العديد من التنظيمات التى كان يهدف البرتغاليون من ورأئها إلى تعزيز مكانتهم فى هرمز والسيطرة على الحركة التجارية فى الخليج وكان من أهمها تبعية تجار هرمز للإدارة البرتغالية فى مقابل

(١) ويلسن : مرجع سبق ذكره ص ٧٩ — ٨٠ .

أن يضمن البرتغاليون لهم حرية الملاحة والتجارة في المحيط الهندي باستثناء القيود التي كان يفرضها البرتغاليون على تجارة البحر الأحمر وسواحل شرق إفريقيا، كما تضمنت المعاهدة إلى جانب ذلك بعض القواعد المنظمة لتجارة الأسلحة. ونتيجة للإجراءات القهرية التي فرضها البرتغاليون فيما يتعلق بالإشراف على الحركة التجارية وتحصيل الرسوم الجمركية أصبح البرتغاليون هم الملاك الفعليون ولم يعد للحكام هرمنز أى أثر في توجيه الأمور.

استمرار حركات المقاومة ضد البرتغاليين في مسقط والبحرين :

وعلى الرغم من التعاضم الذي وصلت إليه السيطرة البرتغالية في أعقاب معاهدة ميناب ١٥٢٣ إلا أن عرب الخليج لم يستسلموا تماماً للبرتغاليين إذ تمدنا المصادر بمعلومات كثيرة عن حركات المقاومة التي قامت ضد البرتغاليين في كل من مسقط والبحرين في عام ١٥٢٦ أعلن سكان مسقط وقلعات عداءهم للبرتغاليين نتيجة كثرة عمليات الابتزاز في تحصيل الضرائب التي كان يقوم بها قائد الحامية البرتغالية في مسقط ديوجو دي ميلو^(١) Diagode Mello وعلى أثر اتجاه البرتغاليين في عام ١٥٢٩ إلى التخلص من الوزير شرف الدين الذي كان يسير أمور هرمنز بأسلوب معاد للمصالح البرتغالية أعلن سكان البحرين احتجاجهم ضد البرتغاليين وامتنعوا عن دفع الجزية المقررة عليهم وفشل قائد الحامية البرتغالية في البحرين في قمع تلك الحركة نتيجة انتشار الأمراض ونقص البارود مما أجبر البرتغاليين على سرعة الانسحاب إلى قاعدتهم الرئيسية في هرمنز^(٢)، ولكن لم يلبث أن عاود البرتغاليون فرض سيطرتهم على البحرين بفضل الامدادات التي جاءتهم من جوا وبادر البرتغاليون نتيجة لتلك الحركة التي قام بها سكان البحرين إلى

(١) Whiteway, The Rise of the Portuguese in Indian Ocean (١)
pp. 222—223 London 1967.

(٢) أوزبران - مرجع سبق ذكره ص ٢٧/٢٥ .

خلع حاكمها من أسرة الجبور وولوا بدلا منه حاكما فارسيا سنيا ولعل البرتغاليين قد اختاروا حاكم البحرين على هذا النحو لأنهم كانوا يهدفون بذلك أن يختلف في جنسه عن سكان البحرين ومعظمهم من العرب كما يختلف بحكم مذهبه مع عدد كبير من سكانها الشيعة وبذلك يضمن البرتغاليون عدم انضمام حاكم البحرين إلى أية حركة تقوم ضدهم فضلا عن ضمان عدم ولائه للأسرة الصفوية الحاكمة في فارس بحكم كونها أسرة شيعية^(١) ومع ذلك فما يستلفت النظر أنه على الرغم من أن السيطرة البرتغالية استمرت قائمة على البحرين خلال الفترة من ١٥٢٩ حتى عام ١٦٠٢ إلا أن الحكم البرتغالي لم يكن مستقرا حيث توالى حركات المقاومة التي قام بها سكان البحرين ضد الوجود البرتغالي وما اتسم به من تعسف في فرض الضرائب حتى أن السنوات الفعلية التي مارس فيها البرتغاليون سيطرتهم على البحرين لم تتعد أكثر من أربعين عاما من تلك الفترة . وتذكر بعض المصادر أن السبب المباشر في طرد البرتغاليين من البحرين في عام ١٦٠٢ هو مسلك حاكمها المعين من قبل البرتغاليين الذي قام بقتل أحد تجار اللؤلؤ الأثرياء في البحرين طمعا في ثروته ولسكن تمكن شقيق القتل من الانتقام لمقتل أخيه ونجح في الاستيلاء على قلعة البحرين وأعلن نفسه حاكما على الجزيرة باسم الأمير ركن الدين مسعود ، ولما كان هذا التصرف قد أثار عليه حاكم هرمز الذي كان يطالب بالبحرين ويعتبرها تابعة له فقد طلب الأمير ركن الدين المساعدة من حاكم شيراز الذي سارع بإرسال قوة عسكرية نجحت في الاستيلاء على البحرين باسم الشاه عباس الكبير وفشل كل من حاكم هرمز والبرتغاليين في استعادة البحرين في الوقت الذي واصل فيه الشاه عباس مخططاته ضد البرتغاليين فنجح في السيطرة على بوشهر وأقدم على حصار القاعدة البرتغالية في هرمز بتعاونه مع الانجائز في عام ١٦٢٢ وبدأت سلطة البرتغاليين تتداعى حتى وصلت إلى الانهيار الفعلي خلال النصف الثاني من القرن

(١) أحمد محمود صبحي : البحرين ودعوى إيران من ٦٦ — ٦٧ .

السابع عشر وعلى الرغم من أن الوجود البرتغالي ظل قائماً حتى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر إلا أنه خلال تلك السنوات ظل البرتغاليون معزولين عن الأهالي ولم يكن أمامهم سوى الاعتصام في قلاعهم وحصونهم الضخمة موصدين على أنفسهم أبوابها^(١).

نخلص من ذلك أنه على الرغم مما عرف عن البرتغاليين من تسلط عسكري متفوق إلا أن ذلك لم يقف حائلاً دون مواجهتهم بالكثير من حركات المقاومة التي تعرضوا لها من عرب الخليج وربما نجد تعليلاً في تعدد تلك الحركات في الرغبة في التخلص من نفوذهم وإكسار احتكارهم التجاري تحقيقاً للمصالح الاقتصادية للتجار العرب في الخليج كما لا يمكننا في نفس الوقت استبعاد الدافع الديني الذي كان ظاهراً في كثير من تلك الحركات وخاصة حيناً بدأ الأتراك العثمانيون يظهرُونَ في مياه الخليج باعتبارهم ذوى زعامة دينية إسلامية. ورغم أن التقدم العثماني جاء متأخراً بعض الشيء كما لم تكن لدى العثمانيين المقدرة البحرية للقضاء على البرتغاليين إلا أن أهمية التقدم العثماني أنه أعطى لسكان الخليج دفعة قوية وحاسماً دينياً للتحرر من السيطرة البرتغالية.

الصراع العثماني البرتغالي :

كان متوقعاً عقب الفتح العثماني لمصر في ١٥١٧ ، أن يبدأ العثمانيون صراعهم ضد البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي وخاصة بعد أن أمر السلطان سليم الأول أثناء وجوده بمصر ببناء ترسانة بحرية كبيرة في ميناء السويس ولكن دلت الأحداث الى تعاقبت حتى وفاته في عام ١٥٢٠ على أن هذا الصراع لم يدخل مرحلة التنفيذ الفوري إذ وجه السلطان سليم اهتمامه عقب عودته إلى الآستانة إلى تعزيز الأسطول العثماني في البحر الأبيض المتوسط وسار على منواله السلطان سليمان القانوني الذي جعل الأولوية في

(١) هول (دونالد) : عمان ونهضتها الحديثة ، مرجع سبق ذكره ص ٢١ .

برنامج العسكرية للجهة الأوربية ولا يمكن أن يكون ذلك استخفافاً من جانب هذا السلطان بقوة البرتغاليين وإنما يرجع إلى تقديره للموقف العسكري والسياسي العام في دولته . على أن مركز البرتغاليين لم يلبث أن تعرض لهزة عنيفة منذ أن فتح العثمانيون العراق في عام ١٥٣٤ حيث كان من أبرز نتائج هذا الفتح أن امتد النفوذ العثماني إلى سواحل الخليج في المنطقة الشمالية حيث دخل أمراء البصرة والبحرين والقطيف في طاعة العثمانيين ، كما حاول السلطان سليمان أن يسيطر على المناطق الجنوبية من الخليج وأعد من أجل ذلك حملة بحرية للاستيلاء على جزيرة هرمز والحاقي لإدارتها بالبصرة^(١) . وقبل أن نعرض للعمليات البحرية العثمانية ضد الوجود البرتغالي في الخليج العربي قد يكون من المناسب أن نشير في هذا المجال إلى أنه كانت هناك مجموعة من العوامل كان لها أثر بعيد في عدم تحقيق العثمانيين نتائج إيجابية في صراعهم ضد البرتغاليين وترتبط هذه العوامل ، في تقديرنا ، بفشل العثمانيين في إيجاد مواجهة إسلامية كبيرة بسبب الخلافات التي كانت قائمة بينهم وبين الدولة الصفوية في فارس ومن ناحية أخرى فشل العثمانيون بسبب بعض التصرفات الشاذة التي صدرت عن بعض قباطنتهم في تجميع القوى الإسلامية المحلية المنتشرة على سواحل الخليج والجزيرة العربية وشرق إفريقيا وبدلاً من أن تتكامل تلك القوى تحت زعامة العثمانيين دب الشك وعدم الثقة بين الفريقين وبالتالي لم يحدث تكتل بين القوى المحلية رغم ارتباط مصالحها واتساع ساحة المواجهة العثمانية البرتغالية التي شملت بالإضافة إلى الخليج والبحر الأحمر الجزء الغربي من المحيط الهندي . ولعل مما يستلفت النظر أنه على الرغم من الضعف الواضح في القوة البحرية العثمانية إذا ما قورنت بالقوة البحرية البرتغالية إلا أن المواجهة العثمانية للبرتغاليين استمرت أكثر من ثلاثين عاماً وعلى وجه التحديد بين عامي ١٥٥٠ و ١٥٨٣ وإن كانت متقطعة بسبب افتقار العثمانيين إلى القواعد العسكرية البحرية التي تمكنهم من الاستمرار في

(١) عبد العزيز الشناري : المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية - انظر أعمال ندوة دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ج ٢ ص ٦٨٢-٦٨٧ الدوحة ١٩٧٦ هـ

ذلك الصراع . وعلى أية حال فقد تميزت السنوات المشار إليها بمجموعة هامة من التطورات السياسية والعسكرية التي شهدتها منطقة الخليج وذلك منذ أن نزل العثمانيون إلى ساحة الصراع في أعقاب الانتصارات التي أحرزوها ضد الدولة الصفوية ونجاح السلطان سليمان القانوني ، كما سبق أن أشرنا ، في دخول بغداد ١٥٣٤ ومدة نفوذه إلى البصرة في عام ١٥٤٦ التي تحولت إلى قاعدة بحرية للعثمانيين للانطلاق منها صوب الأسطول البرتغالي الذي كان متمركزاً في كثير من القواعد البحرية في الخليج العربي والمحيط الهندي^(١) . وهناك دارت الكثير من المعارك البحرية بين الطرفين كانت أعنف من معارك خير الدين بربروسا الشهيرة في الحوض الجنوبي من البحر الأبيض المتوسط ، كما عمد البرتغاليون في كثير من الأحيان إلى مهادنة العثمانيين لكي يتمكنوا من تركيز نفوذهم والتصدى لردود الفعل العربية التي لم يخدم أوارها بين سكان الخليج . ويمكننا تأريخ العمليات البحرية العثمانية ضد البرتغاليين في عام ١٥٥٠ حين أرسل العثمانيون عمارة بحرية بقيادة سليمان باشا الخادم لمقاتلة البرتغاليين في البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي ، وكان سليمان باشا رجلاً خرفاً طاعناً في السن استطاع أن يثير المسلمين في عدن حين تقدم إليها بحملته وبدلاً من أن يكون عامل توحيد للقوى الإسلامية المحلية أصبح بسياسته الشاذة عاملاً من عوامل الفرقة خاصة بعد أن عمد إلى قتل أمير عدن من أسرة بني طاهر حين دعاه بطريقة غادرة إلى وليمة على ظهر سفينته وقد تركت هذه الفعلة الشنعاء تأثيرها على الأمراء المحليين الذين لم يرحبوا بتقدم العثمانيين إلى سواحلهم . وفي منطقة الخليج العربي استخدم العثمانيون قاعدة البصرة لتوجيه حملاتهم البحرية ضد البرتغاليين رغم أن البصرة كما هو معروف ميناء نهري أكثر من كونها ميناء بحري ، ومع ذلك فقد استخدمها العثمانيون للخروج بأسطولهم إلى مياه الخليج ووجد العثمانيون تجاوباً كبيراً

Haje Khalefah, The History of the Maritime Wars of (١)
the Turks pp. 68—72 London 1831.

من عرب الخليج للاحتواء بزعامتهم الاسلامية ؛ حتى أن سكان القطيف والاحساء بادروا باعلان أنفسهم رعايا عثمانيين وأكدوا رفض خضوعهم للمملكة هرمز التي كانت تعاني في ذلك الوقت من وطأة الاحتلال البرتغالي وكان قد سبق لسكان البحرين أن أعلنوا خضوعهم للعثمانيين على أثر فتحهم للعراق في عام ١٥٣٤ . وقد اعتبر العثمانيون المناطق التي أعلنت ولاءها لهم إيالة عثمانية أطلقوا عليها اسم إيالة الاحساء وعينوا عليها بيلربى أو أميراً أول وكان البيلربى يتشكل طبقاً للتقسيمات الادارية العثمانية من عدة سناجق حيث اعتبرت القطيف ضمن مجموعة سناجق إيالة الاحساء التي امتدت حدودها حتى وصلت جنوباً إلى شبه جزيرة قطر^(١) . وليس من شك في أن السيادة العثمانية التي أعلنت على الاحساء والقطيف قد أفزعت البرتغاليين خاصة بعد أن وقع الحصن البرتغالي في القطيف تحت السيطرة العثمانية في عام ١٥٤٧ وكان البرتغاليون يعتمدون على ذلك الحصن في السيطرة على المناطق الساحلية من شرق الجزيرة العربية ولذلك وجه البرتغاليون حملة كبيرة لاستعادة القطيف أسندت قيادتها إلى أنطوادى نوروها De Nnoronha وكانت هذه الحملة تتكون من الف ومائتي مقاتل وسبع سفن كبيرة الحجم هذا بالإضافة إلى قوات من هرمز صاحبت تلك الحملة وقدر عددها بأكثر من ثلاثة آلاف مقاتل وعلى الرغم من أن العثمانيين في القطيف لم يتعد عددهم أكثر من أربعمائة مقاتل إلا أنهم دافعوا عن أنفسهم ببسالة منقطعة النظير وإن كانوا قد اضطروا في نهاية الأمر إلى الاستسلام للبرتغاليين بعد أن عمد هؤلاء إلى فرض حصار على القلعة استمر ثمانية أيام ولم يكتف دى نوروها بمحاصرة القطيف وإنما واصل الزحف بقواته إلى البصرة باعتبارها قاعدة العثمانيين البحرية في الخليج ولكنه لم يستطع أن ينفذ خطته في انسيطرة عليها وذلك بسبب وصول أنباء تلك الحملة إلى بيلربك البصرة الذي سارع بتنفيذ خطة ذكية لتفادى الهجوم المرتقب بحيث جعل القائد البرتغالي

(١) أوزبران : مرجع سبق ذكره ص ٣٣ وما بعدها .

يعتقد بأن العثمانيين قد جمعوا حشودا كبيرة من القبائل العربية في البصرة ولما كان دى نورونها يخشى الاصطدام بتلك الحشود فقد عدل عن خطة الهجوم مفضلا التراجع إلى القطيف وهناك علم بأنه قد خدع إذ لم يثبت وجود أية استعدادات بحرية في البصرة لتتلافى الهجوم البرتغالي^(١).

أكدت معركة القطيف أنه لا قبل للعثمانيين التصدي للبرتغاليين في معارك بحرية نظامية وأن التفوق البحري البرتغالي لا يمكن مواجهته إلا بعمليات بحرية غير نظامية وذلك بسبب عدم التكافؤ في القوة البحرية بين الطرفين وقد أنيط بهذه العمليات غير النظامية أو الفدائية إلى مجموعة بارزة من القباطنة العثمانيين الذين خلد الكثير منهم أسماءهم ليس في الأعمال البحرية فحسب وإنما في المجال العلمي حيث اشتهر من بينهم من اهتموا بفنون البحر والملاحة من أمثال على بك جلبي ، ويرى بك الذي كان جغرافيا مشهورا وفنانا في رسم الخرائط . وقد تعددت ميادين العمليات العثمانية ضد البرتغاليين في الخليج العربي والبحر الأحمر وكان واضحا من ضراوة تلك العمليات أن العثمانيين كانوا يعملون بحماس لانتزاع السيادة البحرية من البرتغاليين^(٢) . وكان من أبرز القباطنة الذين تصدوا للنفوذ البرتغالي في الخليج يرى بك رئيس Pirri Reis الذي أبحر من السويس . التي أصبحت من أقوى القواعد العثمانية البحرية وكانت تصحبه خمس وعشرون سفينة كبيرة الحجم وقد نجح يرى بك في مهاجمة القلعة البرتغالية في مسقط حيث أعلن قائدها جوا دى ليزبوا Jao de Lisboa استسلامه للعثمانيين بشرط أن يسمحوا له ولمن معه من أفراد الحامية البرتغالية بالانتقال إلى هرمز بسلام ولكن يرى بك بادر بعد سيطرته على قلعة مسقط بتجريد الحامية من سلاحها وعرض قائد الحامية وكبار ضباطها إلى معاملة سيئة . وفي أكتوبر ١٥٥٢ صدر أمر من الأستانة إلى بيرلي البصرة فيه توضيح للتعليمات التي تعطى إلى يرى بك

(١) صالح أوربران : مرجع سبق ذكره ص ٤١ / ٤٢ .

(٢) Danvers. F, C, The Portuguese in India vol. I P. 497 (٢)
London 1894.

وفيهما كان يتحتم عليه بعد حملته الناجحة على مسقط أن يتجه إلى البصرة للاستعانة ببعض قواتها لكي يقوم بالهجوم على هرمز والبحرين غير أن بيرى بك وقد أغراه سهولة الانتصار في مسقط توجه مباشرة إلى هرمز حيث أطلق المدافع على قلعة البرتغاليين وحاصرها ستة عشر يوما ولكن البرتغاليين تمكنوا من الدفاع عن أنفسهم واضطر بيرى بك إلى الانسحاب إلى جزيرة قشم ومنها أبحر إلى البصرة بعد أن استولى على غنائم كثيرة منها حيث كان الأثرياء من التجار يقطنون تلك الجزيرة ، وفي البصرة لم يلبث أن دب الخلاف بينه وبين البيلاربي ولذلك غادر المدينة حاملا معه جميع الغنائم التي حصل عليها كما ضمنها الأسرى البرتغاليين . وقدرت بعض المصادر قيمة غنائمه بأكثر من مليون ريال من الذهب ^(١) ؛ في الوقت الذي أرسل فيه بيلاربي البصرة تقريراً إلى السلطان العثماني وفيما يبدو أن هذا التقرير لم يكن في صالح بيرى بك إذ أنه على أثر وصوله إلى السويس استدعى من قبل السلطان العثماني للرد على التهم المتعلقة بقلعة كفاءته وعدم نجاحه في عملياته في الخليج وفي الآستانة صدر ضده حكم بالاعدام وقطعت رأسه بالفعل في عام ١٥٥٣ ^(٢) . والجدير بالذكر أن كثيرا من المصادر التي تناولناها لم تستطع أن تعلق السبب الحقيقي لإعدام بيرى بك فيها من أشار إلى أن السبب الحقيقي لم يتضح تماما ومنها من أكد ، كما فعل فارياسوسا ، أنه تجاوزت العمليات الصادرة إليه وهو الأمر الأكثر احتمالا كما سبق أن أشرنا إذ أن السلطان سليمان القانوني قد أمر بيرى بك في أن لا يجد في أخذ هرمز قبل أن يذهب أولا إلى البصرة لكي يأخذ جنودا آخرين غير أن بيرى بك نتيجة لما وجده من ضعف البرتغاليين في مسقط اعتقد بأن الحالة في هرمز ستكون متشابهة وقدّر أن بإمكانه بالأسلحة والدخائر التي استولى عليها من قلعة البرتغاليين في مسقط أن يخضع البرتغاليين في هرمز ولكنه فشل على نحو ما رأينا بسبب صمود القلعة البرتغالية الحصينة في هرمز .

(١) ج . ج . لوريير : دليل الخليج ج ٣ ص ١١١ .

(٢) صالح أوزبران : مرجع سبق ذكره : انظر رسالة نورنها إلى نائب الملك في جوا ٣٠ أكتوبر ١٥٥٢ ص ٧٦ / ٨٠ .

وخلف يرى بك في قيادة العمارة العثمانية في الخليج العربي الرئيس مراد الذي قام بمجهود يائسة لاستدراج الأسطول البرتغالي خارج القواعد والحصون البرتغالية في الخليج كما فشل في ارجاع السفن العثمانية التي كانت راسية في ميناء البصرة إلى السويس. وخلفه في عام ١٥٥٤ سيدى على رئيس الجغرافى العثمانى المشهور الذى عهد إليه بمواصلة تلك المهمة فأبحر من البصرة في يولية ١٥٥٤ بخمس عشرة سفينة وذلك بعد أن وصلته الأنباء بأن البرتغاليين متجهون لاستعادة مسقط بقيادة فيرناندو نورونها Fernando de Noronha وبالقرب من ميناء خور فكان تقابل الأسطول البرتغالي مع الأسطول العثمانى حيث دارت معركة حامية الوطيس يمكن اعتبارها من أهم المعارك العثمانية البرتغالية في الخليج العربي. وقد وصف سيدى على في كتابه مرآة الزمان هذه المعركة بأنها كانت من أعنف المعارك البحرية التي خاضها بل كانت أكبر من المعارك التي خاضها خير الدين بربروسا في البحر الأبيض المتوسط وكان سيدى على قد عمل معه فترة من الوقت. وعلى الرغم من أن سيدى على سجل في هذه المعركة انتصاره على البرتغاليين إلا أن الأسطول البرتغالي بعد تراجعه لم يلبث أن أعيد إعداده وتجهيزه ، وتمكن فيرناندو من دخول المعركة للمرة الثانية ضد العثمانيين وفي هذه الجولة تكبد الأسطول العثمانى خسائر فادحة^(١). وعلى أثر فشل على بك في مهمته قام مصطفى باشا بيلربى الإحساء في عام ١٥٥٩ بمحاصرة المنامة بعدد كبير من انكشارية بغداد وحين وصلت أخبار هذا الحصار إلى هرمز بادر البرتغاليون بإرسال قطع من أسطولهم للتصدي للعثمانيين ؛ وبسبب نقص مؤن العثمانيين وذخيرتهم قرروا لإنهاء هذا الصراع وسلموا أسلحتهم للبرتغاليين واكتفى السلطان سليمان بإصدار فرمان بمنح حاكم البحرين الرئيس مراد لقب سنجق بك على الرغم من النفوذ البرتغالي الذى كان واضحاً في الجزيرة . ورغم توقف الحملات العثمانية على

Vambery A., Travels of the Turkish Admiral Sidi Aly (١)
Reis in India Afghanistan, Central Asia and Persia during the years
1553-1555 pp. 9-12. London 1899.

البحرين والمحسار النفوذ العثماني منها إلا أنها ظلت مع ذلك تشكل منطقة عازلة بين الأتراك العثمانيين في الاحساء والقطيف والبصرة وبين البرتغاليين في هرمز والمناطق التابعة لهم في مسقط والساحل الجنوبي للخليج . وفيما يبدو أن البرتغاليين حاولوا مهادنة العثمانيين ويتضح لنا ذلك حين أوفد نائب الملك في الهند رسولا إلى الآستانة في عام ١٥٦٢ لعرض مشروع للسلام بين الفريقين وهو مشروع لم يقدر له التنفيذ بسبب إصرار السلطان العثماني على كسر نظام الاحتكار البرتغالي وتأمين الطرق البرية والبحرية وحمايتها لصالح الرعايا والتجار التابعين للامبراطورية العثمانية . وعلم الرغم من أن عمليات العثمانيين قد توقفت في الخليج بسبب انغاسهم في الصراع ضد الفرس وخاصة حين أقدم الشاه طهماسب ١٥٢٤ / ١٥٧٦ على التقدم إلى الأراضي العثمانية إلا أنه لم تكذب تتوقف تلك العمليات في عام ١٥٧٥ حتى جدد السلطان العثماني أوامره بفتح البحرين وأصدر فرمانا إلى بيلربى بغداد باستطلاع الموقف بعد أن كتب بيلربى الاحساء إلى الدولة العثمانية بأن فتح البحرين سيضمن لها ٤٠,٠٠٠ فلورى سنويا . ولكن لم يلبث هذا المشروع أن توقف بعد أن تبين للدولة العثمانية أن هذا الدخول ليس وشيك الظهور وأنه قد يقل عن النفقات والمصروفات المحلية^(١) ولم تحاول الدولة العثمانية تجديد نشاطها في الخليج إلا في عام ١٥٨١ حين قدرت أهمية الاستفادة من فرصة ضم البرتغال إلى التاج الأسباني على عهد الملك فيليب الثاني في عام ١٥٨٠ حيث عهدت إلى على بك الذى ظهر في مياه الخليج للمرة الثانية بحصار قلعة البرتغاليين في مسقط وعلى الرغم من الانتصار الذى حققه في بداية الأمر إلا أن وصول الإمدادات السريعة من هرمز أجبرت العثمانيين على الانسحاب^(٢) . ولم يكن لتلك المغامرة أية فائدة تذكر بالنسبة للعثمانيين بل

(١) صالح أوزبران : مرجع سبق ذكره ص ٨١ انظر فرمان صادر إلى بيلربى بغداد نقلا عن مهمة دفترلى M DXXVII.

(٢) Steven, John. Manuel de Faria e Sousa, The Portuguese Asia vol. II Part II pp. 370---372.

على العكس من ذلك نهت البرتغاليين إلى ضرورة تعزيز قواتهم في مسقط
إذ اعتبر البرتغاليون سيطرة العثمانيين على مسقط بمثابة عار لحق بسلاحتهم
البحري ولعل ذلك مما دعا الحكومة الإسبانية التي كانت تشرف على المستعمرات
البرتغالية في ذلك الحين إلى إصدار تعليماتها بزيادة التحصينات العسكرية وبناء
قلعتين كبيرتين لا تزالان قائمتين حتى الآن تحيطان بخليج مسقط وتكسبه
جوا من الغموض والرغبة . وقد عرفت هاتان القلعتان باسم قلعة كابيتان
وسان جوا ويعرفان في الوقت الحاضر بقلعتي الميراني والجلالي وهما تسميتان
فارسيتان أطلقتهما الفرس على هاتين القلعتين خلال احتلالهم لمسقط على
عهد الإمبراطور نادر شاه بين عامي ١٧٣٨ و ١٧٤١ . ولم تكن التركية
التي خلفها البرتغاليون في مسقط مقتصرة على المباني العسكرية وإنما
جاء البرتغاليون بالروح المتحمسة المعروفة لدى مبشريهم في بناء ثلاث
كنائس في مسقط ولا تزال الكنيسة الصغرى أو المعبد الصغير الذي بناه
البرتغاليون باقياً حتى الآن في قلعة الميراني من بين الكنيستين الأخريين
التي تهدمتا بفعل الزمان^(١) .

بقى أن نشير في هذا المجال إلى أن جهود على بك لم تقتصر على مسقط
ولما تقدم منها إلى سواحل شرق إفريقيا حيث كان البرتغاليون منذ بدء
زحفهم على بحار الشرق قد استولوا على معظم موانئها واتخذوا من القواعد
التي أنشأوها هناك والتي كان من أشهرها قلعة موزمبيق وقلعة المسيح في ممبسة
محطات تمتد سفنهم الذاهبة إلى الهند والآية منها بالمؤن والعتاد . وقد حاول
على بك في عام ١٥٨٥ أن يعتمد على تأييد السكان المسلمين في شرق إفريقيا
وذلك بإثارتهم ضد البرتغاليين والعمل على ضمهم إلى الدولة العثمانية وأخذ
يطمئنهم بأن ثمة أسطولا عثمانيا كبيرا في الطريق إليهم^(٢) . ورغم نجاح على
بك في إعلان السيادة العثمانية على كثير من مقاطعات الشرق الأفريقي كمبسة

(١) دونالد هولي : مرجع سبق ذكره ص ٣١ / ٣٢ .

(٢) Eliot, Charles, East Africa Protectorate P. 16 London (٢) 1905.

ولامو ومقديشيو وبات إلا أن الأسطول العثماني الكبير الذي وعد به لم يحصل وتقدم بدلا منه أسطول برتغالي بقيادة كوتنهو Cutinho تمكن من قمع الثورات الناشئة ونجح في القبض على على بك وأمره ويقال إنه أرسله إلى لشبونة حيث أجبر على اعتناق المسيحية ومات هناك ^(١) .

ولم يفكر العثمانيون في إعادة الكرة من جديد وعلى العكس من ذلك سسنالاحظ تبدل السياسة العثمانية لإزاء البرتغاليين حين استنجدت فارس بالانجليز للاطاحة بالنفوذ البرتغالي من هرمز في عام ١٦٢٢ ولذلك حين استولى الشاه عباس الكبير على بغداد في عام ١٦٢٣ استعان حاكم البصرة العثماني بالبرتغاليين خوفا من أن يصل الفرس إلى مقاطعته وبالفعل ظهرت خمس سفن برتغالية في شط العرب لكي تساهم في الدفاع عن البصرة ضد الفرس ! وهكذا خرجت الدولة العثمانية عن سياستها التقليدية التي كانت تجعل منها حامية للعالم الاسلامي من الغزو الايبيري سواء في المغرب أو المشرق وبحروج العثمانيين من ساحة الصراع في الخليج العربي انفسح المجال أمام قوة عربية إسلامية ناشئة هي قوة اليعاربة في عمان لكي تنهض بالتعاون مع القبائل العربية في الخليج لتحرير شواطئها من الاستعمار البرتغالي وهو الدور الكبير الذي قدر لعرب الخليج أن يحرزوا قصب السبق فيه مستفيدين في ذلك من الظروف الداخلية والخارجية التي كانت تمر بها الامبراطورية البرتغالية مما جعلهم يقفون منها موقف التحدى ويشكلون عاملا كبيرا من عوامل انهيارها في بحار الشرق . ومن ناحية أخرى فان سقوط دولة النباهنة في عمان وقيام دولة اليعاربة كان يعني الاطاحة بالأنظمة القديمة في الخليج وقيام تنظيمات جديدة أخذت على عاتقها مقاومة البرتغاليين وامتدت تلك التنظيمات فشملت سواحل الخليج العربي في شكل تجمعات سياسية وأحلاف قبلية كانت تمثل القيادات الجديدة لحقبة ما بعد الاستعمار البرتغالي .

الفصل الثاني

الأوضاع السياسية في الخليج العربي في أعقاب انهيار السيطرة البرتغالية

عوامل ضعف الامبراطورية في الشرق - التقارب
الإنجليزي الفارسي على عهد الشاه عباس الكبير - اتفاقية
ميناب - سقوط هرمز ١٦٢٢ - ظهور اليعاربة في عمان
وكفاحهم ضد البرتغاليين - سقوط القواعد البرتغالية في
مسقط ١٦٤٩ - امتداد العمليات العمانية ضد البرتغاليين
في سواحل الهند وشرق إفريقيا - بدء العلاقات الإنجليزية
العمانية - المفاوضات الفارسية الفرنسية بشأن مسقط - التفوق
البحري الفارسي في الخليج العربي على عهد نادرشاه .



الفصل الثاني

الأوضاع السياسية في الخليج العربي في أعقاب

انهيار السيطرة البرتغالية

على الرغم من أن الامبراطورية البرتغالية في الشرق كانت تشكل قوة بحرية عظمى بحكم الامتداد الكبير الذي كانت تمتد إليه من سواحل البرتغال إلى كاليكوت على سواحل الهند الغربية إلا أنه كان واضحاً أن عوامل الضعف والانهيار كانت تفعل فعلها في جسم هذه الامبراطورية الساحلية الكبيرة . وقدر لدولتين عريبتين هما دولة اليعاربة في عمان ودولة الأشراف السعديين في مراكش أن تسهم كل منهما في إضعافها . ولعل المؤرخ البريطاني روبرت لاندن « Landen » كان ثاقب النظر حين ربط بين انهيار النفوذ البرتغالي في الخليج العربي وبين الضربة القاصمة التي لحقت بهم في وادي المخازن في أغسطس ١٥٧٨ (١) . وقد ظهر الانهيار واضحاً في أعقاب ضم البرتغال إلى التاج الإسباني (١٥٨٠ - ١٦٤٠) ومع ذلك فقد كان وراء انهيار الامبراطورية البرتغالية أسباب أخرى عديدة لعل أهمها العنف والخلق السيء الذي كان طابع معاملات البرتغاليين مع جيرانهم أهالي الشرق (٢) هذا إلى

(١) عبد الهادي التازي : الصلات التاريخية بين المغرب وعمان من حصاد ندوة الدراسات العمانية ج ٣ ص ١٣١ — مسقط نوفمبر ١٩٨٠ .
(٢) زين الدين : تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين نشر دافيد لوبز لشبونة ١٨٩٨ ص ٧٢ وما بعدها .

جانب مشاعر الحسد والشقاق التي كانت سائدة فيما بينهم ، والأهم من ذلك أن البرتغاليين لم يؤسسوا شركات تجارية كما فعل منافسهم الإنجليز والهولنديون وإنما كانت تجارتهم في الشرق تعد احتكاراً ملكياً اشتهر بسوء الإدارة والتنظيم وأصبحت قواعدهم العسكرية التي كانوا يستندون عليها مهددة بسبب فقدان النظام ونقص الكفاءة ، وكان صعود نجم الشركات الهولندية والإنجليزية في بحر الشرق يمثل انتصاراً لنظام فردى على نظام احتكارى تمارسه الدولة . وقد لاحظ الرحالة بيترو دى فالى في عام ١٦٢٥ هبوط مستوى النظام في السفن البرتغالية وكثرة حركات التردد التي كان يقوم بها البحارة البرتغاليون ضد قادتهم الكبار الذين تناسوا كل شيء حتى بلادهم وشرفهم ، وذكر أن البرتغاليين قد يمكنهم استعادة ما ضاع منهم إذا عرفوا كيف يحافظون على مكاسبهم وهذا هو المهم فقد يكسبنا الحظ أشياء ولكن الفطنة والحصافة هي التي تجعلنا نحافظ على ما كسبناه . ولم يسع دى فالى رغم ميوله الكاثوليكية الواضحة إلا أن يقارن ما رآه على السفن البرتغالية بالأوضاع التي كانت تسود السفن الإنجليزية ، كذلك انتقد فاريا سوسا « Sousa » البرتغاليين في عبارات لاذعة (١) .

وقد أدى لإحكام البرتغاليين سيطرتهم على المنافذ العربية التي كانت تمر منها تجارة الشرق والأساليب العنيفة التي طبقوها ضد القوى الإسلامية حرمانها من ازدهارها الملاحي والتجاري السابق ولذلك أخذت تلك القوى تتحين الفرصة للإيقاع بهم . وكما سبق أن أشرنا منذ قليل أن أكبر ضربة تعرضت لها الإمبراطورية البرتغالية هي خضوع البرتغال للتاج الإسباني ما يقرب من ستين عاماً في خلالها أصبحت إسبانيا هي الممثلة لمصالح البرتغال وظهر أن الحكومة الإسبانية كانت حكومة مركزية وغير رشيدة . ولما كانت إسبانيا منغمسة في صراعات داخل القارة الأوروبية فقد سارعت الدول المعادية لإسبانيا بالانقضاض على الإمبراطورية البرتغالية باعتبارها قد أصبحت تشكل

جزءاً من الممتلكات الإسبانية ، ولما عادت البرتغال إلى إمبراطوريتها بعد انفصالها عن التاج الإسباني لم تجد منها سوى أشلاء ممزقة ، ومن ناحية أخرى فإن التنافس دفع بالدول الأوروبية إلى تأسيس شركات تجارية خاصة بها ، وأخذ الإنجليز على عاتقهم زعامة حرية البحار وإطلاق المجال للتجارة الحرة للتخلص من السياسة الاحتكارية البرتغالية ، وظهر واضحاً عدم مقدرة البرتغال وهي دولة صغيرة محدودة المساحة والسكان الاستمرار في حماية إمبراطورية ساحلية ضخمة امتدت عشرات الآلاف من الأميال وخاصة بعد أن بدأت إنجلترا توجه ضرباتها المتوالية إليها منذ عام ١٥٨٨ ففي ذلك العام نجحت إنجلترا في تحقيق أمنها القومي بانتصارها الساحق على الأرمادا الإسبانية وبموجب مرسوم ملكي أصدرته الملكة اليزابيث في ديسمبر سنة ١٦٠٠ تأسست شركة الهند الشرقية الانجليزية أو شركة تجار لندن الذين يتجرون مع الهند الشرقية كما كانت تعرف في ذلك الوقت . وقد ظهرت آثار انهيار الإمبراطورية البرتغالية على مركزهم في الخليج الذي بدأ يتداعى منذ السنوات الأولى من القرن السابع عشر ، ففي عام ١٦٠٢ نجحت قوات الشاه عباس الكبير في طرد البرتغاليين من البحرين ، كما سقطت جبرون وتبعها جلفار (رأس الخيمة) في عام ١٦١٥ (١) وأخذ مركز البرتغاليين الحصين في هرمز يتعرض لهجمات فارسية متكررة ، وعلى الرغم من أن البرتغاليين نجحوا في التصدي لبعض هذه الهجمات فأعادوا تعزيز قوتهم في بندر عباس ووجهوا هجوماً ضارياً على صحار (٢) إلا أنه أصبح واضحاً أن مركز البرتغاليين في الخليج أخذ يتعرض إلى الإنهيار السريع وخاصة حين تلاقت مصلحة الشاه عباس مع مصالح التجار الإنجليز في الإطاحة بالنفوذ البرتغالي حيث اشتركت بعض السفن الإنجليزية مع قوات الشاه في عملية هجوم ناجحة على قاعدة البرتغاليين

(١) صالح محمد العابد : موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ -

١٨١٠ ص ٢٣ بغداد ١٩٧٩ .

Boxer, C. New light on the Relationship of Oman (٢) and Portuguese 1613-1633.

من أعمال ندوة الدراسات العمانية نوفمبر ١٩٨٠ .

(م ٧ - الخليج العربي)

الحصينة في هرمز وانتهى الأمر بسقوطها في عام ١٦٢٢ . وقد يكون من المفيد قبل أن نعرض لذلك الهجوم الناجح أن نشير إلى التقارب الذي حدث بين الإنجليز والشاه عباس الكبير والذي مهدت له بعثات شركة الهند الشرقية الإنجليزية إلى البلاط الفارسي حيث أخذ ممثلو الشركة يعملون على استحواد اهتمام الشاه ، ولا شك أن الهزيمة الشنيعة التي لحقت بالبرتغاليين على أيدي الأسطول الإنجليزي في سورات عام ١٦١٥ كانت لها أثر كبير في تردى سمعتهم البحرية في الخليج العربي ، وفي العام التالي أصدر الشاه عباس مرسوماً يتضمن تعليمات صريحة بحسن استقبال الإنجليز الذين يفدون إلى فارس ، ووقع اختيار شركة الهند الشرقية الإنجليزية على ميناء جاسك الذي يبعد قرابة تسعين ميلاً من هرمز ليكون مركزاً لوكالتها في الخليج وكان هذا الميناء يقع في مأمن طبيعي ولا خطر عليه من البرتغاليين ومع ذلك فما كاد الإنجليز يستقروا في ذلك الميناء حتى بدأ التماسق بينهم وبين البرتغاليين في ديسمبر سنة ١٦٢٠ فيما عرف بمعركة الجاسك التي أحرز الإنجليز فيها نصراً كبيراً نجحوا به في تأمين مركزهم في ذلك الميناء (١) .

وأخذ الشاه عباس بعد ذلك يتطلع إلى طرد البرتغاليين من قاعدتهم الحصينة في هرمز إذ كان وجودهم هناك من شأنه تهديد هيبة بلاده ورخاؤها ولما كان يفتقر إلى القوة البحرية التي تعينه في الصراع المرتقب بينه وبين البرتغاليين فقد وجه أنظاره إلى الوفود الإنجليزية التي تفد إليه من بلاط جيمس الأول تعرض عليه الصداقة والمساعدة ضد العثمانيين . وفي عام ١٦٢١ وجد الظروف مواتية لاستعادة هرمز فأصدر أوامره إلى إمام قولي خان حاكم إقليم فارس بأن يقود حملة لاسترداد الجزيرة من البرتغاليين وتصادف في ذلك الوقت وصول أسطول إنجليزي إلى ميناء جاسك قادماً من سورات فبادر الحاكم الفارسي بطلب المساعدة العسكرية من قائد ذلك الأسطول ، ولوح للإنجليز بإغراءات كثيرة وألح في الوقت نفسه إلى أنهم إذا رفضوا

المساعدة في ذلك المعجوم فإن الشاه عباس سوف يعمل على سحب الامتيازات الكثيرة الممنوحة لهم ، كما ستصادر شحنات الحرير التي كان يتوقع وصولها من أصفهان لحسابهم ، وهكذا وجد الإنجليز أنفسهم في مأزق حرج . حقيقة أن مجلس إدارة الشركة كان لا يمانع في مهاجمة السفن البرتغالية والاستيلاء عليها بعد انتشار عمليات القرصنة من جانب البرتغاليين ، ولكن فكرة تأييد الفرس المسلمين ضد البرتغاليين المسيحيين لم تكن تروق لبعض المسؤولين الإنجليز في الشركة (١) . ومن ناحية أخرى كانت الشركة تخشى معاقبة الملك جيمس الأول ملك إنجلترا إذا ما قامت بالحرب ضد إسبانيا باعتبارها المشرقة في ذلك الوقت على ممتلكات البرتغاليين في الشرق وكانت العلاقات هادئة بين إنجلترا وإسبانيا في ذلك الحين . يضاف إلى ذلك أن شركة الهند الشرقية كانت تعمل على تخفيض النفقات العسكرية إلى أقل حد ممكن وكان الاعتقاد بأن هرمز محصنة تحصيناً قوياً وتحتاج إلى قوات ضخمة ونفقات عسكرية هائلة للتغلب عليها ، ونظراً لعلاقة الحكومة الإنجليزية السلمية بإسبانيا فإن الشركة سوف تضطر إلى دفع رشوة كبيرة للمسؤولين الإنجليز حينما يتعرض ذلك السلم للنقض من قبلها إذا ما قررت التعاون مع الفرس في الاستيلاء على هرمز . ويلاحظ هنا تأثير الثورة البروتستانتية التي كانت دافعاً للإنجليز لمساعدة الفرس ضد دولة كاثوليكية مع عدم استبعادنا بطبيعة الحال أهمية الدوافع الاقتصادية المتمثلة في حرص الشركة على مصالحها وامتيازاتها وعدم إعطاء الفرصة لتفوق البرتغاليين عليها ، ولذلك انتهى الأمر بموافقة الشركة على مساعدة الحكومة الفارسية في استرداد هرمز بشرط الموافقة على شروطها التي ضمنت في اتفاقية وقعت بين حاكم إقليم فارسستان وممثل شركة الهند الشرقية في الجاسك وعرفت هذه الاتفاقية باسم اتفاقية ميناب - يناير ١٦٢٢ ، وكانت تشتمل على بنود عديدة كان من أبرزها أن يساهم الفرس على الأقل بنصف تكاليف العمليات العسكرية وأن تقسم الغنائم بالتساوي بين الإنجليز والفرس وأن يؤول الحصن البرتغالي الموجود في هرمز

(١) ويلسن ، أرنولد : الخليج العربي ص ١٠٨ / ١٠٩ .

بكل ما فيه إلى الإنجليز ، كما نصت الاتفاقية على أن يقتسم الطرفان العوائد الجمركية في هرمز بالتساوى فيما بينهما وأن تعفى التجارة الإنجليزية من العوائد الجمركية في هرمز وجمبرون والموانئ الفارسية الأخرى في الخليج وأخيراً تضمنت الاتفاقية نصوصاً خاصة بمعاملة الأسرى حيث نصت على أن يختص الإنجليز بالأسرى المسيحيين ويختص الفرس بالأسرى المسلمين .. ونصوصاً أخرى تتعلق بمساعدة الإنجليز لفارس في بناء أسطول بحري لها في الخليج .

ولما عرضت هذه الاتفاقية على الشاه عباس للمصادقة عليها أدخل عليها بعض التعديلات التي كان من أهمها أن يحتل الفرس والإنجليز قاعدة هرمز معاً وأن تعفى البضائع الفارسية من الجمارك في الموانئ الإنجليزية شأنها في ذلك شأن البضائع الإنجليزية في الموانئ الفارسية (١) .

وبناء على اتفاقية ميناب قدم الانجليز معاونتهم لفارس في السيطرة على هرمز رغم المصاعب التي وجدها الإنجليز في إقناع بحارتهم بالمشاركة في هذه العملية حيث اعترض الكثيرون بأنهم ليسوا معينين للقيام بعمليات عسكرية من ذلك النوع ولم يتم التغلب على هذه المعارضة إلا بوعود خاصة بتقديم مكافآت سخية لهم ، وبدأت القوات الإنجليزية الفارسية بالتعاون مع العرب النازلين في إقليم لارستان بمهاجمة حصن البرتغاليين في قشم والذي كان مقاماً لتأمين موارد المياه في هرمز وعلى أثر سقوط قشم لم تجد القوات المشتركة صعوبة في الهجوم الذي شنته على هرمز إذ لم يمض وقت طويل على الحصار حتى قام البرتغاليون بالاتصال بالإنجليز يطلبون تسليم أنفسهم إليهم لأنه ليس من اللائق لهم أن يسلموا أنفسهم للفرس أو المسلمين ! كما طلبوا أن يتم نقلهم إلى مسقط ، وفي ٢٣ أبريل سنة ١٦٢٢ سلم البرتغاليون أنفسهم للإنجليز وتم إنزال العلم البرتغالي من قلعة البوكيرك بعد أن ظل يرفرف عليها أكثر

من مائة عام (١) . ولكن الإنجليز رفضوا العبور مع القوات الفارسية من هرمز إلى الشاطئ الغربي للخليج للاستيلاء على مسقط وصحار وخورفكان باعتبار هذه الأماكن تابعة لهرمز واضطر الفرس أن يقوموا بمفردهم بذلك العمل ولكن البرتغاليين تمكنوا من طردهم من تلك الأماكن ، ووضح أن البرتغاليين بعد سقوط معقلهم في هرمز أخذوا يركزون وجودهم على الساحل الغربي للخليج في مسقط وصحار ورأس الخيمة وخاصة بعد أن تعاون الأسطولان الإنجليزي والهولندي في تدمير ما تبقى من القواعد البرتغالية على الساحل الشرقي للخليج (٢) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الخلافات سرعان ما ظهرت بين الإنجليز والفرس عقب سقوط هرمز وكان السبب في ذلك أن غنائم هرمز لم يتم تقسيمها تقسيماً متساوياً كما كانت تنص بذلك اتفاقية ميناب إذ رفض الفرس اقتسام المعدات الحربية مع الإنجليز بحجة وجوب الاحتفاظ بها في القلعة كما عارضوا إبقاء أى جندي إنجليزي فيها ورغم قلة الأسلاب التي حصل عليها الإنجليز إلا أن شركة الهند قد اضطرت مع ذلك إلى دفع هدية نقدية إرضاءاً للملك جيمس الأول بلغت عشرة آلاف من الجنيهات ومبلغ مماثل لدوق بكنجهام لكي يصدر الملك عفواً عن جميع الذين اشتركوا في تلك العملية . والجدير بالذكر أن الإنجليز حاولوا أن يحلوا بدلا من البرتغاليين في السيطرة على هرمز ، وقد ذكر الرحالة الفرنسي البارون تافرنيه بصدد ذلك أن حب السيطرة أصبح يداعب خيال الإنجليز ويشغل تفكيرهم بعد مساعدتهم البحرية للشاه عباس في الاستيلاء على هرمز ولذلك استقر رأيهم على إيفاد بعثة سياسية برئاسة السير أندركت ليقوم بدور السفارة بينهم وبين البلاط الصفوي وليتفاوض بشأن منح الإنجليز حق التصرف في جزيرة هرمز

(١) Low, Charles, History of the Indian Navy 1613-1863 (١) vol. I pp, 38-45, London 1877.

(٢) محمد عبد الله السالمى : مصادر سبق ذكره ص ١٨٧ - ١٩١ .

فلذا لم يوفق في مسعاه فعليه أن يحصل على موافقة فارس بإعفاء البضائع الإنجليزية من دفع الرسوم الجمركية في موانئها (١) وقد أورد تافرنيه في كتاب رحلاته قصة نشاط السفير أندركت وخصوصياته في أسلوب لا يخلو من طرافة ، ويمكن اعتبار ما كتبه نموذجاً يستحق الدراسة للوضع في البلاط الصفوي وأسلوب الشاه الدبلوماسي تجاه الدول الأجنبية . ورغم الجهود التي بذلها أندركت في سفارته إلا أنه فشل في إقناع الشاه عباس بتقسيم الغنائم التي أخذت من البرتغاليين أو إطلاق يد الإنجليز في جزيرة هرمز ، إذ أنه رغم الوعود الطيبة التي قدمها الشاه واستقباله الطيب له إلا أن أندركت لم يحصل على شيء بسبب عداوة المصادر الأعظم محمد بك على للفرنجة وعدم استجابته لوفادته . وبعد أن أمضى أندركت بعض الوقت في مدينة أشرف مرض ومات هناك بسبب قسوة المناخ (٢) .

ولعل مما يستلفت النظر أن الفرس على الرغم من معارضتهم للإنجليز في السيطرة على هرمز إلا أنهم لم يتحمسوا لكي يخلوا محل البرتغاليين فيها حيث أصدر الشاه عباس أوامره بتدمير المدينة عن آخرها ، وبذلك يحدد عام ١٦٢٢ انتهاء دور هرمز في التاريخ وانتهاء مجدها التجاري الذي ظلت تتمتع به عدة قرون . وحتى في ظل السيطرة البرتغالية كانت هرمز تقوم بدور كبير في المجال التجاري حتى كانت تجارتها تساوي تجارة لندن وأمستردام مجتمعتين كما حرص البرتغاليون بعد استقرارهم في هرمز أن يشيدوا بها المباني العظيمة التي كانت كل أبوابها ونوافذها مطلية بالذهب ، بل ولم يستبعد البعض أن يستغل البرتغاليون الذهب والفضة في إنشاء المباني ونوافذها بدلا من الحديد والحجارة فيما لو أطالوا إقامتهم بتلك الجزيرة وذلك بسبب الأرباح الهائلة التي كانوا يحصلون عليها عن طريق التجارة من السواحل الفارسية والهند

(١) Foster, W. England Quest for Eastern Trade P. 79. (١)
ff. London 1933,

(٢) صادق نشأت : مرجع سبق ذكره ، ص ٦٩ .

وأوروبا .. وهكذا أصبحت هرمز مثلاً حياً على الخراب بعد أن كانت مثلاً أعلى على الازدهار بعد أن نفذ فيها حكم الشاه بأن لا يترك حجر فوق حجر حيث نقلت السفن أحجار ومنازل هرمز لتعمير جمبرون التي أطلق عليها منذ ذلك الوقت بندر عباس (١) ولم يعد في هرمز سوى أطلال قلعتها البرتغالية القديمة (٢) . وقد ذكر السير توماس هربرت الذي زار هرمز في عام ١٦٢٧ وكان شاهد عيان على تدهورها أن المدينة جردت من كل جمالها وازدهارها بعد أن عمد الفرس إلى اقتلاع الأحجار ونقلها إلى جمبرون التي لا تبعد عنها بأكثر من ثلاثة فراسخ وأصبحت هرمز مكاناً متواضعاً لا يستحق أن يمتلكه أحد بعد أن كانت الدولة الوحيدة المزدهرة في الشرق إن كان يتعين علينا أن نصدق ذلك ! .. وهكذا قدر لجمبرون (بندر عباس) أن تلعب دوراً بارزاً في تاريخ الخليج بعد أن خلفت عظمة هرمز ، ولما كان الشاه عباس قد سمح لشركة الهند الشرقية الإنجليزية بتشديد مبنيين في المدينة الجديدة ، فقد وجد الانجليز في بندر عباس ما يتيح لهم نقل تجارتهم إلى فارس بطريقة أسهل من جاسك ولذلك بادروا بنقل وكالتهم إليها ، وظلت بندر عباس على امتداد قرن ونصف قرن مركز الثقل الرئيسى لشركة الهند الشرقية الإنجليزية على سواحل الخليج ومنها أخذ الانجليز يسيطرون على تجارة الخايج وامتد ذلك إلى مراقبتهم لأوضاعه السياسية مستفيدين في ذلك من التقارب الذى حدث بينهم وبين الفرس (٣) .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من أن كثيراً من المصادر تحدد سقوط قلعة البرتغاليين في هرمز على أيدي الفرس والانجليز باعتبارها نقطة النهاية للسيطرة البرتغالية على الخليج العربى إلا أن حقيقة الأمر تبدو في تحول

(١) Wilson, A. The Persian Gulf P. 124 see also Low, C. R., History of the Indian Navy vol. I P. 43 London 1877.

(٢) Philips, Wendell, Oman in history P. 91 London 1967,

(٣) صادق نشأت : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٧ .

البرتغاليين بتحصيناتهم إلى السواحل الغربية للخليج وبدأت القلاع البرتغالية في مسقط تدعم تدعماً كافياً باعتبارها القلاع الرئيسية التي أصبحت للبرتغاليين بعد سقوط قاعدتهم الحصينة في هرمز ، وقد يكون حقيقة أن الشاه عباس حاول تتبع البرتغاليين على السواحل الغربية للخليج العربي في مسقط وصحار وخورفكان ، إلا أن الجهود الفارسية باءت بالفشل بعد أن تمكن أندراى قائد القلاع البرتغالية في مسقط وكان اسمه مرهوباً في المنطقة أن يعيد للبرتغاليين ما فقدوه من قلاع في تلك المناطق . وهكذا عوض البرتغاليون خسارتهم في هرمز حين اتخذوا من مسقط على الجانب الآخر من الخليج مسرحاً لعملياتهم حيث شيلوا بها حاميات بالغة المناعة ، ولكي تكون مركزاً لنشاطهم في الخليج سواء من حيث التجارة والدفاع . وبما أن حاميات مسقط لم تكن حاميات ملاحية كهرمز فقد كانت معرضة للضرب من داخلية عمان .. ولعل أبرز ما نلاحظه بصدد ذلك حين قام الإمام اليعربى ناصر بن مرشد بعد أن بويع بالإمامة الإباضية في عمان سنة ١٦٢٢ بمجهود موفقة للقضاء على السيطرة البرتغالية ، كما تمكن خلفاؤه من بعده من القضاء على النفوذ البرتغالي في الخليج العربي وشرق إفريقيا وأن يظهروا إلى الوجود أكبر دولة بحرية شرعية ظهرت في تاريخ العرب الحديث (١) .

وهكذا تزامن سقوط هرمز مع قيام أسرة جديدة تولت أعباء الحكم في عمان ونأت بنفسها عن أية تبعية فارسية أو برتغالية وهى أسرة اليعاربة التي استمرت قائمة بالحكم منذ ذلك الوقت حتى سقوطها في عام ١٧٤١ حيث خلفتها أسرة جديدة وهى أسرة البوسعيد التي لا تزال تحكم في سلطنة عمان حتى وقتنا الحاضر (٢) .

وقدر للإمام ناصر بن مرشد مؤسس أسرة اليعاربة أن يخوض صراعاً

(١) السالمى : تحفة الأعيان بسيرة آل عمان ج ٢ ص ٢ .

(٢) جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقيا - نظر المقدمة القاهرة

أريراً ضد الفرس والبرتغاليين . وقد بدأ صراعه ضد الفرس حين اغتحم فرصة سقوط حصن البرتغاليين في هرمز فقام بالقضاء على ما كان للمملكة هرمز من سيادة على صهار ، كما نجح في تخليص جلفار (رأس الخيمة) (١) وكان يخدمها قوة فارسية نجح الإمام في حصارها وإجبارها على التسليم ووقف موقفاً منيعاً أمام الفرس الذين حاولوا أن يرثوا البرتغاليين أو مملكة هرمز في سيطرتهم على المواقع العمانية الأخرى (٢) .

ولم يلبث الإمام ناصر بن مرشد بعد ذلك أن واصل كفاحه ضد البرتغاليين حتى أرغمهم على التخلي عن المواقع التي كانوا يسيطرون عليها في الساحل العماني بحيث لم يعد لدى البرتغاليين عند وفاته في عام ١٦٤٩ غير التحصينات المشرفة على مدينتي مسقط ومطرح . وقد اصطبغ الصراع العماني البرتغالي بالزعة الدينية المتحمسة والجهاد الديني من جانب العمانيين عسبر عنها بعض الشعراء وأورد ابن قيصر مقتطفات من قصائدهم في سيرته عن الإمام ناصر بن مرشد (٣) .

(١) Badger, Percy, History of the Imams and Seyyids of Oman, Introduction and Analysis pp. XXIV London 1871.

(٢) عبد الله خلفان بن قيصر : سيرة الامام ناصر بن مرشد تحقيق عبد المجيد حسيب القيسى ص ٤١ - نشر وزارة التراث القومي والثقافة - سلطنة عمان ١٩٧٧ .

(٣) عبد الله بن خلفان بن قيصر : سيرة الامام ناصر بن مرشد ص ٧ ، ٩٧ ومن أمثلة ذلك ما جاء في إحدى القصائد :

إمام النوري قم في الطفلة مجاهداً فإنك منصور السرايا على العدى
فلا زلت للإسلام شمساً منيرة ولا زلت للظلام حطفاً مؤكداً
أو ما ورد في قصيدة أخرى :

لقد سار الامام على النصارى بمسك في جحافلهم هارداً
بحيشهم أقطار الفيساني به الآفاق قد كسيت غباراً
فهدم سورها وعي يروجا مشوشة بها وعي ديساراً
وأيقنت النصارى مد آتاهما بطمس حيث لم يجدوا فراراً

ومما تجدر الإشارة إليه أن الصراع العماني البرتغالي على عهد الإمام ناصر بن مرشد بلغ أوجه في عام ١٦٤٠ إذ بينما كان جنود الحامية البرتغالية يحتفلون باستقلال البرتغال عن إسبانيا حتى فاجأتهم قوة عمانية كبيرة ، وعلى الرغم من أن قوات الإمام ردت على أعقابها متكبدة خسائر فادحة إلا أن ذلك الوضع كان فاتحة لسلسلة من الهجمات العمانية الخطيرة ضد المعاقل البرتغالية في عمان . ففي عام ١٦٤٣ استولى الإمام ناصر على صهار التي كان قد استولى عليها البرتغاليون في أعقاب سقوط قلعتهم في هرمز عام ١٦٢٢ (١) ووجد الإمام ألا يعاود الهجوم على مسقط إلا بعد أن يحقق السيطرة على المناطق الداخلية في ضنك وعبري والجوف ، وفيما يبدو لنا أنه كان في حاجة إلى تهدئة الموقف بينه وبين البرتغاليين حتى يتفرغ لاستكمال عملية التوحيد الداخلي . وعندما توفي في عام ١٦٤٩ بوبع بالإمامة من بعده إلى ابن عمه سلطان بن سيف الذي استهل عهده بإرسال قوة عمانية ضخمة بقيادة سعيد بن خليفة لحصار مسقط واضطر البرتغاليون بسبب قسوة الحصار وانتشار الطاعون بين أفراد الحامية البرتغالية (٢) إلى قبول الهدنة التي فرض فيها العمانيون شروطاً قاسية . وكان أبرز ما جاء فيها أن يهدم البرتغاليون القلاع التي يملكونها في كل من مطرح وقريات ودبا وصور وتسويتها بالأرض وفي مقابل ذلك يهدم الإمام قلعة كان قد أمر ببنائها في مدينة مطرح ومعنى ذلك أن تبقى مطرح ميناء حراً لا يخضع لأى من الجانبين كما تعهد العمانيون بتدمير كافة التحصينات التي أقاموها خلال فترة حصارهم للبرتغاليين ، وألا يكون للبرتغاليين حق إقامة تحصينات أخرى على أنقاض الحصون البرتغالية (٣) على أن أهم ما يستلفت النظر ما نصت عليه الهدنة على اعتراف

(١) Farrougby, Abbas, Bahrein Islands (1950-1951) A contribution to the study of Power Politics in the Persian Gulf P. 64 New York 1951,

(٢) Kelly, J., Britain and the Persian Gulf P. 15 ff (٢) London 1968.

(٣) The Imperial Gazetteer of India CF. The Indian Empire vol. II P. 455 ff. Oxford 1908.

البرتغاليين بحرية التجارة في مسقط والمحيط الهندي وأن تمر السفن العمانية في البحر دون تفتيش وإن كان يتعين عليها أن تزود بقراطيس أو تصريحات من المراكز البرتغالية في الهند عند عودتها . وهذه القراطيس تعتبر بمثابة جوازات للمرور تسمح للعمانيين بالإبحار بحرية مع أى نوع من البضائع وإلى أى من الموانئ ، ولا تجبى ضرائب منهم ، وأن تكون هناك صداقة بين ملك البرتغال وإمام عمان ، أصدقاؤه أصدقاؤه وأعوانه وألا يعتدى العمانيون على البرتغاليين ولا البرتغاليون على العمانيين وأن تكون التجارة حرة وبدون عوائق بين الطرفين (١) .

وعلى أثر سقوط مسقط في عام ١٦٤٩ استقر المقام بالبرتغاليين في ميناء كنج الصغير الذى يقع على الساحل الشرقى في الخليج إلى أن دمر العمانيون معقل البرتغاليين فيه خلال اشتداد صراعهم معهم في نهاية القرن السابع عشر عام ١٦٩٥ (٢) . وبما لا شك فيه أن سقوط قلاع البرتغاليين الحصينة في مسقط كانت بمثابة مذلة كبيرة ألحقت بالبرتغاليين ومن المعروف أن البرتغاليين كانوا يعتقدون بأن حصونهم لا تقهر كما كانوا يطلقون عليها . حتى أن ملك البرتغال اعتبر شروط الصلح التي وافق عليها قائد الحامية البرتغالية في مسقط دى نورونها « Dom Juliao de Noronha » بمثابة إهانة شخصية له ولذلك أمر بإلقاء القبض عليه واستدعائه إلى لشبونة وإجراء تحقيق شامل معه ولكن قائد الحامية البرتغالية بادر بالفرار إلى كوشين . وبسقوط هرمز في عام ١٦٢٢ ومسقط في عام ١٦٤٩ ضاع من القاب ملك البرتغال لقبان هامان وهما « سيد الفتح والتجارة والملاحة في الجزيرة العربية وفارس » وذلك من

Boxer C.F. some aspects of the struggle between the (١)
Omanis and the Portuguese 1650-1730 P. 27.

من أعمال ندوة مراكز دراسات الخليج العربى أبوظبى نوفمبر ١٩٧٩ .

Miles, S. The Countries and Tribes of the Persian Gulf (٢)
vol. II pp. 196-197.

بين الألقاب العديدة التي كان ملوك البرتغال قد أطلقوها على أنفسهم منذ حركة الكشوف البحرية البرتغالية الكبرى (١) .

وقد استمرت العمليات العمانية ضد البرتغاليين حتى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر وشملت جميع المراكز البرتغالية المشبكية لهم في الخليج كما تعقب العمانيون البرتغاليين في مراكزهم في سواحل الهند وفي خلال هذه الفترة أخذت إمارة عمان تتحول إلى أكبر قوة بحرية محلية في بحر الشرق مما مكّنها من طرد البرتغاليين من قواعدهم في شرق إفريقيا حيث سقطت كل من كلوة وزنجبار وممبسة . وكادت تسقط موزمبيق ذاتها وبدأت العبارة يرسون أساس حكم عمان في شرق إفريقيا وهو الأساس الذي ستركز عليه فيما بعد السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٦ - ١٨٥٦) لكي يبرز إلى الوجود أول دولة آسيوية إفريقية ظهرت في التاريخ الحديث .

وقد حفظت لنا بعض المصادر التاريخية عدة رسائل تبودلت بين الإمام سيف بن سلطان وبين البرتغاليين كانت تتضمن الكثير من التحدى السافر والتعصب الديني البالغ ، ورغم التهديدات العنيفة التي وجهها البرتغاليون إلى الإمام سيف إلا أنه كان على استعداد كبير للمواجهة معهم وقد يكون من المفيد أن نشير في هذا المجال إلى بعض المقتطفات التي نقلناها من تلك الرسائل التي يذكر البرتغاليون في إحداها :

« إننا جنود الله مخلوقون من سخطه مسيطون على من يحل عليه غضبه قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل كل الويل لمن لا يمثل لأمرنا ، قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال .. » .

وجاء في رد الإمام سيف :

« ما جاء بكتابكم من أن الرحمة قد انتزعت من قلوبكم فهذا من أقبح

عيوبكم وقولكم قلوبكم كالجبال وعددكم كالرمال فدعني أقول لكم إن الجزار لا يبالي بكثرة الغنم والماعز وإن الله مع الصابرين .. » .

ومما يذكر أن القبطان الفرنسي شارل جيان « Guillain » نقل هذه الرسائل وأوردها مترجمة إلى الفرنسية في حين نجد أصولها العربية في كتاب السالمى الذى يبدو أنه نقلها كما فعل جيان عن بعض المخطوطات العمانية القديمة (١) .

وعلى الرغم من الدور الكبير الذى قام به اليعاربة للتخلص من السيطرة البرتغالية إلا أن نجاحهم كان يرتبط إلى حد كبير بتقديرهم أهمية الاستفادة من المنافسة الدولية في بحار الشرق ، ولعل ذلك كان دافعاً بهم إلى إيجاد علاقات مع بعض القوى الأوروبية التى ظهرت في الخليج العربى .

وطبقاً لما تذكره بعض المصادر أن علاقة اليعاربة بالإنجليز بدأت منذ تأسيس دولتهم أى على عهد الإمام ناصر بن مرشد وإن كانت تلك العلاقات لم تتصف بالاستمرارية على عهد أسرة اليعاربة على عكس ما حدث على عهد أسرة البوسعيد . وقد بدأت العلاقات بين اليعاربة والإنجليز في عام ١٦٤٥ حين حاول الإمام ناصر بن مرشد أن يحكم الخناق على البرتغاليين اقتصادياً ولذلك طلب من شركة الهند الشرقية الإنجليزية من مركزها في سورات لإرسال مبعوث من قبلها للتفاوض من أجل إقامة علاقات تجارية وعلى الفور وفد فيليب وايلد « Wylad » إلى ميناء صحار حيث نجح في التوصل إلى اتفاقية كانت تنص على أن يتمتع الإنجليز بحرية التجارة في

(١) السالمى : تحفة الأعيان بسيرة آل عمان ج ٢ ص ١٠٨ - ١٠٩ القاهرة ١٩٦١ وكذلك :

مسقط وحرية حمل السلاح وممارسة شعائرهم الدينية . كما نصت الاتفاقية إلى جانب ذلك على تنظيم القواعد الخاصة في حالة وقوع منازعات بين الرعايا الإنجليز وبين رعايا الإمام . وعلى الرغم من أن هذه الاتفاقية وقعت في فبراير عام ١٦٤٦ إلا أن الإنجليز لم يجدوا أى حافز لوضعها موضع التنفيذ ولعل ذلك يرجع إلى الانكماش الواضح في التجارة الإنجليزية في منطقة الخليج العربى على أثر تصاعد المصالح الهولندية ومع ذلك فإن أهمية هذه الاتفاقية ترجع إلى كونها الحلقة الأولى في سلسلة معاهدات المداقة والتجارة التى وقعت بين شركة الهند الشرقية الإنجليزية وعمان (١) .

وقد ظهر التقارب الإنجليزي العمانى واضحاً على عهد الإمام سلطان بن سيف (١٦٤٩ - ١٦٧٩) حين رست إحدى السفن التابعة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية في ميناء مسقط في عام ١٦٥٨ وبادر الإمام إلى استضافة قائدها وكانت الدلائل تشير إلى احتمال التوصل إلى اتفاقية أخرى بين شركة الهند الشرقية الإنجليزية وإمام عمان لإقامة وكالة تجارية في مسقط ، ولما كان ممثلو الشركة في سورات أكثر حماساً لإقامة هذه الوكالة فقد بادروا بإيفاد الكولونيل رينسفورد « Rainsford » في عام ١٦٥٩ إلى مسقط للحصول على موافقة الإمام على إقامتها وأثمرت المفاوضات عن توقيع اتفاقية بين الإمام وبين ممثل الشركة ، كانت تنص على أن يمنح الإمام الإنجليز إحدى القلاع في مسقط وأن يكون لهم حق إقامة حامية بها بشرط ألا يزيد عدد أفرادها عن مائة جندي وأن يتقاسم الإنجليز مع الإمام الإيرادات الجمركية (٢) على أن هذه الاتفاقية لم توضع موضع التنفيذ أيضاً ولعل ذلك كان بتحريض الهولنديين الذين أخذوا يبرزون كمنافسين أقوىاء للإنجليز في احتكار تجارة المنطقة أو أن يكون الإمام قد تقاعس عن تنفيذها بسبب الاتجاه الدينى للإمامة وهو عدم السماح لأية قوة أجنبية بالاستقرار في أراضيها وهو تقليد سنيته

(١) Skeet, John, Muscat and Oman, The End of an Era

P. 65 London 1974.

Ibid, P, 38.

(٢)

الأئمة المتعاقبون على عمان . على أن التحالف الإنجليزي الهولندي لم يلبث أن ترك أثراً واضحاً في عمان من حيث ترجيح كفة الإنجليز في تعاملهم التجاري مع عمان ، ولعل ما يؤكد لنا ذلك الزيارات المتكررة التي كانت تقوم بها سفن شركة الهند الشرقية الإنجليزية إلى الموانئ العمانية حتى وصل الأمر إلى التفكير في إعادة مشروع إنشاء الوكالة التجارية في مسقط (١) .

وتكاد تجمع كثير من المصادر التي تناولناها على أنه في ظل العلاقات الودية التي وجدت بين اليعاربة من ناحية ، وبين الإنجليز والهولنديين من ناحية أخرى اشتد الصراع العماني البرتغالي في الخليج العربي بل وانتقل مسرح الصراع إلى المحيط الهندي في سواحل الهند وسواحل شرق إفريقيا ، ففي عام ١٦٩٤ نشط الإمام سيف بن سلطان في محاربة البرتغاليين في الهند حيث هاجم قاعدتهم في باسين ، كما هاجمت مجموعات بحرية عمانية أخرى ساحل كجرات وميناء بومباي وكانت أكبر العمليات العسكرية معركة جزيرة سالست حيث نزلت القوات العمانية واشتبكت في صراع عنيف مع الحامية البرتغالية الموجودة فيها (٢) . أما في سواحل شرق إفريقيا فقد كان أكبر انتصار أحرزه العمانيون هو نجاحهم في إسقاط قلعة المسيح في ممبسة ١٦٩٨ وتبع ذلك سيطرتهم على بمبا وكلوة وزنجبار حتى تم لهم طرد البرتغاليين من جميع قواعدهم الواقعة شمالي موزمبيق ، وأصبحت هذه المناطق من التوابع العمانية (٣) . ولا شك أن هذا التقدم الكبير في القوة العمانية دفع البرتغاليين إلى تعليل سبب نجاح اليعاربة في صراعاتهم معهم إلى تلقيهم إمدادات وأسلحة من الإنجليز في الهند ، بل ومضى البرتغاليون إلى أبعد من ذلك في

Skeet, I, op, cit. P. 38.

(١)

(٢) فالج حنظل : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٩٨ .

(٣) يذكر جيان أن العمانيين حاولوا إسقاط موزمبيق بعد نجاحهم في إسقاط حصن ممبسة ولكنهم سرعان ما تراجعوا بعد أن عمد البرتغاليون إلى إرهابهم عن طريق تفجير أنفهم كبير وضعوه هناك انظر :

Guillain, op. cit. Tome II P. 320 ff.

ادعائهم أن السفن العمانية كانت ترفع العلم الإنجليزي ويقودها ضباط إنجليز .
ولعل السؤال الذى نطرحه هنا . . هل شارك الإنجليز فعلا فى الصراع
العماني البرتغالي ؟ ..

وعلى الرغم من أن بوكسر « Boxer » وهو أحد الباحثين الثقات فى
الصراع البرتغالي العماني فى المحيط الهندى يجيب على هذا السؤال بتأكيد
أنه كان هناك تعاطف إنجليزى مع العمانيين ضد البرتغاليين يرجع أسبابه
إلى الصراعات المذهبية بين الإنجليز الانجليكان وبين البرتغاليين الكاثوليك
بالإضافة إلى سياسة الاحتكار التى كان يفرضاها البرتغاليون إلا أنه لا يعتقد
أن الإنجليز قدموا مساعدات كبيرة للعمانيين وإن كان يقرر فى نفس الوقت
أن بعض البحارة الإنجليز عملوا فى الأسطول العماني ولكنهم لم يكونوا بالكثرة
التي تستلفت النظر ، كما أنهم كانوا يهتمون بهذه المهمة كأجراء لدى العمانيين
وليسوا بصفة رسمية بل نكاد نصل إلى عكس هذه الفكرة تماماً حينما نعلم
أن الإنجليز كانوا قلقين من تصاعد القوة العمانية ويفهم ذلك من المعاهدة
التي وقعت بين إنجلترا والبرتغال فى عام ١٦٦١ وهى المعاهدة التي توجت
بزواج الملك شارل الثانى من كاترين أوف برجنزا حيث نصت إحدى موادها
على أن يقدم الإنجليز «سقط إلى البرتغال إذا ما قدر لهم فى أى وقت السيطرة
عليها» (١) . ويمكن أن نضيف إلى ما ذكره بوكسر أن العلاقات أخذت تسوء
بين العاربة والإنجليز إذ كان العاربة يهاجمون السفن الإنجليزية ويحبرون
بحارتها على مشاركتهم فى بعض عملياتهم العسكرية ضد البرتغاليين أى أنه
لم يكن هناك تحالف بين الفريقين بل على العكس من ذلك نجد فى تقارير
الوكالة التابعة لشركة الهند الشرقية الإنجليزية فى بندر عباس أن الأسطول
العماني يعوق تجارة الشركة فى الخليج كما كتب حاكم مدراس إلى رئاسة الشركة
أن العمانيين يعوقون التجارة فى ساحل كروماندل (٢) ولا شك أن التفوق

Boxer, C.R., op. cit. P. 29

(١)

(٢) فالح حنظل : مرجع سبق ذكره ص ١٠٣ و ١١١ .

البحرى العماني قد أفزع الإنجليز . وقد عبر المستر برانجون « Brangwin » وكيل شركة الهند الشرقية الإنجليزية في بندر عباس عن تلك المخاوف بقوله في ديسمبر عام ١٦٩٤ إن العمانيين سيصبحون كارثة على الهند مثلما كان الجزائريون كارثة على أوروبا (١) . وعلى الرغم من أن التفوق البحري لليعاربة كان كافياً لكي يحرك الإنجليز للتصدي لذلك النفوذ الذي بلغته عمان إلا أن الإنجليز لم يقدموا على ذلك ولعل انشغال الإنجليز في تثبيت نفوذهم في الهند وتورطهم في حرب الوراثة الإسبانية هو الذي منعهم من الإقدام على ذلك ، كما أن القوة البحرية الكبيرة التي بلغها عمان في نهاية القرن السابع عشر جعلت مجرد تفكير الإنجليز في التصدي لها بمثابة مجازفة لم تكن شركة الهند الشرقية الإنجليزية مستعدة لتحملها (٢) .

والأمر الذي لا شك فيه أن صراع اليعاربة ضد البرتغاليين مكثهم من الحصول على مكاسب هائلة وتمكن أئمة اليعاربة من الحصول على ثروات ضخمة وكانوا يعدون أكبر ملاك السفن في الجزء الغربي من المحيط الهندي . وقد تحدثت كثير من المصادر عن قوة الأسطول العماني وسيطرته على تجارة المحيط الهندي وركزت بصفة خاصة على سفينة الإمام سيف بن سلطان المسماة بالفلك والتي كانت مسلحة بأكثر من ثمانين مدفعاً (٣) .

وفي تقديرنا أن الذي أعان اليعاربة على ذلك التفوق البحري أن سياسة الدول الأوروبية في الفترة التي تلت انهيار السيطرة البرتغالية لم تكن قائمة على سياسة الاحتكار التجاري كما كانت عليها سياسة البرتغاليين وإنما انصرفت تلك الدول إلى تأسيس الشركات التجارية وإقامة المستعمرات واستغلال الأهالي وتكوين الامبراطوريات ، أما في التجارة فقد أفسحت المجال للعناصر

(١) Wilson. A' The Persian Gulf P. 194.

See also Lockhart L. The Fall of Savafi Dynasty P. 68.

Lockhart, op. cit P. 68. (٢)

·Coupland, R. East Africa and It's Invaders P. 69 London (٣)
1939.

المحلية التي كانت تعمل فيها من قديم لتعمل فيها من جديد إلى أن تنهت تلك القوى إلى ما يمكن لهذه العناصر المحلية أن تشكله من خطورة عليها فحرصت بعد ذلك على نصفيتها بهدف تأمين مواصلاتها الاستعمارية إلى الهند ، وترتب على ذلك دخولها في علاقات مع تلك القوى المحلية ولم تكن هذه العلاقات في صالحها بطبيعة الحال (١) .

وكان مما مكن أئمة اليعاربة من تكوين أسطولهم أنهم استطاعوا بفضل صداقتهم لبعض أمراء الهند أن يضمّنوا جلب الأخشاب اللازمة لبناء السفن وهناك عدة اتفاقيات عقدها اليعاربة مع حاكم مقاطعة بنجو في الهند منذ عام ١٧٠٧ ولعل ذلك مما سيدفع جون مالكولم « Malcolm » ، في أوائل القرن التاسع عشر إلى الاعتقاد بأن أحسن الوسائل للقضاء على القوة البحرية العمانية هو قطع الصلة بين عمان وأمراء الهند (٢) .

ويمكننا أن نتعرف على المدى الذي وصلت إليه القوة البحرية العمانية على عهد اليعاربة من قراءتنا لما كتبه هاميلتون « Hamilton » الذي تحدث عن قوة عرب عمان وذكر أن أسطولهم كان يشتمل على مئات من السفن الكبيرة ذات الحمولات المختلفة من المدافع الثقيلة (٣) ، وأكد الرحالة « فريزر » أن الاحترار يتطلب عدم استفزازهم إذ أننا لن نجني من وراء ذلك سوى ضربات تكال علينا (٤) . كما كتب الرحالة بروس « Bruce » في عام ١٦٩٥ مؤكداً أن عرب عمان سوف يحرزون القيادة والنفوذ في الخليج العربي ، وكذلك تحدث كولومب « Colomb » عن التفوق الملاحي الذي

(١) عبد الفتاح إبراهيم : على طريق الهند ص ٣٠ / ٣١ بغداد ١٩٣٥ .

(٢) Morrier, James, A Journey through Persia, Armenia and Asia Minor to Constantinople 1809 P. 375 London 1912 see also Bombay Govt., Selection from the Records of Bombay Govt. vol. XXIV P. 169 Bombay 1856.

Guillain, op. cit. Tome II P. 528 (٣)

Wilson, A, The Persian Gulf P. 192 - 193. (٤)

بلغه اليعاربة في عمان . على أن هناك مصادر كثيرة وصفت الحروب البحرية التي كان يقوم بها اليعاربة ضد البرتغاليين وغيرهم من القوى الأوروبية الأخرى التي حلت محلهم في السيطرة والنفوذ في بحار الشرق بأنها كانت نوعاً من القرصنة ، ولعل هذه المصادر قد تجاهلت ما ارتكبه البرتغاليون في بحار الشرق من أعمال شاذة غير إنسانية وربما يرجع تعليل ذلك الأمر إلى عدم اعتراف القوى الأوروبية بالتنظيمات السياسية العربية في الخليج العربي ورفض إطلاق لفظ الدولة عليها ، ومن ثم لم تفرق هذه المصادر بين العمليات البحرية التي كان يقوم بها اليعاربة تحقيقاً لسيادتهم وبين ما كان يمارس من قرصنة فردية ومع عدم التسليم بما جاء في تلك المصادر فإنه مما يدعو للدهشة أن تكون القرصنة عملاً قومياً إذا ما ارتبطت بالأوربيين أما إذا ارتبطت بالعرب أو المسلمين فإنها تعد عملاً من أعمال السلب والنهب !! .

ويكفي أن نشير بصدد ذلك إلى ما كانت تفعله إنجلترا حين عهدت إلى مغامرين بحريين من أمثال كافندش « Cavendish » ، وفرنسيس دريك « Drake » ، وغيرهما كثيرين لممارسة عمليات القرصنة ضد إسبانيا ، وكان أولئك القراصنة يكرمون من قبل الملكة اليزابيث الأولى ويمنحون الألقاب التعظيمية باعتبارهم يقومون بأعمال قومية مجيدة . وكما حفلت سواحل الأطلنطي بعمليات القرصنة شهدت بحار الهند الكثير من تلك العمليات أيضاً ولم تكن القرصنة الأوروبية هي التي تخشاه الدول الأوروبية وإنما كانت العمليات البحرية العمانية هي التي تخيفها في حقيقة الأمر ولعل ذلك ما دفع الدول الأوروبية إلى التكتل فيما بينها رغم ما كان يقوم بينها من منافسات لإضعاف القوة البحرية العمانية ، وبالفعل وقعت تلك الدول عدة إتفاقيات فيما بينها لعل أهمها إتفاقية ١٧٠٠ بين كل من إنجلترا وفرنسا وهولندا قسمت بموجبها المناطق البحرية التي ينبغي على كل منها أن تحافظ فيها على سلامة الملاحة فاخص الفرنسيون بالخليج العربي بينما اخص الإنجليز ببحار الهند الجنوبية واختص الهولنديون بسواحل البحر الأحمر الجنوبية وكانت هذه الإتفاقية قد وضعت أساساً لمقاومة القرصنة الأوروبية والعربية في تلك المياه (١) .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن دولة اليعاربة في عمان لم تكن الدولة الوحيدة التي استفادت من انهيار السيطرة البرتغالية لتحقيق لنفسها التفوق البحري في الخليج العربي وإنما حاولت فارس أن تحقق لنفسها ذلك التفوق أيضاً ولم تبد سلطات شركة الهند الشرقية الإنجليزية في سورات والتي كانت مسئولة بحكم ارتباطها بتجارة الخليج عن السياسة البريطانية في المنطقة منذ بداية القرن السابع عشر أية معارضة للتغلغل الفارسي في الخليج العربي جنوباً وغرباً مما مكن فارس من تأكيد سيطرتها على تلك السواحل خلفاً للسيطرة البرتغالية وكان مما ساعد فارس على ذلك أيضاً عسدة عوامل من بينها أنه لم تقم في منطقة الخليج العربي خلال فترة السيطرة الاستعمارية البرتغالية أية تنظيمات عربية قوية ، والأهم من ذلك أن السياسة الإنجليزية كانت تؤيد فارس في تغلغلها في الخليج لأن شركة الهند الشرقية الإنجليزية كانت تمارس نشاطا اقتصاديا وتجاريا في فارس وخاصة في مقاطعاتها الجنوبية وبالتالي كان الانجليز حريصين على تأكيد السيادة الفارسية على السواحل الشرقية للخليج لما سوف يترتب على ذلك من تحقيق مزيد من المكاسب الاقتصادية والامتيازات التجارية بالنسبة لهم هذا بالإضافة إلى أن التقارب الإنجليزي الفارسي على عهد الشاه عباس الكبير قد ساعد الانجليز إلى حد كبير على منافسة الهولنديين الذين حاولوا أن يدلوا بدلوهم في المنافسات التجارية والاستعمارية التي احتدمت في منطقة الخليج العربي والتي ظهرت واضحة منذ بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر^(١) . على أنه مما يسترعى الانتباه أنه بينما كانت فارس تتطلع إلى وراثة النفوذ الاستعماري البرتغالي في الخليج إلا أنها وجدت نفسها في وضع المواجهة مع دولة اليعاربة في عمان وعلى العكس من ذلك أخذ اليعاربة يغتنمون فرصة الاضطرابات الداخلية التي كانت تتعرض لها

Foster, W. op. cit. P. 79 see also Saldanha, East (١)
India Companies Connexion with the Persian Gulf 1600-
1800, Selection from Bombay State Papers of Report on
the Commerce of Arabia and Persia 1790.

فارس لكي يؤكدوا لأنفسهم السيطرة والتفوق على مياه الخليج^(١). ولذلك لم تسلم فارس من تعرض العمانيين لمصالحها وبلغ مقدار الضرر الذي تعرضت له التجارة الفارسية بل والسيادة الفارسية على سواحلها المطلّة على الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أن حاولت الاستعانة بإحدى القوى الأوروبية لتتقاضى على منافسة عمان لها وفيما تقرره الكثير من المصادر أن الحكومة الفارسية تقدمت في السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر إلى شركة الهند الشرقية الإنجليزية لكي تعاونها في الهجوم على مسقط في مقابل منح الإنجليز في مسقط نفس الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها من قبل الفرس في ميناء بندر عباس^(٢). ولكن شركة الهند لم تتحمس في ذلك الوقت للعروض الفارسية إذ لم يكن لديها الرغبة في التدخل عسكرياً في شئون الخليج لما كان يستلزم منها الأمر مواصلة إرسال السفن والجنود التي كانت أحوج ما تكون إليهم في تنظيم وتوطيد نفوذها في ممتلكاتها في شبه القارة الهندية، وإن كانت قد حرصت في نفس الوقت على أن تقف حائلاً دون استفادة الهولنديين من ذلك الموقف لما يؤدي إليه ذلك من تفوقهم على الإنجليز في فارس والخليج العربي^(٣). ومن ناحية أخرى فقد استلقت تجارة مسقط في المحيط الهندي وفي سواحل شرق إفريقيا اهتمام شركة الهند الشرقية الإنجليزية حتى أن ممثلي الشركة في البصرة وبغداد كتبوا إلى رئاسة الشركة يؤكدون أن مسقط تعد من أبرز القوى المحلية في الخليج وأن سفنها أصبحت تسيطر على تجارته وحث كل من هارفورد جونز وصمويل

(١) Miles, Samuel, The Countries and Tribes of the Persian Gulf vol. II P. 150 London 1919.

(٢) Curzon, G. Persia and the Persian Question vol. II P, 438 London 1902.

(٣) Bombay Government, Selection from the Records, vol. (٣) XXIV P. 168.

ما نيسى حكومة الشركة على أهمية تأسيس وكالة لها في مسقط^(١) : وإن كانت الشركة لم تقم بأى إجراء مكتفية حتى أوائل القرن التاسع عشر بمن كانت تعيينهم من العناصر الوطنية لإدارة شئون الشركة في مسقط^(٢) .

والجدير بالذكر أن فارس لم تدع سبيلا إلا وسلكته من أجل اضعاف القوة البحرية العمانية بل كانت رغبته في ذلك من أهم الأسباب التي دفعت بها إلى احتلال بعض المقاطعات العمانية وحدث ذلك على عهد نادر شاه كما سنشير إلى ذلك فيما بعد وقد يكون من المفيد قبل أن نصل إلى ظروف هذا الاحتلال التي استطاعت به فارس أن تحرز سيطرة مؤقتة على عمان أن نسجل هنا استمرار المحاولات الفارسية للحصول على دعم أوربي لها إذ أنه على أثر فشل فارس في الحصول على مساعدات بحرية من شركة الهند الشرقية الانجليزية قررت الالتجاء إلى فرنسا وكان ذلك على عهد لويس الرابع عشر حيث تم توقيع معاهدة بين فارس وفرنسا في عام ١٧٠٨ كانت تحتوى على بعض النصوص السرية التي تقضى بأن يقوم الفرنسيون بارسال أسطول لمساعدة فارس في احتلال مسقط^(٣) . وعلى الرغم من توقيع تلك المعاهدة إلا أن فرنسا ترددت كثيراً في تقديم تلك المساعدة وتركز الكثير من المصادر على الجهود الكبيرة التي بذلها الشاه لكي يحث فرنسا على تنفيذ المعاهدة من ذلك ما يذكره ماسون Masson في كتابه عن التجارة الفرنسية في الليفانت أنه في عام ١٧١٤ أرسل شاه الفرس مبعوثاً إلى لويس الرابع عشر لكي يطلعه على الصعوبات التي تتعرض لها فارس ولكي يعقد

I.O. P. & S 120 / C. 227 Report of Commerce of (١)
Arabia and Persia by Samuel Manisty and Harford Jones
1790.

Landen, R, Oman Since 1856 P, 145 (٢)

Farrouhy, Abbas, op. cit. pp. 65-66 (٣)

محالفة مع فرنسا بقصد القضاء على قوة عمان البحرية^(١). ويضيف فلاسون Flasson بأن المفاوضات الفرنسية الفارسية انتهت بموافقة الحكومة الفارسية على تعهد فارس بأن تمنح مسقط بكافة تحصيناتها إلى الحكومة الفرنسية كما التزمت فارس بأن تبذل أقصى ما في وسعها لطرد الدول الأخرى المنافسة لفرنسا في سيطرتها على طريق الهند^(٢). وفي أغسطس ١٧١٥ تم التوصل إلى اتفاقية بين البلدين كانت أهم ما تنص عليه اعفاء الفرنسيين من دفع رسوم الاستيراد والتصدير وعدم تحديد حجم تجارتهم ومنحهم نفس الامتيازات التي تمنح مستقبلاً للدول الأوروبية الأخرى بيد أن هذه الاتفاقية لم توضع موضع التنفيذ إذ رفضت حكومة الشاه المصادقة عليها بسبب عدم الإشارة إلى قيام تحالف بين فرنسا وفارس وعملت فارس المصادقة على تلك الاتفاقية إلى حين وصول السفن الفرنسية إلى الموانئ الفارسية وحينما وصلت بعض السفن الفرنسية إلى ميناء بندر عباس في عام ١٧٢١ تم التصديق على المعاهدة التي طال انتظارها بيد أن الانتصار الذي حققته الدبلوماسية الفرنسية كان انتصاراً قصير الأجل إذ سرعان ما تطور الموقف بشكل حال دون تمكن فرنسا من انتزاع أية فائدة من تلك المعاهدة^(٣)، ولعل فرنسا اتجهت بعد ذلك اتجاهها معاكساً حين عملت على تطوير علاقتها بمسقط وزيادة حجم تجارتها مع عمان عن طريق مستعمراتها في جزيرة موريس وكان السبب في ذلك يرجع في الدرجة الأولى الفوضى التي اجتاحت فارس وأدت إلى غزو الأفغان لها في عام

(١) Masson, Histoire de Commerce Francais dans le levant P. 525 Paris 1911.

(٢) Flasson, Histoire de la Diplomatie Francais Livre II see also D'Avril, le Golfe Persique, Route de l'Inde et de la Chine Extrait de la Revue des Questions Diplomatiques et Coloniales Paris 1905.

Lockhart, L., op. cit. P. 472.

(٣)

١٧٢٢^(١) ، ولما كان الغزو الأفغانى لفارس ، قد أسفر عن انهباء واضح لمركزها فى مياه الخليج فقد حاول نادر شاه بعد تحرير بلاده من الاحتلال الأفغانى وعقب وصوله الى السلطة والغائه الأسرة الصفوية الحاكمة تقوية مركز فارس فى الخليج العربى ومن ثم عمدا الى تأسيس أسطول فارسى لم يكن لفارس عهد به من قبل^(٢) .

وقد بدأ نادر شاه يوجه اهتمامه بانشاء ذلك الأسطول منذ عام ١٧٣٤ حين أرسل لطيف خان الى ميناء بندر عباس وحمله بضعة رسائل الى ممثلى شركة الهند الشرقية الإنجليزية والهولندية يخبرهم فيها بأمر تعيينه لطيف خان قائدا للأسطول الفارسى وطلب فى تلك الرسائل من ممثلى الشركتين مساعدته فى شراء بعض السفن ، وفى نفس ذلك العام أصدر نادر شاه تعليماته الى لطيف خان بتوسيع ميناء بوشهر بهدف استخدامه قاعدة للأسطول الفارسى المتوقع انشاؤه^(٣) . والجدير بالذكر أن لطيف خان قد ألح على ممثلى الشركتين الانجليزية والهولندية بأن استجابتهم لرغبة الشاه هى الضمان الوحيد للبقاء على امتيازاتهم مما اضطر الشركتان الانجليزية والهولندية الى تقديم بعض السفن اللازمة لتأسيس الأسطول الفارسى^(٤) .

وقد حفلت الوثائق الهولندية بأنباء المساعدات التى قدمت لنادر شاه من قبل شركة الهند الشرقية الهولندية — وعن توقيع تعاقد بين تقى خان حاكم اقليم فارسى وممثل شركة الهند الشرقية الهولندية فى بندر عباس كان ينص على أن تضع الشركة أسطولها تحت تصرف فارس على أن تكون الحكومة الفارسية مسئولة عن أى دمار تتعرض له سفن الأسطول وأن يعمل الأسطول الهولندى فى تعقب السفن العربية فى مقابل أن يجد

(١) Masson, op. cit. P. 544.

(٢) Lockhart L. The Navy of Nadir Shah of Persia Proceedings of the Iranian Society vol I Part I London 1936.

(٣) India office : Factory Records, Persia and the Persian Gulf, Gombroon diary Feb. 3, 1734 — 5 July 1734.

(٤) I.O. Factory Records, Gombroon [diary November 11, 1734 cf. Persia and the Persian Gulf — letters from Bussora, Gombroon etc — Gombroon Diary June 18, 1734.

الهولنديون تأييداً من قبل فارس في العمليات العسكرية التي يقومون بها ضد القوى المناوئة لهم في الخليج العربي^(١).

وهكذا يرجع إلى الفترة التي حكم فيها نادر شاه نجاح فارس في تكوين أسطول بحري خاص بها ومع ذلك فقد كان واضحاً أن ذلك الأسطول مقضى عليه بالفشل إذ أثبتت الفرس أنه لم يكن لهم خبرات في فنون الملاحة حتى أن نادر شاه اضطر إلى الاستعانة بالملاحين العرب لقيادة بعض قطع أسطوله . كما أدى تقاعس إنجلترا وهولندا عن استمرار تزويده بحاجته من السفن إلى محاولته تصنيع السفن في ميناء بوشهر وذلك بنقل الأخشاب إلى ذلك الميناء من غابات مازندران ولا يخفى ما تكبدته في سبيل ذلك من نفقات باهظة وخاصة في الجهد البشري حيث كانت تنقل قطع الأخشاب على ظهور الرجال ومع ذلك فإن تلك الجهود كما لاحظ نيبور Neibuhr لم تؤد إلى نتيجة إيجابية من حيث استمرارية القوة البحرية الفارسية التي ارتبطت بحياة نادر شاه^(٢). كما كان الانتعاش البحري الفارسي مرتبطاً أيضاً بتردى أسرة العاربة في مشكلاتها الداخلية وصراعاتها الأسرية مما أدى إلى انهيار تفوقها البحري وهو الأمر الذي سيدفع بنادر شاه إلى احتلال عمان وتأسيس سيادة فارسية شاملة عليها^(٣). وهذه المحاولة لها أهميتها الخاصة وذلك لأن عمان كانت أهم قوة محلية في الخليج العربي ومن ثم كان القضاء على قوتها واحتلال مقاطعاتها يعد نجاحاً كبيراً لنادر شاه إذ أن ذلك كان يخلصه من أكبر منافس له في زعامة الخليج بيد أن ذلك الدور الذي قام به في تاريخ بلاده كان مرتبطاً بحياته إذ إنها رت القوى البحرية الفارسية في أعقاب اغتياله في عام ١٧٤٧ وعادت القوى العربية البحرية تستأنف نشاطها من جديد .

CF. contract between Memet Tackie chan and the (١)
Dutch Cambay 27. XI, 1740 VOC 2546 — Papers Received
from the Colonies of Holland in Gombroon 1742, vol. 34.
Abu Dhabi Doc. Centre

Sykes. P., History of Persia vol. II P. 366 London (٢).
1915.

F.R. Letters from Bussora, Gombroon etc June 18, (٣),
1735.

الفصل الثالث

الأوضاع الداخلية في عُمان

الصراعات الداخلية بين النباهنة والإباضيين وبنى جبر
ظهور أسرة اليعاربة ومحاولة بناء الجبهة الداخلية - التنافس
حول الإمامة ونشأة الكتلتين الهناوية والغافرية - التدخل
الفارسي في عمان - سقوط اليعاربة وقيام البوسعيد -
ازدواجية السلطة بين الإمامة والسلطنة - استمرار تدهور
للعلاقات العمانية الفارسية - تقليص الحكم العماني من
السواحل الشرقية للخليج العربي .



الفصل الثالث

الأوضاع الداخلية في عمان

لعل الجهود التي بذلها العمانيون من أجل تخليص بلادهم من سيطرة البرتغاليين كانت العامل القوي الذي أبرز أسرة اليعاربة التي لم تكن شيئاً يذكر قبل مجيء البرتغاليين إلى سواحل الخليج العربي ولكنها أصبحت قوة فعالة بحسب لها حساب كبير في داخل البلاد وخارجها منذ النصف الأول من القرن السابع عشر . وليس من شك في أن نجاح تلك الأسرة في طرد البرتغاليين من عمان هو الذي جعل لها مكاناً ملموساً في التاريخ العماني كما سيكون الاحتلال الفارسي لعمان سبباً في صعود نجم أسرة أخرى هي أسرة البوسعيد التي خلفت أسرة اليعاربة في الحكم .

والحقيقة أن اليعاربة لم يصلوا إلى الدرجة التي تمكنهم من مواجهة البرتغاليين إلا بفضل الجهود التي بذلوها في مجال القوة البحرية والتنظيم الداخلي . ولعل أفضل فترات حكم اليعاربة انتعاشاً قد ارتبطت في أذهان الناس ومن الناحية التاريخية بمرحلة من النهضة التي لم تكن تعرفها البلاد من قبل . ولم تكن أسرة اليعاربة لتحظى بذلك النجاح إلا بفضل إنشائها لأول أسطول بحري تجاري وعسكري إلى جانب عناية الأئمة بالزراعة وبناء الحصون العسكرية والقلاع الشهيرة التي لا تزال أطلالها قائمة في المدن التاريخية القديمة بعمان حتى وقتنا الحاضر ، هذا فضلاً عن نجاحهم في توحيد البلاد وإشاعة الحكم المركزي القوي بعد ان عانت الأقاليم العمانية من

الانقسامات العديدة في ظل زعمائها القبليين^(١).

والامامة الإباضية التي قامت عليها أسرة البعاري نظام ديني يقوم على البيعة بالانتخاب وليس بالوراثة وإن كان من الملاحظ أن الإمامة ظلت قائمة في تلك الأسرة حتى سقوطها في عام ١٧٤١ ويرجع المؤرخون نظام الإمامة الإباضية إلى عهد الدولة الأموية حين خرج عبد الله بن إياض على عبد الملك بن مروان وعندما قمعت ثورته لجأ إلى عمان حيث أقام بها ذلك النظام الديني واستمرت الامامة قائمة في عمان منذ النصف الأول من القرن الثاني الهجري وإن كانت تتخللها فترات من الشغور أو الانقطاع كما حدث على عهد القرامطة أو حينما تولى ملوك بني نهان السلطة في عمان في السنوات الأولى من القرن الثاني عشر الميلادي أو على وجه التحديد في عام ١١١٢^(٢). وفي خلال عهد النباهنة الذي استمر ما يقرب من خمسة قرون كانت الإمامة الإباضية تنبعث بين آونة وأخرى وقد ذكرت المصادر العمانية المحلية بصدد ذلك « وكان بنو نهان ملوكاً عظاماً بعمان ولكن حينما اشتد فسادهم وصار منهم أهل عمان في امتنان اجتمع أكابر أهل عمان لإزالة الجور والطغيان ونظر المسلمون في الدماء التي سفكوها والأموال التي أخذوها واغتصبوها بغير حق فعدوا الإمامة لأبي الحسن بن عامر الأزدي ثم للإمام عمر بن خطاب الخروصي وهو الذي حاز أموال بني نهان^(٣)، على أن الخروصي لم يستقر طويلاً في الإمامة إذ خرج عليه سليمان بن مظفر النبهاني وهو الذي قضى عليه محمد بن إسماعيل ، وكان ذلك سبباً في احترام المسلمين له ومبايعته بالإمامة التي

(١) عبد الله خلفان بن فيسر : سيرة الامام ناصر بن مرشد تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي ص ١٠ وما بعدها نشر وزارة التراث القومي والثقافة — سلطنة عمان ١٩٧٧ .

(٢) ج . ج . لوريير — دليل الخليج ج ٢ ص ٦٢٩ / ٦٣١ .

(٣) سرحان بن سعيد الأزكوي : تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة — تحقيق عبد المجيد القيسي — نشر وزارة الثقافة والتراث القومي سلطنة عمان ص ٧٥ - ٧٨ وكذلك ابن رزيق — الفتح المدين في سيرة السادة البوسعيدين تحقيق عبد المنعم عامر ومحمد مرسي عبد الله ص ٢٥٧ — نشر وزارة التراث القومي بسلطنة عمان ١٩٧٧ .

استمر بها ثلاثين عاماً^(١) ، وعلى وجه التحديد بين عامي ١٥٠٠ و ١٥٣٠ ويفهم من ذلك أنه كان معاصراً للغزو البرتغالي لعمان في مراحل الأولى وعلى الرغم من أن العمانيين نصبوه إماماً لما رأوا من قوته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا أنهم تبرأوا منه لجبايته الزكاة بالجبر ، كذلك تبرأ الإباضيون من ابنه بركات الذي بويع بالإمامة بعد وفاة أبيه . ورغم انبعاث الإمامة الإباضية في عمان إلا أن الإباضيين لم يتمكنوا من التخلص من نفوذ النباهنة الذي استمر قوياً في موطنهم الأصلي باقليم الحجر . وإلى جانب النباهنة والإمامة الإباضية كانت هناك سلطة أخرى تمارس الحكم في بعض المقاطعات العمانية وهي سلطة بني جبر أو بني هلال كما كانوا يعرفون بذلك الاسم حيث يرجعون بنسبهم إلى هلال بن زامل الجبري وكانوا ينقسمون كما أشرنا في الفصل السابق إلى كتلتين رئيسيتين الأولى مقرها الاحساء ويمتد نفوذها على عمان الشمالية في منطقتي الظاهرة والظفرة ثم كتلة عمان الداخلية التي كان يتزعمها محمد بن جفیر الجبري الذي تمكن من السيطرة على بهلى التي أصبحت المقر الرسمي للإمامة الإباضية عقب نجاح الإمام بركات بن اسماعيل من انتزاعها من النباهنة واتخاذها مقراً لحكمة .

ومما تجدر الإشارة إليه إن بني هلال قد استغلوا الصراع الذي كان قائماً بين الإباضيين والنباهنيين لكي يسيطروا على بعض المقاطعات العمانية وليكونوا عاملاً هاماً في السياسة العمانية بيد أن كثرة الصراعات بين بني هلال والنباهنة من ناحية وبين الإباضيين والنباهنة من ناحية ثانية أفسح المجال لظهور زعامة جديدة في عمان . والحقيقة أن الامام بركات بن اسماعيل قد توفى والبلاد في حالة من الفوضى إلى أن برز في الرستاق ناصر بن مرشد من أسرة اليعاربة وبمبايعته بالإمامة في عام ١٦٢٢ بدأ عهد اليعاربة في عمان الذين اتخذوا من مدينة الرستاق قاعدة لهم وواكب ظهورهم أو على الأحرى مهد لظهورهم ضعف سيطرة البرتغاليين في الخليج العربي.

(١) ابن رزيق : مصدر سبق ذكره ، ص ٢٥٨ .

بعد أن تهاوت معاقلمهم في البحرين وهرمز أمام ضربات الصفويين والإنجليز^(١).

والأمر الذي لا شك فيه أن انتخاب الإمام ناصر بن مرشد بن مالك أبي العرب لإمامة عمان في عام ١٦٢٤ كان يعد بداية عهد جديد في التاريخ العماني ولعل أبرز ما قام به من جهود هو عمله على توحيد البلاد ومنازلة البرتغاليين ووضع أسس دولة اليعاربة التي حكمت ما يقرب من مائة وعشرين عاما وتميز عهدها على العموم بأنه كان عهد أمن داخلي ورخاء ازدادت فيه الثروة وازدهر التعليم. كما تميز عهدها أيضا بازدياد هائل ومفاجيء في القوة البحرية^(٢). وإن كانت قد أصيبت في أواخر عهدها بفترة من القلق والاضطراب أدت إلى إضعاف مركزها نتيجة التنافس حول الإمامة وظهور فرق متنازعة من الهناوية (عرب الجنوب) والغافرية (عرب الشمال) التي ظلت في نزاع مستمر لمدة طويلة وازدادت حدة الانفصال بين هاتين الطائفتين بظهور الوهابيين على مشارف عمان منذ نهاية القرن الثامن عشر الميلادي^(٣).

بدأت دولة اليعاربة بالإمام ناصر بن مرشد الذي كان يعيش في مدينة الرستاق في فترة من النزاع والشقاق أتعبت علماء البلاد فاجتمع سبعون منهم في عام ١٦٢٤ وطلبوا منه بالخاح أن يقبل تولي الإمامة وليكون القائد الأعلى للبلاد وقد قبل الإمام ناصر طلبهم هذا بعد تردد ووجه همه عقب توليه السلطة إلى بناء الوحدة الداخلية والرد على العدوان الخارجي المتمثل في وجود البرتغاليين. وبدأ بقمع المعارضين له من جماعة الأمبوسعيديين

(١) عبد اللطيف الحميدان : نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية ١٥٢٥ - ١٧٨١ مجلة كلية الآداب جامعة البصرة العدد ١٧/ ١٩٨١ .

(٢) ج. ج. لوريمر : دليل الخليج ج ٢ ص ٦٣٧ .

(٣) محمود علي الداود : محاضرات في التطور السياسي لقضية عمان ص ١٨ - ١٩ معهد الدراسات العربية العالية - القاهرة ١٩٦٤ .

وهي الأسرة التي يحتمل كما يقول بادجر أن تكون هي التي عارضت سلطة العاربة في بداية حكمهم ثم كانت هي نفسها التي خلفتهم في السيادة على البلاد^(١)، وإلى جانب تصدى الإمام ناصر للأمبوسعديين كان عليه أن يواجه بني الهلال الذين نجحوا خلال فترة الاضطرابات التي مرت بها البلاد في الاستيلاء على الظاهرة والبريمي . وتؤكد المصادر العمانية أنه بعد وصول الإمام ناصر إلى الحكم أخذت حصون بني الهلال أو الجبور في مختلف المناطق العمانية تهاوى الواحدة بعد الأخرى وأن قوات الإمام ناصر كانت هي المنتصرة دائماً ولكن التمحيص في تلك النصوص يظهر لنا أن الحرب كانت سجالاً وأن النصر كان يتأرجح بين الطرفين وربما يرجع ذلك إلى أن الجبور قاموا بمناصرة الهناوية وبدأوا يدخلون في التركيبة الطائفية في عمان ولما كان الإمام ناصر قد نجح إلى حد كبير في إخضاع كتلة الجبور في عمان الداخلية فإن ذلك أغراه إلى إخضاع كتلة الجبور في الاحساء استمراراً لعملية التوحيد التي قام بها والتي تعدت فيما يبدو لإقليم عمان ومن الواضح بصدد ذلك أن الإمام ناصر كان يريد أن يعامل كتلة الجبور بفرعها في عمان والاحساء على أنها تابعة له ولكن الصراع بين الإمام ناصر وبين جبور الاحساء تميز بالعنف والقسوة وخاصة أن كتلة الجبور في الاحساء كان لها أنصار عديدون في عمان الشمالية في الظاهرة والظفرة وكانت تساعد قبايل كثيرة ومن بينها قبيلة بني ياس كما حاول البرتغاليون استغلال تفكك الأوضاع لصالحهم فاستمالوا شيخ الجبور في عمان ضد ناصر بن مرشد^(٢)، غير أن الإمام ناصر تمكن من ضرب الجبور وحسر نشاطهم . وعلى أثر قتل شيخهم ناصر الجبوري ألقى ناصر بن مرشد بكل ثقله لمحاربة البرتغاليين

(١) Badger, Percy, History of the Imams and Seyyids of Oman by Salil Bin Razik — Introduction and Analysis P. 54 London 1871.

(٢) ناصر عبد اللطيف الحميدان : نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية العدد ١٧ مجلة كلية الآداب جامعة البصرة ١٩٨١ .

(م ٩ — الخليج العربي)

فسيطر على صور وقرىات وطررد البرتغاليين من دبا ووقعت بيده وبينهم معارك شديدة فى صحار وأوفد رسله إلى مسقط لمفاوضة البرتغاليين حينما طلبوا الصلح وفى ذلك يقول سرحان بن سعيد إنه « حارب النصارى المستولين على مسقط ومطرح ونصر الله جيش الإمام فهدموا من مسقط بروجاً باذخة ومبانى شائخة وقتلوا من المشركين خاقا كثيرا ثم أن النصارى طلبوا الصلح ومن الشروط أن يعطى أولئك النصارى الجزية للإمام كل سنة وألا يؤذوا مسلما إذا وفد على مسقط فأذعنوا لذلك^(١) ». وهكذا استطاع الإمام ناصر فى سنوات حكمه التى امتدت حتى عام ١٦٤٩ أن يحقق للبلاد تماسكها ويؤمنها إلى حد كبير من الأخطار الخارجية التى كانت تتعرض لها وكانت الجهود التى بذلها باعثة على الأمل الكبير فى تحقيق الوحدة العمانية التى افتقرت إليها البلاد منذ أمد بعيد^(٢) . وبذلك يمكن اعتبار أسرة اليعاربة هى الأسرة التى خلفت النباهة فى الحكم بعد أن أصبح ناصر بن مرشد هو الحاكم الوحيد الذى يتمتع بثقة العمانيين ويحظى باحترامهم وقد وصفه ابن رزيق بأنه كان رجلا نزيها مستقيما وكان مثالا للعدالة مجسدة فى انسان^(٣) . بيد أن الوضع المفكك لم يلبث أن عاد إلى البلاد بعد وفاته فى عام ١٦٤٩ وكان ذلك نتيجة للتنازع الأسرى الذى سار مع ركب دولة اليعاربة منذ وصولها إلى السلطة حتى أدى بها إلى الانهيار فى نهاية الأمر وما يستلزمه النظر أنه على الرغم من أن أسرة اليعاربة قد استطاعت بنجاح كبير معالجة مشكلاتها الخارجية ضد الفرس والبرتغاليين إلا أنها وقفت عاجزة تماما أمام مشكلاتها الداخلية^(٤) . وسوف نتفاهم تلك المشكلات فى أواخر عهد اليعاربة حتى تاجر على البلاد احتلال فارسى . ومع ذلك فقد استطاع سلطان بن سيف الذى بويع بالإمامة بعد وفاة ابن عمه ناصر بن مرشد أن

(١) سرحان بن سعيد الأزكوى : مصدر سبق ذكره ص ١٠٤/١٠٦ .

(٢) ج . ح . ج . لوريمر : دليل الخليج العربى ج ٢ ص ٦٢٣ .

(٣) ابن رزيق : مصدر سبق ذكره ص ٢٩١/٢٩٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٨٤/٢٨٦ .

يواصل جهوده من أجل توحيد البلاد غير أن أثره كان واضحا في استئناف الجهاد ضد البرتغاليين وإليه ينسب بناء القلعة المستديرة الكبيرة في نزوى والتي استغرق بناؤها اثني عشر عاما^(١).

وقد نلخص لنا ابن رزيق الأوضاع في عهده بقوله « إن عمان اعتمدت في أيام دولته وازدهرت واستراحت في عصره رعيته ورخصت الأسعار وصلحت الأسفار وكان متواضعا رؤوفا بالرعية وكان يخرج إلى الطريق بغير عسكر » كما تحدث المؤرخ السالمى عن جهاده ضد البرتغاليين بقوله « إنه قام ببناء مراكز عظيمة في البحر وعظم جيشه وقوى سلطانه واستولى على الجزيرة الخضراء وكلوة وبات وغيرها من بلدان الشرق الأفريقي والهند كما غزا أرض فارس وأدب كل من تسول له نفسه بالعدوان » وإلى سلطان بن سيف ينسب نجاحه في طرد البرتغاليين من مسقط حيث ذكر ابن رزيق بصدد ذلك بأنه « نصب الحرب لمن بقى من النصارى في مسقط وسار إليهم بنفسه حتى نصره الله عليهم وكانت الحرب سجالا ليس في قدرة البرتغاليين أن يخرجوا الامام من مطرح ولا قدرة للامام أن يدخل مسقط على النصارى حتى جرى من البرتغاليين والهنود من الشقاق فأنحاز أحد الهنود إلى سلطان بن سيف وتم اخراجهم من مسقط^(٢) » وقد أضاف المؤرخ العماني سرحان بن سعيد أنه « لم يزل يجاهد في بر وبحر حتى استفتح كثيرا من بلدانهم وضرب كثيرا من مراكزهم وغنم كثيرا من أموالهم ويقال إنه بنى القلعة التي بنزوى من غنيمة الديو^(٣) » ومما يستلفت النظر أنه على الرغم من الإشارات الكثيرة التي وردت في كتب المؤرخين العمانيين عن الصراع الذي كان قائما بين البرتغاليين واليعاربة إلا أنهم لم يتحدثوا بالتفصيل عن ذلك الصراع بالقدر الذي اعتادوا فيه أن يكتبوا عن معاركهم القبلية المحلية

(١) ابن رزيق : مصدر سبق ذكره ، ص ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

(٢) المصدر السابق ص ص ٢٨٤ - ٢٨٦ .

(٣) سرحان بن سعيد : كشف الغمة ورقة ٦٩/٧٠ .

غير أنه مما لا شك فيه إن إجلاء البرتغال عن السواحل العمانية على يد الإمام سلطان بن سيف كان يعد عملاً رائعاً ونقطة تحول في تاريخ المنطقة وعند وفاة الإمام سلطان بن سيف في عام ١٦٦٨ خلفه بلعرب الذي قام ببناء قلعة جبرين ثم نقل عاصمته إليها من نزوى وأنشأ فيها معهداً علمياً خرج عدداً كبيراً من علماء الشريعة إلا أن عهده لم يدم في إشرافه وإنما تشوهت صورته بسبب الخلافات الخطيرة التي نشبت بينه وبين أخيه سيف بن سلطان وقد جلبت هذه الانقسامات ويلات كثيرة على البلاد حتى أطلق الناس على بلعرب بلاء العرب بدلاً من أبي العرب وعلى أخيه سيف المصيبة^(١). غير أن سيفاً لم يلبث أن تمكن من فرض سيطرته على القلاع الرئيسية مما أعطاه قوة كافية ضمنت له البيعة بالإمامة في حياة أخيه بلعرب وانتهى الأمر بأن وجد بلعرب نفسه محاصراً في قلعته بجبرين من قبل أخيه سيف ولما وجد أن وضعه أصبح ميؤوساً منه دعا الله أن يقبضه إليه وتقول الروايات أن الله سبحانه وتعالى استجاب لدعائه ودفن في قلعته في جبرين . وعلى الرغم من أن سيفاً لم يكن محمداً في دوافعه أو في الطرق التي استخدمها للوصول إلى الإمامة إلا أن أحداً لم يعترض على بيعته وخاصة بعد وفاة أخيه وقد أثبت أنه حاكم شديد المراس أكد مركزه بكفاحه ضد البرتغاليين واشتهر بقوته البحرية الضخمة واشتهرت من سفنه الفلك والمملك والرحمانى وكعبراس والناصرى^(٢) . وعندما توفي في عام ١٧١١ خلفه ابنه سلطان بن سيف الذي واصل الحرب ضد البرتغاليين كما تابع محاربة الفرس وأخراجهم من البحرين وقشم ولارك وتوفي في عام ١٧١٨ ودفن بمدينة حزم وبوفاته انتهت الوحدة التي عرفتها عمان إذ أعقبت وفاته سنوات من الحروب الأهلية استمرت أكثر من ثمانية عشر عاماً وقعت في خلالها مجموعة كبيرة من الاضطرابات والثورات وأدت إلى انقسام العمانيين وقيام كتلتين كبيرتين هما الهناوية والغافرية وقد فسر كثير من الباحثين من أمثال ميلز ولوريمر قيام هذين

(١) ابن رزيق : مصدر سبق ذكره ص ٢٩٣ .

(٢) سرحان بن سعيد : مصدر سبق ذكره ص ١١٣ .

التكتلين بأنها كانا صورة من صور التعصب التقليدى بين عرب الشمال وعرب الجنوب فالكتلة الهناوية على حد قولهم هى كتلة القبائل العدنانية بينما الكتلة الغافرية هى كتلة القبائل اليمنية ومن المعروف أن الصراع كان قديما بين عرب الشمال والجنوب وكان عرب الجنوب يرون أحقيتهم بالسلطة على اعتبار أنهم كانوا أول الوافدين إلى عمان^(١) . وقد أضيف إلى هذا الصراع التقليدى طابع مذهبي إذ كان بنو غافر في أغلبهم من الفئات السنية ولذا كانت تشايحهم معظم القبائل التى كانت تسكن منطقة الظاهرة أما بنو هنة وأنصارهم فكان أغلبهم من أصحاب المذهب الإباضى الذى عم الجزء الأكبر من أهل الباطنه في عمان^(٢) .

وقد تبدو هذه التفسيرات مقبولة إذا أخذنا بفكرة العصبية المذهبية أو القبلية ولكنها لا تستقيم إذا أخذنا بتطور الوضع السياسى في عمان الذى لم يعد في ذلك الوقت مجرد تعصب تقليدى بين القبائل والطوائف وإنما تشابكت المصالح السياسية والاقتصادية وكان لها أثر كبير في تحطيم الكثير من النزعات القبلية والمذهبية . وقد أورد بعض الباحثين كشفا بأسماء القبائل وأنسابها والتى تنتمى إلى كل من التكتلين الهناوى والغافرى واتضح من ذلك أن التكتل الغافرى كان يضم إليه قبائل يمنية تكاد تتساوى في أعدادها مع القبائل العدنانية وكذلك ينطبق هذا الوضع في التكتل الهناوى الذى كان يضم بدوره قبائل عدنانية تكاد تتساوى مع القبائل اليمنية ومن ثم فإن واكنسون Wilkinson لاحظ أن ظهور الكتلة الهناوية والكتلة الغافرية بالانتماءات القبلية المختلطة فيها يعد تطورا ضخما في الحياة السياسية العمانية إذ أن هذين التكتلين أعادا تشكيل تحالفات القبائل وولائها من العصبية القبلية أو المذهبية إلى تحالف وولاء سياسى واقتصادى جديد ، وركز بصدد ذلك على الأفلاج أو أساليب الري

Thomas, Bertram, Alarms and Excursions in Oman (١)
P. 155 London 1931.

(٢) فالح حنظل ، الفصل في تاريخ الإمارات العربية ج ١ ص ١٢٥ لجنة التراث والتاريخ
أبو ظبي .

المستخدمة في عمان باعتبارها قد شكلت مصالح اقتصادية لمجموعة من القبائل التي تعتمد حياتها على الأفلاج ومن ثم تشكلت وحدة سياسية إقليمية من مجموعة هذه القبائل وأسهم العامل الاقتصادي بدور كبير في تشكيل اتجاهاتها من حيث ولائها لأحدى التكتلين الهناوى أو الغافرى بصرف النظر عن العصبية القبلية التقليدية^(١). أما ما يثار حول اقتران الحزب الهناوى باليمينية والحزب الغافرى بالعدنانية^(٢) فلنما يرجع إلى ما عيس الزعامة فيهما حيث أطلق الناس اسم الغافرية على أتباع الزعيم محمد بن ناصر نسبة إلى أصله العدناني بينما أطلق على منافسيهم الهناوية نسبة إلى زعيم حركة المقاومة ضد محمد ابن ناصر واسمه خلف بن مبارك الهناوى الذى ينتسب إلى القبائل اليمنية^(٣) وقد ظهر الصراع السياسى والاقتصادى بين الهناوية والغافرية بصورته الجديدة خلال نشوب الحروب الأهلية التي بدأت في عمان على أثر وفاة الإمام سلطان بن سيف إذ أنه بعد أن تكرر الحكم الوراثى لأئمة البعارة طيلة هذه الفترة الطويلة من بداية حكمهم رأى عامة الناس أن يخلفه ابنه سيف الذى كان لا يزال صبيا صغيرا لم يبلغ مبلغ الرجال ولكن الخاصة من أهل الحل والعقد في عمان لم يرحبوا بذلك وفيما يرجح أن ذلك كان معارضة منهم للحكم الوراثى الذى سار عليه أئمة البعارة وهذا الموقف الذى وقفه أولئك العلماء من المواقف الهامة التي ينبغى تسجيلها إذ كانت دوافعهم الأصيلة هي رفض الاتجاه الوراثى لمخالفته نظام الإمامة وإن تذرعوها بحجة شرعية أخرى وهي رفض البيعة لسيف بسبب صغر سنه إذ كان لا يتعدى الثامنة عشرة من عمره . وإذا كان لا يجوز له أن يؤم الناس في الصلاة فكيف يمكنه أن يؤمهم

(١) CF. Wilkinson, J.C. The Organization of the Falaj irrigation in Oman, Oxford 1971.

وعن التحليل التفصيل للهنأوية والغافرية راجع محمد مرسى عبد الله : إمارات الساحل و عمان ، الدولة السعودية الأولى ١٧٩٣ - ١٨١٨ ص ٦٤/٦٧ - القاهرة (بدون تاريخ) .

(٢) السالمى : تحفة الأعيان بسيرة آل عمان ج ٢ ص ١١٧ .

في شئون الحياة ؟ ومن ثم كانوا أميل إلى مبايعة مهنا بن سلطان الذي وجدوا فيه شخصاً حائزاً على كل الشروط التي يجب توافرها في الإمام على عكس سيف الذي لا يجوز له أن يتصرف في أملاكه الخاصة وبالتالي لا ينبغي له أن يتولى الإشراف على ممتلكات الإمامة وبالتالي فقد عدوا انتخابه خروجاً على المألوف والشرع . وإن كان مما يستلفت الانتباه أن العلماء لم يخرجوا عن البيعة في نطاق أسرة البعاريبة إذ كان مهنا ابن سلطان ينتمي إلى تلك الأسرة . ولما كان موقف العلماء يتعارض مع موقف العامة فإنهم لم يجرعوا على مبايعة مهنا علناً وطبقاً لما يذكره السامعي أنهم قاموا بخدعة كبيرة حين جاءوا بالصبي سيف وأوقفوه أمام جمهور المسلمين ونادوا أمامكم سيف وهو إعلان يمكن تفسيره أمامكم أو إمامكم بالفتح أو الكسر وبهذه الطريقة أمكن تفادي موقف المعارضة من العامة حتى هدأت العاصفة وشعر العلماء أن لديهم القوة التي تمكنهم من إعلان موقفهم صراحة فعمدوا إلى ادخال مهنا إلى قلعة الرستاق ونادوا به إماماً واستلم زمام الأمور في عام ١٧١٩ وعلى الرغم من أنه بذل جهوداً صادقة لما فيه خير البلاد إلا أن ذلك لم يمنع من قيام المعارضة ضد حكمه . ومع ذلك فقد أثر عنه أنه كان إدارياً من الطراز الأول بدأً باصلاح ميناء مسقط وعمل على إنعاش الأوضاع الاقتصادية وكان سبيله إلى ذلك تخفيض الضرائب التي كانت تفرض على البضائع^(١) . على أنه لم يكد يمضي عام واحد على توليه الحكم حتى تمكن أحد المناوئين له وهو يعرب بن بلعرب بفضل تأييد العامة في إجبار مهنا بن سلطان على التنازل عن الإمامة وقتله في عام ١٧٢٠ . وعلى أثر ذلك انتقل يعرب إلى مدينة نزوى مستصحباً معه الإمام الصبي سيف بن سلطان وأصبح هو الشخصية المسيطرة على عمان مع ملاحظة أنه لم يطالب بالإمامة لنفسه لأنها كانت من حق سيف الذي أجمع العامة على اختياره إماماً وإنما اكتفى بالوصاية عليه بحضور مجمع من الرؤساء . على أنه كان

من الطبيعي أن يعمل على الاستحواذ على السلطة متجاهلاً أمر الوصاية على الصبي مما كان دافعاً لنخلعه من قبل بلعرب بن ناصر الذي عقد الإمامة لسيف للمرة الثانية في عام ١٧٢٣ وتولى أمر الوصاية عليه بنفسه ولكن الوصي المخلوع يعرب بن بلعرب عقد اتفاقاً مع محمد بن ناصر الغافري الذي عاد إلى عمان بعد أن ترك ولاية البحرين ، وكانت البحرين قد خضعت لليعاربة على عهد سلطان بن سيف حيث تولى زعامة الكتلة الغافرية في عمان وكان ذلك الاتفاق يهدف إلى التخلص من بلعرب ابن ناصر ويذكر السالمى أنه بعد عودة محمد بن ناصر الغافري من البحرين وفد إلى الرستاق ليقدم تهانئه لبلعرب بن ناصر وسيف ابن سلطان على أنه لم يجد الترحيب الكافي من الوصي مما دفعه إلى الاتفاق مع يعرب بن بلعرب^(١) . ولكن السبب الحقيقي يكمن في اعتقادنا إلى أن الشيخ الغافري كان يرى أن بلعرب بن ناصر سيمارس السلطة الفعلية من وراء وصايته لسيف لصالح بني هناة ومما يؤكد ذلك أنه كتب ليعرب بن بلعرب يحثه على رفع راية المعارضة ووعده بتأييد قبائل بني ياس وبني قتب والنعيم التي تقطن واحة البوريمي^(٢) .

وعندما وصلت قواتهم بالفعل اتجه محمد بن ناصر الغافري إلى نزوى حيث قبض على زمام الأمور في عمان ولم تلبث الظروف أن ساعدته بموت حليفه يعرب بن بلعرب وبدأ يتصدى لتحالف الكتلة الهناوية التي كان يتزعمها الشيخ محمد بن خلف الهناوى الملقب بالقزم واشتد القتال بين الغافرية والهناوية حتى أحدثت اضطراباً كبيراً في الأوضاع الداخلية الأمر الذي دفع محمد بن ناصر الغافري إلى جمع علماء البلاد ورؤساء القبائل في مدينة نزوى ليعلمهم لهم تنازله عن الحكم ولكنهم ألحوا عليه أن يبقى قابضاً على زمام الأمور خوفاً من انتقام القبائل الهناوية وما يؤدي إليه ذلك من انهيار نفوذ

(١) السالمى : مصدر سبق ذكره ج ٢ ص ١١٧ .

(٢) Kelly, J. Britain and the Persian Gulf 1795-1870 P. 16 (٢)
London 1968.

الغافرية^(١). ورغبة من الرؤساء في تأكيد إخلاصهم وصدق نواياهم عقدوا البيعة له بالإمامة في عام ١٧٢٤ حيث استمر قائماً على شئونها حتى عام ١٧٢٧ حين حرص في ذلك العام على إظهار حسن نواياه فأعلن تنازله للإمام سيف وذلك بعد أن بلغ السن التي تؤهله لتولي شئون الإمامة وبهذه الطريقة نودي بسيف إماماً للمرة الثالثة وكانت بيعته في ظل تأييد الغافريين له ، واستمرت الحروب الأهلية قائمة في عمان حتى راح ضحيتها الزعيان الغافري والهاواي معاً وذلك خلال المعارك العنيفة التي دارت في صحار في عام ١٧٢٨ والتي لم يوقفها موت الزعيمين وإنما استمرت المعارك قائمة بين المعسكرين المتخاصمين^(٢). على أنه عقب مقتل زعيم الهاوية انفض الغافريون عن تأييد الإمام سيف وأعلنوا بلعرب بن حمير إماماً على البلاد على حين استبدل الإمام سيف التأييد لإمامته بالكتلة الهاوية التي بايعته بالإمامة وهكذا أصبح الإمام سيف إماماً للمرة الرابعة في تاريخ البعارة في الوقت الذي أصبح فيه أيضاً إمامان يتنازعان حكم البلاد وهما الإمام بلعرب بن حمير الذي كان يستند على تأييد الكتلة الغافرية ويحذ نفوذه في الظاهرة والشرقية ونزوى والمقاطعات الوسطى من عمان ؛ والإمام سيف الذي كان يستند على تأييد الكتلة الهاوية ويحذ نفوذه في المناطق التي يسيطر عليها الهاويون في الرستاق والباطنة وجبرين ، ومع ذلك فإن التأييد الهاوي لم يستمر طويلاً للإمام سيف إذ سرعان ما فقد ذلك التأييد بعد أن أثبت عدم قدرته على الوقوف ضد الغافرية وعدم قدرته على إدارة شئون الحكم وفضلاً عن ذلك فقد عرض نفسه لعداء الفئات الإباضية وذلك بانغمسه في الفسق والفجور والتدخين مما أدى إلى خروج الكثيرين عليه بعد أن وجدوا في إمامته خروجاً صريحاً على التقاليد الإباضية الصحيحة^(٣) ، ولعل ذلك كان دافعاً له إلى تأييد مركزه بالهجوء إلى تكوين جيش من العناصر المرتزقة ولعل استعانة الإمام سيف

Badger, G. op. cit. P. XXXII. (١)

Kelly, J., op. cit P. 17. (٢)

(٣) السالمى : مصدر سبق ذكره ج ٢ ص ١١٧ وبعدها .

بالطوائف المرتزقة وخاصة من البلوش^(١) كانت هي المرة الأولى التي سجلها التاريخ العماني لجلب تلك العناصر التي ظلت تشكل القوة الرئيسية المقاتلة في عمان حتى عهد قريب . وبصدد ذلك تؤكد بعض المصادر أن الامام سيف قرر في عام ١٧٣٥ أن يطلب العون من شيخ قبائل البلوش القاطنة في منطقة مكران ووافق شيخ البلوش وقاد بنفسه جيشاً نزل به مسقط وتقدم بمعاونة قوات الامام إلى توام في البريمي في الوقت الذي شن فيه بلعرب هجوماً مضاداً أدى إلى مقتل شيخ البلوش وهلاك عدد كبير من أفراد جيشه مما أرغم سيف على التراجع إلى مسقط وإزاء تلك الهزيمة قرر سيف طلب النجدة من فارس حيث كتب إلى نادر شاه الافشاري ١٧٢٧ - ١٧٤٧ طالباً العون منه وكان نادر شاه قد وصل إلى السلطة في ذلك الوقت كما كان قد فرغ من إلحاق الهزيمة بالجيش والأسطول العثماني في البصرة وقام باحتلال البحرين التي فتحت أمامه طموحاً واسعاً للسيطرة على الخليج^(٢) . ومن ثم أسرع بانتهاز تلك الفرصة حيث وجد في الدعوة الموجهة إليه من إمام عمان ستاراً يستطيع من ورائه السيطرة على مسقط بل والساحل العماني بأسره^(٣) . وتلبية لتلك الدعوة بادر نادر شاه بإرسال حملة بحرية كبيرة إلى مسقط بقيادة لطيف خان رافعة العلم الفارسي الأبيض ذو السيف الأحمر وكان ذلك في مارس ١٧٢٧ وكانت تتألف من خمسة آلاف جندي وما يناهز ألفاً وخمسمائة فارس وبعد أن استطاعت إخضاع جلفار (رأس الخيمة) وخورفكان^(٤) تقدمت بعد ذلك للسيطرة على البلاد مستغلة في ذلك فرصة نكبة البعارة وما أصابهم من ثورات وحروب أهلية طاحنة^(٥) . إذما كادت القوات الفارسية بالتعاون مع قوات سيف

(١) دونالد هول : عمان ونهضتها الحديثة ص ٤١/٤٠ .

(٢) فالح سنظل : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ١٦٤ .

(٣) Lockhart, L., Nadir Shah — A critical Study based only upon Contemporary sources P. 182 London 1938.

(٤) Factory Records, CF. Gombroon Diary July 21. 1737.

Badger, G., op. cit. P. 142. (٥)

تتخلص من مقاومة بلعرب بن حمير حتى أعلن القائد الفارسي لطيف خان نفسه حاكماً عسكرياً مطلقاً في عمان ولم يترك شيئاً من السلطة لسيف بن سلطان الذي كان مشغولاً بمقاتلة بقايا الجيوش الموالية لبلعرب بن حمير وبعد أن وصلت الأمور إلى هذه الحال اجتمع حول بلعرب في قاعدته بهلي جمع كبير من العمانيين المعارضين للتدخل الفارسي في شئون عمان وكان من هؤلاء كثير من رجال الدين الذين كتبوا إلى سيف بن سلطان ينددون باعتماده على الفرس في تثبيت سلطانه^(١) وخشى سيف من هذه المعارضة فكتب إلى نادر شاه يطلب العون مجدداً وبادر نادر شاه بإرسال قوة أخرى بقيادة نقي خان الذي تمكن من دحر الإمام بلعرب بن حمير وتمكن من السيطرة على بهلي ونزوى على أنه لم يلبث أن دب الخلاف بين الإمام سيف ونقي خان وأصبح واضحاً أن السياسة التي اتبعها سيف لتوطيد مركزه الداخلي عن طريق المساعدات الأجنبية لم تكن سياسة ناجحة إذ أدى تصرفه هذا إلى استياء العمانيين وأتى بعكس ما كان يأمله في السيطرة على البلاد وانعكس الخلاف بين الإمام سيف ونقي خان على سوء وضع الفرس وظهر ذلك حين فشل نقي خان في السيطرة على صحار وحلت كارثة بالحميات الفارسية في بهلي وأزكى حين أبادها العمانيون عن آخرها في الوقت الذي ثار فيه الملاحون العرب في الأسطول الفارسي مما اضطر نقي خان إلى التراجع بمن معه إلى جلفار (رأس الخيمة) ومن هناك وصلته نبذات فارسية تمكن بواسطتها من احتلال الظاهرة . وفيما يبدو أن سيفاً قد أصبح نادماً على دعوة الفرس إذ أدرك مدى أطماعهم ولعل ذلك ما دفعه إلى الذهاب إلى وادي بني غافر ليجتمع مع بلعرب بن حمير وفي ذلك الاجتماع وافق الغافريون على أن يتنازل بلعرب عن الإمامة ويتحد العمانيون من هنا وبين وغافريين تحت زعامة سيف بن سلطان من أجل مواجهة الموقف مع الفرس الذي وصل إلى أقصى درجة من السوء^(٢) .

(١) فالح حنظل : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ١٦٨ .

(٢) دونالد هولي : مرجع سبق ذكره ص ٤٢ .

وحاول سيف أن يقوم بدور بطولى فى محاولة التكفير عن الأخطاء التى ارتكبها ويظهر بمظهر المحرر والخالص لبلاده من احتلال أجنبي كان قد أوقعها فيه بسوء تصرفه حيث بادر بطرد القوات الفارسية وتبعتها فى مياه الخليج بل أعلن عن عزمه على نقل المعركة إلى داخل الأراضى الفارسية ذاتها وناشد جميع القبائل العربية فى الخليج تزويده بالمقاتلين وتمكن بالفعل من الوصول إلى البحرين وبندر عباس^(١). ولعل هذا النجاح الذى أحرزه الإمام سيف كان يواكب تأزم الأمور فى فارس حين دبت الثورات فى مقاطعاتها مما دفع نادر شاه إلى سرعة سحب قواته من الخليج ليعالج مشاكله الداخلية^(٢). وتبع انسحاب القوات الفارسية من عمان أن أصبح سيف هو سيد الموقف ولسكنه لم يلبث أن عاد إلى حياته الخاصة التى أغضبت الإباذيين فثاروا عليه وأعلنوا خلعهم عاقدين البيعة لسلطان بن مرشد الذى قام بالسيطرة على مسقط ومهاجمة سيف فى قاعدته فى بركا مما اضطره للفرار إلى جلفار (رأس الخيمة) حيث نزل هناك فى معسكر الفرس وفيما يبدو أن سيفاً لم يستفد من الكوارث السابقة التى جرها على بلاده حيث عاود اتصاله بتقى خان ومن داخل المعسكر الفارسى شكل سيف وفداً من مرافقيه حملهم رسالة إلى نادر شاه يطلب فيها العون لتثبيتته فى الحكم واعداء إياه بأن يعترف بالسيادة الفارسية على جميع المقاطعات العمانية وتمكن الوفد العماني من مقابلة نادر شاه فى مدينة أصفهان وأصدر الشاه أوامره إلى تقى خان بأعداد حملة جديدة لغزو عمان وغادرت السفن الفارسية ميناء بوشهر لتصل إلى جلفار وكان ذلك فى عام ١٧٤٢^(٣). وحين نجح الفرس فى فرض الحصار على صحار تقدم الإمام الجديد سلطان بن مرشد لمواجهة الحصار الفارسى الذى استمر قرابة سبعة أشهر كلف الفرس والعنانيين الكثير من الجهود والأرواح^(٤)

(١) محمود على الدواه : مرجع سبق ذكره ص ٢١ .

(٢) Lockhart, op. cit. P. 184.

(٣) فالج حفنل : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ١٧٦ .

(٤) السالى : مصدر سبق ذكره ج ٢ ص ١٤٧ .

وأدى طول الحصار إلى أن يستعين الإمام سلطان بن مرشد بوالى صحار أحمد بن سعيد لكي يستمر في أعمال المقاومة التي أبدى فيها نجاحا كبيرا (١)

وهكذا أعد المسرح في عمان لظهور رجل قوى استطاع أن يلعب دورا كبيرا في تخليص بلاده من الاحتلال الفارسي وهو الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدى الأزدي الذي يعد المؤسس الأول لدولة البوسعيد وقد تم له ذلك حين اتبعت له الفرصة للسيطرة على الموقف حيث لقي تأييدا كبيرا من زعماء القبائل الشمالية ولا شك أن ذلك التأييد الذى حازه والى صحار كان مدعاة لشكوك الامام سيف الذى ساورته الظنون في أنه يدبر لخلعه عن الإمامة ولذلك أصدر أوامره وكان لا يزال مسيطرا على مسقط بالقبض على أحمد بن سعيد بعد أن دعاه للمثول بين يديه في مسقط ولكن الأخير أدرك ما يدبره له سيف فأثر التراجع وهو في طريقه إلى مسقط (٢). ولم يلبث سيف أن أفصح عن عداوته لأحمد بن سعيد فسير أسطوله إلى صحار وانتهت المناورة التي قام بها سيف على صحار باعلان أحمد بن سعيد ولاءه للإمام سيف ووافق على أن يبعث أحد أبنائه إلى مسقط ليكون رهينة لديه غير أن سيف لم يلبث بعد ذلك أن أعلن انسحابه من مسرح النزاع بعد أن تنبه إلى ماجره على بلاده من ويلات وتذكر الروايات العمانية أنه أثر التراجع عن تحالفه مع الفرس الذين لم يسلموا له قلاع مسقط ومطرح وانزوى في الرستاق وظل بها حتى وافاه الأجل في الرقت الذى استمر الفرس في حصارهم لصحار ويذكر السالمى أن الصراع العماني ضد الفرس كان ميثوسا منه « وخاصة أن جيش العرب كان عند جيش العجم كالشعرة البيضاء في الثور »

(١) يقع ميناء صحار على شاطئ الباطنة على مسافة مائة ميل إلى الشمال الغربى من مسقط .

(٢) يحدثنا ابن رزيق بصدد ذلك أن مؤامرة سيف كادت أن تنجح لولا ما لقيه والى صحار من تحذيرات جده (جد المؤلف) وقد عمل أحمد بن سعيد بعد وصوله إلى الإمامة على رد ذلك الجمل إليه فعينه في أحد المناصب الهامة وترك وصية لخلفائه من بعده يوصيه به وبأبنائه هيرأ .

الأسود وأصيب الإمام سلطان بن مرشد بجراحات كثيرة فلما أُنقِذته الجراح دخل الحصن عند أحمد بن سعيد وإلى صحار ومات فيه^(١). وتبيأت الظروف عقب وفاة الإمامين سيف وسلطان لوالى صحار أحمد بن سعيد للوصول إلى الإمامة إذ أنه أصبح وهو لا يزال والياً على صحار الشخصية المتنفذة على البلاد ومع أنه قام بدور كبير في عمليات المقاومة ضد الفرس إلا أن نفاذ الذخيرة اضطرته إلى التسليم ومع أن ذلك التسليم يبدو من الأمور المنطقية إلا أن السالمى يرى أن الفرس هم الذين طلبوا الصلح وتأمين رحيلهم من صحار بعد أن أعياهم أمرها واستحال عليهم احتلالها وكان من شروط ذلك الصلح أن يرفع الفرس الحصار عن صحار على أن تبقى القوات الفارسية في مسقط ويتعهد أحمد بن سعيد بدفع جزية سنوية لهم ويكون كل من ميناء صحار ومدينة بركا تحت سلطته .

ومما يستلفت النظر أن بعض المصادر الفارسية^(٢) تنفى حدوث ذلك الصلح أو تلك الهدنة وتؤكد أن أحمد بن سعيد أبدى تعاوناً مع الفرس الأمر الذى أكسبه ثقة تقي خان فأبقاه حاكماً على صحار في حين انسحب بمعظم قواته في عام ١٧٤٣ لكى يشعل ثورة في إقليم فارسستان ضد نادر شاه الذى كان متورطاً في ذلك الوقت في صراع مع الدولة العثمانية وبرحيل تقي خان انحسر الوجود الفارسى في مدينتى مسقط ومطرح حيث استقرت بعض الحاميات الفارسية في المواقع الدفاعيين الكبيرين وهما قلعتا الميراني والحلالى ولذلك ما كاد تقي خان يغادر البلاد حتى بدأ أحمد بن سعيد يعد خطته لإخراج من تبقى من القوات الفارسية : أما إذا صح ما جاء في المصادر الفارسية من حدوث تعاون بين أحمد بن سعيد وتقي خان ففى اعتقادنا أن ذلك لم يكن إلا تظاهراً منه خاصة وأنه كان يتميز بقدر كبير من الحنكة والدهاء ومن ناحية أخرى فإن مهادنة أحمد بن سعيد للفرس قد أتاحت له فسحة من الوقت للعمل على حل كثير من المشكلات الداخلية

(١) السالمى : مصدر سبق ذكره ج ٢ ص ٤٧ .

(٢) صديق نشأت : تاريخ الخليج السياسى ص ٢١١ .

رتويد مركزه في المقاطعات الداخلية وضمان تأييد العنانيين له كما عمل على أن يعيد للبلاد وحدتها وتماسكها بما عرف عنه من مقدرة وكفاءة ترقى به إلى مصاف مؤسسى الدول ولم يلبث بعد ذلك أن تعمد لإهمال دفع الجزية المتفق عليها بحجة افتقاره إلى وسيلة لإرسالها ومن ثم بقي جنود الحامية الفارسية في مسقط دون رواتب وامعانا في إطباق الحصار على الحاميات الفارسية قرر إعفاء التجارة القادمة الى بركا من الضرائب الجمركية مما أغرى السفن التجارية على التوقف في ميناء بركا بدلا من مسقط مما زاد في وضع الحامية الفارسية سوءا لنفاد ذخيرتها وانقطاع مؤننها ورواتبها وتذكر بعض الروايات التاريخية أن قائد حامية مسقط قام بالاتصال بالشاه وأخبره بحرج الموقف في عمان وأنه لا فائدة ترجى من وجود القوات الفارسية فيها واستعان من أجل ذلك بأحد أقرباء سيف حليف الفرس السابق ويدعى ماجد بن سلطان وبعث به إلى تبريز حيث تقابل مع الشاه ليجدد عهد سيف بالولاء ووافق الشاه على أن يعهد له بالحكم تحت السيادة الفارسية^(١) وطبقا لما يذكره السالمى أن الظروف شاءت أن تقذف الرياح بالسفينة التي كان عليها ماجد بن سلطان وهو في طريق عودته إلى صحار فأسرع أحمد بن سعيد بالقبض عليه وانتزع منه فرمان الشاه الذي كان يقضى بتسليمه معاقل مسقط ومطرح حيث أرسل أحمد بن سعيد أحد أعوانه إلى قائد الحامية الفارسية في مسقط الذي أسلم إليه حصونها على اعتبار أنه موفد من قبل ماجد بن سلطان ويحدد السالمى تلك الخديعة التي استولى بها أحمد بن سعيد على حصون مسقط وقلاعها باعتبارها بداية لعهد البوسعيد ونهاية لحكم اليعاربة^(٢).

على أن أحمد بن سعيد لم يكتف بالإستيلاء على قلاع مسقط وإنما

(١) فالج حنظل : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٢) السالمى : مصدر سبق ذكره ج ٢ ص ١٤٨ - ١٥١ ويذكر لوكهارت أنه لم يعد

لفرس بعد انسحابهم سوى جلفار .

قرر أن يبذل الحامية الفارسية عن بكرة أبيها والتي كان عليها وهي في طريق انسحابها أن تمر بميناء بركا لتركب البحر من هناك وعند وصولها دعا ضباط الحامية إلى وليمة أقامها لهم وفي خلالها دقت الطبول في القلعة ونادى المنادى من كانت لهم ظلامه عند الفرس فليقتص منهم الآن وكان هذا النداء لإيداناً بمجزرة جماعية لم ينج فيها سوى عدد قليل من أفراد الحامية الفارسية واستطاع أحمد بن سعيد أن ينتقم بذلك لآلاف العمانيين الذين راحوا ضحية الاحتلال الفارسي لعمان^(١). وليس من شك في أن الدور الكبير الذي قام به أحمد بن سعيد هو الذي مكّنه من أخذ البيعة بالإمامة إذ يعتبر السالمى العام المجرى الموافق لعام ١٧٤٥ هو العام الذي وصل فيه أحمد بن سعيد إلى الإمامة في عمان على حين يعتبر ابن رزيق بداية صراعه مع الفرس في عام ١٧٤١ هو العام الذي وصل فيه إلى الإمامة وواضح هنا أنه لا خلاف جوهرى بين الروایتين إذ كان أحمد بن سعيد هو الشخصية المسيطرة على عمان منذ أن بدأ صراعه مع الفرس وهو ما يتفق مع رواية ابن رزيق وإن كان السالمى يحدد تخليص البلاد العمانية من الفرس ونجاح أحمد بن سعيد في التخلص من بلعرب بن حمير الذي كان مؤازراً من قبل الغافرية في عام ١٧٤٥ هو العام الذي بوع فيه الإمام أحمد ابن سعيد^(٢). والأمر الذي لاشك فيه أن نجاح الإمام أحمد بن سعيد في القضاء على بلعرب بن حمير مكّنه من السيطرة على الكتلة الغافرية وبسط نفوذه على مقاطعاتهم مما مكّنه من أن يعيد لعمان وحدتها وهياً لها أن تلعب دوراً هاماً في تاريخ الخليج العربى خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى^(٣).

(١) دونالد هول : مرجع سبق ذكره ص ٤٣/٤٤ .

(٢) إلى جانب الخلاف حول تاريخ بيعة الإمام أحمد بن سعيد بالإمامة فإن هناك أيضاً خلافاً حول تاريخ وفاته في عام ١٧٧٧ أو ١٧٨٣ وإن كنا نرجح العام الأخير استناداً على الناريخ الذى حققه ميلز Miles والمسجل على مقبرة الإمام أحمد بن سعيد بمدينة الرستاق .

(٣) محمود على الداود : مرجع سبق ذكره ص ٢١ - ٢٢ .

وإذا كان الإمام أحمد بن سعيد قد برز في تاريخ عمان الحديث كمؤسس لأسرة البوسعيد منذ صراعه مع الفرس إلا أن المعلومات الخاصة بحياته قبل سطوع نجمه معلومات قليلة وإن كان من المعروف أنه لا ينتمى إلى أسرة عريقة وإنما كان ينحدر من عامة الشعب ومن أسرة كان يشغل معظم أفرادها بالتجارة التي اشتغل بها أيضاً^(١) بيد أنه تميز بجرأة نادرة وشجاعة فائقة لفتت إليه الأنظار مما مكنه من الوصول إلى ولاية صحار كوال من قبل اليعاربة ولا شك أن الدور الذي قام به في تثبيت دعائم الحكم لأسرته قد استغرق منه الكثير من الجهد وإن كان قد أعانه على ذلك طيلة فترة حكمه التي استمرت بين عامي ١٧٤١ و ١٧٨٣ ولعل أبرز المشاكل التي واجهته في مستهل عهده ثورات اليعاربة ضده بسبب فقدانهم الحكم وقد ألحنا بصدد ذلك إلى بلعرب بن حمير الذي التفت حوله قبائل النعيم وبني قتب كذلك واجه الإمام أحمد ابن سعيد حركة معارضة ضخمة تزعمها الغافريون في منطقة الظاهرة بقيادة ناصر بن محمد الغافري وقد نجح الإمام أحمد سعيد باستخدام أسلوب القوة حيناً والخديعة واللين حيناً آخر في التخلص من هذه الحركات كما عمد إلى أسلوب المصاهرة بهدف التقارب مع القبائل المناوئة له ومن ذلك زواجه من أرملة سيف بن سلطان^(٢) ومصاهرته لشيخ بني الهلال الذي كان قد نجح في توثيق علاقته بهم منذ أن كان والياً على صحار حتى أن ابن رزيق يذكر بصدد ذلك بأنه عندما بويع بالإمامة قصده شيوخ الجبور فرفع منزلتهم وأحسن إليهم^(٣). كما غنى إلى جانب ذلك بتوثيق علاقات الجوار بينه وبين القبائل العربية القاطنة

(١) السالمى : مصدر سبق ذكره ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) عبد الأمير محمد أمين : القوى البحرية في الخليج العربى فى القرن ١٨ ص ١٦ / ٢١ .

بغداد ١٩٦٦ .

(٣) ابن رزيق : الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيديين ص ٣٣٠ .

في جنوب فارس وامتد بعلاقاته إلى القبائل القاطنة في عرستان فدخل في حلف مع قبائل بني كعب عند شط العرب ونهر القارون وفي حلف آخر مع قبائل بني معن القاطنة بالقرب من بندر عباس مما أدى إلى فشل محاولات كريم خان الزندي في السيطرة على تلك المناطق : كذلك قدم المساعدة لآشاه علم امبراطور المغول في الهند حيث قام أسطوله بمساعدته ضد القراصنة الذين كانوا يعترضون تجارة الأرز بين مانجالور في سواحل الهند الغربية ومسقط وتوثقت الصلات حين أرسل حاكم المغول مبعوث إلى مسقط في عام ١٧٦٦ لمقابلة معاهدة مع الإمام أحمد بن سعيد كانت تنص على استمرار علاقات الصداقة بين الطرفين وإنشاء دار في مسقط لمبعوث الحاكم المغولي أصبح يعرف ببيت نواب^(١). وفي تعامله مع القوى الأوروبية كان الإمام أحمد بن سعيد يتبادل الهدايا ويوقع الاتفاقيات مع شركة الهند الشرقية البريطانية كذلك احتفظ بعلاقات طيبة مع فرنسا حيث كانت المصالح التجارية تربطه بوكيل الشركة الفرنسية في بغداد وحاكم جزيرة فرنسا . وتتفق الكثير من المصادر على وصف عهد الإمام أحمد بالازدهار التجاري رغم الاضطرابات والثورات التي واجهها حيث تدرت موارده من الرسوم الجمركية وحدها بما يزيد عن مليون روبية هندية^(٢). وعلى عهد الإمام أحمد بن سعيد كانت رحلة كارستن نيبور Neibuhr الذي زار مسقط في عام ١٧٦٥ وأكد على حرية الأديان والتسامح الديني وأن الأجانب يتاجرون بحرية واطمئنان .

وعلى الرغم مما كان يتميز به الإمام أحمد بن سعيد من الشجاعة والصرامة إلا أنه ارتكب خطأ جسيماً نتيجة سياسة التجزئة واللامركزية التي اتبعها في حكمه للبلاد حيث كان يميل إلى تعيين أبنائه حكماً على المدن والمقاطعات الهامة في عمان مسبغاً عليهم ألقاب السادة والأمراء ولا شك أن هذا النظام اللامركزي

(١) دونالد هول : مرجع سبق ذكره ص ٤٤ .

(٢) الداود : مرجع سبق ذكره ص ٢٢/٢٣ .

كان عاملاً كبيراً في تجزئة البلاد وهو أسلوب في الحكم توارثه عن أسره
اليعاربة^(١). وقد شهد الإمام أحمد بنفسه في أخريات عمره الآثار السيئة التي
نحمت عن هذا الأسلوب حيث كان يضطر في كثير من الأحيان للتدخل بهدف
إحلال السلام بين أبنائه أحياناً أو الدفاع عن نفسه ضد تكتل كانوا يقومون به
صده أحياناً أخرى وخاصة حين تحالف بعض أبنائه مع بني جبر ، وكان
الآخرين رغم مساعدتهم للإمام أحمد في بداية تأسيس سلطته على نحو
ما أشرنا إلا أنهم كانوا سبباً في الفوضى التي حدثت نتيجة الصراع بين أحمد
ابن سعيد وأبنائه الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أنخوا لا لهم بحكم معايرتهم
وعندما قام الإمام أحمد بتشديد الحصار على المتعربين من أبنائه في حصون
مسقط استنجد جبر بن محمد الجبري بصقر بن رحمة شيخ القواسم ، وتمكن
الشيخان من إعداد قوة زحفاً بها على الرستاق في عام ١٧٨١ مما اضطر الإمام
أحمد أن يرفع الحصار عن حصون مسقط والتصالح مع أبنائه^(٢). وفي عام
١٧٨٣ مات الإمام أحمد ودفن بعاصمته الرستاق وبويع بالإمامة من بعده إلى
ابنه سعيد بدلاً من هلال الذي كان مرشحاً للإمامة باعتباره الابن الأكبر
إلا أنه كان يعاني مرضاً في عينيه دعاه إلى الذهاب إلى بومباي للعلاج حيث
مات هناك ، ومما يستلفت النظر أنه على الرغم من أن النظام الإباضي ينص
على البيعة بالإمامة إلا أن أسرة البوسعيد شأمتها في ذلك شأن أسرة اليعاربة
توارثت الإمامة التي كانت تتم بالبيعة مراعاة للتقاليد المدنية كما توارثت أسرة
البوسعيد عن أسرة اليعاربة أيضاً أسلوبها في الحكم حيث كان يعهد حفاظاً
على وحدة العائلة للكثير من أفرادها بالولاية على المقاطعات الخاضعة للدولة
ولاشك أن هذا الأسلوب من الحكم دفع بعض الباحثين إلى التأكيد بأن
اختيار الإمام المنتخب من الأسرة كان يتوقف على نقاط ضعفه وليس على

(١) Kelly J., Britain and the Persian Gulf pp. 19-20.

(٢) عبد اللطيف الحميدان : نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية العدد ١٧ ، مجلة كليات

الآداب ، جامعة البصرة ١٩٨١ .

نقاط قوته حتى يتاح لأعضاء الأسرة نصيب في الحكم^(١)؛ الذي أخذ يتطور إلى حدوث ثنائية في الحكم ونعني بذلك حكماً دينياً في الداخل وحكماً زمنياً في الساحل ووضح ذلك على عهد الإمام سعيد بن الإمام حين مهد اضطراب الأمور لإبنه حمد بن سعيد الاستحواذ على سلطة والده بيد أنه لم يفكر في أخذ البيعة لنفسه بالإمامة إذ أنه لو فعل ذلك لتعين عليه أن يخلع والده ومن ثم اكتفى بلقب السيد وهو لقب تعظيمي فيما يبدو بدأ استخدامه منذ تولى الإمام أحمد بن سعيد كأسلوب تمييز الأسرة الحاكمة عن رعاياها^(٢). وهكذا يعد عهد السيد حمد بن سعيد بداية للانفصام بين السلطة الزمنية والروحية والذي تطور فيما بعد إلى حدوث الانفصال بين الإمامة والسلطنة فعلى حين انزل الإمام سعيد بن الإمام في عاصمته الدينية في الرستاق استقر لإبنه حمد بن سعيد في مسقط حيث بدأت القوى الأوربية تخطب وده وتعامل معه كما لو كان هو صاحب السلطة الشرعية في البلاد وكانت القوى الأوربية يعينها بطبيعة الحال التعامل مع حكام الساحل وليس مع الإمام الذي عاش فترة طويلة على هامش الحياة^(٣).

وعقب وفاة السيد حمد بن سعيد في عام ١٧٩٣ آل الحكم في مقاطعات الساحل إلى السيد سلطان بن أحمد ١٧٩٣ - ١٨٠٤ وتميز عهده بتدعيم الوضع السياسي في مسقط ورغم ذلك فإن وفاته في عام ١٨٠٤ عرضت مسقط لهزات داخلية حين برز التنافس بين بدر بن سيف الذي تولى الوصاية على سعيد بن سلطان الذي خلف والده في الحكم وكان لا يزال حدثاً صغيراً وبين الشيخ محمد بن ناصر الجبري الذي كان يعتبر نفسه نتيجة مصاهرة سلطان بن أحمد لبني جبر أنه الوصي الشرعي على أبنائه من بعده وحين نجح السيد سعيد بن سلطان في عام ١٨٠٦ في الوصول إلى الحكم في مسقط

(١) دوقالد هولي : مرجع سبق ذكره، ص ٣٠ .

(٢) Kelly J., op. cit. P. 20.

(٣) دوقالد هولي : مرجع سبق ذكره ص ٤٧ .

بدأ عهده بضرب المتنازعين على الوصاية عليه في آن واحد إذ أن اختيار سعيد بن سلطان لقلعة الشيخ الجبري وقتله بدرين سيف فيها ثم الصاق تهمة القتل لشيخها أتاح له فرصة القائه في السجن وانزاع سمائل منه في عام ١٨٠٧ ولا شك أن هذه الضربة التي وجهها السيد سعيد بن سلطان لبني جبر في بداية عهده بالسلطة جعلتهم يتحولون إلى طلب العون من السعوديين وإن كانوا قد عادوا إلى موالاته السيد سعيد على أثر تحطيم الدولة السعودية في عام ١٨١٨ ، كما أن السيد سعيد من جانبه حاول الاستعانة بنفوذهم من أجل السيطرة على البحرين بحكم علاقة الجبور القديمة بها وعلى الرغم من أن بني جبر كان مقدرا لهم في ظل روابطهم بالسيد سعيد أن يكتسبوا نفوذاً كبيراً في عمان إلا أنه حال دون ذلك اعتناقهم للدعوة السلفية (الوهابية) وأدى ذلك إلى تقليل شعبيتهم بين إباحية عمان حتى أن السالمى يذكر أنه بعد أن ضعفت سلطة السيد سعيد بن سلطان « كان هناك خوف شديد في أن يتولى السلطة في عمان الجائر الظالم محمد بن ناصر الجبري فلا يؤمن منه إذا تمكن من عمان أن يدعو الناس إلى مذهب الجور والعدوان » . والأمر الذي لا شك فيه أن انهيار شعبية الجبور في عمان كانت هي السبب في انهيار نفوذهم السياسي وأصبح شأنهم في عمان شأن غيرهم من القبائل التي ليس لها تأثير في الحياة السياسية العامة^(١) .

استمرار تدهور العلاقات العمانية الفارسية .

استطاعت عمان بعد تخلصها من الاحتلال الفارسي أن تصل إلى السيادة على كثير من السواحل والجزر والموانئ الواقعة على الساحل الشرقي للخليج ولعل النجاح الذي أحرزته عمان كما أحرزته كثير من القوى العربية المجاورة لها كان يرتبط باغتيال نادر شاه في عام ١٧٤٧ إذ استطاع الامام أحمد ابن سعيد بفضل توثيق صلاته مع كثير من القبائل العربية التي تسكن على

(١) عبد اللطيف الحميدان : مرجع سبق ذكره العدد ١٧ مجلة كلية الآداب جامعة البصرة

الساحل الشرقي من الخليج وخاصة قبائل بني كعب وبني معين أن يحتفظ
بالسيادة العربية على ذلك الساحل . واضعاف محاولات كريم خان الزندي
(١٧٥٦ - ١٧٧٧) في استعادة السيادة الفارسية^(١) . وكان ذلك مما أجبره
لأن نزاع مباشر مع كريم خان الزندي بعد أن توطدت سلطته في شیراز
وتمكن أن يعيد الاستقرار لفارس بعد فترة من الفوضى دامت ما يقرب
من عشر سنوات بعد اغتيال نادر شاه . وظهر النزاع بين كريم خان وأحمد
بن سعيد الذي تزعم تحالف القبائل العربية في الخليج في بداية الأمر بسبب
حوادث محلية ثم تطور الأمر إلى مطالبة كريم خان الزندي باستعادة السيادة
الفارسية على عمان استنادا إلى خضوعها لفارس على عهد نادر شاه خلال
الفترة من ١٧٣٨ إلى ١٧٤٤ ولذلك طلب من الإمام أحمد بن سعيد دفع
الجزية السنوية المتأخرة على عمان وكان من الطبيعي أن يرفض الإمام أحمد
دفع أية جزية لفارس وجاء في الرد الذي بعث به إلى كريم خان في
عام ١٧٦٩ بأن الجزية التي كانت تدفعها عمان إلى فارس على عهد نادر شاه
لم يكن الدافع إليها أحقية فارس لها بقدر ما كانت سياسة اتبناها هوجينا
كان واليا على صغار لكي يتخلص من مناعب نادر شاه ولكن الأمر يختلف
هنا قدر الاختلاف بين رجلين فالأول - ويعني نادر شاه - كان فاتح
فارس كلها أما الثاني ويعني كريم خان - لا يعبء أن يكون وكيلا على إقليمين
أو ثلاثة من أقاليمها^(٢) . وكان من الطبيعي أن يترتب على ذلك التحدي أو تلك
الاهانة التي وجهها أحمد بن سعيد إلى كريم خان توتر العلاقات بينهما
وظهر ذلك واضحا حين أراد كريم خان أن يتعرض إلى عمان وأرسل قوات
كبيرة عبرت جزيرة لنجه ، وعندما علم أحمد بن سعيد بادر بحصار الفرس

(١) ج . ج . نورع : مصدر سبق ذكره ج ١ ص ١٧٨/١٧٩ .

(٢) Bombay Govt, Selection from the Records, vol. XXIV (٢)
CF. Historical Sketch of the Rise and progress of the
Govt. of Muscat. P. 170 Bombay 1856.

سها حتى طلبوا الأمان وانسحبوا إلى ديارهم^(١)، في الوقت الذي قام فيه الإمام أحمد بن سعيد في عام ١٧٧٠ بغارة على ميناء بوشهر مطالبا بترضية كافية تعويضا لاستيلاء الفرس على بعض السفن العمانية التي كانت راسية في بعض الموانئ الفارسية. كما تزعم الامام أحمد بن سعيد حلفا ضم اليه شيخ القواسم وشيخ هرمز وأصاب جزءاً من السواحل الشرقية ببعض الأضرار ولم يلبث كريم خان وقد شغلته المنازعات الداخلية في فارس أن فوض الشيخ نصر آل مدكور حاكم بوشهر في التعامل مع عمان إما في عقد الصلح أو مواصلة الحرب بيد أن الصراع العماني الفارسي ظهر واضحا في عام ١٧٧٥. حين اتجه كريم خان إلى السيطرة على البصرة خلال صراعه مع الدولة العثمانية وكان كريم خان قد مهد لحصار البصرة بضرب القوى العربية المتحالفة مع عمان وخاصة قبائل بني كعب حيث دمر مدينة الدورق عاصمة الإقليم الذي تشغله تلك القبائل في منطقة شط العرب. وعلى أثر نجاح كريم خان في فرض الحصار على البصرة في عام ١٧٧٦ استنجد سكانها بالإمام أحمد بن سعيد الذي بادر بإرسال حملة بقيادة بعض من أبنائه وحينما وصلت إلى هناك وجدت أن الفرس قد صنعوا سلسلة من الحديد لكي يقطعوا على العمانيين الدخول^(٢). واستطاعت السفن العمانية التي بلغت اثنتي عشر سفينة بقواتها التي تزيد على عشرة آلاف مقاتل أن تطهر منطقة شط العرب من التغلغل الفارسي كما تمكنت السفينة رحمانى أن تحطم السلسلة الحديدية التي وضعها الفرس لعرقلة الملاحة وبذلك استطاع الأسطول العثماني السيطرة على شط العرب وفتح الملاحة فيه في عام ١٧٧٩^(٣). وقد أشاد السلطان العثماني مصطفى الثالث بهذه المساعدة التي قدمها العمانيون للدولة العثمانية حتى أنه أصدر فرمانا يقضى بدفع مساعدة مالية سنوية إلى إمام عمان ومما يذكر أن هذه المساعدة استمرت نافذة حتى بداية عهد السيد سعيد بن سلطان^(٤). والجدير بالذكر

(١) سرحان بن سعيد. مصادر سبق ذكره ص ١٥٨

(٢) نفسه ص ١٥٩.

(٣) مصطفى عبد القادر النجار: التاريخ السياسي لشكل الحدود الشرقية لموطن العرب

في منطقة شط العرب، دراسة وثائقية ص ٥٧ - ٥٨ البصرة ١٩٧٤.

(٤) Bombay Govt. op. cit. The Rise and Progress of the Govt. of Muscat. P. 172.

أن كريم خان كان يتحين الظروف الملائمة للسيطرة على مسقط فعلى أثر حصاره للبصرة طالب بإعداد خطة للزحف إلى مسقط ولكن هذه الخطة لم تنفذ بسبب اضطرابه لفك الحصار في عام ١٧٧٩ بسبب الظروف التي أشرنا إليها بالإضافة إلى أن فارس نفسها أخذت تتراجع عن مكان الصدارة والقوة بين بلدان الخليج خاصة بعد اغتيال كريم خان الزندي في نفس ذلك العام حتى أصبحت من أكثر البلدان ضعفاً وأسوأها نظاماً نتيجة الصراعات التي قامت بين ورثة كريم خان للوصول إلى السلطة في فارس ومما يؤكد ذلك أنه في خصال ثمانية عشر عاماً من وفاة كريم خان تولى الحكم سبعة من أفراد أسرته الزندية فقدوا نفوذهم الخارجى والداخلى حيث خرجت أقاليم كثيرة من نفوذهم واستمر الوضع المفكك قائماً حتى قيام أسرة قاجار بمسؤوليات الحكم في فارس في عام ١٧٩٧^(١) .

والأمر الذى لاشك فيه أن فترة التدهور والانحلال التى عاشتها فارس خلال الفترة من ١٧٧٩ إلى ١٧٩٧ أفسحت المجال لعمان لتأكيد نفوذها على السواحل الشرقية للخليج العربى بل وإلى قيام حكم عربى عماني على أجزاء كبيرة من هذا الساحل بما في ذلك جزره وموانئه^(٢) . كما انفسح المجال أيضاً للقوى العربية الأخرى بما في ذلك القواسم وبني كعب للبروز إلى القوة إلى جانب نجاح أحد فروع العتوب وهم آل خليفة في السيطرة على الزبارة والثوب منها إلى حكم البحرين بعد تخليصها من السيادة الفارسية حيث تم تأسيس حكم عربى مستقر منذ عام ١٧٨٣ وسوف نتعرض إلى ذلك في حينه ولكننا نشير هنا إلى أن أبرز ماحققته عمان هو نجاحها في السيطرة على ميناء عباس بملحقاته جوادور وشهباز وكان ذلك على عهد السيد سلطان بن أحمد ١٧٩٣ - ١٨٠٤ التى كانت حروبه وفتوحاته في السواحل الجنوبية الشرقية للخليج على عهد فتح على شاه

(١) ج . ج : لوريير : مصدر سبق ذكره ج ١ ص ٢٢٢ وما بعدها .

(٢) Curzon, G. Persia and the Persian Question vol. II (٢)
P. 423 London 1890.

من أهم الأعمال التي قام بها فعلى أثر وصوله إلى الحكم في عام ١٧٩٣ قام بإرسال حملة إلى سواحل مكران نجحت في الاستيلاء على جوادور وعين فيها حاكماً من قبله كما نجح في السيطرة على شهباز وفي العام التالي تمكن سلطان بن أحمد من السيطرة على قشم وهنجام وقاد بنفسه حملة على بنى معن ، وهى قبائل عربية كانت تحكم هذه المناطق بفرمان من الشاه وتمكن من الاستيلاء على هاتين الجزيرتين وسيطر بذلك على مدخل الخليج وترتب على ذلك تحول الضرائب التي كانت لإيجارا لميناء بندر عباس وما جاوره بما في ذلك ميناء ميناب وجزر هرمز وقشم وهنجام من شيوخ بنى معن إلى حاكم مسقط ولم يكن هذا الإيجار السنوى يزيد على ستة آلاف تومان فارسي قبلت حكومة مسقط دفعها إلى فارس بمثابة إيجار سنوى لهذه المناطق التي أصبحت تحت إدارتها ولم يكن هذا الإيجار إلا بمثابة ترصية لفارس إذ كانت مسقط في حقيقة الأمر تتصرف في هذه المناطق تصرف صاحب الأمر^(١) .

ويمكننا أن نؤكد ذلك استناداً إلى الاتفاقية التي وقعها سلطان بن أحمد مع شركة الهند الشرقية البريطانية في عام ١٧٩٨ إذ نصت المادة السابعة من تلك الاتفاقية على أن يسمح سلطان مسقط للإنجليز بإنشاء قاعدة في بندر عباس وإبقاء حامية عسكرية بها ومن الثابت أن سلطان بن أحمد منح تلك الامتيازات للإنجليز دون أن يرجع في ذلك إلى الحكومة الفارسية مما يؤكد أن مسقط كانت تتصرف في هذه المناطق تصرف المالك المستقل . على أنه ينبغي أن نلاحظ أن التفوق العمانى لم يلبث أن تعرض للضعف حين بدأ الإنجليز يحرصون أثناء تغلبهم في الخليج العربى منذ السنوات الأولى من القرن التاسع عشر على موازنة القوى العربية بالقوى الفارسية تحقيقاً لمصالحهم الإستعمارية وسوف يتضح لنا ذلك من موقف الإنجليز من الإدارة العمانية على السواحل الشرقية للخليج العربى فحينما حاولت فارس عقب اغتيال سلطان بن أحمد في عام ١٨٠٤ تجريد سلطنة مسقط من توابعها في السواحل

Sykes, History of Persia vol. II. P. 456 London 1951, (١)

الشرقية وذلك بتحريرها شيوخ بني معين في استعادة بندر عباس وميناب قام بدر بن سيف الذي كان وصيا على السيد سعيد بن سلطان بمواجهة الموقف الفارسي ولكنه وجد عدم استجابة من الانجليز على الرغم من أنه انتهر فرصة قيامهم بحملة ١٨٠٥ لضرب القواسم لكي يشترك في هذه الحملة التي كان يقودها الكابتن سيتون Seton^(١) ونجح في توجيهها بعد تخطيطها لرأس الخيمة إلى الساحل الشرقي للخليج فاستعاد بندر عباس من شيوخ بني معين ونجح في تخليص ميناب من الحصار الذي كان قد فرضه الفرس على ذلك الميناء حتى أن الكابتن سيتون كتب تقريراً إلى حكومته يؤكد فيه أن السيد بدر بن سيف كان يرى استعادة توابع عمان في الساحل الشرقي من الخليج عملاً أكثر أهمية من مكافحة القرصنة ومقدماً عليها وأنه لو لم يكن هو نفسه موجوداً لقام بدر بأعمال عدائية أكثر عنفاً .

وعلى الرغم من أن السيد بدر بن سيف عرض على حكومته بومباي إنشاء قاعدة عسكرية لها في بندر عباس إلا أن حكومته بومباي رأت عدم تنفيذ ذلك بالنظر إلى ضرورة الحصول على موافقة الحكومة الفارسية وفيما يبدو لنا أن ذلك يتناقض تناقضاً كبيراً مع موقفها حين ألحت على سلطان بن أحمد في عام ١٧٩٨ عند توقيع الاتفاقية معه على أن يسمح لها بإنشاء تلك القاعدة . ولعل ذلك الموقف الذي وقفته حكومة بومباي كان يرتبط بزوال الخطر الفرنسي الذي كان يتهدها عند عقد الاتفاقية السابقة وذلك برحيل الفرنسيين من مصر في عام ١٨٠١ واتجاهها إلى

Bombay Govt. op. cit. vol. XXIV CF. Historical (١)
Sketch of the Joasmee Tribe of Arabs P. 299 See also
Goldsmid, F., Telegraph and Travel A Narrative of the formation and development of Telegraphic communication between England and India under the orders of her Majesty's Govt. with incident notices of the Countries Traversed by the Lines pp. 235-236 London 1874,

تحقيق التوازن بين القوى العربية والفارسية في الخليج وهي السياسة التي انتهجتها خلال القرن التاسع عشر. وتنفيذا لتلك السياسة أخذت تقف إلى جانب فارس خلال المنازعات التي قامت بينها وبين سلطنة مسقط بشأن حقوق السيادة على بندر عباس وتوابعه وكانت فارس تمنح الظروف التي تسمح لها لكي تعجز سلطنة مسقط من سيطرتها على هذه المناطق وعلى الرغم من أن سلطنة مسقط نجحوا في الاحتفاظ بتبعية تلك المناطق لسيادتهم حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلا أنهم اضطروا في كثير من الأوقات إلى رفع قيمة الإيجار السنوي الذي كان يدفع إلى الحكومة الفارسية. ولا شك أن موقف بريطانيا كان عاملاً قوياً في تقليص الحكم العماني من السواحل الشرقية للخليج وبظهر ذلك حين اتجه السيد سعيد بن سلطان في عام ١٨٢٦ للسيطرة على بوشهر وكاد ينجح في حملته هذه لولا تدخل المقيم البريطاني في الخليج الذي أقنعه بعدم تدمير الميناء مراعاة للصدقة القائمة بينه وبين الحكومة البريطانية بسبب وجود المقيمة البريطانية في بوشهر.

ومما هو جدير بالذكر أن قانون انتهزت فريضة غياب السيد سعيد المستمر عن مسقط بعد نقله الحكم إلى زنجبار في عام ١٨٣٢ لكي تعيد سيطرتها على السواحل الشرقية للخليج ولم تظهر بريطانيا تحمسا لمساعدة السيد سعيد في الاحتفاظ بنفوذه في تلك المناطق باستثناء مقاطعة جوادور التي أصرت بريطانيا على استبقاء تبعتها لسلطنة مسقط وكان ذلك لمصلحتها في مد الخطوط البرقية التي كانت تمر بها^(١). بقي أن نسجل هنا إعجاب كثير من الرحالة الذين زاروا الجزر والموانئ الواقعة على السواحل الشرقية للخليج والتي كانت تخضع لإدارة مسقط ومن أبرز أولئك الرحالة وليام بالجراف Palgrave الذي وصف الإدارة العربية بأنها إدارة ناجحة وتفوق

Goldsamid, op. cit. P. 236-278 See also Sykes, op. (١)
cit. vol. II. P. 423-425.

بدرجة كبيرة الإدارة الفارسية السيئة بما اتصفت به من مظالم وإجحاف
ومما تجدر الإشارة إليه أن بالجراف قام برحلاته بين عامي ١٨٦٢
و ١٨٦٣ أى عقب الفترة التي شهدت لإنهاء سيادة مسقط على تلك
الموانئ ولذلك كانت المعلومات التي استقاها تشير إلى الإنكماش الذي حدث في
تلك الموانئ بالمقارنة إلى فترة الازدهار التي كانت عليها والتي بفضلها
استطاعت أن تجتذب إليها كثير من التجار من مختلف العناصر وكان
ذلك بفضل سياسة التسامح الديني والحرية الاقتصادية التي اتبعها سلطنة
مسقط في إدارتهم وبفضل الحكام العرب الذين عينوا عليها من قبلهم
مما أدى إلى انتعاش التجارة مع الهند حيث ألغيت الضرائب واعتبر كل
من ميناء بندر عباس وميناء لنجة ميناء حراً وكان ذلك على عهد السيد
سعيد بن سلطان^(١).

وأخيراً قد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى نجاح السيد سعيد في
السيطرة على ظفار في عام ١٨٢٩ ورغم كون ظفار من الأقاليم العمانية
إلا أن ذلك الإقليم كاد يكون مغلقاً على نفسه بحيث أصبح تاريخه غير
متماusk مع تاريخ عمان . حقيقة أن هذا الإقليم خضع للسيطرة البرتغالية
مثل غيره من أقاليم عمان الأخرى ثم استولى عليه اليعاربة والبوسعيد
إلا أن بعد الإقليم أتاح الفرصة لبعض الأسر أو المغامرين بالاستقلال به
ولعل اغتيال السيد محمد بن عقيل العجايبي الذي كان يحكم الإقليم ويتخذ
من صلاله مركزاً لحكمه في عام ١٨٢٩ هو الذي شجع السيد سعيد
على إرسال حملة نجحت في ضمه إلى السلطنة وعين السيد سعيد أحد إخوة
القتيل والياً على ظفار ولم تلبث القوات العمانية أن انسحبت للحاجة

(١) Palgrave, W.G. Narrative of a year's Journey through
Central and Eastern Arabia vol. II P. 288 SQ See also Per-
sonal Narrative P. 392 Lond on 1879.

إليها في شرق إفريقيا وأصبحت الشخصية المسيطرة هي شخصية عبد الله لورليد وهو أمريكي الأصل كان محمد بن عقيل قد أسره من إحدى السفن الأمريكية واستطاع أن يصل إلى حكم ظفار في عام ١٨٣٦ وخلفته طائفة أخرى من المغامرين وأصبح الاقليم يعيش بعيداً عن السيطرة العمانية حتى نجح السيد تركي بن سعيد في إعادة ضمه إلى السلطنة وكان ذلك في عام ١٨٧٩^(١).

(١) ج. ج. ، لوريمر : مصدر سبق ذكره ، ج ٢ ص ٨٩٧ - ٨٩٨ .

الفصل الرابع

المنافسات التجارية والسياسية في الخليج العربي

تأسيس الشركات التجارية - التنافس الانجليزي الهولندي - استيلاء الهولنديين على جزيرة خرج* - مبرمها وصراعه ضد الهولنديين - التنافس الانجليزي الفرنسي خلال حرب السنوات السبع وحرب الاستقلال الأمريكية - نشأة المقمية البريطانية في بوشهر - استيلاء فرنسا على جزيرتي موريس والبوربون - العلاقات الفرنسية بمسقط - اتفاقية ١٧٩٨ بين مسقط وشركة الهند البريطانية - تأثير الحملة الفرنسية على مصر على علاقة بريطانيا بالخليج العربي - مراسلات بونايرت مع سلطان مسقط - بعثة جون مالكولم إلى فارس واتفاقية ١٨٠٠ مع سلطان مسقط - السياسة البابوية في الشرق - بعثة كافيناك - حياذ مسقط - سقوط جزيرة موريس ١٨١٠ .



الفصل الرابع

المنافسات التجارية والسياسية في الخليج العربي

تعرضت الامبراطورية البرتغالية في الشرق منذ أواخر القرن السادس عشر إلى ضربات متتالية وجهت إليها من قبل القوى الأوروبية المنافسة لها وخاصة من الإنجليز والهولنديين والفرنسيين الذين بدأوا في تأسيس شركات تجارية لهم وأعلنوا رفضهم لسياسة الاحتكار البرتغالي التي كان البرتغاليون يفرضونها على تجارة الشرق . ومما يستلفت الانتباه أن القوى المنافسة للبرتغاليين رغم أنها تعاونت فيما بينها لضرب السيطرة البرتغالية إلا أنها لم تلبث أن اتجهت بعد ذلك إلى التناحر فيما بينها ولعل من الأمثلة الواضحة على ذلك تعاون الإنجليز مع الهولنديين في تصفية الإمبراطورية البرتغالية ثم اتجهوا لاحتلالها بعد ذلك إلى التخلص من حلفائها الهولنديين أولاً ثم من منافسة فرنسا لها ثانياً حتى نجحت في تحقيق سيطرتها على الهند وعلى الجزء الغربي من المحيط الهندي . ويعد سقوط جزيرة فرنسا في أيدي الإنجليز في عام ١٨١٠ نقطة البدء في استئثار بريطانيا بنفوذها في بحار الشرق بصفة عامة ومنطقة الخليج العربي بصفة خاصة ومما هو جدير بالذكر أن المؤرخين الأوروبيين يطلقون على الفترة الممتدة من بداية القرن السابع عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر - وتشمل فترة المنافسة بين الشركات الأوروبية التي تأسست في الشرق - فترة التوسع الأوروبي الأول - وذلك تمييزاً لها عن الفترة الثانية من التوسع الأوروبي التي امتدت من النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى نشوب الحرب العالمية الأولى وانتهت بتفوق الامبريالية البريطانية .

وتبدأ مرحلة التنافس التجاري والسياسي التي تعيننا في دراستنا هذه

(م ١١ - الخليج العربي)

حينما بدأ الهولنديون بعد تخلصهم من الحكم الإسباني في عام ١٥٩٥ في توجيه نشاطهم صوب تجارة الشرق وتميزوا بحماس شديد في محاولتهم تعويض الفترة التي حرموا فيها من المشاركة في تلك التجارة خلال خضوعهم للحكم الإسباني إذ وضعت إسبانيا العقبات في طريقهم بهدف حرمانهم من المستعمرات البرتغالية في الشرق والتي كانت إسبانيا تشرف عليها منذ اخضاعها البرتغال للتاج الإسباني خلال الفترة من ١٥٨٠ إلى ١٦٤٠^(١). وثمة حقيقة تاريخية يمكن الاستناد عليها لتحليل أسباب حدة التنافس بين القوى الأوروبية في بحر الشرق وهذه الحقيقة ترتبط ارتباطا كبيرا بانتشار المذهب البروتستانتي في أوروبا إذ أن هذا الانتشار الذي صاحب حركة الإصلاح الديني كان له أثر بعيد في التاريخ الآسيوي حيث أن اتباع المذهب الجديد من الإنجليز والهولنديين لم يتقيدوا بما سبق أن سنه البابا بمقتضى معاهدة ترود سيلاس الشهيرة في بوليه ١٤٩٤ التي حددت ممتلكات الدولتين الكاثوليكيتين إسبانيا والبرتغال إذ أخذ الإنجليز والهولنديون ينادون بإبطال كل حق للبرتغال في احتكار تجارة الشرق وكان الهولنديون أول من تحركوا في هذا المجال حيث خرجت أساطيلهم الأولى ميممة وجهها صوب الهند في عام ١٥٩٥ وسار الإنجليز في أعقابهم^(٢). وربما يرجع إلى الرحالة الهولندي جان هوتن Houten الفضل الأول في جذب اهتمام الهولنديين إلى منطقة الخليج العربي وكان ذلك حين قدم تقريراً عن رحلاته في الشرق وفيه تحدث عن أهمية الخليج العربي في تجارة الهند مما دفع هولندا إلى الحصول على مواقع لها في بعض جزره وموانئه كما شجعت الحكومة الهولندية بعض التجار الهولنديين على تأسيس شركة الهند الهولندية الشرقية التي اتخذت من باتافيا في جزر الهند الشرقية مركزاً لها وكانت هي الشركة الأوروبية الثانية التي ظهرت في الشرق في عام

(١) محمود علي الداود : تاريخ العلاقات الهولندية في الخليج العربي ص ٣ - ٥ مجلة كلية الآداب جامعة بغداد - العدد الثالث - كانون الثاني ١٩٦٤ .

(٢) عبد العزيز عبد الغني : حكومة الهند البريطانية والإدارة في الخليج العربي - دراسة وثائقية ص ١٣ الرياض ١٩٨٣ .

١٦٠٢ إذ سبقها قبل فترة قليلة وعلى وجه التحديد قبل سنتين شركة الهند الشرقية الانجليزية التي أسسها جماعة من تجار لندن بمقتضى مرسوم ملكي حصلوا عليه من الملكة إليزابيث^(١) . وعلى أثر تأسيس هاتين الشركتين أخذت المنافسة تتقدم بين البرتغاليين من ناحية وبين الهولنديين والانجليز من ناحية أخرى وهذه المنافسة بدأها الانجليز ضد البرتغاليين مرتكزين في ذلك على محالفتهم للهولنديين وصداقتهم للشاه عباس الكبير (١٥٨٧ - ١٦٢٩) حيث تمكنوا في عام ١٦٢٢ من إسقاط حصن البرتغاليين الحصين في جزيرة هرمز . على أنه ما كادت تترنح سيطرة البرتغاليين في الخليج العربي حتى بدأ الحليفان - الانجليز والهولنديون - يعملان على تصفية نفوذ كل منهما الآخر حتى تتاح الفرصة للجانب المنتصر الاستئثار بالتجارة في فارس والخليج العربي . وقبل أن نعرض لهذه المرحلة تجدر الإشارة هنا أن تحالف الهولنديين مع الانجليز قد أتاح لهم السيطرة على بعض المواقع في الخليج العربي كان من أهمها جزيرة خرج التي تقع في مواجهة ميناء بوشهر التي اتخذوا منها مقراً لقوات حماية مصالحهم التجارية في الخليج . وفي عام ١٦٢٣ قاموا بنقل وكالتهم التجارية التي كانت قائمة في هرمز إلى ميناء بندر عباس وهو الميناء الجديد الذي أمر الشاه عباس ببنائه على أثر تدمير هرمز في عام ١٦٢٢^(٢) . ولا شك أن كلا من القاعدة الهولندية في خرج والوكالة التجارية التي تمكنوا من إنشائها في بندر عباس قد ساعدتهم على تثبيت نفوذهم في الخليج العربي خاصة بعد أن أخذ النفوذ البرتغالي ينحسر تدريجياً بعد الضربة التي تعرض لها البرتغاليون في كل من هرمز ومسقط .

(١) عن الجهود التي بذلها الانجليز للوصول إلى أسواق الشرق وتأسيس شركة الهند الشرقية الانجليزية راجع Foster , W. England's Quest in Eastern Trade P. 79 SQ London 1933.

(٢) صادق نشأت : تاريخ الخليج السياسي ص ٦٩ .

وقد عمل الهولنديون على إبراز وجودهم في الخليج العربي والمحيط الهندي إذ أدركوا وهم المتمرسون في البحر والتجارة بسبب طبيعة بلادهم الأهمية الحيوية لهاتين المنطقتين للتجارة العالمية ، وأدى التفوق البحري الهولندي إلى الصراع بينهم وبين الانجليز حلفائهم السابقين . وقد عنيت كثير من المصادر بتحليل أسباب التفوق البحري الهولندي في بحار الشرق ولعل من أبرز الأسباب التي ذكرت بصدد ذلك أن الهولنديين كانوا يعتمدون على أسطول بحري قوى والأهم من ذلك أنهم تمكنوا من الحصول على اعتمادات مالية ضخمة من الحكومة الهولندية لصالح الشركة التجارية التي أنشأوها في باتافيا حيث كان أعضاء الشركة مرتبطين ارتباطا وثيقا بالحكومة الهولندية ويملكون التأثير عليها على عكس شركة الهند الشرقية الإنجليزية التي كان نشاطها مقصورا على مكاسبها التجارية فحسب .

وقد بدأ الصدام المباشر بين الانجليز والهولنديين حينما رفض الهولنديون دفع الجمارك للإنجليز في ميناء بندر عباس وكان الإنجليز يستحوذون على نصف عوائد ذلك الميناء بمقتضى الامتياز الذي تحصلوا عليه من الشاه عباس الكبير نظير مساعدتهم له في طرد البرتغاليين من هرمز كما حاول الهولنديون التحالف مع البرتغاليين وكان ذلك عقب اعلان أوليفر كرومويل Cromwell الحرب على هولندا بسبب منافستها البحرية لإنجلترا بيد أن التحالف الهولندي البرتغالي لم يقدر له الوصول إلى مرحلة التنفيذ^(١) . وعلى أية حال فقد استطاع الهولنديون أن يزعموا النفوذ الإنجليزي في فارس حين تمكنوا عقب وفاة الشاه عباس في عام ١٦٢٩ من أن يحصلوا من خليفته الشاه صفى على امتيازات تجارية كانت تفوق بكثير الامتيازات التي سبق أن منحت للإنجليز ، وكما يعلق أرنولد ويلسن Wilson أنه في

Wilson, A. The Persian Gulf P. 164 See also Bruce, (١)
John : Annals of the Honourable East India Company, vol
1 pp498-499 London 1810 .

بلاد مثل فارس تصبح جميع الاتفاقيات والمعاهدات والامتيازات التي يمنحها الحاكم ملغاة مالم يثبتها خلفه وبما أن ذلك استغرق كثيرا من الوقت منذ وفاة الشاه عباس فقد عانت التجارة الانجليزية من وضعها السيئ إذ انتهى الاحتكار الانجليزي لتجارة الحرير وأخذ مركز الهولنديين يتفوق عليهم تفوقا ملحوظا وعانت التجارة الإنجليزية من تعثر شديد في فارس والخليج بسبب الامتيازات الواسعة التي منحت للهولنديين وأخذت الوكالة التجارية الهولندية تنشيط نشاطها كبيرا في بندر عباس حتى تمكن الهولنديون من الاستئثار بتجارة الخليج خلال الشطر الأعظم من القرن السابع عشر^(١). وعلى الرغم من كساد أعمال شركة الهند الشرقية الانجليزية إلى درجة كانت تستدعي إغلاق الوكالات التجارية التابعة لها في فارس إلا أن الانجليز أبقوا على هذه الوكالات رغم افلاسها خوفا من أن يقتلعهم الهولنديون نهائيا وخاصة أن الهولنديين بذلوا نشاطا كبيرا لتدعيم نفوذهم في المقاطعات الفارسية بمختلف الوسائل بما في ذلك أساليب الرشوة وبيع بضائعهم بأقل من تكلفتها الأساسية كما دفعوا أثمانا مرتفعة لشراء الحرير الفارسي بأكثر مما كانت تطيقه قدرات الانجليز. وأخذ الهولنديون بعد ذلك يمارسون ضغطا على الشاه لمنحهم مزيدا من الامتيازات التجارية ولما فشلوا في ضغوطهم الاقتصادية بدأوا يمارسون ضغوطا عسكرية فهاجموا جزيرة قشم مما اضطر الشاه إلى الإذعان لمطالبهم حيث تمكن الكوماندور بلوك الذي قاد أسطولاً هولنديا كبيرا وصل به إلى بندر عباس في عام ١٦٤٥ من أن يحصل من الشاه على امتياز يعطى الهولنديين حق احتكار تصدير الحرير من أي ميناء يتبع فارس مع اعفائهم من العوائد الجمركية وكان ذلك الامتياز بمثابة ضربة قاصمة وجهت للوكالات الانجليزية في فارس وترك ذلك أثره على الخليج حيث اضطرت شركة الهند الشرقية الانجليزية إلى نقل ممتلكاتها ووكالاتها التجارية من بندر عباس إلى البصرة ضمانا لسلامتها من ناحية ولتعاطم النفوذ الهولندي من ناحية أخرى^(٢). ولم يتوقف الهولنديون مع

Bruce, J. op. cit. vol I pp. 498-500.

(١)

(٢) ج. ل. لويمر، مصدر سبق ذكره ج ١ ص ٦٥.

ذلك في تنيع النفوذ الانجليزي في كل مكان ينتقلون إليه حتى أنهم أرسلوا أسطولا من ثمانى سفن كبيرة الحجم نجحوا بواسطته في تحطيم الوكالة الانجليزية التي كانت قد انتقلت إلى البصرة وأصبح واضحاً أنهم أصبحوا قادرين على انتزاع مزيد من الامتيازات من الحكومة الفارسية التي أصبحت تخشى من بأسهم ولاشك أيضاً أن طرد البرتغاليين من مسقط على أيدي اليعاربة في عام ١٦٤٩ كان من أبرز العوامل التي زادت من ميل الكفة لصالح الهولنديين . ولعل تفوق النفوذ التجارى لهولندا كان مما دفع الانجليز لإصدار قانون الملاحة والتجارة في عام ١٦٥١ وكان هذا القانون يهدف أساساً إلى القضاء على تجارة هولندا البحرية وفي العام التالى ١٦٥٢ أعلن كروميل الحرب ضد هولندا . ومع ذلك فعلى الرغم من الاجراءات التي اتخذتها انجلترا إلا أنها لم تؤد إلى اضعاف النفوذ الهولندى ففى عام ١٦٥٤ نشبت معركة بين الأسطولين الهولندى والانجليزى على مقربة من بندر عباس حيث نجح الهولنديون في الاستيلاء على بعض السفن الانجليزية وإغراق بعضها الآخر وأصبح الخليج في يد الهولنديين بشكل مطلق إلى درجة توقف النشاط الانجليزي التجارى توفيقاً تاماً (١) .

وهكذا أصبح الهولنديون متفوقين منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر تفوقاً تاماً على المستوى العسكرى والتجارى وبدأوا يعملون على نفوذهم في الخليج ، ففي عام ١٦٧٠ استأجرت شركة الهند الشرقية الهولندية إحدى الأبنية في مسقط واتخذت منها مكتباً لتسهيل أمور البريد الخاص بها وفي عام ١٦٧٢ نجح الهولنديون في توطيد مركزهم في كل من البصرة وبندر عباس (٢) ، وفشل الانجليز رغم محاولتهم التحالف مع اليعاربة في عمان في اقضاء الهولنديين عن تلك الأماكن التي أصبحت تحت نفوذهم (٣) .

(١) ويلسن : مرجع سبق ذكره ص ١٣٥ .

(٢) دونالد هول : مرجع سبق ذكره ص ٣٣ .

(٣) عبد العزيز عبد الحى : مرجع سبق ذكره ص ٧٨ .

وأصبح النفوذ الهولندي يتجه إلى التصاعد في عام ١٦٧٧ كما يفهم مما ذكره جون فريير Fryer عند زيارته للخليج في ذلك العام^(١). ولكن مما يسترعى الانتباه ذلك التدهور المفاجيء الذي تعرض له النفوذ الهولندي في الخليج العربي والمحيط الهندي ولعل أبرز عوامل ذلك التدهور ترجع في أساسها إلى الحروب المتتالية التي خاضتها هولندا ضد إنجلترا خلال الفترة بين عامي ١٦٥٢ و ١٦٧٤ إذ نتج عن تلك الحروب استنزاف شديد لقوة الهولنديين البحرية والعسكرية وازداد الأمر سسوءا بالصراع الذي نشب بين هولندا وفرنسا في عام ١٦٧٤ على عهد لويس الرابع عشر ١٦٤٣-١٧١٥ وكان ذلك سببا دفع بالإنجليز والهولنديين إلى تسوية خلافاتهم السابقة وتوحيد جهودهم ضد العدو المشترك ولكن الإنجليز تمكنوا في ظل تحالفهم مع الهولنديين أن ينزعوا منهم مراكزهم واحدا بعد آخر وفوق ذلك أسفرت الثورة العظمى التي حدثت في إنجلترا في عام ١٦٨٨ عن اقضاء جيمس الثاني عن العرش وارتقاء ابنته ماري وزوجها وليم أوف أورانج العرش كملكين مشتركين وأصبحت المصالح الهولندية في ظل ذلك الاتحاد تابعة للمصالح الانجليزية واستمر ذلك الوضع قائما حتى عام ١٦٩٧ .

ومما يستلفت الانتباه أنه على الرغم من احتدام المنافسة بين القوى البحرية الثلاث إنجلترا - هولندا - فرنسا خلال السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر إلا أن ذلك التنافس لم يحل بينهم وبين توحيد مصالحهم والدفاع عنها ضد الأخطار التي كانت تهددها ، ومن المناسب الإشارة بصدد ذلك إلى الكابتن كيلهام Cilham والكابتن كيد Ked وهما نموذجان للمغامرين المشهورين في تاريخ القرصنة البحرية في بحار الشرق استطاعا أن يرأسا طائفة من القراصنة الأوربيين وأن يحيطا الجزء الغربي من المحيط الهندي وسواحل الخليج العربي والبحر الأحمر إلى ميادين صاخبة من السلب والنهب

Fryer, John : A New Account of East India and Persia Being Nine Years Travels 1672 — 1681 vol II pp. 163 — 164 London 1912.

وأن يسببا ازعاجا للدول البحرية ولعل ظهور هذين المغامرين وأمثالهما دفع
بانجلترا وفرنسا وهولندا رغم المنافسات الشديدة التي كانت قائمة فيما بينها
إلى عقد الاتفاقيات الخاصة بقمع القرصنة البحرية حماية لمصالحها التجارية
ولعل من أبرزها اتفاقية ١٧٠٠ التي تعهدت هولندا بموجبها بالمحافظة على
سلامة الملاحة في البحر الأحمر وميناء عدن وتعهدت انجلترا بالمحافظة على
سلامة الملاحة في المحيط الهندي وفرنسا بتأمين مضيق هرمز باعتباره مدخلا
جنوبيا للخليج العربي^(١). ويستلقت النظر في هذه الاتفاقية تدهور النفوذ
الهولندي في الخليج العربي بحيث ترك لفرنسا وليس لهولندا مسئولية الملاحة
فيه كما يستلقت النظر أيضا أن تجارة الانجليز في الخليج لم تبلغ الدرجة التي
تجعلهم يتشبثون بحماية الملاحة في مياهه.

والحقيقة أن القرن الثامن عشر شهد انهيارا في النفوذ الهولندي في الخليج
العربي مقارنا بالنفوذين الفرنسي والانجليزي ولعل ذلك كان يرتبط بالضعف
العام الذي انتاب هولندا كدولة في مستهل ذلك القرن وأخذت التجارة
الهولندية تتعرض لضربات شديدة في فارس وخاصة بعد أن أظهر الشاه حسين
— وهو آخر من احتفظ بهيئته من الأسرة الصفوية — ميلا واضحا للإنجليز
غزار وكأثم في أصفهان في عام ١٦٩٩ بينما رفض زيارة الوكالة الهولندية
في بندر عباس كما أخذت علاقة فارس بالهولنديين تزداد سوءا بدليل إقدام
الهولنديين في عام ١٧٣٠ على إغلاق وكأثم في بندر عباس وفضلوا نقلها
إلى البصرة وإن كانوا قد عادوا من جديد لمحاولة كسب نفوذ في فارس عن
طريق تقديم مساعدات بحرية لنادر شاه الافشاري الذي وصل إلى الحكم
في عام ١٧٣٨ حيث أمده الهولنديون بمساعدة بحرية في الحملة التي قام بها إلى
الساحل العماني ومسقط في عام ١٧٣٨ كما قدموا له مساعدتهم لقمع ثورة
الملاحين العرب في الأسطول الفارسي في عام ١٧٤٠، وكان الملاحون العرب

تمكنوا من السيطرة على معظم قطع الأسطول ، كما وصلت سيطرتهم إلى مداخل ومخارج الخليج من مسقط حتى شط العرب ^(١) ، ومن أجل ذلك تقدمت بعض السفن الهولندية ومن بينها السفينة ميدرنك Middenrak بإحباط تلك الثورة والتصدى لبعض السفن العربية في الخليج ^(٢) ، وتمكن الهولنديون بفضل المساعدات التي قدموها إلى نادر شاه من إنعاش تجارتهم حتى أنهم بادروا في عام ١٧٤٧ إلى فتح وكالة تجارية في بوشهر وكان ذلك بدعوة رسمية من حاكم الميناء كما أعادوا فتح وكالتهم في بندر عباس في عام ١٧٥٢ وإن لم تستمر هاتين الوكالتين طويلا بسبب ما أقدم عليه الشيخ نصر حاكم إقليم فارس من مطالبة الهولنديين بضرائب باهظة هذا فضلا عن تعرض الهولنديين لمنافسات شديدة من قبل الوكالة الانجليزية في البصرة وهكذا وجد الهولنديون أنفسهم محاطين بالأعداء سواء من قبل السلطات المحلية التي تقع وكالاتهم التجارية في دائرة نفوذها أو من قبل الشركات الأوروبية الأخرى ، ولذلك قرروا إغلاق وكالاتهم سواء تلك الوكالات التي كانت قائمة في الموالي الفارسية أو الموالي العثمانية وأخذوا يركزون جهودهم على إحدى الجزر المحصنة التي تقع في مدخل الخليج العربي من ناحيته الشمالية وهي جزيرة خرج الذين نجحوا في الاستيلاء عليها في عام ١٧٥٣ ، ويرتبط ذلك بجهود البارون كينغهاوزن الذي كان ممثلا لشركة الهند الشرقية الهولندية .

وعلى أثر طرده من البصرة بأمر من السلطات العثمانية بسبب علاقاته السيئة بتجارها بدأ يعد لرحيله من هناك إلى باتافيا حيث المقر الرئيسي

Letter from the Political Council in Gombroon to the (١)
Batavia CF. Report on an incident when the Persian fleet
was thrown off anchor by a gale in front of Gombroon
Voc 2546.

Encounter between some Arabs vessels and the (٢)
Middernak — voc. 2546 — Papers Received from the
Colonies in Holland in 1742 vol, 34 Abu Dahbi Doc. Center.

شركة الهند الشرقية الهولندية وخلال مروره في الخليج العربي جذبت جزيرة
 خرج انتباهه^(١). إذ أن موقع تلك الجزيرة الصغيرة عند مدخل الخليج
 وعلى مقربة من البصرة يمكن أن يتخذها الهولنديون مركزاً للتحكم في
 تجارة الخليج ونقطة وثوب على البحرين أو البصرة أو غيرها من المواقع
 الأخرى على الشاطئ الغربي للخليج^(٢). واستطاع كينغهاوزن بعد إقناع المسؤولين
 في باتافيا أن يعد أسطولا كبيراً تمكن بواسطته من الاستيلاء على تلك
 الجزيرة في عام ١٧٥٣ وكان واضحاً أنه لا يهدف فقط إلى مجرد تأسيس
 مقر تجاري لشركته وإنما كان يهدف إلى إنشاء مستوطنة هولندية تجارية بها
 ولذلك عمل على إنشاء قلعة كبيرة لحمايتها وأحل بها حامية عسكرية من
 الزنوج للتغلب على طبيعتها الجرداء وقسوة مناخها ولعل ذلك مما أثار قلق
 ممثلي شركة الهند الشرقية الإنجليزية في البصرة في أن تتعرض جزيرة
 البحرين أو غيرها من جزر الخليج الأخرى إلى نفس المصير الذي تعرضت
 له جزيرة خرج وقد أوردت تقارير الوكالات الإنجليزية في الخليج أن
 الهولنديين كانوا يعملون على طرد السكان العرب من الجزيرة وإحلال من
 هم أكثر ولاء لهم ومن ذلك محاولة كينغهاوزن إغراء مسيحيي البصرة
 على الإقامة بها ووعده الفقراء منهم بمساعدات مالية تمكنهم من الاستقرار
 كما عمد إلى استجلاب بعض الأسر الهولندية بغرض تحويلها إلى مستوطنة
 هولندية ، وكان من الطبيعي أن يناصب الإنجليز الهولنديين العداء إذ
 كان للوجود الهولندي في جزيرة خرج أضراره البالغة على تجارتهم في
 البصرة التي لا تبعد عنها أكثر من خمسة عشر ميلاً وكانت الوكالة البريطانية
 قد انتقلت إلى البصرة في عام ١٧٥٩ على أثر تدمير الوكالة البريطانية في
 بندر عباس على أيدي الفرنسيين كما ستعرض لذلك فيما بعد .

ومع ذلك فإن الضربة القوية التي تلقاها الهولنديون في جزيرة خرج لم

I.O. Factory Records Persian Gulf CF. letters from (١)
 Basra and Gombroon vol. 15, 1753.

(٢) ح . ج . لوريمر : دليل الخليج ج ٣ ص ٢١٧١ .

تأت من قبل القوى الأوروبية المنافسة لهم وإنما تلقوا تلك الضربة من
سكان العرب الذين يقطنون تلك الجزيرة والذين عرفوا بامتلاكهم
السفن وتفوقهم في شئون الملاحة في الخليج . حقيقة أن الشيخ نصر حاكم
بوشهر كان قد قبل التنازل عن جزيرة خرج التي تقع في دائرة نفوذه إلى
الهولنديين مقابل جزية سنوية يدفعونها له إلا أن الهولنديين ما كادوا
يسيطرون عليها حتى أهملوا دفع الجزية السنوية وأخذوا بمن استعجلوهم
من عناصر سكانية أخرى يمارسون الغوص على اللؤلؤ وغير ذلك من الأعمال
التي قطعتم على العرب موارد رزقهم وكان ذلك دافعا لقيام مقاومة عربية
ضد الوجود الهولندي في تلك الجزيرة ^(١) تصدر لزعامتها الشيخ مهنا بن
نصر أو كما اشتهر بلقب مير مهنا وتميز بضربات الصارمة التي أخذ يوجهها
ضد الانجليز في بندريق وضد الهولنديين في جزيرة خرج وما يذكر أن
الانجليز كانوا قد نجحوا في تأسيس مستعمرة لهم في بندريق الواقعة
على مقربة من جزيرة خرج في عام ١٧٥٥ بهدف الحفاظ على مصالحهم
التجارية في الخليج والوقوف ضد الهولنديين في حالة قيامهم بأي توسع آخر
في جزر وموانئ الخليج الأخرى . ولا شك أن ازدياد العمليات التي كان
يقوم بها مير مهنا أدت إلى خروج الانجليز من بندريق وإجلاء الهولنديين
عن جزيرة خرج بعد ذلك بعدة سنوات وعلى وجه التحديد في عام ١٧٦٥
حيث عاد إليها سكانها الأصليون وأصبح مير مهنا بعد هذا الانهيار الكبير
الذي أحرزه يسيطر على الملاحة في الخليج بعد أن اتخذ من قاعدة الهولنديين
في خرج مقرا لعملياته البحرية ضد الفرس والعثمانيين والانجليز والهولنديين
جميعاً . ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن كثيرا من المصادر تتخذ من
سقوط قلعة الهولنديين في جزيرة خرج على يد مير مهنا في عام ١٧٦٥
نهاية للنفوذ الهولندي في الخليج العربي . وما يستلفت النظر أيضا أن

(١) عبد الأمير محمد أمين : مقاومة إمارات شرق الجزيرة العربية وقبائل الخليج العربي
التفلفل الاستعماري الأوروبي ١٥٠٠ - ١٨٢٠ من أعمال الندوة الخاصة بالتجارب الوطنية
العربية المعاصرة — تجربة دولة الامارات العربية المتحدة — مركز دراسات الوحدة العربية —
بيروت مارس ١٩٨١ .

العمليات التي كان يقوم بها مير مهنا دفعت القوى المناهضة له إلى توحيد جهودها للتخلص من نشاطه وخاصة أنه أثار قلق العثمانيين والفرس بمطالبة على عربستان كما أثار قلق الانجليز في سيطرته على الملاحة في الخليج مما دفعهم إلى توقيع اتفاقية مع كريم خان الزندي في عام ١٧٦٧ كانت تنص على مساعدة الانجليز لفرس في التخلص من نفوذهم مقابل استيلاء الانجليز على جزيرة خرج ورغم التحالف الذي كان بين الانجليز والفرس إلا أن مير مهنا تمكن من إفشال هجوم إنجليزى فارسى مشترك قاموا به ضده^(١). وإن كان سوء الحظ لم يلبث أن واكبه حينما دب الشقاق بينه وبين أفراد أسرته وقام أتباعه بالخروج عليه مما اضطره للفرار إلى البصرة فما كان من السلطات العثمانية هناك إلا أن قبضت عليه ودقت عنقه بأمر من باشا بغداد كما بادرت فارس بالاستيلاء على جزيرة خرج وهكذا انتهت حياة ذلك المغامر البحرى الذى روع الهولنديين وكان سببا في زوال نفوذهم من منطقة الخليج العربى^(٢) كما أشرنا الى ذلك منذ قليل ذلك أنه بعد إخراج الهولنديين من جزيرة خرج لم يعد لهم أى نفوذ سياسى أو تجارى أو عسكري بعد أن أخذوا وكالاتهم التجارية في البصرة وبندر عباس .

والأمر الذى لا شك فيه أن انهيار النفوذ الهولندى في الخليج في عام ١٧٦٥ وانتهاء حرب السنوات السبع قبل ذلك بعامين وعلى وجه التحديد في عام ١٧٦٣ مكن بريطانيا من معاودة تثبيت نفوذها في الخليج وساعدها على ذلك أن فارس أخذت تتخلص من الاضطرابات والفوضى التي كانت تجتاحها والتي كانت تؤثر على التجارة الانجليزية وذلك على أثر نجاح كريم خان الزندي في تدعيم سلطته مما مكن الانجليز في عام ١٧٦٣ من إقامة مقيمة تابعة لهم في ميناء بوشهر وإنشاء تلك المقيمة يمكن أن نصل إلى مرحلة جديدة من مراحل تطور النفوذ البريطانى في الخليج والتي يمكن أن نطلق عليها مرحلة بوشهر التي استمرت قاعدة للنفوذ البريطانى السياسى

Factory Records, CF. letters from Bussora, Gombroon (٢)
vol. 16 30/11/1768.

Ibid 4/2/1769.

(٢)

في الخليج العربي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية أو على وجه التحديد في عام ١٩٤٦ حين انتقلت منها إلى البحرين . ويرتبط لإنشاء المقيمة البريطانية في بوشهر بالنشاط السياسي الذي قام به المستر اندرو برايس الذي أوفدته حكومة بومباي إلى بوشهر وتمكن بعد وصوله أن يعقد اتفاقية مع الشيخ سعدون حاكم الميناء وافق الأخير بمقتضاها على منح الإنجليز قطعة أرض أخرى لإنشاء حديقة ومقبرة خاصة بهم وأذن للإنجليز باستخدام أعلامهم الخاصة وإعفائهم من الجمارك على أن أهم ما نصت عليه الاتفاقية ألا يكون لأية شركة أخرى الحق في إنشاء وكالة إنجليزية أو أى مركز لها في بوشهر كما نصت الشروط المكمنة لتلك الاتفاقية على حق الإنجليز في الاحتفاظ بحماية عسكرية لحماية دار إقامتهم^(١) . وما يذكر أن كريم خان الزندي صادق على تلك الاتفاقية التي اتخذت نموذجا للنزالات الأخرى التي منحها الإنجليز في المقاطعات الفارسية الأخرى أو بمعنى آخر أصبحت إتفاقية برايس مع الشيخ سعدون أساسا لجميع المعاهدات والامتيازات التي استحوذ عليها الإنجليز في فارس والتي كانت تشبه من وجوه كثيرة الامتيازات التي كان يتمتع بها الأوروبيون في الولايات العثمانية وإن تميزت بمنحها المزيد من الامتيازات التجارية للإنجليز وتأكد ذلك بفرمان أصدره كريم خان الزندي الذي نص على منح الإنجليز الحق في إقامة مقيميات تابعة لهم في جميع الأراضي الفارسية انطلاقا من تقديره وصداقته للأمة الإنجليزية^(٢) .

وما تجدر الإشارة إليه أنه منذ عام ١٧٦٣ أصبح ميناء بوشهر المركز الرئيسى الأول للتمثيل الانجليزى في منطقة الخليج العربى وكان هذا التمثيل يتخذ في البداية طابعا تجاريا ثم تطور بعد ذلك لكي يتخذ طابعا سياسيا ثم أصبحت له سلطة عسكرية على إمارات الخليج العربى .

(١) ج . ج . لوريمر، دليل الخليج ص ٤ ص ٢٦٣١ .

(٢) ويلسن : مرجع سبق ذكره ص ١٤٩ - ١٥١ .

وكان تأسيس المقيمة البريطانية في بوشهر يواكب من الناحية التاريخية نهاية حرب السنوات السبع في عام ١٧٦٣ ومن المعروف أن هذه الحرب أنهت حقبة من التنافس الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا وانتهت هذه الحقبة بتفوق الانجليز على منافسيهم الفرنسيين. وكانت فرنسا قد دخلت ميدان التوسع في بحار الشرق منذ عام ١٦٦٤ حين أسست شركة الهند الشرقية الفرنسية^(١) بمبادرة من وزير مالميتها كولبير Colbert^(٢). ولكن الشركة الفرنسية لم تحظ حتى نهاية القرن السابع عشر بأكثر من ممارسة تجارية بسيطة مع فارس ولم يقدر للفرنسيين أن يلعبوا دورا بارزا في أحداث الخليج العربي خلال تلك الفترة بسبب النشاط الانجليزي والهلندي الذي كان متصاعدا في ذلك الوقت هذا بالإضافة إلى أن فرنسا قد انغمست في مشكلات القارة الأوروبية والحروب الكثيرة التي خاضتها من أجل ذلك على عهد لويس الرابع عشر مما ترك آثارا سيئة على تجارة فرنسا في الشرق وأصبحت المصالح التجارية الفرنسية في فارس من الضمالة بحيث تركت في أيدي البعثات التبشيرية من طوائف الجزويت والكابوشيين^(٣). ومع ذلك فرغم ضلالة الدور الفرنسي في بحار الشرق بصفة عامة والخليج العربي بصفة خاصة إلا أننا نلاحظ عدة محاولات قام بها الفرنسيون في أوائل القرن الثامن عشر لإنشاء قاعدة بحرية لهم في ميناء مسقط وظهرت تلك المحاولات خلال النشاط السيامي الذي كان يقوم به الممثلون الفرنسيون في البلاط الفارسي والذي كان يهدف إلى قيام تحالف فرنسي فارسي من أجل تمكين الفرنسيين من الاستيلاء على مسقط وهو أمر كان يطمح إليه الفرنسيون قديما للنشاط البحري العماني وما كان يسببه من إرهاب لفارس^(٤). وعلى الرغم من فشل مشروعات التحالف الفرنسي الفارسي إلا أن فرنسا استطاعت

(١) Compagnie des Indes Orientale

(٢) محمد صالح العابد : موقف التجار من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ص ٣٦ .

(٣) Lockhart, I., The fall of the Safavi Dynasty, P. 432.

(٤) محمد صالح العابد : مرجع سبق ذكره ص ٦٥ .

أن تحقق لنفسها مكسبا استعماريا كبيرا وذلك باستيلائها على جزيرة صغيرة تقع في الجزء الغربي من المحيط الهندي عرفت باسم جزيرة موريس أو جزيرة فرنسا Isle de France وكان ذلك في يولييه عام ١٧١٥^(١). وقامت شركة الهند الشرقية الفرنسية بإرسال وكلاء من قبلها للإقامة بها وأصبحت تلك الجزيرة قاعدة للنشاط الفرنسي في الجزء الغربي من المحيط الهندي بما في ذلك منطقة الخليج العربي^(٢). وبرز من حكامها الفرنسيين لابوردنيه La Bourdonnais الذي نجح في خلال حكمه لتلك الجزيرة أن يضم إليها إحدى الجزر المجاورة لها والتي أطلق عليها الفرنسيون اسم جزيرة بوربون Bourbon في عام ١٧٣٥ كما نجح في تشييد ميناء بورت لوى في جزيرة فرنسا وجعل منه عاصمته لكل من جزيرتي البوربون وموريس. ويرجع إلى لابوردنيه الفضل في تحصين جزيرة فرنسا وإدخال الزراعات بها وخاصة زراعة القطن وقصب السكر والنبيلة. والأمر الذي لا شك فيه أن لابوردنيه كان يعد أكفأ حكام تلك الجزيرة إذ قام بالإضافة إلى ما أشرنا إليه من أعمال ببناء أسطول قوى قصد من ورائه التمهيد للسيطرة البحرية البريطانية في الجزء الغربي من المحيط الهندي وعلى الرغم من أنه لم يقدر لبوردنيه النجاح رغم النفقات الكبيرة التي أرقق بها الحكومة الفرنسية وهو ما أدى إلى القبض عليه وإجباره على قضاء بقية حياته في الباستيل إلا أنه يمكننا أن نقرر أنه في أثناء الصراع الذي قام بين إنجلترا وفرنسا منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر كانت جزيرة فرنسا تشكل حجرة عثرة بالنسبة للمصالح البريطانية في الهند ومسقط ولعل ذلك مما دفع بريطانيا إلى احتلال تلك الجزيرة في عام ١٨١٠ وكان ذلك الاحتلال بمثابة الضربة القاضية التي وجهتها بريطانيا للنشاط

Skeet, Ian. op. cit. pp. 40—41.

(١)

(٢) اكتشف البريه لبون جزيرة فرنسا في عام ١٥٠٥ ثم احتلها الهولنديون عام ١٥٩٨

وأطلقوا عليها اسم جزيرة موريشيوس نسبة إلى أحد حكامهم ثم خلفهم الفرنسيون في عام ١٧٣٥
Coupland, R. East Africa P. 37.

الفرنسي في بحار الشرق ويمكن أن تتضح لنا تلك الحقيقة حين نعلم أن فرنسا كانت تتخذ من جزيرة فرنسا قاعدة للاتصال بمن تستطيع أن تتصل به من الحكام الوطنيين في بحار الشرق وفضلا عن ذلك فقد أوجدت علاقات تجارية وثيقة بينها وبين مسقط عن طريق الحكام الفرنسيين لتلك الجزيرة^(١) وبسبب المصالح التجارية المشتركة بين مورييس ومسقط ظلت العلاقات بين حكام مسقط وحكام جزيرة مورييس يسودها الصداقة والود حيث كان الطرفان يتبادلان الهدايا بين الحين والآخر^(٢). كما كانت جزيرة فرنسا تصدر إلى مسقط ما تحتاجه من قصب السكر الذي اشتهرت الجزيرة بزراعته وتستورد بدلا منه الحبوب والتمر .

وعلى الرغم من العلاقات التجارية الفشيطة بين جزيرة فرنسا ومسقط إلا أن العلاقات الفرنسية مع مسقط كانت تسير على نطاق ضيق إذ لم تكن هناك وكالات تجارية فرنسية بسبب عدم مقبولة الفرنسيين على منافسة الوكالات التجارية البريطانية في بندر عباس وبوشهر والبصرة^(٣). ولعل الإمام أحمد بن سعيد ١٧٤٧ - ١٧٨٣ كان أول من أدرك أهمية الصداقة الفرنسية مع بلاده فدخل في علاقات تجارية ودية وثيقة مع مالارتيك حاكم جزيرة فرنسا وتبادل معه الكثير من الهدايا^(٤). ومع ذلك فقد حرص حكام مسقط على التزام موقف الحياد بالنسبة للتنافس الانجليزي الفرنسي ولكن كان من الصعب بطبيعة الحال الإبقاء على ذلك الموقف إذ

(١) Gaffarel, Paul. les Colonies Francaise P. 24 Paris (١) 1888. See also Coupland, R. East Africa and it's Invaders pp. 74—75.

(٢) Coupland, R. op. cit. P. 93.

(٣) Ruete. R.S., Said Bin Sultan Ruler of Oman and East Africa 1791—1856 P. 93 -94 London 1929.

(٤) Ibid P. 93.

أن الموقع الجغرافي والاستراتيجي لميناء مسقط كان يحتم أن يكون هدفاً جيداً للتنافس الإنجليزي الفرنسي وخاصة حينما اشتدت مراحل الصراع بين الإنجليز والفرنسيين في بحار الهند خلال حرب السنوات السبع وحروب الاستقلال الأمريكية ١٧٧٦ - ١٧٨٣ ، وحروب نابليون وسياسته في الشرق بين عامي ١٧٩٩ و ١٨١٠ ويمكن أن نعرضها على الوجه التالي :

أولاً : التنافس الإنجليزي الفرنسي خلال حرب السنوات السبع
وفي أعقابها

لعل ما يثير الانتباه أنه على الرغم من أن أمراء العرب في سواحل الخليج العربي والجزيرة العربية كانوا على استعداد لصداقة فرنسا بسبب تطالع الإنجليز إلى بلادهم إلا أن السياسة الفرنسية لم تتخذ هدفاً محدداً في علاقاتها مع أولئك الأمراء إذ كان طابع السياسة الفرنسية حتى منتصف القرن الثامن عشر يتسم بالتردد وعدم الثبات على أنه لم يلبث بعد ذلك الوقت أن بدأ اتجاه فرنسا يتجه إلى توثيق العلاقة مع الأمراء العرب الذين يحتلون مراكز حساسة على الطرق البحرية الموصلة إلى الهند وخاصة بعد أن كثرت التقارير التي كان يبعث بها حكام جزيرة فرنسا إلى حكومتهم يوضحون فيها أهمية إقامة علاقات تجارية وسياسية مع بعض أولئك الأمراء كما أقدم كثير من حكام جزيرتي فرنسا والبوربون على إيجاد علاقة مودة وصداقة معهم^(١).

ولعل أول اتصال اتخذ صبغة سياسية بين فرنسا ومسقط حدث في عام ١٧٥٩ على عهد الإمام أحمد بن سعيد حين هاجم الكونت

Auzoux A. France et Mascate aux XVIII et XIX (١)
Siccles (Extrait de la Revue d'Etude Diplomatique) Paris
1910. P. 4.

دامستان Comte D'Estaing بعض السفن الإنجليزية التي كانت راسية في ميناء مسقط وظهر واضحاً أن الفرنسيين قد أحرزوا انتصاراً على الإنجليز وخاصة حين تابع دامستان نشاطه ووصل بسفنه إلى ميناء بنادر عباس حيث أطلق الفرنسيون مدافعهم على الوكالة البريطانية القائمة هناك وتمكنوا من إصابة إحدى السفن الإنجليزية التي كانت في طريقها إلى بومباي بأضرار كبيرة ووضح أن الفرنسيين كانوا يهدفون بعملياتهم البحرية هذه استطلاع المؤسسات الإنجليزية في الخليج العربي^(١). ولذلك حملت وثائق شركه الهند الشرقية البريطانية بتفصيلات كثيرة عن هذه الحوادث والتي يتضح منها استسلام الإنجليز للفرنسيين كما تشير إلى ذلك الرسالة التي بعث بها الوكيل البريطاني في بنادر عباس في أكتوبر ١٧٥٩ إلى حاكم بومباي يؤكد فيها استيلاء الفرنسيين على وكالة الشركة وتخريبها وأنه اضطر إلى توقيع معاهدة استسلام مع الفرنسيين قبل فيها تسليم الوكالة بما فيها من بضائع وأموال إليهم مقابل أن يعامل الفرنسيون الإنجليز معاملة أسرى الحرب^(٢).

ويهمنا من الانتصار الذي حققه الفرنسيون على الإنجليز في حادثة وكالة بنادر عباس أن حاكم مسقط بادر إلى تأكيد صلاته بالفرنسيين إحتفاءً بهم من النفوذ الإنجليزي أو خوفاً من نفوذهم الذي كان يتقدم باطراد ولذلك أرسل ابنه هلالاً إلى ميناء بنادر عباس لمقابلة دامستان حيث قدم له رسالة من أبيه أكد فيها صداقته للفرنسيين وأنه على استعداد أن يضع ميناء مسقط تحت تصرفهم^(٣). ويبدو أن فرنسا استجابت لهذه الصداقة حيث أخذت السفن الفرنسية تكاثر من تردها على ميناء مسقط

(١) Guillaing, Ch. Documents sur l'Histoire, la Geographie et le Commerce de l'Afrique Orientale Tome I P. 202 Paris 1856.

CF. F.R. Gombroon Diaries 1753—1773. G. 29. (٢)

Auzoux, op. cit. P. ٦7. (٣)

لاتزود بما تحتاجه من مئون^(٢). وقد بقيت العلاقات قائمة بين مسقط والفرنسيين على الرغم من أن النتائج النهائية لحرب السنوات السبع لم تكن في صالحهم إذ عادت بريطانيا إلى تأكيد مركزها المتفوق واضطرت فرنسا على أن تتنازل لها بمقتضى صلح باريس ١٧٦٣ عن جميع مراكزها في شبه القارة الهندية باستثناء بوندشيري كما بادرت بريطانيا بفتح خط مواصلات عن طريق الخليج العربي لسرعة نقل الأنباء من الهند إلى إنجلترا ورغم أن هذه النتائج لم تكن كما هو واضح في صالح الفرنسيين إلا أنهم أخذوا يبذلون العديد من المحاولات الملقاة على نفوذهم في مسقط. ففي عام ١٧٦٨ اقترح كل من قنصل حلب بوردييه Perdriaux وغرفة التجارة بمرسيليا على الحكومة الفرنسية اتخاذ الإجراءات الكفيلة لإنعاش تجارة فرنسا مع الهند عن طريق حلب وبغداد والبصرة وأن ذلك بطبيعة الحال يتطلب اهتمام الحكومة الفرنسية بمسقط التي تتحكم في طريق الهند^(٣). وقد اتبعت الفرصة لفرنسا لتقوية نفوذها خلال حرب الاستقلال الأمريكية.

ثانيا : التنافس الانجليزي الفرنسي خلال حرب الاستقلال الأمريكية .

حين اتخذت فرنسا موقفا رسميا إلى جانب الثوار الأمريكيين استأج ذلك إعلانها الحرب على بريطانيا في عام ١٧٧٨ واضطرت حكومة مسقط إلى أن تأخذ موقفاً حيادياً نظراً لارتباط مصالحها التجارية مع كل من القوتين المتصارعتين سواء في الهند أو في جزيرة فرنسا إلا أن العلاقات بين فرنسا ومسقط لم تلبث أن تعرضت لبعض الأزمات وكان ذلك في عام ١٧٨١ على

(١) Guillaín. op. cit. Tome I p. 204—205.

(٢) Kájare (Firouz) le Sultanat d'Oman et la Question de

Maecate Etude d'Histoire Diplomatique et de Droit International P. 47 Paris 1914.

أثر استيلاء إحدى السفن الفرنسية على سفينة الإمام أحمد بن سعيد «الصالح» وكانت عمارة بالبضائع التي جلبتها من الهند حيث نجح الفرنسيون في اقتيادها من صحر إلى البصرة وعلى الرغم من أن مسقط ردت على ذلك بمهاجمة بعض السفن الفرنسية إلا أنه لم تكن هناك رغبة من الإمام ولا من كبار التجار العمانيين الذين تربطهم مصالح تجارية مع جزيرة فرنسا بتسعيد ذلك النزاع واكتفى الإمام أحمد بن سعيد بالاحتجاج لدى حاكم جزيرة فرنسا والقنصل الفرنسي في بغداد ، وطالب بتوقيع الجزاء الصارم على قائد السفينة الفرنسية التي قامت بالاعتداء على الصالح^(١). ويقرر جيان أن الحكومة الفرنسية بادرت بتقديم اعتذار إلى الإمام وقدمت له سفينة أخرى تعويضاً عن سفينته وعلى الرغم من أن الإمام لم يقدر له أن يتسلم تلك السفينة حيث استولى عليها الانجليز قبل أن تصل إلى مسقط^(٢) إلا أن العلاقات الحسنة لم تلبث أن عادت بين الطرفين حيث كتب الإمام إلى القنصل الفرنسي في بغداد في عام ١٧٨٢ يؤكد الصلات الوثيقة القائمة بين مسقط والفرنسيين وأن هذه الصلات أقوى من أية دولة أخرى^(٣). وكما هو واضح لدينا أن مسقط لم تستطع أن تحافظ على حيادها في الصراع الذي كان دائراً بين الانجليز والفرنسيين خلال حرب الاستقلال الأمريكية ؛ على أنه في أعقاب تلك الحرب أخذت العلاقات بين فرنسا ومسقط تتوطد بشكل واضح وتؤكدت تلك العلاقات خلال بعثة الكونت روزيلي إلى مسقط في عام ١٧٨٥ ، وكان مكلفاً من قبل حكومته للقيام بعملية مسح هيدروغرافي في مناطق الخليج وعند وصوله إلى مسقط أعرب له السيد حمد بن سعيد ١٧٨٣ / ١٧٩٨ حاكم مسقط عن

(١) Guillaime C. Relation du Voyage d'Exploration à la Cote Orientale d'Afrique exécuté pendant les années 1847 / 1848 Tome I P. 206.

(٢) صالح محمد العابد : موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في مسقط ص ٦٩ .

(٣) Ruete, S.R. [Said Bin Sultan Ruler of Oman and East Africa P. 45.

استعداد له لكي ينشئ الفرنسيون وكالة لهم في ميناء مسقط خاصة بعد أن ازدادت الاتصالات التجارية بين مسقط وجزيرة فرنسا ، وعرض أن يقدم مقرا لتلك الوكالة دون مقابل ، وأكد لروزيللي « إن بلادى هي بلادكم وصداقتنا باقية كما كانت بل إنها أقوى مما كانت عليه في أى وقت مضى » وعلى الرغم من أن الاتصالات التي أجريت مع روزيلي لم تسفر عن شيء إيجابي إلا أنه كان واضحا أن روزيلي لقي استقبالا حافلا في مسقط حتى أنه كتب إلى حكومته يقول « إن أهالى مسقط فيما يظهر لى يحبون الفرنسيين ويكرهون الانجليز بسبب تسلطهم وكبريائهم ^(١) . كما أوصى روزيلي في التقرير الذى قدمه إلى حكومته بضرورة دخول فرنسا في علاقات أوثق مع سلطنة مسقط ^(٢) . وما يسترعى الانتباه بصدده ذلك أنه رغم ترحيب حاكم مسقط بأن يقيم الفرنسيون مركزا تجاريا لهم في بلاده ، إلا أنه رفض في نفس العام ١٧٨٥ عرضا آخر كان قد تقدم به الانجليز لتأسيس وكالة لهم في مسقط ^(٣) ومن ثم ظلت المصالح البريطانية في مسقط تدار حتى عام ١٧٩٨ بواسطة وكيل وطني Native Broker ومع ذلك فلم تتع الظروف لفرنسا لكي تحوز تقدما في علاقتها بمسقط ^(٤) إذ أنه بينما كانت تتجه في عام ١٧٨٨ إلى إنشاء قنصلية فرنسية في مسقط لم تلبث أن شغلت عن ذلك بسبب تأزم أوضاعها الداخلية نتيجة نشوب الثورة الفرنسية ١٧٨٩ ، وبذلك أهملت فرنسا إنشاء وكالة أو قنصلية لها في مسقط رغم العروض المتكررة التي قدمها السيد محمد بن سعيد إلى القنصل الفرنسي في بغداد لكي يبحث بمندوب من قبله يجيد التحدث باللغة العربية ليكون بمثابة وكيل تجارى بين البلدين ^(٥) ، كما كتب إليه مرة أخرى بحثه على تعيين ذلك الوكيل مؤكدا له بأنه سيملي في مسقط

(١) ، تائق الحكومة السعودية : التحكم لتسوية النزاع الاقليمي بين مسقط وأبو ظى وبين المائدة العربية السعودية ص ١٠٨ من ١٠٨ القاهرة ١٩٥٧ .

(٢) Kajare (Firouz), op. cit. P. 75.

(٣) Wilson, Arnold , op. cit. P. 231

(٤) Kajare (Firouz), op. cit. P. 75-76.

(٥)

كل رعاية وعناية . وفي عام ١٧٩٠ كتب السيد محمد بن سعيد إلى القنصل الفرنسي في بغداد مؤكدا على المزايا التي سوف يقدمها للفرنسيين في بلاده بقوله « لست تجهل الأوار التي نصدرها إلى رعايانا بالطريقة التي يعاملون بها مواطنيكم الذين ينزلون في بلادنا فيزناهم عن جميع الشعوب الأوروبية الأخرى » ^(١) . وماكادت فرنسا تفرغ من ثورتها وتعلن الجمهورية حتى بذلت محاولة أخرى في عام ١٧٩٥ لإيجاد قنصلية لها في مسقط ، ففي مارس من ذلك العام أصدرت لجنة الأمن العام مرسوما يقضى بتأسيس قنصلية فرنسية في مسقط وتم تعيين المسيو بوشامب Beauchamp ليكون أول قنصل فرنسي في مسقط وجاء في التعليمات الخاصة بإنشاء تلك القنصلية « لأنها أنشئت للتعرف على حركات الانجليز في الهند ودراسة الأوضاع الداخلية في بلاد العرب وفارس وكذلك دراسة الطريقة التي يمكن أن يستخدمها توسع فرنسي في الشرق ^(٢) » . على أنه لم يقدر لبوشامب أن يتسلم منصبه ولعل ذلك يرجع إلى أن فرنسا كانت تعتقد خطأ بتبعية مسقط للدولة العثمانية ولذلك طالبت من بوشامب أن يذهب إلى الآستانة قبل ذهابه إلى مسقط ليستأذن الباب العالي في فتح قنصلية لها هناك وماكاد بوشامب يصل إلى الآستانة حتى كانت أنباء الحملة الفرنسية على مصر قد وصلت إلى العاصمة الفرنسية فتم القبض عليه وألقي به في السجن ^(٣) .

ومما يسترعى الانباه أن بعثة بوشامب كانت واحدة من تلك البعثات العديدة كانت فرنسا تبعث بها إلى بلادان الشرق وكانت تهدف من وراءها الكشف عن أي مجال يمكن لها أن تنسج فيه خيوط العمل لمصالحها في تلك البلدان بهدف تضييق الخناق على الانجليز في مستعمراتهم الهندية الكبرى ولعل من

(١) Guillaumin, op. cit. Tome I P, 207.

انظر أيضاً وثائق الحكومة السعودية - مصدر سبق ذكره ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) صلاح العقاد : الاستعمار في الخليج (الفارس) ص ٣٣ - القاهرة ١٩٥٦ .

(٣) صانع محمد العابد - مصدر سبق ذكره ص ٧٢ .

أبرز هذه البعثات بعثة أوليفير وبروجييه *Oliviere et Brugiere* التي بقيت قرابة خمس سنوات بين استانبول والقاهرة وطهران وكان من أهم توصياتها الاحتلال الفرنسي لمصر (١).

وعلى الرغم من أن النجاح لم يخالف فرنسا فيما كانت تسمى إليه من محاولات لتوطيد نفوذها في الشرق إلا أنه كان واضحا أنها استطاعت المحافظة على وضعيتها الخاصة في مسقط وذلك حتى السنوات القليلة التي سبقت مجيء الحملة الفرنسية على مصر حتى أن السيد سلطان بن أحمد ١٧٩٣ - ١٨٠٤ كان يسترشد في الشؤون السياسية بمشورة طبيبه الفرنسي (٢). ولعل استخدام سلطان مسقط للفرنسيين في خدمته كان مثار قلق جوناثان دنكان حاكم بومباي حتى أنه أوفد في نهاية عام ١٧٩٦ أحد مبعوثيه إلى مسقط ليتأكد عما إذا كان هناك فرنسيون يعملون بالفعل في خدمة السلطان ولسكني يطلب منه توضيح موقفه الذي أصبح مشكوكا في حياده وكان رد سلطان بن أحمد على جانب كبير من الأهمية كما كان مؤشرا لبدء علاقات من الصداقة مع الانجليز إذ زود مبعوث حكومة بومباي برسالة إلى دنكان جاء فيها « إنه منذ المزمع التقديم فلن أواصر الصداقة والمودة ظلت قائمة بين حكومتينا وإنه بعون الله ما دام هناك نفس يتردد فإن جنة الحب والتفاهم سوف تبقى يابسة الثمار يروها ماء المحبة والاخلاص وهذه الأسباب فإن أصدقاء الشركة الموقرة هم أصدقائي وأعداؤها هم أعدائي » ويذكر جون كلي - أحد الباحثين في تاريخ الخليج العربي - أن دنكان بهر بفصاحة خطاب السلطان ولذلك قرر ألا يشير موضوع علاقة سلطان مسقط بالفرنسيين مرة أخرى حتى وصل بونايرت إلى مصر في عام ١٧٩٨ (٣).

(١) وثائق الحكومة السعودية : مصر سبق ذكره ج ١ ص ١٠٨ - ١٠٩. انظر أيضا ج ١ ص ٢٤١.
(٢) وثائق الحكومة السعودية : نفسه ج ١ ص ١٠٨.
(٣) جون كلي : بريطانيا والخليج ١٧٩٥ - ١٨٧٠ ترجمة محمد أمين عبيد الله ج ١ ١٠١ / ١٠٢ وزارة الثقافة والتراث القومي - سلطنة عمان.

ثالثا : مقاومة بريطانيا للسياسة النابليونية في الشرق :

حاول بونايرت بعد وصوله إلى مصر في عام ١٧٩٨ استمالة الأمراء العرب الذين يقطنون على سواحل الخليج والجزيرة العربية على أنه مما هو جدير بالذكر أن هذه السياسة التي انتهجها بونايرت لم يكن هو السابق إليها وإنما كانت امتدادا للمحاولات السابقة لإشارتنا إليها والتي قام بها كل من روسو وروزيلي وبوشامب وأوليفير وهي محاولات كانت تهدف في الدرجة الأولى إلى ضرب النفوذ البريطاني عن طريق صداقة فرنسا للأمراء العرب في الخليج والجزيرة العربية وقد تعدى تلك الصداقة إلى حكام الدول المحيطة بتلك المناطق، ولفتت تلك المحاولات نظر بريطانيا التي تدبر بالشئ الكثير إلى الخيال والسلي الذي بدأ يتخذ خطوات إيجابية لتأمين سيادة بريطانيا في الهند والطرق الموصلة إليها وذلك منذ أن بدأ تسلمه لزام الأمور كحاكم عام للهند في أبريل ١٧٩٨. وكان النشاط الفرنسي في مسقط من أهم الدوافع التي دفعته للعمل على عرقلة خطط بونايرت والتي كان يرمى من ورائها الوصول إلى الهند عن طريق مصادقته للأمراء العرب في سواحل الخليج والجزيرة العربية وسواحل الهند وقد حازت الشبهات حين قام حاكم جزيرة فرنسا بزيارة إلى مسقط في ذلك العام (٢). وكان ذلك مما دفع ولسلي إلى إصدار تعليماته إلى ميرزا مهدي علي خان وهو موظف فارسي كان يعمل في شركة الهند الشرقية البريطانية لكي يعقد اتفاقية مع السيد سلطان بن أحمد سلطان مسقط وقد فوضه ولسلي بعقد هذه الاتفاقية بعد أن أصدر مرسوما بتعيينه مقيما سياسيا في بوشهر من قبل حكومة الهند (٣). وفي سبتمبر ١٧٩٨ أصدر ولسلي تعليماته إلى ميرزا مهدي لكي يتوجه إلى مسقط وهو في طريقه لاستلام منصبه الجديد في بوشهر وكان من أهم التعليمات التي زود بها أن يتأكد من السلطان شخصيا عما إذا كان على استعداد لابعاد الفرنسيين والهولنديين من

(١) Bombay Government, Selection from the Records
VOL XXIV P. 23.

Wilson Arnold, The Persian Gulf P, 232.

(٢)

بلاده وأن يستطلع رأيه في امكانية قيام شركة الهند الشرقية البريطانية
بانشاء وكالة لها في مسقط كما كلف أيضا بأن يضع تقريراً مفصلاً عن مقدار
الثقة التي يمكن أن توليها حكومة الهند لوكيل الشركة الوطنى في مسقط
الذى لم يكن فوق مستوى الشبهات، على أن أهم ما كلف به ميرزا مهدي على
خان هو أن يقدم وعداً للسلطان بأنه فيما لو تعهد لحكومة بومباى بطرد
الفرنسيين من خدمته فسوف تبعث له حكومه بومباى بجراح يكون تحت
نصره بدلاً من جراحه الفرنسى^(١). وكانت هذه التعليمات هى الأساس
التي بنى عليها ميرزا مهدي على خان الاتفاقية أو القولنامه التي عقدها مع
سلطان بن أحمد والتي وقعت في ١٢ أكتوبر ١٧٩٨، ويعتبر توقيع تلك
الاتفاقية من قبل سلطان مسقط نجاحاً كبيراً لمهمة ميرزا مهدي^(٢). ولا شك
أن نجاح الأخير في مهمته يرجع في الدرجة الأولى أن وصوله إلى مسقط
تصادف مع الاحتلال الفرنسى لمصر، وكما هو معروف أن الحملة الفرنسية
على مصر ولدت موجات عنيفة من الاستياء ضد الفرنسيين في العالم الإسلامى
ولا شك أن الدعاية البريطانية ضد الحملة الفرنسية كانت مسؤولة إلى حد
كبير عن إثارة استياء المسلمين حين أدخلت في روعهم أن فرنسا تعمل
على إذلال المسلمين والسيطرة على بلادهم تحقيقاً لمآربها.

وقد يكون من الأهمية أن نقف على أهم بنود اتفاقية ١٧٩٨ التي تتكون
من سبعة مواد اختصت المادتان الأوليتان منها بالتأكيد على ارساء علاقات
الود والصداقة بين شركة الهند الشرقية البريطانية وحكومة مسقط في حين
اختصت المواد الأخرى بوضع قيود من شأنها عرقلة النفوذ الفرنسى في مسقط

Ruete, R. S, Op. cit P. 112.

(١)

(٢) بعد نجاح مهمة ميرزا مهدي على خان في مسقط ذهب إلى فارس واستطاع أن يقنع
الشاه بضرورة طرد الفرنسيين من بلاده بعد أن أكد له أنهم يعملون على قلب الحكومات
والأديان ووعد الشاه أن يساعده الانجليز ضد الفرنسيين انظر :

Sykes, P., op. cit. P. 397 vol. II see also Adamiyat
F. Bahrein Islands P. 42 New York 1955.

إذ تعهد السلطان بأن يطرد الفرنسيين وال هولنديين من خدمته^(١)، ويمنع الفرنسيين من تأسيس أو إقامة أية مراكز لهم في بلاده أو الممتلكات التابعة له، وكذلك يمنع السفن الفرنسية من دخول موانئه بينما يسمح بذلك للسفن الإنجليزية كما تعهد بمقتضى المادة الخامسة من الاتفاقية بأن يقف إلى جانب السفن الإنجليزية إذا ما نشب صراع بينها وبين السفن الفرنسية في مياهه أما في خارج تلك المياه فليس هناك ما يلزمه بالوقوف إلى جانب السفن الإنجليزية. ولعل أهم ما نصت عليه الاتفاقية هو إطلاقها المجال للإنشاء وكالة تجارية في بندر عباس وكان ذلك الميناء تابعا لسلطنة مسقط حيث أقرت لهم الاتفاقية أن يقوموا بإعدادها وتجهيزها وإبقاء حماية عسكرية بها تتألف من سبعائة أو ثمانمائة جندي. ولعل ما يستلفت النظر أن السلطان رفض رفضا قاطعا السماح بإقامة مركز بريطاني في مسقط بحجة أن ذلك سوف يورطه في حرب مع الفرنسيين وال هولنديين وعلى الرغم من أنه قد وافق في البداية على تعيين معتمد سياسي بريطاني في مسقط إلا أنه عاد فسمح تلك الموافقة^(٢). كذلك تراجع السلطان عن تنفيذ النص الذي كان يقضى بتأسيس وكالة بريطانية للإنجليز في بندر عباس رغم أنه كان يشكل بندا رئيسيا من بنود اتفاقية ١٧٩٨. ومع ذلك فإنه يتضح من نصوص هذه الاتفاقية أنها استهدفت مجموعة من الأهداف السياسية من بينها عرقلة النشاط الفرنسي ووضع أسس للمصالح البريطانية في مسقط وتوثيق العلاقات الإنجليزية معها بسبب أهميتها للمواصلات البريطانية إلى الهند. كما كانت الاتفاقية في نفس الوقت بمثابة رد من جانب بريطانيا على النشاط الفرنسي المتزايد في سلطنة مسقط، ولذلك فإنها أفسحت المجال أمام بريطانيا في النواحي السياسية والتجارية والعسكرية ليس في سلطنة مسقط فحسب وإنما في منطقة الخليج العربي برمتها حيث أن الموقع الجغرافي لمسقط

(١) من الملاحظ أن هولندا كانت تابعة لفرنسا في ذلك الوقت.

(٢) ولسن أرنولد: مرجع سبق ذكره ص ١٦٩.

كان يسمح لبريطانيا بالارتكاز عليها لمواصلة نشاطها في الخليج العربي^(١).

على أنه مما تجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من أن هذه الاتفاقية كانت تعد بمثابة ضربة صريحة وجهت للمصالح الفرنسية في بحار الشرق إلا أنها لم تكن بونابرت عن تحقيق الأهداف التي كان يسعى إلى تحقيقها وخاصة أن فكرة مهاجمة الهند كانت هي أساس حملته على مصر ولذلك حاول بونابرت أن يستميل إليه سلطان مسقط ويذكره بالصدقة الفرنسية التقليدية ويستدل من مراسلات نابليون أنه كتب رسالة من القاهرة في يناير ١٧٩٩ إلى سلطان مسقط جاء فيها « أكتب إليكم هذه الرسالة لأخبركم بالذي لا شك أنه قد نمي إلى علمكم وهو وصول الجيش الفرنسي إلى مصر وبمسا أنكم كنتم صديقاً مخلصاً في مختلف الظروف والأحوال فإنني أود أن تكونوا مقتنعين تماماً بأنني أود توفير الحماية اللازمة لأغراض التجارة وأرجو منكم كذلك أن تنقلوا نص هذا الخطاب إلى تيبو صاحب في أول فرصة يمكنكم أن تتصلوا به في الهند. » ويستدل من الفقرة الأخيرة من الرسالة أن بونابرت كان يحاول استغلال فرصة العلاقات التجارية بين مسقط وسلطنة ميسور إذ كان عرب مسقط يقومون بالوساطة التجارية بين جزيرة فرنسا والهند وكان تيبو صاحب سلطان ميسور يعد واحداً من أبرز الحكام المسلمين الذي كان يعتمد عليه الفرنسيون بهدف تحطيم السيطرة الانجليزية في الهند^(٢). وكان تيبو صاحب قد بادر بإرسال مبعوث من قبله إلى بورت لوى عاصمة جزيرة فرنسا أثناء وجود بونابرت في مصر بهدف عقد تحالف مع الفرنسيين ضد الانجليز^(٣)، وكان بونابرت يأمل في أن يتولى تجار مسقط تسليم رسالة

Aitchison., C. A Collection of Treaties, Engagements (١) and Sands relating to India and Neighbouring Countries vol. XII pp. 207—208 Calcutta 1909.

CF Correspondence de Napoleon Tome III P. 361. (٢)

عن الوثائق السعودية ج ١ ص ١١٢ .

Dennis, Alfred, Eastern Problem at the close of 18th (٣) century P. 209 Cambridge 1901.

See also Coupland, op, cit. P. 88.

إلى تيبو صاحب خلال عملياتهم التجارية مع سلطنة ميسور .

وقد جاء في رسالة بونايرت إلى تيبو صاحب « الآن وقد بلغك نبأ وصولي إلى سواحل البحر الأحمر على رأس جيش جرار لا يغلب أود به تخليصك من قبضة الانجليز وأود أن أعرف الوضع الذي أنت عليه كما أرجو أن تبعث إلى السويس برجال ذوى اقتدار للمداولة معهم^(١) » على أن وكلاء شركة الهند الشرقية البريطانية كانوا متبهمين إلى كل التحركات التي كان يقوم بها بونايرت في مصر ولذلك بادروا بمصادرة رسائل بونايرت في ميناء محقق قبل وصولها إلى أصحابها وأرسلت تلك الخطابات إلى بومباي مما جدد الشكوك حول انتهاك سلطنة مسقط للاتفاقية التي وقعها مع الانجليز خاصة وأن سلطان مسقط كان لا يزال يستخدم الفرنسيين في بلاده وبالإضافة إلى ذلك فقد ثبت لدى الانجليز أن سلطان مسقط كان يتبادل الرسائل مع تيبو صاحب سلطان ميسور الذي كان قائماً بالثورة ضد الانجليز كما كشف الانجليز تحركاً فرنسياً في البنغال، وتأكد للانجليز أن الفرنسيين كانوا يساعدون حاكم أفغانستان مع عدداً من الشخصيات الهامة في مسقط من بينهم خلفان بن محمد والى مسقط وكان الفرنسيون يستهدفون من وراء هذه التحركات الإطاحة بالحكم البريطاني في الهند^(٢) . على أن تلك التحركات لم تحقق نجاحاً يذكر ففي عام ١٧٩٩ تم إخضاع الانجليز لسلطنة ميسور وتم لهم القبض على تيبو صاحب واعدامه^(٣) ، كما حطم الانجليز الأسطول الفرنسي في أبوقير وأصبحت الحملة الفرنسية حبيسة في مصر ولم يكتف الانجليز بذلك بل أخذ نفوذهم يتجه إلى سواحل عدن وجنوب الجزيرة العربية

(١) Correspondance de Napoleon Tome III P. 361.

من الوثائق السعودية ج ١ ص ١١٢ .

(٢) The Imperial Gazetteer of India—The Indian Empire
vol. I P. 490 Oxford 490.

حيث وقعت بريطانيا في عام ١٨٠٣ معاهدة مع سلطان لحج كانت تشكل الحلقة الأولى في سلسلة المعاهدات التي عقدها بريطانيا مع مشيخات الجنوب العربي^(١). كذلك اهتمت حكومة بومباي باعطاء فاعلية أكثر لاتفاقية ١٧٩٨ التي سبق أن أبرمتها مع سلطنة مسقط وخاصة بعد أن اتضح لها أن الفرنسيين لم يأبوا بها وحاولوا أن ينفذوا من خلال شروطها التي أصبحت غير سارية المفعول. ويتضح من سجلات حكومة بومباي لعام ١٧٩٩، ومن الرسائل المتبادلة بين دنكان وسلطان بن أحمد أن حكومة بومباي كانت توجه اللوم الشديد لسلطان مسقط وأن الأخير كان يدافع عن مسلكه غير الودي تجاه الإنجليز ويفهم من هذه المراسلات أن سلطان مسقط كان على استعداد للإذعان للإنجليز وكان دنكان قد اتهم السلطان بعدم تسليمه أموال تيبو صاحب المودعة في مسقط وتعمره تهريبها بالإضافة إلى سوء مسلكه تجاه الأدميرال بلانكت Blanket الذي مر على زنجبار في طريقه إلى البحر الأحمر، وكانت زنجبار في ذلك الوقت من ملحقات سلطنة مسقط والأهم من ذلك استمراره في علاقاته التجارية مع جزيرة موريس وشراء السفن الانجليزية التي كان قد استولى عليها الفرنسيون وتغاضيه عن اتخاذ الفرنسيين ميناء مسقط قاعدة لعملياتهم البحرية ضد الإنجليز^(٢).

وعلى الرغم من أن سلطان بن أحمد حاول تسوية هذه المشكلات بينه وبين الإنجليز وذلك بخلع حاكم زنجبار وإحلال آخر بدلا منه إلا أنه في نفس الوقت أبدى تردداً في قطع العلاقات التجارية بينه وبين جزيرة موريس ورأى في ذلك أمر يصعب تنفيذه لأنه سيلحق الضرر باتباعه ولذلك وجدت حكومة بومباي أنه من الأنسب أن تلجأ إلى الضغط السياسي على سلطان مسقط وذلك بتأكيد اتفاقية ١٧٩٨ بما فيها من شروط، وكان الدافع إلى ذلك ما ترامي إلى حكومة بومباي من إرسال بونايرت أحد أقاربه إلى جزيرة فرنسا في عام ١٨٠٠ للتعرف على

Hoskins, British Routes to India P. 65 London 1900. (١)

Auzoux, op. cit. P. 27. (٢)

مدى صلة الانجليز بالأمراء العرب والمسلمين . وقد وقع اختيار حكومة بومباي على جون مالكولم ليقوم بهذه المهمة وذلك ضمن مهمته الكبيرة التي قصدها فارس في الدرجة الأولى^(١) .

بعثة جون مالكولم

كان الهدف من هذه البعثة عقد معاهدة سياسية وتجارية مع فتح على نغان شاه فارس إذ ظل الحاكم في الهند اللورد مورنجتون Mornington يبدى شكوكه في احتمال محاولة الفرنسيين غزو الهند عن طريق فارس ولذلك عهد إلى جون مالكولم بمهمة عقد هذه المعاهدة وكان جون مالكولم من الضباط البارزين في حكومة بومباي وقادر له أن يلعب دورا كبيرا في العلاقات الإنجليزية الفارسية في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر^(٢) وعرف فيما بعد بالسير جون مالكولم حين وصل إلى منصب حاكم بومباي . وفي طريقه إلى فارس عرج مالكولم على مسقط حيث التقى بسلاطنها في موقع بين جزيرة هنجام وقشم وفي هذا اللقاء أوضح مالكولم لسلطان بن أحمد تطور الأحداث في الهند وأن الإنجليز أصبحت لهم الكلمة هناك خاصة بعد إخمادهم لثورة ميسور وقتلهم تيبو صاحب كما أوضح جون مالكولم لسلطان خطورة تماديه في علاقاته مع الفرنسيين في الوقت الذي أصبح فيه الإنجليز سادة الموقف وأنهم يسيطرون على جميع الموانئ التي تمر بها تجارة السلطنة ولما كانت مسقط تعتمد اعتماداً كبيراً على التجارة الخارجية فإذا يفعل سلطان مسقط على حد تساؤل مالكولم إذا ما منعت بريطانيا سفن مسقط من الدخول إلى تلك الموانئ أو ماذا يكون مصير تجارتها في حالة إغلاق موانئ الهند أمامها ؟ . وأكد مالكولم أنه لا يمكن الإجابة على كل هذه التساؤلات إلا بالاعتراف

(١) عبد الفتاح إبراهيم : على طريق الهند ص ٤٦ بغداد ١٩٣٥ .

(٢) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج ج ١ ص ٢٧٠ .

بأن رخاء مسقط يعتمد على رضا الإنجليز وصادقهم^(١). وبالإضافة إلى ذلك، فإن جون مالكولم عمد إلى إثارة شكوك السلطان ضد الفرنسيين مستغلاً العاطفة الدينية حين ذكر له أن فرنسا أمة خارجة على القانون تحددت جميع المعاهدات واستولت على مصر وأخذت تفرض نفوذها على الطرق المؤدية إلى الحرمين الشريفين وأولا أن الله قبض لبريطانيا النصر لاستولت فرنسا على المدن الإسلامية المقدسة وأزالت العقيدة الإسلامية من الوجود ! ولا شك أن الظروف قد ساعدت مالكولم إذ أن الحملة الفرنسية كانت تواجه مصيرها السيئ في مصر بعد أن دمر الأسطول الفرنسي في أبو قير. أما عن هولندا فقد خرجت من ميدان الصراع واكتفت بتركيز نفوذها في باتافيا في جزر الهند الشرقية. وقد اقترح جون مالكولم على سلطان بن أحمد التوقيع على اتفاقية جديدة تنص على تأكيد البنود التي سبق أن نصت عليها اتفاقية ١٧٩٨^(٢).

وقد أكد مالكولم في رسالة بعث بها إلى مورنجتون أنه على الرغم من أنه لم تكن لديه تعليقات خاصة بعقد إتفاقية جديدة إلا أنه رأى أنه بهذا العمل يمكن أن يلتقى مع رغبات وأهداف حكومة بومباي خاصة وأنه علم بأن سلطان مسقط كان ولا يزال في خدمته خمسة أو ستة من الموظفين الفرنسيين وأنه سيصرفهم جميعاً من خدمته حال عودته إلى مسقط وإن كان هذا الإجراء قد يوقعه في ضيق شديد إذا لم تزوده حكومة بومباي بثمانية أو عشرة رجال من مدفعية بومباي. على أن أهم نتيجة توصل إليها مالكولم هي أنه أخذ موافقه صريحاً من السلطان على استقبال وكيل بريطاني في مسقط تم عن طريقه جميع

(١) Kaye—John. The Life and Correspondence of Sir John Malcolm vol. I P. 103.

(٢) Bombay Government, op, cit. CF. Historical Sketch of the Rise and Progress of The Govt. of Muscat 1693—1819.

الاتصالات بين مسقط وحكومة الهند . وهكذا حل وكيل من حكومة بومباي محل وكيل الشركة الوطنية وسارع مالكون بتعيين أحد مرافقيه ليشغل هذا المنصب الجديد وهو الليفتاننت أرشيبالد بوجل Bogle وكان من الجراحين العاملين في حكومة بومباي ومما يذكر أنه سبق لدنكان أن اقترح في عام ١٧٩٨ على سلطان مسقط أن يطرد طبيبه الفرنسي على أن يزوده بطبيب إنجليزي ولكن السلطان اعتذر لدنكان عن عدم إمكانية تنفيذ اقتراحه في ذلك الوقت ويعلق جون كاي على اختيار طبيب للقيام بوكاله بريطانيا في مسقط بقوله « إن هناك بابان جانبيان في الشرق يمكن أن تطرقهما الدبلوماسية الإنجليزية أولهما التجارة وثانيهما الطب ونحن مدينون بامبراطوريتنا الهندية لهما بالتأكيد » (١)

ومما يسترعى الانتباه في هذه الاتفاقية أنها كانت أولى الاتفاقيات التي لم تحدد صراحه وقتاً لانتهائها وسوف تتبع بريطانيا فيما بعد هذا النمط من المعاهدات في علاقاتها بالإمارات العربية في الخليج العربي وهي المعاهدات التي يمكن أن نطلق عليها اسم المعاهدات الأبدية Eternity Treaties حيث ورد في نص اتفاقية ١٨٠٠ أن تستمر علاقات الصداقة قائمة بين مسقط وبريطانيا إلى أن تتوقف دورة الشمس والقمرة في الفلك (٢) وعلى الرغم من الفترة القصيرة التي بقي فيها بوجل في مسقط ، إذ أنه توفي في أواخر عام ١٨٠٠ بسبب قسوة المناخ ، إلا أنه خلال الأشهر القليلة التي قضاها استطاع أن يحدث تحولا كبيرا في سياسة ساطان بن احمد تجاه الفرنسيين وقد ذكر بوجل في رسالة بعث بها إلى حكومة بومباي في ٢٩ فبراير ١٨٠٠ إنه في خلال

Kaye (John), op. cit. vol. I P, 106. (١)

Curzon. G. Persia and the Persian Question vol. II (٢)
P. 436 London 1892.

تردده اليومي على السلطان سره أن يسمع منه تكرار رضائه عن إقامة علاقات ودية مع الانجليز وأكد بوجل في رسالته أن علاقة السلطان أصبحت وثيقة بالانجليز ، وازدادت كراهيته للفرنسيين بنفس الدرجة وذلك بسبب المعاملة السيئة التي كان يلقاها من الفرنسيين في استيلائهم على السفن التابعة له بالإضافة إلى الغطرسه والكبرياء التي كان يجدها في بعض من كانوا في خدمته من الفرنسيين .

وفي الوقت الذي كان فيه بوجل في مسقط كان جون مالكولم يبذل مساعيه لإيجاد روابط تجارية وسياسية في فارس بهدف الوقوف بصلاية ضد خطط بونايرت في الشرق إذ كان من أبرز أهداف بعثة مالكولم القضاء على أية خطط يمكن أن تتخذها فرنسا لإزاء فارس فضلاً عن اتخاذ الخطوات الفعالة لإنقاذ الهند من الخطر الذي يمكن أن يهددها إذا ماتعرضت لغزو أفغان من الشمال ، ومما هو جدير بالذكر أن حكومة الهند أنفقت أموالاً طائلة لانجاح تلك البعثة^(١) وكما يذكر واطسون Watson أن مالكولم قدم هدايا كثيرة من الجواهر واللاي إلى البلاط الفارسي^(٢) . كما يعتبر كثير من الباحثين أن هذه البعثة تعد بداية لظهور المسألة الفارسية في التاريخ الحديث^(٢) .

وصالت بعثة مالكولم إلى فارس في نوفمبر ١٨٠٠ بعد انتهاء مهمتها في مسقط وحاول مالكولم أن يحصل من الشاه على مركز في الساحل الشرقي للخليج ليكون بمثابة قاعدة عسكرية لحماية المصالح التجارية للانجليز . ومن المعروف أن مالكولم أثناء عمله بحكومة بومباي كان قد وضع تقريراً عن الخليج العربي في عام ١٧٩٩ أبرز فيه أهميته التجارية والسياسية والاقتصادية .

(١) Watson, Robert, History of Persia from the beginning of the 19th century to the year 1858 P. 127 London 1866.

Dennis, op. cit. P. 212. See also Sykes, op. cit. P. 109 (٢)

(م ١٣ - الخليج العربي)

وعلى الرغم من أن مالكولم فشل في الحصول على فرمان من الشاه يسمح للإنجليز بإقامة هذه القاعدة إلا أنه نجح في توقيع اتفاقيتين مع الشاه إحداهما تجارية والأخرى سياسية ، وقد نصت الاتفاقية الأولى على منح الإنجليز امتياز إنشاء وكالات تجارية في المقاطعات الفارسية في حين نصت الاتفاقية السياسية التي وقعت في يناير ١٨٠١ على قيام تحالف فارسي بريطاني ضد أية قوة تهدد الهند وفضلا عن ذلك فقد نجح مالكولم في استصدار فرمان من الشاه يأمر فيه حكام المقاطعات والجزر والموانئ الفارسية بطرد الفرنسيين وعدم السماح لهم بالتوغل في المناطق التابعة لفارس^(١). وعلى الرغم مما كان متوقعا أن يسود النفوذ الإنجليزي في فارس والخليج العربي في أعقاب بعثة مالكولم إلا أنه مما يستلفت النظر أن العشر سنوات التالية لبعثة مالكولم تميزت باضطراب موقف الإنجليز ولعل ذلك يرجع في الدرجة الأولى إلى محاولة فرنسا بعث نشاطها في الشرق وترتبط هذه السنوات العشر بالجهود التي قام بها نابليون بونابرت بعد ظهوره على مسرح السياسة الفرنسية وكان على بريطانيا أن تواصل جهودها الدبلوماسية لكي تواجه هذا النشاط ومن ثم استمرت مسقط وفارس رغم الجهود البريطانية السابق إشارتنا إليها ، تشكلان البورتين الرئيسيتين للتنافس الإنجليزي الفرنسي خلال العشرة سنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي^(٢).

ومما يستلفت النظر أن سلطنة مسقط رغم ارتباطها باتفاقيتي ١٧٩٨ و ١٨٠٠ مع بريطانيا إلا أنها ظلت قلقة في علاقتها بين إنجلترا وفرنسا وكانت سياسة حكامها تتغير على حسب قوة إحدى الدولتين أو ضعفها^(٣)، ومن ناحية أخرى كانت مسقط تتطلع في ذلك الوقت إلى مساعدات خارجية كي تواجه المشكلات

Adamyat, F., op. cit. P. 47.

(١)

Watson, R. G. op. cit. P. 127.

(٢)

(٣) راجع الفصل الخامس والسادس من كتابنا دولة بو سعيد في عمان وشرق أفريقيا اللذين اعتمدنا عليهما في دراسة موقف سلطنة مسقط من التنافس الإنجليزي الفرنسي مع رأي أدناه من إضافات أخرى.

الداخلية التي كانت تتعرض لها وخاصة إبان الغزوات الوهابية التي كانت تتعرض لها ولما كان الانجليز حريصين في ذلك الوقت على عدم التدخل في المشكلات الداخلية فضلاً عن إحجامهم عن تقديم أية مساعدة لسلطان مسقط في محاولته السيطرة على جزر البحرين؛ فقد كان هذا من شأنه أن يعود بالسلطان إلى استئناف علاقاته التقليدية مع الفرنسيين الذين رحبوا بمساعدته وقدموا له العون في هجوم قام به على جزر البحرين في عام ١٨٠١^(١)، كما استقبل سلطان بن أحمد في أواخر عام ١٨٠١ أحد مبعوثي الحكومة الفرنسية دي ساتوفيل وأبقاه في عاصمته قرابة خمسة عشر شهراً رغم القيود التي تضمنتها اتفاقيتي ١٧٩٨ و ١٨٠٠؛ وقد روى ساتوفيل بنفسه المعاملة الحسنة التي لقيها من السلطان بقوله « عوملت أثناء إقامتي بمسقط معاملة ممتازة ودفعت عني جميع نفقاتي »^(٢) ولعل ذلك النشاط الذي قام به الفرنسيون في مسقط كان دافعاً لمهدى على خان المقيم البريطاني في بوشهر لزيارة مسقط حيث أوضح للسلطان خطورة قيام علاقة بينه وبين الفرنسيين وأنه يجب أن ينظر إلى صداقة الانجليز باعتبارها الروح التي تنفس بها مسقط وتعيش وأن يهرب من الصداقة الفرنسية كما يهرب من الوباء !^(٣) . وفيما يبدو أن مهدى على خان كان يائساً من تحول سلطان مسقط إلى الانجليز الأمر الذي جعله يقترح على الحاكم البريطاني العام في الهند بأن تقوم حكومة بومباي بمهاجمة مسقط وضمها إلى الممتلكات الفارسية على أن يقوم الانجليز بعد ذلك باستئجارها من الشاه على أن ذلك الاقتراح لم يوضع موضع التنفيذ في الوقت الذي لم يقدر فيه النجاح أيضاً لحملة عسكرية قام بها ولسلي في عام ١٨٠١ لانتزاع جزيرة فرنسا وضمها إلى الممتلكات البريطانية في الهند^(٤) .

Coupland, R. op. cit. P. 102. (١)

(٢) وثائق الحكومة السعودية - مصدر سبق ذكره ج ١ ص ١١٥ .

(٣) نفسه ج ١ ص ١١٦ .

Coupland, op. cit. P. 99. (٤)

ولعل مما يسترعى الانتباه أن اخفاق بونايرت العسكرية في مصر لم يشنه عن موالاة السعى لتحقيق أهدافه وقد سبق الإشارة إلى أن فرنسا عملت على استرجاع صداقتها لمسقط إذ قدم ماجالون حاكم جزيرة فرنسا في عام ١٨٠١ مساعدات عسكرية لسلطان بن أحمد لضم جزر البحرين إلى حكمه^(١) وكتب سلطان بن أحمد إلى ماجالون يعرب عن اغتباطه بهذه المساعدات بقوله « إنه من المتعذر علينا أن نعرب لكم عن اغتباطنا بوصول القوات التي كان من فضلكم إرسالها إلينا وقد استقبلناها بذراعين مفتوحين وسنحرص دائماً على أن نعتبرهم اخوة وأصدقاء لنا ونحن وخلفاؤنا مدينون لكم بها إلى أبعد حد مستطاع »^(٢) ؛ ويتضح من هذه الرسالة أن سلطنة مسقط أخذت تسرف في علاقاتها بالفرنسيين ووصل الأمر إلى أن أرسل سلطان بن أحمد مبعوثاً من قبله إلى جزيرة فرنسا في عام ١٨٠٣ تقابل مع ماجالون وأعرب له عن استياء سلطان مسقط من الانجليز وأنه يطالب بوضع مسقط تحت حماية الجمهورية الفرنسية، وأرسل سلطان بن أحمد مع مبعوثه بعض الهدايا ومنها مجموعة من الجياد العربية الأصيلة لكي يبعث بها ماجالون إلى بونايرت^(٣) ؛ وقد بادر ماجالون على أثر تلك الزيارة بالكتابة إلى وزير الخارجية الفرنسي يؤكد له أن حاكم مسقط يسعى إلى الظفر بصداقة الجمهورية وحمايتها وأن لديه أسباباً كثيرة للشكوى من مضايقات الانجليز ؛ وفي رسالة أخرى أكد ماجالون أن حاكم مسقط أعرب له عن استعداده لاستقبال وكيل من قبل الحكومة الفرنسية وأنه سيعتبر أعداء الجمهورية أعداء له^(٤) . ومما لاشك فيه أن فرنسا في هذه الفترة كانت تركز على أهمية مسقط حتى أن تاليران وزير الخارجية الفرنسية أكد في أحد تقاريره إلى بونايرت في عام ١٨٠٣ على هذه الأهمية بقوله إن الإمام الذي يحكمها يمتد سلطانه إلى بعض المناطق الواقعة على ساحل موزمبيق وإنه مستقل من جميع الوجوه .

(١) Coupland, op. cit. P. 102.

(٢) وثائق الحكو / السعودية : مصدر سبق ذكره ص ١١٦ .

(٣) Coupland, R. op. cit. P. 102.

(٤) Ibid. P. 103.

ويمكن تعليل الاتصالات التي دارت بين مسقط وفرنسا بأنها كانت من نتائج النشاط المتزايد الذي كان يقوم به الفرنسيون لاستعادة مكانتهم في الشرق والذي ظهر في إرسالهم البعثات المختلفة إلى مسقط مما ترك الفرصة أمام سلاطنتها لاستئناف علاقاتهم بالفرنسيين؛ وبذلك لم يعد لاتفاقيتي ١٧٩٨ و ١٨٠٠ أى أثر في عزل مسقط عن فرنسا وإنما عادت علاقات الصداقة بينهما ووصلت تلك العلاقات أوجها بين عامي ١٨٠١ و ١٨٠٣ وكان ذلك بفضل تاليران الذي أوفد بعثة إلى مسقط برئاسة دي كافينياك ومما هو جدير بالملاحظة أن إرسال تلك البعثة كان يرتبط بعقد صلح إميان Amiens بين إنجلترا وفرنسا في عام ١٨٠٢؛ إذ أنه نتيجة لذلك الصلح خففت الرقابة البريطانية على موانئ المحيط الهندي ولذلك قررت فرنسا في يونيو ١٨٠٢ تعيين كافينياك ممثلاً وقنصلاً لفرنسا في مسقط وفي أكتوبر ١٨٠٣ وصل كافينياك من جزيرة موريس إلى مسقط وكان واضحاً على أنه يعتزم الإقامة الكاملة^(١). ولكنه ما كاد يصل إلى مقر عمله في مسقط حتى اشتعلت الحرب من جديد بين إنجلترا وفرنسا وحينما بلغ ذلك السلطان تراجع عن استقبال كافينياك واتخذ السلطان هذا الموقف رغم تهديدات قائد السفينة اطلنطا التي حمات كافينياك من جزيرة موريس إلى مسقط ولكن ديكان الحاكم العام لجزيرة موريس مرعان ما تراجع عن تصعيد هذه الأزمة مؤكداً أن ما تتحمله فرنسا من منازع لم ينفذ احترام وهيبة مثل لها في مسقط لا يساوي تأسيس قنصلية لها هناك^(٢). وفيما يبدو أن كافينياك حين عاد إلى جزيرة موريس كان هو السبب في وصول ديكان إلى هذا القرار حين أكد له أن مسقط بلد فقير لا تشكل أية أهمية سياسية أو اقتصادية ولا فرق بين سلاطنتها وبين سائر شيوخ القبائل العربية؛ والفائدة الوحيدة التي يمكن أن تحصل عليها فرنسا من وراء إقامة تمثيل بها هي تسهيل خدمات البريد بين المحيط الهندي وأوروبا وحتى هذه الخطوة لافائدة منها طالما كان الانجليز

(١) هول : مرجع سبق ذكره ص ٤٦ / ٤٧ .

(٢) صادق نشأت : مرجع سبق ذكره ص ١٠١ / ١٠٢ .

يضعون الملاحة في الخليج تحت رقابتهم ولذلك فإن كل ما تستحقه مسقط لا يتعدى تعيين وكيل تجارى بها من أقل الدرجات .

وليس من شك في أن سلطان مسقط كان واقعيا في رفضه استقبال كافينياك وذلك لتقديره قوة الانجليز^(١) . وعلى الرغم من أن كافينياك لقي استقبالا حاراً من تجار مسقط إلا أن محمد بن خافان حاكم ميناء مسقط اعتذر لكافينياك بأنه لا يملك سلطة استقبال مفوض خارجي وإن كان قد وعده بأن ينجز السلطان لدى عودته إلى مسقط حيث كان في ذلك الوقت خارج مسقط بسبب غزو وهابي تعرضت له أطراف بلاده . ولعل السلطان كان يرى أن مصلحته تحتم عليه الاعتماد على بريطانيا بسبب تأزم العلاقات بينه وبين الوهابيين وعتوب البحرين والقواسم وبالتالي لم يكن مستعدا للتضحية بالمساعدات البريطانية المتوقعة لقاء تودده للفرنسيين^(٢) . ولعل ذلك مما دفع حاكم ميناء مسقط أن يذكر لكافينياك صراحة بأنه كان يثمن وصوله في فترة سلام حتى يستقبله السلطان بارتياح وشوق « غير أن الانجليز ولا شك سوف ينضبون على سيدي لو سمح لك أن تجيء بعد إعلان الحرب فإن لدينا عشرين سفينة كبيرة في موانئهم في البنغال وعلى ساحل ملبار وليس ثمة ريب في أنه سيتم الاستيلاء عليها حالما يتلقون التعليمات » . ويذكر ويلسن أن الانجليز هددوا السلطان بفرض حصار على موانئه^(٣) . ورغم ذلك الحوار القاسي الذي دار بين الطرفين إلا أن محمد بن خافان ألمح لكافينياك أنه على استعداد لكي يتباحث معه في الشؤون التجارية فقط لأن الاتفاقيات التي أبرمها السلطان مع بريطانيا تحتم عليه ألا يقبل تمثيل فرنسي في بلاده . وهكذا كان مقررا لبعثة كافينياك ألا تجد لها نصيبا من النجاح وانسحبت البعثة على الفور

Coupland, R. op. cit. P. 103. (١)

Guillain, C. op. cit. Tome I pp. 200—209. (٢)

Wilson, A. op. cit. pp. 232—233 (٣)

بعهد أن تحققت من الاتفاقيات التي عقدها مسقط مع بريطانيا في عامي ١٧٩٨ و ١٨٠٠^(١).

وعلى الرغم من أن الظروف الخارجية التي أوضاعها كانت سببا في فشل بعثة كافينياك إلا أن جيان يحمل الظروف الداخلية في مسقط مسؤولية ذلك الفشل ويذكر بصدد ذلك أن نجاح سلطان بن أحمد في السيطرة على حكم الساحل وابعاده لخلفاء بن محمد وتعيين ابنه محمد بن خلفان في حكم ميناء مسقط كان هو المسئول عن تدهور علاقة مسقط بفرنسا إذ لم يكن لمحمد بن خلفان ما كان لأبيه من نشاط سياسي ومهارة تجارية مع فرنسا والذي كان يرجع إليه الفضل أيضا في ازدهار العلاقات التجارية بين مسقط وجزيرة موريس. وفي اعتقادنا أن الأمر لم يكن مجرد تعيين حاكم بدلا من حاكم آخر بقدر ما يرجع الأمر إلى تغير الظروف والأوضاع الخارجية ولعل ما يؤكد لنا ذلك أن سلطان بن أحمد كان قد تهادى أكثر من غيره في علاقته بالفرنسيين كما سبق أن أشرنا إذ أنه قبل منهم المساعدات العسكرية إبان تطلعه لضم جزر البحرين إلى حكمه ولذلك فلان فشل بعثة كافينياك يرجع سببها إلى حرمان سلطنة مسقط الابقاء على كياناتهم وذلك بانضمامهم إلى الدولة الأقوى التي يخشون منها على نفوذهم ؛ وكانت بريطانيا هي الدولة المتفوقة في المحيط الهندي أثناء قدوم كافينياك إلى مسقط وحين تغير وضع بريطانيا اضطر السيد سعيد بن سلطان الذي وصل إلى الحكم في عام ١٨٠٦ أن يقف موقفا مترددا بين الانجليز والفرنسيين حين بلغ النزاع بينهما أشده في ذلك الوقت ، ولما كان السيد سعيد في حاجة إلى تأييد قوة أجنبية يستعين بها في إقرار الأوضاع الداخلية في بلاده وتأمينها من الغزوات التي كانت كثيرا ما تتعرض لها فضلا عن محاولته تحقيق طموحه في السيطرة على بعض مناطق الخليج العربي فقد أخذ يعمل على الحصول على تأييد إحدى الدولتين المتصارعتين دون أن يثير عليه الدولة الأخرى ولكن

Guillain, op. cit. Tome I pp. 207—209.

(١)

فرنسا لم تكن مطمئنة إلى السيد سعيد بعد أن توطدت العلاقات بينها وبين عمه بدر بن سيف الذى اغتاله فى عام ١٨٠٦ وتمكن أن يسيطر على الحكم وكان بدر بن سيف قد أرسل إلى ديكان حاكم جزيرة فرنسا فى عام ١٨٠٥ يؤكد له إنه أكثر صداقة للفرنسيين وعبر عن ارتياحه لوصول السفن الفرنسية إلى موانئ مسقط للتزود بالمياه والمؤن^(١).

وقد أدت علاقة بدر الوثيقة بالفرنسيين إلى إثارة حكومة بومباى التى أسرعت بإيفاد الكابتن سيتون ليخلف بوجل كوكيل سياسى فى مسقط وعلى الرغم من أن سيتون واجه صعوبات شديدة نتيجة علاقة بدر بن سيف القوية بالفرنسيين إلا أنه استطاع أن يضع الحجر الأساسى للنفوذ البريطانى فى مسقط^(٢) ويعمل على تأكيد اتفاقيتى ١٧٩٨ و ١٨٠٠ وإن كان لم يمنح سوى دارا صغيرة لسكنائه لم يسمح له أن يرفع عليها علم بلاده^(٣). وهكذا عندما وصل السيد سعيد إلى الحكم كانت العلاقات مزدهرة بين مسقط وفرنسا وبالتالى كان من المنتظر أن تبادر فرنسا بمواجهته بالعداء لقتله صديقه بدر بن سيف ولكن سعيد بادر بالكتابة إلى ديكان حاكم جزيرة فرنسا ينبئه بوصوله إلى الحكم وعبر عن رغبته فى أن تظل علاقات الصداقة قائمة بينه وبين فرنسا^(٤). وحين تأزم الموقف بين إنجلترا وفرنسا أعلن حياده فى الصراع القائم بين الدولتين ومع ذلك فقد اضطر إلى إرغام إحدى السفن الفرنسية على الخروج من موانئ بلاده وهى السفينة الحربية Vigilant وكان ذلك امتثالا لطلب قائد السفينة الانجليزية التى حدثت بينها وبين السفينة الفرنسية بعض المناوشات^(٥). وأدى هذا الموقف إلى توتر

(١) Coupland R. op. cit. P. 110.

(٢) Auzoux. A. op. cit. P. 45.

(٣) وثائق الحكومة السعودية : التحكم لتسرية النزاع الاقامى بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية - عرض الحكومة السعودية ج ١ ص ١٢١ .

(٤) Auzoux, A., op. cit. p. 46.

(٥) Guillain, C. op. cit Tome I P. 211.

العلاقة بينه وبين الفرنسيين الأمر الذي دفع السيد سعيد إلى الكتابة إلى دنكان حاكم بومباي يعرض عليه تأكيد الصداقة بين مسقط وبريطانيا ولسكن دنكان أهل الرد عليه وربما كان ذلك بناء على تعليمات بارلو Barlow حاكم عام الهند الذي أدرك أن السيد سعيد يهدف إلى حماية بريطانيا له ومساعدتها له ضد الوهابيين وهي أمور لم تكن حكومة الهند تريد أن تقدم عليها لما يترتب عليها من إقحامها في منازعات داخلية مع أمراء الجزيرة العربية وبالإضافة إلى ذلك فإن وضع مسقط تحت الحماية البريطانية سيجعلها هدفا لحملات فرنسية مكثفة وكان من رأى حكومة الهند أن حياد مسقط يحميها من فرنسا ، وما دامت اتفاقيتا ١٧٩٨ و ١٨٠٠ قائمتين فإن ذلك سيمنع فرنسا من إقامة تمثيل سياسي في مسقط . ولعل هذا الموقف الذي وقفته حكومة الهند جعل السيد سعيد يعاود الاتصال بالفرنسيين فكتب إلى ديكان حاكم جزيرة فرنسا يذكره بالصداقة التقليدية بين فرنسا ومسقط وقدم له اعتذاره عن حادث السفينة فيميجيلانت وعزى ذلك إلى تحكم الإنجليز وتسلبهم وتبع ذلك بأن أرسل أحد أعوانه وهو ماجد بن خلفان إلى بورت لوى عاصمة جزيرة فرنسا لكي يتفاوض مع ديكان في إبرام معاهدة صداقة وسلام دائم لا ينقض بين مسقط والحكومة الفرنسية^(١) . ولعل مما يثير الانتباه أنه على الرغم من جرأة هذه الاتصالات إلا أنها لم تحدث أثرا معاكسا لدى الإنجليز ولعل ذلك يرجع إلى أن مجلس إدارة شركة الهند الشرقية البريطانية كان قد اتخذ قرارا في عام ١٨٠٧ بضغط المصروفات العسكرية وعدم الاستحواذ على أراض جديدة وعدم التورط في منازعات مع حكومات أخرى خارج نطاق الهند ولذلك اقتضت حكومة الهند حينما علمت بتحركات السيد سعيد مع الفرنسيين على إبلاغه بضرورة اتخاذ موقفا محايدا واحترام الاتفاقيات التي عقدها السلطنة مع حكومة الهند ولسكن ذلك لم يمنع السيد سعيد من أن يستقبل في يونية ١٨٠٧ وكيلا فرنسيا في مسقط ، بل تمادى أكثر

(١) Guillaing, ch. op. cit. CF. Relation du Voyage d'Exploration à la cote orientale d'Afrique, Tome I, P. 211 SQ.

من ذلك في توقيع معاهدة بينه وبين فرنسا في ١٥ يونيو ١٨٠٧ نصت على عودة علاقات الصداقة بين البالدين وأن تنال كل من الدولتين إزاء الأخرى شروط ومعاملة الدواة الأثر رعاية (١) وقد أكد ديكان في تقرير له إلى حكومة باريس أهمية عقد هذه المعاهدة وخاصة بعد أن دخلت الدانمرك الحرب مع الحلفاء وأصبحت كل الطرق البحرية التي تصل فرنسا بمستعمراتها في الهند، مغالقة وللملك فإنه يمكن الاستفادة من السفن المسقطية في القيام بتلك الاتصالات ولسكن الصعوبة التي اعترضت ديكان هي كيفية التصديق على هذه المعاهدة دون أن يكون بها نص يقضي بحرمان السفن المسقطية من الاتصال بالموانئ البريطانية في الهند إذ أن القوانين الفرنسية الخاصة بالحصار القسارى Blocus Continental كانت تحرم على الدول المحايدة وعلى حلفاء فرنسا الاتجار مع العدو بينما كانت المادة السادسة من معاهدة ١٨٠٧ بين فرنسا ومسقط تنص على أنه في استطاعة السفن المسقطية أن تلتقى مراسيها في موانئ الهند البريطانية بشرط أن تتوجه بعد خروجها من الميناء مباشرة إلى إحدى الموانئ التابعة لمسقط وليس لها الحق في الملاحة بين موانئ العدو وعلى الرغم من أن المادة الثالثة من معاهدة ١٨٠٧ كانت تحرم التجارة مع الانجاز إلا أنها تستثنى من ذلك تجارة القمح والحيول التي هي من أهم صادرات مسقط كما كانت تعطي للسفن الفرنسية حق تفتيش السفن المسقطية ووسيلة التحقق من هويتها . وعلى الرغم من أن هذه المعاهدة كانت تعد نصرا كبيرا للسياسة الفرنسية إلا أنه لم يتم المصادقة عليها بسبب مخالفتها للتشريعات التي أصدرها نابليون بين عامي ١٨٠٦ و ١٨٠٧ الخاصة بتطبيق الحصار الاقتصادي على بريطانيا . وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها ديكان لكي يقنع حكومته بأنه يجب عليها أن تستثنى بخار الشرف من تطبيق سياسة الحصار الاقتصادي حيث لا تتعادل قوى الدولتين المتصارعتين إلا أن

Kajare, Firouz : Le Sultanat d'Oman et la Question de (١)
Mascate P. 86.

للحكومة الفرنسية أصدرت على إيقاف سريان تلك المعاهدة وبالتالي لم يتم المصادقة عليها^(١).

والأمر الذي لاشك فيه أن السيد سعيد قد أيقن أنه أخطأ في اختيار فرنسا لتكون حايضة له ، وخاصة بعد أن فرضت حكومة الهند حصاراً بحرياً حول جزيرتي موريس والبوربون في عام ١٨٠٨ ولذلك عاود الكتابة إلى ديكان حاكم بومباي متخذاً خطاً بريطانياً واضحاً إذ جاء في الرسالة التي بعث بها إليه في أغسطس ١٨٠٧ « إنه بعون الله تعالى سأظل طالماً بقيت حياً ملتزماً وأميناً للمصادقة والارتباط الوثيق الذي يربط بيننا ووثقي بالله أن لا يحدث ما يعكر صفو هذه المصادقة . . إن ثرواتي وممتلكاتي اعتبرها ملككم كما أن كل المناطق الواقعة تحت سيطرتي اعتبرها خاصه بكم^(٢) » وهكذا استطاع جون مالكولم أن يصل مع السيد سعيد إلى نتائج ايجابية أكثر فعالية وذلك حينما وصل إلى مسقط في عام ١٨٠٨ لكي يتأكد من موقف السيد سعيد من قرار الحكومة الفارسية تسليم ميناء بندر عباس إلى الفرنسيين وكان ذلك الميناء تحت إدارة حكومة مسقط ولا يمكن تنفيذ هذا القرار من الناحية الفعلية إلا بالتزام مسقط به حيث أكد السيد سعيد لجون مالكولم إن كلا من بندر عباس وهرمز تحت سيطرته وأنه لن يسمح للفرنسيين ولا للفرس باستخدامهما كقواعد عسكرية .

وقد أخذت العلاقات البريطانية المسقطية تتخذ صبغة جديدة بعد استسلام ديكان للانجليز وتسليمهم جزيرة فرنسا في عام ١٨١٠^(٣)

Ruete. R.S. op. cit. P. 103.

(١)

(٢) صالح محمد العابد : مرجع سبق ذكره ص ٢٤٦ .

F.O. No. 67. The Persian Gulf P. 41 London 1920. (٣)

حيث تميزت تلك العلاقات بتبعية مسقط للنفوذ البريطاني . حقيقة أن فرنسا حاولت بعد استعادتها جزيرة البوربون في عام ١٨١٤ أن تستأنف علاقاتها بمسقط حيث عقدت مع السلطنة معاهدة ١٨١٧ ومعاهدة أخرى في عام ١٨٤٤ إلا أن هاتين المعاهدتين لم تتعديا كونهما معاهدات تجارية في الدرجة الأولى إذ أن مركز الثقل السياسي والعسكري كان قد تحول إلى بريطانيا في سلطنة مسقط وتوابعها في شرق إفريقيا منذ السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي^(١) .

الفصل الخامس

عمان وشرق إفريقيا

نجاح اليعاربة في فرض السيادة العمانية على شرق إفريقيا - الحركات الانفصالية عقب سقوط اليعاربة - إعادة السيادة العمانية على عهد البوسعيد - محمية أوبن - سقوط أسرة المزلو على - تحويل عاصمة الحكم إلى زنجبار - السياسة الداخلية - العلاقات الاقتصادية الخارجية - بريطانيا وتجارة الرقيق في شرق إفريقيا - امتداد السيادة العمانية إلى داخل القارة الأفريقية .



الفصل الخامس

عمان وشرق إفريقيا (*)

لم يكن لنشاط اليعاربة وجهودهم في الصراع الذي قام بينهم وبين البرتغاليين أثر كبير في تخليص مستقط من البرتغاليين فحسب وإنما في اقضاء البرتغاليين عن جزء كبير من سواحل شرق إفريقيا حيث نجح اليعاربة في تأسيس حكم عربي على تلك السواحل ثم امتد بعد ذلك إلى الداخل. على أنه مما تجدر الإشارة إليه أن سيطرة اليعاربة على سواحل شرق إفريقيا كانت سيطرة واهية وفي تقديرنا أن ذلك يرجع إلى عوامل كثيرة من بينها أن اليعاربة استنفدوا معظم جهودهم في صراعهم ضد البرتغاليين. وما كادوا يفرغون من هذا الصراع حتى وجدوا أنفسهم مواجهين بصراعات وحروب أهلية عنيفة مما لم يترك أمامهم فرصة توجيه اهتمامهم لما قاموا به من فتوح، ولذلك كان من الطبيعي أن ينهز ولاية اليعاربة على مقاطعات الشرق الإفريقي تلك الحالة من الفوضى لتثبيت نفوذهم ولم يلبث أن أعلنوا صراحة استقلالهم عن التبعية العمانية وذلك على أثر سقوط دولة اليعاربة^(١). وقدر لمبسة أن تنزع من الحركات الانفصالية التي قامت في شرق إفريقيا وذلك على أثر نجاح محمد ابن عثمان المزروعى في تأسيس الأسرة المزروعية في عام ١٧٣٩. وكان سقوط اليعاربة فرصة انتهزها المزروعى لكي يعلن استقلاله عن التبعية العمانية وظهر ذلك واضحا حين رفض الاعتراف بولائهم للأسرة الجديدة

(*) لمزيد من التفصيلات عن علاقة عمان بشرق إفريقيا يمكن الرجوع إلى كتابنا الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية وكذلك دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقيا إذ أن هذا الفصل وإن كان قد اعتمد عليهما إلا أنه لا يتناول إلا بعض جوانبهما.

(١) Guillain, Expose Critique des diverses notions acquises sur l'Afrique Orientale Tome II pp. 542—543.

التي خلفتها وهي أسرة البوسعيد^(١). وكان منطقة في ذلك أن ممبسة ظلت على ولائها لدولة اليعاربة حتى سقطت ولم تكن تبعيتها لعمان معناها أن تستمر على ولائها حتى بعد سقوط أسرتها الحاكمة فضلا عن أن مؤسس الدولة الحاكمة الجديدة وهو أحمد بن سعيد لا ينتمى إلى أصل ملكي وإنما لا يعدو أن يكون رجلا من عامة الشعب توصل إلى الحكم بمجهوده وطموحه الشخصي وبالتالي فليس هناك ما يدعو إلى الاعتراف به وبمعنى آخر أنه إذا كان والي صحار قد استطاع أن يصل إلى زمام الحكم في بلاده فإذا يمنع المزروعى وهو والي اليعاربة على ممبسة من الاقتداء بما فعله والي اليعاربة على صحار؟ وهكذا وجد الامام أحمد بن سعيد نفسه بعد وصوله إلى الامامة مهددا بهذه الحركة الانفصالية التي قامت في الشرق الأفريقي؛ ومع ذلك فلم تكن المشاكل التي واجهها سواء في داخل بلاده أو في الخليج العربي أو صراعه ضد الفرس أو جهوده لتوطيد دعائم حكمه لتشغله عن توطيد السيطرة العمانية على مقاطعات الشرق الأفريقي وخاصة أنه أعقب قيام الحركة الانفصالية في ممبسة بحركات انفصالية أخرى تزعمها النبهانيون في جزيرة بات وأصاب من النجاح ما أصابته ثورة ممبسة. وهكذا واجهت دولة بوسعيد في مستهل عهدها بالحكم تلك الحركات الانفصالية التي ظهرت في ممتلكاتها الإفريقية. وإذا كان الإمام أحمد بن سعيد لقي مقاومة شديدة في كل من ممبسة وبات فإنه كان أكثر توفيقا ونجاحا في الممتلكات الإفريقية الأخرى إذ لقي ولاء فعليا من بعضها أو خضوعا لاسميا من بعضها الآخر فزنجبار ظلت على ولائها لعمان كذلك فعلت مركه أماكلوة فقد أعلنت ولاءها للدولة الجديدة وإن كان ذلك ولاء اسمياً^(٢). وعلى الرغم من الجهود التي بذلها الامام أحمد ابن سعيد لمواجهة التحالف الذي كونه ممبسة من المقاطعات النائرة ضد عمان كمقديشيو وبرأوة وبقية المدن التي تليها حتى كوافي إلا أنه لم يكن على

Lyne, R. Zanzibar in Contemporary Times P. 10. (١)

Pearce, Zanzibar. The Island Metropolis of Eastern Africa P. 109. (٢)

استعداد لكى يتبادى في بذل جهود أكثر من ذلك إذ لم يكن حكمه في عمان قد توطد بعد ومن جهة أخرى فإن المشاكل الكثيرة التى كان عليه أن يواجهها لتوطيد حكمه من حيث القضاء على الحركات الانفصالية داخل عمان نفسها ، فضلاً عن العلاقات العدائية التى قامت بينه وبين كريم خان الزندى ، وما أدت إليه من اللجوء إلى القوة العسكرية في كثير من الأحيان هذا بالإضافة إلى وقوع بلاده في حلبة الصراع الانجليزى الفرنسى ، كانت كلها أمور تستدعى تفرغه التام لمعالجة تلك المشكلات^(١) . ولذلك اضطر الامام أحمد بن سعيد إلى الاكتفاء بهذه الجهود التى بذلها لتوطيد حكم في الشرق الاfrیقی . ومهما تكن محصلة تلك الجهود إلا أنها كانت بمثابة الدعامة الأولى التى ارتكز عليها خلفاؤه من بعده حتى نجح سعيد بن سلطان في تأسيس إمبراطورية عربية إفريقية كانت الأولى من نوعها في التاريخ الحديث لآسيا وإفريقيا . على أن أكثر ما اهتم به أحمد بن سعيد كان يتركز في النواحي التجارية ويبدو أن انتماءه لأسرة من التجار واشتغاله بالتجارة كان لها أثر كبير في اهتمامه بتلك النواحي ، وقد فتحت مقاطعات شرق إفريقيا بمواردها الكثيرة أو بما تنتجها من غلات وما يكثر فيها من رقيق سبل التجارة على مصراعيها . ويذكر جيان بصدد ذلك أن الإمام أحمد بن سعيد عمل على تشجيع التجارة واستمرارها بين مسقط والممتلكات الإفريقية التى اعترفت بسيادته . وكان يرسل في كل عام بعضاً من سفنه لتأقي له بالذهب والعاج والرقيق وغير ذلك من موارد تلك الجهات وحتى المقاطعات التى لم تعترف بسيادته كان حريصاً على إقامة علاقات تجارية معها ولذلك لم يلجأ إلى فرض سيطرته بالقوة العسكرية خوفاً من انقطاع الصلات التجارية بينها وبين عمان^(٢) .

Guilaln, op. cit. Tome II pp. 543—544. See also (١)
Ruete, R. Said Bin Sultan pp. 47—48.

Pearce, op. cit. P. 117.

(٢)

وكان للصراع الأسرى الذى وقع فى عمان عقب وفاة الإمام أحمد بن سعيد فى عام ١٧٨٣ أثر كبير فى مقاطعات الشرق الإفريقى التى استخدمت مسرحاً لذلك الصراع الذى قام بين الامام سعيد بن الإمام الذى خاف أباه فى الحكم وبين أخيه سيف الذى التجأ إلى الشرق الإفريقى. والثابت أن ما اتجه إليه الإمام سعيد من إرسال قواته إلى مقاطعات الشرق الإفريقى لم يكن رغبة منه فى القضاء على المحاولات التى كان ينشئ وقوعها من أخيه فحسب وإنما كان يرمى من ورائها إلى أهداف أبعد من ذلك وهى تأكيد السيطرة العمانية على تلك المقاطعات. وإذا كان الإمام سعيد قد نجح فى رد الأقاليم المقاومة له إلى الطاعة إلا أنه لم يتمكن مع ذلك من تأكيد سيطرته الفعلية على تلك النواحي. وإذا عرفنا أن التوابع العمانية فى شرق إفريقيا كانت تفوق تخيراتهم ومواردها لإقليم عمان فإنه مما يستدعى الدهشة أن ينصرف حكام عمان عنها أو على الأحرى يقنعوا بظل باهت من السيادة عليها. بيد أننا نستطيع أن نجد تفسيرا لذلك وهو حرص حكام البو سعيد الأول إلى توجيه اهتمامهم إلى قلب الامامة فى عمان إذ تمسكوا بعاصمتهم الدينية فى الرستاق. ولذلك فإنهم لم يتجهوا إلى الشرق الإفريقى إلا اتجاها محدودا كان ينحصر فى محاولتهم بسط السيادة العمانية واستدامة العلاقات التجارية معها وبدى أن النفوذ العمانى نتيجة لذلك الاعتبار التى أشرنا إليها لم يصل إلى درجة من القوة تجعله يصمد للاضطرابات التى كانت لا تكاد تنقطع فكان انفصال تلك المقاطعات واحدة تلو الأخرى على عهد الإمام أحمد بن سعيد ثم على عهد ابنه سعيد بن الإمام حتى إذا ما تولى سلطان بن أحمد الحكم وظهر اهتمامه بالنواحي السياسية أكثر من النواحي الدينية كان من المنتظر نتيجة لذلك أن يتجه إلى ممارسة سيطرته الفعلية على الشرق الإفريقى بيد أن المشكلات التى نتجت عن الطابع الجديد الذى تحولت إليه الدولة لم تترك له المجال للتفرغ للشرق الإفريقى وإنما كان انصرافه واضحا نحو العلاقات الخارجية والسياسية للدولة حتى إذا ما تولى السيد سعيد بن سلطان الحكم ١٨٠٦ - ١٨٥٦ واشتد فى عهده التحول من الناحية الدينية إلى الناحية السياسية أخذ الحاكم

الجديد يخطط سياسة إفريقية واضحة المعالم^(١). وعلى الرغم مما ذهب إليه كثير من الباحثين من أن اتجاه السيد سعيد إلى الشرق الإفريقي كان محاولة منه للهروب من المشكلات الكثيرة التي كانت تواجهه في عمان إلا أننا لانتفق مع هذا الرأي لأن اتخاذ السيد سعيد سياسة إفريقية لم تكن لتبعده عن المشاكل العمانية التي كان يفرغ لها جزءاً كبيراً من وقته وجهده وإنما كان اتجاهه إلى الشرق الإفريقي يكمن في حرصه على هذا الجزء الهام من دولته لكثرة موارده وزيادة فرص استغلاله فضلاً عن أن الظروف الجديدة التي آلت إليها الدولة في عهده لم تكن تضطره كما اضطرت أسلافه من أئمة الدولة إلى البقاء في إقليم عمان ذي الطابع الديني التقليدي. وظهر ذلك واضحاً حين أقدم السيد سعيد على نقل عاصمته حكمه من مسقط إلى زنجبار في عام ١٨٣٢ وإقامته هناك وتفرغه لتكوين إمبراطورية عمانية في شرق أفريقيا.

ولا شك في أن الخطوة الكبيرة التي أقدم عليها السيد سعيد في نقل مركز حكمه إلى زنجبار قد سبقها بطبيعة الحال جهود كبيرة لتأكيد سيطرته على الشرق الإفريقي إذ أنه عند وصوله إلى الحكم في مسقط في عام ١٨٠٦ وجد أن السيادة العمانية على الشرق الإفريقي قد وصلت إلى أقصى درجة من الضعف، إذ لم يعد لعمان سوى سلطة واهية على بعض مقاطعات الشرق الإفريقي كيمبا وموفيا وكاوة^(٢)، أما بقية المدن والمقاطعات الإفريقية الأخرى فقد نزعتم إلى الاستقلال عن التبعية العمانية^(٣)، ولم يلبث أن واجه في العام التالي من وصوله إلى الحكم حركة انفصالية تزعمها المزرعويعون في ممبسة واستهدفوا بها تخليص المقاطعات الإفريقية من السيطرة العمانية وضمها إلى حكمهم وما كادوا ينجحون في السيطرة على بات وانتزاعها من أيدي النبهانيين حتى أسرع المقاطعات المناوئة لمبسة إلى طلب حماية السيد سعيد وبذلك سنحت له فرصة التدخل في الشرق.

Pearce, op. cit. P. 117. (١)

Colomb, Slave Catching in Indian Ocean P. 364. (٢)

Coupland, R. East Africa and It's Invaders P. 218. (٣)

الإفريقي ولم يكن صراعه الدائب ضد السعوديين أو القوامس ليعحول بينه وبين سرعة الاستجابة الى تقديم الحماية لمقاطعات الشرق الإفريقي المناوئة للمزروعين في ممبسة حيث أرسل بعض قطع من أسطوله لتحقيق تلك الغاية^(١). ومع ذلك فإن السيد سعيد لم يلبث أن تحقق بنفسه أن نجاحه في تأكيد السيطرة العمانية على شرق إفريقيا لن يتم إلا إذا بدأ أولاً في التخلص من الأسيرة المزروعية في ممبسة وخاصة حينما وصل إلى حكمها عبدالله بن أحمد المزروعى في عام ١٨١٤ الذى واصل السياسة التى اتبعها أسلافه من حكام تلك الأسيرة في تخليص مقاطعات شرق إفريقيا من سيادة مسقط عليها وتحكى إحدى الروايات أنه على أثر وصوله إلى حكم ممبسة أرسل إلى السيد سعيد بعض الطلقات النارية والبارود بدلا من الجزية السنوية التى كانت مقررة على ممبسة وما يتبعها من مقاطعات شرق إفريقيا، كما حاول نيل تأييد حكومة الهند له حتى لقد سافر بنفسه إلى بومباى ليحصل على ذلك التأييد وعندما توفى في عام ١٨٢٠ بدأ السيد السعيد يعد خطة استهدف من ورثها القضاء على الأسيرة المزروعية في ممبسة ، وقدر أهمية الحصار الاقتصادى لإخضاع تلك الولاية ولذلك أصدر قانونا حرم فيه على رعاياه تبادل التجارة مع البلدان التى تحاول الانفصال عن سيطرته وتبع ذلك باتجاهه المسلح لتخليص المقاطعات الإفريقية من سيطرة المزروعين عليها فنجح في تخليص لامو وبراوو وبمبا، كما تمكن من السيطرة على جزيرة بات وأعاد الأسيرة النهائية إلى الحكم فيها ومن المؤكد أنه كان يهدف بذلك الى أن تستأنف تلك الأسيرة صراعاها التقليدى ضد المزروعين مما يكون من نتيجته إضعاف كل من الأسرتين مما يمهدها له سبيل السيطرة عليهما ، ولذلك ما أن أحس آل المزروعى بالخطر العمانى يتهددهم حتى بادروا بطلب الحماية البريطانية ، ففي عام ١٨٢٣ كتب الشيخ سالم المزروعى إلى حكومة الهند يؤكد أن الإمام سعيد بن سلطان يحاول

الاستيلاء على بلاده ، وأعرب عن استعداده لقبول الحماية البريطانية . وعلى الرغم من ذلك العرض الصريح الذى تقدم به حاكم ممبسة إلى حكومة الهند إلا أن بريطانيا لم تتخذ أية خطوة إيجابية بشأن ذاك ويعزو كوبلان Coupland وهو أحد الباحثين الثقات فى تاريخ شرق إفريقيا السبب فى تراخى بريطانيا فى انتهاز هذه الفرصة بأنها لم تكن تقدر فى ذلك الوقت أهمية ممبسة ولم تكن تعرف شيئاً عن أهميتها الاقتصادية أو الاستراتيجية إذ كانت بريطانيا واضحة عينها صوب منافذ البحر الأحمر والخليج العربى وكان ذلك كل ما يجذب انتباهها فى ذلك الوقت^(١) . وفى اعتمادنا أن بريطانيا بالإضافة إلى ذلك لم تكن تريد أن تقف موقفاً عدائياً من السيد سعيد خاصة فى الوقت الذى تأكدت صلتها به بعد عقدها مع معاهدة ١٨٢٢ وهى معاهدة خاصة بتحديد تجارة الرقيق ولذلك كان من الطبيعى أن تتخلى بريطانيا عن تقديم العون والمساعدة لآل المزروعى حرصاً على علاقتها بالسيد سعيد ، ومن ثم كان اتجاه المزروعين إلى طلب الحماية البريطانية نقطة الخطأ فى سياستهم لأنهم التجأوا إلى الدولة التى كانت على علاقة طيبة بمسقط^(٢) . ومع ذلك فإن الفرصة لم تلبث أن سنحت للمزروعين فى نيل الحماية البريطانية إذ صادف فى عام ١٨٢٤ مرور السفينة براكوتا بقيادة الكابتن فيدال وهى إحدى سفن الأسطول الذى أوفدته بريطانيا بقيادة الكابتن أوين Owen لتقمع تجارة الرقيق فى شرق أفريقيا^(٣) . وكان أوين يعتقد أن فصل مقاطعات الشرق الأفريقى عن التبعية العمانية قد يساعد مساعدة كبيرة فى قمع تجارة الرقيق فى شرق إفريقيا ، ومن ثم كان يحيد منح المزروعين الحماية البريطانية ، هذا فضلاً عن أن فرض الحماية البريطانية على ممبسة قد يكون من شأنه الوقوف حائلاً دون تطامع الفرنسيين

Coupland, R, op. cit. P. 222.

(١)

Pankhurst, Ex. Italian Somaliand P 15.

(٢)

Coupland, op. cit. P. 223.

(٣)

إليها ولذلك حين تلقى أوين تقريراً من الكابتن فيدال عن رغبة حاكم ممبسة رفع العلم البريطاني على قلعة المدينة كان من رأى أوين إجابته فوراً على طلبه^(١)، وبادر بالكتابة إلى حكومة الهند يخبرها بأنه سيقدم للمزروعيين الحماية اللازمة . وحتى قبل أن يتلقى أوين رداً من حكومته ذهب بنفسه إلى ممبسة حيث دارت بينه وبين الشيخ سليمان المزروعى مفاوضات انتهت في ٨ فبراير ١٨٢٤ بدعوة الكابتن أوين رؤساء وشيوخ جميع الموانئ والمقاطعات والجزر الواقعة بين نهر البانجانى ومالينده إلى اجتماع على ظهر سفينته وأعلن فى ذلك الاجتماع منح الحماية البريطانية لهم وتعهده أوين فى الاتفاقية التى وقعها مع حاكم ممبسة بأن تعمل حكومة الهند على أن تعيد للمزروعيين جميع المقاطعات التى استولى عليها السيد سعيد منهم وأن تضمن توارث الحكم فى أسرهم وأن تعين بريطانيا مقبلاً سياسياً فى ممبسة ، وأن يقسم دحل الجمارك مناصفة بين الطرفين ويسمح للراعى البريطانيين بالتجارة فى داخل البلاد وأن يوافق المزروعىون على منع تجارة الرقيق وأن يقدموا عونهم للحكومة البريطانية فى القضاء على هذه التجارة^(٢) .

وكان من الطبيعى أن يؤدى فرض الحماية البريطانية على ممبسة وعلى غيرها من مقاطعات شرق إفريقيا إلى استياء السيد سعيد الذى احتج لدى حكومة بومباى مؤكداً أن الكابتن أوين ساير ثوار ممبسة فيما ذهبوا اليه ووقف بإسطول حائل دون وصول القوات العمانية لقمع الحركات الانفصالية فى شرق إفريقيا وأنه رفع العلم البريطانى على دار إقامته فى زنجبار . وفى مقابلة السيد سعيد للمقيم البريطانى فى الخليج العربى فى ديسمبر ١٨٢٥ أخذ يشكو له تدخل

CF. The Journal of Lieutenant Buttler of the Barracuta (١)
in Charles Eliot, East Africa Protectorate P. 317.

Krapff, Travels, Researches and Missionary Labours (٢)
in East Africa P. 530.

أوين في الشرق الإفريقي وأن ذلك يعد انتهاكا للصدافة القائمة بينه وبين بريطانيا .

ومما تجدر الإشارة إليه أن محمية أوين ١٨٢٤ / ١٨٢٦ لم تكن هي أول تدخل من جانب بريطانيا في شرق إفريقيا إذ كان لبريطانيا صلات بالشرق الإفريقي منذ نهاية القرن الثامن عشر حين كانت تعمل على وضع العراقيل ضد بونا بورت إبان حملته على مصر في عام ١٧٩٨ . ففي ديسمبر من ذلك العام وصلت إحدى السفن البريطانية إلى زنجبار بقيادة الكابتن بلانكت وكما سبق أن الحنا في الفصل السابق أن مصير تلك السفينة كان تعسا إذ بادر أهالي زنجبار بالقبض على قائدها وبحارها وأعملوا فيهم الذبح والقتيل . وكانت هذه المعاملة سببا في احتجاج حكومة بومباي لدى السيد سلطان بن أحمد سلطان مسقط وخاصة أن تلك الحادثة وقعت مباشرة بعد توقيعه معاهدة ١٧٩٨ وقد بادر سلطان بن أحمد بخلع والى زنجبار وعين والياً آخر بدلا منه مرضاة لحكومة الهند . وفي عام ١٨١٢ حدث تدخل بريطاني آخر في شرق إفريقيا حينما وصلت إحدى السفن الإنجليزية إلى كلوة وعقد قائدها اتفاقية مع رؤساء الجزيرة كانت تنص على أن تؤيد بريطانيا الحاكم الذي يختارونه بأنفسهم لأنهم كانوا يقاسون كثيرا من ظلم الحكام الذين يعينون من قبل سلطان مسقط ، ولكن مهما يكن من أهمية تلك الاتصاليات فإنها لم تصل إلى الدرجة التي وصلت إليها محمية أوين السابق إشارتنا إليها . وعلى الرغم من أن حكومة الهند بادرت بإلغاء الحماية في عام ١٨٢٦ مرضاة للسيد سعيد وحرصا منها على إبقاء علاقات الصداقة والتفاهم معه إلا أنها خشيت أن يلجأ المزروعون إلى طلب الحماية من فرنسا ولذلك كان المقيم البريطاني في الخليج العربي لا يكف عن تذكير السيد سعيد بالأغالي في إظهار عدائه للمزروعين خوفا من إرتماهم في أحضان الفرنسيين . هذا في الوقت الذي لجأ فيه آل المزروعى إلى طلب الحماية البريطانية من لندن وهناك رسالة بعث بها الشيخ سالم المزروعى إلى الملك جورج الرابع يطلب منه تأكيد الحماية البريطانية على بلاده ، ولكنه أجيب بأن صاحب الجلالة

البريطانية لا يجد ثمة ما يدعو إلى الاستجابة لهذا المطلب لما قد يؤدي إليه ذلك من عداوة بينه وبين سلطان مسقط الذي جمعت بينهما أواصر المحبة والإخلاص^(١).

وعلى أية حال فإنه ما كادت القوات البريطانية تنسحب من ممبسة في عام ١٨٢٦ حتى استأنف السيد سعيد صراعه ضد المزروعيين وأرسل من أجل ذلك حملة بحرية إلى ممبسة بعد أن رفض المزروعيون الخضوع لسيادته وفيما يبدو أن الحملة البحرية التي أرسلها السيد سعيد كانت أقوى مما قدره المزروعيون فلم يجدوا سبيلا سوى الإذعان والإعتراف بالسيادة العمانية عليهم وذلك بعد أن تمكن السيد سعيد من الاستيلاء على قلاع المدينة وحصونها ووجه الدعوة إلى الشيخ سالم بأن يأتي للتفاوض على ظهر سفينته وانتهت تلك المفاوضات باعتراف المزروعيين بالسيادة العمانية على المقاطعات الخاضعة لهم في شرق إفريقيا وأن يتم اقتسام هذه المقاطعات بالتساوي بين الطرفين، كما نصت الاتفاقية على خضوع قلعة ممبسة للسيد سعيد بشرط ألا يتجاوز ما يبقية من حامية فيها عن خمسين جندياً^(٢). وفيما يبدو أن السيد سعيد لم يكن ينرى احترام تلك الاتفاقية إذ أخذ يعمل على تفوية حصون ممبسة وقلاعها ويضع فيها من الحاميات والجنود أضعاف ما قررت الاتفاقية كما استعان بحاكم جزيرة بمبا ناصر بن سليمان الموالي له والذي كان قد انتزع تلك الجزيرة من ممبسة في عام ١٨٢٢ ليكون ممثلاً له في ممبسة ولكن المزروعيون بادروا بالقبض عليه واعدامه^(٣)، مما دفع السيد سعيد إلى القيام بحملة أخرى على ممبسة في عام ١٨٢٩ ولكنه لم يصب قادراً من النجاح مما اضطره إلى الرجوع إلى مسقط إذ لم يكن الوضع هناك هادئاً حيث كان

(١) Coupland R. East Africa and Its Invaders P. 272

Krapff., op. cit. P. 534. (٢)

(٣) سعيد بن علي المغيرة : جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار ص ١٢١ - ١٢٤ نشر وزارة الثقافة والتراث القومي - سلطنة عمان.

السعوديون يوالون غزواتهم على المقاطعات العمانية . وليس من شك في أن السيد سعيد كان يجتاز أعظم فترة حرجة في حياته وحياة سلطنته لقد كان سلطانا على إقليمين كبيرين ولكن لم تكن له سلطة فعلية على أحدهما أو كليهما وعلى حد قول كوبلاند كان حلمه في تأسيس دولة في شرق إفريقيا بينما ممبسة في أيدي المزروعين يشبه تكوين دولة في عمان بينما مسقط في أيدي السعوديين^(١). والواقع أن السيد سعيد صعب عليه الاعتماد على أصدقاء يستعين بهم في القضاء على آل المزروعى وأكثر من ذلك كان مرغما على تخفيف عدائه معهم إذ طلب منه الإنجليز أن يجيب المزروعين إلى بعض مطالبهم خوفا من أن يتجهوا إلى مخالفة الفرنسيين . على أن السيد سعيد وإن كان قد يشس من مساعدة الإنجليز له فقد بادر إلى عرض مشروع للتحالف بينه وبين ملكة مدغشقر بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين عرض عليها الزواج وأرسل بالهمل مبعوثا من قبله يحمل إلى الملكة رسالة رقيقة . بيد أن رغبته في الزواج لم تتحقق إذ كتب وزراء الملكة له يؤكدون أن تقاليد بلادهم لا تسمح بزواج ملكتهم ، ولكن هناك أميرة صغيرة يستطيع أن يتزوجها . أراد ومن ناحية أخرى أعربوا له عن استعدادهم لمساعدته في قمع ثورة ممبسة وتوطيد حكمه في شرق إفريقيا ، وإن كان مما يستلقت النظر أن بريطانيا حالت بين السيد سعيد وبين الحصول على قوة عسكرية من مدغشقر التي كانت خاضعة في ذلك الوقت للنفوذ الفرنسي بل إن جزيرة مدغشقر لم تلبث أن خضعت بالفعل للحماية الفرنسية في عام ١٨٣٢ ، وكان ذلك سببا في عرقلة المساعي التي كان يقوم بها ، ولكن لم تلبث أن ظهرت في الأفق بادرة جديدة تطلع إليها وهي الاستعانة بالولايات المتحدة الأمريكية التي اتجهت في عام ١٨٣٣ للدخول في علاقات إقتصادية مع سلطنة مسند وزنجبار حيث أبدى السيد سعيد موافقته على أن يمنح الأمريكيين كل ما يريدونه من إمتيازات وأن يسمح لهم بتأسيس المراكز التجارية في زنجبار وفي غيرها من موانئ شرق إفريقيا في مقابل أن تملأ الولايات المتحدة الأمريكية بقوات

للسيطرة على موزمبيق واستعادة نفوذهم على ممبسة، ولكن الحكومة الأمريكية لم تر من مصلحتها التورط في تلك المغامرات وطلبت أن تقتصر علاقاتها على الشؤون الاقتصادية فحسب (١).

ولم تلبث الأحداث أن توالى بعسد ذلك بسرعة حين تعرضت أسرة المزروعى بعد وفاة حاكمها الشيخ سالم في عام ١٨٣٥ لعدة منازعات داخلية من أجل الوصول إلى الحكم بين الشيوخ المتنازعين مما أوقع جميع مقاطعات الساحل في اضطراب كبير وفوضى شاملة (٢). قام على أثرها حاكم مقاطعة كلنديني بالثورة على آل المزروعى وطلب من السيد سعيد أن يساعده في التخلص من حكمهم، وبفضل المساعدات التي قدمت للسيد سعيد من زعماء الساحل تمكن في عام ١٨٣٧ من الاستيلاء على حصون ممبسة وقلاعها وجعل من نفسه السيد الذي لا منازع له على طول الساحل الشرقي لإفريقيا من رأس جردفون شمالاً إلى خليج دلجادو جنوباً. وحرص السيد سعيد وهو في أوج انتصاره على التخلص نهائياً من آل المزروعى ولذلك فقد كلف ابنه الأكبر خالد الذي كان قائماً بالحكم في زنجبار نيابة عنه لكي يقوم بحركة استهدف بها القبض على جميع أعضاء أسرة المزروعى؛ وتم لخالد القبض على خمسة وعشرين شيخاً أما الآخرون فقد فروا وتشتتوا في داخلية البلاد (٣).

كان إخضاع السيد سعيد لممبسة فاتحة المجال لتدعيم نفوذ سلطنة مسقط في شرق إفريقيا وفيما يبدو أن ضمان تلك السيطرة في المقاطعات الإفريقية هو الذي دفعه للإقامة بزنجبار التي كان قد نقل إليها حكمه في خلال سنوات قليلة سابقة إذ أنه في عام ١٨٣٢ كان السيد سعيد قد حول عاصمة حكمه

(١) جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقيا ص ٢٢٧ القاهرة ١٩٦٧ .

See also Coupland, East Africa and It's Invaders P. 281.

Le Roy, D'Aden a Zanzibar P. 264. (٢)

Pankhurst, op. cit. P. 16. (٣)

من مسقط إلى زنجبار . وهناك العديد من الدوافع التي كانت وراء ذلك منها جاذبية زنجبار الطبيعية وأهمية موقعها الجغرافي وما تتميز به من موانئ صالحة للتجارة وعمليات التبادل التجاري : هذا إلى جانب الدوافع السياسية التي كان من أهمها تفضيله الإقامة في تلك الجزيرة بعد أن عانى الكثير من المتاعب الداخلية في مسقط من جانب المنافسين له في الحكم من أعمامه أو أبناء عمومته أضف إلى ذلك أن السعوديين والقواسم كانوا كثيرا ما ينقضون عهده معهم ويستأنفون الهجوم على المقاطعات التابعة له في الخليج العربي . وليس من شك في أن نقل العاصمة إلى زنجبار كان له أثر كبير في وضع الأسس السياسية والاقتصادية للسلطنة العربية في أفريقيا .

ويمكننا أن نلاحظ بوضوح الأهداف الاقتصادية التي كان يتجه إليها السيد سعيد في إفريقيا إذ حرص عند انتقاله إلى زنجبار أن يأخذ معه التجار العرب والهنود من طائفة البانيان الذين كانوا يسهمون بنشاط وافر في عمليات التجارة في مسقط . وشجع الهنود على الهجرة إلى زنجبار ما كانوا يعهدهونه في السلاسل من تسامح كبير ومعاملة طيبة كانا يتضحان في تركه الحرية الدينية ومنحهم ما كانوا يترقبون إليه من مكانة في المجال الاقتصادي^(١) . إذ استعان بالأكفاء منهم في أعمال الإدارة والاقتصاد وعلى الرغم من أن الهنود كانت لهم علاقات قديمة بشرق إفريقيا إلا أن عددهم تزايد في عهد السيد سعيد حتى بلغ أربعة آلاف نسمة وذلك طبقا لما قدره بيرتون Burton الذي أكد أيضا أن أربعة أخماس التجارة الخارجية كانت في أيديهم^(٢) . كما أنهم امتدوا بمراكزهم التجارية حتى مدغشقر وموزمبيق وجزر القمر وبعض

Mona MCmillan, *Introducing East Africa* P. 175 (١)
London 1965.

Burton, R, *Zanzibar, City, Island and Coast* vol. I (٢)
pp. 315—317.

الزمن كثير عددهم وأخذوا يستولون على الممتلكات من العرب عن طريق الرهن والشراء^(١).

وبالإضافة إلى نشاط الهنود التجارى وفد مع السيد سعيد مئات من عرب عمان فازدهرت التجارة وانتعشت بمقدمهم إلى درجة لم تكن معهوده من قبل^(٢)، وبينما كان نشاط الهنود يقتصر على الساحل استطاع التجار العرب التوغل في المناطق الداخلية التي لم يكن قد ارتادها أحد من قبل واستقر كثيرون منهم في الداخل وأسسوا المراكز التجارية التي جهدوا في تقويتها ومن ثم أصبحت تلك المحطات أو المراكز التجارية تشع بعضا من السيطرة والنفوذ للسلطنة العربية الأفريقية في الداخل حتى لقد اشتهر المثل السواحلي القائل « إذا دقت الطبول في زنجبار رقص الناس طربا على البحيرات » وليس من شك في أن تلك السيطرة الداخلية كانت ترتبط بقوافل التجارة التي أصبحت تصل إلى البحيرات الاستوائية وأعلى الكونغو.

وعلى هذا النهج قامت عدة مستوطنات عربية على خطوط القوافل التجارية . وما هو جدير بالذكر صعوبة تحديد ممتلكات السلطنة العربية في شرق إفريقيا لأن النشاط التجارى الذى طبع هذه السلطنة هو الذى حال دون قيام فواصل تحدد مدى اتساع الدوائر ، كما أنه لم يكن يحصى سلطة الدولة إلا المصالح الاقتصادية التي كانت تربط بين الساحل والداخل وقياسا على ذلك كانت الأنظمة الاقتصادية التي وضعها السلطنة العربية في شرق إفريقيا تتميز بالمرونة من حيث تبسيط أنظمة الضرائب وتخفيفها بحيث كانت لا تزيد عن ٥ ٪ على الواردات التي تأتي إلى الموانئ الإفريقية وإعفاء الصادرات

(١) Chappuis, visite a l'Imam de Mascate au Zangubar
P. 350. See also Coupland, East Africa and Its Invaders
pp. 302—303.

(٢) عن القبائل العربية التي وفدت مع السيد سعيد للاقامة معه في زنجبار انظر المغبرى :
مرجع سبق ذكره ص ١٩ .

من الضرائب. كذلك تميز عهد السلطنة العربية في زنجبار بوضع نظام بسيط للنقد يجل بدلا من العملات المتعددة التي كانت مستخدمة في زنجبار كالريال النمساوي والأسباني ، ولم يكن ينهي عهد السيد سعيد حتى اختفت العملات الأجنبية تقريبا وحل محلها النظام الجديد الذي استحدثه والذي كان يعتمد على الروبية الهندية . كما يرجع للسلطنة العربية في زنجبار وإلى السيد سعيد نفسه تشجيعه لزراعة قصب السكر والقرنفل وذلك باستغلاله خصوبة بعض المقاطعات الأفريقية وعلى الأخص جزيرتي بمبا وزنجبار حتى أصبحت هاتان الجزيرتان تمدان العالم بالقسط الأعظم من استهلاكه من القرنفل حيث يبلغ إنتاجهما أكثر من $\frac{1}{3}$ الإنتاج العالمي^(١).

وقد أدرك السيد سعيد أنه لضمان ازدهار النواحي الاقتصادية فإنه ينبغي عليه أن يعمل على حماية التجارة من المنافسات التي كانت تتعرض لها حقيقة أنه كان يؤمن بالحرية الاقتصادية إلا أنه وجد نفسه مضطرا إلى تطبيق سياسة احتكارية لضمان مركزه الاقتصادي؛ ولذلك حرم على طول الساحل الممتد من مصب نهر البانجانى إلى كلوة تصدير المطاط والعاج تحت أى علم خلاف علم السلطنة وإن كنا لا نجد احتكارات باستثناء ذلك . كما عرف عن السيد سعيد شغفه الكبير بالتجارة وحبه لممارستها ومن ذلك أنه كان يقوم بالاشتغال بها لحسابه الخاص وكان يستخدم أسطوله في نقل البضائع وبين آونة وأخرى كانت الموانئ البريطانية والفرنسية تستقبل حمولات من البضائع الأفريقية حملتها إليها سفن السلطنة العربية . ولعل شهرة السيد سعيد في العالم الخارجى كانت ترجع إلى فتح بلاده للدول الأجنبية حتى تحولت زنجبار إلى أعظم ميناء في

(١) نقل العرب زراعة القرنفل من جزيرة موريس وكان الفرنسيون أول من أدخلوها إلى تلك الجزيرة في عام ١٧٧٠ .

الأطراف الجنوبية الغربية للمحيط الهندي كما أصبحت المستودع الرئيسي للتجارة الأفريقية الآسيوية . وكما يؤكد كوبلانك أنه في خلال عشرين عاما من نقل السيد سعيد عاصمة بلاده من مسقط إلى زنجبار أصبحت زنجبار واحدة من ثلاث أو أربع مراكز رئيسية للتجارة في المياه الغربية للمحيط الهندي^(١) . وكان حرص السلطنة العربية في زنجبار على الاتصال الخارجي بالدول الأجنبية سببا في عقدتها الكثير من الاتفاقيات والمعاهدات التجارية مع الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وغيرها ، كما وجدت قنصليات أجنبية في زنجبار كما سمح أيضا لبعض الولايات الألمانية المشتركة في اتحاد الهانسا بالاشتغال بالتجارة^(٢) .

وما هو جدير بالذكر أن نظام الحكم الذي كان متبعاً في زنجبار كان لا يختلف كثيراً عن أنظمة الحكم التي كانت متبعة في مسقط من حيث بساطة الأنظمة الإدارية . أما عن القضاء فقد كان على درجة كبيرة من البساطة وظل القرآن الكريم هو أصل التشريعات ومصادر الأحكام . وكان السيد سعيد يحكم في القضايا الكبيرة بنفسه أما القضايا الأقل أهمية فكان يتركها لابنه الكبير خالد أو لحاكم مدينة زنجبار ؛ في حين تركت القضايا العادية للقضاة الذين كان بعضهم للحكم فيما يحدث من منازعات تجارية أو غيرها بين رعاياه . ومن حيث إدارة السيد سعيد لممتلكاته الشاسعة في شرق إفريقيا فقد كان حريصا على أن يعين في كل مقاطعة حاكماً محلياً من أهل البلاد يدين له بالتبعية والولاء وإن كنا نراه في أحيان كثيرة يفقد ثقته بالحكام المحليين ويستعير عنهم بأعوان له من مسقط وكان يمددهم بحاميات من الجند تكون بمثابة نواة يحرص الحاكم المعين على تنمية قوتها بنفسه بشكل يحفظ للحاكم هيئته وللسلطان نفوذه . وقد حاول السيد سعيد الاتساع

Chappuis, op. cit. P. 357. See also Lyne, Zanzibar (١)
P. 4.

Coupland R. East Africa and Its Invaders P. 320. (٢)

بممتلكاته في شرق إفريقيا شمالاً وجنوباً فمن ناحية الجنوب حاول ربط مدغشقر بزنبار ولما لم يتحقق له ذلك الهدف عمل على إخضاع جزيرة نوسبي لنظامه الإقتصادي ونجح في ربطها بمعاهدة تجارية وافق حاكم الجزيرة بمقتضاها على دفع جمارك على الواردات التي تصل إليها من سلطنة زنجبار في نظير الحصول على حماية زنجبار لها، ولكن السيد سعيد لم يقدم لتلك الجزيرة ما كانت تحتاجه من حماية وكل ما فعله هو رفع العلم العمانى الآخر على قلعها ؛ ولعل ذلك الإهمال هو الذى أعطى الفرصة للفرنسيين لكي يبسطوا نفوذهم الفعلى على تلك الجزيرة . على أن السيد سعيد وإن كان قد أخفق في مد سيطرته نحو الجنوب فلا شك أنه كان أكثر توفيقاً ونجاحاً في مد سيطرته نحو الشمال ففي عام ١٨٤٠ بادر بإرسال بعثة إلى موانئ الصومال نجحت في إخضاع تلك الموانئ لنظامه الإقتصادي، كما نجح في فرض سيادته على مقديشيو وامتد بسيطرته الاقتصادية إلى براوة وإن كان قد فشل في الاحتفاظ بها طويلاً ^(١) . وليس من شك في أن السلام والأمن الذى تميزت به مقاطعات شرق إفريقيا كان يرجع في الدرجة الأولى إلى النشاط الاقتصادي الذى تميزت به سلطنة زنجبار . ومن الواضح أن السيد سعيد لم يكن يهدف من ممتلكاته في شرق إفريقيا إلا تحقيق أهدافه الاقتصادية دون النظر في أن تكون له سيطرة فعلية وليس أدل على ذلك من أنه لم يلجأ إلى قمع الثورات التي كانت تقوم في المقاطعات الخاضعة له بالقوة العسكرية خوفاً مما يجره ذلك من اضطراب في الأمن قد يعوق التجارة التي كان يحرص عليها غاية الحرص ولذلك كان يعمل على معالجة مشكلاته الإفريقية بالطرق السلمية وهذه كانت سياسته سواء مع رؤساء المقاطعات الساحلية أو حكام المقاطعات الداخلية، وهى سياسة استهدف من ورائها ضمان استقرار الحياة الاقتصادية وازدهارها، مما يجعلنا نذهب في القول إلى أن السيد سعيد نجح في سيطرته الاقتصادية ولكنه فشل في بسط سيطرته

السياسة أو العسكرية (١)

ومما تجدر الإشارة إليه أنه قد عاصر حكم السيد سعيد في شرق إفريقيا الحركة التي تزعمتها بريطانيا لقمع تجارة الرقيق في النصف الأول من القرن التاسع عشر . ولا يعني هنا أن نبحت عن الدوافع الأساسية التي دفعت بريطانيا لإلغاء تلك التجارة هل هي دوافع إنسانية بحثة كما كانت تدعى ذلك أم أن المصالح البريطانية كانت تقف من ورائها ؟ ذلك لأننا نجد في أحوال كثيرة أن الجهود التي قامت بها بريطانيا لقمع تجارة الرقيق سببت لها الكثير من السيطوة والنفوذ في المناطق التي كانت تعمل بها ولكن الأمر الذي يعني هنا أن المصادر الرئيسية لتجارة الرقيق في شرق إفريقيا كانت تقع ضمن ممتلكات السلطنة العربية في زنجبار (٢) ، ومن ثم أدركت بريطانيا أنه ينبغي عليها إذا أرادت القضاء على تلك التجارة أن تحصل على تأييد من حاكم السلطنة ، والجدير بالذكر أنه على الرغم مما كان يحصل عليه السيد سعيد من المزايا والأرباح العديدة من جراء مرور تلك التجارة في بلاده إلا أنه أذعن لبريطانيا حرصاً منه على ضمان مركزه في ممتلكاته ، وإن كان بعض الباحثين يؤكد أن ارتباط السيد سعيد مع بريطانيا في معاهدات خاصة بتحديد تجارة الرقيق قد عرض مركزه للخطورة بين رعاياه الذين كانوا يشتغلون بتلك التجارة ، ولكن السيد سعيد كان يأمل من جراء ارتباطه مع بريطانيا أن ينال تأييدها (٣) . ونستطيع أن نقدر مدى التضحيات المادية التي تكبدتها السيد سعيد نتيجة لاشتراكه مع بريطانيا في قمع تجارة الرقيق إذا عرفنا أنه كان يتحصل على ما يقرب من

Guillain, op. cit. Tome I P. 238. See also Burton, (١)
op. cit. vol. I P. 295.

Ruete, Emily : Memoire d'une Priccesse Arabe chapitne 20 (٢)
See also Pearce, op. cit. P. 190.

Thomas, Berthram : Arab Rule under the Al Bu Said (٣)
Dynasty P. 18.

١٠٠,٠٠٠ ريال سنويا من تلك التجارة^(١). ومن المعروف أن بريطانيا بدأت في اتخاذ أولى خطواتها الفعالة لقمع تجارة الرقيق في شرق إفريقيا حينما عقدت معاهدة ١٨٢٠ مع مشيخات الساحل العمانى حيث نصت المادة التاسعة من المعاهدة المذكورة على أن نقل الرقيق رجالا أو نساء أو أطفالا من سواحل شرق إفريقيا أو أى مكان آخر يعد قرصنة وسلبا ، ولما كانت سلطنة مسقط وزنجبار لم تشرك مع شيوخ الساحل العمانى فى التوقيع على تلك المعاهدة فقد أدركت بريطانيا أن الجهود التى بذلتها لقمع تلك التجارة ستكون عديمة الجدوى^(٢). ولعل ذلك هو الذى دفعها إلى عقد معاهدة ١٨٢٢ مع السيد سعيد وقد نصت تلك المعاهدة على تعهد السيد سعيد بالعمل على إيقاف تلك التجارة وأن يسمح لضباط البحرية البريطانية بتفتيش السفن العمانية ، كما وافق على تحريم بيع الرقيق للدول المسيحية ومصادرة السفن التى تشغل بتلك التجارة من شرق خط يبدأ من الساحل الشرقى لإفريقيا إلى شرق جزيرة سقطرة وينتهى عند سواحل بلوخرستان ، ومما تجدر الإشارة إليه أن معاهدة ١٨٢٢ لم تكن تهدف إلى إلغاء تجارة الرقيق إلغاء تاما إذ أدركت بريطانيا بأنه من الصعوبة إلغاء تلك التجارة وذلك لأن معظم موارد السلطان وموارد رعاياه تأتى من هذه التجارة ولذلك نجد أنه فى حين حرمت المعاهدة بيع الرقيق لرعايا الدول المسيحية بقی للسلطان حق الاشتغال بتلك التجارة فى الممتلكات التابعة له طالما لم تتعد الحدود التى رسمتها المعاهدة ولكن لم يلبث أن تدرج الوضع بمقتضى معاهدة ١٨٣٩ وهى المعاهدة التجارية التى عقدها السيد سعيد مع بريطانيا إذ ألحقت بها بعض المواد التى تختص بقمع تجارة الرقيق حيث نصت على توسيع حدود المنطقة التى يسمح فيها

Lyne, op. cit. P. 39.

(١)

Heude, A Voyage up the Persian Gulf P. 24 London (٢)
1819.

للسفن البريطانية بتفتيش أو مصادرة السفن العمانية التي تشتغل بتجارة الرقيق^(١) وما يسترعى الانتباه أن السيد سعيد رفض أن يأخذ من الحكومة البريطانية أية تعويضات مادية عما سببته معاهدات إلغاء تجارة الرقيق من خسائر فادحة وكان ذلك تأكيدا لدوافعه الإنسانية ومن ناحية أخرى دفعته صداقته للإنجليز، تلك الصداقة التي دامت نصف قرن ، إلى تقديم الكثير من الهدايا لبريطانيا تأكيدا وتوثيقا لروابط الصداقة التي ربطت بينه وبينها ، وتعزى الهدايا المفردة التي كان يقدمها السيد سعيد عن طيب خاطر إلى نوع من الكرم العربي أو رغبة منه في الظهور في المجال الخارجى فقد رشحته الحكومة البريطانية ليكون عضوا شرف في الجمعية الآسيوية الملكية في عام ١٨٣٥ اعترافا بوقوفه معها في الحركة المناهضة للرق وتقديرا للجهود التي يبذلها لإدخال الحضارة وتقدم العلوم في بلاده، وليس من شك في أن اشترك السيد سعيد مع بريطانيا في قمع تجارة الرقيق في شرق إفريقيا أظهر اسمه في المجتمع الدولي وإن كان ذلك كلفه الكثير من الهدايا السخية التي قدمها للحكومة الهند أو للملكة فيكتوريا التي عاصرت النصف الثاني من حكمه وكان أبرز ما قدمه لحكومة الهند كبرى سفن أسطوله وتنازله للملكة فيكتوريا عن جزر كوريا موريا^(٢) .

على أن السيد سعيد لم يقصر علاقته ببريطانيا وإنما أدى توسيع دائرة عملياته الاقتصادية إلى دخوله في علاقات مع الدول الأخرى كما شجع الأجانب على الإقامة في بلاده ومنحهم الكثير من التسهيلات التجارية وتأسست الكثير من القنصليات الأجنبية في زنجبار . غير أننا لا نتفق مع ما ذكرته بعض المصادر من أن النشاط الاقتصادي لم يكن ضارا إذ أفادت منه الساطنة

Colomb : Slave Catching in the Indian Ocean pp. (١)
373—374. See also Bombay Govt, Selection from the
Records — Slave Trade vol. XXIV pp. 636—637.

Pearce, op. cit. P. 133. See also Ruete R., Said Bin (٢)
Sultan P. 139.

فائدة كبيرة إذ في تقديرنا أن التدخل الأوربي الاقتصادي كان تمهيدا للتدخل السياسي والعسكري السافر^(١)، وإيس أدل على ذلك من أن الدول الأوروبية التي مارست في شرق إفريقيا نشاطا اقتصاديا قد مهدت لنفسها السبيل لاستعمار الشرق الأفريقي واقتسام ممتلكات السلطنة العربية فيما بينها ففى حركة تقسيم إفريقيا نجد أن الدول التي قامت بالشئون التجارية أو التبشيرية في بداية الأمر هي نفسها التي اقتسمت مناطق النفوذ فيما بينها . ولعل مما يستلفت النظر أن الولايات المتحدة الأمريكية استطاعت بفضل علاقاتها الودية بالسيد سعيد أن تنافس غيرها من الدول الأجنبية في المجال التجارى وتذكر إحدى المصادر في صدد العلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية وسلطنة زنجبار أن أحد التجار الأمريكيين ويدعى إدموند روبرتس Roberts كان يلاقى الكثير من المتاعب في زنجبار ونظرا للإجراءات المعقدة وتأخر المعاملات وما اعتبره قيوداً تبعث على السخط بالاضافة إلى المعاملة المحجفة التي يتعرض لها التجار الأمريكيون إذا ما قورنت بمعاملة التجار الإنجليز الذين لم يكونوا ليرغمون على بيع بضائعهم لوكلاء السلطان أو دفع عمولة باهظة أو رسوم مينة؛ نظرا لهذا كله حنق هذا التاجر للدرجة أنه كتب احتجاجا مؤلفاً من عدة صفحات وجهه إلى السيد سعيد الذى أجابه بأنه من الممكن التغلب على تلك الصعاب بعقد معاهدة مع الولايات المتحدة الأمريكية؛ وفي عام ١٨٣٣ تلقى روبرتس تفويضا من الرئيس الأمريكى أندرو جاكسون لكي يعقد تلك المعاهدة . ويذكر جيان أن عقد هذه المعاهدة لقي هوى في نفس السيد سعيد لتعامله مع دولة كبيرة وفي عام ١٨٣٥ قامت الولايات المتحدة الأمريكية بفتح قنصلية لها في زنجبار عينت عليها أحد التجار الأمريكيين ويدعى ريتشارد واترز^(٢) .

وتعتبر معاهدة ١٨٣٣ من معاهدات الود والصداقة والتجارة وكانت تنص على إبقاء العلاقات الودية بين البلدين والتأكيد على حرية التجارة

Coupland, Exploitation of East Africa P. 9. (١)

Lyne, op. cit. P. 33. (٢)

بالنسبة لرعايا الطرفين وتمتع التجار الأمريكيين بكافة المزايا التجارية الممنوحة للدولة الأكثر رعاية كما نصت المعاهدة أيضاً على تعيين قناصل يستقرون في موافى السلطنة ويقومون بالحكم فيما ينشأ بين الرعايا الأمريكيين من خلافات كما يقومون بتصفية ممتلكات الأمريكيين الذين يموتون في ممتلكات السلطان ، ولكي يقوم القناصل الأمريكيون بتلك الأعباء كفلت لهم المعاهدة بعض الحماية التي تمكنهم من القيام بها ؛ كما نصت المعاهدة أيضاً بأنه إذا حدثت مخالفات من أحد أولئك القناصل لقوانين البلاد فيمكن مخاطبة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الذي يبادر بسحب القنصل وتعيين آخر بدلاً منه^(١) .

والواقع أن عقد هذه المعاهدة أفسح المجال للولايات المتحدة الأمريكية لكي تقوم بنشاط تجارى واسع في زنجبار ومن المؤكد أن السيد سعيد استفاد فائدة كبيرة من النشاط التجارى الذى كان يقوم به الأمريكيون حتى أن معظم الدخل الذى كان يتحصل عليه السيد سعيد كان من عائد التجارة الأمريكية وفيما يبدو أن السيد سعيد كان مرتاحاً للأمريكيين وكان يتوق إلى تشجيع نشاطهم الذى كان مجرداً في ذلك الوقت من الأطماع السياسية ففي عام ١٨٣٣ كان يرغب في نشر إعلان في الولايات المتحدة الأمريكية يغدق فيه الكثير من الامتيازات على التجار الأمريكيين لكي يشجعهم على التوافد إلى بلاده بيد أن الأمريكيين المشتغلين أصلاً بالتجارة في زنجبار عارضوا ذلك على اعتبار أن نشر تلك الدعوة سيجعل الكثير من التجار الأمريكيين يفلدون إلى زنجبار مما يعرضهم لفقد الكثير من ثرواتهم^(٢) . وعلى الرغم أن من العلاقات بين السيد سعيد والولايات المتحدة الأمريكية ركزت على المعاملات التجارية إلا أن هناك ما يؤكد أن السيد سعيد كان يتوق إلى مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية العسكرية للتوسع في موزمبيق أوفي

Burton, R. op. cit. vol. I P.295.

(١)

Guillain, op. cit. Tome I pp. 198—199.

(٢)

تثبيت سلطته في ممتلكاته بشرق إفريقيا ومما يؤكد ذلك أن بريطانيا اعتراها الكثير من الشك حول مسلك السيد سعيد مع الولايات المتحدة الأمريكية وخاصة أن المعاهدة الأمريكية فتحت المجال أمام صداقة سياسية جديدة قد تكون على الرغم من ثقته الكبرى بأصدقائه الإنجليز ذات منفعة في يوم ما ولربما لعبت دوراً ضدهم ومن أجل ذلك بادرت الحكومة البريطانية بإرسال إحدى سفنها الحربية تحت قيادة الكابتن هارت إلى زنجبار لكي يستوضح حقيقة الموقف ، ولكن السيد سعيد لم يابث أن أظهر لهارت صدق نواياه واستعداده التام لأن يعقد معاهدة مع بريطانيا تماثل تلك المعاهدة التي عقدها مع الولايات المتحدة الأمريكية وتقرير الكابتن هارت عن رحلته هذه إلى زنجبار والتي قام بها في عام ١٨٣٤ مسجل في الوثائق المنشورة للحكومة بمومباي وقد حرص هارت أن يسجل في تقريره قوة السيد سعيد البحرية التي قدرها بسبع سفن حربية تراوح حمولتها بين عشرة وأربعة وسبعين مدفعاً ولكنه ذكر افتقار السيد سعيد إلى ضباط أكفاء لقيادة تلك السفن^(١) . ومن المؤكد أن هارت قد حرص طوال إقامته في زنجبار على أن يبدي إعجابه بسفينة السيد سعيد ليفرول التي كانت تعد أقوى قطع الأسطول العماني حتى أن السيد سعيد اضطر إلى أن يقدمها هدية للإنجليز وطلب من هارت أن يتوب عنه في تقديمها إلى جلالة ملك بريطانيا وليم الرابع كعربون لإخلاصه وصداقته الوطيدة ، وقد ألحقت تلك السفينة بالأسطول الملكي البريطاني ومعاملة للسيد سعيد غير اسمها إلى الإمام^(٢) .

والواقع أن هارت لقي معاملة طيبة من السيد سعيد وتحقق بنفسه من صدق إخلاصه للإنجليز فقد ذكر في تقريره أنه يميل كثيراً إلى كل ما هو

Bombay Govt. op. cit. Captain Hart's visit to Zanzibar (١)
vol. XXIV P. 277.

Lyne, op. cit. P. 18. See also Whigham. Persia and (٣)
the Persian Problem P. 15.

إنجليزى وكان يفخر بقوله إن جميع ما عنده من سروج هى من صنع بريطانيا ويظهر أنه كان يود أن يعتبر نفسه إنجليزيا فى كل شئ وكان كثيرا ما يقول إنه ينظر إلى [الإنجليز على أنهم إخوة له وأنه على استعداد لكى يعطيهم مكانا فى بلاده (١)]. كما أكد لهارت حرصه على تشجيع التجارة الإنجليزية على الرغم من الحقيقة الواقعة وهى أن الغالبية العظمى من السفن التجارية فى زنجبار كانت سفنا أمريكية. وفضلا عن القلق الذى ساور الحكومة البريطانية من نشاط الأمريكين فقد كانت تشك أيضا فى حقيقة التجارة الأمريكية فى الشرق الأفريقى فقد جاء فى تقرير أحد الضباط الإنجليز أنه يتم الأمريكين بالذهاب إلى الشرق الأفريقى حيث يقومون بحمل الرقيق إلى البرازيل وأمريكا اللاتينية (٢). ومن المؤكد أن تأثير بريطانيا على السيد سعيد كان سلبيا فى اضمحلال التجارة الأمريكية فى الشرق الأفريقى حتى جاء الوقت الذى بدأ يعامل فيه القنصل الأمريكى معاملة غير طيبة وهكذا رأت بريطانيا أن تعيد صلاتها بالسيد سعيد خوفاً من انصرافه إلى غيرها من الدول ولعل ذلك ما دفعها إلى عقد معاهدة ١٨٣٩ التى كانت شبيهة إلى حد كبير بالمعاهدة الأمريكية لعام ١٨٣٣ إذ نصت على حرية التجارة وألا يفرض من المكوم الجمركية أكثر من ٥ ٪ وأن يتمتع رعايا كل من الدولتين إزاء الدولة الأخرى بمعاملة الدولة الأكثر رعاية كما نصت المعاهدة أيضا على أنه فى حالة قيام حرب ضد بريطانيا أو السلطنة فيجب أن تمتنع رعايا كل من الدولتين عن حمل معدات الحرب والقتال إلى الدولة المعادية (٣). كما أعطت المعاهدة امتيازات أكثر للقناصل الإنجليز فيما يتعلق بالسلطة القضائية فبينما كانت المعاهدة الأمريكية تنص على أن سلطات القنصل القضائية لا تتعدى الرعايا الأمريكين كانت المعاهدة

Bombay Govt., op. cit. vol. XXIV P. 277. (١)

Coupland R. East Africa & It's Invaders P. 364. (٢)

Younghusband, Glimpses of East Africa P. 238. See (٣)
also Coupland, op. cit. P. 378.

البريطانية تمنح القنصل البريطاني ساطة الفصل بين الرايا البريطانيين وغيرهم . وما يسترعى الانتباه أن بريطانيا أخذت تشارك بنشاط موفور فى تجارة شرق إفريقيا وبادرت بتأسيس قنصلية لها فى زنجبار عقب التوقيع على المعاهدة وعينت الكابتن أتكنز همرتون Hamerton ليكون وكيلا سياسيا وقنصلا لها فى زنجبار بمعنى أنه كان قنصلا من قبل حكومة جلالة الملكة فيكتوريا ووكيلا سياسيا من قبل حكومة بومباي^(١) . وليس من شك أن النفوذ البريطانى فى شرق إفريقيا أخذ يتزايد تزايداً ملحوظاً عقب تأسيس القنصلية البريطانية فى زنجبار وقد علق لين بصدد ذلك بقوله إن وجود قنصل بريطانى فى زنجبار شجع عدداً كبيراً من الهنود على التوافد إلى شرق إفريقيا كما بلغت العلاقات بين السيد سعيد والكابتن همرتون أقصى ازدهارها حتى أن السيد سعيد كان يعتبره ناصحه الأمين ! وكثيراً ما كان يعهد إليه بالاشراف على الحكم فى الشرق الأفرىقى مع ابنه خالد لدى قيامه بتفقد شئون ممتلكاته فى عمان^(٢) . كما كانت تتم عن طريق همرتون جميع المراسلات بين الحكومة البريطانية والسلطان كما كان على القنصل البريطانى القيام بكثير من الأعباء التى كان من أهمها تفقد الرايا البريطانيين من الهنود المقيمين فى الشرق الأفرىقى والذين تزايدت أعدادهم حتى بلغت عدة آلاف كما كان عليه تمثيل الحكومة البريطانية فيما يتعلق بقمع تجارة الرقيق ومحاكمة السفن التى تشتغل بتلك التجارة . وما تجدر الإشارة إليه أن القنصل البريطانى فى زنجبار كان يقوم بوظيفة مزدوجة مما كان يضيف على مركزه أهمية خاصة ولـكن مهامه لم تكن سهلة بطبيعة الحال إذ لم يكن يحدث دائماً أن تتفق السياسة التى تنهجها حكومة الهند مع التعليمات التى كانت تصدرها حكومة لندن .

وعلى الرغم من أن تعامل السيد سعيد مع دولتين كبيرتين قد قوى مركزه

Burton, op. cit. vol. I P. 315.

(١)

Colomb, op. cit. pp. 282—284.

(٢)

See also Lyne, op. cit. P. 34.

في مجال العلاقات الخارجية الدولية وأشيع غروره إلى درجة لم يعد ينظر فيها إلى فرنسا كدولة يعتمد عليها أو يرجو من ورائها نفعاً إلا أننا يجب أن نلاحظ أن عقد المعاهدة الأمريكية في عام ١٨٣٣ والمعاهدة البريطانية في عام ١٨٣٩ كان لا بد أن يعطى فرنسا الفرصة لكي تطالب بقدر من الامتيازات على غرار غيرها من الدول الأخرى ، وخاصة أن مركزها كان يبدو أكثر تفوقاً في شرق إفريقيا حين أعلن الفرنسيون فرض الحماية على مدغشقر وامتد نفوذهم إلى جزيرة نوسيبى^(١). ولا شك أن هذه الأمور أثارت السيد سعيد وتخوفه لما قد ينتج عن ذلك من تهديد الفرنسيين لممتلكاته في شرق إفريقيا وبدأ ذلك واضحاً في عام ١٨٤٠ حينما قدمت بعض قطع الأسطول الفرنسي إلى زنجبار وكان السيد سعيد في مسقط في ذلك الوقت واستقبل ابنه هلال السفن الفرنسية وقدم له الفرنسيون مطالبهم بتأسيس قلعة وبناء قنصلية في زنجبار وإبقاء قواعد عسكرية في براوة ومقديشو ولكن هلال قدم اعتذاره بأنه ليست لديه الساطة لكي يتفاوض معهم في أمور خطيرة في غياب والده^(٢). والملاحظ أن السيد سعيد كان حريصاً على استخدام صداقته للانجليز لدفع الأطماع الفرنسية عن ممتلكاته في شرق إفريقيا ولكننا نلاحظ مع ذلك أنه على الرغم من كتابته إلى بالمرستون وزير الخارجية البريطانية يوضح النفوذ الفرنسي الذي أصبح يهدد ممتلكاته إلا أنه من ناحية أخرى أخذ يعمل على كسب صداقة الفرنسيين. وأكبر الظن أن السيد سعيد وقد عركته التجارب حاول استخدام الضغوط الفرنسية لمساومة الانجليز من ذلك ما ذكره همرتون القنصل البريطاني في زنجبار أن الفرنسيين يباحون في الحصول على معاهدة تجارية بيد أنه يخشى أن لا يقنع الفرنسيون بنفس الشروط التي تضمنتها معاهدة ١٨٣٩ بينه وبين بريطانيا وتساءل عن موقف بريطانيا فيما لو منح الفرنسيين امتيازات أكثر من تلك الامتيازات التي منحها للانجليز ؟ وحينما كتب همرتون إلى اللورد أبردين وزير الخارجية البريطانية يطلعه على ذلك الأمر أعرب اللورد أبردين عن عدم رغبة الحكومة البريطانية في التدخل في شئون

(١) تقع هذه الجزيرة على مسافة مائة ميل إلى الشمال الغربي من مدغشقر .

Coupland, op. cit. P. 422.

(٢)

المعاهدات التي يزعم السلطان ابراهيم مع الفرنسيين أو غيرهم ولكن بشرط أن يطبق على بريطانيا نفس الامتيازات التي تمنح وذلك استنادا على نص معاهدة ١٨٣٩ . ومما هو جدير بالذكر أن المعاهدة الفرنسية مع السلطنة أبرمت في عام ١٨٤٤ ، وقد وصف أحد الباحثين في القانون الدولي^(١) تلك المعاهدة بأنها كانت نصرا كبيرا للسياسة الفرنسية وكانت تعني عودة ازدهار العلاقات بين فرنسا وسلطنة مسقط وزنجبار بعد انكماش تلك العلاقات منذ ١٨١٠ على أثر سقوط جزيرة موريس في أيدي الانجليز . ومما يذكر أيضا أن فرنسا بادرت بتأسيس قنصلية لها في زنجبار على أثر إبرام تلك المعاهدة وأخذت سفن السلطنة العربية تصل في رحلاتها التجارية إلى الموانئ الفرنسية كما نتج عن تلك المعاهدة أيضا تأسيس الكثير من البيوتات التجارية الفرنسية التي أصبح لها نشاطا ملحوظا في تجارة الشرق الأفريقي ومن أبرزها بيت رابو Raboud وفيدال Vidal وغيرهما^(٢) .

ولم تقتصر علاقة الدول الأجنبية بالشرق الإفريقي على التجارة وحدها بل كان هناك مجال آخر فيما يتعلق بالحركات الاستكشافية والتبشيرية . وكثير من المستكشفين والمبشرين أشادوا برعاية السيد سعيد لهم واعتمدوا على نفوذ السلطنة العربية في التوغل داخل الأقاليم الإفريقية وقد تحدث كرابف Krapff في الكتاب الذي وضعه عن الأعمال التبشيرية في شرق إفريقيا عن التسهيلات الكثيرة التي منحها السيد سعيد له وأنه كان يزوده بحاميات للحراسة ورسائل للرؤساء التابعين له في الداخل . والجدير بالذكر أن كثيرا من المؤسسات التبشيرية الإنجليزية والفرنسية قد اضطلعت بشئون التبشير في شرق إفريقيا وتأسست الكثير من المدارس والمراكز التبشيرية في الساحل والداخل^(٣) . وكما لقي المبشرون عناية السيد سعيد ورعايته فقد وجدها أيضا المستكشفون

Kajare (Firouz), op. cit. P. 98 (١)

Coupland R., op. cit. P. 425. (٢)

McMillan (Mona), op. cit. P. 167. (٣)

الأوروبيون الذين قاموا بكشفهم الجغرافية مسترشدين بما أوجده التجار العرب من المراكز التجارية في دواخل شرق إفريقيا وقد نوه المستكشف البريطاني ريتشارد بيرتون Burton عن أهم هذه المراكز الحضرية ودور السلطنة العربية في تقدم حركة الكشف الجغرافية في شرق إفريقيا^(١). ونحن إذا ما عرضنا لتلك البعثات الأوروبية التي اتخذت شكل غزو تبشيري واستكشافي وما كان قد سبق ذلك من نشاطات اقتصادية للدول الأجنبية استطعنا أن ندرك جيدا مقدار الخطر الذي كان يترصص بممتلكات السلطنة العربية في إفريقيا وليس من شك أيضا في أن آمال السيد سعيد في تكوين إمبراطورية عربية إفريقية لم تلاق النجاح الذي كان يريده لها بل إن آماله في تأسيس تلك الإمبراطورية كانت مسئولة عن إهماله إلى حد كبير لممتلكاته في الخليج والجزيرة العربية وكانت المحصلة النهائية تفكك ممتلكاته في كل من عمان وشرق إفريقيا إذ انفصل إقليم صحار في عام ١٨٣٩ كما كثرت الثورات الأباضية وتعددت الغزوات السعودية. ويمكن التعرف على مبلغ ما وصلت إليه منزلة السيد سعيد بقراءتنا لإحدى التقارير التي بعث بها همرتون إلى حكومة الهند في عام ١٨٤١ حيث يذكر « أن الامام سعيد لا يظهر إلا قليلا من العناية بممتلكاته في جزيرة العرب وأن نفوذه في عمان الداخلية قد ولى دون رجعة بسبب الطابع النواهن لحكومته وهو ما يعرفه ويشعر به ». ومن الطبيعي أنه كان من الصعب على السيد سعيد الاحتفاظ بدولة بشتها الإفريقي والآسيوي في نهار القرن التاسع عشر؛ ذلك القرن الذي شهد تفوق قوة أوربا العسكرية والصناعية وشهد هذا الرتل الطويل من المستكشفين والرواد والمبشرين والتجار الأوروبيين الذين انتهوا إلى تلك الحقيقة وهي أن هناك أمكنة في إفريقيا صالحة للاستغلال وأنها قارة جديدة بالامتلاك والسيطرة، وهكذا شاءت الظروف أن تصطدم رغبة السيد سعيد في تأسيس إمبراطورية عربية في شرق إفريقيا مع رغبة الدول الأوروبية في السيطرة على تلك القارة واستعمارها واقتسامها فيما بينها، ويمكننا في هذا المجال أن نستعير ما ذكره بيرس Pearce

في تعليقه على امبراطوريه السيد سعيد في شرق إفريقيا في أنه ولد متأخرا
خمسائة عام ! وفي وقت غير ملائم لتحقيق تلك الآمال التي كان يحرص
عليها^(١). ومهما قيل عن فشل السيد سعيد في المحافظة على ممتلكاته في عمان
أو فشله في الإبقاء على امبراطوريته في شرق إفريقيا إلا أن الأمر الذي لا شك
فيه أنه في خلال السنوات التي قضاها في شرق إفريقيا ترك تأثيره الملمحوظ
في تلك البلاد حتى أصبحت شهرة السيد سعيد في العالم الخاضع ترجع إلى
حكمه في زنجبار أكثر مما ترجع إلى حكمه في عمان .

الفصل السادس

التنظيمات القبليّة في الساحل الجنوبي للخليج العربي

التركيبة القبليّة في الساحل الجنوبي للخليج العربي - اتحاد القواسم - المجموعات القبليّة المنتمية إليه - عوامل ظهوره إلى القوة والتفوق - أصل القواسم وتاريخ وجودهم في المنطقة - النشاط البحري للقواسم - اتحاد بني ياس - المجموعات القبليّة المنتمية إلى بني ياس - امتداد بني ياس من واحة اللبوا إلى أبو ظبي - هجرة البوفلاسة إلى دبي - أثر السياسة البريطانيّة في تفكيك اتحاد القواسم وبني ياس وتكريس الكيانات الاقليمية في المنطقة .



الفصل السادس

التنظيمات القبلية في الساحل الجنوبي للخليج العربي

تتميز التركيبة القبلية للساحل الجنوبي للخليج العربي بقدر كبير من التعقيد بالإضافة إلى التفتت والتبعيد الشديدين اللذين يتسم بهما، حيث ينقسم السكان في ولاعاتهم النسبية إلى عشرات من العشائر قد لا يتجاوز عدد أفراد البعض منها عن مائتي فرد وتتجمع العشائر الصغيرة تحت زعامة عشيرة بارزة تفرض عليها سيطرتها وهيمنتها، فتوكل إليها تلك العشائر الصغيرة مقاليد أمورها وتسمى المجموعة القبلية حينئذ باسم العشيرة الحاكمة. بيد أن هذه الحالات لاتحدث عادة إلا بين العشائر المستقرة التي تحترف الزراعة أو الصيد لأنها بطبيعتها الحياتية تكون أكثر تشبها بالأرض وأكثر خضوعا للقوة العسكرية. ولذلك فإن العشيرة الحاكمة غالبا ماتمثل الجناح العسكري في المجموعة القبلية التي تنزعمها، ولا يحترف أفرادها سوى القتال. وكثيرا ماتغير العشائر الصغيرة ولاعاتها أو نستقل كليا عن القبيلة الكبرى ولا سيما إذا ضعفت المصالح المشتركة بينها وبين المجموعة المنتمية إليها أو إذا ما انتفتت الضرورات الحربية أو تدخلت عوامل خارجية كما سنشير الى ذلك عند حديثنا عن بنية القبيلتين الرئيسيتين في المنطقة وهما الفواصم وبنو ياس اللذان سيطرا على الساحل الجنوبي للخليج العربي في المنطقة التي تشكل حاليا دولة الامارات العربية المتحدة (١).

(١) شاكر خصبالك : مجتمع يتغير - دولة الامارات العربية المتحدة دراسة مسحية شاملة
معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة ١٩٧٧ ص ٥٣٩ .

ومن المفيد أن نشير إلى أن الاتحادين الكبيرين القواسم وبنو ياس برزا إلى القرة حول منتصف القرن الثامن عشر ، وتقسما السلطة السياسية فيما بينهما القواسم في القسم الشمالي ، وبنو ياس في القسم الجنوبي من الساحل العماني ولا يعنى هذا الانقسام أن هناك خلافا بين القبائل الشمالية والجنوبية إذ أن الفروق العنصرية والسلالية تكاد تكون منعدمة فيما بينهم ، وحتى إذا كانت القبائل الجنوبية - كما يرى بعض الباحثين - تنتمي إلى العناصر الحامية فإن ذلك لا يميزها بسمات إثنولوجية خاصة والمفروض أن تكون الفروق بين المجموعتين فروقا ثقافية أساسا بحكم طبيعة الحياة التي يحياها كل من الفريقين^(١) . ولذا قد يكون من المفيد أن نعرض لهذين الاتحادين عل النحو التالي :

أولا : اتحاد القواسم

شجع قيام هذا الاتحاد حول منتصف القرن الثامن عشر ثلاثة عوامل يمكن أن نبرزها فيما يلي :

العامل الأول : يرتبط بفقدان القوة البحرية المتفوقة للبرتغاليين منذ السنوات الأولى من القرن الثامن عشر، وهذا العامل فيما نعتقد كان سببا أساسيا في ظهور ونمو القوى العربية البحرية في الخليج العربي، حقيقة أنه قد أعقب انهيار النفوذ البرتغالي ظهور قوى أوربية جديدة كالهولنديين والإنجليز والفرنسيين إلا أن هذه القوى الأجنبية لم يكن هدفها تأسيس إمبراطوريات على الطراز البرتغالي وإنما وجهت نشاطها بشكل متزايد للتجارة وأعلنت كسر سياسة الاحتكار البرتغالي وبذلك ترك المجال مفتوحاً أمام القوى العربية النامية لكي تمارس نشاطها الملاحي والتجاري ولكنها بطبيعة الحال لم تستطع أن تقف منافسة لهذه القوى الأوربية الجديدة التي أصبحت تملك السفن الكبيرة والشركات الضخمة وتستحوذ على تجارة الشرق ومن ثم وجهت نشاطها المعادي لها باعتبارها سببا في حرمانها من موارد ثروتها^(٢) .

(١) نفسه ص ٥٣٨/٥٣٩ .

(٢) راجع إصدار ذلك مقدمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم لكتاب الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠-١٩٤١ للدكتور جمال زكريا قاسم .

أما العامل الثاني فيرتبط بانتهيار دولة اليعاربة في عمان ، حقيقة أن دولة اليعاربة استطاعت منذ قيامها أن تعمل على تجميع القبائل العربية للقضاء على التفوق البرتغالي ولكي تعيد إلى عمان تماسكها ووحدتها ، إلا أنها لم تلبث أن تعرضت لتمزق داخلي بين قبائلها الهناوية والغافرية وحينما قامت دولة آل أبي سعيد بانتصار الاتحاد الهناوي على الاتحاد الغافري أخذت المعارضة ضد الحكم الجديد تتجمع في المناطق الشمالية ذات الأصول العدنانية مما كان سببا في نشأة الاتحاد القاسمي^(١). والعامل الثالث الذي أفسح المجال لنشاط ذلك الاتحاد يرتبط بحالة الاضطرابات والفوضى التي تعرضت لها فارس على أثر اغتيال نادر شاه في عام ١٧٤٧^(٢) ، وفي خضم هذه الفوضى وقع الأسطول الفارسي في أيدي القواسم ، حيث كان عدد كبير من بحارتهم يتولون قيادة هذا الأسطول منذ تأسيسه على عهد نادر شاه^(٣).

ومما ينبغي الإشارة إليه أن اتحاد القواسم كان يشمل عدداً كبيراً من العشائر التي كانت تنضوي تحت لواء القواسم ومن بين هذه العشائر آل علي وقيميون بصفة رئيسية في مدينتي رأس الخيمة والشارقة كما يفهم عدد منهم في أم القوين حيث تنتمي إليهم الأسرة الحاكمة في تلك الإمارة كذلك ضم الاتحاد القاسمي قبائل المهرة التي تقيم في رأس الخيمة وعشائر البومهيير الذين يقيمون في معظم المدن الساحلية التي تتبع الاتحاد القاسمي وهناك أيضاً آل زعاب الذين يقيمون في رأس الخيمة وجزيرة الحمراء في مدينة كلبا وهم من العشائر المسنكرة التي يشغل معظم أفرادها بالزراعة ولاسيما زراعة

(١) Bombay Govt. Selection from the Records vol. XXIV (١)
P. 300 ff CF. Warden, Francis, Historical Sketch of the
Joasmee Tribe of Arabs 1747-1818 Bombay 1856.

(٢) صالح العابد : دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ / ١٨٢٠ من ص ٣٦ / ٣٧
بغداد ١٩٧٦ .

(٣) Factory, Records, Persia and the Persian Gulf CF. (٣)
Gombroon Diary Feb. 1734—July 1734.

النخيل . ومن القبائل المنتمة للاتحاد القاسمى قبيلة الحبوس الذى يقيم أفرادها فى المناطق الجبلية الشمالية من إمارة رأس الخيمة وخاصة فى ميناء رمس الذى يقع شمال رأس الخيمة فيما وراء مرتفعاتها ، وكذلك قبائل الشحوح الذين يتوزعون فى المناطق الجبلية من رأس الخيمة ، والمطاريش الذين يقيمون فى سهل الباطنة فى مدينة الشارقة ويحترفون الزراعة والصيد وإلى جانب تلك القبائل المنتمة إلى القواسم يمكن الإشارة أيضا إلى الخواطر الذين يقطنون رأس الخيمة كما يشكلون فرعا القسم الجنوبي من قبيلة النعيم التى يقيم معظم أفرادها فى منطقة الظاهرة . كذلك يضم اتحاد القواسم بنى قتب وهم عشائر بدوية فى المقام الأول يتركز أفرادها فى إمارة الشارقة ، وآل بوخريان وهم فرع آخر من قبيلة النعيم يتركز أفرادها فى إمارة عجمان (١) .

ويتضح لنا من هذا التنوع الهائل فى المجموعات القبلية المنتمة للقواسم أنهم لم يكونوا قوة بحرية فحسب وإنما كانوا يتمتعون بالاضافة إلى ذلك بالقوة البرية التى كانت القبائل البدوية تشكل عمادها ومن أبرزها قبيلة بنى قتب السابق إشارتنا إليها وقبائل الغفلة . وإن كانت الصفة البحرية قد غلبت على اتحاد القواسم ؛ نظرا لتوجيه معظم القبائل المنتمة إليه فضلا عن الزعامة القاسمية ذاتها كل نشاطها إلى البحر حتى أصبح الاتحاد القاسمى يشكل قوة بحرية متفوقة خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر (٢) .

وينتمى القواسم إلى المذهب السنى ومن الناحية الطائفية إلى عرب الشمال

(١) من المفيد الرجوع إلى التشكيلات القبلية فى الساحل الجنوبي للخليج العربى فى الدراسة التى وضعها شعبة البحث بشركة الزيت العربية الأمريكية بعنوان عمان والساحل الجنوبي للخليج « الفارسى » — القاهرة ١٩٥٥ .

(٢) جون كلبي : بريطانيا والخليج ج ١ ص ٣٤ وكذلك .

أو التكتل الغافرى بيد أن هناك العديد من الآراء التى ذكرت عن أصل القواسم ومن أين جاءوا إلى المنطقة .

وهناك من المصادر من ترجعهم بأصولهم إلى قبائل نجد وهناك مصادر أخرى تصل فى تخصيصها إلى أبعد من ذلك حين ترجعهم إلى قبائل آل ظفير وذلك فيما يبدو استناد خاطيء إلى ما أشار إليه الشيخ حسين بن غنام مؤرخ غزوات الشيخ محمد بن عبد الوهاب وكذلك عثمان بن بشر^(١) حين تحدثا عن غزوة قام بها الشيخ فى أرض الحجرة عام ١٢٠٩ هـ (١٨٠٥) ، على القواسم من آل ظفير الذى كان يتزعمهم ابن عفيصان ومن المؤكد أن ابن غنام وابن بشر كانا يشيران إلى قبائل أخرى من القواسم تقع بين نجد والعراق وليست قواسم الساحل العمانى إذ أن زعيم قواسم الساحل العمانى فى ذلك الوقت كان الشيخ صقر بن راشد وليس ابن عفيصان والأهم من ذلك أن قواسم آل ظفير كانوا معادين للحركة الوهابية على عكس قواسم الساحل العمانى الذين أيدوا الوهابيين حينما وصلوا إلى سواحلهم . وهناك من الباحثين من يرجع القواسم إلى منطقة الصير بعمان وإذا تحقق هذا رأى فإن هذا يعنى أن استقرار القواسم فى عمان لم يكن استقرارا حديثا وإنما كان ذلك فى فترة بعيدة فى التاريخ وأن امتدادهم إلى الساحل الجنوبى حدث فى فترات تاريخية تالية^(٢) . إذ أن هناك مصادر كثيرة ترجع قدوم القواسم إلى الساحل الجنوبى للخليج فى أوائل القرن الثامن عشر وأن انتشارهم امتد من موساندوم إلى الديرة من أعمال دى^(٣) . وهناك من المصادر تعتبر القواسم

(١) الشيخ حسين بن غنام : تاريخ نجد المعروف بروضه الأفكار والأفهام لمرئاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام تحقيق ناصر الدين الأسد ص ١٨٨ - ١٨٩ وكذلك عثمان ابن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد ص ص ١٠٢ - ١٠٣ انظر أيضا عبد القوى فهمى : القواسم ص ص ٣٧ - ٣٨ .

Bombay Govt. op. cit. Hisrorical Sketsh of Joasmee (٢)
Tribe of Arabs P. 300ff vol. XXIV By Francis Warden
Bombay 1856.

(٣) السامى وناجى عساف : عمان تاريخ يتكلم ص ١٩٩ .

فرعا من عرب الهولة - وهى قبائل تقطن الساحل الشرقى من الخليج العربى بين بوشهر وبندر عباس بالاضافة إلى جزر البحرين التى تعد المعقل الرئيسى لعرب الهولة ولعل ما ذكره صمويل ميلز Miles من انتهاء القواسم إلى عرب الهولة على نحو ما ذكره ابن رزيق دفعت به خطأ إلى أن يقرر أنهم وفدوا من فارس وأقاموا فى الساحل الشرقى للخليج ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الساحل العربى المقابل^(١) ، واستند فى ذلك على ما ذكره الشيخ منصور وهو طبيب إيطالى دخل فى خدمة السيد سعيد بن سلطان وتسمى بذلك الاسم العربى فه أنهم وصلوا إلى الساحل الجنوبى للخليج من مراكزهم الرئيسية فى خرج ولقت^(٢) . أما الرحالة كارستن نيبور فقد أشار إلى انتهاء بعض القبائل الساكنة فى الساحل الجنوبى من الخليج العربى إلى عرب الهولة ولعله كان يقصد بذلك القواسم حيث يذكر أن شيوخ الصير بعان ينتمون إلى تلك القبائل^(٣) . وهناك مصادر أخرى ترجع القواسم إلى الميناء التجارى القديم سيراى ومنه انتقلوا إلى مسقط بعد الانتهاء الذى تعرض له ذلك الميناء والمذكور عرفوا فى مسقط باسم بنى السيراى واستقر بعضهم فى ميناء صور بينما توجه قسم آخر إلى رأس الخيمة ، وتشير مصادر أخرى إلى نسبتهم لقبيلة نزار وهى فصيلة من بنى غافر كانت قد هاجرت من أواسط الجزيرة العربية وأقامت فى عمان منذ القرن السابع عشر الميلادى وهناك فريق من القواسم يؤكدون على أنهم شرفاء ينحدرون من قریش ومن السلالة النبوية الشريفة^(٤) . ولعل ذلك ما يؤكد رأى القائل أنهم يرجعون إلى قبيلة بنى ناصر^(٥) وهى قبيلة عربية كانت تقطن على يسار الكعبة المشرفة . والقواسم باتفاق النسابين عرب عدنانيون ذكرت بعض المصادر

(١) صالح العابد : مرجع سبق ذكره ص ٦٥ .

(٢) Shaikh Mansour, History of Seyyid Said P. 31-32. (٢)
pp. 267-269.

See also Miles, countries and tribes of the Persian Gulf p p. 267-269

(٣) Niebuhr, C. Travels in Arabia vol. II p. 143 -144. (٣)

(٤) صالح العابد : مصدر سبق ذكره ص ٦٥ .

(٥) جمال زكريا قاسم : الإدعاءات الإيرانية فى الخليج العربى من أعمال المؤتمر الدولى

للتاريخ بنى ١٩٧٣ .

المحلية نسبتهم إلى القاسم بن شعوة المزني وهو الذي أخرجه الحجاج بن يوسف الثقفي إلى عمان يقود جيشاً لحرب سليمان بن عباد الجلندي في القرن الأول الهجري وهذا يعني أن القواسم قدماء بأرض عمان ومنها انتشروا في القبائل العربية واختلطوا بها في أماكن عديدة في صور والساحل الشرقي للخليج بالإضافة إلى الساحل العربي^(١)؛ حيث ظهرت زعامتهم على عهد زعيمهم كايد بن عدوان في أوائل القرن السابع عشر الميلادي وكان ذلك حين أراد الشاه عباس الكبير مقاتلة البرتغاليين في هرمز فاستعان بالعناصر العربية على الساحل الفارسي ووجد مساعدة الشيخ كايد الذي انتقل منذ ذلك الوقت إلى جلفار (رأس الخيمة) وهي التي عرفها الملاحون العرب باسم رأس الخيمة .

يتضح لنا مما سبق اختلاف آراء المصادر في أصل القواسم مع ملاحظة أن الكتاب الفرس يركزون على انتماء القواسم إلى الساحل الشرقي للخليج في محاولة لوضع أسس للدعوات الفارسية على الساحل العماني ولكن القواسم باتفاق معظم المصادر عرب اقحاح ينتمون إلى القبائل النجدية وإلى الغافرية بصفة خاصة . ويؤكد ذلك ما قرره الكابتن سيتون Seton وكيل شركة الهند الشرقية البريطانية في مسقط وكان ذلك في بداية اهتمام الشركة بالقواسم ورغبتها في تحرى وجمع المعلومات عنهم كما يؤيد ذلك القول أيضا انضمام القواسم إلى القبائل الغافرية في صراعها ضد القبائل الهناوية وسرعة اعتناق القواسم للدعوة الوهابية مما يؤكد أصولهم النجدية^(٢) . وحتى إذا اعتمدنا على ما ذكرته بعض المصادر من انتماء القواسم إلى الساحل الشرقي للخليج فإن ذلك الساحل كان مركز تجمع القبائل العربية وذلك قبل أن تعمل إيران بعد نمو الحركة القومية بها في أعقاب الحرب العالمية الأولى على تفريس العناصر العربية التي تقطن على سواحلها منذ عهد رضا شاه بهلوي .

(١) سالم بن حمود السبيعي : إيضاح المهالم في تاريخ القواسم ص ٣٧ دمشق ١٩٧٦ .

انظر أيضا ابن رزيق الفتح المين ص ٢١٤ .

(٢) عبد القوى فهمي : القواسم ونشاطهم البحري ١٧٤٧ - ١٨٥٣ ص ٣٩ - ٤٠ .

وإذا كان هناك خلاف حول أصل القواسم فإن الغموض أيضاً يكتنف بداية ظهورهم ، وثمة فرق بين ما نعينه بالقواسم في حد ذاتهم وبين اتحاد القواسم الذي كان يشتمل على قبائل أخرى غير القواسم ، وإذا أخذنا بالمفهوم الثاني فإن الاتحاد القاسم لم يظهر إلى القوة إلا في القرن الثامن عشر الميلادي وكان يعد من أكبر التجمعات القبلية التي شهدتها منطقة الخليج العربي بل إن وثائق حكومة بومباي تؤكد أن معظم القبائل القاطنة في الساحل الجنوبي من الخليج قد نسبت إلى القواسم مما يدل على اتساع نفوذ ذلك الاتحاد وهيمنتته على المنطقة وعلى أجزاء لا يستهان بها من الساحل الشرقي المقابل . أما عن القبيلة الرئيسية وهي القواسم فإن انتمائها إلى المنطقة يعود إلى فترة بعيدة في التاريخ وبصدد ذلك تذكر وثائق حكومة بومباي أن القبائل العربية ساندت مالك بن فهم عند وصوله إقليم عمان وكان ذلك عقب انهيار سد مأرب في اليمن ^(١) وهناك رواية أخرى تؤكد وصول القواسم إلى الساحل الجنوبي للخليج حول القرن السابع الميلادي أما القواسم أنفسهم فلمهم يروون عن أسلافهم بأنهم وصلوا المنطقة واستقروا بها منذ فترات بعيدة في التاريخ ^(٢) . وأصدق الروايات ترجيحاً أنهم وجدوا في المنطقة منذ عهد عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف الثقفي كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ^(٣) .

وتختلف الروايات التاريخية عن المعقل الرئيسي للقواسم وزعمائهم الأول فأحدى هذه الروايات تنسب إلى زعيم القواسم الأول الشيخ قاسم بنائه لمدينة رأس الخيمة حيث تذكر أنه نصب خيمته في نقطة تقع على الساحل العربي مقابل مدينة جلفار بحيث كانت تراها جميع السفن المارة في الخليج ومن ثم

(١) Bombay Government, S.R.B.G. vol. XXIV P. 4

(٢) عبد القوى فهمي : مرجع سبق ذكره ص ٤١ .

(٣) المفصل في تاريخ الإمارات العربية ج ١ ص ٦٢ راجع أيضاً ابن رزيق : الفتح المئين ص ٢١٤ الذي يطلق عليهم في ذلك الوقت عرب نزار .

أطلق البحارة على ذلك المكان اسم رأس الخيمة ، في حين تؤكد رواية أخرى أن القواسم ينتسبون إلى الشيخ رحمة الذي لقب بكاييد بن عدوان لسطوته وجبروته . وتؤكد وثائق بومباي على أن الشيخ كاييد وايس الشيخ قاسم هو الذي بدأ الاستقرار في ذلك المكان الذي تطور إلى مدينة تحمل اسم رأس الخيمة . وعلى الرغم من أن هذه الروايات ترجع إلى القرن السابع عشر الميلادي إلا أنه من المؤكد أن مدينة رأس الخيمة كانت أسبق في الظهور من هذا التاريخ وما يؤكد لنا ذلك أن الملاح العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد قد ذكرها باسم جلفار في بعض مؤلفاته الملاحية في القرن الخامس عشر الميلادي حيث أورد اسمها صراحة كواحدة من الموانئ العربية في أرجوزته الشهيرة عن بنادر العرب في خليج فارس ^(١) . ومهما يكن من أمر فإن تركيز المصادر على القواسم يرجع إلى القرن الثامن عشر الميلادي حين بدأ دورهم البحري يظهر بوضوح وخاصة حين انتهزوا فرصة الغزو الأفغاني لفارس ١٧٢٢ فسيطروا على جزيرة قشم كمابرزوا أيضاً إلى مجال القوة في الفترة التي أعقبت اغتيال نادرشاه وقبل ذلك في خلال الصراع بين الكتلتين الهناوية والغافرية في عمان حيث وقف زعيم القواسم الشيخ رحمة بن مطر إلى جانب الزعيم محمد بن ناصر الغافري ضد خلف بن مبارك الهناوي في الصراع العنيف الذي دار بينهما وبؤكد ابن رزيق ^(٢) ، أن الزعيم محمد بن ناصر الغافري استقدم في عام ١٧٢٣ بدوا من الشمال كما جاءت امدادات من جلفار وأميرها يومئذ هو الشيخ رحمة بن مطر حيث أوكل إليه قيادة إحدى فرقته ولسكن على أثر مقتل الزعيم محمد بن ناصر انكمش القواسم في منطقة الصبر حتى قدمت حملة فارسية على عمان في عام ١٧٣٧ فاستسلموا لها في بداية الأمر ولكنهم لم يلبثوا أن هاجموها مع غيرهم من القبائل ووجد أحمد بن سعيد

(١) أورد ابن ماجد ثغور جلفار وسيراف وهرمز من سواحل الخليج العربي - انظر أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح ص ١٦٤ .

(٢) ابن رزيق : الفتح المبين ص ٣٦٨ ويطلق ابن رزيق على القواسم أهل الصبر .

والى اليعاربة على صحار تعاوناً كبيراً منهم حيث استعان بهم فى مهاجمة ميناء بندر عباس ولكن لم يلبث أحمد بن سعيد بعد أن عقدت الإمامة له وأتم تخليص المقاطعات العمانية من الفرس أن أخذ اعتماده يتزايد على الكتلة الهناوية ومن ثم وقف الغافريون ومن يذهبهم القواسم موقف المعارضة من حكمه مما أثار نزاعاً كبيراً بينه وبين القواسم؛ وإن كانت المصالح المشتركة حتمت فى كثير من الأحيان اتفاقه وتعاونه معهم ولكن ذلك لم يمنع زعيم القواسم رحمة بن مطر من إعلان إستقلاله بحكم المناطق التى آلت إليه فى الساحل العماني وبذلك يعاصر الاتحاد القاسمى نشأة دولة آل أبى سعيد و سقوط دولة اليعاربة فى عمان . واضطر الامام أحمد بن سعيد إلى الاعتراف للقواسم بسيادتهم الفعلية وذلك بعد سلسلة من المعارك العنيفة التى دارت بينهما (١) .

استطاع القواسم منذ منتصف القرن الثامن عشر أن يمتدوا بنفوذهم من رأس مسندم حتى دى كما امتدت سيطرتهم على بعض الموانئ والجزر الواقعة على الساحل الشرقى للخليج وخاصة جزيرة قشم وكنج ولنجه (٢) . كما تمكنوا من تجميع أسطول كبير حيث سقطت كثير من السفن الفارسية تحت أيديهم بالإضافة إلى ما كانوا يستولون عليه من السفن الأوروبية بسبب عملياتهم البحرية المتنامية . وبوفاة الشيخ رحمة بن مطر فى عام ١٧٥٨ تولى زعامة الاتحاد القاسمى الشيخ راشد ابن مطر حتى عام ١٧٧٧ وفى عهده زادت قوة القواسم البحرية وتمكنوا من السيطرة على كثير من الموانئ والجزر الواقعة على الساحل الشرقى للخليج مستغلين فى ذلك حالة الضعف التى كانت تعانيها فارس فتمكنوا من السيطرة على جزيرة قشم ولفت ولنجه فى عام ١٧٦٥ كما سيطروا على شيناص التى تقع على ساحل الباطنه وفى عام ١٧٧٢ تحالف الشيخ راشد بن مطر مع الإمام

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن : الدولة السعودية الأولى ص ٢٥٧ .

معهد الدراسات العربية - القاهرة ١٩٦٩ .

(٢) المفصل فى تاريخ الإمارات ج ١ ص ٢١٤ .

أحمد بن سعيد ضد الفرس ثم عاد وتنازع معه في عام ١٧٧٥ وبعد ثلاثين عاماً من الحكم تنازل الشيخ راشد عن مشيخة القواسم لابنه صقر بن راشد الذي استمر قائماً بالحكم فيما بين عامي ١٧٧٧ و ١٨٠٣ وفي عهده تم التحالف بين القواسم وبني معين وهم قبيلة عربية كانت تحكم في قشم وهرمز حيث تزوج الشيخ صقر من ابنة الشيخ عبد الله بن معين مما أعطى القواسم قوة بحرية ضخمة تمكنوا بها من السيطرة على الشؤون التجارية والعسكرية في الخليج وتأكدت لهم تلك السيطرة على أثر اغتيال كريم خان الزندي ١٧٧٩ وما ترتب على ذلك من تردى فارس في مشاكلها الداخلية ، وحينما اعتزل الشيخ صقر مشيخة القواسم في عام ١٨٠٣ وصل إلى الزعامة الشيخ سلطان بن صقر وقدر له أن يتمتع بحكم طويل استمر أكثر من نصف قرن حيث توفي في عام ١٨٦٦ وشهد حكمه أحداثاً خطيرة في تاريخ المنطقة ولم يكن عهده مستمراً إذ أنه عزل بضع سنوات من قبل السعوديين حينما اتجه إلى التحالف مع السيد سعيد سلطان مسقط وكان ما ساعد السعوديين على عزله عدم تقبل القواسم لهذا التحالف ، ولكن الشيخ سلطان تمكن أن يسترد حكمه بعد أن فر من سجنه بالدرعية ووصل إلى مسقط عن طريق اليمن^(١) حيث وجد أطرافاً عديدة كانت على استعداد لتقديم العون له وعلى الأخص السيد سعيد والإنجليز ومحمد علي حين بدأت قواته تطرق شبه الجزيرة العربية وتتجه للوصول إلى سواحلها ، وعلى الرغم من عودته إلى الحكم إلا أنه لم يستطع أن يعيد الاتحاد القاسمي إلى سابق وحدته حيث ظهرت زعامتان للقواسم إحداهما في رأس الخيمة وعلى رأسها الشيخ حسن بن رحمة والأخرى في الشارقة التي استقر بها الشيخ سلطان بن صقر منذ عام ١٨١٦ واستمر ذلك الوضع قائماً حتى قام الإنجليز بحملتهم العسكرية على رأس الخيمة في عام ١٨١٩ حيث نجح الشيخ سلطان بن صقر في الانتقال إلى رأس الخيمة بعد أن أمده الإنجليز بأموال لإعادة بنائها بشرط أن يمتنع عن مهاجمة السفن الإنجليزية طبقاً

لشروط معاهدة السلام العسامة التي وقعت مع شيوخ الساحل العمانى في عام ١٨٢٠ (١) .

والفترة التي برز فيها القواسم كقوة بحرية ضاربة يمكن تحديدها بين عامي ١٧٤٧ و ١٨١٩ وفي خلال هذه الفترة أقلق القواسم بريطانيا ولم يتوانوا عن مهاجمة أية سفينة تحمل العلم البريطانى سواء كانت تابعة للانجليز أو لرعاياهم كما أخذ القواسم على هاتقهم تحدى النفوذ البريطانى الذى بدأ يتسرب إلى المنطقة حيث امتاز القواسم بالصلاية والشجاعة وحب المغامرة حتى اضطر الانجليز في بداية الأمر إلى دفع ترضيات للقواسم مقابل المرور في مياههم ولكن عندما شعر الانجليز أن في مقدورهم مهاجمة القواسم بعد تصفية صراعاتهم مع الدول الأجنبية وبعد تثبيت نفوذهم في الهند رفضوا دفع الأموال لهم واعتبروا دفاع القواسم عن سواحلهم ومياههم عملاً من أعمال القرصنة واتهموا القواسم بأنهم قراصنة حقيقيون همهم سلب السفن التجارية وقطع العلاقات بين الشرق والغرب (٢) .

وعلى نحو ما أشرنا نجح القواسم في تأكيد سيادتهم على المنطقة الساحلية الممتدة من موساندوم إلى ديرة دبي وظهرت وانتعشت في منطقة نفوذهم هذه الكثير من الموانئ التي كان من أبرزها بطبيعة الحال معقلهم الرئيسى في رأس الخيمة ؛ والشارقة التي كانت تعتبر القاعدة الثانية للقواسم ؛ وجزيرة الحمراء وأم القوين والحميرية وعجمان ، كما امتدت سيطرة القواسم أيضاً على الساحل الفارسى حيث ضموا إليهم ميناء لنجه ومحوله من جزر وزادت قوة القواسم بانضمام آل على وهم المعلا حكام إمارة أم القوين والفجيرة اللذين كانا من توابع القواسم . كما انضم إلى الاتحاد القاسمى قبيلة آل نعيم بفخوذها الأربعة آل بوخريان الذين أصبحوا الفخذ الحاكم في إمارة عجمان والفخذ

(١) عبد القوى فهمى : مرجع سبق ذكره ص ٤٧ .

(٢) السالى وناجى عساف : عمان تاريخ يتكلم ص ٢٠٠/٢٠١ .

الثاني وهم آل بوشامس زعماء النعيم ؛ والفخذ الثالث الخواطر في رأس الخيمة ، والرابع بنومعين في جزيرة جسم^(١). والجدير بالذكر أن السلطة التي كان يمارسها زعماء القواسم على مناطق نفوذهم وعلى القبائل القاطنة فيها لم تكن سلطة استبدادية أو مطلقة فعلى الرغم من أن الشيخ الأعلى للقواسم كانت له السلطة العليا على القبائل الداخلة في اتحاد القواسم إلا أنه كان لكل ميناء من تلك الموانئ التي سبق أن أشرنا إليها شيخه الذي يمارس الحكم فيه وفقاً للأسلوب القبلي وإن كان يدين بالولاء للشيخ الأعلى ، كما كانت تتم مناقشة القضايا العامة بانعقاد مجلس كبير يرأسه الشيخ الأعلى ويضم الشيوخ التابعين وكبار رجال القبائل وفي ذلك المجلس كانت تقرر الحلول للقضايا موضوع البحث^(٢). كما أن هناك قيد آخر كان يحول دون استبدادية الشيخ وهذا القيد يتمثل في العادات والأعراف القبلية المتعارف عليها والتي كان يتحتم على الشيخ مراعاتها لابقاء ولاء القبائل التابعة له . كما كان الشيخ الأعلى مضطراً إلى أن يسلك سياسة مرنة تجاه القبائل البدوية الموالية له خشية من تغير ولائها ، كما كانت تكمن قوة الشيخ القاسمي في سيطرته على النواحي الاقتصادية والعسكرية فهو المهيمن على المراكز التجارية الهامة في المنطقة ناهيك عن امتلاكه لقوة ضاربة في البر والبحر مكنته من السيطرة على المنطقة الخاضعة له^(٣) . وكان القواسم بسبب ظروف بيئتهم القاسية يعتمدون على البحر في كسب معيشتهم وفي البحر أيضاً كانوا يمارسون معظم نشاطهم السياسي والاقتصادي حيث ساعدتهم طبيعة الساحل المعروفة بكثرة تعاريجها وخلجانها وأخوارها وألسنتها الرملية وجزرها المغمورة على إيجاد موانئ طبيعية مارسوا فيها نشاطهم البحري والعسكري. ومع ذلك تجدر الإشارة هنا إلى أن الطابع العسكري لم يكن هو الطابع المميز للقواسم وخاصة في الفترة

(١) فالح حنظل : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٦٤ .

(٢) جمال زكريا قاسم : الأسس التاريخية لوحدة الامارات العربية من أعمال ندوة تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة - مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت مارس ١٩٨١ .

(٣) صالح محمد العابد : مرجع سبق ذكره ص ٧٣ .

التي سبقت اصطدامهم بالقوى الأجنبية منذ نهاية القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر فن المعروف أن القواسم كانوا يمارسون أنشطة سلمية عديدة خاصة صيد اللؤلؤ والتجارة والأسفار البعيدة التي كانوا يقومون بها إلى سواحل الهند وشرق أفريقيا^(١). وقد استلقت نشاط القواسم السلمى والحربى نظر العديد من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المنطقة خلال تصاعد قوتهم البحرية ولعل من أهم أولئك الرحالة الأوروبيين كارستن نيبور الذى زار المنطقة فى عام ١٧٦٥ وقدم لنا صورة حية عن نشاط القواسم البحرى ، كما أكد بكنجهام الذى زار المنطقة فى أوائل القرن التاسع عشر صفة المهارة والمثابرة والإخلاص فى عهودهم وسجل ذلك فى الجزء الثانى من كتابه المعروف رحلات فى آشوريا وميديا وفارس^(٢). وتعتبر كتابات بكنجهام من أهم الكتابات التى تحدثت عن القواسم فى القرن التاسع عشر خاصة وأنه كان شاهد عيان لبعض الأحداث والوقائع التى كتب عنها إذ أنه زار رأس الخيمة فى عام ١٨١٦ والتقى بزعيم القواسم حسن بن رحمة وذلك بعد الاطاحة بالشيخ سلطان بن صقر من قبل السعوديين كذلك تناول الأدميرال لو Low فى كتابه عن تاريخ البحرية الهندية نشاط القواسم والمتاعب التى كان يتعرض لها الأسطول الإنجليزى فى الهند نتيجة اعتداءاتهم وهناك من الرحالة الذين تحاملوا على القواسم فى الوقت الذى نجد فيه رحالة آخرين أبدوا إعجابهم بما كانوا يتمتعون به من قوة بحرية ولعل الرحالة ولستد Wellsted قد اتصف بالموضوعية عند حديثه عن القواسم على عكس الرحالة هود Heude التى تلسم كتاباته عن القواسم بالكراهية الشديدة

Buckingham. Travels in Assyria, Media and Persia (١)
vol II P. 210—211 London 1830. See also Miles op. cit. vol.
II P. 442.

Buckingham, op. cit. pp. 210—211. (٢)

وبؤكذ لو فى كتابه أن القواسم امتدوا بمبلياتهم البحرية حتى سواحل الهند انظر .

Low, Charles, History of the Indian Navy vol. I P.352 ff.

والتحامل العنيف عليهم أما كتابات الشيخ منصور Vincenzo فتتنصف بقدر كبير من الموضوعية رغم أنه كان يعمل في خدمة السيد سعيد أعدى أعداء القواسم ويشابه الشيخ منصور في كتاباته الموضوعية كل من ايتشيسون وفريزر حيث أكد الأول على ممارسة القواسم لتجارة بحرية نشيطة ومربحة حتى اصطدموا ببريطانيا منذ أوائل القرن التاسع عشر^(١). أما فريزر فقد أكد على صفة الشجاعة والنخوة والحمية التي تميز بها القواسم وإن وصف عملياتهم بالسلب والقرصنة.

ولعل ما يسترعى انتباهنا النشاط السلمى الذى كان يتميز به القواسم قبل اتجاههم إلى الناحية العسكرية ولكن هذا النشاط أخذ يضعف نتيجة تأسيس الشركات التجارية الكبرى التي ظهرت في بداية عصر التوسع الاستعماري في بحار الشرق وامتدت تلك الشركات بفروعها ووكالاتها التجارية ونشاطاتها الاقتصادية والسياسية إلى منطقة الخليج العربي ولما كانت البيئة قاحلة والمنافسة التجارية غير متساوية فقد بدأت المنطقة التي يسيطر عليها القواسم تعاني أنماطا من الفاقة مما جعل القواسم يتصدون للسفن التجارية المحملة بالثروات التجارية والتي كانوا لا يستطيعون منافستها بطبيعة الحال وعلى الرغم من أن القواسم كانوا يجنون أموالا طائلة من نشاطاتهم البحرية هذه التي أطلقت عليها كثير من المصادر الأجنبية تعبير السلب أو القرصنة^(٢) إلا أن هدفهم الرئيسى كان مركزاً حول الانتقام من القوى الأجنبية التي عاث ممثلوها بالبر تغاليون فسادا لسنوات عديدة في سواحلهم^(٣) ومن ناحية أخرى فإن طبيعة القواسم البحرية كانت نتيجة طبيعة لنسب حياتهم وحرفهم الرئيسية فهم يقومون بصيد الأسماك واستخراج الزؤلؤ في أوقات السلم غير أن هذه الأعمال تقتصر

Aitchison, A Collection of Treaties, Engagements and (١) Sands relating to India and Neighbouring Countries vol. XII P. 352 Calcutta 1909.

CF Kemball A., observation on the past policy (٢) towards the Arab Tribes of the persian Gulf S.R.B.G. vol. XXIV. P. 61 ff.

(٣) شاكر خصبك : بحث سبق ذكره ص ٥٤٢ .

على أشهر معدودة في السنة أما في خلال فصل الشتاء فإن قسوة البحر على الشواطئ المفتوحة كانت تحول بينهم وبين مزاولة مهتهم بنجاح بينما تقل الزراعة فيعانون من جراء ذلك ببطالة شاملة . ونتيجة لتلك الظروف البيئية أخذ القواسم يسيطرون على النشاط البحري في المنطقة وبرزت سيطرتهم الواضحة خلال القرن الثامن عشر ومكثهم من ذلك انحسار الموجة البرتغالية الاحتكارية وعدم وجود قوى بحرية مجاورة فاليغاربة انهارت قوتهم البحرية نتيجة صراعاتهم الداخلية وفقدت فارس نفوذها البحري بعد اغتيال نادرشاه ومن ثم انفسح المجال أمام القواسم لكي يديروا الحركة الملاحية بين موانئ الخليج من ناحية وبين تلك الموانئ وموانئ الهند والشرق الإفريقي من ناحية أخرى .

وحينما أخذت القوى الأجنبية بما فيها بريطانيا تتجه إلى السيطرة على تجارة الشرق كان من الطبيعي أن يعجز أسطول القواسم عن منافسة الشركات البريطانية وغيرها ومن ثم تحول نشاط القواسم منذ منتصف القرن الثامن عشر إلى الناحية العسكرية فقاموا بمغامرات بحرية بهدف الاستيلاء على السفن التجارية التابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية التي كانت تتمر بسواحلهم مما جعل المصادر الأجنبية نطاق على هذه العمليات التعبير الذي استخدم في ذلك الوقت وهو القرصنة ، وكما سبق أن أشرنا أن الأوروبيين على اختلاف جنسياتهم مارسوا القرصنة في المحيط الهندي منذ ظهور البرتغاليين في القرن السادس عشر الميلادي واستمر أسلوب القرصنة شائعاً حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي حتى أن فرنسا كانت على سبيل المثال ترخص لبعض بحارتها المشهورين بالجرأة والمغامرة بمهاجمة سفن الأعداء والحصول على الغنائم التي تنتج عن ذلك لحسابهم الخاص ، ولعل ذلك هو أهم فرق بين القرصنة والحروب الرسمية ، أي أنه إذا تم الاستيلاء على السفن لحساب الدولة فلن ذلك يكون من أمور الحرب المتعارف عليها ، أما إذا استولى أفراد

لحسابهم الخالص على الغنائم فإنها تصبح بذلك قرصنة، وإذا طبقنا هذا المفهوم في القانون الدولي على منطقة الخليج العربي في تلك الفترة فإن العمليات العسكرية التي كان يقوم بها القواسم كانت تعتبر من الحروب الرسمية. وذلك لأن القواسم وصلوا إلى درجة لا بأس بها في التنظيم السياسي ومن ناحية أخرى فإن القبيلة في المفهوم الاجتماعي السائد كانت تشكل وحدة سياسية رسمية، وعلى الرغم من أن بريطانيا لم تعترف بذلك، حتى تتيح لنفسها القضاء على ما وصل إليه القواسم من قوة عسكرية وبحرية إلا أنها عادت واعترفت بالقبيلة كتنظيم سياسي؛ يدل على ذلك أنها عقدت معها المعاهدات والاتفاقيات. والخلاصة أن النشاط البحري للقوى العربية في الخليج وخاصة تلك الأنشطة التي كان يقوم بها القواسم في البحر كانت صورة لما يقع من علاقات بين القبائل في البر وإذن فإن تلك الأنشطة كانت تتم لحساب القبيلة وبذلك لا يمكن اعتبارها قرصنة إذا أخذنا مفهوم القبيلة على أنها صورة للدولة في مجتمعات الخليج والجزيرة العربية^(١). وقد استطاع القواسم أن يحرزوا شهرة بحرية لا تضارع وساعدهم على ذلك الموقع الجغرافي فالساحل الذي يسيطرون عليه كثير التعاريج ومن ثم كان يسهل على القوارب الصغيرة التابعة للقواسم أن تتخذ منه ملاجئ طبيعية لها، ومما تجدر الإشارة إليه أنه بسبب مزاوله القواسم للأعمال البحرية المعادية للسفن الأجنبية فقد أطلق الأوروبيون على الساحل الممتد من رمس جنوباً إلى دبي شمالاً اسم ساحل القرصان Pirate Coast وعلى الرغم من أن منطقة نفوذ القواسم لم تتعد ميناء دبي إلا أن هذا الاسم قد استخدم بمداول أوسع ليشمل الساحل الممتد من رمس إلى أبو ظبي بل تعدى ذلك إلى شبه جزيرة قطر.

(١) لعل من أهم المؤلفات العربية التي ناقشت هذه الفكرة، التيارات السياسية في الخليج العربي للدكتور صلاح العقاد ص ٩٠ / ٩٢ وعبد العزيز عبد الغنى: بريطانيا وإمارات الساحل العماني ص ١٣٨ وما بعدها (ط) البصرة. وعبد الأمير محمد أمين وصالح العابد ومصطفى النجار. وجمال زكريا قاسم في مؤلفاتهم المختلفة عن الخليج. راجع قائمة المصادر.

ثانيا : اتحاد بنى ياس

شكل هذا الاتحاد التحالف القبلى الثانى فى الساحل الجنوبى للخليج العربى إذ امتدت سيطرة قبائل ذلك الاتحاد من جنوب قطر على طول الساحل إلى دى ولم يقتصر الأمر على الساحل فحسب بل امتد نفوذ بنى ياس إلى منطقتى الظاهرة والبريمى . وقد تزعمت عشيرة بنى ياس ذلك الاتحاد وهى عشيرة برزت إلى مجال الزعامة منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادى^(١)؛ وامتلكت قبيلة آل بوفلاح السلطة السياسية والعسكرية فى ذلك الاتحاد وعلى الرغم من أن مصدر قوة بنى ياس هى القوة البرية وليست البحرية كما هو الحال بالنسبة لاتحاد القواسم ، ومع ذلك فقد استطاع بنو ياس أن يكونوا لأنفسهم قوة بحرية لا يستهان بها بالإضافة إلى قوتهم البرية وحدث ذلك حينما تحولوا إلى الساحل واتخذوا من جزيرة أبو ظبى مركزا لهم . ومما تجدر الإشارة إليه أن اتحاد بنى ياس ، مثله فى ذلك مثل اتحاد القواسم ، ليس قبيلة واحدة وإنما كان يتألف من عشرين قبيلة تتراوح بين القبيلة الصغيرة والكبيرة مع التسليم بأن قبيلة بنى ياس كانت أضخم قبائل ذلك التنظيم^(٢) بل كانت من أكبر القبائل التى ظهرت فى منطقة الساحل الجنوبى للخليج العربى . ويعتقد كثير من الباحثين أن قبيلة بنى ياس قبيلة حديثة التواجد نسبيا فى أرض الظفرة ولا سيما فى منطقة اللبوا إذ تذكر إحدى هذه المصادر أن قبيلة بنى ياس لا يتعدى تواجدها فى المنطقة أكثر من ثلاثة قرون حيث تقاسمت هى وقبيلة المناصير العيش فى واحة اللبوا التى تتكون من حوالى خمسين قرية سكنتها القبيلتان اللتان تحالفتا فيما بينهما وتزعم هذا التحالف عشيرة آل بوفلاح التى كانت تمثل القلب البدوى المحارب فى هذا التحالف القبلى ، وينتسب آل بوفلاح

(١) راجع بصدد ذلك S.R .B.G. vol. XXIV Benyas Tribe P. 461 ff

(٢) Miles, S., Countries and Tribes of the Persian Gulf (٢) vol. II P. 438,

إلى بني ياس^(١). ولعل أول إشارة ذكرت عن بني ياس في واحدة اللبوا تمتد إلى عهد اليعاربة في السنوات الأولى من القرن السابع عشر وذلك في مخطوطة عمانية قدمتها نشرها روس تسمى كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة المؤرخ سعيد بن سرحان الأزكوي^(٢). وعلى الرغم من أن المنطقة الرئيسية التي استقر فيها بنو ياس قبل أن تنضم إليهم العشائر الأخرى هي منطقة الظفرة إلا أن سهولة تحرك القبيلة على رقعة واسعة من الأراضي بسبب طبيعتها البدوية المتنقلة قد مكنت زعيمها نهيان من مد نفوذه إلى جهات واسعة في الداخل ومن المعروف أنه حكم خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ويعد الحاكم الثالث من تلك العشيرة إذ سبقه بطبيعة الحال المؤسس الأول وهو الشيخ ياس التي أخذت القبيلة اسمها منه ثم الشيخ فلاح الذي ينتسب إليه آل نهيان^(٣). على أنه مما يستلفت النظر عدم ارتباط اتحاد القواسم وبني ياس فيما بينهما على الرغم من الظروف الخارجية التي كانت تهدد المنطقة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر ولعل تفسير ذلك يرجع إلى انتماء بني ياس إلى الكتلة الهناوية وانتماء القواسم إلى الكتلة الغافرية مما أدى إلى قيام صراعات فيما بينهم وإن كانت المصالح المشتركة حتمت في كثير من الأحيان قيام علاقات حسن الجوار بين الاتحادين^(٤).

وقد يكون من المفيد أن نعرض فيما يلي إلى أهم القبائل والفصائل التي يتشكل منها اتحاد بني ياس وهي على الوجه التالي :

(١) محمد مرسى عبدالله : إمارات الساحل و عمان والدولة السعودية الأولى ص ٩٨ .

(٢) CF. Ross, Annals of Oman by Said Bin Sirhan 1874.

انظر أيضاً مخطوطة المعولي : قصص وأخبار جرت في عمان ورقة ٦٤ حيث جاء ذكر بني ياس وبدو الظفرة في عام ١٠٤٣ هـ خلال الصراع العماني ضد البرتغاليين .

(٣) انظر شجرة أنساب بني ياس في المجلد الثاني من كتاب دولة الامارات العربية المتحدة وجيرانها للدكتور محمد مرسى عبدالله - الكويت ١٩٨١ .

(٤) شاكر خصبك : بحث سبق ذكره .

- البوفلاح، وهى عشيرة كما سبق أن أشرنا تمثل القلب البدوى المحارب لعشائر بنى ياس وهى تتألف من بطون عديدة لعل أبرزها آل نهيان فى أبو ظبى وآل محمد فى واحة ليوا ويطلق على البوفلاح لقب الشيوخ وهم فى العادة يمتلكون البساتين وقوارب الصيد وتجارة اللؤلؤ كما كانوا يمتلكون القطعان الكبيرة . ويختلف النسابة فى أصل آل نهيان فهناك من يقول أنهم من الدواسر وهى منطقة تقع غربى نجد ثم انتقلوا إلى الظفرة وأقاموا بين قبائل بنى ياس إلى أن أتيح لهم تكوين إمارتهم والتصدى لزعامه بنى ياس .

- الرواشد، وهم من أكبر أقسام قبيلة بنى ياس ويمثلون عنصرا أساسيا من عناصر السكان بها ويعتبر فرع البوفلاسة الذى ينتمى إليه آل مكتوم حكام دى أهم فروع الرواشد^(١) . والجدير بالذكر أن آل مكتوم انتقلوا إلى دى منذ عام ١٨٣٣ . ويرى بعض الباحثين المحليين أن دى كانت تابعة للقواسم قبل انتقال آل مكتوم إليها إلى أن اعترفت لهم بريطانيا بإمارة دى^(٢) . وإن كنا نعتقد أن دى كانت تابعة لأبو ظبى حيث شارك حاكمها من آل نهيان فى التوقيع على معاهدة الصباح العامة فى عام ١٨٢٠^(٣) .

وإلى جانب هذين القسمين الكبيرين الذين كان يتشكل منها اتحاد بنى ياس ، ونعنى البوفلاح والرواشد ، كان هذا الاتحاد يشتمل على مجموعات قبلية عديدة كالهوامل والمناصير والمخارقة والقيسات والرميثات والمزاريع وغيرها^(٤) ، وعلى الرغم من تعدد فصائل القبائل التى ينتمى إليها اتحاد بنى ياس إلا أن ذلك الاتحاد نجح فى أن يكون من أقوى التنظيمات

(١) السيابى : إيضاح المعالم فى تاريخ القواسم ص ١٩٦ .

(٢) المراجع السابق ص ١٩٦ .

(٣) راجع المعاهدة العامة فى ملاحق الكتاب .

(٤) من القبائل المنتمة إلى اتحاد بنى ياس آل بومهيير وآل بوحيمير والمرر والسودان والسبايس والقمزان . . الخ .

القبيلة من حيث التماسك إلى درجة جعلت البعض يعتقد أنهم عشائر لقبيلة واحدة وليست قبائل متحالفة أى أنها تعود إلى أصل واحد، وبطبيعة الحال ليس من المتوقع أن ترتبط القبائل المنضمة إلى ذلك الاتحاد بروابط القرابة ولكنها ترتبط بتواجدها ضمن منطقة معينة بتضامنها وخضوعها لزعامة قبلية موحدة .

ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك اختلافا بين اتحاد القواسم واتحاد بنى ياس ، وذلك من حيث طبيعة الحياة التي يعيشها أفراد كل من النظامين فبينما كان يعتمد القواسم في المقام الأول على النشاط البحري والملاحة فإن مصدر سلطة الحكم لبنى ياس ومصالحهم قامت في الدرجة الأولى على أسس إقليمية أو جغرافية ، وكما سبق الإشارة أن قبيلة بنى ياس استقرت في بداية الأمر في واحة ليوا التي تقع في أعماق الظفرة وخلال الصيف كان ينتقل معظم أفراد القبيلة وعلى الأخص فصائل الرميثات والقييسات إلى الجزء الشمالى من الساحل بحثاً عن الأسماك واللؤلؤ ولا تعود تلك الفصائل إلى موطنها الأصلي إلا بعد فترة القبط أو الحصاد . وتؤكد بعض المصادر التاريخية^(١) مساهمة بنى ياس في التصدى للسيطرة البرتغالية إذ حينما أعلن الإمام ناصر بن مرشد إمام عمان من أسرة اليعاربة الجهاد الدينى لتخليص بلاده من البرتغاليين في عام ١٦٢٤ وجد تجاوبا كبيرا من القبائل العربية حيث نجحت مجموعات من قبائل بنى ياس في طرد البرتغاليين من القلعة التي أقاموها في جلفار في مواجهة رأس الخيمة ، كما شارك بنو ياس في حركة الجهاد التي قادها سيف بن سلطان اليعربى وتعقب فيها البرتغاليين بعد طردهم من مسقط في عام ١٦٤٩ إلى معاقلم في الهند وسواحل شرق إفريقيا ولعل أسرة المزروعى وهى إحدى فروع بنى ياس قد انتقل قسم منها منذ ذلك الوقت إلى ممبسة في شرق إفريقيا حيث أوجدت لنفسها تطلعات جديدة هناك ، وذلك حين عهد إليها اليعاربة حكم بعض مقاطعات

(١) Miles, S. The Countries and Tribes of the Persian Gulf
vol. II P, 203. SQ.

الشرق الإفريقي واستمرت تمارس الحكم في ممبسة حتى أطاح بها السيد سعيد بن سلطان في عام ١٨٢٩^(١).

ومما يسترعى الانتباه أن انهيار النفوذ البرتغالي في منطقة الخليج العربي أفسح المجال لبني ياس كما أفسح المجال لغيرهم من القبائل في إقامة تنظيمات سياسية مستقرة ويؤكد ذلك ما أشارت إليه وثائق حكومة بومباي إلى أنه في عام ١٧٦١ سكنت مجموعات من بني ياس جزيرة صغيرة عرفت باسم أبو ظبي وذلك على أثر اكتشاف مياه الشرب بها مما أفسح المجال لظهور تنظيم قبلي في السواحل المجاورة لها أما قبل ذلك الوقت فلم تحاول تلك القبائل الاستقرار لطبيعتها البدوية من ناحية ولعدم التعرف على موارد المياه الصالحة للشرب من ناحية أخرى، ولكن بدء عملية الاستقرار في أبو ظبي تبعها هجرة مجموعات أخرى من قبائل بني ياس من واحة أيوا في الداخل إلى الساحل ولعل ذلك ممكن لاتحاد بني ياس أن يأخذ لنفسه الصفتين البرية والبحرية معاً، ومن الطبيعي بعد تزايد عدد السكان أن يفكر حكام بني ياس في رعاية شئون أتباعهم على الساحل ولعل الشيخ عيسى بن نهيان كان أول من تنبه إلى أهمية استقرار أتباعه على الساحل وعلى الرغم من أن ابنه دياب استمر يمارس حكمه من واحة أيوا في الداخل إلا أن التحول الجديد كان يضطره إلى زيارة رعاياه على الساحل من وقت إلى آخر. وكان أهم خطر تعرض له تحالف بني ياس حدث على عهد الشيخ دياب التي شهدت سنوات حكمه اضطرابات أسرية عنيفة حين تمكن ابن أخيه الشيخ هزاع بن زايد من إثارة بعض القبائل ضد عمه دياب وتطور الأمر إلى نجاحه في اغتيال عمه ١٧٩٣؛ ونتج عن ذلك الحادث انقسام تحالف بني ياس إلى فريقين فريق كان يؤيد هزاع والفريق الآخر كان يؤيد شعبوط بن دياب، وقد نجح أتباع شعبوط في إعادة التماسك

(١) جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا من ١٩٤ - ١٩٥٠ .
انظر أيضاً :

لبنى ياس حين تولى زعامة الاتحاد الشيخ شخبوط بن دياب في عام ١٧٩٥^(١).

وكان أهم عمل قام به الشيخ شخبوط بن دياب الذي حكم خلال الفترة من ١٧٩٥ إلى ١٨١٦ هو الانتقال إلى جزيرة أبوظبي حين أقدم على نقل مركز حكمه من ليوا إليها ، وكان لتلك الخطوة أثر كبير في تطوّر المنطقة الساحلية حيث أعطى أتباعه منفذاً على البحر أدى إلى انعاش حياتهم الاقتصادية نتيجة اشتغالهم بالتجارة والصيد واستخراج اللؤلؤ كما كان عاملاً في تكوين حلف من القبائل الرئيسية في المنطقة وخاصة بين بني ياس والظواهر والعوامر والمناصير مما أضفى أهمية كبيرة على عهده لأن ذلك التحالف القبلي أدى إلى توسيع رقعة حدود إمارة أبوظبي شرقاً حيث بدأت جماعات من القبائل المنتمية لبني ياس تقيم مع حلفائها الظواهر في منطقة العين وما جاورها . وفي عام ١٨١٦ تنازل الشيخ شخبوط عن الحكم لابنه محمد الذي حكم إمارة أبوظبي لمدة عامين ١٨١٦ - ١٨١٨ ثم خلفه أخوه طحنون ابن شخبوط الذي حكم خلال الفترة من ١٨١٨ - ١٨٣٣ ثم خليفة بن شخبوط الذي حكم خلال الفترة من ١٨٣٣ - ١٨٤٥ وسجلت السنوات الأولى من حكمه هجرة أعداد كبيرة من آل بوفلاسه من أبوظبي إلى دبي خلال موسم الغوص في عام ١٨٣٣^(٢). وكان يقود المهاجرين من آل بوفلاسه الشيخ عبيد بن سعيد ومكتوم بن بطي وفي دبي اشتركا معاً في الحكم حتى مات غيبس في عام ١٨٣٦ فأصبحت السلطة المطلقة في يد مكتوم ابن بطي الذي تنسب إليه الأسرة الحاكمة في دبي حتى وقتنا الحاضر^(٣).

(١) محمد مرسي عبد الله : مرجع سبق ذكره ص ١٥١ .

(٢) Bombay Govt., op. cit. vol. XXIV. CF. Hennell, The Beni-Yas Tribes of Arab P. 463 . ff

(٣) جمال زكريا قاسم : إمارات قديمة ودولة حديثة - دولة الإمارات العربية المتحدة معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٧٧ . وعن هجرة البوفلاسه إلى دبي انظر =

ومما تجدر الإشارة إليه أن انشقاق البوفلاسة لم يكن هو الانشقاق الوحيد الذى تعرض له تحالف بنى ياس، إذ لم يكدهم بمضى عامان على هجرة البوفلاسة حتى أخذ اتحاد بنى ياس يتعرض مرة أخرى للتصدع بسبب هجرة القبسات إلى خور العديد إلى الجنوب الشرقى من شبه جزيرة قطر على أنه مما يثير الانتباه أنه بينما تمكن البوفلاسة من تكوين إمارة خاصة بهم في دى فإن القبسات لم يتمكنوا من أن يحققوا لأنفسهم مثلاً حققه البوفلاسة ولعل ذلك يرجع إلى خوف بريطانيا من أن تستغل الدولة العثمانية الوضع لصالحها فتسيطر على خور العديد، ولذلك بينما اعترفت بريطانيا باستقلال البوفلاسة في دى إلا أنها لم تعترف باستقلال القبسات وكانت عاملاً هاماً في تحريض شيوخ أبوظبى على إعادة نفوذهم على أتباعهم المنشقين من القبسات^(١).

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أن الاتحادين الكبيرين اللذين قاما في الساحل الجنوبي للخليج وهما تحالف القواسم وتحالف بنى ياس ظهر تفككهما مع بداية الزحف البريطانى إلى المنطقة حيث بدأت في الظهور تجمعات قبلية تنتمى إلى أسس إقليمية أو جغرافية ولا تنتمى إلى زعامة عشائرية قوية، فالاتحاد القاسمى لم يلبث أن تفكك وظهرت على أنقاضه مجموعة من المشيخات وخاصة بعد عام ١٨٢٠، إذ أنه على أثر انهيار معقل القواسم في رأس الخيمة في أعقاب الحملة البريطانية العسكرية في عام ١٨١٩ ظهرت إمارة الشارقة التي ضمت إليها لفترة من الزمن إمارة رأس الخيمة وفي نفس العام ظهرت مشيخة أم القوين التي تولى زعامتها قبيلة آل على كذلك ظهرت إمارة عجمان التي تولى عليها الشيخ راشد بن حميد من آل النعيم، بالإضافة إلى آل نهيان في أبوظبى، والبوفلاسة في دى كما تميزت الفترة

Bombay Government, S.R.B.G. vol. XXIV Boofelasa -
Tribe, Debye pp. 497—507.

CF. Turkish Jurisdiction in the Lands and Waters of (٢)
Persian Gulf I.O.P. and Secret B 126.

التي أعقبت التدخل البريطاني في المنطقة بالصراع الذي نشب بين القواسم وبنى ياس إذ انحاز بنوياس إلى سلطنة مسقط ضد القواسم الذين كانوا على عداء مع سلاطينها ، وبدأت منطقة الساحل تشهد العديد من الخلافات الطائفية بين الكتلتين الهناوية والغافرية حيث كان القواسم على نحو ما أشرنا أعضاء في الكتلة الغافرية على عكس بنى ياس الذين يتمتعون إلى التكتل الهناوى ، وقد ظهرت الخلافات بين الفريقين في واحة البريمي وفي منطقة الديرة بدبي في عام ١٨٢٤ . ولما كان آل النعيم سكان البريمي على صلة قرابة بنعيم عجمان فقد تدخلت إمارة الشارقة إلى جانب النعيم ضد بنى ياس وسلطان مسقط الذي كانت له حامية في البريمي ، كما قام شيخ أبوظبي بتشجيع جماعة من قبيلة السودان على بناء قلعة لهم بين دبي والشارقة مما أدى إلى زيادة توتر الموقف ^(١) . وبالإضافة إلى ذلك شهد عام ١٨٢٩ حروباً عنيفة دارت بين القواسم وبنى ياس بسبب تحريض السيد سعيد سلطان مسقط لبنى ياس ضد القواسم . وقد تجسدت ذلك الصراع في عام ١٨٣٣ على أثر هجرة البوفلاسة إلى دبي إذ اعتمد البوفلاسة على تأييد الشيخ سلطان بن صقر حاكم الشارقة الذي رحب بهذه الفرصة لكي يخضع البوفلاسة إلى حمايته وقام على رأس قوة كبيرة من القواسم والبوفلاسة لمواجهة بنى ياس الذين تصدوا لهذه القوة ، ولما كان بنوياس قد فقدوا تأييد سلطان مسقط بسبب رحيله إلى زنجبار فقد انتهى النزاع بتوقيع صلح بين الطرفين وافق بمقتضاه الشيخ خليفة بن شخبوط حاكم أبوظبي على التخلي عن كل ادعاءاته تجاه البوفلاسة وتعهد شيخ أبوظبي بأن يعيد السفن التي استولى عليها منذ بدء النزاع ، وأن يرفع حصاره عن دبي . وفيما يتعلق ببنى ياس المقيمين في دبي فقد تم اعتبارهم رعايا تابعين للبوفلاسة ، وكانت هذه الحرب العنيفة المجهدة أعنف الحروب الأهلية التي دارت في المنطقة وكان من نتيجتها عقد الهدنة البحرية الأولى في عام ١٨٣٥ ^(٢) . وما تجدر الإشارة إليه أن بريطانيا كانت محورها في

(١) السيابي : ايفاح المعالم ص ٢٢١ .

(٢) نفسه ص ٢٢٣ .

هذه الصراعات ، وقد يرى البعض أنه لا ينبغي أن نحمل السياسة البريطانية أكثر مما تحتمل أو نلقى بمشكلات المنطقة على كاهلها لأن التمزق والانقسام من سمات الطبيعة البقلية المعروفة بكثرة تقلباتها ومنازعاتها وعلى الرغم مما قد يكون من وجهة لهذا الرأي إلا أن استقراءنا للأحداث التاريخية يؤكد ما سبق أن ألمحنا إليه وهو أنه من الملاحظ حتى بداية الزحف البريطاني على المنطقة في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر لم يكن هناك سوى تجمعين قبليين كبيرين ، ثم بدأ هذان التجمعان - القواسم وبنوياس - يصابان بالتصدع والانهار ، ونشبت الخلافات والمنازعات فيما بينهما ولعل من أبرز نتائج انهيار هذين الاتحادين ظهور الكيانات الصغيرة التي أشرنا إليها على الساحل ، ورحبت السياسة البريطانية بظهورها ومنحتها حمايتها واعترفت بها مشيخات (مستقلة) إذ كانت تجد في ذلك التفكك ما يتلاءم مع مصالحها الاستعمارية دون أي اعتبار يذكر لمقدرات المنطقة ومقوماتها الذاتية^(١) .

(١) جمال زكريا قاسم : الأسس التاريخية لوحدة الإمارات العربية ودور الاستثمار في تميزها - انظر أعمال ندوة التجارب الوجودية العربية المعاصرة .
 تجربة دولة الامارات العربية المتحدة - بيروت - مركز دراسات الوحدة العربية مارس ١٩٨١ .

الفصل السابع

القواسم ونزولهم بالقوى المجاورة

انفصال القواسم عن عمان - القواسم والبوسعيد
العلاقات بين القواسم وفارس على عهدى نادر شاه وكريم
خان - العلاقات بين القواسم والقرى العربية على الساحل
الشرقى للخليج - اعتناق القواسم للدعوة الوهابية - العلاقات
بين السعوديين والقواسم - عزل السعوديين للشيخ سلطان
ابن صقر - استعادة الشيخ سلطان سلطانه فى الشارقة وبداية
التفكك فى الساحل العماني .



الفصل السابع

القواسم وعلاقتهم بالقرى المجاورة

رغم اندماج القواسم في الوحدة العمانية التي نجح الإمام ناصر بن مرشد مؤسس أسرة اليعاربة في تكوينها من أجل الصراع ضد البرتغاليين ، إلا أنهم ظلوا متمتعين باستقلالهم ، ولا ينفى ذلك أنهم كانوا يشكلون عنصرا أساسيا من عناصر الوحدة العمانية حتى السنوات الأخيرة من حكم اليعاربة وما يؤكد ذلك مساهمة القواسم في السيطرة على جزر البحرين وقشم ولارك في عام ١٧١٦ على عهد الإمام سلطان بن سيف . وحين نشبت الحروب الأهلية في عمان بسبب النزاع على منصب الإمامة كان القواسم من أهم القوى التي شكلت الاتحاد الغافري، وحدث ذلك حين لجأ الشيخ محمد بن ناصر الغافري إلى الشيخ رحمة بن مطر شيخ رأس الخيمة طالبا مساعدته في الصراع ضد القوى الهناوية المعارضة، ووضع الشيخ رحمه قواته وسفنه إلى جانب الزعيم الغافري مما كان له أثر كبير في ترجيح كفة الغافريين بل وفي نجاح محمد بن ناصر في الوصول إلى الإمامة لفترة من الوقت . ولكن الأوضاع لم تلبث أن تطورت في عمان حين تمكن الهناويون من السيطرة على الموقف، وكان نجاح الكتلة الهناوية سببا في استنجد الإمام سيف بفارس مما أدى إلى خضوع كثير من المقاطعات العمانية للاحتلال الفارسي منذ عام ١٧٣٨، وأدى هذا الوضع المتدهور الذي تعرضت له عمان إلى إعلان القواسم انفصاليهم عن دولة اليعاربة ، وتأكد هذا الانفصال على أثر سقوط دولة اليعاربة وقيام دولة البوسعيد . ولاشك أن انهيار القوى البحرية الفارسية

في الخليج العربي عقب اغتيال نادر شاه في عام ١٧٤٧ ساعد القواسم على تأكيد استقلالهم وذلك بعد نجاحهم في السيطرة البحرية على الساحل العماني والساحل الفارسي المقابل له^(١). ومن ثم أرجعت كثير من المصادر تاريخ انفصال رأس الخيمة عن عمان وظهورها كعاصمة لجميع مقاطعات الساحل العماني إلى منتصف القرن الثامن عشر وذلك حين أعان الشيخ رحمة بن مطر تكوين الاتحاد القاسمي الذي يجمع القبائل التي انضمت تحت لواء زعامته^(٢). ولكن هذا الاستقلال الذي أحرزه القواسم لم يثبت أن قادهم إلى منازعات طويلة المدى مع أسرة البوسعيد وهي الأسرة التي خلفت اليعاربة في عمان في عام ١٧٤٤، ولعل هذه المنازعات ترجع في أسبابها إلى نواح طائفية حيث ينتمي القواسم كما سبق أن أشرنا إلى الكتلة الغافرية على عكس البوسعيد الذين ينتمون إلى الكتلة الهناوية، كما ترجع أسباب المنازعات إلى التنافس التجاري حيث عمل القواسم بعد نجاحهم في تأكيد تفوقهم البحري على الاستئثار بتجارة الخليج والهند وشرق إفريقيا التي كان يسيطر عليها العمانيون.

١٧٤٠ - ١٧٤١

والأمر الذي لا شك فيه أن انفصال القواسم بقسم من الساحل العماني كان من أهم المشكلات التي واجهت الإمام أحمد بن سعيد حين وصل إلى السلطة في عمان باعتباره مؤسساً لأسرة البوسعيد، وعلى حين أيدت القبائل الهناوية الإمام أحمد بن سعيد أيدت القبائل الغافرية ومن بينها القواسم بلعرب ابن حمير الذي كان ينافسه على منصب الإمامة^(٣)، إذ كانت الكتلة الغافرية ترى إبقاء الإمامة في أسرة اليعاربة، ولذلك طلب الشيخ محمد بن ناصر الغافري من الشيخ رحمه بن مطر زعيم القواسم معاونته في الاطاحة بحكم الإمام أحمد ابن سعيد، وكما تذكر بعض المصادر أن الشيخ رحمه اعتذر بسبب كبر سنه

(١) صالح محمد العابد : دور القواسم في الخليج العربي ص ٨٧ .

(٢) سالم بن حمود السيابي : إيضاح المعالم في تاريخ القواسم ص ١٩ - دمشق ١٩٧٦ .

(٣) ابن رزيق : الفتوح المبين في سيرة السادة البوسعديين ص ٣٦٧-٣٦٩ .

ولكنه أشار بأن يقوم لابنه راشد بهذه المهمة حيث تنازل له عن مشيخة القواسم في عام ١٧٥٠، وهكذا شارك القواسم في المعارك العنيفة التي دارت بين الإمام أحمد بن سعيد والكتلة الغافرية . وفيما يبدو أن الشيخ راشد كان يهدف إلى تأكيد نفوذه على ساحل الشميلية ونحور فكان وما يجاورهما على الساحل المطل على خليج عمان^(١)، ولكن هذه المعارك لم تكن في صالح الكتلة الغافرية إذ نجح الإمام أحمد بن سعيد في التخلص من منافسه بلعرب ابن حمير وشدد من قبضته على المقاطعات العمانية بل أنه اتجه في عام ١٧٥٩ إلى إخضاع القواسم في معقلهم برأس الخيمة ودارت معركة عنيفة بين القواسم والإمام أحمد بن سعيد في سهل الباطنة بالقرب من وادي حام وعلى الرغم من أن الإمام أحمد بن سعيد نجح في الحصول على اعتراف بسلطته من عدد كبير من القبائل إلا أنه لم يتمكن من هزيمة القواسم أو إخضاعهم^(٢). ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تخلي خلفائه عنه وكان ذلك مما دفع القواسم في عام ١٧٦٣ إلى إرسال حملة انتقامية وصلت إلى مدينة الرستاق عاصمة الإمام أحمد بن سعيد ولا شك أن القواسم قد استغلوا الظروف الداخلية في عمان وقيام النزاع بين الإمام وأبنائه حيث نجح الشيخ صقر بن رحمة بمعاونة الزعيم الغافري محمد بن ناصر في محاصرة الرستاق^(٣)، وأصبح الموقف حرجاً في عمان إلى الدرجة التي تبين فيها لأبناء الإمام أحمد بن سعيد ما يمكن أن يؤدي نزاعهم مع أبيهم إلى القضاء على حكم أسرهم ولذلك آثروا فض الخلاف مع أبيهم وسلموا له الحصن الغربي في مسقط بينما احتفظوا بالحصن الشرقي^(٤)، وما أن ذاع خبر الصلح بين الإمام وأبنائه حتى بادر الشيخ صقر وحليفه ناصر الغافري بفك حصار الرستاق وتم الصلح بين القواسم والإمام أحمد بن سعيد، ووافق الإمام أحمد ابن سعيد على استقلال القواسم بمقاطعاتهم ومنذ ذلك الوقت لم يخضع القواسم لحكم

(١) الفصل في تاريخ الامارات العربية ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) ابن رزيق : مصدر سبق ذكره ص ٣٦٧ وما بعدها .

(٣) همد مرسى عبد الله : إمارات الساحل و عمان والدولة السعودية الأولى ص ٢٤/٧٢ .

(٤) ابن رزيق الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين ص ٣٧٢ .

البوسعيد . ويمكن تحديد عام ١٧٦٥ بإعتباره العام الذي أعلن فيه القواسم استقلالهم عن عمان وأصبحت رأس الخيمة مركزاً مستقلاً للقواسم ولكن ذلك لا يعنى أن القواسم كانوا حتى عام ١٧٦٥ تحت التبعية العائلية إذ أنهم أحرزوا شخصيتهم المستقلة منذ عام ١٧٤٧ على نحو ما أشرنا إليه^(١). ويؤكد ذلك الرحالة كارستن نيبور الذى زار منطقة الخليج ومرت برأس الخيمة في عام ١٧٦٣ حيث قرر أن كثيراً من قبائل الصير كانت تعترف بتبعية الإمام أحمد بن سعيد ولكنها كانت في الواقع قبائل مستقلة وكثيراً ما كانت تنشب الحروب بين القواسم وأئمة عمان^(٢).

ومما تجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من أن العلاقات بين القواسم والبوسعيد على عهد الامام أحمد بن سعيد كانت تتميز بالصراع إلا أن الظروف السياسية المضطربة في عمان كانت تؤدي في كثير من الأحيان إلى إيجاد تحالف بين الفريقين، وفيما يبدو أن الإمام أحمد بن سعيد وخاصة في خلال صراعه مع الفرس على عهد كريم خان الزندى ١٧٥٦ - ١٧٧٩ حاول استغلال تفوق القواسم في المجال البحرى لضعاف شوكة فارس ولذلك يسجل لنا عام ١٧٧٢ عقد محالفة بين الامام أحمد بن سعيد وشيخ القواسم كان الغرض منها مواجهة الخطر الفارسى الذى كان يتمثل في تهديدات كريم خان الزندى للساحل الغربى من الخليج ، ونجح القواسم بفضل تحالفهم مع الامام أحمد بن سعيد في مهاجمة بندر عباس وكان ذلك في عام ١٧٧٣ حين تعاون القواسم مع خلفان بن محمد حاكم ميناء مسقط وتمكنوا من تحطيم عدة سفن فارسية ومستودع عسكرى كان قد شيده الفرس في ميناء لاجه^(٣).

CF. Bombay Govt. Selection from the Records of Bombay (١)
Govt. Historical Sketsh of Joasmee Tribes of Oman 1747-
1853, vol. XXIV Bombay 1856.

Neibuhr, Carsten Travels in Arabia vol. II pp. 123 SQ. (٢)

Bombay Govt., op. cit. Historical Sketsh of Joasmee (٣)
Arab tribes of Oman vol. XXIV P. 301 ff

وعلى الرغم من أن الإمام أحمد بن سعيد كان يبدي رغبته في إنهاء الصراع بينه وبين فارس إلا أن كريم خان الزندي فوض الشيخ ناصر حاكم بوشهر في متابعة الحرب مع الإمام أو عقد الصلح ، معه ورفض الامام أحمد بن سعيد أن يخضع لشروط الصلح التي اقترحها الشيخ ناصر باسم كريم خان واعتبرها شروطاً مهينة ، وكان ذلك مما دفعه إلى تقوية تحالفه مع زعيم القواسم الذي كانت العلاقات متدهورة بينه وبين فارس أيضاً . وعلى الرغم من أن تحالف الإمام أحمد بن سعيد مع القواسم كان يهدف إلى تحقيق مصالح مشتركة للطرفين إلا أنه لم تلبث أن انقضت عرى ذلك التحالف في عام ١٧٧٥ ، حين تجدد الصراع بين الإمام أحمد ابن سعيد والقواسم حيث نجح شيخ رأس الخيمة في تجميع قوة بحرية كبيرة اتجه بها إلى فرض سيطرته على الساحل العمانى ، وبذلك أصبحت قوة القواسم تهدد القوة العمانية وخاصة حين امتلك القواسم قوة بحرية ضخمة عقب اغتيال كريم خان الزندي في عام ١٧٧٩ . وظهر الصراع على أشده على عهد السيد سلطان بن أحمد الذي زج بنفسه في منازعات خطيرة مع القواسم حيث شهدت الفترة من ١٧٩٨ إلى ١٨٠٥ اضطرابات بحرية في الخليج وأثرت هذه الاضطرابات على تجارة البصرة مما أدى إلى فقر سكانها وتفاقم مشكلات حكمائها ، ولعل ذلك كان دافعا لسلطان ابن أحمد إلى إرسال حملة إلى البصرة مطالباً ببعض الحقوق العمانية القديمة على ولايتها وحاول أن يستعين بقوة القواسم البحرية من أجل نجاح حملته ما اضطر باشا بغداد إلى تسوية خلافاته مع مسقط تجنباً لمثل ذلك الهجوم الذي لم يكن في وسعه مواجهته^(١) . كذلك حاول سلطان ابن أحمد الاستعانة بالقواسم في هجوم قام به على الزبارة في عام ١٨٠٢ كما استعان بنفوذ القواسم في هجائه المتتالية ضد شهباز ومكران وقشم وهرمز والبحرين^(٢) . ولكن السياسة التي اتبعها سلطان بن أحمد

(١) عبد الأمير محمد أمين : القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ص ٨٧ .

(٢) ابن رزيق : مصدر سبق ذكره ص ٤٢٩ أنظر أيضاً .

أدت إلى تفوق نفوذ القواسم البحري إلى درجة أصبحوا يهددون بقوتهم مسقط ذاتها . وتذكر وثائق بومباي بصدد ذلك أن طموحات سلطان ابن أحمد قادت إلى منازعات خطيرة مع عرب الخليج مما أثر على حركة الملاحة في الخليج وزادت حوادث البحر سواء كانت تلك الحوادث موجهة ضد فارس أو عمان أو ضد الأساطيل الأجنبية في الخليج واستمر ذلك الوضع قائماً حتى عام ١٨٠٩ ، حين التقت وجهات نظر كلٍّ من الانجليز وسلطان ومسقط للعمل على سحق النشاط البحري للقواسم ، وقامت من أجل ذلك عدة حملات تأديبية اشتركت فيها مسقط بنصيب وافر وانتهت تلك الحملات بنجاح الانجليز في القضاء على تفوق القواسم البحري واحكام سيطرتهم على الخليج^(١) . والأمر الذي لاشك فيه أن تدهور العلاقات بين عمان والقواسم هي التي ساعدت الانجليز على التدخل العسكري في الساحل الجنوبي للخليج العربي منذ بداية القرن التاسع عشر فعلى الرغم من تعاون القواسم مع السيد بدر بن سيف الذي كان يقوم بالوصاية على السيد سعيد عقب اغتيال أبيه سلطان بن أحمد في عام ١٨٠٤ إلا أن الخلاف لم يلبث أن دب بين الفريقين بسبب قيام بدر بن سيف بإرسال حملة إلى جزيرة قشم فاجأ بها الملا حسين وأخذته رهينة إلى مسقط في الوقت الذي بادر فيه القواسم بالاستيلاء على الجزيرة ، ولكن حين تقلد السيد سعيد السلطة في مسقط بادر بالافراج عن الملا حسين وأمدّه بقوة من مسقط لاستعادة قشم وهرمز إلا أن قوة تابعة للقواسم رفضت أن تستقبل الملا حسين أو أن تعيد الجزيرة إليه ، واستغل القواسم وجود الأسطول العماني في قشم وهاجموا ميناء صور ولكنهم ووجهوا هناك بمقاومة عنيفة أجبرتهم على الانسحاب في الوقت الذي اتفق فيه السيد سعيد مع عمه قيس ابن أحمد حاكم صحار على مهاجمة خور فكان حيث قرر الاثنان الزحف على القواسم فكانت الحملة التي قادها قيس من جهة البر والحملة التي قادها السيد

(١) يرجع المؤرخ نور الدين السالمى استعانة سلطان مسقط بالنصارى على حرب أهل الشارقة من أرض الشمال من أول سبب تدخلت به النصارى في أملاك المسلمين من أهل عمان فبقوا آفة في ذراريه يظهرون الصداقة ويضمرون العداوة - انظر تحفة الأعيان بسيرة آل عمان ٢٠ ص ١٨٩

سعيد من جهة البحر وكان خليج خور فكان هو المسرح الذى دارت فيه المعارك بين مسقط والقواسم حتى تحول إلى بركة من الدماء^(١). وفى هذه المعارك انتصر القواسم وقتل قيس بن أحمد وانسحب السيد سعيد إلى مسقط ولعل تلك الهزيمة التى ابتلى بها السيد سعيد هى التى دفعته إلى توثيق علاقاته مع الإنجليز ومساهمته الفعالة فى الحملة الانجليزية التى قاموا بها ضد القواسم فى عام ١٨٠٩ إذ قدر أن اشتراكه فى تلك الحملة سيتيح له استعادة ما كان يطالب به من موانئ وجزر على الساحل الفارسى استولى عليها القواسم خلال صراعهم مع مسقط^(٢).

العلاقات بين القواسم وفارس :

أدى اضطراب الأوضاع السياسية فى بلاد فارس عقب اغتيال نادر شاه فى عام ١٧٤٧ إلى استعانة بعض القادة الفرس الطامعين فى الحكم بالقبائل العربية فى الخليج وذلك لمقاومة القادة المتعاقبين بسرعة على عرش فارس^(٣) ولعل ذلك أدى الى تصاعد نفوذ القواسم فى الساحل الشرقى للخليج^(٤) ويمكننا تحديد عدة قبائل عربية تسيطر على الخريطة السياسية للسواحل الفارسية المطلّة على الخليج العربى فى أواخر القرن الثامن عشر وهؤلاء هم عرب بوشهر وحاكمهم آنذاك الشيخ نصر آل مذكور، وهم ينتمون إلى عرب المطاريش فى عمان وعلى الرغم من أنهم من السنة إلا أنه فى خلال عهد نادر شاه بادر زعيم هذه القبائل بالتحول إلى المذهب الشيعى على أمل أن يعينه

(١) السيابى : إيضاح العالم ص ٤٨ .

(٢) Bombay Govt., op. Historical Sketsh of Joasmee Tribes of Oman by Francis Warden and others 1747—1853 vol. XXIV P. 303. ff.

Idem. (٣)

F.O 371/13010 Status of the Island of Tamb Bu (٤) Musa and Sirri.

نادر شاه قائداً على الأسطول الذي أعده وجعل من بوشهر قاعدة له ، ثم هناك أيضاً عرب بندر ريق النازلون إلى الشمال من بوشهر وهم ينتمون إلى عرب زعاب من الساحل العماني وكانوا يحكمون جزيرة خرج بالإضافة إلى بندر ريق ، ثم فرع القواسم في لنجه وجزيرة صيرى القريبة منها ، وعرب بنو كعب في مركزهم بمدينة الدورق إلى جانب عرب الهولة النازلين في الساحل الشرقي من الخليج ومراكز انتشارهم في جزر قشم وقيس وهرمز وغيرها من الجزر المجاورة لها .

وقد برز من بين هذه القوى جميعها القواسم في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وإلى جانبهم برزت سلطة ملا علي شاه حاكم بنسندر عباس . وفي عام ١٧٥١ تصاهر ملا علي شاه الذي كان يسيطر على معظم الأسطول الفارسي عقب اغتيال نادر شاه مع شيخ القواسم ، وكان لهذه المصاهرة أهمية خاصة إذ أنها كانت بداية لتحالف بين قائد الأسطول الفارسي وزعيم القواسم حيث أصبح القواسم بفضل هذا التحالف قادرين على الاستفادة من الأسطول الفارسي بل واستخدموه ضد خصومهم ومنافسيهم^(١) . وقد نجح القواسم في الاستيلاء على باسيدور في جزيرة قشم كما اشتركوا مع حليفهم ملا علي شاه في عام ١٧٥٥ في الهجوم على شيخ بني معين ومحاصرته في ميناء لفت . وأصبح القواسم يسيطرون على جزر وموانئ هامة تضم بندر عباس وهرمز وقشم ، وفي عام ١٧٥٩ اشترك القواسم في الحروب التي كان يخوضها مير مهنا شيخ بندر ريق ضد الهولنديين ، كما أيد القواسم حليفهم ملا علي شاه ضد تمرد أتباعه الذين نجحوا في نفيه إلى هرمز في عام ١٧٦٠ وسلموا قلعة بندر عباس إلى شقيقه جعفر خان وحين حاول بنو معين انتهاز هذه الفرصة

(١) عبد الأمير محمد أمين : المعوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ص

لاسترداد جزيرة قشم أسرع القواسم اتخليص حليفهم ملا على شاه وهاجموا من أجل ذلك بندر عباس وإن كانوا قد فشلوا في الاستيلاء على قاعدتها في الوقت الذي قام فيه ناصر خان حاكم بوشهر بالرد على ذلك الهجوم بإرسال حملتين انتقاميتين ضد لنهجه ورأس الخيمة وعندما فشلت الحملتان في تحقيق أهدافهما قام ناصر خان بتخريب جزيرة قشم واستفاد القواسم من تلك الاشتباكات البحرية في احتلال أماكن متعددة على الساحل الفارسي في الخليج وفي عام ١٧٦٣ تم الاتفاق بين القواسم وملا على شاه وبنو معين، على أن يحتفظ بنو معين بجزيرة هرمز وأن يقيموا قلعة في لفت على أن تقسم عوائد الميناء بالتساوي بين الأطراف الثلاثة^(١). ولكن لم يمض وقت طويل على هذا الاتفاق حتى تجددت الصراعات بين القواسم وشيوخ بني معين، في خلالها تمكن بنو معين في عام ١٧٦٥ من استعادة قشم ولفت من القواسم، كما تمكنوا من استعادة هرمز وبندر عباس من الملا حسين، وظلت تلك الأماكن في أيديهم حتى وفاة شيخهم عبد الله حيث بدأ القواسم في استرجاعها واحدة بعد أخرى.

العلاقات بين القواسم والسعوديين :

كان وصول الدعوة الوهابية إلى سواحل الخليج العربي في نهاية القرن الثامن عشر من أهم العوامل التي أوجدت للسعوديين مجالاً للدخول في علاقات بينهم وبين القواسم. ومما تجدر الإشارة إليه أن القواسم استمروا لفترة طويلة لا يعترفون بسلطة السعوديين، ولكن لم تلبث أن خضعت رأس الخيمة للنفوذ الديني الوهابي وتحول القواسم إلى الدعوة الوهابية^(٢). وعلى ذلك يمكننا أن نؤكد هنا أن العلاقات بين القواسم والسعوديين مرت بمرحلتين هامتين :

(١) ج. ج. اوريمر دليل الخليج ج ١ ص ٢١٦ انظر أيضاً عبد القوي فهمي: القواسم ونشاطهم البحري ص ٨٧.

Bombay Govt., Historical Sketsh of the Wahabee (٢) Tribes of Arab from the year 1795 — 1818 by Francis Warden vol XXIV pp. 431 ff Bombay 1856.

المرحلة الأولى ، وتتميز بمقاومة القواسم لمحاولات السعوديين إخضاعهم سياسياً ، والمرحلة الثانية تتميز بتغلغل الدعوة الوهابية حتى أصبح القواسم حلفاء أقوياء للسعوديين وإن كان قد تخلل هذه المرحلة توتر العلاقات بينهم ليس على المستوى الديني وإنما على المستوى السياسي إلى الحد الذي بادر فيه السعوديون إلى خلع زعيم القواسم في عام ١٨٠٩ كما سنشير إلى ذلك بعد قليل .

ويمكننا أن نلاحظ في المرحلة الأولى اتجاه السعوديين للسيطرة على القواسم بهدف الاستعانة بقوتهم البحرية لضرب سلطنة مسقط إذ أنه على أثر خضوع البريمي للسلطة السعودية حاول عبد العزيز بن سعود اقناع الشيخ صقر ابن راشد بالدخول في الوهابية ، ولكن الشيخ صقر رفض في بداية الأمر ويبدو أن ذلك الاتصال قد تم عن طريق قبائل النعيم في البريمي ، وتتفق المصادر التاريخية على أن الشيخ صقر بن راشد حارب آل النعيم الذين استنجدوا بعبد العزيز بن سعود فبادر بارسال حملة ضد القواسم شارك فيها آل النعيم ، بيد أن الشيخ صقر تمكن من إلحاق الهزيمة بهم ؛ ولكن لم تمض فترة طويلة حتى توجهت حملة وهابية أخرى بلغ تعدادها أكثر من أربعة آلاف مقاتل بقيادة مطلق المطيرى حيث نجحت في محاصرة رأس الخيمة وشدت الحصار على المدينة سبعة عشر يوماً إلى أن تم الصلح وعاهد الشيخ صقر مطلق المطيرى في عام ١٧٩٩ على الدخول في الدعوة الجديدة ، وحول ذلك يذكر صاحب لمع الشهاب في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن مطلق المطيرى لما اجتمع بالشيخ صقر أكرمه وعاهده على هذا الدين . وقد حلت كثير من المصادر الأسباب التي دفعت القواسم إلى اعتناق الدعوة الوهابية ومن هذه المصادر من تغلب الناحية الدينية أى أن القواسم دخلوا الوهابية عن اقتناع بينما نجد مصادر أخرى تغلب النواحي المصاحبية ومن ذلك أن شيخ القواسم رغب في مخالفة الوهابيين ضد سلطنة مسقط لكي يرأب الصدع الذى حدث في الجهة الغافرية بسبب خلاف القواسم مع آل النعيم ، وفيما يبدو أن مطلق المطيرى كان متشدداً مع القواسم حيث اشترط على الشيخ صقر أن يقوم بهدم قبعة السيد حسن وهو مقام معروف في رأس الخيمة

كان يغطمه القواسم وقد أدى تهديم القبر إلى استيلاء القواسم ولكن الوهابيين تمكنوا من السيطرة على الموقف حيث بادروا بنفى الشيخ راشد والد الشيخ صقر إلى لنجة (١) .

أما المرحلة الثانية من علاقة القواسم بالسعوديين فتتميز بالتحالف الذى قام بين الفريقين وكما يذكر مؤلف لمع الشهاب أن القواسم من أهل رأس الخيمة كانوا إذا وفدوا على سعود فلمهم لم يأكلوا إلا عنسده وهو يرضى بهم ويكرمهم ؛ كما أفتى الشيخ على بن محمد بن عبد الوهاب الرئيس الدينى للوهابيين بأن كل ما يغنمه أهل رأس الخيمة أحل من حليب الوالدة (٢) . ولا شك أن تحالف القواسم مع الوهابيين أدى إلى تزايد نشاط القواسم البحرى وأصبح ذلك النشاط أمراً لازماً للجهاد ضد سفن الكفار وضد منكرى التعاليم السلفية (٣) . وبالتالي فإن الاسلاب التى كان يستولى عليها القواسم كانت تعد غنائم حرب يتعين تأدية خمسها إلى الدولة الإسلامية طبقاً لما تقتضى به الشريعة الإسلامية فى أحوال الجهاد ، ولكن ليس من الثابت لدينا أن القواسم التزموا بذلك الأمر .

العلاقات بين القواسم وسلطنة مسقط :

على أثر محالفة القواسم للوهابيين تضاعفت عملياتهم البحرية ضد سلطنة مسقط ، وإذا أضفنا إلى ذلك احتلال السعوديين للبريمى وضغطهم على كثير من قبائل الظاهرة تبين لنا مدى الخطر الذى أخذت تتعرض له سلطنة مسقط وبوجه خاص خلال السنوات الأخيرة من عهد سلطان بن أحمد الذى عاصر سيطرة السعوديين على واحات البريمى ؛ ففى عام ١٨٠٠ تحركت قوة وهابية إلى الظفرة بقيادة سالم الحارق الذى كان يعد من أبرز القادة السعوديين وعند

(١) لمع الشهاب فى سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٨٠-٨١ .

(٢) لمع الشهاب ص ١٧٧ .

(٣) جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا ص ٨٠ .

وصول الحارق إلى البريمي وجه رسالة إلى سلطان بن أحمد يدعوه فيها إلى اعتناق الوهابية ونبد الأباضية والاعتراف بالسلطة الزمنية والدينية للامام عبد العزيز بن سعود : ورد سلطان بن أحمد على هذه الدعوة بتوحيد حملة عسكرية ضد السعوديين مما جعل الحارق يستعين بالقواسم وعلى الرغم من أن القواسم كانوا مستعدين لشن الهجوم على مسقط إلا أن الحارق أثر التراجع بينما عقد القواسم هدنة مع سلطان بن أحمد، ولما كان سلطان بن أحمد مصمماً على طرد الوهابيين فقد قرر ملاحقتهم عند انسحابهم من البريمي ؛ غير أنه أصيب بنكسة على يد الحياالة الوهابيين مما أجبره إلى توقيع اتفاق مع القائد السعودى يقضى بتنازله عن واحات البريمي ؛ ويذكر المؤرخ البريطانى جون كلى Kelly أن هذا الاتفاق كان يعد أفلح خطأ ارتكبه السيد سلطان بن أحمد (١) ذلك أنه قد ترتب على احتلال السعوديين للبريمي ضغطهم على كثير من قبائل الظاهرة القاطنة هناك ، وبدأ السيد سلطان يعانى من ذلك الضغط فى أواخر عهده حتى أنه ذهب لكى يبحث عن حلفاء لكى يستعين بهم ضد السعوديين ولعل ذلك يفسر رحياله إلى مكة فى عام ١٨١٣ لكى يستعين بشريفها (٢) . ولكنه - حين وصل إلى هناك كان الوهابيون فى سبيلهم للاستيلاء على الحجاز ؛ وفى الوقت نفسه أثارت المساعدات الضئيلة التى قدمها السيد سلطان بن أحمد للشريف غالب بن مساعد غضب الإمام عبد العزيز بن سعود فأعلن الحرب على مسقط وأصدر أوامره إلى القبائل التابعة له فى البريمي وإلى القواسم والعتوب بترك موسم الغوص وشن الحرب البرية والبحرية ضد سلطنة مسقط (٣) . وصادف فى ذلك الوقت تولى الشيخ سلطان بن صقر الحكم خلفاً لأبيه صقر بن راشد الذى بدأ عهده بإعلان تبعيته للدولة السعودية طالما أن هذه التبعية لا تغير من وضعه كزعيم للاتحاد القاسمى ، وعلى العكس من ذلك أصبح اتحاد القواسم يستند إلى مؤازرة دولة إسلامية قوية حيث أخذ القواسم يمارسون

(١) جون كلى : بريطانيا والخليج ج ١ ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) وثائق الحكومة السعودية : انظر العرض التاريخي لمشكلة البريمي بن مسقط وأبو ظبي والمملكة السعودية ج ١ ص ١٧٧ .

(٣) محمد مرسى عبد الله : مرجع سبق ذكره ص ١٩١ - ١٩٢ .

نشاطهم البحري على نطاق واسع ضد سلطنة مسقط^(١) ، وازداد الصراع بين القواسم وسلطنة مسقط على عهد سلطان بن أحمد ؛ وأخذت الدعوة الوهابية تنتشر انتشاراً كبيراً بين قبائل الساحل العماني في الوقت الذي أعد فيه الإمام عبد العزيز بن سعود العدة لمهاجمة المقاطعات الداخلية لسلطنة مسقط ووصلت القوات السعودية إلى مشارف بركا ؛ المقر الصيفي لسلطان مسقط وأرسل الإمام عبد العزيز إلى سلطان بن أحمد رسالة يدعو فيه إلى طاعته وبرفقتها كتاب كشف الشبهات للشيخ محمد عبد الوهاب ، كما أرسل نفس هذه الرسائل إلى شيوخ الساحل من بني ياس والنعيم والقطب والظواهر والشوامس وغيرهم^(٢) ، وبهذه المناسبة كتب الوكيل البريطاني في مسقط يقول إنه إذا استولى الوهابيون على سلطنة مسقط فإن جميع مقاطعات الجزيرة العربية ستصبح تحت سيطرتهم وسوف يغزو الساحل العماني كله وكرراً للقراصنة الذين سيجدون في أعمال السلب والنهب حتى يصلوا بها إلى سواحل الهند^(٣) . ولكن هذه المخاوف التي عبر عنها الوكيل البريطاني في مسقط لم تلبث أن انقشعت بعض الشيء بسبب اغتيال الإمام عبد العزيز بن سعود في أوائل نوفمبر من عام ١٨٠٣ ؛ ولا شك أن اغتيال الإمام عبد العزيز أتاح لسلطان ابن أحمد الفرصة لكي يتخلص من الضغط السعودي على مقاطعاته حيث توجه إلى بغداد ليلتصعق بوالها على باشا للقضاء على السعوديين وربما تم في بغداد رسم خطة لمواجهة قوة السعوديين المساعدة وكذلك قوة حلفائهم القواسم ولكن الظروف لم تتح لتنفيذ شيء منها إذ تربص القواسم مع العتوب بسلطان ابن أحمد وتمكنوا من اغتياله وهو في طريق عودته إلى بلاده في نوفمبر من عام ١٨٠٤^(٤) . وعلى أثر ذلك اضطربت الأوضاع في سلطنة مسقط حتى أوشكت السلطنة برمتها أن تقع في أيدي السعوديين ، وخاصة حينما انتقل زمام الحكم

(١) صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ص ٩٩ .

(٢) ابن رزيق : مصدر سبق ذكره ص ص ٤٣١ - ٤٣٢ . ويذكر ابن رزيق « وفي هذا الكتاب كلام ملفف غير مطابق للحق فلم يعبأ أحد به » . وواضح أنه ينطلق هذا من اتجاهاته الإباضية .

(٣) Bombay Govt. op. cit. CF. The Rise and Progress of the Govt. of Muscat by F. Warden 1695—1819. P. 167 SQ.

(٤) يذكر ابن بشر أن القواسم لم تكن هم نية مبيتة اقتله انظر عنوان الجيد ج ١ ص ١٣١ .

في مسقط إلى بدر بن سيف ١٨٠٤/١٨٠٦ الذي لم يجد بدا من مخالفة السعوديين ولكن على أثر وصول السيد سعيد إلى حكم سلطنة مسقط في عام ١٨٠٦ بدأ يضع مخططاً لتخليص مسقط من القواسم والسعوديين معاً ، ووجد أن ذلك لن يتم إلا بتحالفه مع بريطانيا، ومن ناحية أخرى كانت الأوضاع القلقة بين السعوديين والقواسم تساعد على أحداث ثغرة في العلاقات بينهما فعلى الرغم من أن زعيم القواسم سلطان بن صقر اعتنق الدعوة الوهابية ونشط في الدعوة إلى المبادئ السلفية إلا أنه ظل على إخلاصه للوهابيين طالما كان القواسم يتمتعون باستقلالهم في تصريف شئونهم وقد حافظ السعوديون من جانبهم على الوضع الاستقلالي للقواسم، وخاصة أن الدولة السعودية الأولى لم تكن تتم بتدعيم سيطرتها على الأطراف مكنتية باعلان التبعية لها من قبل الحكام المحليين أو زعماء القبائل وكان مظهر تلك التبعية هو تقديم الزكاة أو نسبة من غنائم الحرب ولكن باحتلال السعوديين الواحات البريمي بدأ الشيخ سلطان بن صقر يستشعر الضغط الذي أخذ يتعرض له من قبل السعوديين ، وسرعان ما تأكد له ذلك حين وجد قسماً من رعيته يخرجون عن طاعته ويخضعون للقائد السعودي مطلق المطبرى الذي كان معسكراً في البريمي وأكثر من ذلك حرص السعوديون بعض زعماء الساحل العماني للسيطرة على بعض مشيخات الساحل العماني الأقل قوة ولعل من أبرز الشخصيات التي أيدوا السعوديون محمد بن أحمد الطنجي الذي أصبح حاكماً على شيناص ، كذلك أيد السعوديون شخصيات من آل النعيم والرواشد^(١). وهكذا أخذت تظهر مشيخات جديدة على الساحل تحمل أسماء جغرافية بعد أن كانت التنظيمات تنتمي إلى زعامات قبلية ، وسوف تعمل بريطانيا من جانبها على تكريس تلك التجزئة وخاصة في أعقاب حملة ١٨١٩ كما سنشير إلى ذلك

(١) ابن رزيق : الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيدين ص ٤٩٧ و ٥١٥ .

فما بعد . على أن أهم خطوة اتخذها السعوديون حدثت في عام ١٨٠٩ حين بادروا بعزل الشيخ سلطان بن صقر وتعيين الشيخ حسين بن علي بدلا منه مقابل اعتراف الأخير بسيادة السعوديين عليه وقبوله زيادة مقدار الزكاة التي كان يدفعها القواسم الدرعية ؛ عاصمة الدولة السعودية الأولى ، من أربعة آلاف إلى اثني عشر ألف ريال ماريا تريزا وأن يوجه كل سفته لمهاجمة المخالفين للدعوة الوهابية ، وأن يحول إلى الدرعية خمس الغنائم التي يحصل عليها^(١) . ويسود الغموض ظروف الإطاحة بالشيخ سلطان بن صقر وترى بعض المصادر أن العناصر القيادية من القواسم من قبائل زعاب وطنيج هي التي حرّضت السعوديين على خلعه وبصدد ذلك يذكر المطوع في الجواهر واللالئ « حكم الشيخ سلطان بن صقر وتم له الأمر وكان متصفا بالشجاعة والاقدام ولكنه أصبح لا يرى لأحد فضلا عليه ليشاوره أو يناظره فأعرض عن الصفح واستبد برأيه وكان هذا خطأ ، إذ لم تمض مدة حتى سئمت الجماعة منه وانقضت عليه فقد استاء الناس من الشيخ سلطان لأنه قتل عمه كما استاءوا من الاستبداد بالأمر وكان أشد الناس استياءا وخروجاً عليه قبيله زعاب سكان جزيرة الحمراء التابعة لرأس الخيمة وقبيلة الطنيج سكان بلدة رمس التابعة لرأس الخيمة أيضاً وفي عام ١٢٢٤ هـ وصل أمير الجيوش السعودية إلى قرية الزيد وهناك باشر السماع إلى شكاوى زعاب وطنيج ثم اختلى بالشيخ سلطان وأبلغه أن الإمام يريد أن يتوجه إلى نجد فلم يربدا من الموافقة على الأمر الصادر ولما وصل سلطان إلى الدرعية احتجزه الأمير سعود هناك^(٢) . وتختلف الآراء في مصير الشيخ سلطان فمن قائل أن الأمير السعودي أمر باعتقاله وزج به في السجن ومن يقول أنه أطلقه وجعله مساءدا لمن يعينهم على غزوات الشام والعراق ومن يقول أنه طلب الصفح من سعود فأنزله الإمام السعودي منزلة كريمة .

(١) Kelly John, Britain and the Persian Gulf P. 110 FF.

(٢) المطوع: الجواهر واللالئ نقلا عن الفصل في تاريخ الامارات ج ١ ص ٣١٠-٣١١

وهناك من المصادر من ترجع السبب في عزل السعوديين للشيخ سلطان أنهم وجدوا في الشيخ حسين بن علي شيخ رمس الشخصية التي يمكن أن يعتمدوا عليها حيث كان أطوع لقيادتهم بعكس الشيخ سلطان الذي كان يعمل على أن يكون زعيماً اسماً وفعلاً ولا يريد من السعوديين سوى تعزيز مركزه فقط ، ولا شك أن السعوديين قدروا أن في وسعهم عزل سلطان بن صقر وخاصة أن بريطانيا لن تتدخل في أمر عزله إذ كان يهملها التخليص من زعامته على القواسم^(١) . وقد نجح السعوديون في تعيين حسين بن علي حاكماً وجابياً للزكاة باسمهم في جميع الساحل العماني ، كما عينوا بعض الشخصيات الأخرى على مقاطعات الساحل ، كما استولوا على حصون الفجيرة والباطنة وخور فكان في ساحل الشمالية وكانت تلك الإجراءات التي اتخذها السعوديون لها أثر كبير في التأثير على القواسم والفت في عضدهم^(٢) . ويفهم مما أوردته وثائق بومباي بصدد ذلك أن السعوديين استمالوا الشيخ حسين بن علي الذي عينه الأمير السعودي نائباً عنه في منطقة الصير ولا شك أن هذه الخطوة المنظمة من جانب السعوديين جعلت جميع القبائل تخشى بأسهم خشية شديدة إذ مهما تكن ميول تلك القبائل فإنها كانت مضطرة إلى الانضمام للشيخ حسين بن علي أو تعرض نفسها لقسوة الأمير السعودي وانتقامه^(٣) . وإذا كان هذا التنظيم سبباً منطقياً لعزل السعوديين للشيخ سلطان بن صقر وتولية حسين بن علي فإن هناك إلى جانب ذلك أسباباً أخرى لعل من أبرزها العرض الذي تلقاه الشيخ سلطان من السيد سعيد سلطان مسقط بعقد سلام مع الإنجليز ، وتوحيد قواته مع مسقط لمواجهة القوة المتزايدة للسعوديين وتذكر بعض المصادر أن الشيخ سلطان وافق على هذا العرض على حين رفضه أتباعه وكان ذلك مما سهل على السعوديين مهمة خلعهم دون أن يواجهوا

(١) السياب : مرجع سبق ذكره ص ٢٨ .

(٢) نفسه ص ص ١٩٠/١٩١ .

(٣) Bombay Govt., op. cit. CF. Historical Sketsh of Wahabee tribes of Arabs. P. 430 SQ. See also Joasmee Tribes of Arab P. 304 ff.

بمعارضة من القواسم . وهناك من يعزى إلى الشيخ سلطان أنه هو الذى طلب من السيد سعيد إقامة تحالف سرى ضد السعوديين وعندما علم حسن ابن رحمه وهو أحد أقرباء الشيخ سلطان بذلك أخبر الإمام سعود الذى بادر بخلعهم ويذكر ابن رزيق بصدد ذلك «ثم إن سلطان بن صقر القاسمى الهوى جعل يكتب السيد سعيد بالصلح بينه وبينه سرّاً فأجابه السيد إلى ذلك فلما علم بذلك عمه حسن بن رحمه كتب إلى سعود بن عبد العزيز عن صلح سلطان لسعيد بن سلطان فكاتب سعود إلى سلطان بن صقر بالوصول إليه»^(١) وهناك رواية أخرى قيلت فى تعليل سبب خلع السعوديين للشيخ سلطان ابن صقر وهى أن ازدياد النفوذ السعودى فى الساحل العمانى أثار سخط القواسم مما أغضب السعوديين على الشيخ سلطان وتأكد لديهم أن سلطان لم يظهر الاخلاص للدعوة الوهابية وأنه أبى استقلالاً أكثر وولاء أقل . وأصبح بالتالى موضع عدم الرضا من قبل السعوديين . على أن أوثق الروايات هى تلك التى ذكرها صمويل ميلز Miles المقيم السياسى فى الخليج العربى وفحواها أن السعوديين هم الذين رغبوا فى مهادنة الانجليز ومن ثم كان خلعهم للزعيم القاسمى^(٢) ، ويستند ميلز على أن الانشقاق القاسمى السعودى هو الذى أتاح الفرصة لبريطانيا للتخلص من نشاط القواسم دون أن يؤدى ذلك إلى صراعها مع الدولة السعودية نفسها ومن ثم كانت حملة ١٨٠٩ التى حطمت فيها بريطانيا مركز القواسم فى رأس الخيمة؛ وأنه على أثر هذه الحملة اتخذ الإمام سعود قراراً بمهادنة الانجليز ، وفيما يبدو أن القرار كان استجابة لعروض حكومة الهند من أن يمنع أتباعه عن ارتكاب عمليات قرصنة ضد السفن العابرة فى الخليج^(٣) . غير أن استجابة السعوديين لهذه المهادنة من الأمور التى تثير الدهشة والاهتمام ولا ندرى هل ترجع تلك الاستجابة إلى إدراك السعوديين لقوة الانجليز ؟ أو عسادم إدراكهم لهويتهم الدينية !

(١) ابن رزيق : الفتح المبين ص ٥١٧ - ٥١٨ .

(٢) Miles, S. Countries and Tribes of the Persian Gulf (٢) vol. II P. 314 ff London 1919.

(٣) ج . ١ لوريمر : مصادر سبق ذكره ج ٢ ص ٩٩٤ .

وبذكر أحد الباحثين أن علماء الدرعية عقدوا اجتماعاً قرروا فيه أن الإنجليز على دين النصارى وهم أهل كتاب وبالتالي فإن جهادهم غير واجب على المسلمين^(١). ولدينا بصدد ذلك رسالة وجهها الإمام سعود إلى هنكى سميث المقيم البريطانى فى الخليج ، وتتفق هذه الرسالة مع بنود الاتفاق الذى أبرم بين القائد السعودى مطلق المطيرى والقائد الانجليزى ليونيل سميث بعد معركة شيناص التى حدثت فى أعقاب الحملة البريطانية على القواسم مباشرة فى عام ١٨٠٩ . وكان هذا الاتفاق ينص على عدم تعرض السعوديين وأتباعهم لسفن الانجليز أو الرعايا التابعين لهم وعدم تقديم أية مساعدات لسلطان مسقط فى حربه ضد كل من ثار ضده ورفض دفع الزكاة المفروضة عليه^(٢). وقد نصت الرسالة على اعتراض الإمام سعود وانتقاداته اللاذعة للحملة التى قام بها الإنجليز عام ١٨٠٩ ضد القواسم بمشاركة السيد سعيد وأوضح الإمام السعودى أسباب الخلافات القائمة بينه وبين مسقط بأسلوب وقور ولكنه ساخر فى نفس الوقت إذ جاء فى نص هذه الرسالة « إن سبب الخصومات المستمرة بينى وبين من يسمون أنفسهم مسلمين لإعراضهم عن كتاب الخالق ورفضهم الامتثال لنبيه محمد » ويتضح من هذه العبارة الخلافات الطائفية والمذهبية بين الإباضية التى يعتنقها العمانيون وبين السلفية التى تقوم عليها الدعوة الوهابية وتضيف الرسالة « وبما أنكم جنحتم إلى السلم^(٣) فلأنى استنتج من ذلك أنكم أصبحتم تدركون سوء العمل الذى قمتم به^(٤) وأصبحتم أضحوكة بين الناس بسبب تحريض رجل لا يملك أية قوة ذاتية^(٥) كما أنكم لم تفكروا فى نتائج عملكم » وجاء فى الرسالة أيضاً ما يمكن أن نعتبره تعهداً من قبل السعوديين بعدم شن

(١) عبد العزيز عبد الفتى : علاقة ساحل عمان ببريطانيا ص ١٦٨ البصرة ١٩٧٨ .

(٢) Shaikh Mansour, V. History of Said Said P. 67.

(٣) يعنى هذا الانجليز .

(٤) المقصود بذلك حملة ١٨٠٩ .

(٥) تعنى الرسالة السيد سعيد بن سلطان .

حرب على من ينتمون إلى فرقة أخرى وعدم التدخل في عملياتهم المعادية وعدم مساعدتهم ضد أعدائهم ، وعدم الاعتداء على سفن الإنجليز كما يفهم من النص التالي « فما دمت تحت سلطة العلى القدير فقد سموت على جميع أعدائى وفى هذه الظروف رأيت من الضرورى أن أبلغكم أنى أن أدنومن شواطئكم وأننى منعت أتباع عقيدة محمد وسفهم من أن يقوموا بأى تنكيل بسفنكم فلماذا ما ظهر أحد من تجاركم فى موانئى أو رغب فى الهجاء إليها فسيكون آمنا » وتنتهى الرسالة بتوجيه اللوم إلى الإنجليز حيث ورد بها « فلا يزد هيكم إذن احتراق عدد من السفن لأنه ليس لها قيمة فى رأى ولا فى رأى أصحابها وأهل بلادها » (١) .

وقد أعرب نائب الملك فى الهند عن ارتياحه لتلك الرسالة واعتبرها خطوة مشجعة لبدء علاقة طيبة مع السعوديين ، ورحب بصفة خاصة بقرار الأمير السعودى بمنع أتباعه من التعرض للملاحة البريطانية ، وفى رده على الرسالة أكد بأن حكومة الهند لايهمها خلافات الأمير مع غيره من المسلمين وإنما يهمها تأمين الملاحة فى الخليج . وظهر أثر العلاقات الإنجليزية السعودية حين رفض نائب الملك فى الهند تقديم العون لسلطان مسقط حين طلب منه مساعدته فى صد هجوم تعرضت له بعض المناطق العمانية من قبل مطلق المطبرى وكان ذلك مبعث استياء سلطان مسقط الذى كتب إلى حكومة الهند يؤكد أن تعاونه مع الحملة البريطانية ضد القواسم قد ورطه فى حروب مستمرة مع حلفائهم السعوديين الذين كانت علاقته معهم من قبل علاقة ود وسلام ولولا صداقته للإنجليز لكان قد وافق على العروض السلمية التى قدمها السعوديون لإياه ، ولكن نائب الملك فى الهند أبلغ السيد سعيد سلطان مسقط فى عام ١٨١٠ بأن حكومة الهند البريطانية لم يعد لها مصلحة فى الصراع

(١) للرجوع إلى النص المفصل لهذه الرسالة انظر التحكيم لتسوية النزاع الاقليمى بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية - عرض الحكومة السعودية ج ١ ص ١٢٩ وما بعدها القاهرة ١٩٥٥ وقد أورد هذه الرسالة الرحالة جيمس مورير .

Morier, J. A Journey through Persia. Armenia and Asia Minor to Constantipole 1809 pp. 374—379 London 1919.

الدائر بينه وبين السعوديين وأن كل ما يهمها مصلحته ورفاهية سلطنته وانطلاقاً من هذا الاعتبار وما قد تسفر عنه ظروف السلم بينه وبين السعوديين من استقرار فإن حكومة الهند تقترح عليه قبول عروض السلام التي تقدم بها السعوديون إذا لم يكن فيها مساس بكرامة السلطنة واستقلالها . ولعل التزام حكومة الهند البريطانية بهذا الموقف هو الذي دفع السيد سعيد في عام ١٨١١ أن يلتجئ إلى فارس ملتصداً بالعون ضد السعوديين ، ومع ذلك فإن الظروف لم تلبث أن ساعدت السيد سعيد ليفض خلافاته معهم حين وصل إلى مسقط في نفس ذلك العام مبعوث خاص من الدرعية يطلب التفاهم مع السيد سعيد لأن الأمير السعودي لم يعد لديه الوقت للتفرغ لشئون عمان بعد أن عبأ جميع قواته لمواجهة التقدم المصري التركي في الجزيرة العربية^(١) . كما توصل السعوديون في عام ١٨١٤ إلى اتفاق بينهم وبين الإنجليز تعهدوا فيه بعدم مهاجمة السفن البريطانية وصدرت الأوامر السعودية لزعماء القواسم بهذا المعنى من قبل الأمير السعودي^(٢) .

نخلص مما سبق أن تعرضنا إليه أن الإنجليز استطاعوا إحداث شرح في العلاقات القائمة بين السعوديين والقواسم ، وأدى ذلك إلى تحييد السعوديين وضرب القواسم من قبل الإنجليز كما سيوضح ذلك في الحملات العسكرية البريطانية التي وجهتها بريطانيا ضد القواسم منذ عام ١٨٠٩ وما بعدها . وفيما يبدو لنا أن حسين بن علي نائب السعوديين في الساحل العماني لم يستمر طويلاً في زعامته للقواسم إذ يفهم مما ذكرته بعض المصادر أن الشيخ حسن ابن رحمه كان مسيطراً على رأس الخيمة في عام ١٨١٤ .

وما يستلفت الانتباه أيضاً أن المؤرخ النجدي عثمان بن بشر لا يشير في كتاباته عند ذكره لزعماء الساحل العماني إلى الشيخ حسين بن علي^(٣) بل يذكر أنه كان على زعامة القواسم سلطان بن صقر بن راشد ثم عزله السعوديون

(١) جون كلي : مرجع سبق ذكره ص ص ٢١٠/٢١١ .

(٢) عبد العزيز عبد الغنى : مرجع سبق ذكره ص ١٦٩ .

(٣) ابن بشر : عنوان المجلد في تاريخ نجد ج ١ ص ١٧٥ .

وجعلوا مكانه ابن أخيه حسن بن رحمة . ولا شك إن إقرار السعوديين بذلك يعنى عدم تجاهلهم للزعامة القاسمية سواء بتعيينهم لحسن بن رحمة أو حسين بن علي الذي كان يفتنى بدوره إلى القواسم . ولعل مما تجدر الإشارة إليه بصدد ذلك أنه رغم تعاظم النفوذ السعودي إلا أن علاقات القواسم بالسعوديين كانت تغلب عليها العلاقات المعنوية أكثر من التبعية السياسية ولعل مما يؤكد ذلك أن القواسم كانوا يتخذون مواقف هامة دون الرجوع إلى الأمير السعودي^(١) ففي المفاوضات التي جرت بين ممثلي القواسم والمقيم البريطاني سيتون Seton عقب حملة ١٨٠٥ ، التي أسفرت عن عقد أولى المعاهدات البريطانية مع القواسم في عام ١٨٠٦ لم يرجع القواسم إلى الدولة السعودية ، وصادقت حكومة الهند البريطانية على تلك المعاهدة في فبراير ١٨٠٦^(٢) . ولذلك فإنه في تقديرنا أن تفاقم المشكلات بين القواسم والسعوديين ترجع في الدرجة الأولى إلى منطقة النفوذ السعودي في الساحل العمانى مما أدى إلى سحق القواسم الذين بدأوا يتبرمون بالزعامات القاسمية الموالية للسعوديين ولعل هذه الظروف هي التي مكنت سلطان بن صقر من استرداد سلطته حيث تمكن في عام ١٨١٣ من الفرار من الدرعية^(٣) . ويبدو أنه خطط لذلك في موسم الحج حيث سمح له الأمير السعودي بالذهاب إلى مكة لتأدية فريضة الحج وهناك التقى بجماعة من قبيلة الجنبة بعان وهم معادون للقواسم ولـسكنه أجرى مصالحة معهم فوافقوا على أن يركب معهم البحر ، ومما تجدر الإشارة إليه أنه في أثناء وجوده في الحجاز اتصل بطوسون باشا ابن محمد علي الذي زوده برسائل من قبل محمد علي إلى السيد سعيد سلطان مسقط ، وحين وصل إلى مسقط اتصل

(١) صالح محمد العابد : مرجع سبق ذكره ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٢) نفسه ص ١٤٦ .

(٣) جون كلى : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٢١٤ وكذلك :

Bombay Govt. Historical Sketch of Joasme tribes of

Oman. CF. S.R,B.G. vol. XXIV P, 307 ff. Bombay 1856.

بالإنجليز حيث تعهد لهم باحترام اتفاقية ١٨٠٦ وفيما يبدو أنه قد تلاقحت رغبات كل من السيد سعيد ومحمد علي والإنجليز على إعادة سلطان بن صقر على مشيخة القواسم^(١). ومن المعروف أن سياسة محمد علي كانت تعتمد على إيجاد شيوخ مواليين له في سواحل الخليج تحقيقاً لما كان يهدف إليه من السيطرة على تلك السواحل. وقد ذكرت بعض المصادر أنه رغم مهادنة سلطان بن صقر للإنجليز إلا أنه لم يهادن سلطان مسقط لإزاء عقيدته الدينية حيث أكد للسيد سعيد « أن ما جرى بينه وبين آل سعود هو من نوع ما يجري بين الوالد وأولاده والأخ وأخيه وأما العقيدة السلفية فهي العقيدة الحق التي لا يبتغي بها بديلاً »^(٢). وعلى الرغم من ذلك فإن السيد سعيد كان يرى في وصول سلطان بن صقر إلى الحكم ضماناً لاتقاء خطر القواسم إذ كان سلطان بن صقر يمثل الجانب الأكثر هدوءاً والأقل تطرفاً في علاقاته بكل من مسقط والإنجليز وقد تمكن السيد سعيد من الاستعانة ببني ياس حيث عقد اجتماعاً مع الشيخ شعبوط في عام ١٨١٣ وافق فيه زعيم بني ياس على الهجوم على رأس الخيمة بألفين من رجاله، كما أبدى شيوخ القبائل العربية على الساحل الشرقي للخليج استعداداً لمعاونة سلطان بن صقر، كذلك وعد شيخ البحرين بالمشاركة بألفي رجل وخمس عشرة سفينة وتم الهجوم على رأس الخيمة في عام ١٨١٣ بموافقة بريطانيا، ورغم فشل هذه الحملة إلا أن السيد سعيد جدد الحرب في العام التالي وتمكن سلطان بن صقر أن يستولي على الشارقة بمعاونة من حلفائه في الوقت الذي تمكن فيه السيد سعيد أن يعقد اتفاقاً مع الشيخ حسن بن رحمه جاء فيه أنه تنفصل إمارة الشارقة عن رأس الخيمة وأن يكون الشيخ سلطان حاكماً عليها والشيخ حسن بن رحمه حاكماً على رأس الخيمة وهكذا شهد عام ١٨١٤، انقسام الزعامة القاسمية إلى قسمين أحدهما في الشارقة والآخر في رأس الخيمة ولا شك أن هذا الانقسام في الزعامة أدى إلى تشجيع بقية زعماء القواسم الذين كانوا يؤلفون عناصر الاتحاد

(١) Shaikh Mansour, History of Seyid Said P. 54

(٢) المفصل في تاريخ الإمارات ج ١ ص ٣٣٢ .

القاسمي إلى الاستقلال بالمناطق التي كانوا يحكمونها حكماً محلياً^(١) . وقد استمرت الزعامة القاسمية مفككة على كل من الشارقة ورأس الخيمة حتى وصول القوات المصرية التركية إلى نجد وتحطيم الدرعية في عام ١٨١٨ ، إذ أنه يستتوي الدولة السعودية الأولى فساد الشيخ حسن بن رحمه تأييد السعوديين له ومما يذكر بهذه المناسبة أنه أرسل سبع عشرة سفينة محملة بخمسة آلاف مقاتل إلى ميناء القطيف للمشاركة في الدفاع عن الدرعية ، ولكن النجدة وصلت متأخرة ، كما قاتل الشيخ حسن بن رحمه ببسالة للدفاع عن رأس الخيمة في عام ١٨١٩ ضد الانجليز وسلطان مسقط ، ولكن كان من نتيجة هذه الحملة تحطيم رأس الخيمة وخلق الشيخ حسن بن رحمه وإعادة رأس الخيمة إلى سلطان بن صقر وتم ذلك على حساب تفكيك الساحل العماني إلى عدة مشيخات أصبح لها كيانها الإقليمي بسبب ضمان بريطانيا لذلك الوضع كما سنعرض لذلك في الفصل التالي .

Bombay Government, op. cit. Historical Sketsh of (١)
Joasmee tribes — See also the Rise and Progress of the
Government of Muscat vol. XXIV Bombay 1856. P. 184 ff.

الفصل الثامن

توغل النفوذ البريطاني في الساحل الجنوبي للخليج العربي

النشاط البحري للقواسم - حملة ١٨٠٥ ضد القواسم
اتفاقية ١٨٠٦ - تجديد العمليات البحرية وحملة ١٨٠٩
تدمير رأس الخيمة - فشل المفاوضات بين بريطانيا
والقواسم ١٨١٤ - بعثة سادلر - حملة ١٨١٩ - معاهدة
السلام العامة ١٨٢٠ - اجراءات كبر السياسة وأثرها في
تثبيت النفوذ البريطاني - ثورة البوعلى ١٨٢٠ - قمع
الثورة وتدعيم الهيبة البريطانية .



الفصل الثامن

توغل النفوذ البريطاني في الساحل الجنوبي

للخليج العربي

ارتبط النفوذ البريطاني في الساحل الجنوبي للخليج العربي بصراع بريطانيا مع القواسم الذين وصلوا إلى قمة تفوقهم البحري في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر . وقد ساعد القواسم على تحقيق ذلك التفوق أمران هامين أولهما اضطراب الأوضاع السياسية في المملكة الفارسية على أثر اغتيال كريم خان الزندي في عام ١٧٧٩ . وثانيهما أن شركة الهند الشرقية البريطانية كانت لا تزال مشغولة حتى ذلك الوقت في تدعيم نفوذها في شبه القارة الهندية وبالتالي لم تكن تريد أن تبدد قواها في قمع النشاط البحري للقوى العربية في الخليج . على أنه منذ نهاية القرن الثامن عشر بدأت بواعث القلق تثار لدى حكومة بومباي، وهي الحكومة المختصة بشئون الخليج العربي من بين مجموعة الحكومات التي انقسمت إليها شركة الهند الشرقية البريطانية وذلك حين بدأ القواسم يعترضون السفن البريطانية العابرة في مياه الخليج منذ عام ١٧٧٨ ، وإن كانت أخطر عمليات القواسم البحرية قد حدثت على وجه التحديد في عام ١٧٩٨ حين تعرضت السفينة الحربية الفير Viper لأعمال هجومية من قبل القواسم عندما كانت راسية بالقرب من ميناء بوشهر وذلك خلال منازعات القواسم مع السيد سلطان بن أحمد سلطان مسقط حيث كان القواسم يعاضدون شقيقه الذي عزله عن الحكم وهذا يعني أن القواسم قد

تورطوا بالفعل في المتازعات الأسرية في سلطنة مسقط . غير أن هذا الحادث لم يؤد إلى اشتباك بين الإنجليز والقواسم وإنما اكتفى ممثل شركة الهند الشرقية البريطانية في البصرة بالاحتجاج لدى شيخ القواسم على هذا العمل الذي اعتبره عملاً عدوانياً باعتبار القبير تابعة لبحرية بومباي وأجاب الشيخ صقر على ذلك الاحتجاج بأن الهجوم لم يقع إلا بعد أن أطلقت القبير سوكانت مزودة بأربعة عشر مدفعاً - النيران على القوارب التابعة للقواسم وقرر أن ابن أخيه الشيخ صالح هو الذي قاد ذلك الهجوم وأنه غادر رأس الخيمة وتوجه نحو الساحل الفارسي ، انفصل عن التحالف القاسمي وأكد أنه ليس بين القواسم والإنجليز أية خلافات وأن القواسم ليس لهم سوى عدو واحد وهو سلطان مسقط^(١) . ودلل شيخ القواسم على صدق نواياه بزيارته لممثل شركة الهند الشرقية البريطانية مستر مانيستي Manisty في البصرة مؤكداً صداقة القواسم للإنجليز وطالب ألا يوفر الإنجليز الحماية للسفن المسقطية ولا يرسلوا أية بضائع عليها مؤكداً عدم مسئولية القواسم عن أية خسائر تعرض لها البضائع الإنجليزية^(٢) . ولكن القواسم أخذوا يشددون هجماتهم ضد السفن البريطانية وقد يكون ذلك لإقتناعهم بالمساعدات التي كانت تقدمها تلك السفن لسلطنة مسقط أو أن تلك الهجمات كانت تحدث وقت احتدام النزاع بين القواسم وخصومهم بحيث لم يكن القواسم يفرقون بين السفن الانجليزية وسفن أعدائهم . وعلى الرغم من تعدد حوادث القواسم البحرية فقد استمرت حكومة بومباي تنظر إلى تلك الحوادث بأنها ليست بالأمر الخطير الذي يستوجب تدخلها أو اتخاذ قرار لتأديب القواسم ، وعلى العكس

Bombay Government, Selection from the Records of (١)
 Bombay Govt. Historical Sketch of Joasme tribe of Arabs
 1747—1853 P. 302 ff Sq vol. XXIV Bombay 1856.

(٢) دونالد هولي : عمان ونهضتها الحديثة ص ٤٦ .

من ذلك كانت حكومة بومباي تصدر تعليماتها للبحارة التابعين لها بعدم البدء في اطلاق النيران وقد ترتب على ذلك وقوع كثير من السفن الإنجليزية بخدع بسيطة في أيدي القواسم^(١). ومما تجدر الإشارة إليه أن حكومة الهند ظلت متمسكة بتلك السياسة المسالمة إزاء عرب الخليج حتى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر حتى أنها كانت توجه اللوم إلى قواد السفن الذين لا يلتزمون بتعليماتها؛ بيد أنها لم تلبث أن أدركت خطأ إبقائها على تلك السياسة المسالمة التي تكلفها الكثير من الخسائر ومن ثم بدأت في اتخاذ سياسة جديدة في علاقتها بالقوى العربية على الساحل الجنوبي للخليج العربي على أن ما تجدر الإشارة إليه أن حكومة الهند لم تتخذ تلك السياسة العدائية التي سوف نعرض لها إلا بعد أن أصبح مؤكداً لديها أهمية تلك المنطقة بالنسبة لمواصلاتها الامبراطورية إلى الهند ولعل ذلك كان يرتبط بوصول الحملة الفرنسية إلى مصر في عام ١٧٩٨ واتجاه حكومة الهند إلى عقد معاهدة مع سلطان مسقط وخاصة أن حكومة الهند كانت تدرك بأن سلطنة مسقط هي التنظيم السيامي الأكثر ثباتاً في المنطقة ومن ثم وجدت في تحالفها مع تلك السلطنة عاملاً هاماً يساعدها في الحد من القوة المتزايدة التي أخذ القواسم يكتسبونها وما ترتب عليها من اضطرابات شديدة بدأت تواجهها الملاحة في الخليج العربي، ويمكننا أن نضيف إلى ذلك ازدياد قوة الوهابيين في نجد وظهورهم على سواحل الخليج وخاصة بعد احتلال السعوديين للقطيف وسيطرتهم على الاحساء وامتداد سيطرتهم إلى البريمي ومن هناك بدأوا يوجهون هجماتهم المتلاحقة ضد سلطنة مسقط والنفوذ منها إلى الساحل الجنوبي للخليج العربي، وخاصة حين توثقت علاقات الصداقة والتحالف بينهم وبين القواسم^(٢). وعلى الرغم من أن القواسم أعلنوا تبعيتهم للدولة الإسلامية التي أقامها السعوديون حتى أنهم كانوا يدفعون إليها الحصة الشرعية للزكاة من الغنائم التي كانوا يستولون عليها إلا أن الخطوة

(١) Buckingham, Travels in Assyria, Media and Persia (١)
P. 226 ff.

(٢) ج. ١٠ ج. لوريمر دليل الخليج ج ١ ص ٢٧٧/ ٢٧٨.

البريطانية اتجهت في عملياتها العسكرية ضد القواسم إلى عدم الاعتراف بسيطرة السعوديين عليهم ومعنى ذلك أن حكومة الهند كانت تتجه إلى ضرب القواسم دون الاصطدام بالدولة السعودية في الوقت الذي كان فيه القواسم قد اكتسبوا تأييد الدولة السعودية، وضمنوا حمايتها وبالتالي فقد أخذت هجماتهم تزايد ضد أية سفينة تحمل العلم البريطاني حيث قويت فكرة الجهاد التي ألهمها الوهابيون في نفوس القواسم^(١). ومن ناحية أخرى فقد كان الصراع الذي حدث بين السعوديين وسلطنة مسقط له أثره في جر القواسم إلى دائرة هذا الصراع حين انحازوا للسعوديين ضد سلطنة مسقط ونخسيت حكومة بومباي أن تتحول مسقط إلى ممارسة القرصنة بضغط القواسم والسعوديين عليها وتأكدت هذه المخاوف حين أرسل سلطان بن أحمد وكلاءه إلى الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى يطالبون بإعادة شيناص وغيرها من القلاع التي استولى عليها السعوديون من وإلى صحار وهناك عاملهم الأمير السعودي معاملة سيئة واحتجزهم في عاصمته وكان يهدف بذلك الضغط على سلطان مسقط ليأمر سفنه بمعاونة السعوديين في الهجوم على البصرة أو يبرهن على محبته لقضية المسلمين بارسال حملة للاستيلاء على المستودعات البريطانية في سواحل الهند وهدد الأمير السعودي بأنه سيهاجم مسقط بنفسه حين يعود من حجه إلى مكة في الحريف القادم (١٨٠٣) (٢).

وعندما حاول سلطان بن أحمد تدبير خطة للقضاء على الوهابيين وحلفائهم القواسم بالاتفاق مع السلطات العثمانية في العراق دفع حياته ثمناً لذلك حين تربص به القواسم وقتلوه أثناء عودته من البصرة وأثناء مروره بسواحلهم وحدث ذلك في ميناء لنجه (١٨٠٤) (٣). وحين حاول العمانيون الانتقام لمقتل سلطانهم اشتبكوا مع القواسم في خور فكان وتحول الميناء إلى بحيرة

(١) صادق نشأت : تاريخ الخليج السياسي ص ١٣٠/١٣١ .

(٢) الوثائق السعودية : التحكيم لتسوية النزاع الاقليمي بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية ج ١ ص ١١٧ وما بعدها .

(٣) السالم، وناجي عساف : عمان تاريخ يتكلم ص ٢٠٢ .

من الدماء ولكنهم لم يفوزوا بطائل بل لأنهم سرعان ما تعرضوا للخلافات أسرية حادة انتهت بوصول بدر بن سيف إلى حكم السلطنة بالوصاية ١٨٠٤/١٨٠٦. ومما يستلقت الإنتباه أن اغتيال سلطان بن أحمد قضى على نفوذ مسقط في الساحل الشرقي من الخليج وورث القواسم نفوذ مسقط في تلك المناطق^(١). وحاولت بريطانيا أن تستغل الأوضاع المحلية للقضاء على شوكة القواسم حيث وجدت في بدر بن سيف أداة طيعة لها للقضاء عليهم وعلى الرغم من أن القواسم قد اتحدوا مع العتوب للاطاحة بسلطان بن أحمد إلا أن السياسة القبلية تتميز دائماً بالتقلب حيث عاد العتوب لمخالفة بدر بن سيف ضد القواسم وبارك الوكيل البريطاني في مسقط الكابتن سيتون هذا التحالف تمشياً مع الخطة البريطانية الخاصة بتشجيع التحالفات القبلية حتى تصفى بعضها البعض الآخر وكان ذلك قبل أن تبدأ بريطانيا مرحلة التغلغل العسكري المباشر في المنطقة^(٢).

ومما تجدر الإشارة إليه أن بريطانيا استفادت من الخلافات القائمة بين مسقط والقواسم لكي ترسل حملتها العسكرية الأولى إلى الساحل العماني في عام ١٨٠٥ وكان ذلك بسبب ازدياد عمليات القواسم ضد السفن البريطانية ففي أواخر عام ١٨٠٤ استولى القواسم على سفينتين تابعتين للمستمر صمويل مانيسكي ممثل شركة الهند الشرقية البريطانية في البصرة وفي العام التالي ١٨٠٥ هاجم القواسم بأسطول يتكون من أربعين سفينة شراعية سفينة حربية تابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية ، والجدير بالذكر أن حوادث القواسم اختلفت في تلك الفترة التي نحن بصدددها عن الحوادث السابقة عليها إذ أن الحوادث الأخيرة اصطبغت بالصيغة الدينية^(٣) ورغم أن الدلائل التاريخية تؤكد الأثر الوهابي على تلك الحوادث إلا أن حكومة بومباي حاولت بقدر الإمكان أن تغض

(١) ج. ج. لوريمر : دليل الخليج ج ٢ ص ٦٧٥ .

(٢) Bombay Govt., op. c't, Historical Sketch of Uttoobee tribe of Arabs 1716-1852 P. 361.

(٣) عن اعتناق القواسم للدعوة الوهابية انظر الوثائق السعودية العرض التاريخي لمشكلة

البريمي ج ١ ص ١١٢ .

الطرف عن أن يكون أمراء نجد هم المحرضون عليها حتى لا يوقعها ذلك في نزاع مباشر ضد السعوديين^(١). ولكن ازداد الأمر خطورة بالنسبة للحكومة بومباي حين وجدت بدر بن سيف سلطان مسقط بالوصاية يعلن تضامنه مع القواسم والسعوديين تجنباً للضغط الشديد الذي أخذت تتعرض له سلطنة مسقط من جانبهم ، ولعل ذلك هو الذي نبه حكومة بومباي إلى ضرورة التدخل المباشر ولكنها عمدت إلى خطة ذكية تقوم على الاشتباك ضد القواسم وليس السعوديين ، وكانت تهدف بذلك قصر الصراع في الساحل دون الداخل ويعود إلى المستر صمويل مانيسى الأثر الكبير في تنبيه حكومة بومباي إلى ضرورة هذا التدخل حيث كتب إلى حكومته في عام ١٨٠٥ يؤكد أن خطر (القرصنة العرب) أصبح يفوق خطر أعدائنا القوميين وكان يقصد بذلك الفرنسيين ، كما أن حوادث (القرصنة) أصبحت تسبب لحكومة الهند متاعب أكبر بكثير من المتاعب التي تتعرض لها نتيجة المنازعات الدولية في بخار الشرق^(٢) . وبادرت حكومة بومباي بأن عهدت إلى الكابتن دافيد سيتون Seton مهمة تنظيم تلك الحملة وكان الكابتن سيتون قد عهد إليه من قبل وعلى وجه التحديد في عام ١٨٠٣ مهمة إعادة افتتاح الوكالة البريطانية في مسقط والتي كانت قد توقفت لفترة من الوقت بسبب عسائم اهتمام حكومة الهند بسلطنة مسقط ، وجاء في التعليمات التي رود بها الكابتن سيتون باعتباره قائداً للحملة العسكرية أن يبحث وسائل التعاون مع سلطان مسقط آخذاً في الاعتبار ما كان يتعرض له السلطان من صراع وخلاف مع القواسم^(٣). ولعل السبب في اختيار الكابتن سيتون قائداً للحملة البريطانية أنه كان خلال قيامه بالوكالة البريطانية في مسقط لا يكف عن الطلب من حكومة بومباي أن تساند سلطنة مسقط في القضاء على القواسم انتقاماً لمقتل سلطانها^(٤) ولكن حكومة بومباي ترددت في اتخاذ هذا القرار الذي أحاطته بالكثير من الإرجاء والتحفظ حتى استقر رأيها أن تعهد إليه بتنفيذ تلك

(١) جون كل : عرج سيق ذكره ج ١ ص ١٧٠/١٦٨ .

(٢) Ireland Philip. Iraq P. 52 London 1954.

(٣) ج . ج . لوريمر : عرج سيق ذكره ج ١ ص ٢٨١ - ٢٨٠ .

(٤) Moyses, B. The Pirates of Trucial Oman pp. 30-34.

المهمة وذلك في حالة اقتناعه التام بأن السعوديين لن يتدخلوا المناصرة القواسم - كما كان عليه أيضاً أن يتفادى إثارة أية مواقف من شأنها أن تؤدي إلى تعقيدات مع الدولة العثمانية أو فارس وأن يقوم بعملياته العسكرية بالتنسيق مع المستر مانيسى ممثل شركة الهند الشرقية البريطانية في البصرة والملازم بروس المقيم البريطاني في بوشهر^(١).

ومن ناحية أخرى فقد تمكن الكابتن سيتون من إقناع حكومة بومباي بأن تزود بدر بن سيف بثلاث سفن كبيرة وخمسة وعشرين مدفعاً لكي يشترك معه في هذه الحملة. وفي ٢٨ مايو ١٨٠٥ غادر سيتون مسقط على ظهر السفينة مورنجتون متجهاً إلى الساحل الشرقى للخليج وربما يرجع السبب في نقل العمليات العسكرية إلى هذا الساحل الرغبة في تحاشي الاصطدام بالسعوديين أو قد يكون ذلك بنسأ على طلب بدر بن سيف الهجوم ضد القواسم وحلفائهم في بندر عباس حيث نجح بدر بن سيف في استرداد كل من بندر عباس وهرمز، ولاشك أن الاستيلاء على هذين الموقعين أحدث ضرراً كبيراً بالقواسم لأن جميع الموانئ التابعة لهم كانت تستخدم هذين الميناءين لتزويدها بمؤنّها المعيشية وخاصة من القمح والتمور. غير أن توجيه الحملة البريطانية إلى الساحل الشرقى للخليج أثار احتجاج السلطات الفارسية واعتبرتها عملاً عدائياً موجهاً ضد فارس التي كانت تدعى سيادتها على القبائل العربية القاطنة على ذلك الساحل، ولكن قبل أن يتأزم الموقف بين فارس وبريطانيا أسرع الكابتن سيتون إلى تصفية حسابه مع القواسم حيث توجه بمداونة السفن المسقطية إلى جزيرة قشم بعد أن وصلت إليه أخبار تجمع أسطول القواسم في تلك الجزر^(٢). ولما كان سيتون قد كلف بإرسال تقرير عن الموقف فقد أوصى بأن تتحاشى حكومة بومباي التدخل العسكرى المباشر وأن تبادر بإرسال عدة سفن لمساعدة بدر بن سيف في حروبه ضد القواسم ووافق

(١) ج. ج. لوريير : دليل الخليج القسم التاريخي ج ٢ ص ٩٧٦ - ٩٧٧ .

Moyse, B., of cit P. 33 ff.

(٢)

مجلس حكومة بومباي على تنفيذ ذلك الطلب بعد تردد وتخوف كبيرين لأن ذلك كان يعنى التخلي عن السياسة التقليدية التى استنفها حكومة الهند والخاصة بالابتعاد عن التدخل فى المنازعات القبلية فى الخليج ولذلك فقد أرسلت مع النجدة البريطانية تعليمات جديدة إلى الكابتن سيتون تطلب منه أن يتصرف بأكبر قدر ممكن من الحكمة والاعتدال وأن يسعى إلى تهدئة الموقف ما أمكن بواسطة المفاوضات^(١). وفى خلال ذلك الوقت استطاع بدر بن سيف مستعيناً بالنجدة البريطانية محاصرة أسطول القواسم فى ميناء قشم . وعلى الرغم من أن القواسم قد وقعوا فى محنة بالفعل إلا أن سيتون بناء على تعليمات حكومته التى أثارنا إليها وافق على أن يمنحهم هدنة لمدة ستين يوماً ومن ناحية أخرى كان سيتون يقدر أنه لن يستطيع ضرب القواسم والتخلص من نفوذهم دون الإساءة إلى فارس والسعوديين ، ولأشك أن هذه الهدنة هى التى أدت إلى أولى المعاهدات التى عقدها القواسم مع بريطانيا فى عام ١٨٠٦ وكان ذلك على أثر المفاوضات بين الكابتن سيتون والقواسم . وقد تطلب سيتون فى هذه المفاوضات أن يدفع القواسم تعويضات عن سائر الأضرار التى أصابت السفن البريطانية ولكن حين أكد له القواسم أنهم لن يستطيعوا دفع أكثر من عشرة آلاف روبية وعلى أقساط سنوية فقد أهمل سيتون هذا الأمر حيث تم الاتفاق على أنه فى حالة إعادة القواسم للكابتن سيتون السفينتين تريمر Trimmer وشانون وهما سفينتان كانتا تتبعان الوكالة البريطانية فى البصرة خلال خمسة وعشرين يوماً ومعها كتاب من شيخ القواسم يعتذر فيه عن مسلك رعاياه ويعلن عجزه عن دفع التعويضات ويتعهد بالكف عن هذا المسلك . فى المستقبل^(٢) فمن الممكن أن يكون هذا أساساً لمعاهدة توقع بين الطرفين . وفيما يبدو أن القواسم حاولوا أن يخففوا من الضغوط البريطانية مبررين عملياتهم البحرية بأنها كانت بأمر من السعوديين^(٣) ، وفى

(١) دونالد هول : مرجع سبق ذكره ص ٤٦ .

(٢) السيات : إيضاح المعالم فى تاريخ القواسم ص . ص ٧٤/٧٥ .

(٣) ج . ج . لوريمر : مصدر سبق ذكره ج ١ ص ص ٢٨٠/٢٨٢ .

مطلع ١٨٠٦ تم عقد أول معاهدة بين بريطانيا والقواسم في ميناء بندر عباس ووقعت هذه المعاهدة بين الكابتن سيتون وبين ممثل الشيخ سلطان بن صقر شيخ مشايخ القواسم وبمقتضى تلك المعاهدة التي جاءت في شكل (قولنامه) تم تهدئة الموقف نسبياً بين بريطانيا والقواسم وقد احتوت المعاهدة على ستة بنود عالجت استتباب السلام في الخليج وتعهد القواسم بحماية السفن والممتلكات البريطانية التي تصل إلى موانئهم حيث نصت على ما يأتي :

— تعهد القواسم باحترام ممتلكات شركة الهند الشرقية البريطانية ورعاياها ووافق الإنجليز من جانبهم أن يحترم كل من الطرفين علم وممتلكات الطرف الآخر أيها وكيف يكونون .

— في حالة عدم امتثال القواسم لشروط تلك الاتفاقية تفرض عليهم غرامة مقدارها ثلاثون ألف ريال نمساوي (ماريا تريزا) أما إذا أرغموا على نقض تلك المعاهدة بإيعاز من الوهابيين فيتعين عليهم اخطار شركة الهند الشرقية البريطانية قبل ثلاثة أشهر من نقض المعاهدة .

وفي مقابل عقد القواسم تلك المعاهدة أعلن سيتون تنازل حكومة بومباي عن محاولة السلع التي كانت على السفينة تريرمر، كما سمح للقواسم بالتجارة مع موانئ الهند من سورات إلى البنغال، وكانت هذه الموانئ محظورة على القواسم منذ هجومهم على السفينتين تريرمر وشانون في أواخر عام ١٨٠٤^(١) .

ولعل مما يسترعى الانتباه عند دراستنا لشروط اتفاقية ١٨٠٦ القوة الكبيرة التي بلغها القواسم إلى درجة يمكن أن نعتبر بها اتفاقية ١٨٠٦ من المعاهدات المتكافئة أي أنها لم تمكن على غرار المعاهدات التالية التي ستعقدها حكومة الهند البريطانية مع القواسم والتي سوف يتضح لنا فيها عدم التكافؤ . ولتوضيح ذلك ينبغي أن نلاحظ أن اتفاقية ١٨٠٦ احتوت على بنود ملزمة للطرفين ولعل أكثر ما يسترعى الانتباه أنها عقدت بين الكابتن سيتون ممثلاً

(١) راجع النص الكامل للاتفاقية في لاحق الكتاب وقد وقفها الكابتن سيتون مع عبد الله ابن كروش ممثل الشيخ سلطان بن صقر وصادق عليها نائب الملك في الهند . وما تجدر الإشارة إليه أن الكابتن سيتون كان حوياً على عدم إشراك السعوديين في تلك الاتفاقية .

عن حكومة الهند وشيخ مشايخ القواسم ، أى أن حكومة الهند لم تتعامل مع القوى القبلية بصورة انفرادية كما سيحدث ذلك في المعاهدات والاتفاقيات التالية وإنما أقرت حكومة الهند في هذه المعاهدة بالزعامة القاسمية الموحدة^(١). ويعتبر توقيع هذه المعاهدة نهاية للمرحلة الأولى من مراحل صراع بريطانيا مع القواسم وعلى الرغم مما ترتب على سيطرة الإنجليز في هذه المرحلة على جزيرة قشم وهرمز وقيس وبندر عباس وتسليم الكابتن سيتون تلك الجزر والموانئ لبدر بن سيف بهدف تحاشي اصطدام بريطانيا مع فارس ، وحتى تستطيع حكومة الهند إعادة السيطرة عليها مستقبلا إلا أن بدر بن سيف أسرع بالانسحاب من تلك المناطق وكان ذلك حين رفض الكابتن سيتون العرض المقدم إليه بأن تقيم حكومة الهند وكالة لها في بندر عباس ولا شك أن بدر بن سيف كان يهدف بذلك إلى تثبيت نفوذه بدعم من حكومة الهند في تلك المناطق غير أن فقدان بدر بن سيف لتلك المساندة هو الذى اضطره للانسحاب منها . على الفور تحاشيا للمصاعب التى كان من الحتم أن يواجهها من قبل القواسم أو السلطات الفارسية على الساحل الشرقى للخليج^(٢) . ومن ناحية أخرى فإن القواسم لم يلتزموا بنصوص معاهدة ١٨٠٦ لأكثر من عامين حيث عادوا إلى تكرار نشاطهم البحرى ضد السفن البريطانية إلى درجة أزعجت حكومة الهند لإزعاجا شديدا وخاصة حين استولى القواسم على السفينة البريطانية سيلاف Sylph وركزوا هجماتهم البحرية على سواحل الهند . ولعل من أهم العوامل التى ساعدت القواسم على مواصلة عملياتهم البحرية السياسة الخلرة التى انتهجتها حكومة بومباى منذ حملة ١٨٠٥ وذلك حين أصدر مجلس إدارتها تعليمات مشددة إلى جميع قادة البحرية البريطانية بعدم التعرض للسفن العربية^(٣). ويرجع سبب صدور تلك

(١) جمال زكريا قاسم : الأسس التاريخية لوحدة الإمارات العربية - من أعمال ندوة ندوة دولة الإمارات العربية المتحدة - بيروت - مارس ١٩٨١ .

(٢) ج . ج . لوريمر - مصدر سبق ذكره ج ١ ص ٦٨٣ - ٦٨٤ .

(٣) Low, Charles. History of the Indian Navy vol. I P, 317 SQ. (٣)

التعليقات أن حكومة بومباي لم تكن تريد أن تتأزم العلاقات بينها وبين السعوديين في الوقت الذي بدأ فيه نابليون بونابرت يستأنف نشاطه في الشرق عقب وصوله إلى عرش الإمبراطورية الفرنسية، ومن ناحية أخرى فإن حكومة الهند لم يكن في مقدورها في ذلك الوقت توفير القوات اللازمة لمواجهة تحديات القواسم لأنها كانت مجهدة تماماً في حروبها داخل القارة الهندية فضلاً عن مواجهة التنافس الفرنسي لها في بحار الشرق^(١). وطبقاً لتقدير الرحالة البريطاني جيمس مورير Morrier^(٢). بلغ أسطول القواسم في عام ١٨٠٩ ثلاثاً وستين سفينة كبيرة وثمنامائة وعشر سفينة صغيرة وعلى هذه السفن تسعة عشر ألف مقاتل ولعل هذا التعاضد في قوة القواسم البحرية جعل بعض الباحثين ينفون عن القواسم أعمال القرصنة إذ أن قوة كبيرة مثل تلك القوة التي تحدثنا عنها تمثل قوة دولة بالمفهوم السائد في مجتمعات الجزيرة العربية. وليست قوة خاصة بأفراد يشتغلون بالقرصنة لحسابهم. ولعل التعاضد في قوة القواسم أيضاً هي التي شجعت سلطان بن صقر بأن يطالب حكومة بومباي بدفع مبالغ مالية سنوية له مقابل تعهده بضمان سلامة تجارتها في الخليج^(٣)، وكذلك مقابل أجور الخدمات والتسهيلات التي يقدمها للسفن التابعة لها خلال مرورها بسواحلها^(٤). وعلى الرغم من أن هذه المطالب تعد مطالب مشروعة وفقاً للمفهوم العصري الحديث إلا أن بريطانيا اعتبرت تلك المطالب بمثابة خدش للكرامة البريطانية ورد القواسم على ذلك بشن هجومهم على السفينة ميسترفال Minerva في أبريل ١٨٠٨ وهي إحدى السفن التابعة للوكالة البريطانية في البصرة وحدث

(١) صالح العابد - دور القواسم في الخليج العربي ص ٢١٩.

(٢) Morrier, James, A Journey through Persia, Armenia and Asia Minor to Constantinople 1809 P, 373 Sq London 1812.

(٣) ج. ج. لوريمر : دليل الخليج ج ١ ص ٢٨٢/٢٨٤.

(٤) السيابي : موضح سبق ذكره ص ٩٠.

(٥) Heude, Adoyage up the Persian Gulf P. 37, Buckingham op. cit. P. 228.

ذلك الهجوم على مقربة من رأس موساندم حيث أعمل القواسم الذبح
والنقتيل في بحارتها بينما أبقوا على المسز تايلر Tyler زوجة الليفتانت
روبرت تايلر مساعد المقيم البريطاني في بوشهر وابنها الطفل حيث لم يكن
من عادة القواسم الاعتداء على النساء والأطفال ، وتم بعد ذلك إطلاق
صراح الأسرى ومن بينهم تلك السيدة وطفلها بعد دفع دية لهما بلغت في
ذلك الحين ستمائة وسبعين ريالاً^(١) . وقد وصف أحد ضباط الأسطول
للبحري التابع لحكومة بومباي أسلوب القواسم في التخلص من ضحاياهم
بقوله : « إنني لا أستطيع أن أتصور كيف أن هؤلاء الناس الذين ليست
للقسوة من طبيعتهم أن يتخذوا الوحشية والعنف سبيلاً للتخلص من أسرارهم
فهم يقتربون تلك الأعمال برود رهيب مما يضاف على العملية لونا رهيباً
يتخذ أسوأ أنواع القسوة هذا على الرغم من أن عقيدتهم الدينية لا تبيح
لهم تلك الأساليب العنيفة ومن عادة هؤلاء بعد أن يستولوا على إحدى
السفن أن يقوموا بغسلها بالماء ورشها بماء العطور ثم يقودون بحارتها واحداً
تلو الآخر ويلقون رأسه على فوهة المدفع ثم يبترونها وهم يكبرون
باسم الله »^(٢) .

وكانت آخر ضحايا القواسم في عام ١٨٠٨ السفينة داريا دولت التي كان
يقودها الكابتن فلمنج Fleming وباصتلاء القواسم على تلك السفينة اتجهت
نية حكومة الهند للقضاء على القواسم قضاءً مبرماً^(٣) ، وخاصة حين وصلت
إلى حكومة الهند أنباء اعتداء القواسم على أحد المتطوعين لحراسة السيرجون
مالكولم الذي كان متوجهاً في سفارة إلى البلاط الفارسي . ومما نجد الإشارة
لأيه أن الكابتن سيتون الوكيل البريطاني في مسقط قد استند على هذا الحادث
لحث حكومة الهند على ضرورة اتخاذ قرار عاجل بوجوب تدخل قواتها

(١) صالح المابد - مرجع سبق ذكره ص ٢١٩ .

(٢) كل - مرجع سبق ذكره ج ١ ص ١٧٩ .

(٣) السيبي : إيضاح المعالم في تاريخ القواسم ص ٩٦ .

العسكرية في الموانئ التابعة للقواسم وكان يخشى إذا استمرت الأوضاع على ما هي عليه أن تسقط مسقط في أيدي القواسم . وقد عبر عن ذلك في رسالة له إلى حكومة بمباي قال فيها « إنه لا يمكن لشيء سوى سرعة التدخل أن يحول دون تدمير ميناء مسقط تدميراً تاماً ودون وقوع سكانه وملاحيه في أيدي القراصنة »^(١) . ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً أن الأمور في سلطنة مسقط قد تحولت لمصلحة بريطانيا حين قفز إلى الحكم السيد سعيد ابن سلطان ١٨٠٦/١٨٠٦ على أثر اغتياله لبدر بن سيف وظهور اتجاه معاد للقواسم والسعوديين من قبل السلطان الجديد الذي توافقت أهدافه مع الأهداف البريطانية ومن ثم تمهد الطريق لتعاون وثيق بين مسقط والإنجليز حيث أدرك سلطان مسقط أن اشتراكه مع بريطانيا في حملاتها المتكررة لقمع ما أسمته بالقرصنة يمكن أن يجني من ورائه عدة فوائد من بينها استعادة ما أخذه القواسم من موانئ وجزر كان يعتقد أنها تابعة لسلطنته هذا فضلاً عن أن اشتراكه مع بريطانيا يمكنه من اكتساب صداقتها وبالتالي يستطيع أن يجني من وراء ذلك السيطرة على بعض مقاطعات الخليج ولا سيما جزر البحرين التي كانت مطمع أنظاره ، كما يستفيد من التأييد البريطاني ضد مناوئيه ومقاومة الحركات الانفصالية التي كانت تهدد وحدة ممتلكاته بين الحين والآخر . ومن ناحية أخرى فإن بريطانيا ركزت على تصويب ضربتها ضد القواسم حماية لسلطنة مسقط وحتى لا يتحول الخليف الذي تطمئن إياه وهو سلطان مسقط إلى عدو يهدد مصالحها في تلك المنطقة الحيوية بالنسبة لمواصلاتها الامبراطورية^(٢) .

وتتضح لدينا أهداف حملة ١٨٠٩ من التعليمات التي صدرت لقائدها وين راين Wain Wright ومساعدته السياسي الكابتن دافيد سيتون وتتلخص تلك الأهداف في تدمير قواعد القواسم ومنعها للسيد سعيد سلطان مسقط

(١) كلى - رجع سبق ذكره ج ١ ص ١٧٤ .

Bombay Govt., Selection from the Records vol. XXIV (٢)
P. 180 FF.

(م ٢٠ - الخليج العربي)

وأن تم العمليات العسكرية دون أى احتكاك بالسعوديين^(١). كما كانت أهداف الحملة أيضاً تتجه إلى فرض معاهدة استسلامية على القواسم بعد عزلهم عن السعوديين. ولذلك فإن حكومة بومباي ما فتئت تردد بأن هذه الحملة ليست موجهة ضد السعوديين ولكنها موجهة ضد العناصر التي تهدد أمن الملاحة في الخليج والهند وتحترف القرصنة. ولعل من أبرز أهداف الحملة أيضاً تحقيق التعاون بين حكومة الهند والسلطات الفارسية وذلك بأن يراعى الإنجليز السيادة الفارسية على السواحل الشرقية من الخليج وخاصة أن القواسم كانوا يسيطرون على بعض موانئ تلك السواحل ومن بينها ميناء لمتجة أما الهدف الأخير من أهداف حملة ١٨٠٩ فكان تعرف البحرية البريطانية على أنسب جزيرة تقع في مدخل الخليج تصلح لتأسيس قاعدة بحرية بريطانية لمراقبة الملاحة والسفن العابرة في مياهه^(٢).

ومما يجدر الإشارة إليه أن الأوضاع المحلية في الخليج كانت في صالح الحملة البريطانية إذ كان سلطان مسقط يعد حملة واسعة النطاق كان يهدف بها إلى التصدي للسعوديين، كما تمكن أيضاً من جمع قسوة كبيرة من القواسم المستائين من الشيخ حسين بن علي الذي عينه السعوديون نائباً على القواسم بعد خلعهم لزعيمهم الأعلى الشيخ سلطان بن صقر وكان هؤلاء المستاءون قد دعوا سلطان مسقط للقيام بهذه الحملة وتعهدوا بمساعدته. ولا شك أن حكومة الهند وجدت في هذه الأوضاع عاملاً مساعداً لها بمعنى أنها أصبحت في وضع يمكنها من استغلال الصراعات الداخلية بين القواسم والسعوديين وسلطنة مسقط وذلك بإحداث ثغرة تستفيد من ورائها في ضرب القواسم وذلك بمحالفتها لسلطنة مسقط وعزلها القواسم عن السعوديين^(٣).

(١) صادق نشأت : مرجع سبق ذكره ص ١٣٣ .

(٢) صالح العابد - مرجع سبق ذكره ص ٢٤٤ .

(٣) S.R.B.G. Historical Sketch of Wahabee Tribe of Arabs vol. XXIV 1795-1853 P. 427. SQ.

وطبقاً لهذه الخطة وتحقيقاً لأهداف الحملة عهدت حكومة بومباي إلى الكابتن واينرايت والكولونيل سميث من ضباط البحرية البريطانية في الهند بقيادة هذه الحملة التي خرجت من ميناء بومباي في ١٤ سبتمبر ١٨٠٩ ويفهم من القوة البحرية الضخمة التي كانت تتشكل منها تلك الحملة مدى القوة البحرية التي كان عليها القواسم إذ كانت الحملة البريطانية تتألف من الفرقاطة لاشيفون ذات الستة والثلاثين مدفعاً والمورنجتون ذات الثمانية والعشرين مدفعاً ومن عدة سفن عسكرية أخرى هذا بالإضافة إلى سفينة للقذائف ، كما اشترك في هذه الحملة فرق من مدفعية بومباي وفرق من المشاة بالإضافة إلى أربعة وخمسين ضابطاً وبضع مئات من الجنود ، ويذكر لوريير أن الحملة لازمها سوء الطالع من يوم إبحارها إذ أنه قبل أن تنقضي أربع وعشرون ساعة على خروجها من بومباي سقط قاع قاذفة القنابل سترمبولي وغرقت السفينة وغرق معها ضابط من ضباط المدفعية ومعظم بحارتها بالإضافة إلى قدر كبير من الذخيرة التي كانت معدة لاستخدام الحملة كلها^(١) . وحين وصلت إلى مسقط كان السيد سعيد في حالة يائسة وساخطة إذ كان يرى أن الحملة أصغر من أن تقوم بالمهمة الموكلة إليها وفي هذه المرحلة لم يعرض السيد سعيد تعاونه مع الحملة التي أرسلتها حكومة بومباي بناء على إشارته واعتماداً على مساندته^(٢) . ولذلك خرجت الحملة من ميناء مسقط في نوفمبر ١٨٠٩ ، وبدأت تتعاون مع بعض العناصر المحلية بالإضافة إلى مجموعة من القواسم المنشقين عن السعوديين . ومما تجدر الإشارة إليه أن شيخ الكويت أبدى رغبته في مشاركة السفن البريطانية في هجومها على رأس الخيمة وكان يهدف بهذه المشاركة ألا تقف الكويت معزولة عن الأحداث كما كان يرغب في الوقت نفسه الاقتصاص من القواسم لكثرة اعتداءاتهم على سفنه وسفن رعاياه ، ولكن الكابتن واينرايت رفض تلك المساعدة إذ أن

(١) ج . ج . لوريير دليل الخليج ج ٢ ص ٩٨٨ .

(٢) وثائق الحكومة السعودية : انظر العرض التاريخي لمشكلة البريمي ج ١ ص ١٢٦ .

الوهابيين سبق لهم أن قاموا في عام ١٨٠٨ بهجوم فاشل على الكويت وعقب ذلك أخذوا في تحريض القواسم ضد الكويت ، ومن ثم قدر وينرايت أن اشتراك الكويت في هذه الحملة سيسجر الانجليز إلى التورط في العلاقات الداخلية هذا فضلاً عن أن تعليمات حكومة الهند كانت تنص صراحة على أن يتجنب قادة الحملة الاشتراك في أية صراعات ينجم عنها الصدام مع السعوديين .

والأهم من ذلك أن حكومة الهند كانت تحرص على التعامل مع القواسم كقوى مستقلة عن أية تبعية . ولنفس السبب لم تقم حملة ١٨٠٩ بأى هجوم على رحمة بن جابر المذشق عن تحالف العتوب باعتباره حليفاً للسعوديين في ذلك الوقت فضلاً عن أنه لم يهاجم أية سفينة ترفع العلم البريطانى ، وحتى حين عرض شيخ الكويت على وينرايت أن يزوده بمرشدين يعرفون مداخل موانئ القواسم رفض قائد الحملة البريطانية ذلك العرض^(١) ، على أن وينرايت ندم على ذلك فيما بعد ، وخاصة حين تبين له أن المرشدين الذين جاء بهم من مسقط كان لا فائدة ترجى منهم . وقد وجهت حملة ١٨٠٩ أولى هجماتها على عاصمة القواسم رأس الخيمة وكان الشيخ حسين بن على الذى عينه الإمام السعودى نائباً عنه فى الحكم غائباً فى موسم الحج لذلك العام . وبدأ وينرايت هجومه فى ١٢ نوفمبر ١٨٠٩ حيث دارت معركة عنيفة بين الطرفين^(٢) ودافع القواسم عن عاصمتهم دفاعاً مستميتاً ولم ينسحبوا من مراكزهم إلا بعد أن أضرم الانجليز النيران وخلت رأس الخيمة من سكانها الذين انسحبوا إلى الداخل كما أحرق الإنجليز كل السفن التى وجدوها فى الميناء وكان يبلغ عددها أكثر من خمسين سفينة من

(١) أحمد مصطفى أبو حاككة : تاريخ الكويت ج ١ القسم الأول ص ص ٣٢٢/٣٢٤ .

Warden, P.S,R. B. G. vol. XXIV P. 305 SQ. See also (٢)
Low, C : History of the Indian Navy vol. I pp. 325-329

وبما يذكر بصدد ذلك أن حملة ١٨٠٩ قامت فى وقت لم تكن قد بدأت فيه بعمليات المسح البحرى للساحل العماني .

بينها السفينة الإنجليزية مينرفا . وقد أورد لنا المؤرخ النجدي عثمان ابن بشر وصفاً لأنباء ذلك الهجوم بقوله « وفي أوائل عام ١٢٣٥ هجرية سار النصاري على أهل رأس الخيمة المعروفة في عمان حيث أقبلوا في مراكب عظيمة ومدافع هائلة وعساكر لا تحصى فبندروا في البلد وخربوها برأ وبحراً فهرب منها أهلها وتركوها لهم »^(١) . وتؤكد لنا الروايات المتعلقة بأنباء تلك الحملة أن الإنجليز نهبوا المدينة وألقوا كل أنواع الأذى بسكانها وأبنيتها وقامت عملية نهب كبيرة إذ دخل الجنود الإنجليز القلعة ونهبوها واستباحوها لأنفسهم^(٢) ، وذكرت إحدى المصادر أن كل واحد من الجنود الإنجليز زادت ثروته في ذلك اليوم بما لا يقل عن ثلاثمائة جنيه^(٣) . وعلى الرغم مما حققته الحملة من انتصارات إلا أنه لم يلبث بعد ذلك أن ساد الخوف في نفوس الإنجليز نتيجة تقدم القوات السعودية ولذلك أسرعوا إلى ظهور سفنهم واتجهت الحملة إلى الشمال قاصدة ميناء لنجه ولافت في جزيرة قشم حيث تم لها الاستيلاء على هذين الموقعين اللذين يتبعان القواسم^(٤) . ومما يستلفت الانتباه أن السيد سعيد قبل الاشتراك مع الإنجليز في تلك المرحلة حيث سلم له قائد الحملة لافيت ليجعلها تحت حكمه واقترح السيد سعيد على وينرايت أن تتقدم الحملة للمهاجمة كل من شيناص وخورفكان^(٥) وأصبح واضحاً أن السيد سعيد كان يريد استغلال الحملة الإنجليزية لتحقيق طموحه في الخليج العربي وذلك بالتخلص من القوى المحلية المنافسة له ، ولذلك السبب طلب من وينرايت التوجه إلى خورفكان للتخلص من نفوذ الجلاهمة كذلك طلب منه القضاء على العامل الوهابي حسين بن علي

(١) عثمان بن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ج ١ ص ٣٢٣ .

(٢) العابد : مرجع سبق ذكره ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٣) السيابي : مرجع سبق ذكره ص ١٤١ .

(٤) العابد : مرجع سبق ذكره ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٥) Bombay Govt., op. cit. Historical Sketsh of the Rise and Progress of the Govt. of Muscat vol XXIV. pp. 180 SQ.

في رأس الخيمة^(١) وهو من الولاة الذين عينهم الإمام السعودي في إدارة الموانئ التابعة للقواسم . ولكن وينرايت وجد أن الحاح السيد سعيد قد يورطه في مشكلات لا حصر لها وخاصة أن هجمومه على شيناص قد وورطه بالفعل في بعض هذه المشكلات إذ أن ذلك الميناء الذي يقع على ساحل كرمان كان قد استولى عليه السعوديون كما كانت فارس تدعى سيادتها عليه . ولعل مما يستلفت الانتباه أن السلطات الفارسية لم تحتج كعادتها حين وصلت الحملة البريطانية إلى شيناص إذ وجدت فيها عاملاً في القضاء على النفوذ السعودي في ذلك الميناء^(٢) بيد أن المشكلة التي واجهها وينرايت أن قلعة شيناص كانت مشيدة في الداخل مما اضطره إلى النزول إلى البر بمعنى أن العمليات العسكرية قد انتقلت من الساحل إلى الداخل ، وعلى الرغم من أن القوات السعودية دافعت عن القلعة دفاعاً باسلاً إلا أن القائد السعودي اضطر إلى تسليم القلعة للإنجليز الذين سلموها بدورهم إلى الفرق التابعة لسلطان مسقط ، ولكن يبدو أن ميناء شيناص قد دمر تماماً إلى درجة أن السيد سعيد وجد من الحكمة أن لا يبقى سيطرته عليه^(٣) وكما تقرر وثائق حكومة بومباي أن عمليات التخريب في شيناص وصلت إلى ذروتها وكان ذلك مما أدى إلى تقاعس قائد الحملة البريطانية عن مواصلة عملياته العسكرية في خورفكان التي بقيت وغيرها من الموانئ بأيدي القواسم^(٤) . هذا بالإضافة لما أبداه السيد سعيد من تردد تجاه الهجوم

Idem.

(١)

Brydges, Sir Harford Jones, An account of the Trans- (٢)
saction of a mission to the Court of Persia which is appen-
ded a brief History of the Wahaby P. 40.

(٣) يذكر الطبيب الايطالي Vincenzo Maurizi أنه قاد هذه الحملة بتكليف من سلطان مسقط رعاها منصوراً ما جعله يسمى نفسه بالشيخ منصور أو أن يكون ذلك ترجمه لاسمه الايطالي :

Shaikh Mansour, History of Seyyed Said, p. 56,

Bombay Govt., op. cit. pp. 305—306.

(٤)

على تلك الموانئ خشية أن يواجه بمقاومة عنيدة من قبل القواسم، وبانتهاء عملية شيناص عادت الحملة البريطانية إلى بومباي^(١).

كان من أهم النتائج التي تمخضت عن حملة ١٨٠٩ تورط السيد سعيد في صراع ضد السعوديين وهو صراع لم ينقذه منه سوى تقدم القوات المصرية التركية إلى نجد بعد ذلك بعامين ففي أبريل ١٨١٠ وصلت أنباء إلى حكومة بومباي مفادها أن قوات السعوديين أصبحت قريبة من مسقط واستنجد السيد سعيد بأصدقائه الإنجليز مؤكداً لهم أن تعاونه معهم في حملة ١٨٠٩ قد ووطه في نزاع مع السعوديين، ولما كانت حكومة بومباي حذرة لئلا أي نزاع مباشر بينها وبين السعوديين فقد نصحتة بإنهاء النزاع بينه وبينهم لأنها تعتبر نفسها في حالة سلام مع السعوديين وطلبت منه أن يقبل شروطهم إذا كان في تلك الشروط ما يتفق مع عزة سلطنته واستقلالها^(٢). وهكذا أدت حملة ١٨٠٩ إلى جفوة مؤقتة في العلاقات بين السيد سعيد والإنجليز تلك العلاقات التي وصلت إلى ذروتها في اشتراكه في الحملة البريطانية وطبقاً لما ذكرته الوثائق السعودية أن هذه الحملة كانت نتيجة تحريض السيد سعيد وإلحاحه في التخلص من القواسم وحلفائهم السعوديين^(٣) ورغم الانتصارات العسكرية التي حققتها حملة ١٨٠٩ وما ترتب عليها من تخريب معقل القواسم برأس الخيمة إلا أنها مع ذلك لم تحقق أهدافها العسكرية من حيث القضاء على القواسم قضاء مبرماً إذ أن معظم الأسطول القاسمي نجح من عمليات التدمير حين اختفت معظم سفن القواسم - قبل

S.R.B.G. Historical Sketsh of the Arab tribes of (١) Wahabees. See also the Rise and Progress of the Govt., of Muscat vol. XXIV. P. 180 ff.

cf. Bombay Govt., op. cit, the Rise and Progress of (٢) the Govt. of Muscat P. 182 SQ.

(٣) وثائق سعودية : التحكيم لتسوية النزاع الاقليمي بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية ج ١ ص ١٢٦ .

مجيء الحملة في الخليجان الضيقة العميقة في الجانب الغربي من شبه جزيرة مسندم ، وكانت تلك الخليجان غير معروفة لدى الانجليز في ذلك الوقت كما أن كثيراً من سفن القواسم كانت في رحلات وأسفار تجارية بعيدة في البحر الأحمر وسواحل شرق أفريقية . ورغم ما أوقعته الحملة بالقواسم والسعوديين من أشد أنواع الهزيمة والخسائر^(١) إلا أنها مع ذلك لم تستطع الحصول على إقراراف بالهزيمة أو على الأقل وعد من القواسم بالكف عن عملياتهم البحرية ضد الانجليز وإن كانت الحملة نجحت نجاحاً كبيراً في توجيهه ضربة للسعوديين في شيناص وتحييدهم في النزاع بين بريطانيا والقواسم ولعل ذلك قد اتضح لنا في الكتاب الذي أرسله الامام السعوي إلى المقيم البريطاني في الخليج والذي أكد فيه أنه منع أتباعه من مهاجمة السفن البريطانية . ولعل مما يستلفت الانتباه أنه على الرغم من أنه كان يتعين على وينرايت بعد الانتهاء من عملياته العسكرية بأن يحمل القواسم على إبرام معاهدة سلام يتعهدون فيها بالامتناع عن القيام بعمليات بحرية ضد السفن البريطانية إلا أن تلك المعاهدة لم تعقد على الإطلاق وفي تقديرنا أن القادة الانجليز لم يتمكنوا من عقد هذه المعاهدة مع القواسم في أعقاب حملة ١٨٠٩ كما حدث في أعقاب حملة ١٨٠٥ التي انتهت بعقد معاهدة ١٨٠٦ أو كما حدث في أعقاب حملة ١٨١٩ والتي انتهت بتوقيع معاهدة السلام العامة في عام ١٨٢٠ لأن زعيم القواسم الشيخ سلطان بن صقر لم يكن عند قيام حملة ١٨٠٩ قائماً بالسلطة وبالتالي فقد كان من العسير عقد "معاهدة ملزمة للقواسم دون أن يشترك فيها الإمام السعوي اشتراكاً مباشراً لأن السعوديين كما سبق أن أوضحنا استطاعوا أن يسيطروا على جميع مقاطعات القواسم بعهد عزل

Burchardt, Lewis, Notes on the Bedouins and Wahabys (١)

شيخهم سلطان بن صقر^(١) . ومن ناحية أخرى فقد نعلز توقيع تلك المعاهدة دون مزيد من العمليات العسكرية خاصة بعد انسحاب القواسم إلى الداخل وكان لابد من أن تتوغل القوات البريطانية في الداخل إلى حيث انسحبوا . وفيما يبدو أن الانجليز أعثقلوا خطأ بعد التدمير الذي ألحقوه برأس الخيمة بأن (خطر) القواسم قد انتهى وأن ما بقى عليهم هو اتخاذ الاجراءات الكفيلة بعدم تجدد ذلك (الخطر) في المستقبل وبصدد ذلك كان المستر مانيسقى المقيم البريطاني في البصرة قد نصبح حكومة الهند بأن تفرض حظراً على تصدير الأخشاب إلى مسقط وغيرها من موانئ الخليج كي تتمكن من ضرب القوى العربية البحرية^(٢) ويؤكد بعض الباحثين بأن حملة ١٨٠٩ كانت عديمة الأثر إذ أن القواسم ظلوا محتفظين بقوتهم وكيانهم وخاصة أنهم تعقبوا قوات الحملة البريطانية وهي تسرع بالانسحاب حال وصول أخبار تقدم السعوديين بقيادة مطلق المطيرى من الداخل كما ظلت جماعات من القواسم تتجمع طوال النهار على الشاطئء تلوح بسلاحها وأعلامها وتهتف بندااءاتها^(٣) ومع ذلك فقد أدى الفشل الذي تعرض له السعوديون على أيدي القوات المصرية التركية في عام ١٨١١ إلى أن يبدى الامام السعودى رغبته في مسالمة مختلف القوى في الخليج ، وتذكر بعض المصادر ببصدد ذلك أنه أرسل مبعوثاً من قبله إلى حاكم ولاية فارسستان يعرض عليه الصلح ولما انتهى من مهمته عرج على المستر بروس الوكيل البريطانى في مسقط حيث أبلغه رغبة الامام السعودى عقد معاهدة ود صداقة بين الدولتين وأن تصبح موانئ كل دولة مفتوحة للأخرى وتجري

Bombay Govt. op. cit. Historical Sketsh of Arab Tribes (١).
of the Joasmee vol. XXIV. 304 ff.

(٢) ج . ج لوريمر : دليل الخليج ج ٢ ص ٩١٣ .

(٣) محمد مرسى عبدالله : إمارات الساحل و عمان والدولة السعودية الأولى ،

فيما بينهما تجارة حرة ولكن بروس رد المبعوث السعودي دون أن يعد بتوقيع تلك المعاهدة وكان ذلك بناء على تعليقات من حكومته وإن كان قد حرص في نفس الوقت أن يؤكد له مسددي حرص الحكومة البريطانية على استمرار العلاقات الودية بالامام السعودي.

وتسجل لنا الأحوام من ١١٨١ إلى ١٨١٣ تجديد نشاط القواسم البحرى حيث نجحوا فى تحطيم عدد كبير من السفن الانجليزية والفارسية مينائى بندر عباس والبصرة^(١). وبلغ من خطورة عمليات القواسم البحرية أن فكرت حكومة بومباى تفكيراً جدياً فى ضرورة التفاوض معهم بيد أن هذه المحاولة لم تنجح إذ رفض القواسم أن يردوا الأسلاب التى كانوا قد استولوا عليها وفيما يبدو أن المفاوضات بين بريطانيا والقواسم فى عام ١٨١٣ قطعت شوطاً كبيراً إلى درجة وضع مشروع قولنامه أو اتفاقية بين حكومة الهند البريطانية والقواسم فى عام ١٨١٤ ويتضح من هذا المشروع أنه أعاد تأكيد معاهدة ١٨٠٦ وإن كان المشروع الجديد تميز بكونه أكثر تشدداً وربما يتضح لنا ذلك من ديباجة مشروع المعاهدة التى كانت تنص على رغبة الطرفين فى استمرار علاقات الصداقة واعتبار ما حدث فى الماضى فى طى النسيان إلا أن بنود الاتفاقية قد ألزمت القواسم باحترام العلم البريطانى وعدم التصدى لأية سفينة تحمل ذلك العلم، كما يتعهد القواسم بإبقاء الموانئ التابعة لهم مفتوحة للرعايا الانجليز الذين يسمح لهم بزيارتها وممارسة حرية التجارة فيها كما يلتزم القواسم — منعاً من حدوث عدم تمييز بين سفنهم وغيرها من السفن الأخرى — برفع علم أحمر مكتوب عليه فى الوسط عبارة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » كرمز لجنسية السفن وعنوان لتنظيم القواسم ، كما يتعهد القواسم

(١) عن تجديد نشاط القواسم وموقف البحرية الهندية راجع :

Low, History of the Indian Navy vol. I P. 337 FF.

أيضا باعادة الممتلكات البريطانية الموجودة في رأس الخيمة وقت التوقيع على الاتفاقية . ونصت المعاهدة المقترحة أيضا على أنه لايجوز إلغاؤها من قبل أى من الطرفين إلا بعد اشعار الطرف الآخر بوقت كاف ؛ كما نص المشروع على أن يتعهد القواسم بانقاذ ومساعدة السفن البريطانية التى تتحطم بالقرب من موانئهم وأن يقوم القواسم بارسال مبعوث من قبلهم إلى حكومة بومباى من أجل التوصل إلى صيغة لاتفاق أكثر شمولاً بينهم وبين الحكومة البريطانية^(١) . غير أنه لم يقدر لتلك المعاهدة التنفيذ في الوقت الذى تهادى فيه القواسم في عملياتهم البحرية ويسجل تاريخ البحرية البريطانية في الهند في عام ١٨١٨ أضخم هجوم قام به القواسم على السفن البريطانية التى اعترضوها على مسافة ستين ميلا من بومباى ؛ وكان هذا الهجوم العنيف هو الذى نبه السلطات البريطانية في الهند إلى ضرورة وضع حد للقوة البحرية للقواسم ونادى بعض المسئولين في حكومة الهند بضرورة اللجوء إلى القوة العسكرية ورفض أسلوب التفاوض إذ أن ذلك الأسلوب الذى لجأت إليه حكومة بومباى يعد إضعافا لسلطة الإنجليز وخدشا للكرامة البريطانية ! ومما يستلفت الانتباه أن النشاط المتزايد للقواسم في عام ١٨١٨ كان مرتبطا بتحطيم الدرعية على أيدي قوات محمد على وما تبع ذلك من اندفاع السعوديين إلى سواحل الخليج حيث قام القواسم ببناء معازل قوية على الساحل خوفا من امتداد القوات المصرية التركية إليهم^(٢) . ومن ناحية أخرى أتاح التقدم المصرى في أواسط الجزيرة العربية الفرصة لبريطانيا لمسكى تضرب ضربتها ضد القواسم ؛ وخاصة أن عملياتهم لم تعد تحت تأثير السعوديين كما كان زعماء للقواسم يبررون عملياتهم البحرية في الماضي ، ولذلك رأت حكومة الهند أن الفرصة متاحة لتنسيق خططها مع سلطان مسقط ومحمد على للقضاء على القواسم . ومما تجدر الإشارة إليه أن السيد سعيد سلطان مسقط أفاد

(١) المادة الثامنة .

(٢) من أهم هذه القلاع قلعة كبيرة أقامها القواسم في باسى دور جنوب غرب جزيرة قشم

من التقدم المصرى فى طرد السعوديين من البرعى كما ظل فى مراسلات دائمة مع محمد على بشأن الإجراءات المشتركة التى يمكن اتخاذها ضد الوهابيين والقواسم ؛ كما كانت الأخبار التى ترد إلى حكومة الهند تشير إلى أن إبراهيم باشا سيتمكن فى نهاية عام ١٨١٨ من احتلال نجد والاحساء وهذا معناه حرمان القواسم من المساعدات التى كانوا يتحصلون عليها من الوهابيين ومن ثم كانت حكومة الهند ترى دعوة إبراهيم باشا للاشتراك مع بريطانيا فى عمليات مشتركة ضد القواسم بأن يهاجم البريطانيون القواسم من البحر ويغطى إبراهيم باشا الهجوم من البر . وفى ٢ يناير ١٨١٩ كتب هستنجز Hastings حاكم الهند إلى إبراهيم باشا يهنئه على انتصاره فى الدرعية ويدعوه للقيام بعمل مشترك ضد القواسم بمساعدة السيد سعيد سلطان مسقط وأوفد هستنجز من أجل ذلك الكابتن فورستر سادلر Sadlier من الفرقة السابعة والأربعين من قوات المشاة الهندية لمقابلة إبراهيم باشا وتحدثت مهمة سادلر فى التعرف على طبيعة موقف إبراهيم باشا بالنسبة لتوسعانه على السواحل العربية من الخليج ؛ والعمل على عقد محادثة بينه وبين بريطانيا بهدف القضاء على القواسم وأن يستشف نوايا السيد سعيد سلطان مسقط فى مدى استعدادده للتعاون مع إبراهيم باشا من أجل ذلك^(١) . وعند مقابلة سادلر للسيد سعيد فى مسقط تبين له أن السلطان غير مجيد لفكرة التعاون مع إبراهيم باشا إذ ألمح السيد سعيد للكابتن سادلر أن حكمه قد يتعرض للخطر إذا قبل التعاون مع المصريين . ومما يسترعى الانتباه أن السيد سعيد على الرغم من أنه هنا إبراهيم باشا على فتوحاته فى نجد إلا أنه سرعان ما غير موقفه إذ أن ظهور قائد مصرى طموح على مسرح الخليج لم يكن من الأمور التى يقبلها السيد سعيد بطبيعة الحال وخاصة أنه أعقب سقوط الدرعية لجوء

(١) جمال زكريا قاسم : الدوافع السياسية لرحلات الأوربيين إلى نجد والحجاز من أعمال ندوة مصادر تاريخ الجزيرة العربية - الرياض ١٩٧٧ . انظر أيضا جاكين برين (مترجم) لكشاف جزيرة القرب ص ص ٢٤٣ - ٢٤٦ بيروت ١٩٦٢ .

عدد كبير من السعوديين إلى البريمي وكانوا يرددون الروايات الممنوعة عن نظام إبراهيم باشا وما أحدثه من تخريب في عاصمة السعوديين . ومن ناحية أخرى كان السيد سعيد لا يحبذ ظهور منافس لآماله في منطقة الخليج العربي وخاصة بالنسبة لجزر البحرين التي كان يطمح في السيطرة عليها ^(١) . وعلى أثر ذلك ترك سادلر مسقط لاستئناف مهمته الرئيسية لمقابلة إبراهيم باشا في الاحساء وكان مجهزاً بعرض شفوي وليس كتابيا من حكومة الهند بأن تحتل القوات المصرية رأس الخيمة بعد سقوطها . ^(٢) ولكن ما كاد سادلر يصل إلى الاحساء حتى تبين له أن إبراهيم باشا قد انسحب منها ومع ذلك فقد صمم على مقابلته حتى التقى به في جدة وسجل بذلك لنفسه تاريخاً مجيداً باعتباره أحد الرواد الذين قطعوا الجزيرة العربية من الشرق إلى الغرب وعلى الرغم من الصعاب والمشاكل العنيفة التي تعرض لها في رحلته إلا أن إبراهيم باشا لم يوافق على المقترحات التي حمها حيث كانت السياسة المصرية قد اتجهت بالفعل إلى الانسحاب من الاحساء وكان محمد علي حريصاً على عدم الاتصال بالانجليز في هذه المرحلة ^(٣) .

وعلى أثر فشل بعثة سادلر أخذت حكومة الهند تضع مخططاً آخر كان يقوم على أن تنفرد بضرب القواسم وتدمير قواتهم وبصدد ذلك طرحت أمام إيفان نيبيان حاكم بومباي عدة مشروعات بصدد ذلك لاختيار واحد منها وكان المشروع الأول يرى الاكتفاء بتدمير قوة القواسم دون أن يعقب ذلك تدخل من قبل حكومة بومباي في الشؤون السياسية للمنطقة . أما المشروع الثاني فكان يستهدف رسم خارطة سياسية للخليج تتفق مع المصالح البريطانية وحين عرض هذان المشروعان على نيبيان كان أميل إلى حل وسط وهو أن يتم تدخل بريطانيا في الشؤون السياسية بطريق غير مباشر وقصد بذلك أن

(١) كلى : بريطانيا والخليج ج ١ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٢) صالح العابد - مصدر سبق ذكره ص ٢٩٠ .

(٣) Perrin, N. Relation de la Compagne d'Ibrahim Pacha
Contre les Wahabites pp 4-6.

تعتمد حكومة الهند على حلفاء لها لتحقيق ذلك كأن تساعد بريطانيا فارس لكي توطد سلطتها في السواحل الشرقية للخليج وتشجع السيد سعيد سلطان مسقط لكي يسيطر سيطرته على السواحل العربية وكذلك مساعدته في السيطرة على جزر البحرين من أجل دعم موارده المالية ولكي يسهم في إنشاء قاعدة بريطانية اقترح إقامتها في رأس الخيمة ، كذلك كان مشروع نيبان يهدف إلى أن يعهد بحماية الساحل العربي من رأس الخيمة إلى شط العرب إلى محمد علي ، وعندما أرسل نيبان مشروعه هذا إلى الحكومة العامة في كلكتا رأت أنه أوسع مدى مما يجب ووجهت إلى هذا المشروع كثير من الانتقادات التي كان من أبرزها أنه يثير مشاكل سياسية معقدة مع كل من فارس والدولة العثمانية كما أنه سيؤدي على المستوى المحلي إلى تحالف القواسم وآل خليفة لرفض سيطرة مسقط عليهم ، ولذلك استقر رأي حكومة الهند على قصر تدخلها على الناحية العسكرية وأكدت على ضرورة احترام الأوضاع السياسية السائدة في الخليج بمعنى ألا تتدخل لصالح أحد الرؤساء إلا إذا طلب منها ذلك صراحة وحينئذ تؤيد صاحب الحق المشروع . وعلى أساس هذا المبدأ استبعد الرأي القائل بتسليم جزر البحرين إلى السيد سعيد كما تركزت أهداف حكومة الهند على أهمية وضع أسس الحرية الملاحة في الخليج وحق بريطانيا في التفتيش البحري وذلك بالاتفاق مع القبائل التي تعترف باستقلالها بشرط أن تتعهد صراحة بالكف عن أى نشاط بحري عدائي كما رأت حكومة الهند أفضلية جزيرة قشم عن رأس الخيمة لتكون قاعدة بريطانية^(١) .

ولعل من المفيد الإشارة هنا قبل أن نعرض لحملة ١٨١٩ إلى أن التفكير في إعدادها بدأ في وقت سابق لقيامها ويمكننا إبراز النقاط التالية باعتبارها من أهم العوامل التي أسهمت في إبراز هذه الحملة إلى الوجود وهي :

أولاً : التقارير الواردة إلى حكومة الهند ومن أهمها مذكرة المستر بروس المقيم البريطاني في الخليج وفيها يبدى قلقه الزائد من القوة البحرية والتفوق

(١) صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ص ١٠٢ - ١٠٣ .

الكبير الذى بلغه القواسم ، وكذلك مذكرة ويلوك Willock القائم بأعمال السفارة البريطانية فى فارس وفيها يبدى قلعة من تزايد النفوذ الروسى فى شمال فارس خاصة بعد توقيع اتفاقية جالستان ١٨١٣ التى أدت إلى انتزاع أقاليم جديدة من شمال فارس لصالح روسيا وكان من رأيه أنه لابد من حفظ التوازن بين إنجلترا وروسيا بمعنى أنه يتحتم مواجهة النفوذ الروسى فى شمال فارس بنفوذ بريطانيا فى منطقة الخليج—ج العربى وجنوب فارس . كذلك نشر وليام هود Heude أحد ضباط البحرية البريطانية فى عام ١٨١٩ انطباعاته من رحلة قام بها إلى الخليج العربى فى عام ١٨١٧ ، وكان مما جاء فى كتابه « إنه لما يחדش الكرامة الوطنية التفاوض مع مثل هؤلاء (القراصنة) الذين لا يعرفون القوانين والذين أصبحوا يشكلون خطراً على الملاحة البريطانية أكثر مما يفعله عدو الوطن الأساسى » (١) .

ثانياً : لإنهاء الحرب العامة فى أوروبا فى عام ١٨١٥ حيث خرجت بريطانيا من الحروب النابليونية بممتلكات أكثر اتساعاً وبالتالي أصبحت أكثر اهتماماً بتأكيد سيطرتها على الطرق البحرية المؤدية إلى المحيط الهندى ومستعمراتها فى الشرق بما فيها الهند المستعمرة البريطانية الكبرى .

ثالثاً : تغلب حكومة بومباى على ثورة المهراتا فى الهند وفى تقديرنا أن نشوب هذه الثورة هى التى أدت إلى تأخير تنفيذ الحملة لأن الحرب استمرت فى ولايتى بندارى ومهراتا حتى عام ١٨١٨ .

رابعاً : تخطيط الدرعية فى عام ١٨١٨ على يد ابراهيم باشا كان من أهم الأسباب التى أدت إلى تنفيذ الحملة العسكرية خاصة أن اندحار الوهابيين فى أواسط الجزيرة العربية لم يخفف من العمليات البحرية على سواحل الخليج

(١) المرجع السابق ص ١٠١ والرحلة بعنوان Avoyage up the Persian Gulf and Journey Overland from India to England in 1817 London 1819.

بل أنها تصاعدت عما كانت عليه من قبل إذ كان القواسم لا يزالون في قمة تفوقهم حتى أنهم لم يكتفوا بأنهم الدولة السعودية الأولى ، وقد يكون حقيقة أن الشيخ حسن بن رحمة شيخ القواسم قد حاول في أعقاب سقوط الدرعية تصفية المشاكل القائمة بين القواسم والإنجليز استناداً على المفاوضات التي سبق أن أشرنا إليها إلا أن تلك المحاولات لم تصل إلى نتائج ملموسة لأن حكومة الهند كانت في ذلك الوقت مصممة على التخلص من القواسم .

وبما تجدر الإشارة إليه أن حكومة الهند اتجهت إلى إعداد حملة عسكرية كبيرة آخذة في اعتبارها أن أية محاولة عسكرية لا تصل إلى ضرب قوة القواسم في الصميم فإنها ستكون عديمة الجدوى ومن ثم بدأت حكومة بومباي باعتبارها الحكومة المختصة عن شئون الخليج العربي استعداداتها العسكرية منذ صيف عام ١٨١٨ معتمدة على تقرير استخباري وضعه الكابتن روبرت تيلر Tyler^(١) عن مواقع وموارد الموانئ الرئيسية للقواسم ومن حجم قوتهم القتالية وخلافاتهم السياسية وطبقاً لما جاء في تقرير تيلر إن الموانئ الرئيسية الواقعة على ساحل الخليج التي تنطلق منها أعمال (القراصنة) هي رأس الخيمة والجزيرة الحمراء وأم القوين وعجمان والشارقة ودبي وإلى الشمال ميناء الزبارة وخورفكان والقطيف والعقير ، كما أن أبو ظبي وهي الميناء الرئيسي لبنى ياس وموانئ لنجعه وخرج على الجانب الشرقي من الخليج والتابعة للقواسم كانت تعتبر أيضاً من الموانئ التي تدخل ضمن نطاق تلك العمليات . وفي ٢٧ أكتوبر ١٨١٩ صدرت تعليمات حكومة بومباي إلى جرائنت كير Keir الذي اختير لقيادة الحملة بالاقلاع إلى رأس الخيمة لتدمير أسطول القواسم وأن عليه أن يتوجه بعد ذلك إلى الشارقة فالجزيرة الحمراء وعجمان وغيرها من موانئ المنطقة . وفي ١٤ سبتمبر

(١) للرجوع إلى نص التقرير راجع مختارات وثائق بومباي عدد ٢٤ التي تبدأ بهذا التقرير

Tyler R, Historical and other Information connected with Muscat and adjoining countries S,R,B.G. pp. I-40.

وما يذكر أن هذا التقرير كان هو الأساس الذي اعتمد عليه جرائنت كير في حملة ١٨١٩ .

١٨١٩ خرجت الحملة سراً من بومباي خشية أن يصل خبر تحركها إلى القواسم . وكانت الحملة البريطانية تتكون من ثلاث سفن كبيرة الحجم من سفن البحرية البريطانية وست سفن من بحرية شركة الهند وقوة برية قوامها ثلاثة آلاف مقاتل ، كما كانت تضم بعض رجال المدفعية وما يسترعى الانتباه مغالاة حكومة بومباي في تشكيل قوة برية من الانجليز والهنود وغيرهم ممن كانت تستخدمهم من العناصر الأخرى . وإلى جانب القوة البحرية والبرية للحملة اعتمدت أيضاً على دعم السيد سعيد العسكري لها حيث تشير وثائق حكومة بومباي أن السيد سعيد اشترك في هذه الحملة بأربعة آلاف مقاتل بالإضافة إلى ثلاث سفن حربية كبيرة الحجم ^(١) . وكان يهدف بذلك أن تساعد بريطانيا على تحقيق طموحه في الخليج وما أن وصلت الحملة إلى مسقط حتى انضم إليها بروس المقيم البريطاني في الخليج كاستشار سياسي لقائدها جرانت كبير . وفي ٣ ديسمبر هبط جنود الحملة على رأس الخيمة ، وبادر القواسم من جانبهم بتعزيز وسائل دفاعهم حيث أقاموا سوراً حول مدينتهم وأخذوا يصدون الهجوم بمدافعهم ولكنهم خسروا في هذه المعركة ما يقرب من ألف مقاتل وجريح وكان ذلك خلال القتال الذي استمر ستة أيام فيما بين ٣ و ٩ ديسمبر ١٨١٩ ^(٢) . وتؤكد لنا كثير من المصادر التي تناولناها أن القواسم استماتوا في الدفاع عن مدينتهم وتصدى للقيادة الشيخ حسن بن رحمة وأخوه ابراهيم وأرسل القواسم نساءهم وأطفالهم إلى مزارع النخيل ، ولكن على أثر انتصار الحملة البريطانية تقدمت القوات المرافقة لها حيث دمرت المدينة وتحصيناتها وتم انزال العلم القاسمي الأحمر ورفع علم العلم البريطاني واضطر شيخ القواسم أن يعلن في اليوم التالي رغبته في التسليم بشرط ضمان سلامة أتباعه ^(٣) ، كما تبع ذلك استسلام الكثير من

Bombay Govt., op. cit. vol. XXIV P. 314. (١)

(٢) للتفاصيل الخاصة بالحملة انظر :

Low, ch. History of the Indian Navy vol. I pp. 351 ff.

(٣) العابد - مرجع سبق ذكره ص ٣٢٢ .

شيوخ القبائل العربية وكان ذلك على أثر تجول الحملة العسكرية في موانئ بلادهم . وعلى الرغم من أن الانجليز بادروا بتشديد قاعدة بحرية لهم في رأس الخيمة إلا أن هذه القاعدة لم تستمر لفترة طويلة حيث ظهرت عدة مشكلات تتعلق بامدادات المياه وبالأمرض المستوطنة مما اضطر الانجليز إلى الجلاء عنها في ٢٨ مايو ١٨٢٠ حيث سلموها للشيخ سلطان بن صقر شيخ الشارقة بعد أن تردد كثير في تسليمها إليه في بداية الأمر .

ومما تجدر الإشارة إليه أن السيد سعيد سلطان مسقط حاول استغلال الانتصار الذي حققته الحملة البريطانية ومساعدته لها لكي تواصل الحملة زحفها على جزر البحرين بهدف تسليمها إليه ولكن كثير رفض تقديم تلك المساعدة لسلطان مسقط بناء على تعليمات من حكومته ، وكان على كثير بعد الهزيمة العسكرية للقواسم أن يجد نوعاً من التسوية السياسية تكفل عدم تمكن القواسم مستقبلاً من تهديد الأمن البحري للخليج هذا بالإضافة إلى تقرير صير الزعماء والأسرى الذين تم أسرهم على ظهر سفينته ومن بينهم الشيخ حسن ابن رحمة وحسين بن علي وخاصة أن كثير اكتشف بعد بضعة أيام من اعتقالهم انتشار حالة الاستياء بين القبائل العربية التي ينتمون إليها مما أكد لديه أن بقاء أولئك الزعماء في الأسر سيتحول إلى عائق سياسي أمام تكوين علاقات بين بريطانيا وأولئك الزعماء تقوم على الثقة والتفاهم^(١) . ولذلك بدأ كثير سياسة تلطيفية لإزاء القواسم فاستدعى الشيخ حسن بن رحمة في يناير ١٨٢٠ وأبلغه أن سبب أسره يقوم على أساس أنه هو الشيخ المسئول في رأس الخيمة ، ثم قدم له مسودة معاهدة للسلام كان قد أعدها مع بعض معاونيه وسوف نشير إلى هذه المعاهدة بعد قليل . واضطر الشيخ حسن ابن رحمة أن يوقع على هذه المعاهدة وفي ذلك الوقت وصل الشيوخ البارزون إلى معسكر كثير بدعوة منه حيث عرضوا عليه استسلامهم

(١) حول النتائج السياسية لحملة ١٨١٩ راجع تقرير كبال

وصداقتهم للحكومة البريطانية وكان من بين أولئك الرؤساء الشيخ سلطان ابن صقر شيخ الشارقة والشيخ شخبوط بن دياب والد طحنون بن شخبوط شيخ البوفلاح في أبو ظبي وشيخ دبي القاصر محمد بن هزاع يرافقه عمه الأكبر ؛ وكان الهدف من هذه الدعوة التوقيع على اتفاقيات يسلمون بموجبها جميع السفن التابعة لهم باستثناء سفن الصيد، وكذلك تسليم ما قد يكون لديهم من أسرى . وهكذا استطاع كير أن يخطو خطوة أولى نحو عقد تسوية عامة حيث طلب إلى كل شيخ التوقيع على اتفاقية منفردة كان يهدف من وراءها أن يفرق القبائل عن تكتلها وتكون هذه الاتفاقية المنفردة شرطا مسبقا لكي يتولى الشيخ مسئولياته ، وكانت هذه الاتفاقيات تنص على تسليم المدافع والحصون والسفن ، كما يلاحظ أن الاتفاقية التي وقعها الشيخ سلطان بن صقر لم تعترف به إلا شيخا على الشارقة وعجمان وأم القوين ووقعت هذه الاتفاقيات بتاريخ ٦ يناير ١٨٢٠ بالنسبة لشيخ الشارقة . وفي ٨ يناير ١٨٢٠ مع شيخ خط وفلاحيه . وشيخ دبي في ٩ يناير ١٨٢٠ . وشيخ أبو ظبي في ١١ يناير . وشيخ رمس في ٢٨ يناير ١٨٢٠ ثم أدمجت هذه الاتفاقيات جميعها في معاهدة عامة وقعها الشيوخ في ٢١ يناير ١٨٢٠ وترك فيها الباب مفتوحاً لبقية الشيوخ والرؤساء للدخول فيها . ونصت ديباجة المعاهدة طبقاً للترجمة العربية على النحو التالي^(١) :

« الحمد لله الذي جعل الصلح خيراً للأنام . وبعد فقد صار الصلح الدائم بين دولة سركار الانكريز وبين الطوائف العربية المشروطين على هذه الشروط » . وقد نصت المعاهدة على ما يأتي :

(١) CF. Treaties & Undertakings between the British Government and the Trucial Chiefs, Government of India (Dept. of State) Calcutta 1906.

أولاً : أن تكف جميع الأطراف المتعاقدة عن مزاولة النهب والغارات في البر والبحر بصفة دائمة .

ثانياً : كل عمل من أعمال السلب أو القرصنة الذي يرتكب بصفة فردية يعتبر ضاراً بالإنسانية مادامت لا توجد أية حرب معلنة بين الدول .

ثالثاً : تلتزم السفن التابعة للعرب الأصدقاء برفع علم أحمر يكون رمزاً على جنسيتها ، ولا يجوز استعمال شعار آخر غيره .

رابعاً : ألا تحارب القبائل العربية بعضها بعضاً .

خامساً : يجب على السفن العربية أن تكون مزودة بورقة موقعة من رئيس

المنطقة التابعة لها يسجل فيها اسم المالك وحجم السفينة وأسماء بحارتها ويعين فيها ميناء الخروج وميناء الوصول .

سادساً : إذا رغب الرؤساء العرب في إرسال ممثلين عنهم بهذه الأوراق إلى المقيم العام في الخليج لتوقيعها جاز لهم ذلك تسهيلاً لدخولهم الموانئ ولعمليات التفتيش على أنه يشترط عرض هذه الأوراق على المقيم البريطاني سنوياً .

سابعاً : إذا لم تكف قبيلة من القبائل عن القرصنة وجب على القبائل الأخرى أن تجتمع للتباحث في عمل مشترك ضدها ويمكن إشراك الحكومة البريطانية وقت وقوع الحرب وفي توقيع العقوبة على القبيلة المذنبة .

ثامناً : إن قتل الأسرى - بعد تسليم أسلحتهم - يعد عملاً من أعمال السلب كما يعتبر خرقاً لمعاهدة الصلح .

تاسعاً : إن نهب الرقيق من الساحل الشرقي لإفريقيا يعتبر عملاً من أعمال القرصنة ويجب على العرب الكف عن ذلك ^(١) .

(١) أدخلت هذه المادة على معاهدة ١٨٢٠ بطلب من الكابتن طمبسون Thompson الذي أصبح فيما بعد داعي من دعاة منع الرق وكانت هذه المادة نصراً سياسياً لبريطانيا لأن الرقيق هم

عاشرا : تستطيع السفن العربية التى تحمل العلم الخاص بها الدخول فى الموانئ التابعة لبريطانيا وكذلك موانئ حلفائها والتجارة فيها بكل حرية وأمان وإذا هوجمت إحدى تلك السفن فإن الحكومة البريطانية تأخذ ذلك بعين الاعتبار .

حادى عشر : تعتبر جميع الشروط المذكورة سابقا شروطا عامة ويجوز لمن شاء من الرؤساء الآخرين الذين لم يوقعوا عليها الدخول فيها بنفس الطريق التى انضم بها الرؤساء العرب الموقعون عليها .

ومما تجدر الإشارة إليه أن شيخى البحرين انضموا إلى تلك المعاهدة حيث أرسلوا مبعوثا من قبلهما وهو السيد عبد الجليل إلى الشارقة فى ٥ فبراير ١٨٢٠ ثم وقع المعاهدة بعد ذلك شيخا البحرين سليمان وعبد الله بن أحمد على المعاهدة فى البحرين فى ٢٣ فبراير ١٨٢٠ .

والمهم أنه على أثر توقيع الشيخ حسن بن رحمه على معاهدة السلام العامة بادر كبير بعزله من مشيخة القواسم وأسند الزعامة إلى الشيخ سلطان ابن صقر^(١). على أنه اتجه إلى تقليل سلطته حيث منح كلا من شيخ عجمان وشيخ أم القوين اللذين استقبلهما على سفينته الحربية ليفربول فى ٢٣ فبراير ١٨٢٠ حق الدخول فى هذه المعاهدة ، ولذلك مغزى هام لأنه حينما سمح لسلطان بن صقر بالتوقيع على المعاهدة المذكورة أصر طبقا لما كان قد اتفق

== الذين كانوا يقاومون النفوذ البريطانى وقد ذكر أحد الباحثين المحليين أن عبيد القوام كانوا يقاومون بريطانيا أكثر من غيرهم انظر السيابى : مرجع سبق ذكره ص ص ١٦٠/١٦١ .

(١) كان الشيخ سلطان بن صقر فى ذلك الوقت حاكما على الشارقة وضم له كير رأس الخيمة فى عام ١٨٢٠ ولسنا نعرف عما إذا كان قد أقام فى رأس الخيمة أو ظل مقيما فى الشارقة حتى وفاته فى عام ١٨٦٦ كان يطلق عليه شيخ الشارقة وأحيانا شيخ رأس الخيمة دون تمييز بين المدينتين وإن كان من الواضح أنه اضطر نظرا لأعمال التخريب التى تعرضت لها رأس الخيمة من جراء الحملات العسكرية عليها إلى جعل مركز حكمه فى الشارقة .

عليه ضمنا في الاتفاقية التمهيدية على أن الشيخ راشد ابن حميد شيخ عجمان وعبد الله بن راشد شيخ أم القوين هما من رعاياه وبأنه يوقع معاهدة السلام نيابة عنهما ولكن كبر بعد أن أمعن التفكير قرر أنه من الأصوب وضع حدود لمطالب الزعيم القاسمي في المنطقة وذلك بالاعتراف بالشيخين الآخرين كحكام مستقلين . ولا شك أن ذلك التفكير كان بعيد النظر لأنه يضمن الحيولة دون انبعاث جديد للاتحاد القاسمي وذلك بتعطيم سلطة الزعيم الأعلى السياسية على بقية الشيوخ والاعتراف بهم كقوى مستقلة وبذلك لا يواجه الانجليز أخطارا من جراء وجود قوة متحدة تستطيع في وقت ما أن تنفض عنها آثار الهزيمة العسكرية والسياسية وعلى الرغم من أن الشيخ سلطان ظل يعتبر عجمان وأم القوين تابعتين له إلا أنه لم يلبث أن أعلن عن تنازله عن السيادة عن هاتين المشيختين في عام ١٨٣٢ . وهكذا ترتب على انهيار الاتحاد القاسمي ظهور مشيخات صغيرة مستقلة وكل شيخ أصبح ينظر إلى بريطانيا على أنها دعامة حكمه وبذلك نجحت سياسة كبر في تحقيق وضمان الهيبة البريطانية بإيجاد أنصار لمصالحها دون أن تكلفها ذلك جهودا أو نفقات مالية^(١) .

يتضح مما سبق أن معاهدة السلام العامة فرضت من جانب واحد وهو الجانب المنتصر في الحرب ولم يكن الطرف الآخر التي تحطمت أسس قوته بتدمير ومصادرة سفنه وفقدان حلفائه السعوديين سوى الازدحام^(٢) . ومن ناحية أخرى قام جرانت كبر بعزل الشيخ حسن بن رحمة شيخ القواسم على أثر توقيع المعاهدة إذ أن عزله دون التوقيع عليها قد يضعف من تأثير تلك المعاهدة على القواسم ، والأخطر من ذلك معاملة كبر الشيوخ كقوى مستقلة بصرف النظر عن تبعيتهم للشيخ الأعلى للقواسم وكان

(١) جمال زكرقا قاسم : الأسس التاريخية لوحدة الإمارات العربية ودور الاستعمار في تجزئتها - بيروت مارس ١٩٨١ عن تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة .

(٢) يرجع سانجر نجاح كبر في إبرام تلك المعاهدة إلى فقدان القواسم تأييد السعوديين بعد سقوط عاصمتهم الدرعية على يد إبراهيم باشا في عام ١٨١٨ .

Sanger, R. The Arabian Peninsula, P. 172 New York

1954.

لذلك أثره الواضح في تحطيم الزعامة القاسمية حتى أن ديباجة المعاهدة قد ركزت على هذه النقطة بالذات إذ أنها لم تشر إلى كون المعاهدة بين الإنجليز والقواسم كما كان الأمر كذلك في معاهدة ١٨٠٦ وإنما نصت على كونها معاهدة بين الإنجليز وبين الأقوام العربية الذين هم أطراف في هذه المعاهدة.

وثمة ما يسترعى الانتباه أن حكومة الهند لم تكن تنوى أصلاً بإيفادها لحملة ١٨١٩ الدخول في اتفاقيات أو معاهدات مع الرؤساء البحريين في الساحل العمانى وإنما كانت تهدف إلى القبض عليهم وإزالتهم من المناطق التى يحكمونها. ولكن كبر أثناء قيامه بتنفيذ الحملة تعذر عليه عملياً تنفيذ تعليمات حكومته إذ فر أولئك الرؤساء إلى الداخل ولما كانت التعليمات المعطاة له تشترط قصر الحملة على المناطق الساحلية وجد كبر أنه من المستحسن إزاء ذلك أن يصدر عفواً عن الرؤساء وتشجيعهم على العودة إلى بلادهم على أساس التحالف مع الحكومة البريطانية ومصادقتها ، وقد أثبتت هذه السياسة نجاحاً كبيراً وليس أدل على ذلك من أن معاهدة ١٨٢٠ التى استهدفت القضاء على القرصنة في المجال الأول أصبحت هى الدعامة القوية للنفوذ البريطانى في الساحل الجنوبى للخليج العربى وجعلت من أعداء بريطانيا السابقين أطوع حلفائها كما ساعدت في الوقت نفسه على تأمين الملاحة والتجارة للسفن البريطانية ومن ثم اعتبرت هذه المعاهدة بداية للسيطرة البريطانية النافذة على عرب الخليج^(١). ومع ذلك فإن حكومة بومباى لم تتقبل اجراءات كبر الدبلوماسية تقبلاً حسناً كما لم تنظر إلى جهوده بعين الاعتبار حتى أنه وجد صعوبة كبيرة في الحصول على تصديق من حكومته على تلك المعاهدة حيث أبدت حكومة بومباى الاعتراضات على اجراءاته التى وجدت أنها مخالفة لتعليماتها والتى يمكن أن نستخلص منها ما يأتى :

أولاً : اتهمت حكومة بومباى كبر بتقديمه تنازلات كثيرة للرؤساء ومن ذلك أن المعاهدة لم تنص على تحديد عقوبات على الذين يبحرون بدون

^(١) Ireland (Philip), op. cit. P. 33.

See also Whigham, The Persian Problem P. 82.

تصاريح أو المشتغلين بالقرصنة وتجارة الرقيق وقتل الأسرى ؛ كما أبدت شكوكها في مدى فاعلية التنظيمات البحرية التي وضعها كير وخاصة أنه لم يكن في المعاهدة نص يلزم المتعاقدين بهدم القلاع وعدم بناء الحديد منها كما ليس فيها ما يحدد عدد السفن التي يجوز للرؤساء امتلاكها وليس فيها أيضاً ما يمنعهم من استيراد الأخشاب اللازمة لبناء سفن جديدة .

ثانياً : وجهت حكومة بومباي اللوم إلى كير لأنه أفرج عن الزعماء الذين وقعوا في الأسر وأبقى بعضهم في الرئاسة وإن كان الفينستون حاكم بومباي قدس الاعتبارات الانسانية التي دفعت كير لهذا التصرف .

ومما يجدر الإشارة إليه أن كير بذل جهوداً كبيرة لاقتناع حكومته بضرورة التصديق على تلك المعاهدة حتى لا يظهر أمام الرؤساء العرب بعدم احترامه لتعهداته معهم . ومما يذكر أيضاً أن هذه المعاهدة أثارت انتقادات السيد سعيد سلطان مسقط الذي غضب من استدعاء كير للرؤساء وتوقيع المعاهدة معهم وغادر معسكر كير قبل التوقيع النهائي على المعاهدة لما اعتبره تساهلاً من كير تجاه القواسم . وكان ما يعنى كير بطبيعة الحال أن يدافع عن معاهدته أمام حكومته ، وسجل في ذلك براعة فائقة إذ استطاع بعد وصوله إلى بومباي اقناع حكومته بالتصديق عليها وذلك بعد أن استخدم مجموعة من الحجج المنطقية لتفنيد اعتراضات حكومة بومباي والتي يمكن أن نتخير منها النقاط التالية :

أولاً : أكد كير للمسؤولين في حكومة بومباي أن جميع الزعماء فيما عدا حسين بن علي قد حضروا إليه برغبتهم وأعلنوا ولائهم لبريطانيا غير أنهم لم يكونوا ليفعلوا ذلك إذا علموا مسبقاً بالقيود البحرية التي تحاول حكومة الهند فرضها فيما يتعلق بتحديد عدد السفن وأحجامها أو حق السفن البريطانية في مصادرتها

ثانياً : أنه وجد من الحكمة إطلاق سراح الشيوخ لأنه كان يخشى وكثيرون منهم يعانون من المرض والجوارح موتهم وهم في قبضة القوات البريطانية إذ أن ذلك كان سيرك انطباعاً سيئاً لدى سكان المنطقة .

ثالثاً : إن سياسته المعتدلة في معاملة الأسرى أدت إلى استسلام الرؤساء طواعية له ولو طبق لإجراءات عنيفة فإنهم كانوا سيرفضون التسليم بطبيعة الحال وهذا من شأنه أن تتحرك القوات البريطانية إلى الداخل حيث فركثير من الزعماء ولما كان القبض عليهم يتطلب تتبعهم في المناطق الداخلية التي فروا إليها فإن ذلك يعد مخالفاً للتعليمات الخاصة بالحملة والتي كانت تنص صراحة على تجنب الابتعاد عن المنطقة الساحلية بينما كان عفوه عن الرؤساء حافزاً لهم على العودة إلى بلادهم من تلقاء أنفسهم ومساعدوا على خلق جو من الثقة والتفاهم بينه وبينهم .

رابعاً : أنه حتى ولو حاول استبدال بعض أولئك الشيوخ بغيرهم فإن ذلك سوف يلزم بريطانيا بحمايتهم وبالتالي إلى مزيد من التدخل في المنطقة وذكر أنه لم يستثن من ذلك سوى خلعه للشيخ حسن بن رحمة وتسليم زعامة القواسم بعد تقليص نفوذهم إلى سلطان بن صقر وكانت حجته في ذلك أن سلطان بن صقر سوف يظل مديناً لبريطانيا باسترداد مكانته .

خامساً : أن بقاء وحدات بحرية بريطانية بصفة دائمة في الخليج هو الضمان الأمثل لتنفيذ شروط المعاهدة وأشد أثراً من النصوص التي تكتب على ورق لتحديد العقوبات القانونية فضلاً عن أن المقصود بالشروط الإنسانية في المعاهدة هو مساعدة سكان هذه المنطقة على فهم المبادئ العامة لقوانين الملاحة الدولية ولا ينبغي أن ننتظر منهم تغيير عاداتهم أو سلوكهم دفعة واحدة وإنما يمكن أن يحدث التحسن تدريجياً .

سادساً : إن النص على تحديد عدد السفن التي يجوز للرؤساء امتلاكها وكذلك تحديد حجمها أمر لا يفيد بشيء لأنه من الأفضل ترك المقدار اللازم من السفن الذي تحمى به كل قبيلة نفسها وليست أكبر السفن هي أصلحها للقرصنة ! وطلب كبير تزكية معاهدته لدى الحاكم العام وأنه في وسع حكومة بومباي أن تفرض ما تشاء من إجراءات بحرية في أي وقت آخر^(١).

(١) صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ص ١٠٧/١٠٨ . وكذلك

ج . كل : بريطانيا والخليج - ١ ص ٢٦١ - ٢٦٣ .

سابعاً : من الأقرب إلى المنطق أن تقوم حكومة بومباي بمنع تصدير الأخشاب لعرب المنطقة لا أن تنص المعاهدة على أن يلتزم العرب أنفسهم بالامتناع عن استيرادها .

وقد ثبت فيما بعد أن آراء كير كانت أدعى لنجاح السياسة البريطانية وأصبحت هذه المعاهدة التي وضعت أساساً لمنع القرصنة دعامة للنفوذ البريطاني في منطقة الخليج العربي ^(١) .

وقبل أن نصل إلى ختام هذا الفصل ينبغي أن نشير إلى أنه كان من أبرز الأحداث المصاحبة لحملة ١٨١٩ نشوب حرب في السواحل الجنوبية لمنطقة العمليات العسكرية قام بها أفراد من قبيلة آل بوعلی وهي إحدى القبائل التي تقطن منطقة جعلان وتعتنق المبادئ الوهابية وقد بدأت الاشتباكات بين القوات البريطانية وقبيلة البوعلی على أثر قتل البوعلی مبعوثاً أرسله الكابتن طومبسن القائد العسكري في جزيرة قشم حين ذهب للتفاوض معهم بسبب حادثة من حوادث التعدى على إحدى السفن وسرعان ما تحالف السيد سعيد مع الإنجليز حيث قام الفريقان بهجوم مشترك على عاصمة البوعلی فيما وراء ميناء صور إذ رسمت الخطة العسكرية على أساس تحرك قوات السيد سعيد برآ إلى جعلان في الوقت الذي تتحرك فيه القوات البحرية التابعة لطومبسن من البحر ويلتقي الفريقان في ميناء صور . ولكن كانت النتيجة كارثة رهيبية أبيدت فيها إحدى الفرق التابعة للإنجليز ووقع جنود السيد سعيد بين قتيل وجريح وأسير وقد احتوت رسائل طومبسن الخاصة على وصف دقيق ومثير لأحوال الفريقين إبان المعارك الناشئة ^(٢) . وقد بادرت حكومة الهند

(١) Bartlett (Moyse), The Pirates of Trucial Oman P. (١)

110 SQ.

(٢) سجلت الوثائق المصرية هذه الحملة حيث أصبح اهتمام محمد علي واضحاً لما يحدث في سواحل الخليج منذ عام ١٨٢٠ انظر مكاتبة صادرة من محمد علي إلى الصدر الأعظم حول التحركات الانجليزية في سواحل الخليج والجزيرة العربية ١٥ يونية ١٨٢١ - ملف الحجاز

بعزل طوميس وأرسلت حملة إلى صور يقودها الكابتن سميث الذي كانت له
خبرة سابقة في قتال رأس الخيمة في حملة ١٨٠٩ ورغم خسائر الإنجليز
إلا أن قبيلة البوعلى لم تلبث أن استسلمت وبادر الإنجليز بنفى عدد كبير
من زعمائها إلى الهند وهكذا استطاعت بريطانيا أن تسترد هيبتها التي اكتسبتها
في حملة ١٨١٩ على القوامم ، ومن ثم كانت حريصة على ألا تعرض تلك
الهيبة للضعف حتى ولو كان ذلك على حساب البوعلى الذين دافعوا عن
أراضيهم دفاعا مستميتا .



الفصل التاسع

اتفاقيات الهدنة وتدعيم النفوذ البريطاني في الساحل الجنوبي للخليج العربي

الاجراءات البحرية البريطانية في أعقاب معاهدة ١٨٢٠
- عمليات المسح البحري - القاعدة البريطانية في بامبي
دور - القوة البحرية المتجولة - الوكالة السياسية في
الخليج - انفصال البوفلاسة عن بني ياس - فشل محاولة
القياسات في الانفصال - اشتباكات الغوص وتوقيع الهدنة
البحرية الأولى ١٨٣٣ - استمرار نظام الهدنة - إطالة
أجل الهدنة البحرية ١٨٤٣ - الهدنة البحرية الدائمة ١٨٥٣ .



الفصل التاسع

اتفاقيات الهدنة البحرية

وتدعيم النفوذ البريطاني في الساحل الجنوبي للخليج العربي

أطلقت بريطانيا على الرؤساء الذين اشتركوا في توقيع معاهدة ١٨٢٠ اسم الرؤساء البحريين وهي تسمية تمسكت بها بريطانيا في معظم سنوات سيطرتها على المنطقة وكانت تهدف من ورائها إلى عزل الساحل عن الداخل في الوقت الذي كانت تعنى فيه بتدعيم سيطرتها البحرية وإن كان من الطبيعي أن تتجه إلى التخلي عن هذه السياسة على أثر اكتشاف موارد النفط في الداخل وقدرتها على السيطرة الداخلية بفضل تقدم سلاح الطيران الجوي واستخدام ذلك السلاح بالفعل منذ الثلاثينيات من هذا القرن. وعلى أية حال فقد عرف الساحل الجنوبي للخليج العربي باسم ساحل الصلح البحري ثم أطلق عليه بعد ذلك اسم الساحل المهادن أو المهادن أو ساحل الهدنة البحرية Trucial Coast^(١) بينما كان يعرف قبل ذلك في الخرائط الجغرافية الأوربية التي صدرت في القرن الثامن عشر بساحل القرصان Pirate Coast أو ساحل عمان وكانت تمتد حدود هذا الساحل من رأس موساندم جنوباً إلى شبه جزيرة قطر شمالاً^(٢).

(١) استخدم هذا اللفظ لأول مرة في التقرير السنوي للمقيم البريطاني في الخليج العربي الكولونيل روس Ross في عام ١٨٧٥ وظلت هذه التسمية قائمة حتى انتهاء الوجود العسكري البريطاني وقيام دولة الإمارات العربية المتحدة في عام ١٩٧١.

(٢) F.O. Persian Gulf No. 67 P. 44 London 1920.

وعلى الرغم مما حققته معاهدة ١٨٢٠ من نجاح للسياسة البريطانية إلا أن تلك المعاهدة لم تستطع أن توقف تماماً النشاط البحري للقبائل العربية دفعة واحدة وإنما استمرت العمليات البحرية قائمة بصورة أو بأخرى وإن كانت عموماً على نطاق أضيق عما كانت عليه من قبل . ولكن المهم أن الحكومة البريطانية اعتمدت على معاهدة ١٨٢٠ في تثبيت نفوذها هذا بالإضافة إلى نجاحها في عقد سلسلة من المهادنات البحرية بين شيوخ الساحل . وقد يكون من المفيد قبل أن نعرض لتلك المهادنات أن نشير إلى العديد من الإجراءات البحرية التي اتخذتها حكومة الهند البريطانية لفرض ما أسمته بالسلام البريطاني Pax Britannica ويمكن إبراز تلك الإجراءات على النحو التالي :

أولاً : عمليات المسح البحري :

على الرغم من أن عمليات المسح البحري بدأت منذ عام ١٨١١ إلا أنها اطردت بعد حملة ١٨١٩ وأسهم فيها كثير من ضباط البحرية الهندية من أمثال منوهان وجيني وبروكس وهينز ، وكانت عمليات المسح هذه صعبة وشاقة حتى أن عدداً كبيراً من البريطانيين الذين اشتركوا فيها ماتوا أو انهارت صحتهم بسبب الازهاق وقسوة المناخ ^(١) . وقد استهدفت عمليات المسح البحري الساحل العماني من رأس مسندم إلى شبه جزيرة قطر بالإضافة إلى خليج عمان وساحل مكران وبتقدم عمليات المسح اتضح وجود مئات من الخلدجان الصغيرة التي تضمها المنطقة الواقعة بين رأس مسندم ورأس الخيمة وفي هذه الخلدجان أو الأخوار الضيقة بالذات والتي كانت مجهولة لدى الإنجليز كانت سفن القواسم تكمن في انتظار ضحاياها من السفن التجارية التي تعبر مضيق هرمز ومن أهم تلك الخلدجان خور الشعم الذي سمي بخليج الفنستون Elphinston نسبة إلى حاكم بومباي وقد استمرت عمليات المسح البحري حتى آخر شبه جزيرة قطر ، ولقى رجال المسح مساعدات من بعض الشيوخ وخاصة من الشيخ طحنون بن شخبوط شيخ أبو ظبي وعلى الرغم من بعض الأخطاء أو

(١) سجل الكابتن بروكس وصفا تفصيليا لعمليات المسح البحري [وقد احتلت دراسته أكثر من مائة صفحة في وثائق حكومة بومباي انظر :

Navigation of memoir descriptive of Navigation of the Gulf of Persia pp. 531 - 634 .

راجع أيضا ويلسن (أرنولد) . تاريخ الخليج ص ١٩٠ وما بعدها .

السقطات بسبب عدم توافر المعدات والأجهزة العلمية وما وقع من أخطاء في حساب دائرة خط الطول لبوشهر الذى اعتمدت عليه أرقام خطوط الطول في المنطقة فإن عملية المسح كما يقول المؤرخ البريطانى جون كلى كانت تعد انجازاً عظيماً ومفخرة لمهارة وصبر رجال وضباط البحرية البريطانية^(١) وإن كنا نعتقد أنها كانت من أهم الأسباب التى أدت إلى القضاء على القوة البحرية للقواسم بعد أن تعرفت عمليات المسح على طبيعة الساحل الطبوغرافية والمواقع الدفاعية والهجومية التى كانت تتمحصن بها السفن العربية .

ثانياً : بناء قاعدة بحرية بريطانية في باسى دور :

كان من بين أهداف حملة ١٨١٩ إنشاء قاعدة بريطانية في الخليج وكان الاتجاه إلى إنشاء تلك القاعدة في موقع يشرف على خليج هرمز حتى تتمكن من مراقبة السفن القادمة أو المغادرة وكانت هناك جزيرتان صغيرتان يمكن اتخاذ إحدهما مقراً لتلك القاعدة وهما جزيرة هنجام وجزيرة قشم وما يذكر أن السيد سعيد سلطان مسقط كان يسيطر على الجزيرة الأخيرة حيث كان يعين الولاة عليها باعتبارها تابعة لبندر عباس وكان المسقط حق إدارة ذلك الميناء منذ أيام سلطان بن أحمد^(٢) . ولذلك لم تجد حكومة الهند البريطانية صعوبة كبيرة في إنشاء تلك القاعدة بحكم صداقتها لسلطان مسقط وخاصة بعد أن ثبت عدم ملائمة رأس الخيمة من الناحية المناخية، وبسبب عمليات التدمير التى لحقتها لإقامة قاعدة عسكرية بحرية . وعلى الرغم من أن حكومة الهند قد استفادت بالفعل من سيطرة السيد سعيد على تلك الجزيرة وحصلت منه على إذن كتابى بإنشاء تلك القاعدة إلا أن معارضة الحكومة

(١) كلى : بريطانيا والخليج ج ١ ص ٣٢٣ .

(٢) للتعرف على السيادة العمانية على بندر عباس وتوابعها انظر :

Curzon, G.N. Persia and the Persian Question vol. II

P. 423 London 1892. See also Sykes, op. cit. vol. II P. 456.

الفارسية أجبرت بريطانيا على إخلائها^(١). إذ لم تنشأ الحكومة البريطانية في هذه الحقبة معارضة الحكومة الفارسية ولذلك قررت الانسحاب منها في عام ١٨٢٢ وبررت حكومة بومباي انسحابها أمام الحاكم العام الهند بقولها « إن الانسحاب من جزيرة قشم وإن كان سيسبب ضرراً محدداً وهو تخفيف الاشراف على الملاحة في الخليج فإنه سيجنبنا ضرراً أشد وهو الوقوع في نزاع مسلح مع فارس »^(٢).

ثالثاً : القوة البحرية المتجولة :

لجأت بريطانيا بعد انسحابها من جزيرة قشم إلى الاستعاضة عن القاعدة البحرية بأسلوب آخر المراقبة الملاحية في الخليج وهو مشروع تقدم به ماريتون مساعد قائد البحرية البريطانية ويقضى هذا المشروع الذى وافقت عليه حكومة بومباى بتخصيص ست سفن حربية للقيام بدوريات مستمرة فى مياه الخليج وعرف هذا النظام باسم نظام القوة البحرية المتجولة . ولا شك أن حكومة بومباى قد وجدت أنه لتحقيق الاستقرار والأمن البحرى فى الساحل الجنوبى للخليج العربى ينبغى الاعتماد على دوريات منتظمة تقوم بها قطع من أسطول البحرية البريطانية حتى يمكنها الاحتفاظ بالمكاسب التى حققتها والتى كلفها الكثير من الأرواح والأموال . ومن أجل ذلك خصصت البحرية الهندية ستة طرادات لعمليات المراقبة اتخذت ثلاثة طرادات منها جزيرة قيس قاعدة لها ورابطت بصفة مستمرة بالقرب من السواحل العربية التى تتطلب التركيز فى عمليات المراقبة ، كرأس الخيمة والشارقة ودبي حيث كانت تقوم بزيارة تفتيش مستمرة لها أما الطرادات الثلاثة المتبقية فقد كان عاينها أن تتعقب كلها أو بعضها مسار السفن العابرة من مسقط إلى البصرة وبالعكس بهدف حمايتها . وكذلك حماية البريد والبعثات البريطانية التى كانت تتجه إلى

Adamyiat, F. Bahrein Islands P. 40.

(1)

(۲) صلاح العقاد : مرجع سبق ذکرہ ص ۱۰۸ .

البلاط الفارسي كما كان عليها أيضا مراقبة خطوط المواصلات البحرية المنتجة إلى بومباي .

وأمام الغموض الذي كان يكتنف تطبيق مواد معاهدة ١٨٢٠ ومن بينها هل يجوز للسلطات البريطانية التفتيش على السفن التي ماتزال في مرحلة التصميم ومصادرتها أو تدميرها إذا لم تكن طبقا للمواصفات المطلوبة ، وهل من حقها احتجاز أية سفينة مادامت لاتحمل الأوراق الخاصة بها أولا ترفع العلم الذي اتفق عليه ^(١) ، صدرت التعليمات لضباط القوة البحرية المتجولة بعدم إيقاف أية سفينة مالم يشتبهوا في هويتها أما إذا امتنعت سفينة من السفن عن إبراز هويتها فيمكنهم في هذه الحالة إطلاق رصاصة تحذير وهكذا أجازت بريطانيا لنفسها استناداً على المعاهدة العامة الحق في التفتيش البحري وهو إجراء ترسعت فيه بريطانيا وأدى بدوره إلى القضاء على النشاط البحري للقوى العربية إذ كان السهل على سفن الأسطول البريطاني أن تستوقف أية سفينة بحجة الاشتباه في حمولتها ومن ثم فقد اتخذت بريطانيا من أسلوب التفتيش وسيلة لفرض سيطرتها وكان من بين التعليمات التي أصدرتها حكومة بومباي ألا يسمح لأية سفينة تشترك المشيخة التابعة لها في معاهدة الصلح العامة ولا ترفع الأعلام المميزة المتفق عليها أن تزور موانئ الهند البريطانية . إذ أن المادة العاشرة من معاهدة الصلح لاتوفر الحماية البريطانية للسفن العربية ضد أي اعتداء يقع عليها من قبيلة غير موقعة على الاتفاقية إلا في موانئ الهند البريطانية دون سواها ^(٢) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن كثيراً من شيوخ الساحل قد طلبوا من الحكومة البريطانية أن تضع لهم تفسيراً لمواد المعاهدة العمومية التي كانت غير مفهومة لهم ولعل ذلك مادفع بريطانيا إلى إيفاد الكابتن ماكلاويد لزيارة الشيوخ وشرح المعاهدة لهم كما سنشير إلى ذلك بعد قليل .

(١) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج ج ٢ ص ١٠٣٢-١٠٣٤

(٢) راجع المادة العاشرة من المعاهدة العمومية في ملاحق الكتاب .

الوكالة السياسية في الخليج

اتجهت حكومة بومباي في أعقاب توقيع معاهدة السلام العامة في عام ١٨٢٠ إلى إنشاء وكالة سياسية في الخليج العربي وقامت بتعيين الكابتن طومبسون Thomposon وكيلا سياسيا وكانت هذه هي المرة الأولى التي ظهرت فيها صفة سياسية توصيفا لوظيفة إنجليزية في الخليج وتحددت مهمة الوكيل السياسي في الاشراف على علاقات الشيوخ المتصلحين بحكومة بومباي وتنظيم تلك العلاقات وكذلك الرأى في الشؤون المتعلقة بتفسير نصوص معاهدة السلام العامة : ومما يسترعى الانتباه أن هذا المنصب لم يستمر فترة طويلة إذ خشيت حكومة بومباي من أن يتجاوز الضباط المفوضون بشؤون سياسية صلاحياتهم ولعل مشكلة الكابتن بروس Bruce في توقيع إتفاقية شيراز دونه الرجوع إلى حكومة بومباي كانت العامل الهام الذي نبه حكومة بومباي إلى ذلك^(١) ، ومن ثم بادرت في عام ١٨٢٣ إلى إلغاء الوكالة السياسية في الخليج وألحقت مهمتها بالمقيمة البريطانية في بوشهر ، ولذلك يشهد ذلك العام تطور اختصاصات المقيمة البريطانية التي كانت تجارية بريدية استخباريه فأصبحت إلى جانب ذلك لها اختصاصاتها السياسية حيث وقع على المقيم البريطاني السياسي في بوشهر مهمة مراقبة وتنفيذ تعهدات الشيوخ ، والإشراف على شؤون الخليج العسكرية والسياسية^(٢) ، ومن المفيد أن نشير بصدد ذلك إلى حرص حكومة الهند على تدعيم السلطة السياسية والعسكرية لمقيمها حيث جعلت له الكلمة العليا وكان ذلك نتيجة التنازع في الاختصاصات بين المقيم السياسي وقائد أسطول البحرية الهندية وقد حسمت حكومة الهند هذا الخلاف وذلك بمقتضى الإعلان الذي صدر عن الحاكم العام للهند في عام ١٨٤١ وكان مما ورد به أن سلطة المقيم هي السلطة الأولى في منطقة الخليج ويتعين على قائد أسطول البحرية الهندية الذي يكون في أى وقت

(١) راجع الفصل الثالث عشر فيما يتعلق باتفاقية شيراز . وكذلك :

Adamiyat, F. Bahrein Islands P. 107—108.

(٢) عبد العزيز عبد الغنى : حكومة الهند والإدارة البريطانية في الخليج العربي ص ١١٩ -

١٢٠ الرياض ١٩٨١ .

من الأوقات في الخليج أن يعمل تحت إمرته ولا يملك سؤال المقيم السياسي عن عمله سوى سلطة واحدة هي حكومة الهند وأضاف الاعلان بأنه ليس في هذه التعليمات ما يحيط بقدر البحرية الهندية أو استقلالها لأن المقيم السياسي ليس في نهاية الأمر سوى ممثل للحكومة ومن الضروري للمصلحة العامة أن يقوم تفاهم تام وتعاون بين الطرفين^(١).

ويرتبط تدعيم النفوذ البريطاني في الساحل الجنوبي للخليج بالدور الذي قام به ماكلويد Mcleod الذي عهد إليه بالمقمية البريطانية في الخليج خلفاً لبروس في عام ١٨٢٣ وقد بدأ ماكلويد مهام منصبه بجولة بحرية قام بها في الساحل الجنوبي للخليج حيث تقابل مع الشيوخ وشرح لهم الهدف من معاهدة ١٨٢٠ التي لم تكن نصوصها واضحة بالنسبة للكثيرين منهم . كما كان عليه أن يؤكد لهم أن انسحاب الحامية البريطانية من جزيرة قشم لا يعني فقدان الحكومة البريطانية لمصالحها أو اهتماماتها بالمنطقة وإنما جاء ذلك الانسحاب نتيجة أطمئنان حكومة الهند البريطانية إلى صدق التعاون واحترامهم لشروط المعاهدة . كما كان على ماكلويد أن يقوم بدراسة مستفيضة للوضع السياسي للشيوخ وعمل إذا كان أحد منهم خاضعاً لنفوذ إحدى الدول المجاورة كفارس أو مسقط أو السعوديين كما كان عليه أن يتحقق من مصادر الثروة وأنواع السفن وإمكانية إنشاء تمثيل دائم في منطقة الإمارات . وقد أقيم هذا التمثيل بالفعل حين عاهدت حكومة بومباي إلى وكيل وطني بهذه المهمة منذ عام ١٨٢٨ واختيرت إمارة الشارقة لتكون مقرراً لذلك التمثيل^(٢) وكانت مهمته تتلخص في جمع المعلومات التي يستطيع الحصول عليها وإرسالها إلى المقيم البريطاني في بوشهر ليكون على اطلاع دائم بما يحدث في المشيخات وكان المقيم البريطاني غالباً ما يفد إلى المنطقة زائراً أو مجاملاً أو معاقباً . وقد يكون من المفيد أن نشير هنا أنه عند زيارة ماكلويد لإمارة الشارقة أبدى مزيجاً من الإعجاب والكراهية بشخصية الشيخ سلطان بن صقر الذي

(١) ح . ج . لوريير - مصدر سبق ذكره ج ١ ص ٣٥٥/٣٥٦ .

(٢) Mann, clarence : Abu Dhabi Brith of an oil Shaikhdom

وصفه بكونه أقوى وأقدر شيوخ المنطقة ، وذكر أن حكمه لم يقتصر على الشارقة ورأس الخيمة فحسب وإنما كان يتجاوز ذلك إلى الجزيرة الحمراء وأم القوين . ومما يذكر أن الشيخ راشد بن حميد شيخ عجمان قد انتهز فرصة زيارة ماكلويد حيث طلب الحماية منه من سلطان بن صقر حيث لم يكن يعترف بسلطته على عجمان ويبدو أن الانطباع الذي خرج به ماكلويد على أثر اجتماعه بالشيخ راشد النعيمي هو أنه يرغب في التخلص من تبعيته للشيخ القاسمي وأنه في سبيله لبناء إمارة مستقلة عن النفوذ القاسمي ومن ناحية أخرى أثار الشيخ سلطان بن صقر لدى اجتماعه بماكلويد موضوع سيادته على عجمان وطلب منه السكتابة لحكومة الهند بشأن إعترافها بسلطته على جميع مشيخات الساحل العماني . ولعل ما أزعج ماكلويد الحجم المتزايد لأسطول القواسم فقد شهد بنفسه أكثر من ثلاثين سفينة شراعية راسية في ميناء الشارقة ، كما كان العمل يجري في بناء بعض السفن الكبيرة ولم يكن من المعقول أن يكون القواسم قد تمكنوا من بناء ذلك الأسطول الضخم خلال فترة الثلاثة أعوام التي انقضت على الحملة البريطانية في عام ١٨١٩ / ١٨٢٠ وكان التفسير الوحيد الذي توصل إليه ماكلويد هو أن أغلب سفن القواسم كانت مخبئة في الخليجان أو في المناطق الضحلة قبل وصول حملة جرانث كير . وفي إمارة الشارقة حضر للقاء ماكلويد زعماء بني ياس في أبوظبي ودبي وهما الشيخ طهحون بن شخبوط والشيخ زايد بن سيف حيث أكدوا له صداقتهما ورغبتها في الالتزام بشروط معاهدة السلام العامة وفي المقابل أكد لهما ماكلويد مشاعر الود والصداقة من جانب حكومة الهند . ومن إمارة الشارقة أبحر ماكلويد إلى مدينة البدع (الدوحة) على الساحل الشرقي لشبه جزيرة قطر وكانت خاضعة في ذلك الوقت لشيخ آل خليفة حكام البحرين ، وقد أعرب شيخو قطر عن رغبتهم في الانضمام إلى معاهدة السلام العامة ، كذلك أبدى شيخ البحرين ارتياحه لقبول حكومة

الهند اشترأكه في هذه المعاهدة التي وجد فيها تعبيراً لصداقته الوثيقة لها وسنداً له ضد خصومه وخاصة السيد سعيد سلطان مسقط ورحمة بن جابر شيخ الجلاهمة وعلى ميرزا أمير فارسستان (١).

وعندما عاد ماكلويد إلى مقر عمله في بوشهر أعد تقريراً مفصلاً اعتمدت عليه حكومة الهند في سياستها في منطقة الخليج العربي وقد تضمن تقرير ماكلويد دراسة الامكانيات البحرية للقبائل العربية وعلاقة بعضها ببعض الآخر وتمخضت نتائج ذلك التقرير عن إعداد نظام فعال لتزويد سفن القبائل بالاغلام والوثائق التي نصت عليها معاهدة ١٨٢٠ واختيار أحد الوكلاء الوطنيين ليتولى منصب الوكيل في الشارقة، والجدير بالذكر أن الشارقة قد اختبرت دون غيرها لتكون مقراً لهذه الوكالة نظراً لارتباط حاكمها الشيخ سلطان بن صقر أكثر من غيره بروابط وثيقة مع الإنجليز هذا فضلاً عن أن الشارقة كانت في ذلك الوقت أكبر المشيخات التي تخلفت عن دولة القواسم كما أن صداقة حكومة الهند البريطانية مع أبوظبي لم تكن قد اتضحت بعد (٣). وما تجدر الإشارة إليه أن تقرير ماكلويد تعرض بشكل مفصل للموارد الاقتصادية لامارات الساحل وأكد التقرير أنه ليس لهذه المشيخات إنتاج يذكر كما أنها لا تصدر شيئاً خارج بلادها ومن ثم وجدت بريطانيا تبريراً لسياستها في أنها كانت تستهدف أن تجنب القوى العربية الخسائر الفادحة التي كانت تتعرض إليها نتيجة منازعاتها البحرية (٤). وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى حكومة الهند البريطانية اعتماداً على تقرير

(١) جون كلى - بريطانيا والخليج ج ١ ص ٣٣٤ .

Hawley. D, The Trucial States P. 132 FF. See also (٢) Mann, clarence Abu Dhabi — Birth of an oil Sheikdom P. 24 Beirut 1969.

(٣) صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ص ١١٠ .

Bombay Govt., op. cit. vol XXIV, CF. Report on (٤) British Policy by Kembell. pp. 71—74.

ماكلويد افتتحت في عام ١٨٢٨ أول وكالة للمقيمة البريطانية في الشارقة وتم تعيين وكيل أو مسئول عن إدارتها وهو ملا حسين وتحددت مسؤولياته بالعمل على رعاية المصالح البريطانية في مشيخات الساحل العمانى وكان عليه أن يرفع تقاريره أولا بأول إلى المقيم البريطانى في بوشهر وقد استمرت بريطانيا في استخدام الوكلاء الوطنيين حتى استعاضت عنهم بوكلاء بريطانيين في دبي في فترة ما بين الحربين العالميتين على أثر إقامة القواعد الجوية في منطقة الساحل العمانى^(١) :

ولعل مما يسترعى الإنتباه أن حكومة الهند البريطانية لم تستطع أن تحقق السلام البحري في الخليج اعتمادا على معاهدة ١٨٢٠ إذ أن معظم نصوص هذه المعاهدة أصبحت غير سارية المفعول بل غير ضرورية وعلى الرغم من أن بعض شيوخ الساحل كانوا يرفعون الأعلام المتفق عليها على سفنهم إلا أن أكتريه الشيوخ لم يكونوا يكثرثون بذلك وكانوا يفضلون رفع أعلامهم التقليدية الحمراء ، كما أخذ القواسم يحددون عملياتهم البحرية ولذلك بادرت حكومة بومباي في أبريل ١٨٢٤ بإصدار مجموعة من التعليمات لضباطها البحرين كانت تنص على ما يأتي :

أولا : في حالة هجوم لإحدى السفن على سفينة بريطانية يجب توقيفها على الفور .

ثانياً : يجب اعتقال الجناة وحجزهم .

ثالثا : بالنسبة للسفن التي يشتبه في ممارستها لعمل من أعمال القرصنة تحجز وتسلم للمقيم البريطانى مع كافة الأدلة التي تدينها بذلك .

ومنذ عام ١٨٢٨ تغير مفهوم استخدام القوة البحرية المراقبة في الخليج لقمع القرصنة من دور الهجوم إلى الزيارات الدورية لموانئ المنطقة وإلزام الشيوخ بالتعويضات عن الاعتداءات التي يقرفها رعاياهم في البحر ولعمل تجدد حوادث النشاط البحري كان يرجع إلى عدم وجود دولة أو بلد واحد على الأقل لم يكن متورطا في صراعات أو منازعات مع جيرانه ابتداء من الكويت في الشمال حتى مسقط في الجنوب فكان رحمة بن جابر زعيم فرع

(١) دكتور جمال زكريا قاسم : الخليج العربى ١٩١٤ - ١٨٤٥ ص ٤٢ .

قبيلة الجلاهمة من العتوب في قتال مستمر ضد آل خليفة حكام البحرين وسكان البحرين ضد أهالي الوكرة والدوحة وضد محاولات حاكم إقليم فارسستان انتزاع البحرين منهم كما أن سكان أبو ظبي ودبي كانوا في صراع ضد القواسم سكان الشارقة ورأس الخيمة كما كان القواسم في صراع ضد سلطنة مسقط وكانت هذه الصراعات تؤدي بطبيعة الحال إلى اشتباكات بحرية كان غالبا ما ينجم عنها اعتداءات على السفن العابرة في الخليج دون تفرق بينها وكانت هذه الاشتباكات توصف بالقرصنة إذ لم يكن بمقدور بريطانيا أو الدول الأجنبية بصفة عامة أن تميز بين القرصنة والخلافات السياسية بين القبائل . وما يذكر أن التجمع السنوي لسفن صيد اللؤلؤ في صيف كل عام كان يشكل مرتعا خاصا للاضطرابات بين القبائل كما أن الصراع على التفوق بين هذه القوى كان السمة البارزة التي طبعت تاريخ الساحل العماني حتى توقيع الهدنة البحرية في عام ١٨٣٥ وهذا الصراع كان من أبرز نتائجه استنزاف قوى جميع الأطراف المشتركة فيه ونضوب مواردها وامكاناتها الاقتصادية والبشرية فضلا عن تعريض أمن المنطقة للتهديد والخطر . ومن ثم كان الأمر يستلزم وضع نظام للهدنة البحرية ولعل الخلافات بين أبو ظبي والشارقة في عام ١٨٣٣ هي التي دفعت إلى التفكير في تنفيذ ذلك النظام^(١) . وترجع أسباب الخلافات بين أبو ظبي والشارقة إلى أن إمارة الشارقة التي ورثت دولة القواسم كانت تتطلع إلى إعادة بعث الاتحاد القاسمي كما يرجع النزاع أيضا إلى الخلافات التقليدية بين الهناوية والغافرية . وقد يكون من المناسب أن نشير هنا إلى أن أصول النزاع بين القواسم وبنو ياس يرجع إلى الوقت الذي استطاع فيه الشيخ سلطان ابن صقر استرداد سلطته الرئاسية على القواسم في أعقاب حملة ١٨١٩ وأصبح الشيخ حسن بن رحمه الذي عزله الانجليز فيما بعد تابعا للشيخ سلطان بن

(١) التفاصيل المتعلقة بالصراع بين الشارقة وأبو ظبي راجع :

Bombay Govt., op. cit. Historical Sketsh of the Beniyas Tribe of Arabs by Kembal P. 473 FF. vol. XXIV Bombay 1856.

Mann, op. eit. P. 31—35,

كذلك راجع :

للتعرف على الاضطرابات البحرية في الساحل بعد معاهدة ١٨٢٠ .

صقر وهكذا استطاع الشيخ سلطان أن يسيطر على كل من إمارتي رأس الخيمة والشارقة، وعقب وفاة الشيخ قضيب بن أحمد شيخ جزيرة الحمراء عزل الشيخ سلطان خليفته الشرعي في عام ١٨٢٤ لكي ينصب بدلا منه شيخا آخر أكثر موالاة وطاعة له وهو الشيخ أحمد بن عبد الله وفي نفس الوقت خضع شيخ عجمان من آل النعيم لما لا بد منه وأعلن ولاءه لشيخ الشارقة وفي العام التالي ١٨٢٥ حقق الشيخ سلطان بن صقر بعض النفوذ في دبي بمصاهرته لحاكمها . وقد بدأت الصراعات بين الشارقة وأبو ظبي منذ عام ١٨٢٣ حين استولى الشيخ سلطان على أبراج البريمي وأخذ شيخ أبو ظبي من ناحيته يشجع قبيلة السودان اللاجئة من الشارقة على بناء قلاع لهم في الديرة الواقعة بين دبي والشارقة مما أدى إلى استمرار الاشتباكات التي بلغت ذروتها في عام ١٨٣٣ بسبب الاضطرابات التي تعرضت لها أبو ظبي عقب اغتيال الشيخ طحنون وتنازع أخويه خليفه وسلطان على السلطة وحاول حاكم لنجيه الذي كان يتمتع بهيبة بين الرؤساء التوسط من أجل إعادة السلام وقرر فرض غرامة على مشيخة أبو ظبي ولكن أسرة البوفلاسه وهي إحدى الأسر المكونة لاتحاد بني ياس رفضت دفع نصيبها من الغرامة وفضلت الانسحاب إلى دبي ودخل البوفلاسه في حلف مع القواسم^(١) حيث اتفقوا فيما بينهم على شن حرب بحرية ضد أبو ظبي والأمر الذي لاشك فيه أن الشيخ سلطان بن صقر شيخ الشارقة قد تشجع بالانقسام الذي حدث في صفوف بني ياس بهجرة البوفلاسه لكي يحاول الاطاحة ببني ياس ولكن أخبار تلك المحاولة لم تلبث أن وصلت إلى زعماء بني ياس الذين بادروا بحشد مجموعة كبيرة من بدو المناخير واستطاعت هذه المجموعة أن تتصدى للقواسم وأفشلت محاولتهم^(٢) . وفي عام ١٨٣٤ عقدت هدنة بين أبو ظبي

(١) عن انفصال البوفلاسة انظر :

Kemball & Disbrowe, H.F., Historical Sketsh of Debaye
S.R.B.G. vol. XXIV P. 497 FF.

(۷) ج . ج . لوریمیر : دلیل الخلیج ص ۲ ص ۱۰۵۵ .

والشارقة تعهد فيها زعيم بنى ياس بالاعتراف بسلطنة البوفلاسة على دى على أساس الأمر الواقع وأصبح البوفلاسة منذ ذلك العام يحكمون فى دى (١) :

ومنذ نهاية ذلك العام أيضا أخذ التوتر يسود الأوساط القبلية على طول الساحل الجنوبي للخليج على أثر انخفاض المعيشة بين السكان حتى وصل إلى حد الكفاف وأصبح الأهالى على شفا الافلاس نتيجة الاضطرابات التى كانت تدور بين زعماء القواسم وبنى ياس كما أتلقت المزارعات والمحاصيل وتحطمت المباني بسبب الغارات المسلحة وتأثرت الزراعة وحرفة الرعى من جراء الحروب المتتالية التى فرضت على الأهالى الذين لم يتمكنوا نتيجة تلك الظروف من الخروج إلى صيد اللؤلؤ مما حرمهم من مواردهم الرئيسية إذ كما هو معروف أن اقتصاد القبائل كان يعتمد فى الدرجة الأولى على مواسم الغوص والرحلات التجارية التى كان يقوم بها سكان الساحل إلى البصرة وبومباى وزنجبار وموانى البحر الأحمر ومن الطبيعى إذا توقفت هذه الأنشطة نتيجة ما يحدث من إشتباكات بحرية فإن الأضرار تكمن قاسية على سكان الساحل (٢). وحدث فى منتصف عام ١٨٣٥ أن اتجه الشيخ شخبوط بن دياب إلى باسيدور لدفع التعويضات المستحقة على بنى ياس نتيجة تسببهم فى تهديد الأمن البحرى وصادف وصوله إلى هناك محبى الشيخ سلطان بن صقر وبذلك وجد الكولونيل هنيل المقيم البريطانى فى الخليج الفرصة لتسوية الخلافات بين القواسم وبنى ياس . وكان هنيل يعتقد أن الصراع على مناطق الغوص هو

Bombay Govt., op. cit. Chronological Table of Events (١)
vol. XXIV Debaye by Kemball.

Bombay Govt., op. cit. Historical Sketsh of Arab (٢)
Tribes of Beni yas by Henncl. Kembait P. 473 FF.

من أهم أسباب الحروب بين المشيخات ومن ثم فإنه كان يعتقد بأنه من واجب حكومة الهند فرض حمايتها على شيوخ المنطقة وإجبارهم على التوقيع على معاهدة تتضمن عدم القتال في البحر . كما كان هنيل يرى أنه في الامكان اقناع شيوخ الساحل باجراء تسويات سلمية فيما بينهم يتعهدون فيها بالكف عن الاشتباكات البحرية ولذلك بعث بسفينته الحربية إلى كل من دبي وعجمان لاجتماع الشيخ عبيد بن سعيد والشيخ راشد بن حميد للتباحث في أمر تلك التسويات وإن كان قد أدرك في نفس الوقت صعوبة التوفيق بين جميع الأطراف . ولذلك اقترح هنيل في بداية الأمر عقد هدنة بحرية بين الرؤساء تمتد طوال موسم الغوص لعام ١٨٣٥ ، ولما كان هذا الاقتراح لا يلزم الشيوخ بالتخلي أو التنازل عن مطالبهم إزاء بعضهم البعض الآخر ويضمن لهم في نفس الوقت الاستفادة من موسم الغوص فقد وافقوا على ذلك الاقتراح . وفي ٢١ مايو ١٨٣٥ ، وقع شيوخ المنطقة أول اتفاقية للهدنة البحرية نصت على أن يمنع الشيوخ عن اللجوء إلى الحرب والجدال إعتباراً من ٢١ مايو ١٨٣٥ إلى ٢١ نوفمبر ١٨٣٥ والتزم الشيوخ بدفع قيمة التعويضات عن أية انتهاكات لتلك الاتفاقية يقوم بها رعاياهم أثناء الفترة التي تكون فيها الاتفاقية سارية المفعول كذلك تعهدوا بالابلاغ عن أية انتهاكات تحدث إلى المقيم البريطاني أو قائد بحرية باسيدور ولا يقومون بالانتقام من بعضهم البعض الآخر^(١) . وهكذا أدت الحروب التي دارت بين الشارقة وأبو ظبي والتي كانت من أعنف الحروب التي دارت بين شيوخ الساحل إلى عقد المهادنة البحرية الأولى وذلك بعد أن أصبح واضحاً أن معاهدة السلام العامة

(١) راجع ملحق تقرير كامبل في وثائق حكومة بمباي عدد ٢٤ .

١٨٢٠ بدأت تفقد فعاليتها إذ لم يكن هناك في المعاهدة المشار إليها أى نص يلزم بتحریم الحروب البحرية فعلى الرغم من أن معاهدة ١٨٢٠ كانت تمنع السلب والقرصنة إلا أنها فى نفس الوقت لم تكن تشكل قيداً يحد من الاشتباكات البحرية المشروعة ونعنى بذلك إذا ظهرت فى شكل صراع بين القوى العربية طالما كان يتم الاعلان الرسمى لذلك الصراع وفقاً لنصوص المعاهدة إذ أن هذه المعاهدة لم تكن تضع قيداً على الحروب البحرية المعلنة، وبالإضافة إلى ذلك فإن ما نصت عليه المعاهدة من ضرورة إصدار وثائق خاصة للسفن وتسجيلها قد ثبت أنه إجراء غير عملي تماماً ولم يعد أحد يطبقه فى الوقت الذى بدأت فيه تنحصر موارد الدخول فى صيد اللؤلؤ حيث أصبح الغرض يعد المصدر الوحيد للدخول إلى درجة أن بعض تجار اللؤلؤ في الشارقة عرضوا على الحكومة البريطانية دفع ما يساوى تسعة وعشرين جنيهاً عن كل قارب للغوص تضمن الحكومة البريطانية سلامته^(١).

وعلى الرغم من أن الشيوخ التزموا بشروط الهدنة البحرية فى عام ١٨٣٥ حيث لم تحدث انتهاكات لها حتى انتهت فى نوفمبر ١٨٣٥ إلا أنهم لم يظهروا أية بادرة لتقدير مزاياها أو الرغبة فى تحويلها إلى نظام دائم وبذلك كان هناك احتمال فى أن يستأنف الشيوخ منازعاتهم البحرية بعد انتهاء أجلها ومن ثم كان الاجراء الذى نجح فيه هنيل هو إقناع الشيوخ الموقعين على الاتفاقية بالاعتراف بالخطوط الملاحية الرئيسية الواقعة على امتداد الساحل الفارسى كىاه محايده لا يحتل لأى من سفن الشيوخ التوافد إليها وبهذه الطريقة استطاع هنيل أن يحصر الحرب البحرية بين الشيوخ عن طريق رسم خط وهمى يقسم مياه الخليج إلى قسمين وعرف هذا الخط بالخط الفاصل أو المانع ويبدأ من جزيرة بوموسى إلى جزيرة صبرى ثم يمتد إلى

(١) ج . ح . لوريمر - مصدر سبق ذكره ج ٢ ص ١٠٦٠ .

الشمال الشرقي على طول الخليج بحيث يقسم مياهه إلى قسمين متساويين^(١). وفي أبريل ١٨٣٦ بذل الماجور موريسون الذي خلف هنيل لدى قيامه بإجازته جهداً كبيراً في اقناع الشيوخ بتجديد الهدنة التي انتهت أجلها في نوفمبر ١٨٣٥. أما بالنسبة للخط المانع فقد قام موريسون بإعادة رسم ذلك الخط مراعيّاً أن يكون بعيداً عن الساحل الفارسي وأصبح الخط الجديد يمتد على الجانب الغربي من شبه جزيرة مسندم إلى نقطة تبعد مسافة لا تتجاوز عشرة أميال جنوب جزيرة بوموسي، والأمر الذي لا شك فيه أن تعديل هذا الخط هو الذي سيساعد فارس على ضم جزيرة بوموسي وصيرى إلى سيطرتها إذ أنه أدى إلى خنق الملاحة العربية من مدخل الخليج وحصرها في مسافة أميال قليلة في عرض البحر. وما يذكر أن شيوخ الساحل قد أبدوا معارضة شديدة لتثبيت ذلك الخط وكان أبرز المعارضين الشيخ سلطان بن صقر الذي أكد بأن موافى خور فكان ودبا الواقعة على بحر عمان من توابعه وأن منع سفنه من القيام بالدوران حول رأس مسندم سيمنعها من الوصول إلى تلك المناطق وقد رفض موريسون احتجاج الشيخ سلطان وذكره بأن استيلاءه على خور فكان قد حدث نتيجة الاضطرابات التي وقعت في سلطنة مسقط في أواخر عام ١٨٣٤؛ وعلى أية حال فقد تجمد موضوع الخط المانع وذلك بعد أن وافق الشيوخ على عقد اتفاقية جديدة للهدنة للبحرية وقعت في ١٣ أبريل ١٨٣٦. ولا تختلف هذه الاتفاقية عن الاتفاقية السابقة في كثير من بنودها وإن كان قد اشترك في توقيعها بالإضافة إلى الزعماء الموقعين على الاتفاقية السابقة شيخ أم القوين الذي كان قد تعذر اشتراكه في التوقيع على الاتفاقية الأولى بسبب اعتراض شيخ رأس الخيمة الذي أصر على أن أم القوين تابعة له وأنه يوقع على الاتفاقية نيابة عنها. كذلك امتدت فترة الهدنة من ستة أشهر إلى ثمانية أشهر^(٢). وعند عودة هنيل إلى الساحل العماني

(١) عبد العزيز عبد الغني : بريطانيا وإمارات الساحل دراسة في العلاقات التعاقدية ص

٢٦٨ - ٢٧٠ (ط) البصرة ١٩٧٨ .

(٢) جون كلي : بريطانيا والخليج ص ١ ص ٦٢٧ - ٦٢٨ .

في ابريل ١٨٣٨ للعمل على تجديد الاتفاقية لثمانية أشهر أخرى وجد الشيوخ متلهفين إلى ذلك بعد أن تحسنت أوضاعهم الاقتصادية بسبب ذلك النظام وما ترتب عليه من إقرار الهدوء والنظام خاصة في مواسم الغوص . ولعل الشيخ سلطان بن صقر كان من أبرز المتحمسين لتجديد الاتفاقية حتى أنه أوفد مبعوثاً إلى الكولونيل هنيل يقترح عليه أن يقوم هو وزملاؤه الشيوخ بعقد اتفاقية فيما بينهم لإنهاء الصراعات البحرية بصفة دائمة وكان غرضه من ذلك ضمان سلامة السفن التابعة له والتي كانت تبحر إلى الهند خلال موسم الرياح الموسمية ولا تتمكن من العودة قبل انتهاء صلاحية الاتفاقية ولكن هنيل أشار على الشيخ سلطان بأنه إذا كان حرصه على سفن القواسم وضمن عودتها من الهند كل عام فيمكن تبديد تلك المخاوف بتحديد صلاحية الاتفاقية من ثمانية أشهر إلى عام كامل ووافق الشيخ سلطان على هذا الاقتراح على الفور وتم الحصول على موافقة بقية الشيوخ ووقعت اتفاقية الهدنة لمدة سنة كاملة في ابريل ١٨٣٨^(١) ومنذ ذلك الوقت كان يتم تجديدها في كل عام حتى عام ١٨٤٣ حين استبدلت بعشر سنوات انتهت في عام ١٨٥٣ بتوقيع اتفاقية الهدنة الدائمة Porpetnal Truce وهي التي أعطت التسمية الجديدة لذلك الساحل الذي عرف بالساحل المتصالح أو ساحل الصلح البحري^(٢).

والأمر الذي لا شك فيه أن نظام الهدنة البحرية أثبت نجاحه في إشاعة الأمن في مياه الخليج كما أنه أدى إلى إتاحة الفرصة للسيطرة البريطانية بحكم ما أتاحه لها ذلك النظام من التحقيق في الحوادث المخالفة لذلك النظام وفرض ما تراه من عقوبات ولعل تطبيق نظام الهدنة البحرية هو الذي حال دون انفصال القبيسات

(١) كلى : مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٦٢٤-٦٢٥ .

Bombay Govt. op. cit. vol. XXIV P. 86 FF. See also (٢)
Aitchison, op. cit. vol. X pp. 133—134 Calcutta 1892.

عن أبو ظبي ففي عام ١٨٣٥ اتجه القبيسات إلى العديد في الوقت الذي عارضت فيه بريطانيا أن يتم انفصال القبيسات عن بني ياس إذ أن التكوين القبلي الصغير للقبيسات لا يمكنهم من تكوين إمارة مستقلة تستطيع الحفاظ على كيائها كما أن عدم تدخل بريطانيا للمحافظة على تكامل إمارة أبو ظبي سيفقد ثقله بقيّة المشيخات بها علاوة على تشجيع القبائل الأخرى على الاستقلال في إمارات صغيرة مبعثرة قد تشكل عبئاً على بريطانيا كما يصعب مراقبتها . ومن ثم استطاعت قوات أبو ظبي من بني ياس والمناصير محاصرة خور العديد حيث قام الشيخ خليفه بن شخبوط بهجوم كبير دمر به المستوطنة التي أوجدها القبيسات واستسلم الشيخ خادم بن نهيمان زعيم القبيسات وتمت مصالحة بين الطرفين تعهد فيها القبيسات بعدم الانشقاق ثانية عن أبو ظبي وهو تعهد لم يلتزموا به إذ سيحدث الانشقاق مرة أخرى على أثر تقسّم العثمانيين إلى الإحساء وقطر مما أغرى القبيسات على الاحتماء بهم^(١) ، ومع ذلك فقد كانت أكثر الحوادث شيوعاً عندما كان يحاول بعض العاملين في الغوص الحرب من المشيخة التي يعملون فيها إلى مشيخة أخرى من غير رد السلف أو التسليم الذي كانوا يتحصلون عليه في بداية مواسم الغوص ، كما كانت الحوادث تقع أيضاً عندما كان ينتهز أحد شيوخ الساحل فرصة خلوه إحدى المشيخات من سكانها خلال موسم الغوص فيشن هجوماً على تلك المشيخة ، وتلافياً لتلك الأحداث التي لم تكن في صالح التجارة والأمن البحري . كان الاتجاه إلى وضع اتفاقية جديدة لمدة أطول على أساس النجاح الذي حققته اتفاقيات الهدنة السابقة^(٢) غير أن هناك من كان يعتقد أن اتفاقية طويلة المدى قد تشكل عبئاً على القواصم الذين تعتمد قوتهم العسكرية على إمكاناتهم البحرية على عكس بني ياس الذين تعتمد قوتهم العسكرية على إمكاناتهم البرية فبمقتضى اتفاقيات الهدنة البحرية كان

(١) انظر مشكلة القبيسات في : جماله زكريا قاسم - الخليج العربي العربي دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٨٤٠ - ١٩١٤ - جامعة عين شمس ١٩٦٦ ص ٢١١ - ٢١٨ .

Bombay Govt., op, cit. vol. XXIV P. 71 FF.

(٢)

يحق لحاكم أبو ظبي اعلان الحرب على القواسم الذين يشكلون قوة برية عسكرية أضعف من قوته بينما لا يحق للقواسم الذين يتفوقون عليه في القوة العسكرية البحرية أن يشنوا هجوماً بحرياً ضد بني ياس ولذلك أوفد الكولونيل هنل في مارس ١٨٤٢ مساعده العسكري الليفتنانت كمبال **Kemball** إلى شيوخ الساحل للتأكد عما إذا كانوا يرغبون في عقد مهادنة لمدة أطول وقد أبدى جميع الشيوخ رغبتهم في مد الهدنة لمدة عشر سنوات ووقعت الهدنة الجديدة في يونيو ١٨٤٣ بحضور الكولونيل هنيل وبموجب نصوصها تعهد شيوخ المنطقة بمراعاة شروط الهدنة في الخايج لمدة عشر سنوات من تاريخ توقيعها كما تعهدوا بالنظر في ابرام اتفاقية دائمة بعد انتهاء صلاحية تلك الاتفاقية في عام ١٨٥٣ وتعهد الشيوخ بدفع تعويضات عن أية أضرار تنجم عن أعمال يرتكبها رعاياهم في البحر ضد أى طرف آخر يكون مشتركاً في توقيع تلك الاتفاقية وكذلك الامتناع عن القيام بأية أعمال انتقامية ضد بعضهم البعض وباحالة أية مخالفة أو اعتداء إلى الحكومة البريطانية لكي تتولى الفصل فيها باعتبارها الطرف الضامن للاتفاقية . والجدير بالذكر أن الحكومة البريطانية كانت حريصة على أن يظهر نظام الهدنة كما لو كان برغبة الشيوخ أنفسهم وليس مفروضاً عليهم بفعل الضغط البريطاني إذ أن دياجاة الاتفاقية الجديدة كانت تنص على أن الشيوخ قد أقرروا هذا النظام بعد أن تيقنوا من فوائده الجلية وخاصة بالنسبة لمواسم الغوص التي أصبحت هي العماد الوحيد لثروة المشيخات بعد أن فقدت قوتها البحرية على أثر تفوق النفوذ البريطاني وخاصة بعد استخدام البخار في الملاحة مما كان له أثر في تدهور اقتصادها وصارت بحاجة ماسة إلى المساعدات البريطانية وهو الأمر الذي استغلته بريطانيا لكي تزيد من نفوذها في المنطقة^(١). ولعل مما يسترعى الانتباه أن نظام الهدنة البحرية قد أثبت مقدرته على تثبيت النفوذ البريطاني أكثر مما حققته معاهدة ١٨٢٠

(١) جمال زكريا قاسم : الأسس التاريخية لوحدة الإمارات ودور الاستعمار في تجزئتها - ندوة تجربة دولة الامارات العربية المتحدة - بيروت مارس ١٩٨١ .

إذ أن إتفاقيات الهدنة كانت تهدف أساساً إلى قمع النشاط البحري بالقضاء على أسباب ذلك النشاط بتحريم الحروب البحرية^(١)، بينما كانت معاهدة ١٨٢٠ تهدف إلى القضاء على النشاط البحري عن طريق فرض العقوبات على ممارسة ذلك النشاط. والأمر الذي لا شك فيه أن نجاح نظام الهدنة البحرية كان يرتبط إلى حد كبير بفاعلية الرقابة البحرية فعلى حين كان الأمر قبل توقيع إتفاقية الهدنة في عام ١٨٣٥ يقضى بإرغام الشيوخ على دفع تعويضات عن الاعتداءات التي يفترونها رعاياهم في البحر فإنه بعد توقيع إتفاقيات الهدنة البحرية كان الشيوخ أنفسهم طبقاً لنصوص الإتفاقيات هم الذين يفرضون العقوبات على مرتكبي تلك الاعتداءات من رعاياهم حتى قبل أن يعلم بها المقيم البريطاني. حقيقة أنه قد جرت العادة قبل توقيع إتفاقيات الهدنة وفي ظل المعاهدة العامة في عام ١٨٢٠ أن يقوم المقيم البريطاني بجولة على السواحل الغربية للخليج في فصل الربيع من كل عام إلا أنه اعتباراً من عام ١٨٣٦ أى بعد توقيع أولى إتفاقيات الهدنة في عام ١٨٣٥ أصبح الغرض من جولة المقيم في المنطقة هو العمل على تجديد إتفاقية الهدنة وفي الحالات التي كان يحتمل أن يدب فيها الصراع أو الخلاف بين المشتركين في توقيع الإتفاقية فإن المقيم البريطاني كان يصطحب معه في جولته بعض قطع من الأسطول البريطاني لحل الخلافات بين الشيوخ وأحياناً كان المقيم البريطاني يقوم بالتدخل بين الشيوخ وإن كان هذا التدخل لا يتمدى مجال الوساطة لأن حكومة الهند كانت تحرص على عدم توريط نفسها ولو من الناحية النظرية على الأقل في الخلافات الداخلية للشيوخ.

وكان المقيم البريطاني يستقبل ضيوفه من شيوخ الساحل على ظهر الطراد الخاص به حتى لاثير حرجاً فيما لو زار أحد الشيوخ ولم يقيم بزيارة شيخ

Aitchison, C. U

(١)

A Collection of Treaties, Engagements and Sands relating to India and Neighbouring Countries vol. X p. 132 ff

آخر وفي كل الجولات كان المقيم حسب التقاليد يأخذ معه بعض الهدايا في الوقت الذي كانت فيه الخزانة البريطانية في بوشهر تمتلأ بالآلاف الريالات التي حصلت من الشيوخ - كما يذكر تقرير بادجر - بمثابة غرامات لانتفه الأسباب (١) :

ومما تجدر الإشارة إليه أن استتباب الأمن في الخليج نتيجة فرض نظام الهدنة أدى إلى تقدم إعماليات المسح البحري حيث قام فريق من ضباط بحرية بومباي بعمل دؤوب استمر ثلاث سنوات بين عامي ١٨٣٥ و ١٨٣٨ ، من أجل إعداد الخرائط من النوع الذي يرشد السفن . كما ظلت حكومة الهند تكثف مراقبتها البحرية لضمان نجاح نظام الهدنة وذلك بالإكثار من الدوريات البحرية ، يضاف إلى ذلك استخدام الملاحة البخارية في منطقة الخليج حيث عبرت أول سفينة من ذلك النوع مياه الخليج في عام ١٨٣٨ وهي السفينة هيج لندسي وقد مرت هذه السفينة بالساحل العماني حيث أحدثت أثراً مدهلاً بين أهالي المنطقة بسبب منظرها غير المألوف وحمولتها الضخمة ومدافعها الثقيلة . ولعل ذلك كان مؤشراً لتفوق النفوذ البريطاني وعاملاً مهماً لعقد اتفاقية العشر سنوات التي وقعت بين الشيوخ في عام ١٨٤٣ وكان الدافع إليها هو الأثر الذي نتج عن ظهور القوات المصرية وما أحدث من علاقات بين القادة المصريين وبعض أمراء الساحل كما كان الغرض من هذه الاتفاقية أيضاً تعويض الانسحاب البريطاني من جزيرة خرج في عام ١٨٤٢ ، وإن كانت المصادر البريطانية أرجعها إلى منع القرصنة (٢) . وعلى الرغم من توقيع هذه الاتفاقية ، ثم اتفاقية الهدنة الدائمة في عام ١٨٥٣ فإن ذلك لم يمنع من قيام بعض الحوادث التي كانت تؤثر

(١) من جورج بادجر إلى حكومة بومباي عن الوثائق السعودية الخاصة بمشكلة البريمي المجلد الثاني - الوثائق ص ص ٢١١ - ٢١٤ . نقلاً عن أوراق بادجر .

(٢) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج ج ٢ ص ١٠٦٢ .

في أمن الخليج والتي كانت تتلخص في هرب بعض الغواصين أو سواهم من العاملين في صيد اللؤلؤ ممن كانوا كما سبق أن أشرنا مدينين لشيخ من الشيوخ فارين من مشيخته إلى مشيخة أخرى ، وكانت هذه الحوادث تأخذ شكل محاولة القبض على الفارين ، ومن ثم بذلت الحكومة البريطانية جهودا كبيرة لإقناع الشيوخ بالاتفاق حول هذا الموضوع ولكنهم فشلوا في ذلك بسبب التقاليد العربية التي تمنع تسليم من يلجأ إلى الشيخ أو يحتوى به من تسليمه .
مهما كانت الأسباب ولم تحل هذه المشكلة إلا في عام ١٨٧٩ حين وقع الشيوخ اتفاقية فيما بينهم لتسليم الفارين وتعتبر هذه الاتفاقية أول بداية لعمل موحد بين المشيخات العربية (١) .

Zahlan, Rose Marie, Unity and British Rule—A case (١)
of United Arab Emirates :

بحث منشور في أعمال ندوة تجربة الامارات العربية المتحدة - مركز دراسات الوحدة
العربية - بيروت مارس ١٩٨١ .

الفصل العاشر

المنظمات السياسية القبلية في الساحل الشمالي من الخليج العربي

بنو خالد في الاحساء - الصراع بين بني خالد
والسعوديين - انهيار نفوذ بني خالد - هجرة العتوب من
أواسط الجزيرة العربية إلى سواحل الخليج ، الأسرات
المكونة لاتحاد العتوب آل صباح ، آل خليفة ، الجلاهمة
- هجرة آل خليفة إلى الزبارة وسيطرتهم على البحرين
١٧٨٣ - رحمة بن جابر الجلاهمة - تأسيس بني كعب لإمارة
الخمرة وأثرهم في العلاقات بين فارس والدولة العثمانية -
المنظمات العربية وأثرها في تأكيد الشخصية العربية للخليج .



الفصل العاشر

التنظيمات السياسية والقبلية في الساحل الشمالى من الخليج العربى

شملت التنظيمات السياسية والقبلية في الساحل الشمالى من الخليج العربى المناطق الواقعة بين شط العرب شمالا وشبه جزيرة قطر جنوبا . وفى هذه المناطق استقرت بعض الأسرات الحاكمة التى انفضى حكمها أو لا يزال بعضها قائما بالحكم حتى وقتنا الحاضر .

وأول استقرار سياسى منظم يمكن إرجاعه إلى بنى جبر فى منطقة الاحساء والمناطق المجاورة لها وذلك بعد نجاحهم فى تحقيق استقلالهم عن مملكة هرمز منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى . وعلى الرغم من التفوق والسطوة التى أحرزها بنو جبر حتى وصل نفوذهم إلى عمان والبحرين إلا أن التنافس الداخلى بين زعامات تلك الأسرة وخاصة بعد مقتل أبرز زعمائها مقرر بن زامل على أيدى البرتغاليين فى عام ١٥٢١ كان عاملا مؤثرا فى تفكك زعامتهم وانهايار حكمهم وحدث ذلك فى عام ١٥٢٥ حين تمكن راشد بن مغامس زعيم المنتفق من آل فضل من السيطرة على الاحساء والقطيف . واستمر آل فضل يحكمون تلك المناطق قرابة خمسة وعشرين عاما ١٥٢٥ - ١٥٥١^(١) حتى تنجح العثمانيون فى انتزاع الاحساء منهم بعد سيطرتهم على البصرة^(٢) . وخلف العثمانيون فى حكم الاحساء أسرة بنى

(١) عبد اللطيف حميدان : نفوذ الجبور فى شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية ١٨٧١/١٥٢١ العدد ١٧ مجلة كلية الآداب جامعة البصرة .

(٢) مصطفى عبد القادر النجار : التاريخ السياسى لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربى فى

خالد التي وصلت إلى الزعامة الفعلية على المنطقة منذ بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر وبلغ ذروة نفوذها في النصف الأول من القرن الثامن عشر حتى بداية اصطدامها بالسعوديين منذ النصف الثاني من ذلك القرن^(١).

وتشكل الاحساء واحة كبيرة تمتد بضعة أميال إلى الداخل وتشمل واحة القطيف وكذلك مدينة الهفوف التي تعد المدينة الرئيسية التي تقع في قلب هذه الواحة^(٢). وسكان الاحساء القداى خليط من قبائل عربية متعددة يرجع معظمها إلى بنى عبد القيس وبكر بن وائل وتيم ثم وفدت عليها قبائل أخرى كان أبرزها العجمان وآل مرة والعوازم والرواشد وبنو هاجر وبنو خالد^(٣) وتعتبر قبيلة بنى خالد من القبائل القديمة في منطقة الخليج وكانت تتكون من مجموعة من الأفخاذ والعشائر التي تضرب في المناطق الواقعة بين الكويت شمالا إلى عمان جنوبا ويبرز من تلك الأفخاذ والعشائر العماير والصبيح وبنو فهد والمقدام والحاشر والجبور وآل حميد ومنهم آل عريع^(٤)، الذين سيطروا على زعامة بنى خالد ووصلوا إلى السلطة السياسية حين استقر تنظيم بنى خالد في الاحساء. ولم تكن الاحساء هي الرقعة الوحيدة التي سيطر عليها بنو خالد بل وصلت سيطرتهم إلى القطيف والعقير ومن هذين الميناءين كانت تأتي القوافل إلى نجد حاملة معها تجارة الهند^(٥).

وقد تتابع على حكم الاحساء كل من العيونيين والجبور وآل مغامس ثم جاء البرتغاليون وظلوا يحتلونها حتى تمكن الأتراك العثمانيون من طردهم منها في عام ١٥٥١ ولكن فترة حكم العثمانيين للاحساء لم تستمر طويلا إذ ثارت عليهم قبيلة بنى خالد بقيادة زعيمها براك بن غرير وأعلن نفسه حاكما

(١) الحميدان : دراسة سبق ذكرها .

(٢) يانوت الحموي : معجم البلدان راجع المدن والواحات المذكورة .

(٣) مصطفى مراد الدباغ : الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الإسلام ج ١ بيروت ٦٣

(٤) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ١٥٤ وكذلك لمع الشهاب ص ١٥٧-١٥٨

(٥) أحمد مصطفى أبو حاكمية : تاريخ الكويت ج ١ القسم الأول ص ٧٦-٧٧ .

انظر أيضا لمع الشهاب ص ١٥٣-١٥٦ لتعرف على المناطق الساحلية التي كان

يسكنها بنو خالد بعشائريهم .

على الاحساء والقطيف في عام ١٦٧٠ واستطاع إخوته وأبنائه من بعده أن يدعوا هذا التنظيم السياسي الذي أسسه براك في تلك البقاع^(١). وكان ممساعدا براك بن غرير في الاستيلاء على الاحساء أن حكم العثمانيين كان واهيا إذ لم تكن الدولة العثمانية تهتم بسنجد الاحساء لقلة الدخل المتحصل منه وتمرد القبائل العربية ضد العثمانيين^(٢)، وبالإضافة إلى ذلك فقد ساعد براك على الاستقلال أوضاع الدولة العثمانية المتأزمة إذ كان نفوذها قد انحسر من اليمن وظهرت العديد من المشكلات بين والى البصرة وباشا بغداد وامتدت تلك المشكلات إلى الاحساء واستغل براك الموقف لصالحه وأجبر الحامية العثمانية على مغادرة البلاد وقد وجد براك مساعدة من قبائل العتوب في السيطرة على القطيف كما تذكر بعض المصادر أن جبور الاحساء والقطيف هم الذين ساعدوا براك بن غرير في انتزاع الاحساء والقطيف من الحكم العثمانيين في البصرة^(٣).

وعلى الرغم من أن قبيلة بني خالد لم تصل إلى الحكم إلا في أعقاب التخلص من السيطرة العثمانية على الاحساء في أواخر القرن السابع عشر إلا أن ذلك لا يعنى أن قبيلة بني خالد لم يكن لها نفوذ في الاحساء قبل هذه الفترة المشار إليها إذ تجمع كثير من المصادر التي أمكن الرجوع إليها على أن هذه القبيلة ظهرت إلى مجال التفوق منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي ثم نمت في شبه تنظيم سياسي خلال سنوات القرن السابع عشر وأخذت تتمتع بدرجة كبيرة من القوة والنفوذ وخاصة أن انتشارها في مقاطعات الاحساء والقطيف مكن لها قدرا كبيرا من الثروة نتيجة لما تشتهر به الاحساء من واحات خصيبة وكان مما يضيف إلى رخائها الزراعي انتعاشها التجاري إذ أن موانى الاحساء كانت تعد بدايات صالحة لانطلاق القوافل التجارية إلى

(١) أحمد مصطفى أبو حاكم : تاريخ الكويت ج ١ ص ٧٥ .

(٢) على عبد الرحمن أبا حسين : تاريخ البحرين من خلال المخطوطات والوثائق ص ٢٥٩ - ٢٦٠ - من أعمال الحلقة الرابعة لمراكز دراسات الخليج والجزيرة العربية - أبو ظبي - نوفمبر ١٩٧٩ .

(٣) عبد اللطيف الحميدان : بحث سبق ذكره لمجلة كلية الآداب - جامعة البصرة العدد

نجد وأواسط الجزيرة العربية^(١). ولا شك أن هذا الرخاء الاقتصادي هو الذي مكّن بنو خالد من السيطرة السياسية.

ويشكل بنو خالد أحد أربع قبائل رئيسية في المنطقة أما الباقون فهم بنو هاجر والعجمان وآل مرة وجميعها قبائل بدوية . ومن حيث التكوين القبلي لبني خالد فهم ينقسمون إلى شطرين قسم استقر في المدن والقرى وقسم آخر فضل حياة البادية ^(٢) . وعلى أثر طرد العثمانيين من الاحساء أصبحت قبيلة بني خالد هي القبيلة المتنفذة ولم يعد للوجود العثماني في الاحساء بعد وصول بني خالد إلى الحكم أية آثار واضحة ولم يزد الأمر عن بعض عائلات من أصل تركي تم انقراضها خلال سنوات القرن الثامن عشر . وتمتعت قبيلة بني خالد بتفوقها خلال العقود الخمسة الأولى من القرن الثامن عشر حتى أن سلطانها كان يمتد من قطر جنوباً حتى الكويت شمالاً أي أن جميع سواحل الخليج من قطر إلى البصرة كانت تقسّم ضمن نفوذ شيوخ بني خالد كما كانت هناك بعض القبائل التابعة لبني خالد تنزل في منطقة الساحل العماني ^(٣) . وعلى الرغم من ذلك فإن معلوماتنا عن بني خالد لاتزال معلومات قليلة في جملتها . ومما تجدر الإشارة إليه أن الرحالة كارستن نيبور وهو من طليعة الرواد الأوروبيين الذي فتح الجزيرة العربية للارتياح الأوروبي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر قد زار الهفوف قاعدة الاحساء ووصفها بأنها مدينة كبيرة مزدهرة كما ذكر عن بني خالد بأنهم أقوى القبائل العربية التي تقطن الساحل الشمالي من الخليج وكان سلطانهم يمتد إلى أواسط الجزيرة العربية ^(٤) . ولما كانت هذه القبيلة تنتشر

- (١) جاكولين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ص ١٦٥ .
انظر أيضا جمال زكريا قاسم : موقف الكويت من التوسع السعودي في نجد وسواحل
الاحساء ص ٩٣ - مجلة الجمعية المصرية التاريخية العدد ١٧ / ١٩٧١ .
(٢) أبوحاكمة : تاريخ الكويت ج ١ ص ٧٧ .
(٣) السالمى : تحفة الأعيان بسيرة آل عمان ج ١ ص ١١ - ١٢ وكذلك لمع الشباب
ص ص ١٥٧ - ١٥٨ .

Neibuhr, Carsten, Travels through Arabia and other (t) countries in the East Translated by Robert Herene vol. II P. 126 Edinburgh, 1792.

انتشارا كبيرا في الصحراء فقد أتاح لها ذلك فرصة السيطرة على طرق القوافل التي كانت تمتد بين نجد والعراق^(١). ومما تجدر الإشارة إليه أن قبيلة بنى خالد يرد ذكرها في العديد من رسائل وتقارير ممثلى شركة الهند الشرقية البريطانية في الخليج خلال القرن الثامن عشر إلا أننا مع ذلك لانجد تفصيلات كثيرة عن حكمهم للاحساء أما المؤرخان الوهابيان حسين بن غنام وعثمان بن بشر فقد أفاضوا بالحديث عن بنى خالد وخاصة فيما يتعلق بالصراع الذى قام بينهم وبين السعوديين وبطبيعة الحال كانت نظرة هذين المؤرخين الوهابيين لبنى خالد باعتبار كونهم من المشركين الذين يجب إخضاعهم لدعوة التوحيد^(٢).

وقبل أن نعرض لمراحل العلاقات بين بنى خالد والوهابيين والتي انتهت بزوال حكمهم من الاحساء مع نهاية القرن الثامن عشر ينبغى الإشارة هنا إلى أن العلاقات بين بنى خالد والقوى الجبارة لهم لم تقتصر على العلاقات التي قامت بينهم وبين السعوديين وإنما كانت لهم علاقات مع العتوب في قطر والكويت والبحرين وذلك منذ بداية استقرار العتوب في الكويت في أوائل القرن الثامن عشر بل ويعزى إلى بنى خالد بناء الحصن أو الكوت الذى أخذت الكويت اسمها منه ، وفي شسبه جزيرة قطر حيث يختلط التركيب القبلى بين النعيم والمعاودة والبوعيين والسودان والدواسر والهوية وآل مسلم استطاع بنوخالد أن يصلوا إلى السيطرة على بعض هذه القبائل وخاصة قبيلة آل مسلم كما كان بنوخالد هم الذين يقدمون حمايتهم لفرعى العتوب آل صباح وآل خليفة حينما أسس الآخرون مدينة الزبارة في شبه جزيرة قطر في عام ١٧٦٦ التى اتخذوها مقرا لحكمهم قبل أن يصلوا إلى الاستيلاء على البحرين في عام ١٧٨٣ . ولاشك أن حكم بنى خالد بما تميز به من بسط الأمن أعطى للامارات التى نشأت بجوارهم فرصة كبيرة

(١) جاكين بيرين : مرجع سبق ذكره ص ١٦٥ .

(٢) أبو حاكمية : مرجع سبق ذكره ص ١٠ - ٢١١ - ٢١٢ .

للنمر والازدهار . ولعل مما يسترعى الانتباه أيضا أن نفوذ بني خالد امتد إلى بعض مناطق نجد إذ تؤكد كثير من المصادر أن سكان نجد قبل قيام الدولة السعودية كانوا يعترفون بأن شيخ بني خالد هو أقوى جيرانهم وكانوا يسعون إلى إرضائه بالهدايا وإذا امتنع بعض زعماء القبائل النجدية عن تقديم ولائهم لشيخ بني خالد كان يقسوم بغزو مقاطعاتهم ويعود محملا بالغنائم . وعند بدء قيام الدعوة الوهابية طلب بعض زعماء نجد من شيخ بني خالد أن يأمر أمير العينية بإيقاف نشاط الشيخ محمد بن عبد الوهاب وقد نجح سليمان بن محمد بن براك في تهديد الشيخ ابن عمر أمير العينية بأنه سيمنع عنه ريع نخيله في الاحساء إذا استمر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في بلاده ولعل ذلك يفسر لنا السبب في مغادرة الشيخ العينية إلى الدرعية وهناك آزره أميرها محمد بن سعود في عام ١٧٤٥ وفيما يبدو أن هذه الحادثة كانت سببا لمناصبة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود وأبنائه من بعده العداء لشيوخ بني خالد وهو العداء الذي أدى في النهاية إلى سقوط حكمهم في الاحساء . ويفهم من ذلك أن النشاط الديني المعارض لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد لم ينجح في إيقاف تلك الدعوة ولذلك اتجه المعارضون إلى استخدام سلاح السياسة وكان أنسب زعيم يمكن أن يستفيدوا منه آنذاك هو حاكم الاحساء لما بينه وبين زعماء العينية من صلات ولما له من مكانة لدى أميرها ويظهر أن المعارضين قد أوضاعوا لسليمان بن محمد حاكم الاحساء أن من واجبه أن يتدخل للقضاء على حركة الشيخ قبل أن يستفحل أمرها وأن ما ينادى به الشيخ يعنى ثورة العامة على حكمهم (١) . وقد وقع الصدام الأول بين الوهابيين وبني خالد خلال حكم الشيخ سليمان بن محمد ومما تجدر الإشارة إليه أنه خلال الفترة من ١٧٤٥ - ١٧٨٥ اتخذ الوهابيون من شيوخ بني خالد موقف الدفاع ثم تحولوا بعد ذلك إلى موقف الهجوم حين بدأت غزواتهم تتوالى على

(١) عبد الله الصالح العثيمين : العلاقة بين حكام الاحساء وحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من أعمال ندوة تاريخ شرق الجزيرة العربية الدوحة ١٩٧٦ ج ٢ ص ٧٤٠ - ٧٤١ . انظر بصد ذلك أيضا عثمان بن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ج ١ ص ١٠ حيث يورد ما أقدم عليه شيوخ بني خالد من قطع خراج الاحساء عن نجد .

أرض الاحساء واشتدت هجماتهم في عام ١٧٩٣ ولم يمض أكثر من عامين حتى تمّ للوهابيين القضاء على نفوذهم^(١).

يفهم من ذلك أن الصراع بين الوهابيين وبنى خالد على الرغم من أنه بدأ منذ منتصف القرن الثامن عشر إلا أنه لم يتضح إلا في السنوات الأخيرة من ذلك القرن وعلى أية حال فيمكننا أن نميز بين مراحل ثلاث لتحديد سمة العلاقات بين الوهابيين وبنى خالد، فالمرحلة الأولى كان يقوم فيها الوهابيون بالمناوشات بهدف إزهاق بنى خالد والقبائل الموالية لهم والمرحلة الثانية وفيها حاول الوهابيون رمي زعماء بنى خالد بعضهم البعض الآخر والتدخل في شؤونهم الداخلية، أما المرحلة الأخيرة فتتميز بفتح الوهابيين للاحساء في عام ١٧٩٥ على نحو ما سبقت الإشارة إليه حيث تمكن عبدالعزيز بن سعود أن يعين حاكماً على الاحساء لا ينتمي إلى أسرة بنى خالد وترك معه جماعة من العلماء للوعظ والإرشاد. كما أمر بتدمير ما وجدته في الاحساء من أضرحة وقبور^(٢) ولا شك أن فتح السعوديين للاحساء أفادهم فائدة كبيرة من حيث توسعهم في نشر الدعوة الوهابية رغم الصعوبات العديدة التي واجهوها في الاحساء بسبب أن معظم سكان مدنها لا سيما القطيف كانوا من الشيعة، كذلك حقق السعوديون الكثير من المغنم الاقتصادية بسبب ما تشتهر به الاحساء من نشاطات تجارية وزراعية كما اتخذ السعوديون من الاحساء قاعدة مكنتهم من التوسع في إمارات الخليج المجاورة لهم^(٣). ولعل مما يسترعى الانتباه أنه على الرغم من أن حكم بنى خالد قد انتهى بسيطرة السعوديين على الاحساء إلا أن بنى خالد

(١) عثمان بن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ج ١ ص ١٠٠-١٠٢ الذي حدد عام ١٢٥٤ هـ وتولية براك بن عبد المحسن نائباً للسعوديين نهاية لزوال ولاية آل حميد، وكذلك لمع الشهاب ص ٦٧ وما بعدها. حيث أورد المؤلف فصلاً في ذكر تسخير آل سعود ملك بنى خالد.

(٢) محمد مرسى عبد الله : إمارات الساحل وثمان والدولة السعودية ص ١٢٩-١٣٠.

(٣) أبو حاكم : تاريخ الكويت ج ١ القسم الأول ص ٢٣٤-٢٣٥.

نجحوا في استعادة سلطتهم من جديد وذلك حين تقدمت القوات المصرية التركية إلى سواحل الاحساء بعد قضائها على الدولة السعودية الأولى في عام ١٨١٨، وحاول محمد علي أن يعيد حكم الاحساء إلى شيوخ بني خالد ومن المعروف أن سياسة محمد علي كانت تتجه إلى إعادة المناطق التي استولى عليها إلى حكمائها المحليين، وقبل انسحاب ابراهيم باشا من الاحساء في عام ١٨١٩ كان قد أعاد الحكم إلى شيوخ بني خالد ومنح رحمة بن جابر الجلاهمة مقراً في الدمام وساعد سلطان بن صقر على استرداد حكمه في الشارقة وتمكن بنو خالد نتيجة تلك الترتيبات التي وضعها ابراهيم باشا أن يحتفظوا بسلطتهم السياسية في الاحساء لبضع سنوات غير أن الأمير خالد بن سعود بعد أن اعترف بولائه لمحمد علي وقبل دفع الجزية إلى القاهرة لم يلبث أن اشتبك في صراع عنيف ضد بني خالد وتمكن في عام ١٨٣٠ أن يوقع الهزيمة بهم ويضم الاحساء إلى حكمه في عام ١٨٣٤ وحين عادت القوات المصرية التركية لاحتلال نجد والاحساء للمرة الثانية ١٨٣٨/١٨٤٠ بعد نفي الأمير فيصل بن تركي إلى القاهرة أتيحت الفرصة لعودة بني خالد إلى حكم الاحساء ولكن ذلك لم يستمر لفترة طويلة إذ انسحبت القوات المصرية من الاحساء ونجد في عام ١٨٤٠ وقفز إلى الحكم عبد الله بن ثنيان ١٨٤٠-١٨٤٢ الذي استرد الاحساء وعمل على التخلص من نفوذ بني خالد هناك. حقيقة أن الدولة العثمانية قد حاولت بعد سيطرتها على الاحساء في عام ١٨٧١ أن تعيد الحكم إلى أسرة بني خالد إلا أن نفوذ هذه الأسرة زال نهائياً بنجاح عيد العزيز بن سعود في استرداد الاحساء في عام ١٩١٣^(١).

تنظيمات العتوب :

وفي شمال الاحساء يسترعى انتباهنا التشكيلات السياسية التي أقامها العتوب في كل من الكويت وقطر والبحرين . والعتوب كانوا يشكلون حلفاً

(١) مجلة لغة العرب : نظرة في الاحساء ص ٣٦/٤٠ تموز ١٩١٣ .

كبيراً كان يضم إليه أفخاذاً كثيرة تنتمي لعدة قبائل هاجرت من مواطنها الأولى في نجد واستقرت على شواطئ الخليج وقد تحالفت هذه القبائل بعضها مع البعض الآخر وتصاهرت فيما بينها وهذه الظواهر مألوفة في تاريخ الجزيرة العربية . ويذكر عثمان بن سند البصري بصدد ذلك « والذي يظهر أن بني عتبة متباينو النسب ولكنهم تقاربوا فذهب بعضهم لبعض »^(١).

وتكاد تتفق كثير من المصادر التي رجعنا إليها على أن العتوب هاجروا من أواسط الجزيرة العربية إلى سواحل الخليج حول مستهل القرن الثامن عشر وعلى الرغم من أن العتوب كما سبق أن أشرنا متباينو النسب إلا أنهم يرجعون بأصولهم الأولى إلى قبيلة عنزة المعروفة في أواسط نجد . وإن كان السويدي يرجعهم إلى قبيلة بني رياح . وقد اشتهر من فروع العتوب أسرات ثلاث هي آل خليفسة وآل صباح والجلاهمة وإذا كانت الأسرتان الأوليتان لا تزالان تحكمان في البحرين والكويت حتى وقتنا الحاضر فإن الفرع الثالث للعتوب وهم الجلاهمة لم يتمكنوا من الوصول إلى شيء من السلطة أو النفوذ :

وتختلف المصادر فيما بينها حول تسميتهم بالعتوب فعلى حين ترى بعض المصادر أن العتوب أخذوا ذلك الاسم من إحدى القبائل الكبيرة التي انضمت إليهم ترى مصادر أخرى أنهم عرفوا بالعتوب بعد ارتحالهم من مواطن إقامتهم في نجد وعتبهم نحو الشمال . وإذا صح ذلك فإن التسمية هنا تكون مشتقة من الفعل عتب بمعنى انتقل أو ارتحل . ولا يقتصر تكوين العتوب على الأسر الثلاث التي أشرنا إليها وإنما ضم العتوب إليهم آل فاضل وبني وائل وتميم وقبيلة سليم التي يتفرع عنها آل بنعل ببطونهم وأفخاذهم . وطبقاً لما يذكره النهاني^(٢) أن آل خليفة هم الذين تزعموا هجرة العتوب

(١) على أبا حسين : من تاريخ العتوب خلال المخطوطات والوثائق ص ٢٤٧ من أعمال الحلقة الدراسية لمراكز دراسات الخليج العربي - أبوظي - نوفمبر ١٩٧٩ انظر أيضاً : عثمان بن سند البصري : سبائك المسجد في أخبار أحمد نجل رزق الله سمعد ص ١٨ بومباي ١٣١٥ هـ .

(٢) النهاني : الصحفة النهائية في تاريخ الجزيرة العربية - البحرين ص ١٩ .

من نجد ولكننا نرجح زعماء آل صباح خاصة إذا ما تأكد لدينا أن زعماء العتوب الأوائل اتفقوا لدى استقرارهم في الكويت على أن يتولى آل صباح شؤون الحكم .

ولا يكاد يعرف على وجه الدقة الأسباب التي أدت إلى نزوح العتوب من نجد إلى سواحل الخليج كما لا يزال هناك خلاف بين المصادر في تحديد الموطن الأصلي للعتوب فعلى الرغم من اتفاق معظم المصادر على نسبتهم إلى إقليم الهدار من مقاطعة الأفلاج في نجد ، نجد بعض المصادر الأخرى تنسبهم إلى نجران أو حمير كما لا يزال هناك خلاف على أسباب هجرتهم من بين المتبعين لهجرات القبائل في شبه الجزيرة العربية وإن كانت كثير من الروايات تتفق على أن سبب هجرتهم يعود إلى تلك الحصومات والمنازعات التي أخذوا يتعرضون لها في داخلية نجد بينهم وبين غيرهم من البطون وطبقاً لما يذكره المؤرخ الكويتي عبد العزيز الرشيد إن هناك إهانات لحقت بهم في نجد ولذلك ارتحلوا من بلادهم سعياً وراء الاستقرار والاستقلال وكان ذلك على أثر حدوث نزاع بينهم وبين أبناء عموماتهم من بطن جميلة من عنزة وعلى الرغم من أن العتوب نجحوا في التغلب على خصومهم وأخرجوهم من بلادهم إلا أن أولئك الخصوم لجأوا إلى قبيلة الدواسر حيث تم لهم التغلب على العتوب ونجحوا في إخراجهم من نجد^(١) . ولا يوجد لدينا تاريخ محدد لوصول العتوب إلى سواحل الخليج إلا أن بعض الباحثين استطاع أن يستدل من إحدى الوثائق التركية بأن العتوب كان لهم دور مع سكان البحرين وقطر قبيل مستهل القرن الثامن عشر^(٢) ، وهذا يعني أن استقرار العتوب في بعض مناطق الخليج قبل بداية ظهور التشكيلات السياسية التي أقاموها منذ النصف الأول من القرن الثامن عشر .

(١) عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) علي أبا حسين : مرجع سبق ذكره انظر نص وثيقة من والى البصرة إلى الصدر الأعظم مؤرخة في ٢١ رجب ١١١٣ هـ - ٢٣ ديسمبر ١٧٠١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠ من أرشيف رئاسة الوزراء العثماني - دفاتر المهمة رقم ١١١ ص ٧١٣ ترجمة خليل ساحلي وأحمد إغرانجة .

وعلى الرغم من الغموض الذى يكتنف تاريخ العتوب فى بدء هجرتهم إلا أن بعض المصادر تؤكد أن للعتوب استقروا فى بداية الأمر فى المناطق المجاورة للبحرين وبدأ الوالى الفارسى على البحرين مهدي قلى خان يخشى من قوتهم المتزايدة ومن ثم أغرى عرب الهولة الذين يسكنون الساحل الشرقى للخليج بالتعرض لهم ولذلك قرر العتوب مهاجمة البحرين واستطاعوا السيطرة عليها ، ولجأ مهدي خان إلى القلاع يتحصن بها ولكن عرب الهولة استطاعوا السيطرة على الموقف مما أجبر العتوب على مغادرة البحرين بعد أن فشلوا فى انتزاعها من أيدي الفرس . ومن البحرين اتجه العتوب إلى قطر واستقروا بها عدة سنوات تحت كنف حكامها من آل مسلم ولكن لم يلبث أن حل عليهم غضب حكامها الذين أوجسوا خيفة من أمرهم وخشوا استفحال شأنهم فأمرهم بمغادرة البلاد ولجى العتوب الطلب حيث أودعوا أموالهم والعزير لديهم فى سفن شراعية وساروا بها ضاربين عرض البحر ^(١) . أما عن آل مسلم فقد تحالفوا مع عرب الهولة وساروا خلفهم حيث أدركوهم فى رأس التنورة ، وفى ذلك المكان جرى قتال بين الفريقين كان النصر فيه للعتوب بيد أن هذا النصر لم يؤد إلى عودتهم إلى قطر أو البحرين وإنما سار العتوب إلى قبس ثم إلى المخراق ثم يعموا وجوههم صوب البصرة فى مائة وخمسين سفينة شراعية وهناك طلبوا من واليها مساعدتهم ضد الفرس والسماح لهم بسكنى أية منطقة تخضع لسلطة الدولة العثمانية وفيما يبدو أن والى البصرة قد اطمأن إليهم حتى أنه كتب إلى السلطان العثمانى رسالة يشرح فيها حالة العتوب وفيما يبدو أن موافقة السلطان العثمانى هى التى أقرتهم فى الكويت وكان ذلك فى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر ^(٢) ، وذلك طبقاً لما تؤكدته الكثير من المصادر التى تحدد

(١) عيد العزيز الرشيد - مرجع سبق ذكره ص ٣٣ .

(٢) عن الرويات المحلية المتعلقة باستقرار العتوب فى الكويت انظر :

Dickson, H.R., Kuwait and Her Neighbours pp. 26—28

London 1956.

(م ٢٤ - الخليج العربى)

عام ١٧١٦ باعتباره أقرب التواريخ لتحديد نزول جماعات العتوب إلى الكويت ، كما أن ذلك العام يحدد أيضاً بداية التنظيم الذي وضعه العتوب وذلك بعد تحالف الشيخ سلمان بن أحمد عن بني الصباح والشيخ جابر بن عتبة عن الجلاهمة والشيخ خليفة بن محمد عن آل خليفة^(١) . وكانت العوامل التي مكنت العتوب من الاستقرار في الكويت ترتبط إلى حد كبير بالضعف الذي تعرض له بني خالد التي كانت تمتد سيطرتهم إلى الكويت وذلك حين دب الشقاق والنزاع بين زعماء بني خالد إبان تلك الفترة التي نتحدث عنها . وما كاد العتوب يستقرون بالكويت حتى اتجهوا إلى تأمين مركزهم من قبل السلطات العثمانية في بغداد وتذكر بعض المصادر بصدد ذلك أنهم أوفدوا الشيخ صباح إلى الباشا العثماني في بغداد في عام ١٧١٧ لكي يوضح له أنهم فقراء نزحوا في طلب العيش ولا ييغون ضرراً بأحد فنجح في وفادته ومنحه باشا بغداد لقب قائم مقام في عام ١٧١٨^(٢) . وهكذا برزت أسرة آل صباح من بين تحالف العتوب باعتبارها الأسرة الحاكمة وبصدد ذلك تجمع الكثير من المصادر على أنه حدث اتفاق بين الزعامات المكونة لتحالف العتوب على أن يتولى آل صباح الحكم وآل خليفة التجارة والجلهمة العمل في البحر . ومع ذلك فإن اتحاد العتوب لم يكن مقدراً له الظهور إلا بعد أن تصاهر العتوب إلى عشائر أخرى وكانوا يهدفون بذلك إلى تنمية قوتهم وصد الهجمات القبلية التي كانوا كثيراً ما يتعرضون لها ، وعلى الرغم من أن قبيلة بني خالد كانت من أهم القبائل المتاخمة لنفوذ العتوب جنوباً إلا أنه من المؤكد أن هناك قبائل أخرى ناصبت

Bombay Govt., op. cit. CF. Historical Sketsh of (١)
the Uttoobee tribe of Arabs vol. XXIV pp. 362 SQ Bombay
1856.

(٢) عثمان بن سند البصري ، مصدر سبق ذكره ص ١٨ .

العتوب الهداء^(١) غير قبيلة بنى خالد التى عاش العتوب فى كنفها وفى وفاق معها .

على أنه لم يكذب يمشى أكثر من خمسين عاماً على قيام حلف العتوب حتى حدث أول انشقاق فيه وذلك بانفصال آل خليفة والتجائهم إلى الزبارة وهى ميناء يقع على ساحل قطر فى مواجهة الجزيرة الكبرى من جزر البحرين. ثم اتجه آل خليفة بعد ذلك إلى الاستيلاء على البحرين فى عام ١٧٨٣ حيث نجحوا فى تأسيس أسرتهم الحاكمة هناك . وعلى الرغم من أن انفصال آل خليفة عن آل صباح كان نتيجة لنزاع قام بينهم إلا أن عثمان بن سند البصرى يؤكد مع ذلك اشتراك عبد الله بن صباح مع خليفة بن محمد فى تعمير الزبارة وتسميتها بذلك الاسم^(٢) . ولعل أصبح الأقوال فى سبب انفصال آل خليفة عن آل صباح والجلالمة هو ما كانت تتعرض له الكويت من غارات قبائل بنى كعب ، وهى قبائل عربية تقطن منطقة عربستان منذ السنوات الأولى من القرن السابع عشر ، وعاشت هناك مستقلة عن كل من فارس والدولة العثمانية ومارست نشاطها البحرى ضد السفن التجارية العابرة فى الخليج كما مارست نشاطاً عدائياً ضد الكويت التى كانت مطعماً لشيوخ تلك القبيلة^(٣) . وتعال الكثير من المصادر أسباب انفصال آل خليفة عن آل صباح بأن تراكم الثروة فى الكويت جعل الفرع التجارى من اتحاد العتوب وهم آل خليفة يرغبون فى التحلل من تحالفهم القديم لكى ينفردوا بالغنى وتحصيل الثروة . واستطاع خليفة بن محمد بما جيل عليه من ذكاء أن يصور للفرعين الآخرين آل صباح والجلالمة مخايل الثراء الذى سيحدث إذا تم الانتقال إلى السواحل المحاذرة للبحرين حيث يكثر اللؤلؤ ولعل الفوائد المرتقبة دعتهم إلى أن يأذنوا لشيخ بنى خليفة

(١) لعل من أهم الدراسات التى وضعت عن تنظيم العتوب هى تلك الدراسة التى وضعها المستر فرانسيس واردن ونشرت فى مختارات حكومة بومباي :

CF. Bombay Govt. S.R.B.G. CF. The Uttoobee Tribe
of Arabs pp. 361—425.

(٢) عثمان بن سند - مصدر سبق ذكره ص ١٩ .

(٣) نفسه ص ص ١٨ - ١٩ .

مغادرة الكويت مع قسم كبير من قبيلته الذين انجهوا إلى الزبارة وتمكنوا من الاستقلال بها في عام ١٧٦٧ وذلك بعد نجاحهم في صد الهجمات التي تعرضوا لها من قبل آل مسلم^(١) ، فقد استطاع الشيخ محمد بن خليفة أن ينمي ثروته عن طريق إقراض الصيادين والغواصين في بداية موسم الغوص وكان يتحتم عليهم حسب التقاليد السائدة ألا يبيعوا انتاجهم لغيره وهكذا أتاح له التوسع في إقراض هؤلاء مصدراً كبيراً لتنمية ثروته عن طريق احتكار انتاجهم من اللؤلؤ والتحكم في بيعه وأخيراً تألف محمد بن خليفة مع أهالي الزبارة فأمره عليهم .

والأمر الذي لا شك فيه أن استقرار آل خليفة في الزبارة واستقلالهم بها كان له أثر كبير على العلاقات التي قامت بينهم وبين آل صباح والجلاهمة إذ قرر آل صباح المزاياء العديدة التي حصل عليها آل خليفة فرغبوا في الاقتداء بهم وذلك بالتخلص من قيود الحلف مع الجلاهمة فامتنعوا عن مقاسمتهم الوارد وفي النهاية قاموا بطردهم من الكويت وطلب الجلاهمة اللجوء إلى آل خليفة في الزبارة فرحبوا بهم وعينوا لكل شيخ من شيوخهم حسب منزلته دخلاً يكفيه . ولا شك أن ترحيب آل خليفة بالجلاهمة كان خطوة ذكية من قبل الشيخ محمد بن خليفة لأنه استعان بقوتهم البحرية في تحقيق الأغراض التوسعية التي كان ينشدها بضم جزائر البحرين إلى مركز حكمه في الزبارة ومن ثم رأى أن يستعين بالجلاهمة في تحقيق تلك الغاية والأمر الذي لا شك فيه أن الجلاهمة قدموا مساعدات فعالة لآل خليفة في السيطرة على البحرين^(٢) .

وقد يكون من المناسب أن نشير هنا إلى أن السبب الرئيسي في نجاح آل خليفة والجلاهمة في الاستيلاء على البحرين يرجع إلى احتلال الفرس للبصرة في عام ١٧٧٦ وكان ذلك على عهد كريم خان الزندي . وقد أدى

(١) خليفة النهائي : التحفة النهائية في تاريخ الجزيرة العربية - البحرين ص ١٢١ .

(٢) من هجرة الجلاهمة إلى الزبارة انظر :

Bombay Gov., op. cit. CF. Historical Sketch of the Uttoobee Tribe of Arabs (Bahrein) by Francis Warden P. 363.

ذلك الاحتلال إلى هجرة تجار البصرة الأثرياء إلى الزبارة مما كان سبباً في انتعاش آل خليفة اقتصادياً ثم أعقب ذلك مقتل كريم خان الزندي في عام ١٧٧٩ ووقعت الاضطرابات الداخلية في المقاطعات الفارسية^(١)، وعانت جزر البحرين من آثار تلك الاضطرابات التي ظهرت فيها مصطبغة بالناحية المذهبية ونعني بذلك بين مذهب السنة ومذهب الشيعة إذ كان يتزعم السنة الشيخ أحمد بن ماجد زعيم قرية البلاد القديم ويتزعم الشيعة الحاج مدن الحفصى وكانت السلطة معقودة له آنذاك الأمر الذي أثار عليه زعماء السنة فقررروا التخلص من سيطرة الشيعة التي كان زعمائها يتجهون إلى نيل التأييد من فارس ولذلك ما كادت فارس تتردى في تلك الاضطرابات الداخلية حتى تشجع زعماء السنة وقررروا التخلص من سيطرة الشيعة ولتحقيق غايتهم أرسلوا وفداً إلى الزبارة للاستعانة بآل خليفة ، وقد وفد هؤلاء يؤازرهم الجلاهمة بزعامه جابر بن عتبة وأبنائه الأربعة ومن بينهم رحمة ابن جابر ونجحوا في بسط الأمر والسيطرة على البحرين وعاقبت فارس مشكلاتها الداخلية عن التدخل في أمور البحرين^(٢). وهكذا يتميز عام ١٧٨٣ بوصول محمد بن خليفة إلى البحرين وضمها إلى قاعدة حكمه الرئيسية في الزبارة . ولم يابث بعد عدة سنوات أن نقل عاصمة حكمه من الزبارة إلى البحرين وكان ذلك في أوائل القرن التاسع عشر حين تغلبت القوات السعودية على الزبارة، ومن ثم أثر آل خليفة نقل عاصمتهم إلى جزيرة منفصلة عن البر حماية لها من الغزوات السعودية ومع ذلك فقد ظل آل خليفة يعتبرون الزبارة وغيرها من المناطق المطلّة على سواحل قطر من توابع البحرين^(٣).

وإذا كان آل خليفة قد استطاعوا أن ينالوا الكسب السياسي والعسكري

(١) Farrougby, Abbas, Bahrein Islands pp. 67—69.

(٢) يوسف الفلكي : قضية البحرين بين الماضي والحاضر ص ص ١٥ - ١٦ القاهرة

١٩٥٣ .

(٣) لا تزال مشكلة الزبارة بين قطر والبحرين قائمة حتى وقتنا الحاضر ولمزيد من

التفصيل يمكن الرجوع إلى :

El Bahrna (Hussain) : The Legal Status of the Arabian Gulf States P. 249 FF.

بمعاونة الجلاهمة لهم إلا أنهم ما لبثوا أن تنكروا لهم وفيما يبدو أن رحمة ابن جابر الذي انتقلت إليه زعامة الجلاهمة في ذلك الوقت لم يقنع بالمكافآت التي قدمها آل خليفة له ولا تبعاه ولذلك غادر الزبارة متجهاً إلى الرويس وهي بقعة قاحلة على مسافة قصيرة إلى الشرق من الزبارة كما أقام رحمة ابن جابر معقلاً آخر في دوحة حسن حيث لا يزال يوجد بها بقايا لحصن صغير يسمى بوكير الثعلب وهو اللقب الذي اشتهر به رحمة بن جابر وهو في أوج نفوذه . وقد وجه الجلاهمة همهم إلى تقوية أسطولهم البحري وبعدها لهم لآل خليفة غرسوا في نفوسهم الخوف وأورثوهم ظمأً متعطشاً للقضاء على الجلاهمة حتى أن آل خليفة أضافوا إلى جيشهم كل ما كانت تستطيع أرصدتهم استجاره من المرتزقة وذلك لمواجهة الجهود التي بذلها رحمة بن جابر الذي قام بسلسلة من الاعتداءات البحرية العنيفة ضد آل خليفة ^(١) . والجدير بالذكر أن رحمة بن جابر حين أخذ يفقد أتباعه شيئاً فشيئاً بدأ يستعين بالرقيق الأفريقي ويجعل منهم القوة الرئيسية له . وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أن رحمة بن جابر يعد نموذجاً فريداً للبحارة العرب في الخليج قضى حياته مستخدماً وسائل البطش ضد سفن أعدائه حتى اشتهر بتلك المذابح الدموية العنيفة التي دارت في مياه الخليج وليس معنى هذا أن رحمة بن جابر كان يبغى من تلك الحوادث السلب والنهب وإنما كان يبغى من ورائها تنمية قوته البحرية والاستحواذ على نصيب من السلطة له ولأسرته . وقد وصفه الرحالة الإنجليزي بكنجهام Buckingham بأنه كان بسيطاً في ملبسه لا يرتدى إلا ستره ممزقة وقد ملأت طعنات الخناجر والسيوف أجزاء كثيرة من جسده وكان ذا وجه قمى زاد من فظاظته فقده لإحدى عينيه وقد حاول عندما استقر في الدمام

(١) لتعرف على العمليات البحرية للجلاهمة ضد آل خليفة انظر :

انظر Sketsh of the Proceeding of Rahma Bin Jabir Chief of Khor Hasan 1826 and also brief Sketsh of the Proceeding down the year 1831 of Busheer Bin Rahma S.R.B.G. pp. 521—529.

في أواخر أيامه أن يضمن على مركزه من الهيبة باعتباره حاكماً ولكن سرعان ما استهوت أعمال البحر فعاد إليها^(١).

كان الجلاهمة يطالبون بحقوقهم أو على الأقل ثمن مساعدتهم لآل خليفة في السيطرة على البحرين ولكن عندما ظهر من آل خليفة التنكر للجلاهمة أخذ هؤلاء يواجهونهم بالعداء ولم يترددوا في أن يضعوا أنفسهم في خدمة أعدائهم ففي عام ١٨٠٠ تعالفت الجلاهمة مع سلطان بن أحمد سلطان مسقط ١٧٩٨ / ١٨٠٤ حينما حاول ضم البحرين وتمكن سلطان بن أحمد بفضل المعونة التي تلقاها من الجلاهمة من أسر عدد كبير من زعماء آل خليفة أخذهم أسرى إلى مسقط ولكن لم يلبث أن استنجد آل خليفة بالسعوديين وتمكنوا في العام التالي من استعادة البحرين^(٢)، وإن كانت نتيجة ذلك خضوعهم للنفوذ السعودي خاصة بعد أن عين السعوديون عبد الله بن عفيصان وكيلاهم في البحرين فانفرد بحكم الجزيرة ولم يترك لآل خليفة إلا شيئاً بسيطاً من النفوذ كما اتصفت ولايته بالشدة في معاملة الأهالي وإرغامهم على اعتناق المبادئ الوهابية الأمر الذي دفع آل خليفة إلى مغادرة البحرين والالتجاء إلى موطنهم القديم في الزبارة ومنها أخذوا يوالون اتصالاتهم بسلطان مسقط والإنجليز ولما كانت سياسة الإنجليز لم تتضح بعد في البحرين إذ كان أهم ما يعنون به في تلك الفترة (١٨٠٩) القضاء على القواسم في الساحل الجنوبي للخليج فقد رفض الإنجليز تقديم المساعدة لآل خليفة لما قد يجره عليهم ذلك من عداء مباشر مع السعوديين وهو الأمر الذي كانوا يتجنبونه بقدر الامكان وكان رفض الإنجليز التدخل فرصة استغلها السعوديون في تدعيم سيطرتهم ولذلك عمل آل خليفة على الاستنجد بالفرس (١٨١١) وإن كان التقدم الذي أحرزته القوات المصرية في شبه الجزيرة في ذلك العام

(١) راجع دراستنا عن رحمة بن جابر الجلاهمة في حوايات كلية الآداب جامعة عين شمس المجلد التاسع ص ١٨٥ . ١٩٦٤ .

(٢) عباس إقبال: مطالعات در باب بحرین و سواحل و جزائر خلیج فارس ص ص ١٢١-١٢٢ .

CF. Bombay Govt., op. cit. Kamball, A.B. Chronological Table of events connected with the Government of Muscat, Uttoobee and Wahabees, P. 141 SQ.

هو السبب الرئيسي الذي أرغم السعوديين على سحب قواتهم من البحرين لكي يواجهوا القوات الزاحفة في نجد ، بل طلب السعوديون مهادنة آل خليفة وتأكيدها على حسن نواياهم بادروا بإطلاق جميع من كان معتقلاً لديهم من رعايتهم وسمحوا لهم بالعودة إلى البحرين ^(١) . ومما تجدر الإشارة إليه أن الجلاهمة وجدوا في سيطرة السعوديين على البحرين عاملاً مساعداً لهم في تحقيق آمالهم ولذلك تحالفوا معهم وأقرهم السعوديون على ساحل القطيف وإن كان ذلك التحالف لم يلبث أن انفصمت عروته حينما هادن السعوديون آل خليفة ولذلك أسرع الجلاهمة بالانفصال عن تحالفهم مع السعوديين واتجهوا إلى مسقط يستنصرون حاكمها السيد سعيد بن سلطان ١٨٠٦ - ١٨٥٦ الذي كان يخطط سياسة يستهدف بها تدعيم مركزه في الخليج ومن ثم كان يرى أهمية سيطرته على البحرين سيما وأنه كان يسيطر على عدة مواقع هامة على الساحل الشرقي للخليج كبندر عباس وشهباز ، وإذا أضفنا إلى ذلك الأهمية الاقتصادية للبحرين لأدركنا الجهود الكبيرة التي بذلها السيد سعيد للسيطرة عليها لما قد تغلله من موارد للسلطنة نظراً لما تشتهر به من مصائد الأولؤ وقد دعم السيد سعيد حملته على البحرين في عام ١٨١٥/١٨١٦ والتي تمت بالتعاون مع الجلاهمة بعدة مطالب وادعاءات قديمة على أساس خضوعها لعمان في الماضي ^(٢) . ونجحت قوات السيد سعيد والجلاهمة في السيطرة على قلعة عراد ولكن لم يلبث آل خليفة أن تمكنوا من رد ذلك الهجوم وظهرت الخسارة واضحة في قوات السيد سعيد ويؤكد أيتشيسون Aitchison أن تعاون الجلاهمة مع سلطان مسقط كان على أساس إقامة رحمة حاكماً على البحرين تحت حماية السيد سعيد ^(٣) . ولذلك اتجه الجلاهمة بعد الهزيمة التي واجهها سلطان مسقط من قبل آل خليفة إلى التعاون مع القوات المصرية حين وصلت إلى الاحساء في عام ١٨١٨ . ففي ذلك العام لحق رحمة بن جابر

(١) أمين الزبيدي : ملوك العرب أو رحلة في البلاد العربية ج ٢ ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٢) Wilson, A. The Persian Gulf P. 210.

(٣) Aitchison. A Collection of Treaties etc vol. X P. 116—(٢)

117 Caicutta 1892.

زعيم الجلاهمة من معقلة بقطر بإبراهيم باشا وعاونوه في الاستيلاء على الاحساء والقطيف^(١) ولذلك كافأه القائد المصري على ذلك بإقراره على الدمام حيث شيد لنفسه قلعة بها اتخذها مركزاً لحكم وإدارة عملياته البحرية في الخليج^(٢).

على أن انسحاب القوات المصرية من الاحساء في عام ١٨١٩ كان من العوامل الرئيسية التي أضعفت الجلاهمة وظهر ذلك واضحا حين استعاد تركي بن عبد الله الرياض واسترد الاحساء وفقد رحمة بن جابر معقله بالدمام بعد أن أحرقه السعوديون فالتجأ رحمة بن جابر بأعوانه وممتلكاته واستقر في بوشهر على الساحل الشرقي للخليج^(٣). وقد وجد رحمة عوناً من السلطات الفارسية ومن المحتمل أن يكون الإنجليز قد أمدوه أيضاً بمساعدات ليوصل بها صراعه ضد السعوديين والعمل على استرداد معقله بالدمام، على أن الإنجليز قد أكدوا لرحمة بن جابر حرصهم على ضمان الأمن والهدوء في الخليج ومعنى ذلك أن يقتصر حكم الجلاهمة على الاحساء دون أن يطالبوا بالبحرين، إذ كانت بريطانيا وخاصة عقب حملة ١٨١٩ حريصة على تأكيد إنجازات تلك الحملة. ومما تجدر الإشارة إليه أن الجلاهمة رفضوا أن يكونوا عضواً في المعاهدة العامة التي عقدتها بريطانيا مع شيوخ الخليج في عام ١٨٢٠ ولعل ذلك يرجع إلى دخول آل خليفة في تلك المعاهدة^(٤). وفي الوقت الذي فقد فيه الجلاهمة الأمل في مساعدة الإنجليز لهم على استرداد البحرين وجدوا في انضمامهم لأمير شيراز في الحملة التي كان يقوم بها لاسترداد البحرين من آل خليفة فرصة سانحة للانتقام من خصومهم، ذلك أن حاكم مقاطعة فارس التي كان يحكمها أمير شيراز والذي كانت تدخل في حوزته معظم

(١) عبد الحميد البطريق : ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا - إبراهيم باشا في بلاد العرب ص ٢٧ نشر الجمعية الملكية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة ١٩٤٨ .

(٢) ج . ج . لوديمر : مرجع سبق ذكره ج ٣ ص ١٦٢٧ .

(٣) Wilson, A., The Persian Gulf P. 211.

(٤) Bombay Govt., op. cit. CF. Chronological Table by A.B. Kamball P. 142 vol. XXIV Bombay 1856.

جزر وموانئ الخليج لم يسلم باستيلاء آل خليفة على البحرين وقاد حملة عسكرية ضد آل خليفة بمعاونة الجلاهمة في عام ١٨٢٠، على أن تلك الحملة ما كادت تقترب من البحرين حتى أسرع السلطان البريطانية في الخليج بإيقافها وتم ذلك بعد اتفاق كل من الكولونيل بروس Bruce ممثل شركة الهند الشرقية البريطانية في بوشهر وأمير شيراز على عقد معاهدة ١٨٢٢ وفي هذه المعاهدة اعترف بروس بتبعية البحرين لفارس ونتج عن ذلك الاعتراف اعتراض السلطات الفارسية على حليفها رحمة بن جابر الجلاهمة وابعاده عن البحرين وهكذا يضطر الجلاهمة إلى الانفصال عن تحالفهم مع فارس ويلتجئوا للمرة الثانية إلى سلطان مسقط واضعين أنفسهم تحت حمايته^(١). وفي مسقط أخذ رحمة بن جابر الجلاهمة يرغب السيد سعيد في معاودة الاستيلاء على البحرين ولم يلبث أن تأجج الصراع بين آل خليفة وسلطان مسقط وكان ذلك على أثر احتجاز السيد سعيد جماعة من تجار البحرين كانوا في طريقهم إلى الهند ثم كتب إلى آل خليفة يطلب منهم الدخول في طاعته فاستعد آل خليفة للحرب حين قدمت سفن مسقط يرافقها الجلاهمة ونزلت في موضع على ساحل جزيرة سترأ - إحدى جزر البحرين - وكان الشيخ سليمان بن خليفة قد خرج بقواته بصحبة أخيه الشيخ عبد الله ودارت معركة عنيفة أسفرت عن اندحار قوات مسقط والجلاهمة وتعرف هذه المعركة في تاريخ البحرين باسم واقعة المقطع أو دولة الامام في سترأ^(٢). وانتهى الأمر بأن عقد السيد سعيد معاهدة مع الشيخ سليمان بن خليفة نصت على أن تدفع البحرين لمسقط مبلغاً من المال سنوياً نظراً أن يتمتع السيد سعيد عن مهاجمة البحرين ويقوم في نفس الوقت باطلاق سراح المحتجزين لديه من البحارنة^(٣). وقد استمر آل خليفة يدفعون الخراج إلى سلطنة مسقط لعدة سنوات إلى أن توقفوا عن ذلك حين انتقل السيد سعيد للاقامة في زنجبار. وعلى الرغم من المقاومة الصلبة التي تزعمها آل خليفة ضد سلطنة

(١) عباس إقبال : مرجع سبق ذكره ص ١٣٠ .

(٢) النبهاني : التحفة النبهانية ص ١٤٣ .

(٣) الرميحاني : مصدر سبق ذكره ج ٢ ص ٢٢٥ .

مسقط والجلالمة إلا أن الأمر الذي لا شك فيه هو أن الإنجليز هم الذين
هو آل خليفة وذلك لادراكهم - رغم صداقتهم لسلطان مسقط -
ما قد يترتب على عدم استقرار الوضع في منطقة الخليج العربي ذلك فيما لو قدر
لسلطان مسقط السيطرة على البحرين وتأسيس قوة بحرية كبيرة في الخليج
وهو الأمر الذي كانت حكومة الهند البريطانية تعمل على الحيلولة
دون حدوثه .

لم يجد الجلالمة بعد ذلك حلفاء يستعينون بهم للقضاء على خصومهم
ولعل ذلك ما جعل رحمة بن جابر يخوض معركته الأخيرة معتمداً على ما تبقى
له من قوة وما ظل مرتبط به من أتباع وفي عام ١٨٢٨ حدثت المعركة الفاصلة
بين الجلالمة وآل خليفة وكان رحمة بن جابر لا يزال حتى ذلك الوقت خصماً
عنيداً لهم وإن كانت السنوات الماضية قد أوهنت منه العظم وذهبت ببصره
وقد تمكن من دخول القطيف بسفينة المشهورة « غطروشة » وفي ساحل
القطيف جرد عليه الشيخ عبد الله بن خليفة السفن المزودة بالرجال والسلاح
وخرج يقودها بنفسه واستطاع آل خليفة أن يحيطوا برحمة بن جابر
في ميناء القطيف فأمر بنشر الشراخ وطلب ميداناً متسعاً للقتال فأجيب إلى
طلبه ثم انقض عليه آل خليفة من كل جانب وكان رحمة بن جابر يقود
المعركة وهو جالس عند خزانة سفينة يسأل عن السفن المهاجمة وعن أسماء
قوادها ويصدر أوامره للبحارة بينما رجاله يتبادلون الرصاص مع آل خليفة
وأخيراً عندما شعر بقوة الحصار البحري عمد إلى إشعال النيران في مخزن
البارود في سفينة فانفجرت السفينة وغرق هو ومن معه وتسمى هذه الحادثة
في تاريخ البحرين باسم ذبحة رحمة الجلالمة^(١) .

وبانتهاء نفوذ الجلالمة وضح الاستقرار السياسي في السواحل الشمالية
للخليج العربي بعد أن استقر آل صباح في الكويت وآل خليفة في البحرين
ولم يعد للجلالمة من أثر إلا ما أعقب ذلك من محاولات غير ناجحة حاول

(١) النهاية : التحفة النهائية للبحرين ص ١٥٠ ، وكذلك أمين الرحافة - مصدر سبق ذكره

بها بعض من بقى منهم استعادة نفوذهم ، ولكن الضعف كان قد عصف بهم من كل جانب وخاصة بعد فقد زعيمهم ولذلك فشلت بعض المحاولات التي تزعمها أحد أبنائه ويدعى بشر بالتعاون مع سلطان مسقط الذي اتجه إلى استئثار نزاعه مع آل خليفة ، منتزعا فرصة إمتناع الشيخ عبد الله عن دفع الأموال السنوية المتفق عليها ولكن انتهى الأمر بانتصار كبير أحرزه آل خليفة على قوات مسقط وفقد السيد سعيد ثلاثة آلاف من رجاله^(١).

ومما يسترعى الانتباه هنا أن الحوادث البحرية التي كان يقوم بها الجلاهمة لم تسترعى نظر السلطات البريطانية في الخليج بنفس الدرجة التي كانت تسترعى بها عمليات القواسم في الساحل الجنوبي للخليج^(٢) ، ولعلنا نذهب في تعليل ذلك بأن نشاط الجلاهمة البحري كان مقتصرًا على معاداة السفن العربية التابعة لخصومهم كما كان مسرح عملياتهم المناطق الشمالية من الخليج وهي المناطق التي لم تكن قد امتدت إليها السيطرة البريطانية بعد ولكن ما كادت بريطانيا تنهى من قمعها للنشاط البحري للقواسم حتى استغلت ما كان يقوم به الجلاهمة من اضطرابات في البحرين والقطيف والاحساء لكي تعمل على السيطرة على تلك المناطق وخاصة أن آل خليفة رحبوا بالصدقة البريطانية لإبان تلك الفترة كي يوطدوا دعامة حكمهم ضد فارس والسعوديين وسلطنة مسقط والجلاهمة . وكما سبق أن أشرنا أسرع شيوخ البحرين في الانضمام إلى معاهدة الصلح العامة في عام ١٨٢٠ وكانت هذه للمعاهدة تشكل بداية لسلسلة من المعاهدات التي عقدها الانجليز مع آل خليفة والتي انتهت

(١) أمين الريحاني ؛ مرجع سبق ذكره ج ٢ ص ٢٢٧ .

(٢) المزيد من التفاصيل عن رحمة بن جابر الجلاهمة راجع دراستنا عنه في مجلة كلية الآداب - جامعة عين شمس - العدد التاسع ١٩٦٤ .

كذلك يمكن الرجوع إلى وثائقي بومباي ص ٥٢١ - ٥٢٩ عدد ٢٤ ، وتعتبر كتابات بكزجهام من أهم المصادر التي كتبت عنه خاصة وأن رحلته إلى الخليج كانت معاصرة لنهايته .

وضعهم تحت الحماية البريطانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر^(١).

بالإضافة إلى ما عرضنا إليه من تنظيمات العتوب في الساحل الشمالى الغربى من الخليج قد يكون من المفيد أن نشير أيضا إلى تنظيم سياسى قبلى نما فى أقصى الشمال من السواحل الشرقية للخليج حيث كانت قبائل بنى كعب تسيطر على معظم المناطق الممتدة من شط العرب إلى منطقة الأحواز الواقعة عند مصب نهر القارون وقد عد أسطولهم واحداً من أهم الأساطيل البحرية التى ظهرت فى القرن الثامن عشر ، وقد هاجرت تلك القبائل إلى المنطقة خلال القرن السابع عشر وإن كان لا يعرف على وجه الدقة المكان الذى جاءوا منه أو سبب هجرتهم. وعلى الرغم من أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم من رعايا الدولة العثمانية إلا أن وضعهم كان شائكاً بين فارس من ناحية والدولة العثمانية من ناحية أخرى^(٢). والجدير بالذكر أن الأوضاع المضطربة التى مرت بها المملكة الفارسية وخاصة عقب اغتيال نادرشاه قد أتاحت لهم الفرصة لضم أراض واسعة من فارس وبذلك أصبحوا تحت التبعية الفارسية والعثمانية إذ أن منطقة قعبان تقع فى أراضى الدولة العثمانية ومدينة الدورق تقع فى الجانب الفارسى . وقد أثار نشاط بنى كعب كريم خان الزندى الذى وجه حملتين ضدهم فى عام ١٧٥٦ و ١٧٦٥ وفيها خاض بنو كعب صراعاً مريراً ضد الفرس حيث سقط فى الحملة الثانية أهم مركزين من مراكز تجمع بنى كعب وهما مدينتا قعبان والدورق مما أرغم الشيخ سليمان زعيم بنى كعب إلى نقل عاصمته إلى الفلاحية الواقعة إلى الشمال من قعبان واضطرت الدولة العثمانية إلى الاستعانة بالإنجليز للتخلص من النشاط البحرى

(١) Aitchison, A collection of Treaties, Engagements and Sands Relating to India and Neighbouring Countries vol X pp. 116—117 Calcutta 1892.

(٢) مصطفى عبد القادو النجار : التاريخ السياسى لمشكلات الحدود الشرقية للوطن العربى فى شط العرب ص ٥٢ وما بعدها .

الذى كانوا يقومون به ضد السفن العثمانية والإنجليزية^(١). وأدى صراع بنى كعب ضد العثمانيين إلى حدوث وفاق بينهم وبين الفرس وتمكنوا من استعادة مراكزهم التي كانوا قد فقدوها، وظل بنو كعب مهيمنين على المناطق الفاصلة بين الدولتين الفارسية والعثمانية حتى جاء الوقت الذى أخذت فيه الدولتان تعتمدان على نفوذهم ضد العشائر المناوئة لهما، على أن بنى كعب قد أثاروا خلافاً إقليمياً بين الدولة العثمانية والفارسية وارتبط ذلك الخلاف بإنشاء مدينة المحمرة فى عام ١٨١٢ فى شمال شط العرب. ويعزى إنشاء تلك المدينة إلى شيخ من قبيلة بوكاسب وهى من القبائل التابعة لبنى كعب وإنشاء تلك المدينة ظهرت إمارة مستقلة عن الدولتين. وقدر لزعم المحميين من قبيلة بوكاسب أن يخلف شيخ بنى كعب كقوة سياسية رئيسية فى جنوب عربستان وقد أدى نمو المحمرة ومنافستها لميناء البصرة أن يقوم والى بغداد بحملة ضدها فى عام ١٨٣٧ ولكن هذه الحملة واجهت فشلاً ذريعاً فاضطرت إلى الانسحاب وتبع ذلك أفول السيادة العثمانية مما أغرى فارس على استغلال هذه الفرصة وذلك بضم المحمرة إلى مناطق سيادتها فى عام ١٨٣٩، وأصبح الموقف منذ ذلك الوقت فى شد وجذب بين الدولتين المجاورتين، كما أدى إلى سلسلة من الاتفاقيات لتخطيط الحدود فيما بينهما والتي بدأت باتفاقية أرضروم فى عام ١٨٤٧^(٢).

يتبين لنا مما سبق أن منطقة الخليج العربى رغم تقارب جزرها ومراكز تجارتها وموانئها كانت خلوا من سلطة بحرية قوية تستطيع أن تهيمن عليها الأمر الذى أتاح ظهور العديد من القوى المحلية التى حاولت أن تحقق لنفسها قدراً من السيطرة والنفوذ، وساعد على ظهور تلك التنظيمات عدم وجود أسطول قوى لأى من الدولتين الكبيرتين المجاورتين للخليج وهما فارس والدولة

(١) عبد الأمير محمد أمين : المصالح البريطانية فى الخليج العربى ١٧٤٧ - ١٧٧٨ .
من منشورات مركز دراسات الخليج العربى (مترجم) ١٢٢ و ١٢٨ بغداد ١٩٧٧ .
(٢) مصطفى النجار : المرجع السابق ص ٧٤ وما بعدها : انظر أنساج . ج لوريير : دليل الخليج القسم التاريخى ج ٤ ص ٢٠٤٠ - ٢٠٤٣ .

العثمانية ، كما انشغلت البحرية البريطانية في تدعيم سيطرتها على الساحل الجنوبي من الخليج ، وهكذا تمهدت الظروف أمام موجات الهجرة التي تحركت من داخل الجزيرة العربية إلى سواحل الخليج إلى أن تأخذ اتجاهاً جديداً ونعني بذلك تكوين تنظيماً سياسية مستقرة ، كما وضع ذلك في تجمعات العتوب في الكويت والبحرين وقطر . ولم تقتصر تلك التنظيمات على السواحل الغربية للخليج بل امتدت تلك التجمعات إلى السواحل الشرقية أيضاً مما حدا بفارس تحت حكم الصفويين إلى أن تطلق على السواحل الشمالية الشرقية من الخليج اسم عربستان ومعناها بلاد العرب ولعل هذا كان اعترافاً ضمناً من فارس أو من اللغة الفارسية على الأقل بعروبة هذه المنطقة التي أطلق عليها العرب اسم الأحواز بمعنى السيادة أو التملك^(١) . وقد تمكن بنو كعب وجيرانهم العتوب أن يكونوا سادة على السواحل الشمالية من الخليج ، كما كان القواسم وبنو ياس واليعاربة والبوسعيدون سادة على القسم الجنوبي من الخليج ويعني ذلك أن الخليج ، كان بسواحلها الشرقية والغربية منطقة نفوذ عربية إذ أن القواسم لم يقتصرُوا على الاستقرار على الساحل الجنوبي الغربي من الخليج وإنما اندفعوا في فترات متفرقة منذ القرن الثامن عشر إلى السواحل الشرقية كما حكم البوسعيدون في مسقط الكثير من جزر وموانئ ومقاطعات السواحل الشرقية للخليج ، وقد شهد كارستن نيبور^(٢) ، وهو من طليعة الرواد الأوروبيين الذين توغلوا في الجزيرة العربية ووصلوا إلى سواحلها الشرقية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر التجمعات القبلية التي استقرت على سواحل الخليج مما دفع به إلى التأكيد بأن العرب هم الذين

(١) حل نعمة الحلو : الأحواز - إمارة كعب العربية بغداد ١٩٦٩ .

(٢) كارستن نيبور رحالة ألماني كان عضواً في بعثة ملك الدانمارك التي وجهها للكشف الجغرافية وكانت له رحلات في الجزيرة العربية ١٧٦٣/١٧٦٥ وبعد أول من فتح الجزيرة العربية للارتداد الأوربي وقد ترك لنا مؤلفين هامين هما وصف بلاد العرب طبع كوبنهاجن ١٧٧٤ ورحلات في بلاد العرب وطبع في إدنبره عام ١٧٩٢ بعد ترجمته إلى اللغة الإنجليزية وما يذكر أن مؤلفات نيبور ترجمت إلى كثير من اللغات الأوروبية كما ترجم بعضها إلى اللغة العربية أخيراً .

يتمكنون جميع سواحله وأن ملوك فارس لم يتمكنوا من منازعة العرب سيادتهم وأنهم متحملون على مضض بقاء السواحل الشرقية في حوزة القبائل العربية . والأمر الذي لا شك فيه أن القوة البحرية التي تمتعت بها القبائل العربية قد وقفت حائلا دون حدوث تعدييات فارسية ناجحة على المنطقة على الأقل منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وعلى العكس من ذلك استطاعت القبائل العربية القاطنة على السواحل الغربية للخليج أن تمتد بسلطانها على كثير من الجزر والموانئ الواقعة على السواحل الشرقية المقابلة لها^(١) .

(١) جمال ذكرها قاسم : الإدعاءات الإيرانية في الخليج العربي أصول المشكلة وتطورها التاريخي من أعمال المؤتمر الدولي للتاريخ بغداد ١٩٧٣ .

الفصل الحادى عشر

استقرار آل صباح فى حكم الكويت

أصل تسمية الكويت وتاريخ تأسيسها - الشيخ صباح
أول حكام الكويت - بناء أول سور للكويت - انشقاق
آل خليفة والجلالمة - مرقعة الرقة بين آل صباح وبنى
كعب - احتلال الفرس للبصرة وأثره فى انتعاش الكويت -
انتقال الوكالة البريطانية إلى الكويت وبدء العلاقات الكويتية
البريطانية - سقوط أسرة بنى خالد وأثره على العلاقات
الكويتية السعودية - دور الوكالة البريطانية فى رد المهجرم
السعودى على الكويت ١٧٩٣ - رحلة رينو إلى الدرعية -
علاقة الكويت بالدولة العثمانية .



الفصل الحادى عشر

استقرار آل صباح فى الكويت

اتخذ العتوب من الكويت بعد هجرتهم إليها من أفلاج نجد فى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر نقطة انطلاق لتأسيس إمارات أخرى مجاورة وقد حدث ذلك فى خلال نصف قرن من بداية استقرارهم فى الكويت .

والأمر الذى لا شك فيه أن نشاط العتوب ، الذين كانوا يشكلون اتحادا قريبا ، ومصاهرتهم للقبائل الأخرى أدى إلى زيادة عددهم وتعاظم ثروتهم ؛ ومن ثم كان تطلعهم إلى التوسع فى مناطق جديدة . ولعل مما ساعد على ازدهار العتوب استقرارهم فى منطقة كانت تخضع لحكم بنى خالد ، وقد عرف هؤلاء بسماحة حكمهم الأمر الذى كان مشجعا على انتعاش التجارة واستنباب الأمن والنظام ، كما ساعدت العوامل الجغرافية على ازدهار ميناء الكويت الذى يقع فى جوف خليج عبيق يصلح لرسو السفن الكبيرة حتى أن الرحالة الألمانى كارستن نيبور الذى زار الكويت فى عام ١٧٦٥ ذكر بأن العتوب يمتلكون أكثر من ثمانمائة سفينة وأنهم كانوا يستوردون الأخشاب لبنائها من الهند وذكر أن العتوب وهم أساسا من البدو أخذوا يتطورون إلى مجتمع حضرى يشتغل بالتجارة والغوص على اللؤلؤ وبناء السفن^(١) . ومما يستلفت النظر أن التجارة قد انتعشت فى الكويت فى الوقت الذى كانت فيه القوى الكبيرة المجاورة تعاني الكثير من الفوضى والاضطراب ، إذ كانت الحروب قائمة بين فارس والدولة العثمانية كما كانت نجد — قبل ظهور الدعوة الوهابية — منقسمة على نفسها إلى العديد من المشيخات الصغيرة المتنافرة ، ولا شك أن هذه

Neibuhr C., Travels in Arabia and other countries in (١)
the East vol. II P. 103, Edinbrough 1792.

الأوضاع قد أفادت العتوب في الوصول إلى مجال متفوق في الناحية الاقتصادية إذ كان من الطبيعي أن تلجأ الشركات الأوروبية التجارية إلى ميناء الكويت للاستفادة من وضعه المستقر ومن موقعة الجغرافي الهام على طرف الخليج الشمالى الغربى فضلاً عن موقعه على الطريق التجارى الصحراوى الذى يصل شمالى شبه الجزيرة العربية بالعالم الخارجى^(١). وكانت نزعة العتوب إلى الاستقلال وضعف السلطة العثمانية في جنوب العراق مما يغرى الوكالات التجارية الأوروبية على التعامل مباشرة مع شيوخ العتوب .

وعلى الرغم من أن تأسيس الكويت ليس حدثاً موهلاً في القدم إلا أن المؤرخين مختلفون فيما بينهم في تسمية الكويت وتاريخ تأسيسها وترى بعض المصادر أن الكويت مشتقة من الكوت، والكوت في لغة جنوب العراق وماجاوره من البالدان في الجزيرة العربية وفارس هو البيت الذى يبنى على على شاكلة القلعة حتى يسهل الدفاع عنه ، وهو بيت تحيط به عادة بيوت أخرى^(٢) ؛ ويطلق اسم الكويت على ذلك البيت شريطة أن يقع بقرب الماء سواء أكان ذلك ماء البحر أو النهر أو البحيرة أو ماء مستنقع ثم أصبح ذلك الاسم يطلق على القرية بكاملها إن بنيت في مثل ذلك الموقع . وفى ذلك الصدد يقول الشيخ يوسف القناعى إن الكويت هو البيت الذى يبنى على شاكلة القلعة تحيط به دور الفلاحين وقد يحيط بالقرية سور أو لا يحاط بها^(٣) . ويشير المؤرخ الكويتى عبد العزيز الرشيد إلى معنى كلمة الكويت فيذكر أنها تصغير للكوت، ومن المعروف أن سكان شرق الجزيرة العربية يميلون عادة إلى تصغير الأسماء حتى وإن كانت أسماء حكامهم . وقبل تأسيس الكويت كان الموقع يعرف بالقرين، وهو تصغير لكلمة قرن حيث أن ميناء الكويت أو على الأحرى خليج الكويت ينبغى في اتجاه دائرى مكوناً ما يشبه القرن^(٤) .

(١) أحمد مصطفى أبو حاكمه : تاريخ الكويت ج ١ القسم الأول ص ص ٩٥ - ٩٦ .

(٢) راجع دراسة الأب أنستاس الكرمل : «ع الكويت» مجلة الشرق ع ١١ السنة الثانية .

(٣) يوسف القناعى : صفحات من تاريخ الكويت ص ٥ الطبعة الرابعة مطبعة حكومة الكويت

(٤) ورد اسم القرين في سجلات حكومة بمباى وهذا يعنى أن ذلك الاسم ظل مستخدماً حتى منتصف القرن التاسع عشر كما يتضح ذلك من تقرير فيلكس جونز .

CF. S.R.B.G. vol. XXIV—Harbour of Grane (Extract

From a Report by Felix Jones, Indian Navy pp. 51—54).

وكما سبق أن أشرنا أن الكويت كلمة مشهورة متعارف عليها في العراق ونجد وما جاورهما من البلدان العربية أو الفارسية وهي تطلق عندهم على البيت المربع المبني كالحصن أو القلعة وتبنى حوله بيوت صغيرة ويكون هذا البيت أو الحصن فرضة للسفن ترسو عنده لتزود منه بما ينقصها من الزاد والماء . وقد سميت الكويت نسبة إلى حصن صغير كان موجوداً في أرضها ذكرت بعض الروايات المحلية أن أحد حكام بني خالد وهو محمد بن عريعر قد أمر ببنائه وأقام فيه أحد عماله واتخذه مستودعاً للزاد والذخيرة ، وما يحتاج إليه وكان إذا ما أراد الغزو شمالاً أو الصيد قريباً من ذلك الحصن تزود منه بما يريد ، وعندما نزل آل صباح ومن معهم بأرض الكويت وهبه لهم أو يكونون قد استولوا عليه عنوة بينما ذكرت روايات أخرى أن آل صباح هم الذين أسسوا ذلك الكوت على الأرض التي منحت لهم من قبل بني خالد ويؤكد عبد العزيز الرشيد هذه الرواية على اعتبار أن الكويت كانت قبل نزول آل صباح فيها أرضاً فقيرة لا يسكنها إلا لفيف من البدو التابعين لآل عريعر وأن أول من شاد بها البيوت الحجرية هم آل صباح الذين اتخذوها لهم مقراً وسكناً^(١). ويذكر لوريمر حسب رواية نقلها من بعض شيوخ آل صباح أن أجدادهم جاءوا إلى الكويت بعد أن طردهم الأنراك من أم قصر على خور الزبير وهو مكان قديم كانوا يتخذونه لقطع الطريق على القوافل المتجهة إلى البصرة أو القادمة منها وكذلك لممارسة نشاطهم البحري ضد السفن العابرة في شط العرب^(٢) . وأنهم بعد أن استقروا في الكويت وتزايد عددهم بدأت تظهر مستوطنة عربية في تلك المنطقة التي لم تكن مأهولة إلا من جماعات قليلة من البدو وصائدي الأسماك . وعلى الرغم من أنه قد يكون من العسير تحديد تاريخ ثابت لتأسيس الكويت إلا أن الروايات المحلية الكويتية تنفق فيما بينها على أن الكويت خرجت إلى الوجود في أواخر القرن السابع عشر أو بداية القرن الثامن عشر^(٣) ، واعتماداً على بعض تلك الروايات

(١) عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ص ٣٠ - ٣١ .

(٢) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج ج ٣ ص ١٥٠٣ .

(٣) Dickson, H. Kuwait and Her Neighbours P. 26-27 (٣) London 1956.

فلما الشيخ يوسف القناعي يرجع أن الكويت بنيت في عام ١٦٨٨ هـ (١١٠٠ هـ) وأن الذي وضع أساسها هو الشيخ براك أحد شيوخ بني خالد وقد أورد بصدد ذلك « وتاريخ بناء هذا الكويت لا نعلمه بوجه الحقيقة والأحرى أنه بنى في أواخر القرن الحادى عشر من الهجرة أما الباني فهو أمير بني خالد باتفاق الرواة والظاهر أن الباني لهذا الكويت هو براك أمير بني خالد وقد يكون البناء في آخر عام ١١٠٠ هـ^(١). ويرى الأستاذ أبو حاكم أنه إذا قبلنا هذه الرواية فإنه ينبغي تقديم تاريخ بناء الكويت وذلك اعتماداً على ما ذكره ابن بشر بأن براك أمير بني خالد امتد حكمه من ١٦٦٩ حتى وفاته في عام ١٦٨٢. أما عن المؤرخ الكويتي عبد العزيز الرشيد فإنه لم يجزم بتاريخ معين لبناء الكويت وإنما اكتفى بالقول أنها أسست في أواخر القرن السابع عشر الميلادي وأن جميع الأقوال التي ذكرت حول تأسيسها لا تعلمو أن تكون حدساً وتخميناً، وأن الذي يصحح لنا الجزم به أنها كانت موجودة قبل عام ١١٣٥ هـ (١٧٢٢ م) وذلك اعتماداً على ما ذكره الشيخ إبراهيم ابن عيسى النجدي في سلسلة مشايخه من أن الشيخ محمد بن فيروز جد ابن فيروز قاضي السكويت المشهور توفي في الكويت عام ١١٣٥ هـ^(٢). أما الشيخ محمد خليفة النبهاني الذي اعتمد بدوره على الرواية المحلية فقد ذكر أنها أسست في عام ١٠١٩ هـ (١٦١١ م). أما الشيخ عثمان بن سند البصري صاحب كتاب سبائك المسجد فإنه لم يزد على كونه قد أورد إشارة يستفاد منها أن الكويت بدأت تكتسب شيئاً من الأهمية منذ مطلع القرن الثامن عشر الميلادي^(٣).

ومهما يكن من أمر فإن الكويت على أغلب الظن كانت قرية صغيرة يسكنها بعض الصيادين من البدو ذلك قبل وفود العتوب إليها وكما يذكر

(١) يوسف القناعي : مصدر سبق ذكره ص ٥ .

(٢) عبد العزيز الرشيد مصدر سبق ذكره ج ١ ص ٢٩ - ٣٠ .

(٣) أحمد مصطفى أبو حاكم : تاريخ الكويت ج ١ القسم الأول ص ١٠٠ . راجع سبائك المسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد لعثمان بن سند البصري ص ١٨ . دوسباي ١٣١٥ .

الشيخ القناعي أن أول من سكن الكويت قبل آل صباح لفيف من البدو وصيادي السمك ثم آل صباح وآل خليفة وآل زايد والجلاهمة والمعاودة حيث نزل هؤلاء الكويت بعد إذن من أمير بني خالد وكانت هجرتهم إلى الكويت على موجات متفرقة لأنهم حين تركوا قطر تفرقوا في البلاد فمنهم من سكن مناطق في فارس ومنهم من سكن ميناء قيس ومنهم من سكن الصبية ومنهم من سكن عبادان والمخراق، ثم أخذوا يتوافدون على الكويت وتبعهم خلق كثير من عرب وعجم^(١). ومما تجدر الإشارة إليه أنه قد عاصر نمو الكويت تكوين الهولنديين لمستعمرتهم في جزيرة خرج، وتذكر بعض المصادر أن شيخ الكويت احتفظ بعلاقات ودية مع البسارون كنيهاوزن المسئول عن تلك المستعمرة بينما ذكرت مصادر أخرى أنه كان واقعاً تحت نفوذه^(٢)، ولانستطيع أن نجزم بذلك لأنه من المعروف لدينا أن العتوب عاشوا فترة طويلة من الوقت تحت حماية بني خالد في الأحساء بل أن الكويت استمرت حتى العقد الخامس من القرن الثامن عشر تخضع لحكم أمراء بني خالد المباشر بيد أن الصراع بين شيوخ بني خالد على تولي الحكم فت في عضدهم وخفف من شدة قبضتهم على القبائل التي كانت تخضع لهم وتؤدي لهم الاتاوات، ومن ثم بدأت هذه القبائل والجماعات المنتمية إلى زعامة بني خالد تمارس نوعاً من الاستقلال الذاتي وبدأت تنفصل تدريجياً عن تبعيتها لهم وإن كانت قد حافظت في الوقت نفسه على ولائها المعنوي لهم. على أن آل صباح في الكويت لم يتمكنوا من إحراز مثل ذلك الاستقلال إلا في العقد السادس من القرن الثامن عشر إذ كانوا حريصين على إعلان تبعيتهم للقوى الكبيرة المجاورة لهم. ومع ذلك فإن الغموض لا يزال يحيط علاقة الكويت بالدولة العثمانية لأنه عندما كان الحكم العثماني يمتد إلى الأحساء لم تكن الكويت قد تأسست بعد إذ أنها لم تنشأ إلا بعد أن زالت السيطرة العثمانية الفعلية من المنطقة على يد زعماء بني خالد في عام

(١) يوسف القناعي : مصدر سبق ذكره ص ٩ .

(٢) ج . ج . لوريمر : مصدر سبق ذكره ج ٣ ص ١٥٠٣ . ولزيد من التفصيل عن المستعمرة الهولندية راجع بحث الدكتور عبد الأمير محمد أمين بعنوان مقاومة إمارات شرق الجزيرة للثقل الاستعماري الأوربي - التجارب الوحشية العربية المعاصرة - تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩٨١ ص ٦٠ وما بعدها .

١٦٧١ غير أن ولاية بغداد العثمانيين كانوا يصرون على اعتبار الكويت منطقة تابعة لهم ، ولذلك كان موقف آل صباح من العثمانيين كموقف آل خليفة من الفرس أى تجاهل مطالب العثمانيين تارة ورفضها تارة أخرى أو السكوت عليها إذا تر بص بهم خطر من جهة ثالثة ^(١) .

ولا يعرف على وجه اليقين أول من حكم الكويت من آل صباح إلا أن سجلات حكومة بومباي تذكر أن أول رئيس لآل صباح هو الشيخ سليمان ابن أحمد الذى تولى الحكم فى عام ١٧١٦ ^(٢) ، ولكن من المعروف أن هذا الشيخ ينتمى إلى شيوخ بنى خالد ولا ينتمى إلى آل الصباح ، وكان حكم آل خالد يمتد إلى الكويت ومن المؤكد أنه بعد وفاته استطاع آل صباح أن يبرزوا إلى مجال الزعامة وحدث ذلك فى عام ١٧٥٢ حين وصل الشيخ صباح بن جابر إلى الحكم ، وفيما يبدو أنه لم يكن لديه شهرة كبيرة إذ أن اسمه لم يرد فى رحلات الأوربيين الذين مروا بالمنطقة خلال فترة حكمه وذلك على الرغم من أنه قد أشير فى تلك الرحلات إلى أن الكويت تخضع لحكم شيخ عربى ^(٣) . ومن المؤكد أيضا أن الشيخ صباح لم يتول الحكم فى أول تأسيس الكويت ، وفى ذلك الصدد يذكر عبد العزيز الرشيد أن العتوب مضت لهم بعد نزول الكويت مدة لا رئيس لهم ولكن حين بدأ المجتمع يتعقد ويمتد رأوا من الحكمة أن يختاروا من بينهم رجلا يحكمهم ويصرف شئونهم فوق اختيارهم على الشيخ صباح ^(٤) . ولكنته لم يقبل ولاية الحكم إلا بعد أن أخذ عليهم نفوذ حكمه على الشريف والوضيع ^(٥) . كما أورد عثمان بن سند البصرى فى كتابه سبائك العسجد أن العتوب كانوا قبل

(١) جون كل : بريطانيا والخليج ج ١ ص ٥٨ .

(٢) Bombay Govt., CF. Historical Sketsh of Utoobee Tribe of Arabs 1761—I853. P. 362.

(٣) أبو حاكمه : مرجع سبق ذكره ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٤) يعقوب الرشيد : الكويت فى ميزان الحقيقة والتاريخ ص ١٩ .

(٥) عبد العزيز الرشيد : مصدر سبق ذكره ص ٧٤ انظر أيضا ص ٨٧ .

وصول الشيخ صباح إلى الحكم شرذمة قليلة ذو مسكنة وذلة وحين جعلوه لآرائهم قبلة وفوض خواصهم الأمر إليه كله شد أزهرهم وسد ثغره ورأب صدعهم ونصب جمعهم فسميا فرع الثروة في تلك البلاد^(١). وحول ذلك أيضا يذكر الشيخ القناعي أنه لما كثر الساكنون في الكويت وخالطهم جمع من المهاجرين إليها رأوا من الضروري أن يؤمر عليهم أمير منهم يكون مرجعاً لحل المشكلات والاختلافات فوقع اختيارهم على صباح لهذا الأمر فوافقهم الشيخ صباح بعد أن أخذ العهد منهم على السمع والطاعة في الحق ، وأن الجماعة اختارته وقدمته لأنه كان أعقلهم وأحسنهم سيرة وأقربهم لاتباع الحق وقد أصابوا المرمى في ذلك^(٢) . وفي عهده تم بناء أول سور للكويت وكان ذلك في عام ١٧٦٠ وكان سبب بناء ذلك السور أن نفوذ بني خالد أخذ في التزعزع وأصبحوا عاجزين عن حماية الكويت وخاصة أن الكويت أصبحت في عهده مهددة من جهة الجنوب بالنفوذ المتزايد للسعوديين على عهد سعود بن عبد العزيز ومن جهة الشمال بشيوخ المنتفق فاضطر الكويتيون لحماية أنفسهم وأموالهم إلى بناء هذا السور الذي تم تشييده في فترة وجيزة من الطين وكان كافياً في ذلك الوقت لحماية الكويت من الهجمات التي كانت تتعرض لها وكان له ستة دروازات أو بوابات ، وتختلف الروايات على سنة وفاة الشيخ صباح فعلى حين ذكر عبد العزيز الرشيد أنه توفي في عام (١٧٧٦م)^(٣) ، فإن هناك الكثير من الروايات التي تتعارض مع ما ذكره الرشيد ومنها ما أوردها الشيخ عثمان بن سند البصري من أن الشيخ عبد الله بن صباح كان يتولى حكم الكويت قبل عام ١٧٧٤ بضع سنوات ، وتذكر بعض المصادر أن الشيخ عبد الله وصل إلى الحكم في عام ١٧٦٢ وأنه استمر قائماً بالحكم حتى عام ١٨١٥^(٤) وعلى الرغم من أن

(١) عثمان بن سند البصري : سبائك المسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد ص ١٨ .

(٢) يوسف القناعي : مرجع سبق ذكره ص ٩ - ١٠ .

(٣) عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ص ٨٧ .

(٤) راجع بصدد ذلك ملحق رقم (١) . من القسم الأول من تاريخ الكويت ص ٣٤١

والخاص بحكام الكويت في القرن الثامن عشر ومطلع القرن ١٩ .

كارستن نيبور زار الكويت في عام ١٧٦٥ إلا أنه لم يذكر اسم شيخها وإنما اقتصر على أنه أورد أن الكويت يحكمها شيخ من قبيلة أرثيمة— وصحتها عتيبة— وأنها مدينة تجارية عامرة^(١). وإذا أخذنا بما جاء في تلك المصادر فإن عهد الشيخ عبد الله يكون قد امتد إلى ما يقرب من نصف قرن في خلاله وقعت عدة أحداث هامة في الكويت، ولعل أبرز تلك الأحداث وقعت في عام ١٧٦٦ حين انشق قسم من آل خليفة عن تحالف العتوب وانتقلوا إلى الزبارة على ساحل قطر في مواجهة جزر البحرين حيث أسسوا إمارة خاصة بهم^(٢)، وتبعهم الجلاهمة بعد فترة قصيرة، وظل آل صباح وحدهم يسيطرون على الكويت. وعلى الرغم من ذلك التصدع الذي تعرض له تحالف العتوب إلا أن العلاقات الودية ظلت قائمة بين آل صباح في الكويت وآل خليفة في الزبارة وإذا حدث وانقطعت فإنها كانت تعود إلى ما كانت عليه سريعاً^(٣)، ففي عام ١٧٧٦ لجأ عدد من تجار الكويت إلى الزبارة بعد استيلاء الفرس على البصرة، وإن كان الضرر لم يقع على الكويت كما كان متوقعا نتيجة ذلك الاحتلال، إذ أن جزءا كبيرا من تجارة البصرة قد تحول إلى الكويت عقب الاحتلال الفارسي كما ظهر تعاون آل صباح مع آل خليفة في طرد الفرس من البحرين وفي إعادة البحرين لإمارة عربية يحكمها آل خليفة من الزبارة، كما شارك آل خليفة آل صباح في الحروب التي قاموا بها ضد قبيلة بني كعب في عربستان، كما أخذت الكويت تأخذ نصيبها من الرخاء التجاري الذي جلبه فتح البحرين في عام ١٧٨٣ بسبب اشتغال آل صباح في تجارة النقل واستيراد البضائع من مسقط والزبارة والقطيف والبحرين^(٤). كذلك وقف آل صباح إلى جانب البحرين حين قام سلطان مسقط بالاغارة عليها في عام ١٨٠١ وسمح الشيخ عبد الله بن صباح بلجوء بعض رؤساء آل خليفة إلى الكويت الذين طردهم سلطان بن أحمد من البحرين^(٥).

(١) Neibuhr, Carsten, Travels in Arabia vol. II P. 103.

(٢) يذكر عثمان بن سند البصري في كتابه سبائك المسجد أن الشيخ عبد الله اشترك مع الشيخ خليفة بن محمد في تعمير الزبارة وتسميتها بذلك الاسم : سبائك المسجد ص ١٩

(٣) ج. ج. لوريمر : دليل الخليج ج ٣ ص ١٥٠٤ .

(٤) المصدر السابق ج ٣ ص ١٥٠٧ .

(٥) عن محاولات سلطان بن أحمد ضم البحرين راجع كتابنا دولة البوسعيد في عمان وشرق

إفريقيا ص ٧٦ وما بعدها .

وعلى الرغم من أن انشقاق آل خليفة عن آل صباح يعتبر من الأمور المنطقية بالنسبة للمفاهيم القبلية المرتبطة بمصالح القبيلة حيث تطلع آل خليفة إلى مكان عمارسون فيه حكمهم المستقل بعد أن خضعت الكويت لسيطرة آل صباح إلا أن بعض المصادر أرجعت أسباب انفصال آل خليفة عن آل صباح إلى ما كانت تتعرض له الكويت من غارات بني كعب إذ أن ازدهار الكويت جعلها محل رغبة شيوخ بني كعب في السيطرة عليها وأن العلاقات أخذت تتوتر بين شيوخ الكويت وشيوخ بني كعب وحلفائهم من عرب بندر ريق وبوشهر بسبب المنافسة على نقل التجارة أو بسبب الخلاف المذهبي بين الشيعة والسنة^(١). وقد أورد لنا عبدالعزيز الرشيد أسبابا مباشرة للصدام الذي وقع بين الكويت وبني كعب، وذكر بصدد ذلك أن بني كعب طمعوا في امتلاك الكويت بعد أن نشطت تجارتها ورغبوا في السيطرة عليها قبل أن تبلغ أشدها غير أنهم تظاهروا بغير ما أرادوا فطلبوا مصاهرة الشيخ عبد الله لأحد أبنائهم وحين استشار الشيخ عبد الله زعماء قومه في أمر تلك المصاهرة أظهروا أشد الالاء والامتناع وأخذوا للحرب أهبتهم، وجهزوا سفنهم لمحاربة بني كعب وكان النصر لحليفهم على قلة عددهم، ولعل ذلك يرجع إلى أن العتوب هاجموا سفن الزعماء أولا أو لأن الماء قد انحسر عن سفن بني كعب فلم تقدر على الحركة لضخامتها على عكس سفن العتوب الصغيرة التي أحاطت بسفن بني كعب من كل جانب. وقد عرفت هذه المعركة في تاريخ الكويت باسم موقعة الرقة وهي مكان يقع بالقرب من جزيرة فيلسكا إحدى الجزر المعروفة في الكويت^(٢). وفيما يبدو أن الصلح الذي وقعه الشيخ عبد الله بن صباح رغم هذا الانتصار لم يكن في صالح العتوب مما برر به آل خليفة انشقاقهم عن حلف العتوب وهجرتهم إلى الزبارة وكان ذلك في عام ١٧٦٦.

(١) أحمد مصطفى أبو حاكمة : تاريخ الكويت ج ١ القم الأول ص ١٨٨ .

(٢) عبدالعزيز الرشيد - مصدر سبق ذكره ص ٨٨-٨٩ . وما يذكر أن ديكسون المعتمد البريطاني في الكويت قد سجل الرواية المحلية المتعلقة بعلاقة الكويت ببني كعب نقلا من أحد شيوخ الكويت :

CF. Dickson, Kuwait and Her Neighbours pp. 27-28
London 1956.

ومن الأحداث الهامة التي وقعت أيضا على عهد الشيخ عبد الله والتي كان لها أثر كبير في ازدهار الكويت احتلال الفرس لمدينة البصرة على عهد كريم خان الزندي ونجاحهم في الاستيلاء عليها في عام ١٧٧٦م إذ ترتب على ذلك الاحتلال ، والذي استمر ثلاث سنوات انتعاش واضح في تجارة الكويت ولا شك أن الكويت قد أفادت فائدة كبيرة من ذلك الاحتلال لأن تجارة الهند التي كانت تتخذ طريقها عبر بغداد وحلب ثم القسطنطينية أخذت تتحول إلى طريق الكويت (١) . كما امتدت تجارة الكويت إلى الهند وملبار واليمن والعراق (٢) .

وقد أدى ذلك إلى زيادة ثروتها ومساعد على تلك الزيادة قلة الرسوم الجمركية التي كانت تفرض على التجارة فيها بالإضافة إلى نشاط تجارها وسماحة معاملاتهم . وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أن من أهم أسباب الحصار الفارسي للبصرة ذلك النجاح التجاري الكبير الذي أحرزته البصرة بعد انتقال نشاط شركة الهند الشرقية البريطانية إليها ، وأثر ازدهار البصرة على انهيار تجارة بوشهر مما أدى إلى توتر في العلاقات بين الوالي العثماني في بغداد وحاكم إقليم فارسستان ، ووجد كريم خان فرصته في الهجوم على البصرة محتجاً بأن والي بغداد قد فرض بعض الضرائب على الفرس الذين كانوا ينفذون إلى المزارات الشيعية المقدسة في العراق في النجف وكربلاء (٣) . وفي خلال الصراع الفارسي العثماني تطاع الطرفان إلى حلفاءهما في منطقة الخليج فإلى جانب الفرس انحاز العرب النازلون في السواحل الشرقية من الخليج وهم عرب بوشهر بزعامة شيخهم نصر آل مدكور الذي ينتمي إلى قبائل المطاريش وهي قبائل وفدت أساساً من عمان كما انحاز إلى الفرس أيضاً عرب بندر ريق وعرب بني كعب الذين ارتبطوا باتفاقية تحالف مع كريم خان الزندي أما إلى جانب العثمانيين فقد وقف عرب المنتفق (٤) ، كذلك مساعد إمام عمان

(١) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج ج ٣ ص ١٥٠٧ .

(٢) يوسف القناعي : صفحات من تاريخ الكويت ص ١٠ .

(٣) عبد الأمير محمد أمين : القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ص

ص ٦٢ - ٦٣ وكذلك أبو حاكمة - مرجع سبق ذكره ج ١ ص ٦٥ .

Sykes, History of Persia vol II P 281,

(٤) يؤكد ابراهيم بارسونز في رحلته أن الشيخ عبد الله حاكم الكويت كان معادياً

للحصار الفارسي للبصرة ولذلك كان يخشى أن تتعرض إمارته لخطر الفرس انظر :

Parsons, Travels in Asia and Africa P. 176-177.

في ذلك الوقت أحمد بن سعيد متسلم البصرة العثمانى فى رد الهجوم الفارسى وكان ذلك رغبة من إمام عمان فى الانتقام من الفرس ، أو قد يكون نتيجة لطلب العثمانيين المساعدة ؛ وتؤكد وثائق بومباى أن الأسطول العثمانى كان عوناً كبيراً لمدينة البصرة المحاصرة من قبل الفرس (١) .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن القواسم وهم التومة البحرية المتنامية فى الخليج فى ذلك الوقت لم يسهموا فى التمثال إلى جانب العثمانيين إذ أنهم كانوا مشغولين فى تأكيد نفوذهم البحرى على حساب القوى المجاورة لهم . أما موقف الكويت فعلى الرغم من أنه لا يزال غامضاً من حصار الفرس للبصرة إلا أنه من المعروف أن الشيخ عبد الله حاكم الكويت اتخذ فى بداية الأمر موقفاً محايداً إزاء الطرفين المتصارعين ولكنه كان أميل إلى اتخاذ موقف عدائى ضد الفرس بسبب العداء التقليدى بين الكويت وشيوخ بنى كعب وغيرهم من شيوخ القبائل العربية الأخرى فى الساحل الشرقى للخليج والتي قدمت مساعداتها لهم .

ومما يسترعى الانتباه أنه على الرغم من أن الكويت وقعت موقفاً عدائياً ضد الفرس خلال حصارهم للبصرة (٢) ، إلا أنها أفادت كما سبق الإشارة إلى ذلك فائدة اقتصادية كبيرة من جراء الاحتلال الفارسى للبصرة إذ ترتب على ذلك الاحتلال قيام علاقات مباشرة بين الكويت ووكالات شركة الهند الشرقية البريطانية التى بدأت تتخذ من ميناء الكويت مستودعاً لتفريغ بضائعها ، ومن الكويت كانت تنقل البضائع على ظهور القوافل إلى بلاد الشام متجنبين طريق البصرة ، ولذلك فإن استيلاء الفرس على البصرة يمكن أن يعد بداية للعلاقات البريطانية الكويتية ، ومما يؤكد ذلك أن شركة الهند الشرقية البريطانية بدأت تعمل على إنشاء وكالة تجارية فى الكويت التى ذكرت تقارير ممثلها بأن الكويت يتمتع بميناء

Bombay Govt., op. cit. vol. XXIV. Rise and Progress (١) of the Government of Muscat 1694—1844 P. 172 SQ.

(٢) عن حصار الفرس للبصرة راجع إبراهيم بارسونز الذى كان شاهداً عياناً لذلك الحصار

Parsons. A. Travels in Asia and Africa CF. Mediated Siege of Bussorah pp. 167—172.

جيد يصلح لرسو السفن ، وأن القوافل التجارية التي تخرج من ذلك الميناء تتمتع بأمن كبير ، وفضلاً عن ذلك فإنه لم تتعرض لهجوم فارسي^(١). وقد ترتب على ذلك قيام علاقات ودية بين شركة الهند البريطانية والشبغ عبد الله حاكم الكويت وإن كانت هذه العلاقات لم تلبث أن تعرضت لخطر التصدع حين قام رجال الوكالة البريطانية في البصرة ١٧٧٨ — ١٧٧٩ بالقبض على أحد الضباط الفرنسيين وهو الميسو بورج Borel de Bourg الذي فر إلى الكويت وطلب اللجوء إلى شبخها ، وكان بورج يحمل رسائل من فرنسا إلى السلاطات الفرنسية في بوند شيرى وجزيرة موريس . وقد عارض الشيخ عبد الله تسليم الضباط الفرنسي ، مراعاة للتقاليد العربية ، رغم نواياه الطيبة تجاه الحكومة البريطانية . ولكن من ناحية أخرى أخذت العلاقات البريطانية الكويتية تتخذ طابعاً ودياً حين بادر المستر مانيسى ممثل الوكالة البريطانية في البصرة بتحذير شيخ الكويت من الاستعدادات العسكرية التي كان يقوم بها الوالي العثماني في بغداد سليمان باشا ضد الكويت^(٢) بسبب رفض الشيخ عبيد الله بن صباح تسليم الشيخ ثويني شيخ المنتفق ومصطفى أغا متسلم البصرة اللذين التجأ إلى الكويت فراراً من السلطات العثمانية . فقد حدث أن أسندت متسلمية البصرة إلى السيد مصطفى أغا الذي عزم على التمرد ضد السلطات العثمانية وإعلان استقلال البصرة فكان أن غضب سليمان باشا والى بغداد وجهاز قوة كبيرة سيرها إلى البصرة للقضاء على ثورة مصطفى أغا وفي الطريق من بغداد إلى البصرة اشتبك جيش والى بغداد بقبايل المنتفق التي كان يقودها الشيخ ثويني فهزمها ، وحينئذ أيقن مصطفى أغا أنه لا قدرة له على مواجهته القوة العثمانية فترك البصرة هارباً إلى الكويت مع الشيخ ثويني واستنجد الاثنان بحاكمها ، ورفض الشيخ عبد الله تسليمهما إلى والى بغداد ، وأوعز إلى مصطفى أغا بالرحيل إلى نجد

(١) أحمد مصطفى أبو حاكمة — مرجع سبق ذكره ج ١ القسم الأول ص ١٧٦ .

(٢) يرجع إلى السير هارفورد جونز الفضل في إمدادنا بتفاصيل كثيرة عن علاقة الكويت بالدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر :

CF. Brydges, Harford Jones, An account of the Trans-
saction of His Majesty's Mission to the court of Persia
1810—1811 London 1834.

بالأموال التي نقلها من البصرة برفقه قافلة كانت متأهبة للسفر تفاديا من تسليمه للسلطات العثمانية^(١). ولا شك أن موقف شيخ الكويت من رفضه تسليم المتمردين إلى باشا بغداد كان موقفاً غير ودي ويظهر ذلك من رسالة بعث بها مانيسى إلى الشيخ عبد الله جاء فيها « قمت بزيارة الباشا في معسكره الذي عبر عن دهشته وغضبه تجاه سلوككم في منح الحماية لأناس كانوا ثائرين عليه وقال ما لم تسلموهم إليه أو تأمروهم بمغادرة الكويت فإنه سيعتبركم عدوا له وقال إنه سيكتب إلى حاكم بومباي راجياً أن يمدد بعون بحرى سريع ، وهكذا فإن الصداقة هي التي حثتني على الكتابة لأعرفكم بمشاعر باشا بغداد » وقد أجاب الشيخ عبد الله على الرسالة السابقة بأنه يدين للمستمر مانيسى بهذه المعلومات بخصوص نوايا سليمان باشا وأن الموقف يتلخص في أنه لا يستفيد أية فائدة من مقام مصطفى أغا متمسكاً بالبصرة في بلاده ولكن إخراجهم من الكويت لا يتمشى مع التقاليد العربية^(٢).

وما تجدر الإشارة إليه أنه في الوقت الذي كانت فيه العلاقات بين الكويت وبريطانيا تسير سيراً وديا كانت الخلافات تتزايد بين الوكالة البريطانية في البصرة ووالى بغداد^(٣) ولذلك كان يرد اسم الكويت أو القرين على لسان رجال الوكالة البريطانية كبديل للبصرة ومستقراً للوكالة البريطانية فيها . وقد اتخذت خطوة هامة في عام ١٧٩٢ من قبل المستر مانيسى وهارفورد جونز لنقل الوكالة من البصرة إلى الكويت وتم نقل الوكالة بالفعل في ذلك العام إلى الكويت حيث بقيت هناك ما يقرب من ثلاث سنوات وعلى حين ذكر لوريمر أن الوكالة البريطانية في البصرة

Brydges. Harford Jones A Brief History of the (١)
Wahauby P. 176.

وكذلك يعقوب الرشيد - الكويت في ميزان الحقيقة والتاريخ ص ٣٥ .

(٢) انظر الرسائل المتبادلة من حاكم الكويت والمستمر مانيسى في القسم الثاني من تاريخ الكويت للدكتور أبو حاكم ص ١٩ وما بعدها .

(٣) يفهم مما أورده ابراهام بارسونز أن أصول ذلك الخلاف ترجع إلى أيام رحلته ١٧٧٥ بسبب استشارة الانجليز بالضرائب الجمركية التي كانت تقدر بـ ٦٪

CF. Persons, A. op. cit. P. 157.

قررت الانسحاب إلى الكويت نتيجة الصعوبات والعقبات التي وضعتها السلطات العثمانية في وجهها فإن هارفود جونز يذكر أن انتقال الوكالة البريطانية إلى الكويت كان نتيجة خلافات بين الباشا العثماني والوكالة البريطانية^(١). ويعني ذلك أن انتقال الوكالة إلى الكويت كان إجراءً تأديبياً على أمل أن تكون النتائج التي تصيب البصرة اقتصادياً بسبب هذا الإجراء قادرة على تسوية تلك الخلافات التي كانت تعود أساساً إلى مؤامرات من قبل التجار اليهود المقيمين في البصرة. ومع افتراض صحة هذه المبررات إلا أننا نضيف سبباً آخر وهو أن نقل الوكالة البريطانية من البصرة إلى الكويت كان يرتبط ارتباطاً كبيراً بالأحداث التي وقعت في تلك الفترة، ونعني بذلك النشاط السعودي في الأحساء الذي أدى إلى الاطاحة بنفوذ بنى خالد وخوف السلطات البريطانية في الخليج من أن يتحول النشاط السعودي إلى الكويت وما قد يؤدي إليه ذلك من تعريض التجارة البريطانية في الخليج إلى خطر محقق^(٢).

ومما تجدر الإشارة إليه أن بنى خالد في الأحساء كانوا الحاجز الكبير الذي حفظ الكويت من الهجمات الوهابية حتى نهاية القرن الثامن عشر غير أنه بسقوط بنى خالد صار اخضاع السعوديين للكويت بعد عام ١٧٩٣ أمراً كبير الاحتمال وبالفعل شهدت السنوات القليلة التالية لسقوط بنى خالد هجمات سعودية متكررة على الكويت اشتدت وطأتها طوال فترة إقامة الوكالة البريطانية التابعة لشركة الهند الشرقية في الكويت عقب انتقالها من البصرة إذ كان من الطبيعي بعد إسقاط السعوديين لحكم بنى خالد في الأحساء أن يعملوا على السيطرة على الممتلكات التابعة لهم ويعني ذلك أن تصبح الكويت منطقة من مناطق النفوذ السعودي. ولكن الأمر الذي يبعث

(١) للتفاصيل المتعلقة بانتقال الوكالة البريطانية من البصرة إلى الكويت وموقعها من الغزوات الوهابية للكويت انظر :

Brydges, An Account of Transaction of His Majesty's Mission to the Court of Persia to which is appended a Brief History of Wahabees pp. 12—16.

(٢) جمال زكريا قاسم : موقف الكويت من التوسع السعودي في نجد وسواحل الأحساء للعدد ١٧ من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ص ٩٤ - ٩٥ .

على الدهشة أن الكويت استمرت محتفظة بوضعها المستقل في وقت كانت فيه القوة السعودية هي القوة المتسلطة ، بل وأكثر من ذلك يمكننا أن نذهب في القول إلى أن سقوط حكم بني خالد كان عاملاً هاماً من العوامل التي أدت إلى انطلاق الكويت نحو مرحلة هامة من مراحل استقلالها ولتعليل ذلك يمكننا أن نركز على ناحيتين هامتين ، أولاهما علاقة الكويت بأسرة بني خالد ، وثانيتهما العوامل التي أدت إلى احتفاظ الكويت باستقلالها عن السعوديين رغم تداعى نفوذ بني خالد . وفي تقديرنا أن سقوط أسرة بني خالد على أيدي السعوديين في عام ١٧٩٣ يعد بدءاً للعلاقات الكويتية السعودية وليس بداية لخضوع إمارة الكويت للنفوذ السعودي فمن الأمور التي تسترعى الانتباه أنه على الرغم من تقديم شيوخ الكويت ولاءهم لشيوخ بني خالد منذ أن تأسست إمارة الكويت في النصف الأول من القرن الثامن عشر إلا أن ذلك الولاء لم يكن إلا من الناحية الشكلية البحتة . وقد ذكر نيبور بصدق ذلك أن النزاع كان يدور دائماً بين سكان القرين المتمسكين باستقلالهم وبين شيوخ الاحساء الطامعين في احتلال الكويت وكان إذا ما وجه شيخ الاحساء قواته إلى الكويت لاختضاعها غادرها أهلها إلى جزيرة فيلكا ، كما أكد نيبور أنه على الرغم من أن شيوخ القرين كانوا يتبعون شيوخ بني خالد في الاحساء إلا أنهم كانوا يمارسون استقلالهم في أحيان كثيرة ^(١) ، ويفهم من ذلك أنه على الرغم من أن آل صباح تمكنوا من ممارسة نفوذهم المستقل في الكويت إلا أنهم كانوا في المراحل الأولى من استقرارهم في الكويت يرتبطون بشكل أو بآخر بنوع من التبعية لشيوخ بني خالد ، ولذلك كان من المتوقع حين داهمت بني خالد الغزوات السعودية المتكررة خلال الفترة من ١٧٨٥ إلى ١٧٩٣ أن يبادر آل صباح إلى نجدتهم طبقاً لما يقضى به العرف في أن يقوم التابع بنجدة متبوعه ولكن بلا حظ أن الشيخ عبد الله بن صباح حاكم الكويت كان متردداً بين أمرين أولهما : تقديم العون لبني خالد ومعنى ذلك أن يستمر

(١) جاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب ص ١٦٤ حيث أوردت المؤلفة وصفاً تفصيلياً لرحلات كارستن نيبور في شبه الجزيرة العربية .

محتفظاً بولائه لهم . وثانيهما : مساعدة السعوديين في إسقاط أسرة بني خالد لما سترتب على ذلك من تخلص الكويت من تبعيتها لهم^(١)، وفيما يبدو أن الشيخ عبد الله قد التزم بموقف الحياد لإزاء الصراع الذي كان قائماً بين السعوديين وبني خالد غير أنه لم يلبث أن أدرك قوة الضغط السعودي وخاصة في هذه المرحلة التي اندفع فيها السعوديون بشكل حماسي بالغ لنشر الدعوة الوهابية على سواحل الخليج وما قد يترتب على ذلك بالضرورة من تعرض إمارته لخطر مجاورتها لنفوذ السعوديين بعد سيطرتهم على الأحساء .

وقد حدث ذلك بالفعل حين بدأت الكويت تتعرض منذ عام ١٧٩٣ لمناوشات سعودية خاطفة وذلك حين قدم القائد السعودي إبراهيم بن عفيصان إلى أطراف الكويت بجاعة من قبائل الحرج والعارض وسدير واستحوذ على قدر كبير من الأسلاب، ولذلك حرص الشيخ عبد الله بن صباح أن يؤيد القوتين المناهضتين للسعوديين وهما العثمانيون وبنو خالد في الوقت الذي لم يعلن فيه صراحة عداؤه للسعوديين وكان تقدير شيخ الكويت أن إمارته تتمتع باستقلالها الذاتي في ظل تبعيتها للعثمانيين أو بني خالد ولكنه لا يضمن أن تستمر مشيخته محتفظة باستقلالها في ظل السيطرة السعودية على أنه من ناحية أخرى كان حريصاً على أن لا يظهر من تقديم الكويت مساعدتها للعثمانيين أو بني خالد تأكيداً لتبعيةها لإحدى هاتين القوتين ولذلك اكتفى بتقديم المساعدات لشيخ المنتفق الذي كلف من قبل والي بغداد بأعداد قوات كبيرة لمقاتلة السعوديين بالتحالف مع شيوخ بني خالد وأسرع الشيخ عبد الله بوضع إمكانيات الكويت البحرية في خدمة العمليات العسكرية ، حيث استخدمت للسفن الكويتية في نقل قسم كبير من قوات الشيخ ثويني حاكم المنتفق لمقاتلة السعوديين في الأحساء^(٢) . ومع ذلك فلم تكن النتيجة في صالح

(١) عثمان بن بشر : عنوان المجدي في تاريخ نجد ج ١ ص ١٠٨ وكذلك القناعي : مرجع سبق ذكره ص ١٢ ولزيد من التفاصيل عن علاقة الكويت ببني خالد انظر مقالة الأب أنستاس الكرمل عن الكويت - مجلة المشرق بيروت ١٩٥٢ ص ٤٤٩ وما بعدها .
(٢) جمال زكريا قاسم : موقف الكويت من التوسع السعودي في نجد وسواحل الأحساء

تلك القوات التي تفرقت أمام الهجمات السعودية وقتل الشيخ ثويني نفسه في إحدى المعارك الطاحنة التي نشبت بينه وبين السعوديين^(١)، وأعقب ذلك نجاح السعوديين في الاستيلاء على الأحساء وتأكيد نفوذهم في المقاطعات الشرقية للجزيرة العربية، وترتب على ذلك أن أصبحت الكويت ملازمة للقوة السعودية التي أصبحت تتأخمها جنوباً. وعلى الرغم من أن الكويت استفادت من سقوط حكم بني خالد في التخلص من الارتباطات الواهية التي كانت قائمة بينها وبين تلك الأسرة الحاكمة إلا أن شيوخ الكويت أخذوا يتعرضون بعد سقوط حكم بني خالد للعديد من الهجمات السعودية المتكررة^(٢) على أنه ينبغي أن نشير هنا إلى أنه لما كانت الوكالة البريطانية قد انتقلت إلى الكويت في عام ١٧٩٣ فقد حرص المستر صمويل مانيسقي القائم بأعمال الوكالة آنذاك أن يستبقى طراداً في ميناء الكويت لحماية إمارة الكويت من احتمال قيام هجوم سعودي ضدها، كما أمر بإقامة فرقة حرس من الهنود يقودها ضابط هندي على الشاطئ، وقد حاول السعوديون بالفعل السيطرة على الكويت واتجهوا إلى منع المياه عنها وذلك بسيطرتهم على الآبار العذبة^(٣)، وعلى الرغم من أن الوثائق الرسمية البريطانية قد حرصت على أن تنفي نفياً قاطعاً قيام الوكالة البريطانية في الكويت بأي دور في صد الهجمات السعودية عن الإمارة وعملت ذلك بأن هذا الموقف كان متمشياً مع السياسة البريطانية العامة التي كانت تقوم على عدم التدخل في الصراعات الداخلية، وخاصة إذا كانت تلك الصراعات لها ارتباط بالدولة السعودية باعتبارها دولة إسلامية ومن ثم كانت التعليمات البريطانية صريحة في أن تقف الوكالة البريطانية في الكويت موقفًا محايداً في الصراعات الدائرة بين السعوديين والكويت خوفاً على بريد شركة الهند الشرقية البريطانية الصحراوى من أن يتعرض للانتقام السعوديين، كما ذكر السير هارفورد جونز العديد من المبررات الأخرى التي ألزمت الوكالة بهذا الموقف المحايد، وأكد أن أهالي الكويت هم

(١) أحمد مصطفى أبو حاكم : تاريخ الكويت الجزء الأول القسم الأول ص ٢٥٦ .

(٢) ج ٠ ج لوريمر ، دليل الخليج ج ٣ ص ١٥٠٩ .

Brydges, Wahauby pp. 12 ff.

(٣)

الذين دافعوا عن أمارتهم وأن شيخهم هو الذى نجح بفضل عدله وسماحته أن ينجب إمارته الخاضوع للسعوديين . وأنه تمكن بمدفع قديم أمر بنقله من إحدى سفنه أن يصد هجوما سعوديا قام به أكثر من خمسمائة رجل وواضح أن السير هارفورد جونز كان حريصا على التأكيد بأن الوكالة البريطانية لم تقم بأى دور بين الطرفين بل كان حريصا على التأكيد أيضا بأن العلاقات كانت طيبة بين الوكالة البريطانية وبين الإمام السعودى . وأن الوكالة لم تستجب لمساعدة شيخ الكويت رغم إلحاحه الشديد فى طلب تلك المساعدة لأن مصلحة الوكالة البريطانية أن تكون على وئام مع الأمير سعود من أجل سلامة مراسلاتها التى كانت تنقل من الكويت أو تصل إليها عن طريق الصحراء .^(١) ومع وجهة تلك المبررات إلا أننا نجد بعض المصادر الأخرى التى تؤكد على حدوث مساعدات انجليزية للكويت ضد السعوديين وتستند تلك المصادر على ما ذكره المستر رينو Reinaud أحد العاملين فى الوكالة البريطانية فى الكويت الذى ذكر أنه فى خلال إقامته بالكويت مساعدًا للمستر مانيسى فى الفترة بين ١٧٩٣ و ١٧٩٥ تعرضت الكويت لهجمات سعودية كثيرة ، وقدر مستر رينو إحدى الهجمات الكبيرة التى تعرضت لها الكويت بألفى جمل يحمل كل بعير رجلين الراكب الأمامى مسلح ببندقية وزميله مسلح برمح ليحميه أثناء إعادة ملء ببندقيته بالرصاص وذكر رينو أن المستر مانيسى أصدر أوامره بانزال مدفعين من إحدى السفن العسكرية الإنجليزية التى كانت راسية فى ميناء الكويت وأنه أمر الجنود الهنود بالاشتراك مع الكويتيين فى صد الهجوم السعودى ، وأن السعوديين خسروا كثيرا من رجالهم نتيجة نيران المدفعية البريطانية التى صوبت إليهم أثناء فرارهم إلى الساحل^(٢) . وقد رد السعوديون على هذا الاشتراك من جانب الوكالة

(١) Brydges H. Op. cit. CF. Wahauby pp. 12—16.

(٢) أورد لوريمر هذه الرواية نقلا عن ما ذكره المستر رينود فى حديثه إلى الدكتور سيتزن Seetzen الذى ورد فى كتاب فون زاش Zach مراسلات مونتايش ص ٢٣٤ - ٢٣٥ وعلى الرغم من أن لوريمر يقر بأن المستر هارفورد جونز يعد مصدر أكثر اطلاعا إلا أنه لا يستطيع أن يعتبر ما جاء فى رواية رينو من نسج الخيال - انظر ج . ج لوريمر ص ٣١٠ - ١٥٠٩ .

البريطانية وذلك بهجومهم على بريدها الصحراوي مما كان سبباً في رحلة رينو إلى الدرعية حيث كلف من قبل مانيسى رئيس الوكالة البريطانية في الكويت بمقابلة الأمير السعودي في عاصمته ، وبذلك اشتهر رينو بأنه كان أول أوروبي قدر له أن يزور الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى^(١).

وعلى الرغم من التناقض الذى يبدو لنا واضحاً بين ما ذكره السير هارفورد جونز والمستمر رينو إلا أن ما ذكره الأخير يبدو لنا مقبولاً لأن الوكالة البريطانية كانت تخشى بطبيعة الحال ، رغم على عدم اظهار عداوتها للسعوديين ، على أموالها وبضائعها المودعة بالكويت فيما لو نجحت إحدى الغزوات السعودية لأنها سوف تصبح في هذه الحالة غنيمة مشروعة في عرف الوهابيين باعتبارها من أموال الكفر ، وفضلاً عن ذلك فإن مساعدة الوكالة لشيخ الكويت في رد الهجوم السعودي عن إمارته كان التزاماً أدبياً وتعبيراً لشيخ الكويت عن الاعتراف بحجمه حينما أفسح لها مكاناً في بلاده^(٢).

وعلى الرغم من أن السعوديين استمروا في مواصلة عملياتهم الهجومية ضد الكويت إلا أن تلك الهجمات لم تؤد إلى نتيجة إيجابية من حيث إخضاع الإمارة لنفوذهم وعلى العكس من ذلك استطاعت إمارة الكويت أن تحقق انتصارات اقتصادية هامة ضد السعوديين نتيجة لما ترتب على الغزوات السعودية المستمرة على الاحساء من تحول تجارة الهند إلى أواسط الجزيرة العربية عن مجراها المعتاد مروراً بموانئ الاحساء إلى الكويت حيث أصبح ميناء الكويت يستخدم بدلاً من موانئ القطيف والعقير وكان ذلك مما أثار

(١) جمال زكريا قاسم : الدوافع السياسية لرحلات الأوربيين إلى نجد والحجاز من أعمال ندوة مصادر تاريخ الجزيرة - الرياض ١٩٧٧ .

(٢) جمال زكريا قاسم : موقف الكويت من التوسع السعودي في نجد وسواحل الاحساء. ص ٩٨ . انظر : للمقارنة بين الروايتين .

السعوديين وجعلهم ينظرون بقلق بالغ إلى منافسة ميناء الكويت لموانئ الاحساء بل طالب السعوديون بنصيبهم من الأموال التي كانت تتدفق على الكويت . وفي عام ١٨٠٨ أعد السعوديون حملة كبيرة للاغارة بها على الكويت ولكن أهالي الكويت نجحوا في مقاومة الحصار الذي فرضه السعوديون عليهم وتمكنت الإمارة أن تبقى بمنأى عن النفوذ السعودي الذي بلغ في ذلك الوقت درجة كبيرة من التفوق والانتعاش وإن استمر احساس الكويتيين بالخطر الذي يمكن أن تتعرض له إمارتهم من جانب السعوديين ولعل ذلك يفسر اننا شدة ترحيب شيخ الكويت ، وكان في ذلك الوقت ، الشيخ جابر الصباح بالتقدم الذي أحرزته القوات المصرية التي زحفت على نجد واسقطت الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى في عام ١٨١٨ ؛ إذ تؤكد بعض المصادر أن الشيخ جابر قدم مساعدات لإبراهيم باشا في أثناء حصاره للدرعية . ومن المعروف أن الشيخ جابر تولى الحكم خلفاً للشيخ عبد الله بن صباح بعد وفاته في عام ١٨١٣ بعد أن حقق للكويت نمواً مطرداً كما عرف عنه بأنه كان حاكماً حازماً قريباً إلى الحق محباً للعدالة حسن السياسة لا يبت في أمر مهم إلا بعد مشاورة كافية وكان لا يخالف الجماعة فيما يروونه صواباً^(١) . وبوفاته تولى الشيخ جابر الذي لقب بجابر العيش لكثرة ما كان يتصدق به على الفقراء ، وقد امتد حكمه حتى عام ١٨٦٠ ولعل أهم ما يميز حكمه هو العلاقات التي وجدت بينه وبين الدولة العثمانية . والأمر الذي لا شك فيه أن مجاورة الكويت للدولة العثمانية جعل علاقتها بهذه الدولة الإسلامية الكبيرة أمراً حيوياً وظهر ذلك في أن سفن الكويت كانت تحمل الراية العثمانية^(٢) ، وحين قضى العثمانيون على داود باشا آخر ممالك العراق في عام ١٨٣١ حاولوا أن يمدوا نفوذهم إلى الكويت وذلك عن طريق الزام الشيخ جابر بدفع جزية سنوية ذكرت بعض المصادر أنها كانت تقدر بأربعين كيساً من الأرز وأربعمائة

(١) القناهي : مرجع سبق ذكره ص ١٠ .

(٢) لم تكن الكويت ضمن الإمارات الموقعة على المعاهدة العامة التي فرضتها بريطانيا على بعض إمارات الخليج في عام ١٨٢٠ ، ولذلك فإنها لم تكن ملتزمة برفع راية ساحل الصلح البحري .

مباطه من التمور^(١) ، وأنه كان يتلقى في كل سنة خلعاً من السلطات العثمانية تكريماً له ولكن لم يستمر دفع الجزية من قبل الكويت ولعل ذلك يرجع في الدرجة الأولى إلى أن الدولة العثمانية كانت في حاجة إلى مساعدة أسطول الكويت للدفاع عن شط العرب حتى أن الدولة العثمانية كانت هي التي تدفع إعانة سنوية لشيخ الكويت . وفي عام ١٨٣١ أغارت عشائر بني كعب على مدينة البصرة مما اضطر متسلمها للجوء إلى الكويت حيث أنجده الشيخ جابر بعدة سفن مليئة بالرجال والذخيرة^(٢) ، وفي عام ١٨٣٦ وحسب أوامر السلطات العثمانية قدم الشيخ جابر عوناً للسلطات العثمانية في البصرة في القضاء على تمرد سكان الزبير وكان عوناً قاصراً على حصار مدخل المدينة من ناحية البحر ، وحين سقطت الزبير في أيدي السلطات العثمانية لجأ واحد من شيوخ عائلة الزهير إلى الكويت ومن هناك قيل أنه باع للشيخ جابر إمارة صوفية بشط العرب المشهورة ببساتين النخيل وهذه الحادثة ستثير مشاكل كثيرة في المستقبل بين الكويت والدولة العثمانية ثم بينها وبين العراق بعد استقلاله^(٣) . ولعل أبرز المساعدات التي قدمها الشيخ جابر للدولة العثمانية هو تصديده لاغارات شيوخ بني كعب ضد البصرة وكان كثيراً ما يمد السلطات العثمانية بالبصرة بالعون والمساعدة ، وحين نجح شيوخ بني كعب في محاصرة مدينة البصرة ساءر بقواته إليها وكان من أعظم المساعدين على استخلاصها من بني كعب كما وجه أسطوله ضد بني كعب حين تغلبوا على الحامية العثمانية في الحمرة . كما يؤثر عن الشيخ جابر رفضه طلباً تقدم به الانجليز في عام ١٨٢٩ لإقناعه برفع العلم الانجليزي على قلعته وذلك حفاظاً منه على العلاقات التي كانت قائمة

(١) ج . ج . لوريمر - دليل الخليج ج ٣ ص ١٥١٣ .

(٢) القناعي ، صفحات من تاريخ الكويت ص ١٤ ، ١٥ انظر أيضاً عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ص ٩٨ .

(٣) جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٩١٤-١٩٤٥ ص ١٤٧ وما بعدها .

بينه وبين الدولة العثمانية رغم تهديدات الانجليز له بمنع التعامل مع سفنه التجارية التي كانت تذهب إلى موانئ الهند . ولعل الموقف الودى الذى وقفه الشيخ جابر إلى جانب الدولة العثمانية سواء بمساعدته لها فى صد الهجمات القبلية أو فى موقفه المعارض للانجليز كان سبباً من الأسباب التي جعلت الدولة العثمانية تكافئه بمائة وخمسين كارة من التمر سنوياً كما منحتة فرماناً وعلماً أخضر واستمر ذلك الراتب يجرى لآل صباح حتى انقطع بتولية الشيخ مبارك حكم الكويت فى عام ١٨٩٦^(١) .

نخلص من ذلك أنه منذ أن تأسست الكويت فى منتصف القرن الثامن عشر استطاعت الامارة أن تحمى نفسها من التدخل فى شئونها من قبل القوى المجاورة لها والتي كانت تتمثل فى الفرس والعثمانيين والسعوديين والمصريين كما أنه لم يثبت وجود سيادة عثمانية على الكويت ، وعلى العكس من ذلك كانت الدولة العثمانية تميل إلى تشجيع شيوخ الكويت على التخلص من الأخطار التي كانت تهدد الكويت أو ولاية البصرة ، وكما أشرنا كان شيوخ الكويت يتلقون رواتب سنوية من خزانة البصرة نظير قيام شيوخ الكويت بحماية شط العرب دون إلزام بهذه الحماية ؛ كما أن رفع الراية العثمانية على السفن الكويتية كان لايعنى ممارسة الدولة العثمانية سيادة على الكويت إذ كان الكويتيون يفضلون أن تبهر سفنهم وهى حاملة للرايات العثمانية لأنه لم يكن هناك اعتراف من قبل الدول الأخرى بالرايات المحلية الكويتية ، ومن ناحية أخرى أن رفع الراية العثمانية لم يكن يقترن فى الأذهان بالتبعية إلى الدولة العثمانية أكثر مما كان يعد مظهراً روحياً لاحترام دولة الخلافة الإسلامية^(٢) .

(١) عبد العزيز الرشيد : تاريخ الكويت ص ٩٨ . انظر أيضاً القنصلى : صفحات من تاريخ الكويت ص ١٤ .

(٢) Rouire, la Question de Golfe Persique CF. le Reglement des Questions des Mascate et de koweit Revue des deux Mondes pp. 370—371 Tome XVII, 1903 Cinquieme periode. See also Whigham. The Persian problem pp. 102—103,

الفصل الثاني عشر

نشأة إمارتي البحرين وقطر

التركيبة القبلية والطائفية لإمارتي البحرين وقطر -
الأوضاع الداخلية في البحرين عقب انهيار السيطرة
البرتغالية - محاولات أئمة اليعاربة السيطرة على البحرين
- الظروف التي مكنت آل خليفة من السيطرة على
البحرين - علاقات آل خليفة بسلطنة مسقط - العلاقات
بين آل خليفة والسعوديين - نجاح الجلاممة في السيطرة
على أجزاء من شبه جزيرة قطر - نجاح السعوديين في
السيطرة على الحويلة والزبارة - انهيار النفوذ السعودي عقب
سقوط الدرعية - ظهور سلطة آل ثاني - انفصال قطر
عن البحرين .



الفصل الثاني عشر

نشأة إمارتي البحرين وقطر

إن معالجة تاريخ نشأة إمارتي البحرين وقطر في فصل واحد أمر يحتمله الواقع التاريخي إذ أنه من الصعب دراسة نشأة أية إمارة من هاتين الإمارتين دون الرجوع إلى الإمارة الأخرى ، ويكفي أن نشير بصدد ذلك إلى أن آل خليفة حكام البحرين بدأوا حكمهم في الزبارة في شبه جزيرة قطر وذلك قبل أن يتجهوا إلى البحرين لكي يؤسسوا لهم إمارة فيها . على أنه مما تجدر الإشارة إليه أنه في الوقت الذي كان فيه آل خليفة يسيطرون على الزبارة كانت كثير من قبائل شبه جزيرة قطر تمارس نوعاً من الحكم الخاص بها واستمر الأمر على ذلك حتى تمكن آل ثاني من الوصول إلى مجال الزعامة ونجحوا في تكوين إمارة خاصة بهم بعد انفصالهم عن آل خليفة في البحرين في عام ١٨٦٨ . ومن الطبيعي أن يصاحب ذلك ظهور كثير من المشكلات الإقليمية والبشرية بين قطر والبحرين نظراً لما كان يجمع بينهما في الماضي من وحدة سياسية . ومن المؤسف أن تتحول روابط الماضي إلى إثارة العديد من المشكلات بين الإمارتين كمطالبة قطر بجزيرة حوار ، وهي إحدى جزر البحرين ، أو مطالبة البحرين بالسيادة على آل النعيم في ميناء الزبارة ، وهذا المطلب الأخير لا يمكن تصنيفه تصنيفاً قانونياً كما يشير إلى ذلك أحد الباحثين في القانون الدولي لأن الأمر هنا لا يتعلق بالمطالبة بإقليم يقع خارج الإمارة

فحسب وإنما المطالبة برعايا إمارة يعيشون في إقليم تابع لإمارة أخرى^(١). وقد يكون من المناسب قبل أن نعرض لنشأة الإمارات أو تتبع التطورات السياسية في كل منهما أن نبدأ بالتعرف على التركيبة القبلية والبشرية التي تتكون منها عناصر السكان في كل من الإمارات. ومما يسترعى الانتباه أن البحرين تختلف عن قطر بتعدد العناصر البشرية التي استوطنت بها وربما يعزى ذلك إلى طبيعة موقعها وتوافر موارد الرزق بها التي كانت تعتمد في الدرجة الأولى على استخراج اللؤلؤ، وهي حرفة رئيسية كانت تجتذب إليها الكثير من العاملين في الخليج أو في مناطق أخرى. وعلى الرغم من كثرة العناصر التي كانت تفد إلى البحرين إلا أن السكان الأصليين في البحرين ينتمون إلى قبائل من شبه الجزيرة العربية أو سواحل الخليج وإن كانت قد خالطتهم بعض العناصر التي ترجع إلى أصول فارسية؛ والتي نزحت في بعض العهود التاريخية إلى البحرين، وخاصة خلال الفترات التي خضعت فيها جزر البحرين للسيادة الفارسية، كما حدث بعد طرد البرتغاليين من البحرين على عهد الشاه عباس الكبير في عام ١٦٠٢، وأعلى عهد نادر شاه مؤسس الأسرة الإفشارية حين أخذ يتطلع إلى مد السيادة الفارسية على سواحل الخليج العربي. وعلى الرغم من ذلك فإن السكان الأصليين من العرب هم الذين يشكلون المجموعة السكانية الكبيرة في البحرين، وإن كان ينبغي أن نقرر مع ذلك أن العناصر الأخرى التي وفدت على البحرين من السواحل الشرقية للخليج تكون عنصراً هاماً من عناصر السكان، وقد انتقلت هذه العناصر إلى البحرين منذ أوائل القرن الثامن عشر الميلادي ومعظمهم يدينون بالمذهب السني^(٢). وعلى الرغم من وجود بعض العناصر الفارسية إلا أنه ينبغي أن نقرر أيضاً أن هناك مجموعات كبيرة من العناصر العربية التي تشكل مجموعة عرب الهولة التي وفدت من السواحل الشرقية للخليج.

(١) Al Bahrna (Hussain), The legal Status of the Arabian Gulf States—A Study of Their Treaty Relations and Their International Problems—Manchester 1968 P. 249.

(٢) جمال زكريا قاسم: الادعاءات الإيرانية في الخليج العربي أصول المشكلة وتطورها التاريخي من أعمال المؤتمر الدولي للتاريخ بغداد ١٩٧٣.

أما العناصر العربية التي وفدت من أواسط الجزيرة العربية فيبرز من بينها مجموعات العتوب والسادة الدواسر وآل النعيم وغيرهم ، ومن مجموعة العتوب برز آل خايفة الذين نجحوا في الوصول إلى السلطة في البحرين منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي^(١) . ويمكننا أن نضيف إلى تلك المجموعات القبلية مجموعات أخرى كانت قد استقرت في شبه جزيرة قطر واستعان بهم آل خليفة في السيطرة على البحرين وعلى الرغم من أن كثيراً من تلك المجموعات قد استقرت في جزر البحرين إلا أن أصولهم لا تزال قائمة في شبه جزيرة قطر ، ويبرز من تلك المجموعات القبلية آل بوكواره والسلاطه وآل مسلم والمعاودة وغيرهم كثيرون .

ومما هو جدير بالذكر أن الغموض يكتنف تاريخ البحرين منذ الفترة التي انهار فيها النفوذ البرتغالي على أيدي الفرس في عام ١٦٠٢ حتى وصول آل خليفة إلى حكم البحرين في عام ١٧٨٣ . وعلى الرغم من أن المصادر الإيرانية تحاول تأكيد تبعية البحرين لفرس طيلة الفترة المشار إليها والتي تبلغ مائة وثمانين عاماً إلا أن دراسة أحداث الخليج خلال تلك الفترة تؤكد لنا أن الحكم الفارسي في البحرين ، أو على الأحرى السيادة الفارسية على البحرين لم تعد أكثر من تسعين عاماً^(٢) .

حقيقة أن البحرين تعرضت لغزوات فارسية من قبل بعض حكام الأسرة الصفوية وكذلك على عهد نادرشاه إلا أن تلك الغزوات لم تكن ناتجة عن إيمان الحكام الفرس بأن البحرين تشكل جزءاً من فارس وإنما كان يحرك تلك الغزوات الأطماع الاقتصادية^(٣) أو الخلافات المذهبية وخاصة ضد شيوخ الاحساء من بني جبر أو بني خالد الذين كانوا يخضعون البحرين

(١) أحمد محمود صبحي : البحرين ودهوى إيران ص ١١ - الاسكندرية ١٩٦٢ .

(٢) يؤكد الكتاب الإيرانيون على خضوع البحرين للسيادة الفارسية التي لم تضعف إلا بعد

عهد كريم خان الزندي في عام ١٧٧٩ راجع بصدد ذلك :

Farroughy, Abbas, The Bahrein Islands, 750-1951, A Contribution to the study of Power Politics in the Persian Gulf pp. 67-69 New York 1951.

(٣) قدر الرحالة ابراهيم بارسونز قيمة اللؤلؤ المستخرج من البحرين في عام ١٧٧٥

بستين ألف تومان عراقى .

CF. Parsons, A., Travels in Asia and Africa P. 202.

لسيطرتهم . وقد أتيح للشاه عباس الكبير في عام ١٦٠٢ أن يخلف البرتغاليين في السيطرة على البحرين حين نشبت الخلافات الطائفية بين عناصر سكانها الشيعة والسنة في أعقاب انهيار النفوذ البرتغالي ونجح الشاه عباس في إرسال قوة بحرية عهد بقيادتها إلى قولى خان الذى نجح في احتلال البحرين وأصبحت البحرين منذ السنوات الأولى من القرن السابع عشر الميلادى تحت الحكم الفارسى حيث تعاقب عليها العديد من الحكام الفرس . ويظهر من دراستنا لعهود أولئك الحكام عدم رضا سكان البحرين بالحكم الفارسى ، وبالتالي كانت البحرين مهياة لقبول حكم عربى يسود في عهده الأمن وبحقق العدالة بين طوائف السكان^(١) . وقد تقدمت من أجل ذلك قوتان عريبتان هما الأئمة الاباضيون في عمان وآل خليفة من جماعات العتوب . ومما يستلفت الانتباه أن تقدم الأئمة الإباضيين للسيطرة على البحرين قد تميز بالنزعة الطائفية إذ يعتبر شيعة البحرين الإباضيين من الخوارج وبذلك وقف الخلاف الطائفي حائلا دون نجاح الإباضيين في عمان في اخضاع البحرين لنفوذهم رغم المحاولات العديدة التى بذلوها من أجل ذلك . ولعل أبرز تلك المحاولات حدثت على عهد الامام سيف بن سلطان من أسرة اليعاربة حين انتهز فرصة الاضطرابات التى حدثت في المملكة الفارسية فقام بحملة كبيرة على البحرين في عام ١٧٠٠ وفر شيعة البحرين إلى القطيف ، كما لجأ بعضهم إلى السواحل الشرقية للخليج وقد أثار غزو اليعاربة للبحرين ثائرة فارس ومن تم عزم الشاه حسين رغم تهالك قوته على تخليص البحرين من سيطرة اليعاربة واضطر إلى الاستعانة بالشركات الأوربية التجارية العاملة في الهند وجزر الهند الشرقية^(٢) حيث أرسل بعثة برئاسة ميرزا نصر إلى بومباي في عام ١٧٠٧ للاستعانة بشركة الهند الشرقية البريطانية كما توجهت بعثة أخرى إلى باتافيا للاستعانة بشركة الهند الشرقية الهولندية ، ولما كانت هاتان الشركتان لا تزالان حتى ذلك الوقت تسعيان إلى الربح المادى ولم تكن أى منهما تضع المغامرات العسكرية

(١) على أبنا حسين : تاريخ البحرين من خلال المخطوطات والوثائق ص ص ٢٤٦-٢٤٧ من أعمال الحلقة الرابعة لمراكز دراسات الخليج والجزيرة العربية أبو ظبي نوفمبر ١٩٧٩ .

Curzon G. Persia and The Persian Question vol. II (٢) P. 484. See also Bombay Govt. S.R.B.G. Muscat vol. XXIV P. 168 SQ.

في حساباتها فقد فشلت هاتان البعثتان^(١)، مما دفع الشاه إلى ارسال بعثة ثالثة للبلاط الفرنسي نجحت في التفاوض على معاهدة صداقة بين فارس وفرنسا في عام ١٧٠٨ وكان ذلك على عهد لويس الرابع عشر، وجاء في بعض نصوص هذه المعاهدة على أن تمتد فرنسا فارس بكل ما تحتاجه من مساعدة ووسائل نقل بحرى لاحتلال مسقط، ولكن فرنسا لم تلبث أن ترددت في تنفيذ تلك المعاهدة مما دفع فارس إلى تكليف سفيرها في باريس بأن يتفاوض من أجل عقد معاهدة أخرى تعطى فرنسا امتيازات تجارية أكثر مما قررتها المعاهدة السابقة وكانت المعاهدة الجديدة تنص على أن تساعد فرنسا فارس في تخليص البحرين من الاحتلال العمانى وتوافق فارس من ناحيتها على إبقاء حامية عسكرية فرنسية ، وأن تشترك فرنسا مع فارس في اقتسام موارد اللؤلؤ في البحرين ؛ غير أن تلك المعاهدة لم يتم المصادقة عليها وبالتالي لم تصل إلى مرحلة التنفيذ وفيما يرجح أن المشكلات الخارجية العديدة التي كان يواجهها لويس الرابع عشر لم تنجح الفرصة لتنفيذها^(٢) .

ومما تجدر الإشارة إليه أيضا أن فارس اتجهت في محاولتها اجلاء العمانيين عن البحرين إلى الاستعانة بالبرتغاليين في قاعدتهم الرئيسية في جوا بالهند وحدث ذلك في عام ١٧١٨ مما أثار ثائرة الإنجليز الذين أخذوا من جانبهم يقدمون مساعداتهم إلى سلطان بن سيف إمام عمان مما مكنه من تثبيت سيطرته على البحرين ، ولكن العداء الذي واجهه العمانيون من عرب الهولة في البحرين كان من أهم الأسباب التي دفعت بإمامة عمان إلى الدخول في مفاوضات مع فارس وقد قبلت فارس أن تدفع لعمان ثمانية آلاف تومان فارسى مقابل انسحاب القوات العمانية من البحرين ووافق اليعاربة على ذلك وتم انسحابهم من البحرين بالفعل في عام ١٧١٨ . على أن ذلك لم يؤد إلى استقرار الأوضاع في البحرين إذ ترتب على السيطرة الفارسية إثارة التعصب

(١) أحمد محمود صبحي : البحرين ودعوى إيران ص ٧٠ .

(٢) CF. Masson, Histoire du Commerce Francais dans le Levant au 18 siècle P. 525. See also Flasseon, Histoire de la Diplomatie Francaise, Livre II, D'Avrile, La Golfe Persique P. 7 SQ.

المذهبي بين السنة والشيعة مما أحوال البحرين إلى فوضى عارمة . ومما يستلقت الانتباه أنه على الرغم من أن فارس استطاعت أن تسيطر على البحرين منذ عام ١٧١٨ إلا أنها لم تمارس الحكم بصورة مباشرة إذ سيطر عرب الهولة على حكم البحرين تحت السيادة الفارسية حتى تمكن زعيم الهولة من التخلص من تلك السيادة وشجعه على ذلك تداعى حكم الشاه حسين^(١) ؛ وتعرض فارس للغزو الأفغانى واستمر الشيخ جبارة زعيم الهولة يحكم البحرين خلال الفترة ١٧١٨ حتى أطاح به نادر شاه فى عام ١٧٣٦ . ولم يلبث عرب الهولة أن استردوا زعامتهم على البحرين على أثر اغتيال نادر شاه فى عام ١٧٤٧^(٢) ولكن سيادة عرب الهولة لم تلبث أن انهارت حين قام الشيخ نصر آل مذكور وهو شيخ عربى من قبيلة المطاريش التى تنتمى أساسا إلى عمان بالقضاء نفوذهم فى عام ١٧٥٥ ، وقد عهد كريم خان الزندى للشيخ نصر آل مذكور الحكم فى البحرين بالاضافة إلى بوشهر وبندر ريق حتى تم لآل خليفنة القضاء على حكم آل مذكور فى البحرين فى عام ١٧٨٣^(٣) .

ويمكننا أن نستخلص مما أوردناه أنه على الرغم من أن البحرين كانت تخضع للسيادة الفارسية إلا أن القبائل العربية هى التى كانت تمارس الحكم الفعلى فى البحرين ، وكثيرا ما كانت هذه القبائل تقوم بالثورة على التبعية الفارسية ولعلنا قد لاحظنا ذلك فى المحاولات العديدة التى قام بها عرب الهولة من أجل التخلص من السيادة الفارسية . ومما يسترعى الانتباه أنه قد عاصر وصول المطاريش أو عرب بوشهر إلى حكم البحرين هجرة آل خليفة إلى الزبارة فى عام ١٧٦٦ وذلك بعد انشقاقهم عن تحالف العتوب حيث بدأت العلاقات بين الفريقين ، والتى انتهت بنجاح آل خليفة فى السيطرة على البحرين وحين وفد آل خليفة إلى شبه جزيرة قطر لم يتمكنوا من السيطرة إلا على ميناء الزبارة أما بقية شبه الجزيرة القطرية فقد كانت تقطن بها مجموعات قبلية

(١) صادق نشأت : تاريخ الخليج السياسى ص ٢٠٠ .

(٢) ج . ج . نوريمر : دليل الخليج ج ٣ ١٢٧٠ .

(٣) النهاية : التحفة النهائية فى تاريخ الجزيرة العربية المجلد السادس البحرين ص

بلغت درجة كبيرة من التعقيد فهناك المناصير وبني مرة وقسم من قبيلة النعيم وآل بوعينين وآل سودان ، وكانت هذه القبائل تسكن مناطق وقرى مختلفة من شبه جزيرة قطر كالوكرة والفويرط والبدع (الدوحة فيما بعد)^(١) . ومن الثابت أيضا أن شبه جزيرة قطر برمتها كانت تخضع في ذلك الوقت لنفوذ بني خالد في الاحساء ، وكما يذكر صاحب كتاب لمع الشهاب في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أن آل مسلم أبرز قبائل قطر ينتمون أساساً إلى قبيلة ربيعة وهم بذلك كانوا يعدون فرعاً من فروع بني خالد وكانوا يقيمون في الحويلة الواقعة على الساحل الشرقي من شبه جزيرة قطر^(٢) ، وكانوا يستمدون نفوذهم من علاقتهم ببني خالد . وقد تمكن آل خليفة أخيراً من الاستقرار في ميناء الزبارة المواجه لجزر البحرين ومن ذلك الميناء بدأوا بوجهون طموحهم للسيطرة على تلك الجزر^(٣) .

وبصدد سيطرة آل خليفة على البحرين تؤكد بعض المصادر الفارسية أن الشيخ أحمد بن خليفة ألح على الشيخ نصر آل مدكور شيخ بوشهر والبحرين على أن يترك له حكم البحرين مقابل دفع جزية سنوية إلى أمير شيراز ووافق الشيخ نصر على ذلك وأصبح الشيخ أحمد بن خليفة حاكماً على الزبارة والبحرين تحت السيادة الفارسية . على أن ما ذكرته المصادر الفارسية كان أمراً لا يتفق مع منطق الأشياء إذ أن الشيخ نصر حاكم بوشهر كان يخضع البحرين لسيطرته ، ومن الطبيعي ألا يقبل أن يحل غيره في حكم البحرين ، كذلك تذكر بعض المصادر الفارسية الأخرى بأن سيطرة آل خليفة على البحرين حدثت بعد وفاة الشيخ نصر آل مدكور في عام ١٧٧٧ وأن الشيخ أحمد بن خليفة انتهاز فرصة وفاة الشيخ نصر ليكتب إلى كريم خان

(١) Kelly J., Britain and the Persian Gulf CF Chapter

I, The Persian Gulf in the Late Eighteenth.

(٢) لمع الشهاب في تاريخ الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٦٩ .

(٣) ج . ١ ج لوديمر : دليل الخليج القسم التاريخي ج ٢ ص ١٢٧٣ - ١٢٧٤ .

الزندی کی یذیبہ عنہ فی حکم البحرین ، وقبل کریم خان هذا الطلب الذى يعنى اعتراف آل خلیفة بالسیادة الفارسیة ودفع الجزیة للخزانة الفارسیة بنفس القدر الذى كان یتحصل من شیوخ بوشهر ، ولكن ما کاد الشیخ أحمد ابن خلیفة یصل إلى تحقیق هدفه هذا حتى بدأ یتخلص من دفع الجزیة لفارس وأعانه على ذلك اغتیال کریم خان الزندی فی عام ١٧٧٩ وتعرض الأقالیم الفارسیة للاضطراب والفوضى ، وفى أثناء فترة الاضطرابات هذه عمل شیوخ بوشهر على استرجاع سيطرتهم على البحرین مما دفع بالشیخ أحمد بن خلیفة إلى التراجع إلى الزبارة . وحین نجح شیخ بوشهر فی السيطرة على حکم البحرین استعان آل خلیفة بالقواسم والجلالمة ، وبفضل المساعدات التى قدمت لهم نجح أحمد بن خلیفة فی دخول البحرین وهرب حکام البحرین من آل مدکور لیستعینوا بالسلطات الفارسیة فی الخلیج ؛ بید أن أحمد بن خلیفة فوت علیهم الفرصة حین أعلن بعد وصوله إلى حکم البحرین استعدادده لدفع الجزیة إلى أمیر شیراز ولم تكن فارس تطلب من حکامها المحليین أكثر من دفع الجزیة والاعتراف بسیادتها . ویؤكد المؤرخ الایرانی صادق نشأت أن الشیخ أحمد بن خلیفة ظل طوال حیاته لا ینکر ارتباط البحرین بفارس کما ظل لعدة سنوات یدفع الجزیة باعتباره تابعاً لأمیر شیراز^(١) . وإذا دققنا النظر فیما ذکرته المصادر الفارسیة بشأن استیلاء آل خلیفة على البحرین نجد أن الروایات التى أثرت بصدد ذلك تحفل بكثير من المتناقضات^(٢) . ولذلك فقد یكون من الأسلم أن نأخذ بما ذکرته المصادر العربیة والوثائق البریطانیة التى تقر بأن آل خلیفة وصلوا إلى حکم البحرین بعد تخلیصها من السیادة الفارسیة وأن البحرین كانت موضع اهتمامهم منذ استقرارهم فی الزبارة ، وقد اتخذ الشیخ خلیفة بن محمد بعد نزوله فی الزبارة عدة إجراءات استهدف بها تقوية نفوذه فنزل عند قبيلة آل بنعلی وتزوج منهم وبعد مصاهرته لتلك القبيلة قویت صلاته ونفوذه لدى القبائل الأخرى

(١) صادق نشأت : مرجع سبق ذكره ص ١٢٦ .

انظر أيضا Farrouhy, Abbas, Bahrein Islands pp. 67 FF.

(٢) أحمد محمود صبحی : مرجع سبق ذكره ص ص ٨٠/٨١ .

وعزز ذلك سيرته الحسنة بين الناس ، وفي الزبارة شيد لنفسه بيتاً محصناً لا تزال أطلاله قائمة حتى وقتنا الحاضر ويعرف بقلعة مرير . وفي البداية اعترف الشيخ خليفة بن محمد بسلطة آل مسلم باعتبارهم نواباً لبني خالد في قطر وكان يدفع لهم الخراج كأية قبيلة أخرى تقطن في شبه جزيرة قطر ولكن بعد أن نمت ثروة آل خليفة وازداد نفوذهم امتنعوا عن دفع الخراج وتحصن الشيخ خليفة بالقلعة التي بناها وكانت هذه القلعة أساساً لنفوذ آل خليفة في الزبارة كما أنها اتخذت نقطة وثوب على البحرين^(١) . وساعدت الأحداث التاريخية التي مرت على الخليج العربي في تطور مركز الزبارة فقد هاجر إليها تجار البصرة الأثرياء أثناء الاحتلال الفارسي للبصرة ١٧٧٦ / ١٧٧٩ كذلك هاجر إليها الجلاهمة وهم الفرع الثالث من تحالف العتوب بعد انشقاقهم عن آل صباح ، كما أخذت تتركز في الزبارة تجارة شرق الجزيرة العربية والهند فضلاً عن أنها أصبحت مركزاً هاماً لتجارة اللؤلؤ . ولا شك أن هذا التطور الذي حدث في ميناء الزبارة قد أثار مخاوف الشيخ نصر آل مذكور حاكم بوشهر والبحرين ولذلك أصبح غزو الزبارة من أهم الأهداف التي سعى إليها ذلك الحاكم وقد وجد الشيخ نصر تشجيعاً من حاكم إقليم فارسستان فكان أن بدأ مناوشاته مع آل خليفة وقد نهت تلك المناوشات آل خليفة إلى الخطر الذي بدأ يحدق بهم من البحرين ولذلك ما كادت تتردى الأقاليم الفارسية في الاضطرابات التي وقعت بعد اغتيال كريم خان الزندي في عام ١٧٧٩ حتى انقضوا على البحرين وبعد صدام مسلح تمكن آل خليفة من العودة إلى قاعدتهم في الزبارة بعد استيلائهم على الكثير من الاسلاب وكان من بينها إحدى السفن التابعة للشيخ نصر حاكم بوشهر والتي كانت راسية في إحدى موانئ البحرين^(٢) . واستجابة لتعليمات مراد خان حاكم إقليم فارسستان أعد الشيخ نصر حملة تأديبية ضد

(١) صادق عبد الوافي : علاقات الدولة السعودية الأولى مع دول شرق الجزيرة العربية ١٧٥٠ - ١٨٢٠ ص ٤٧ القاهرة ١٩٧٢ .
(٢) ج . ج . لوريمر : مرجع سبق ذكره ج ٣ ص ١٢٧٣ - ١٢٧٤ . انظر أيضاً محمد خليفة النباهي : النخبة النهائية في إمارات الجزيرة العربية القسم السادس البحرين ص ١٢٣ ، ١٢٧ وما بعدها .

آل خليفة في الزبارة في عام ١٧٨٢ وانضم إلى هذه الحملة عرب بندر ريق ودوستان وغيرهم حيث نجحت في حصار الزبارة ولما عجز آل خليفة عن مقاومة ذلك الحصار عرض شيوخ آل خليفة الصلح ورد الاسلاب إلى الشيخ نعر وتوسط الشيخ راشد حاكم رأس الخيمة في الخلاف الذي نشب بين الطرفين ، ولما فشلت مفاوضات الصلح بادر الشيخ نصر بشن هجوم على الزبارة بعد أن استطاع أن يجذب إليه بعض القوى العربية ضد آل خليفة ومن بينها الشيخ راشد زعيم القواسم الذي حول موقفه تجاه آل خليفة واتجه به إلى موقف معادي . ولكن القوات المهاجمة فشلت في اسقاط قلعة الزبارة وانتشى آل خليفة بنجاحهم في صد ذلك الهجوم وأخلوا يتعقبون القوات المغيرة ولم ينهم عن تعقبها إلى البحرين سوى افتقارهم إلى وسائل النقل ولذلك ما كاد آل خليفة يتلقون عوناً من الجلاهمة وآل صباح حتى نجحوا في مد سيطرتهم على البحرين في عام ١٧٨٣ .^(١) ولا شك أن آل خليفة قد استغلوا الظروف السياسية الحرجة التي كانت تمر بها فارس ومن بينها تفكك أسرة الزند وحالة الفوضى التي سبقت وصول أسرة قاجار إلى الحكم . ومما تجدر الإشارة إليه أنه شارك آل خليفة في السيطرة على البحرين بالإضافة إلى الجلاهمة وآل صباح بعض القبائل القطرية والتي كان من أبرزها آل مسلم من الحوية وآل بنعل من الفويرط وآل سودان من الدوحة وآل بوعينين من الوكرة والقبيسات من خورحسان وآل سليط من الدوحة والسادة والدواسر من داخل شبه الجزيرة القطرية . وكان من أثر ذلك الهجوم الذي تزعمه آل خليفة أن استسلمت الحامية الفارسية في حصن المنامة في ٢٩ يولية ١٧٨٣ وسمح آل خليفة لأفرادها بالعودة إلى بوشهر بعد شهرين من الحصار^(٢) .

والأمر الذي يستلفت الانتباه أن توسع آل خليفة في البحرين كان ظاهرة طبيعية الانتعاش الذي حققته الزبارة إذ أن المدينة لم تعد تستوعب

(١) Bombay Government, op. cit. CF Historical Sketsh of The Utoabee tribe of Arabs P. 364. ff See also Report by Captain Tyler R. relating to Oman and adjoining countries

(٢) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج ج ٣ ص ١٢٧٤ .

التصاعد الواضح في نمو السكان الذين تدفقوا عليها من نجد والكويت كما أن آل خليفة اتجهوا إلى التوسع في البحرين بينما لم يفكروا في التوسع على حساب شبه جزيرة قطر ، وربما يرجع تعليل ذلك إلى أنهم ظلوا محافظين على علاقات حسن الجوار مع بني خالد ، كما أن التوسع السعودي إلى سواحل الخليج هو الذي دفع آل خليفة للاتجاه صوب البحرين لعدم وجود أسطول للسعوديين يستطيع أن يتعقبهم داخل تلك الجزر^(١) . وبالإضافة إلى الظروف السياسية المضطربة التي كانت تمر بها فارس كانت الأوضاع الداخلية في البحرين مساعدة لآل خليفة للسيطرة عليها ونعني بذلك الخلافات المذهبية الحادة بين الطائفتين الإسلاميتين السنة والشيعة ؛ وقد أدت هذه الخلافات إلى مقتل أحد أفراد آل خليفة في جزيرة سترما مما دفع الشيخ أحمد بن خليفة إلى شن حملة على البحرين . وحين استنجد شيعة البحرين بأمر شيراز أصدر أوامره إلى شيخ بوشهر بتجهيز حملة للسيطرة على الزبارة كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ثم تطور النزاع إلى السيطرة على البحرين من قبل آل خليفة .

وعلى أية حال فإن ضم البحرين إلى الزبارة يرتبط بالشيخ أحمد بن خليفة الذي لقب بأحمد الفاتح وقد ظل مقبلاً في ميناء الزبارة حتى وفاته بينما ترك الحكم في البحرين لإثنين من أبنائه ولم ينتقل مركز الحكم إلى البحرين إلا بعد وفاته حين اتفق ابنا الشيخ أحمد فيما بينهما على استمرار مشاركتهما في الحكم حيث اتخذ الأول مدينة الرفاع مركزاً للحكمة واتخذ الثاني من جزيرة المحرق مركزاً له ، ومما هو جدير بالذكر أن هذا التقليد ظل متبعاً في البحرين حتى عام ١٨٦٨ حين توحدت السلطة في البحرين وانفصلت الزبارة عن تبعيتها لآل خليفة لتشكل مع بقية أجزاء قطر إمارة قائمة بذاتها^(٢) .

(١) أحمد مصطفى أبوحكمة : تاريخ الكويت ج ١ القسم الأول ص ١٨٨/١٨٩ .

(٢) عن انفصال قطر عن البحرين انظر : جمال زكريا قاسم : الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠-١٩١٤ ص ١٧٨/١٧٩ القاهرة ١٩٦٦ .

تطور إمارة البحرين والعلاقات بينها وبين القوى المجاورة لها .

وفي غضون العشرين عاما الأولى من حكم آل خليفة للبحرين ١٧٨٣/١٨٠٣ تقدمت البحرين تقدما سريعا في النواحي التجارية وكان مقدرها لها أن تنزع من مسقط أهميتها التجارية يساعدها على ذلك وقوعها في منطقة تتوسط مضيق هرمز وشط العرب ومقدرتها على التحكم في التجارة العابرة في الخليج ، كما أن التدهور الذي لحق بالبصرة دفع عملية التطور الإقتصادي في البحرين دفعة كبيرة ، كما يرجع الفضل في الازدهار التجاري الذي حققته البحرين إلى حكامها الجدد من آل خليفة الذين برزت قدراتهم التجارية في الكويت أولا ثم في الزبارة ثانياً . والأمر الذي لاشك فيه أيضا أن ازدهار موارد الثروة في البحرين قد أثار الأطماع الفارسية حيث ضاقت فارس ذرعاً بضياح البحرين منها ، وإن كان اضطراب الأوضاع بها قد حال بينها وبين العودة لمحاولة استرجاع البحرين كما أن آل خليفة رأوا في بداية حكمهم ترضية فارس وذلك بدفع مبلغ من المال سنويا إلى أمير شيراز ولكن ذلك لم يستمر لفترة طويلة وخاصة بعد أن أيقن شيوخ آل خليفة أن فارس لم تعد تشكل خطراً عليهم^(١) . على أنه في الوقت الذي لم تعد فيه فارس تشكل خطراً على آل خليفة كانت هناك أخطار أخرى تربص بهم ولعل أهم تهديد واجهه آل خليفة كان من قبل سلطنة مسقط حيث قام سلطان بن أحمد بمحاولات ثلاث للسيطرة على البحرين في أعوام ١٧٩٩ و ١٨٠١ و ١٨٠٣ على التوالي^(٢) . وكان ذلك مما دفع آل خليفة للاستنجاد بالقوى المجاورة لهم دفعا لتلك الغزوات ففي الحملة الأولى التي وجهتها مسقط إلى البحرين بادر آل خليفة بالاستنجاد بأعدائهم القدامى شيوخ بوشهر حيث أعربوا لهم بأنهم على استعداد لتأكيد السيادة الفارسية ودفع الجزية السنوية لفارس^(٢) ، وكان من أثر المساعدات الفارسية التي قدمت

(١) جون كلي : بريطانيا والخليج ج ١ ص ٥٢/٥٤ .

(٢) عن محاولات سلطان بن أحمد السيطرة على البحرين راجع كتابنا دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقيا ص ٧٧ - ٧٨ .

لشيوخ آل خليفة فشل حملة مسقط الأولى التي لم تسفر عن شيء سوى احتلال جزيرة خرج في عام ١٨٠٠ ، ولكن ذلك الاحتلال لم يستمر طويلا إذ اضطرت القوات المسقطية إلى إخلائها . وفي عام ١٨٠١ خرج سلطان بن أحمد في حملة ثانية لاحتلال البحرين ونجح في السيطرة عليها بالفعل حتى أنه نصب ابنه سالما واليا عليها ولما كان سالم هذا حدثا صغيرا فقد جعل في معيته الشيخ محمد بن خلف وكان ينتمي إلى المذهب الشيعي وفيما يبدو أنه قصد بذلك إلى إرضاء شيعة البحرين ، ولكنه في نفس الوقت أساء إلى العتوب الذين نقضوا عهدهم معه لما بينهم وبين الشيعة من العداء المذهبي^(١) . كذلك حرص سلطان بن أحمد أن يأخذ من البحرين مجموعة من الرهائن كانت بمثابة خمسة وعشرين شخصا من أعيان البحرين كما وضع حامية من الجنود التابعين له في قلعة عراد بالحرق وأرغم آل خليفة على مغادرة البحرين فالتجأوا إلى الزبارة . ويرى الباحث الإيراني فريدون آدميات أن هذه الحملة كانت بتنسيق تم بين سلطان مسقط وحاكم شيراز وأن فارس وافقت بعد تردد على إرسال تلك الحملة مقابل مشاركتها مسقط في إيرادات البحرين، وأنها أسهمت في هذه الحملة بألفي فارس وألفين من المشاة وقدمت تلك القوة من قبل شيخ بوشهر وحسين علي ميرزا حاكم إقليم فارسستان^(٢) .

ولكن لم يلبث أن تمكن آل خليفة من استرداد البحرين وأعادهم على ذلك ظهور القوة السعودية في الاحساء حيث تمكنوا من طرد الحامية المسقطية من البحرين وأجبروا النائب الذي وضعه سلطان بن أحمد من قبله لحكم البحرين

(١) ابن رزيق : الفتح المبين في تاريخ السادة البوسعيدين ص ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، وكذلك النهاية : التحفة النيهانية - البحرين ص ١٣٠ .

(٢) Adamyat F., Bahrein Islands P, 37.

انظر أيضا ج . ج لوريمر : دليل الخليج ج ٣ ص ص ١٢٧٧ - ١٢٧٨ .

على مغادرة الجزيرة^(١) . وحين توجه سلطان بن أحمد إلى البحرين للانتقام من آل خليفة في عام ١٨٠٣ كان واضحا أنهم قد ألقوا بأنفسهم في أحضان السعوديين ولذلك أثر سلطان مسقط الانسحاب وخاصة أن القدرات السعودية كانت تهدد الأراضي العمانية ذاتها^(٢) . وهكذا أسفرت محاولات سلطان مسقط عن فشل ذريع ولم ينج منها سوى نقمة آل خليفة عليه حيث ظلوا يتربصون به حتى تمكنوا من اغتياله في عام ١٨٠٤ بالاشتراك مع جماعة من القواسم^(٣) .

غير أنه لم يكد آل خليفة يتخلصون من نفوذ كل من فارس ومسقط حتى وجدوا أنفسهم خاضعين للنفوذ السعودي بل ولم يلبث أن جرهم السعوديون في عام ١٨٠٣ إلى توجيه حملة ضد مسقط ، وبطلب من السعوديين أيضا أنحر أسطول آل خليفة إلى مسقط في عام ١٨٠٥ وكان ذلك بهدف مراقبة الأحداث التي نجمت عن اغتيال سلطان بن أحمد ومما يستلفت الانتباه أن خضوع البحرين للضغوط السعودية أدى إلى تحويل موقف حكامها إذ ما كاد بدر بن سيف يصل إلى السلاطة في مسقط حتى بادر آل خليفة بإعلان تحالفهم مع مسقط بل أخذوا يدفعون إليها مبالغ من المال ؛ وهي المبالغ التي كانوا قد أهملوا دفعها لسلطنة مسقط من قبل ، واستنادا إلى ذلك التحالف أعلنوا في عام ١٨٠٩ رفضهم طلب السعوديين الاشتراك مع القواسم في حملة بحرية ضد مسقط أو ضد إخوانهم آل صباح في الكويت^(٤)

أسفر عن هذا الموقف المعادى للسعوديين من قبل شيوخ آل خليفة أن أصدر الأمير السعودي في عام ١٨١٠ أمرا بتعيين عبد الله بن عفيصان ليكون وكيلا

Bombay Government, op. cit. CF Historical Sketsh (١)
of the Rise and Progress of the Government of Muscat
vol, XXIV P. 173 FF.

(٢) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج ج ٣ ص ١٢٧٨ .

(٣) محمد مرمي عبد الله : إمارات الساحل و عمان والدولة السعودية الأولى ص ١٩٠ .

(٤) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج ج ٣ ص ١٢٧٩ .

عنه للإشراف على شئون البحرين وقطر والاحساء ، وقد اتخذ عبد الله ابن عفيصان من البحرين قاعدة له بيد أنه حدث في العام التالي أن اضطرب السعوديين إلى تقليص قواتهم في الزبارة والبحرين والاحساء وذلك بسبب التوتر في الجبهة الغربية نتيجة تقدم القوات المصرية التركية في هذا الاتجاه وقد أفاد هذا الوضع السيد سعيد بن سلطان الذي استطاع أن يخلص البحرين من النفوذ السعودي^(١) ، مما كان يبشر بتحالف وثيق بين مسقط وآل خليفة ولكن ذلك التحالف لم يقدر له الاستمرار طويلاً إذ أن طموح مسقط في السيطرة على البحرين دفعت آل خليفة في عام ١٨١٦ إلى الاستنجاد بالسعوديين ضد سلطان مسقط ؛ كما دخلوا في علاقات تحالف مع القواسم وخاصة بعد أن وضع رحمة بن جابر زعيم الجلاممة نفسه تحت لواء مسقط .

نخلص من ذلك أنه لم تكن هناك سياسة ثابتة لشيوخ آل خليفة بالنسبة لعلاقتهم بكل من فارس ومسقط والسعوديين والقواسم وإنما كانت سياستهم تتحدد طبقاً للظروف أو الأخطار التي يواجهونها فحينما استولى سلطان ابن أحمد على البحرين استعان آل خليفة بالسعوديين وحين سيطر السعوديون على البحرين استعان آل خليفة بأعدائهم وهو سلطان مسقط وحين ضغط السعوديون على البحرين في عام ١٨١٧ أرسل آل خليفة رسالة يستنجدون بها بالفرس وأنهم يتطلعون إلى الشاه في مساعدتهم ضد (خطر الوهابيين) ، ورغم أننا لا نستبعد أن تكون هذه الرسالة قد صدرت بالفعل من شيوخ آل خليفة ؛ وذلك في محاولة منهم استغلال العداء المذهبي بين الفرس والسعوديين ، إلا أن الملاحظ أن كثيراً من المصادر الإيرانية تركز على هذه الرسالة باعتبارها بمثابة اعتراف من شيوخ البحرين بالسيادة الفارسية عليهم . وفي يقيننا أن هذه الرسالة لم تكن إلا مجرد إثارة الناحية المذهبية بهدف تدخل الفرس

(١) تركز المصادر الفارسية على الخلافات المذهبية بين الشيعة والسنة وأن فارس كانت تتجه للتحالف مع سلطنة مسقط لتخايع البحرين من النفوذ السعودي ولم يقف حائلاً دون ذلك إلا طموح السيد سعيد في السيطرة على البحرين أنظر :

لإنقاذ البحرين من نفوذ السعوديين ، ولا تدل هذه الرسالة على شيء أكثر مما تدل عليه رسالة أخرى طلب فيها آل خليفة النجدة من السعوديين ضد سلطان مسقط ، أو رسالة ثالثة طلب فيها آل خليفة من السيد سعيد العون ضد السعوديين . على أنه منذ عام ١٨٢٠ بدأ آل خليفة يتطلعون إلى الحكومة البريطانية لحمايتهم ولم يكن هناك عقبة لإزاء ذلك سوى أن بريطانيا كانت تعتبر البحرين ميناء من موانئ القرصنة هذا على الرغم من أن آل خليفة لم يرتكبوا أية عمليات بحرية ضد السفن البريطانية إلا أن صداقتهم للقواسم وبيع القواسم أسلاهم في البحرين جعل بريطانيا تقف هذا الموقف من شيوخ آل خليفة في البحرين . ومع ذلك فعلى الرغم من العلاقة الوثيقة التي كانت تربط بريطانيا بالسيد سعيد سلطان مسقط إلا أنها لم تشأ أن تتدخل لمناصرته في السيطرة على البحرين ، وعلى العكس من ذلك وقفت الحكومة البريطانية ضد المحاولات التي قام بها بهدف السيطرة على البحرين ومن ثم بدا واضحاً لشيوخ آل خليفة أن بريطانيا هي القوة الوحيدة التي يمكن أن تحميهم من أخطار جيرانهم ، ولذلك ما كادت بريطانيا تبرم معاهدة السلام العامة مع شيوخ الساحل العماني في عام ١٨٢٠ حتى أعلن آل خليفة إنضمامهم إلى تلك المعاهدة^(١) . وحين أدرك سلطان مسقط عدم اهتمام حكومة بومباي بالاستجابة إلى طموحه بشأن ضم البحرين اقترح على الشيخ سلمان والشيخ عبدالله بن خليفة - وكانا يقبضان على زمام الأمور في البحرين أن يدفعاً له مبلغ ثلاثين ألف كورونة كجزية سنوية^(٢) مقابل تنازله عن المطالبة بالبحرين ، ومما تجدر الإشارة إليه أن الإنجليز رفضوا الاشتراك كطرف ثالث في الاتفاقية المقترحة لضمان دفع المبلغ المذكور ، ولما رأى شيوخ آل خليفة اعتراض الإنجليز استغلوا هذه الفرصة وخفضوا الجزية السنوية إلى ثمانية عشر ألف كورونة^(٣) . غير أنه على أثر توقف شيوخ البحرين عن دفع الجزية المتفق عليها قام سلطان مسقط في عام ١٨٢٨

(١) أحمد محمود صبحي : مرجع سبق ذكره ص ١٠٠ .

(٢) تعادل الكورونة ١/٢ جنيه سترليني .

(٣) صادق نشأت : تاريخ الخليج السياسي ص ١٤٨ .

بمحاويلته الأخيرة لضم البحرين؛ غير أن مخططاته العسكرية لم تلبث أن منيت
بفشل ذريع وذلك حين طلب شيوخ البحرين النجدة من السعوديين وحاول
سلطان مسقط الاستفادة من هذا التحول المفاجيء في سلوك شيوخ البحرين
فطلب من الإنجليز مساعدته ، وتوجه في هذه المرة إلى وزارة الخارجية
البريطانية مباشرة مؤكداً الأضرار التي يمكن أن تنجم عن سيطرة السعوديين
على البحرين ؛ غير أن هزيمة سلطان مسقط العسكرية في البحرين وإصرار
الحكومة البريطانية على موقفها الذي كان يتلخص في أن ضم السيد سعيد
للبحرين سوف يبعث الفوضى في المنطقة جعلته ييأس من الحصول على أية
انتصارات سياسية أو عسكرية حتى أنه أراق ماء وجهه في سبيل عقد صلح
مع شيوخ آل خليفة وتم ذلك بالفعل في نوفمبر ١٨٢٩^(١) ، وفيما يبدو
أن هزيمة السيد سعيد وضياح آماله في الخليج كانت من أهم الأسباب التي
دفعت به إلى توجيه اهتمامه إلى ميدان جديد أقل وعورة من الخليج وهو
الميدان الأفريقي حيث بدأ منذ ذلك الوقت يركز على القسم الأفريقي من
ممتلكاته أكثر من تركيزه على القسم الآسيوي منها ويهمن أن نشر في ذلك
المجال أن الحروب التي دارت بين السيد سعيد سلطان مسقط وآل خليفة
شيوخ البحرين لم تكن تتعارض مع معاهدة السلام العامة التي كان شيوخ
البحرين طرفاً فيها ؛ وذلك لأن هذه المعاهدة كانت كما سبق أن أشرنا إلى
ذلك لا تضع حظراً على الحرب النظامية ، وعلى الرغم من ذلك فقد أصدرت
حكومة بومباي أوامرها إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج لكي يعرض
وساطته لإنهاء هذا النزاع ، وهو أمر تقبله السيد سعيد الذي كان متاهفاً إلى
عقد صلح يتمكن بواسطته من تصفية مشاكله في الخليج العربي ولكن على أثر
إصرار شيوخ آل خليفة على أن يكون الإنجليز ضامنين لشروط ذلك الصلح

(١) تعزو وثائق بومباي فشل السيد سعيد في محاولته ضم البحرين إلى تخلي جيرانه الذين
كان يمتد عليهم ومن بينهم الشيخ طحون حاكم أبو ظبي . على حين يؤكد كيرزون أن
بريطانيا كانت تحول دون أية قوة للسيطرة على البحرين بعد انضمامها إلى المعاهدة العامة انظر :

Bombay Government, S.R.B.G, vol. XXIV P. 381

See also G. Curzon, Persia and the Persian Problem vol.

II P. 458.

أعلن المقيم البريطاني سحب وساطته ، وكمقاب لهم أصدر المقيم البريطاني أوامره بسحب الطراد البريطاني الذي كان موجوداً في مياه البحرين للمحافظة على النظام في مواسم الغوص على اللؤلؤ، ولذلك اضطر شيوخ آل خليفة إلى الموافقة على عقد الصلح الذي نص على ألا يتدخل أحد من الطرفين في الشؤون الداخلية للطرف الآخر إلى جانب تقديم كل من الطرفين عوناً للآخر حالة تعرض أحدهما لهجوم من قبل طرف ثالث . وعلى الرغم من عقد ذلك الصلح إلا أن العلاقات بين مسقط والبحرين ظلت يعتمرها الشك وفقدان الثقة بدليل أن بريطانيا لم تدخ شيوخ البحرين للتوقيع على الهدنة البحرية الأولى التي عقدها مع شيوخ الساحل العماني في عام ١٨٣٥ ، وكان استبعاد بريطانيا لشيوخ البحرين من التوقيع على تلك الاتفاقية يعود لسببين هامين أولهما أن سلوكهم فيما يتعلق بسلامة أمن الخليج البحري لم يكن خالياً من الشوائب ، أما السبب الثاني وهو الأهم فقد قدرت حكومة بومباي أنه إذا سمح لآل خليفة بالانضمام إلى الهدنة البحرية فقد يترتب على ذلك مطالبتهم السلطات البريطانية في الخليج بحماية البحرين من الهجوم عليها حالة استئناف الحرب بينهم وبين سلطنة مسقط وهو أمر كانت ترفضه الحكومة البريطانية ، ومن ناحية أخرى أدى عدم تحديد الموقف البريطاني بشأن البحرين فيما يتعلق بعلاقاتها مع سلطنة مسقط أو في عدم ضمان حمايتها إلى تطلع السعوديين للسيطرة عليها خاصة حين بدأ تركي بن سعود يوطد حكمه في الاحساء وأخذ يطالب شيوخ آل خليفة بالزكاة ، ومن ثم خاض آل خليفة حروباً طويلة ضد السعوديين حيث تمكنوا من مهاجمة موانئ القطيف والعقير إلى أن تم في عام ١٨٣٦ عقد الصلح بينهم وبين الإمام فيصل بن تركي وإن كان وصول القوات المصرية إلى سواحل الاحساء في عام ١٨٣٨ أصبح له أثر كبير في تبديل العلاقات بين آل خليفة والسعوديين من ناحية وبين الحكومة البريطانية من ناحية أخرى^(١) .

(١) انظر بصدد ذلك صورة الجنرال المحضر من طرف محمد أفندي رفعت المتضمن بيان الأحوال المصادرة من مادة البحرين وغيرها - محفظة ٢٦٧ وثائق القلعة (عابدين) .

الأوضاع الداخلية في شبه جزيرة قطر :

وبينما كانت الأمور تسير على هذا النحو في البحرين كانت هناك تطورات أخرى مرت بها شبه الجزيرة القطرية ؛ ففي خلال الفترة من عام ١٧٨٣ وهو تاريخ سيطرة آل خليفة على البحرين حتى عام ١٨٢٦ وهو العام الذي انتهى فيه نفوذ الجلاهمة كان هؤلاء قد نجحوا في أن يشكّلوا في قطر قوة يعتمد بها إذ أن الجلاهمة اعتبروا المكافأة التي قدمها لهم آل خليفة غير لائقة بالتضحيات الكبيرة التي قدموها لآل خليفة ومكنوهم بها من السيطرة على البحرين ، وقد دفع الخلاف الذي قام بينهم وبين آل خليفة ، إلى مغادرتهم الزبارة التي كانت في ذلك الوقت مركزا لحكم آل خليفة والتجئوا إلى الرويس ولذلك اتجه آل خليفة إلى العمل على التخلص منهم نهائيا وأدخل الصراع بينهما يخدم حيث عبأ آل خليفة كل الموارد التي يمتلكونها واستأجروا عددا لا يستهان به من القوات المرتزقة مما دفع الجلاهمة إلى طلب الحماية السعودية ، وليس من شك في أن الدعم البحري الذي قدمه الجلاهمة للسعوديين هو الذي مكن لنفوذ الأخيرين في كل من الاحساء وقطر والبحرين^(١). ومما يسترعى الانتباه أنه بينما حظيت مدينتا الزبارة وخورحسان في شبه جزيرة قطر بشيء كبير من اهتمام المصادر المحلية لتاريخ الخليج حيث خضعت الأولى لنفوذ آل خليفة والثانية لنفوذ الجلاهمة فإن بقية مناطق قطر لم تحظ بأي اهتمام باستثناء بعض اللمحات البسيطة التي وردت في مؤلفات ابن بشرو ابن غنام وقد استطاع السعوديون نتيجة الغزوات المتتالية التي وجهوها إلى قطر إخضاع معظم مناطقها لسيطرتهم على أنه بانحسار النفوذ السعودي من قطر والاحساء بسبب تقدم القوات المصرية التركية بدأ يظهر نفوذ القبائل المحلية في شبه جزيرة قطر وخاصة آل بو عيين في البدع الذين اشتبكوا في صراعات

(١) Bombay Govt., Op. cit. CF. Historical Sketsh of The Utoobee Tribe of Arabspp 368—369.

وتذكر وثائق بومباي بصدد ذلك أن السعوديين نجحوا في عام ١٨١٠ في توحيد البحرين وقطر والقطيف في إدارة واحدة عين عليها ابن عفيصان نائبا عن الأمير السعودي سعود ابن عبد العزيز .

حادثة في عام ١٨٢٨ مع شيوخ آل خليفة في البحرين دمرت فيها قلاعهم كذلك يسجل لنا عام ١٨٣٥ تمرد أهالي الخويلة على سلطة شيوخ البحرين وكان الزعيم المتنفذ على الخويلة عيسى بن طريف زعيم قبائل آل بن علي وقد حاول أن يتخذ من أبو ظبي قاعدة لعملياته ضد آل خليفة ولكنه فشل في ذلك بسبب إصرار السلاطات البريطانية في الخليج على عدم الإخلال بمعاهدة السلام العامة . والأمر الذي لاشك فيه أن هذا الطابع الذي تميزت به قطر من حيث رفض قبائلها الخضوع لآل خليفة قد حولها إلى ساحة للحروب الأهلية التي نشبت بين شيوخ البحرين أنفسهم المتنازعين حول السيادة في البحرين مما جعل بريطانيا تتجه في سياستها إلى العمل على فصلها نهائيا عن البحرين حيث اعترفت بسيادة آل ثاني عليها منذ عام ١٨٦٨ ، ولذلك يعد ذلك التاريخ بداية انفصال قطر عن البحرين وبرزها كإمارة جديدة بعد أن كان يشار إليها قبل ذلك بتوابع البحرين كما نلاحظ ذلك في المعاهدات التي أبرمت بين بريطانيا وشيوخ البحرين بدءاً من معاهدة السلام العامة حتى عام ١٨٦٨ ^(١) .

(١) جمال زكريا قاسم الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ - ١٩١٤
من ص ١٧٨ - ١٧٩ .

الفصل الثالث عشر

البحرين في العلاقات البريطانية الفارسية ١٨١١ - ١٨٤٠

بدء العلاقات البريطانية بالبحرين - انضمام شيوخ
البحرين إلى معاهدة السلام العامة ١٨٢٠ - اتفاقية شيراز
١٨٢٢ - تأكيد بريطانيا علاقتها بشيوخ البحرين ١٨٢٤ -
انسحاب الانجليز من جزيرة خرج ١٨٤٠ ومحاولة فارس
غزو البحرين - تصريح اللورد أبردين وأثره في بدء
المباحثات الانجليزية الفارسية بشأن البحرين - موقف بريطانيا
من الادعاءات الفارسية على البحرين .



الفصل الثالث عشر

البحرين في العلاقات البريطانية الفارسية

١٨١٤ - ١٨٤٠

دخلت البحرين في دائرة اهتمام شركة الهند الشرقية منذ السنوات الأولى من القرن السابع عشر إذ كانت جزر البحرين من أولى المناطق التي اجتذبت اهتمام ممثلي شركة الهند الشرقية الانجليزية في الساحل الغربي للخليج العربي ، فعلى أثر إنشاء وكالة سورات في عام ١٦١٣ اقترح توماس الدورث Aldourth الذي عين رئيسا لتلك الوكالة أن تأتي إلى البحرين السفن التابعة لشركة الهند الشرقية الانجليزية ، ولما كانت شركة الهند الشرقية الانجليزية مهتمة في ذلك الوقت بالتجارة مع فارس ، فقد فضلت إنشاء وكالات تجارية لها في جاسك وبندر عباس على الرغم مما أشارت إليه سجلات شركة الهند الشرقية الانجليزية منذ عام ١٦٢٥ إلى أهمية جزر البحرين وغناها بالؤلؤ^(١) . ولذلك كان من الطبيعي حين أخذت العلاقات في التوتر بين شركة الهند الشرقية الانجليزية والحكومة الفارسية أن تعاود الشركة اهتمامها بالبحرين ، وفي عام ١٧٠٠ اقترح المستر أوين Owen وكيل شركة الهند الشرقية الانجليزية في بندر عباس احتلال جزر البحرين حيث يمكن استخدامها للضغط على فارس من أجل استمرار التجارة الانجليزية والامتيازات التي تحصلت عليها الحكومة الانجليزية

(١) ج - ج - لوريير : دليل الخليج ج ٢ ص ص ١٢٧١ - ١٢٧٢ .

من فارس . ومع ذلك لم تتخذ بريطانيا خطوات فعالة بالنسبة لعلاقتها بجزر البحرين إلا بعد عدة سنوات من استقرار آل خليفة في حكم البحرين في عام ١٧٨٣ . على أنه يمكن تحديد بداية تدخل الانجليز في البحرين وعلاقتهم بشيوخ آل خليفة منذ عام ١٨١٤ حين توجه الكابتن بروس المقيم البريطاني في الخليج إلى البحرين موفداً من حكومة بومباي وهناك تقابل مع حاكمها الشيخ عبد الله بن خليفة للتباحث معه في بعض الشؤون المتعلقة بضمأن أمن الملاحة في الخليج العربي^(١)، ولما كان الشيخ عبد الله يعتبر هذه المبادرة هامة بالنسبة لتأكيد سيطرته على البحرين فقد أبدى استعداداً لتنفيذ مطالب حكومة بومباي وذلك في مقابل حاجته من التهديدات الفارسية التي كثيرا ما كان يتعرض إليها، وأبدى استعداداً لمنع أتباعه ورعاياه من الاقتراب من أية سفينة ترفع العلم البريطاني وكذلك عدم التعرض لأرواح وممتلكات الرعايا البريطانيين . وبصدد ذلك كتب الكابتن بروس تقريراً إلى رؤسائه شرح فيه الفوائد التي يمكن أن تعود على شركة الهند الشرقية البريطانية من علاقتها بشيوخ آل خليفة وأهمية توقيع اتفاقية معهم . وكان مما جاء في تقرير بروس « إن البحرين أصبحت الآن هي السوق الرئيسية لبيع منهوبات القراصنة في الساحل العاني كذلك أصبحت قاعدتهم التي يمونون فيها بالأرز والتمور وبالتالي فلا يمكن اعتبار البحرين سوى أنها ميناء يمارس القرصنة وخاصة أن عدداً كبيراً من سكانها اعتادوا أن يبحروا إلى رأس الخيمة وهناك يغيرون طاقم سفنهم وكان من المعتاد أن ينقل القواسم أسلابهم مباشرة إلى البحرين ومن هناك كانت تحمل أجزاء منها إلى كنجون وغيرها من الموانئ المطلة على الساحل الشرقي للخليج بواسطة سفن الكويت وغيرها^(٢) » .

وحين عرض تقرير بروس على حكومة بومباي لم تتخذ الحكومة أية بادرة بشأن تنفيذ ما جاء بمقترحاته إذ كان أهم ما يعنى حكومة بومباي في ذلك الوقت هو التخلص من النشاط البحري للقواسم الذي وصل إلى ذروته

(١) صادق نشأت : تاريخ الخليج السياسي ص ٣٠٣ .

(٢) ج . ج . لوديمر ، مرجع سبق ذكره ج ٣ ص ١٢٨٢ .

ومن ناحية أخرى كانت الحكومة البريطانية تخطط سياستها في الخليج على أساس تجنب أى صدام بينها وبين فارس إذ كانت الحكومة الفارسية لا تعترف بشرعية حكم آل خليفة في البحرين وتعتبر البحرين لا تزال تابعة لها . على أنه من ناحية أخرى نجد أن بريطانيا قد استفادت من عدم امتلاك فارس لقوة بحرية في الخليج واستطاعت بوسائلها الدبلوماسية تدعيم نفوذها في المنطقة ومن ثم اقتضت المواجهة بين بريطانيا وفارس على المواجهة السياسية ولم تصل إلى مواجهة عسكرية بين الطرفين . وأكثر من ذلك نجد أن فارس لم تعترض على حملة ١٨١٩ التي أرسلتها حكومة بومباي إلى رأس الخيمة وذلك بعد أن أكدت حكومة بومباي عدم اتجاهها للقيام بأية عمليات عسكرية على الشاطئ الفارسي ومن ثم قدرت فارس أهمية هذه الحملة للتخلص من نفوذ القوى العربية المتاخمة لها على سواحل الخليج العربي^(١) .

ومما لاشك فيه أن حملة ١٨١٩ قد نهت فارس إلى ضعف مركزها في الخليج وعلى الرغم من أن السلطات الفارسية وجدت في هذه الحملة تخليصها لها من نفوذ القوى العربية على نحو ما أشرنا إلا أنه من ناحية أخرى كانت تنظر إلى ما قد يترتب على هذه الحملة البريطانية من ضياع نفوذها في الخليج ولذلك حاولت استثمار نتائج الحملة البريطانية لصالحها مستغلة في ذلك السياسة العامة التي أعلنتها حكومة الهند البريطانية ، وكذلك التعليمات التي صدرت لقادة الحملة بالامتناع عن ممارسة أى لون من ألوان النشاط العسكري في سواحل بلاد فارس^(٢) . وفيما يبدو أن حكومة الهند البريطانية كانت حريصة كل الحرص على عدم إثارة فارس فعلى الرغم من أنه كان من أهداف حملة ١٨١٩ البحث عن قاعدسة بحرية لبريطانيا في الخليج واختيرت جزيرة قشم من أجل ذلك بموجب تنازل من سلطان مسقط الذي

(١) صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربي ص ١٤٤ .

(٢) صادق نشأت : مرجع سبق ذكره ص ص ١٥٤ - ١٥٥ .

كان يعتبر تلك الجزيرة خاضعة لنفوذه إلا أن بريطانيا رأت مع ذلك ضرورة التباحث مع الحكومة الفارسية حول وضع جزيرة قشم وخاصة بعد أن تقدمت الحكومة الفارسية باحتجاج ضد احتلال القوات البريطانية للجزيرة ومن أجل ذلك أرسلت حكومة بومباي الجنرال مالكولم إلى البلاط الفارسي ليتباحث مع فتح علي شاه حول القاعدة البريطانية في قشم ، وكلف من قبل حكومة بومباي أن يدرس الأوضاع في الجزيرة أثناء مروره عليها قبل وصوله إلى البلاط الفارسي وقد خلص مالكولم بعد دراسة قانونية قام بها إلى أن الجزيرة تابعة لسلطنة مسقط . وحين وضع نتائج دراسته هذه أمام السلطات الفارسية أبدت فارس معارضتها الشديدة وبادرت فتح علي شاه بإرسال ممثل من قبله إلى بريطانيا لكي يتباحث مع اللورد كاساري وزير الخارجية البريطانية حول موضوع جزيرة قشم ولكي يؤكد أحقية فارس في السيادة عليها وعلى غيرها من جزر وموانئ الخليج العربي . وحين وجدت حكومة بومباي أن المباحثات الإنجليزية الفارسية حول جزيرة قشم لا تشكل أية أهمية بالنسبة لها وخاصة بعد معاناة الحامية البريطانية في تلك الجزيرة من جذب الحياة وقسوة المناخ فقد أصدرت أوامرها بالانسحاب منها ولم تكن الحامية البريطانية قد استقرت في تلك الجزيرة أكثر من عامين^(١) . ولكن حكومة الهند لم تلبث أن وجدت أزمة جديدة مع فارس حين اتجهت إلى استبدالها بجزر البحرين إذ أنه في استطاعتها في هذه الحالة أن تؤكد لفارس بطريقة منطقية أن هناك فرقا كبيرا بين قشم والبحرين فإذا كان لدى الحكومة الفارسية ما يعزز مطالبتها بالنسبة لجزيرة قشم حيث من الممكن أن تتدبر باقتراب الجزيرة من سواحلها فإن البحرين لا ينطبق عليها ذلك الوصف لأنها منفصلة عن فارس بخليج واسع وأنها أكثر التصاقا بالسواحل العربية منها بالسواحل الفارسية فضلا عن استقرار آل خليفة بالحكم بها وعدم اعترافهم بالسيادة الفارسية عليهم . وحين أدرك الفرس السياسة

(١) من جزيرة قشم ومحاولة بريطانيا اتخاذها قاعدة انظر :

S.R.B.G. vol. XXIV P. 317.

وكذلك ج . ج لوريمر : دليل الخليج ج ٢ ص ١٠٣١ .

وجون كل : بريطانيا والخليج ج ١ ص ٢٧٧ - ٢٨٨ حيث أورد دراسة مفصلة .

المنتظر ؛ ومن ناحية أخرى نجح الكابتن بروس في تهئية الموقف بين شيخ البحرين وسلطان مسقط ، حيث تعهد سلطان مسقط بعدم التدخل في شئون البحرين ، وهكذا وصلت العلاقات البريطانية الفارسية إلى درجة كبيرة من التأزم في عام ١٨٢٢ ؛ وكانت الحكومة البريطانية تعتبر نفسها قد أصبحت مسئولة عن تأكيد نفوذ آل خليفة في البحرين وذلك بموجب ارتباطهم بمعاهدة السلام العامة وأن افساح المجال لفارس لضم البحرين لن يقضى على نفوذ آل خليفة فحسب بل سيقضى على السياسة التي وضعها حكومة الهند في منطقة الخليج العربي بعد حملة ١٨١٩ بما اسفرت عنه من نتائج^(١) . ولعل مما يسترعى انتباهنا بصدد ذلك هو التساؤل عن الدوافع التي دفعت بشيوخ البحرين إلى تقييد حريتهم وحرية رعاياهم بالانضمام إلى معاهدة الصلح البحري على الرغم من أن البحرين لم تكن تدخل ضمن مخططات الحملة العسكرية البريطانية لضرب معقل القواسم في الساحل العماني ، وبمعنى آخر أن معاهدة الصلح البحري كانت تستهدف شيوخ الساحل العماني فقط ، ودخول حكام آخرين في تلك المعاهدة كان يعد إلى حد كبير بمحض إرادتهم ورغبتهم المطلقة^(٢) . ويتضح من إجابتنا على تلك التساؤلات أن انضمام شيوخ البحرين إلى معاهدة الصلح البحري العام كان رغبة منهم في ضمان الحماية البريطانية إذ أن معاهدة الصلح كانت تتضمن اعترافا باستقلال الأطراف المتعاقدة وبالتالي فإن بريطانيا بناء على هذه المعاهدة كان عليها أن تقف أمام القوى المتطلعة للاستيلاء على البحرين ولذلك وجد شيوخ البحرين في انضمامهم لتلك المعاهدة الفرصة للتخلص من محاولات سلطان مسقط وفارس أو كليهما ومن ثم فإن الفائدة التي عادت على شيوخ البحرين من جراء انضمامهم إلى تلك المعاهدة هي أنهم استطاعوا أن يضعوا بريطانيا وجه لوجه أمام محاولات فارس في الاستيلاء على البحرين بعد أن كانت المقاومة من قبل آل خليفة وحدهم وهؤلاء كان لا يمكنهم بطبيعة الحال أن يتصدوا لهجوم فارسي عليهم ، هذا بالإضافة إلى أن فارس كانت على استعداد للتحالف مع أية قوة أخرى

(١) صادق نشأت : مرجع سبق ذكره ص ١٥٦ .

(٢) أحمد محمود صبحي : البحرين ودعوى إيران ص ٩٦ .

في سبيل السيطرة على تلك الجزر . ومن ثم كان من الطبيعي أن تعارض فارس اشتراك شيوخ البحرين في التوقيع على معاهدة السلام العامة على اعتبار تبعية البحرين لها .

وفي الوقت الذي كلفت فيه فارس الشيخ عبد الرسول حاكم بوشهر باحتلال البحرين في عام ١٨٢٢ بادرت السلطات البريطانية من ناحيتها بإيفاد الكابتن بروس المقيم البريطاني في الخليج إلى البحرين كي يؤكد لشيوخها بصفة رسمية بأن بريطانيا تعتبر شيوخ آل خليفة هم الحكام الشرعيون للبحرين وأن الحكومة البريطانية على استعداد للدفاع عن البحرين ضد أي أخطار يتعرضون لها من قبل فارس وذلك بعد أن أخذت تعهداً من سلطان مسقط بعدم مهاجمة البحرين كما سبق أن أشرنا . على أن الكابتن بروس لدى عودته إلى بوشهر من البحرين بدأ يتصرف تصرفاً خاصاً يختلف بل ويناقض التعليمات التي أرسلت له من حكومة الهند إذ أنه اتجه إلى شیراز لمقابلة حاكم فارس تان بهدف إيقاف الحملة الفارسية على البحرين^(١) . وترى بعض المصادر أن بروس قام بهذا التصرف لأغراض شخصية تتعلق بمصالحه التجارية في بوشهر ، وكانت السلطات الفارسية اعترضت على بقاءه في بوشهر وطلبت من السير هنري ويلوك Willock ممثل بريطانيا في تبريز أن تبادر الحكومة البريطانية بسحبه من منصبه وتعيين آخر بدلاً منه . وفيما يبدو أن بروس حرصاً على مصالحه التجارية في بوشهر اتخذ سياسة مناقضة لتعليمات حكومته رغبة منه في التقرب إلى السلطات الفارسية ووجد أن في مقدوره استخدام صلاحياته باعتباره مقيماً سياسياً في الخليج لكي يضع حلاً للمشكلات القائمة بين بريطانيا وفارس ، ولذلك كانت زيارته إلى شیراز بهدف التفاوض مع زكي خان ميرزا حاكم شیراز فيما يتعلق بشئون الخليج بصفة عامة وشئون البحرين بصفة خاصة ونجح في التوصل إلى اتفاقية بينه وبين حاكم شیراز في ٣٠ أغسطس ١٨٢٢ . وتعرف هذه الاتفاقية باسم اتفاقية شیراز وقد نصت مقدمة هذه الاتفاقية على رغبة الطرفين في حل المشكلات القائمة بينهما^(٢)

Adamyiat, F., op. cit. pp. 251—252.

(١)

(٢) كانت جزر البحرين قبل وصول آل خليفة إليها تتبع مقاطعة فارس تان في جنوب فارس التي كان يحكمها أمير شیراز وكانت تدخل في حوزتها جزر وموافي الخليج الواقعة على سواحل الشرقية . انظر تقرير روبرت تايلور في مختارات حكومة بومباي ص ٢٧-٢٩ :

إذ ورد فيها أنه لما كانت هناك أخطاء بسيطة قد وقعت من جانب الطرفين لا تتفق مع النيات الحسنة ولا العلاقات الطيبة بينهما ورغبة في إزالة كل سوء تفاهم بين الطرفين فإن محمد زكى مخان والكابتن بروس قد دخلا في اتفاقية ودية تستهدف توثيق روابط الود والصداقة بين حكومة الهند والحكومة الفارسية^(١). كما نصت المقدمة على حرص حكومة الهند على فرض الأمن البحرى فى الخليج. أما المواد المتعلقة بهذه الاتفاقية فهى خمس مواد تناولت ما يأتى :

أولاً : إن جزر البحرين كانت دائماً تابعة لإقليم فارس وأن حكماهما العرب من العتوب شقوا عصا الطاعة أخيراً وإذا كانوا قد طلبوا من القائد البريطانى العام لحملة ١٨١٩ علماً مميزاً لهم أو إذا كانوا قد منحوا هذا العلم بالفعل فلا بد أن يسحب منهم على الفور ولا تقدم لهم أية مساعدات بعد ذلك إذ أنه من شأن هذه المساعدة أن تؤدى إلى تماديهم فى عنادهم ضد فارس ولما كان الطرفان يعربان عن رغبتهما فى توثيق أو اصر الصداقة بين حكومتيهما فقد وصفت حملة ١٨١٩ التى قادها السير ويليام كير على شيوخ الساحل العمانى من القواسم بأنها انتهاك لتلك الصداقة . ومما تجدر الإشارة إليه أن نص اتفاقية شيراز على سحب أعلام الصلح البحرى كان يتعارض مع المادة الثالثة من معاهدة السلام العامة التى انضم إليها شيوخ البحرين والتى كانت تنص صراحة على أن يحمل العرب المتصالحون ومن بينهم عرب البحرين علماً أحمر ضمن حاشية بيضاء .

ثانياً : نصت اتفاقية شيراز على أن الخسائر التى تحملها سكان لنجة

(١) Treaty of Shiraz Signed by Mirza Mohamed Zaki Khan, The Minister of Fars and Captain Bruce 30—8—1822 CF. F.O. 60/21 Persia.

(٢) عن التفصيلات الخاصة بهذه الاتفاقية راجع :

Adamiyat F., op, cit. P. 105—107,

ومما تجدر الإشارة إليه أن الكتاب الايرانىين يعلقون أهمية بالغة على هذه الاتفاقية حتى أن أدبيات أورد نصوصها كاملة وكتابه راجع ص ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

وخرج بسبب الحملة العسكرية البريطانية في عام ١٨١٩ وما ترتب عليها من تدمير لسفنهم ينبغي أن تتحملها الحكومة البريطانية وأن تعوضهم بالأموال أو بسفن أخرى^(١) .

ثالثاً : أن الحكومة الفارسية توافق على تأجير جزيرة قشم لبريطانيا لمدة خمس سنوات على أن تستخدمها الحكومة البريطانية لحفظ الأمن البحري في الخليج حتى تتمكن فارس من تكوين قوتها البحرية، وخلال الخمس سنوات يقلل عدد القوات البريطانية تدريجياً ويحل محلها قوات فارسية وأن تقوم القوات البريطانية الفارسية المشتركة بالتمركز في أية جزيرة على السواحل الفارسية يكون مناخها معتدلاً .

رابعاً : إذا رغبت فارس في استرداد البحرين فإن الحكومة البريطانية تجد نفسها ملزمة بأن تضع السفن الحربية تحت تصرف الحكومة الفارسية وأن تسمح لها بالإضافة إلى ذلك بشراء كل ما تريده من السفن والأخشاب اللازمة لتجهيزات تلك الحملة من الهند^(٢) .

خامساً : تراجع الحكومة الفارسية عن طلبها الخاص بسحب الكابتن بروس المقيم السياسي في الخليج واحلال غيره بدلا منه إذ أن السلطات الفارسية أصبحت مقتنعة تماماً بثبوتها في منصبه وأن الشكوك التي كانت ألحقها به في قيامه بعدة تصرفات تتعارض مع حسن التفاهم القائم بين الدولتين أصبحت لا تتفق مع الأمر الواقع .

ومما تجدر الإشارة إليه أن ما جاء في هذه المادة يؤكد لنا الدوافع الشخصية التي حركت الكابتن بروس لعقد هذه الاتفاقية هذا بالإضافة إلى أنه كان مدفوعاً باعتقاد مؤداه أن عودة جزر البحرين إلى الحكومة الفارسية سيؤدي إلى تحقيق مزيد من الهدوء على الجانب الغربي من الخليج ، ويمكن حاكم إقليم فارس من الاستفادة من خدمات الأسطول البريطاني ، كما أن

(١) انظر المادة الثالثة من اتفاقية شيراز .

(٢) المادة الخامسة من الاتفاقية .

تثبيت السلطة الفارسية سيضع حداً للأعمال العدوانية والمشاحنات القائمة بين مختلف فروع العتوب من آل خليفة وآل صباح والجلالمة^(١). ولا شك أن ضيق الكابتين بروس بتلك الحروب والمنازعات هو الذي دفعه إلى تقديم تلك التنازلات لحاكم شيراز.

ولعل أول انتقاد وجه إلى هذه المعاهدة هو ما نصت عليه بالاعتراف بالسيادة الفارسية على البحرين حيث ذكر المستر فرانسيس واردن Warden سكرتير حكومة بومباي أنه لم يقيم أى دليل على هذه السيادة فضلاً عن أن اعتراف الحكومة البريطانية بها سيؤدي إلى إساءة الثقة بينها وبين أصدقائها. سيما سلطان مسقط، كما سيضعف الثقة بينها وبين شيوخ البحرين فضلاً عن أن تلك المعاهدة تعنى انتهاكاً واضحاً لمعاهدة السلام العامة^(٢). وقد لخص فرانسيس واردن انتقاداته على الوجه التالي :

أولاً : إن الكابتين بروس دخل في مفاوضات لم يكلف بها كما أنه لم يزود بتعليمات من حكومته وأنه ليست لديه السلطة المخولة لتوقيع تلك الاتفاقية .

ثانياً : أنه لا يمكن للحكومة البريطانية أن تعترف باتفاقية ليست متمشية مع التزاماتها لأن ذلك يؤدي بطبيعة الحال إلى إهدار كرامتها وقلب سياستها رأساً على عقب أمام القوى الأخرى المتواجدة في الخليج .

ثالثاً : إن معاهدة شيراز نسبت إلى بريطانيا بعض الأخطاء وطالبها بتعويض عنها في الوقت الذي كان الإجراء الذي اتخذته بريطانيا ضد سكان لنجه وخارج إجراء ضرورياً .

رابعاً : إن المعاهدة تتناقض تماماً مع السياسة التي اتبعتها جرانت كير

(١) جمال زكريا قاسم : رحمة بن جابر الجلاهمة حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس ١٩٦٤ ص ص ٦٤-٦٥ .

(٢) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج ج ٣ ص ص ١٢٨٨ - ١٢٨٩ .

في حملة ١٨١٩ نحو تأكيد الكيانات الذاتيه للإمارات العربية على حين أن المعاهدة كانت تنص على الاعتراف بأحقية فارس في ملكية جزر البحرين وهو أمر لم يرق عليه دليل مقنع ، كما أنه يخالف لمطالب سلطان مسقط واستقلال آل خليفة الذين أصبحت تربطهم ببريطانيا معاهدة الصلح البحري .

خامساً : إن معاهدة شيراز تمنع آل خليفة من حمل راية الصلح البحري مما يشكل انتقاصاً لمعاهدة السلام العامة التي اشترك فيها شيوخ البحرين .

سادساً : أنه يتحتم على حكومة بومباي أن تزيل الآثار السيئة التي سببتها معاهدة شيراز وتبادر باعادة الثقة إلى شيوخ الخليج واعلامهم بأن الكابتن بروس لم يحول من قبل الحكومة البريطانية بأية سلطة لعقد مثل تلك الاتفاقية وأنها سوف تبادر بخلعه واحلال آخر بدلاً منه .

سابعاً : ضرورة الجلاء عن جزيرة قشم لأنها في موقع لا يمكن الدفاع عنه فيما لو هاجمها الفرس ^(١) .

وعلى الرغم من أن الكابتن بروس قدم دفاعاً عن نفسه وعن الدوافع التي جعلته يتفاوض من أجل هذه المعاهدة مؤكداً أن إقرار بريطانيا للسيادة الفارسية سيؤدي إلى مزيد من الأمن البحري في الخليج إلا أن حاكم بومباي الفينستون Elphinston أصدر قراره الخاص — بناء على تقرير واردن — بسحب القوات البريطانية من جزيرة قشم وعزل الكابتن بروس من منصبه كمقيم سياسي في الخليج وأرسلت حكومة الهند رسائل إلى كل من شيوخ آل خليفة و سلطان مسقط مؤكدة فيها أن الموقف البريطاني لم يتغير وأنه لا بد من أن يزيلوا أى شكوك أو مخاوف بالنسبة لعلاقتهم بالحكومة البريطانية ^(٢)

(١) أحمد محمود صبحي : البحرين ودعوى إيران ص ١٠٥ .

Persian Claim to Bahrein Islands, Foreign Secretary (٢)
to the Govt. of India Sept.. 1931 F.O. 371/15279.

وجاء في الرسالة الموجهة إلى شيخ البحرين أن حكومة الهند لا توافق على معاهدة شيراز التي عزلت من أجلها الكابتن بروس وعينت غيره وأن المقيم البريطاني الجديد الكابتن ماكلويد قد زود بكل الصلاحيات الخاصة بتأكيد الصداقة القائمة بين البحرين والحكومة البريطانية . وطبقاً لتعليمات خاصة من حكومة بومباي قام الملازم ماكلويد بجولة هامة على الساحل العربي للخليج زار فيها البحرين في يناير ١٨٢٣ وكان الهدف الرئيسي من تلك الزيارة هو طمأننة شيخ البحرين فيما يتعلق باتفاقية شيراز وإبلاغه كأنها لم تكن وأن الحكومة البريطانية لن تغير شيئاً من سياستها نحوه^(١) .

ولإذا كان من الطبيعي أن ترفض الحكومة البريطانية معاهدة شيراز للأسباب التي أشرنا إليها فإنه مما يدعو إلى الدهشة أن هذه المعاهدة قد رفضت من حكومة الشاه أيضاً على الرغم من أنها كانت تعطي فارس مكاسب كثيرة ولعل سبب رفض الشاه لتلك المعاهدة وعدم موافقته على التصديق عليها أن أمير شيراز لم تكن له السلطة المخولة لعقد معاهدات . ولا شك أن الشاه قد أبدى استياءه من أمير شيراز لمحاولته تنظيم العلاقات بين بريطانيا وفارس دون أن يتلقى تعليماته في هذا الشأن، هذا بالإضافة إلى أن معاهدة شيراز كانت تعطي الإنجليز حق إقامة حامية عسكرية في جزيرة قشم لمدة خمس سنوات وهو أمر لم توافق عليه الحكومة الفارسية . وطبقاً لتقرير أرسله الماجور ويلوك Willock ممثل بريطانيا في تبريز أن الشاه لم يقر هذه المعاهدة بل وجه اللوم إلى حاكم فارس لدخوله في المفاوضات التي أدت لتوقيع تلك المعاهدة دون أن يؤخذ رأيه في ذلك . وعلى الرغم من أن كلا من الحكومتين البريطانية والفارسية قد رفضت معاهدة شيراز ولم تصادق أي منهما عليها وبالتالي لم تظهر تلك المعاهدة إلى حيز التنفيذ أي أنها أصبحت في حكم المعاهدات الملغاة إلا أنه مما يستلفت النظر أن الحكومة الفارسية ظلت تستند على تلك المعاهدة في المباحثات التي قامت بينها وبين

(١) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج ج ٣ ص ١٢٨٩ .

الحكومة البريطانية بشأن البحرين والتي استمرت على مدى سنوات عديدة من القرن التاسع عشر وحتى النصف الأول من القرن العشرين^(١) ! .

وقد أعقب عدم مصادقة الحكومة البريطانية على معاهدة شيراز مبادرتها بتأكيد علاقتها بشيوخ البحرين حيث توسط المقيم البريطاني في الخليج الكولونيل ستانوس Stanus في توقيع اتفاقية بين آل خليفة والجلالمة في عام ١٨٢٤ وكانت وساطة المقيم البريطاني بمثابة تأكيد لانضمام البحرين إلى معاهدة السلام ، وكان لذلك أثره في أن وقفت بريطانيا ضد المحاولات العديدة التي قام بها كل من سلطان مسقط والسعوديين للسيطرة على البحرين .

وخلال الفترة من عدم المصادقة على معاهدة شيراز ١٨٢٢ حتى تقدم القوات المصرية إلى الخليج العربي ١٨٣٨ لم تشكل فارس أية خطورة على الأوضاع في البحرين ، بسبب ضعف القوة البحرية الفارسية بالإضافة إلى المشكلات الخارجية العديدة التي واجهتها الحكومة الفارسية وبالأخص حروبها مع روسيا والدولة العثمانية ، كما كان لاحتلال بريطانيا لجزيرة خرج في عام ١٨٣٨ أثره الكبير في أن أعطى الحكومة البريطانية نفلا سياسيا وعسكريا أصبح يهدد السواحل الفارسية ذاتها ، واستمر الوضع على ذلك حتى وصلت القوات المصرية إلى سواحل الخليج العربي في عام ١٨٣٨ إذ بعث الكولونيل هنل Henell المقيم البريطاني في الخليج إلى حكومة بومباي يلفت نظرها طبقا لما تلقاه من وكيله الوطني في الشارقة بأن حاكم فارس قد يجمع قواته في كنجون ومن المحتمل أن يقوم بتدبير هجوم مفاجيء على الإنجليز في جزيرة خرج وإذا نجح في ذلك فإن اتجاهه صوب البحرين سيكون مؤكدا ، بيد أن حكومة بومباي لم تعر هذه الملاحظات أهميتها إذ كانت جهودها منصبة على مقاومة القوات المصرية بقيادة خورشيد باشا وإبعادها عن البحرين ومشيعات

(١) جمال زكريا قاسم ؛ الادعاءات الايرانية على الخليج العربي — من أعمال المؤتمر الدولي للتاريخ — بغداد ١٩٧٣ وعن المباحثات الايرانية الانجليزية بشأن البحرين انظر :

Adamiyat, Bahrein Islands P. 134 ff.

الساحل العماني ، وما كادت بريطانيا تتخلص من الوجود المصري في سواحل الخليج العربي في عام ١٨٤٠ حتى قررت حكومة بومباي الانسحاب من جزيرة خرج مما ترك الفرصة لفارس لتعزيز حامياتها في تلك الجزيرة^(١)؛ حتى أن المقيم البريطاني في الخليج الكولونيل روبرتسون Robertson كتب إلى حكومة الهند يؤكد أن فارس تبذل محاولات كبيرة لكي تنشئ لها أسطولا يتكون من جميع السفن التي تمتلكها موانئ الساحل الشرقي للخليج وأنها عمدت إلى حاكم بوشهر ليقوم بتنفيذ خططها هذه ، وفي تقرير آخر لروبرتسون أكد أن جزيرة خرج سوف تصبح عما قريب مركزا لتجمع الأسطول الفارسي الذي سيقوم بغزو البحرين . وقد أجاب حاكم عام الهند على هذين التقريرين بقوله « إنه في حالة ارسال الحكومة الفارسية أية قوات من الرجال أو السفن فإنه يجب ملاحظة تلك التحركات وإذا كانت فارس تهدف إلى الاتجاه إلى أية إمارة من إمارات الخليج التي تربطها ببريطانيا علاقات خاصة فيجب أن تقاوم تلك التحركات بكل قوة »^(٢) .

وتعتبر هذه التعليمات التي صدرت عن الحاكم العام في الهند نقطة تحول هامة في السياسة البريطانية بالنسبة لعلاقتها بفارس بشأن البحرين فحتى ذلك الوقت لم تكن الحكومة البريطانية تعترض اعتراضاً إيجابياً على مطالب فارس بالسيطرة على البحرين بل وأكثر من ذلك نجد أن الحكومة البريطانية نفسها هي التي عارضت تقدم القوات المصرية إلى البحرين بحجة تبعيتها لفارس . ويرجع هذا التحول في السياسة البريطانية في تقديرنا إلى عاملين رئيسيين :

العامل الأول : أن الحكومة البريطانية لم تعد تطمئن إلى فارس التي أخذت تتصرف بتأثير واضح من روسيا .

(١) Henell to Willoughby 11th Feb. 1839 Doc. No, 24 of 1839. See also Enclosure I Translation of a Letter from Mohmet Ali's Agent at Bahrein to the Resident of the Persian Gulf Feb. 1839 F.O. 78/388.

انظر الأرشيف الأوربي بوثائق عابدين (القلعة حاليا) محفوظة رقم ١٢ .

(٢) جمال زكريا قاسم : الخليج العربي ١٨٤٠ - ١٩١٤ ص ١٤٦ .

والعامل الثاني : أن الحكومة البريطانية أخذت منذ انسحاب القوات المصرية من الخليج العربي في عام ١٨٤٠ تقدر أهمية الخليج الاستراتيجية وتعمل على منع أية دولة من الحلول فيه .

ولعل مما يستأفت الانتباه أن معارضة بريطانيا لفارس بشأن إرسالها حملة إلى الخليج العربي لم تقتصر على السلطات البريطانية في الخليج أو سلطات حكومة الهند البريطانية وإنما انتقلت هذه المسألة إلى وزارة الخارجية بلندن حيث أرسل اللورد أبردين وزير الخارجية البريطانية إلى السير جستن شيل Sheil القائم بأعمال السفارة البريطانية في فارس يطلب إليه اقتناع الشاه بالطرق الدبلوماسية بعدم القيام بعمل من شأنه أن يؤدي بالحكومتين إلى تصادم في منطقة الخليج وأعلن وزير الخارجية البريطانية بأن حكومته ستقابل التدخل الفارسي بالقوة حتى لو أدى الأمر إلى وقوع صدام مسلح بينها وبين فارس . وفي المذكرة التي قدمها السير جستن شيل إلى الحكومة الفارسية أعربت الحكومة البريطانية عن عدم اعترافها بأحقية فارس في السيطرة على البحرين إذ أنه منذ أن أتت أسيرة قاجار إلى الحكم في عام ١٧٩٨ فإن أحداً من ملوكها لم يمارس سلطة فعلية على البحرين . وعلى الرغم من أن المذكرة البريطانية كانت حاسمة في رفض أي اعتراف بالسيادة الفارسية إلا أن اللورد أبردين قد حاول في نفس الوقت مراوغة السياسة الفارسية حيث ختم مذكرته بدعوة فارس لكي توضح للحكومة البريطانية ادعاءاتها على البحرين بالطرق الدبلوماسية وذلك بدلا من اللجوء إلى القوة المسلحة للاعتراب عن مطالبها^(١) . وبذلك يكون اللورد أبردين قد استهل حقبة طويلة من المباحثات البريطانية الفارسية بشأن البحرين استمرت منذ ذلك الوقت حتى نهاية الوجود البريطاني العسكري في الخليج العربي . وكانت وجهة النظر

Adamyat, F., op. cit. P, 131

(١)

وعن تحليل الادعاءات الفارسية من الناحية القانونية بما في ذلك اتفاقية شيراز راجع :

Tadjbakche, G.R. la Question de iles Bahrein, Publication de la Revue Generale de Droit Internationale Serie Numero I Paris, 1960.

البريطانية في مباحثاتها مع فارس بشأن البحرين هي أنها منذ أن عتمدت معاهدتها الأولى مع شيوخ البحرين في عام ١٨٢٠ وهي تتصرف مع أولئك الشيوخ طبقاً لما تنص عليه شروط المعاهدة من الاعتراف بحكام البحرين من آل خليفة كشيوخ مستقلين وأنها اتخذت من تلك المعاهدة أساساً لرفض أية محاولات من قبل القوى الأخرى لضم البحرين إليها .

وبمعنى آخر أن بريطانيا كانت تتعامل مع شيوخ البحرين بصفتهم الاستقلالية لا مجرد كونهم أتباعاً للحكومة الفارسية ولذلك أكدت وجهة النظر البريطانية أنه على الرغم من عدم إنكارها خضوع جزر البحرين لفارس على عهد الأسرتين الصفوية والزندية، وهما الأسرتان اللتان سبقتا آل قاجار في الحكم ، إلا أن السيادة الفارسية على البحرين قد سقطت نهائياً منذ وصول آل خليفة إلى حكم البحرين في عام ١٧٨٣ . وعلى عكس وجهة النظر هذه كانت فارس تؤكد تبعية البحرين وغيرها من إمارات الخليج العربي لسيادتها ، وأن الخليج بأكمله من شط العرب إلى مسقط يعد خاضعاً لسيادتها مستندة إلى ذلك على تسميته بالخليج الفارسي كما أن معظم المصادر الجغرافية القديمة سواء كانت شرقية أو أوروبية وكتب الرحالة العرب والأجانب تؤكد تبعية البحرين لفارس^(١) . كما أن شيوخ البحرين المتعاقبين على الحكم كانوا يدفعون الجزية السنوية لفارس في عهد الصفويين وخانات الزند، وقبل وصول آل خليفة إلى حكم البحرين كان أمير شيراز يخضع البحرين لسيطرته ، وأن الحكومة الفارسية لم تعترف بشرعية حكم آل خليفة وليست لهم أية صفة استقلالية وأنهم ، شأنهم في ذلك الشأن الخانات المحليين

(١) راجع بصدد ذلك أسانيد الخليج الفارسي تصنيف علي رضا ميرزا محمد - الفصل الأول والثاني - القاهرة ١٩٧٦ انظر أيضا :

Sir John Chardin, Travels in Persia and East Indies—
London 1665,

ولا يمنع من ذلك أن كثيراً من هذه المصادر قد أقرت غرابة تلك التسمية وعلى سبيل المثال عبر الرحالة إبراهيم بارسونز الذي زار البحرين في عام ١٧٧٥ عن دهشته لكون البحرين تابعة لفارس على الرغم من ملاصقتها لمواحل الجزيرة العربية .

CF. Parsons, A. Travels in Asia and Africa P. 202.

في بعض مقاطعاتها الذين يتوارثون الحكم أو يتمردون على السلطة القائمة ولكنهم حتما سيعودون إليها بالولاء ، هذا بالإضافة إلى أن شيعة البحرين يؤكدون السيادة الفارسية على تلك الجزر ؛ وأنهم يشكلون نسبة كبيرة من السكان الذين يتجهون بولائهم إلى فارس بطبيعة الحال .

ومما يسترعى الانتباه أن المباحثات بشأن البحرين اقتصر على كونها مباحثات فارسية بريطانية وبالتالي انصرفت عناية كثير من الباحثين العرب إلى دواية هذا الموضوع باعتباره نزاعا فارسيا بريطانيا ، وربما يرجع السبب في ذلك إلى عدم نضوج الوعي العربي فضلا عن سيطرة بريطانيا على مقدرات الخليج السياسية ومصالحها التي كانت تعارض السيادة الفارسية ؛ وبمعنى آخر أن موقف بريطانيا لم يكن إيمانا منها بعروبة البحرين بقدر ما كان يتجه إلى المحافظة على مصالحها الاستعمارية في منطقة الخليج العربي (١) . وفي تحليلنا للادعاءات الفارسية على البحرين يمكننا الوصول إلى الحقائق التالية :

أولا : إن جزر البحرين لا يمكن أن تكون جزءاً من فارس وهي منفصلة عنها بـخليج واسع كما أن سكانها ليسوا من العنصر الفارسي تماماً وعلى العكس من ذلك فإن جزر البحرين بحكم طبيعة موقعها الجغرافي أكثر التصاقاً بالسواحل الشرقية للجزيرة العربية ، كما أن سكانها من أصول عربية خالصة وإذا وجدت بعض العناصر الفارسية فإنها لا تقارن بالكثافة العربية السكانية مما لا يشكك بأية حال من الأحوال في عروبة جزر البحرين .

ثانياً : إن إدعاءات فارس بأن شيعة البحرين تابعون لها أمر لا يستقيم مع المنطق إذ أن الشيعة ، وهم أتباع مذهب إسلامي كبير موجودون في البحرين كما هم موجودون في غيرها . وقد تأكدت هذه الحقيقة أخيراً حين أثبتت بعثة جرشيار دي بأن شيعة البحرين كانوا لا يختلفون عن الطوائف الأخرى

(١) جمال زكريا قاسم : الادعاءات الإيرانية في الخليج العربي من أعمال المؤتمر الدولي لتاريخ --- بغداد ١٩٧٣ .

في المطالبة بالاستقلال^(١) .

ثالثاً : إن المحاولات التي كانت تقوم بها فارس بقصد إيجاد حجج وأسانيد تحت زعم أن الخليج فارسي أمر غير منطقي تماماً كالادعاء بأن كل سواحل البحر الأحمر وجزره تابعة للجزيرة العربية^(٢) .

رابعاً : تؤكد الوقائع التاريخية أن فارس لم تمارس سيادتها على البحرين في العصور الحديثة إلا في خلال الفترة من جلاء البرتغاليين عن تلك الجزر في عام ١٦٠٢ حتى وصول آل خليفة إلى الحكم في عام ١٧٨٣ وحتى في خلال تلك الفترة كانت القبائل العربية هي التي تتولى مسؤوليات الحكم المباشر إذ استمرت جزر البحرين في أيدي رؤسائها القبليين من عرب الهولة والمطاريش ، كما أن أئمة عمان اليعاربة سيطروا على البحرين في بعض سنوات تلك الفترة ولم تعد البحرين لفارس إلا في عام ١٧٣٧ على عهد نادر شاه، ثم وقعت البحرين بعد اغتياله في عام ١٧٤٧ في أيدي رؤساء عرب علبدين من بني طاهر وبني ماهر والعسليين وغيرهم أي أن السيادة الفارسية على البحرين خلال الفترة من ١٦٠٢-١٧٨٣ كانت لا تعدو سيادة اسمية أما الحكم الفعلي فقد كانت تمارسه القبائل العربية ، وعلى أية حال فقد انتهت السيادة الفارسية بوصول آل خليفة إلى الحكم ووضعهم الأساس لحكم عربي مستقر منذ عام ١٧٨٣^(٣) .

CF. Report of the Personal Representative of the (١)
Secretary General in charge of the good offices Mission—
Bahrein 30th April, 1970.

(٢) جمال زكريا قاسم : الخليج العربي دراسة لتاريخ الامارات العربية ١٨٤٠-١٩١٤

ص ١٤٩ .

(٣) من أبرز الدراسات التي تؤكد وجهة النظر الفارسية يمكن الرجوع إلى صادق نشأت : تاريخ الخليج السياسي وعباس إقبال مطالعات درباب بحرين وجزاير خليج فارس وكذلك فريدون أداميات Bahrein Islands وعباس الفاروق . وعن وجهة النظر العربية يمكن الرجوع إلى أحمد محمود صبحي ، البحرين ودعوى إيران وحسين البحارنة The legal status of the Arabian Gulf States ومجيد خدوري البحرين وإيران وصلاح العقاد التيارات السياسية في الخليج العربي وجمال زكريا قاسم الادعاءات الإيرانية في الخليج العربي .

الفصل الرابع عشر

مصر وإمارات الخليج العربي

١٨١١ - ١٨٤٠

أهداف التوسع المصري في الخليج العربي - علاقة
محمد علي بسلطنة مسقط - بعثة سادلر ١٨١٩ - حملة
خورشيد باشا على الاحساء - موقف شيوخ الساحل العماني
- محمد علي والبحرين - موقف بريطانيا من التوسع
المصري في الخليج العربي - تصريح بالمرستون بشأن
البحرين - عوامل الانسحاب من الخليج العربي - نتائج
الانسحاب .

* * *

الفصل الرابع عشر

مصر وإمارات الخليج العربي

١٨١١ - ١٨٤٠

أهداف التوسع المصري في الخليج العربي - علاقة
محمد علي بسلطنة مسقط - بعثة ساذر ١٨١٩ - حملة
خورشيد باشا على الاحساء - موقف شيوخ الساحل العماني
- محمد علي والبحرين - موقف بريطانيا من التوسع
المصري في الخليج العربي - تصريح بالمرستون بشأن
البحرين - عوامل الانسحاب من الخليج العربي - نتائج
الانسحاب .



الفصل الرابع عشر

مصر وإمارات الخليج العربي

١٨١١ - ١٨٤٠

يعد وصول القوات المصرية إلى سواحل الخليج العربي من أبرز الأحداث السياسية التي شهدتها منطقة الخليج في النصف الأول من القرن التاسع عشر . ويكفي أن نشير بصدد ذلك إلى أن هيبة الحكومة البريطانية تلقت ضربة شديدة في نظر سكان الخليج نتيجة وصول تلك القوات إلى سواحلهم . وتعيننا هنا الأهداف الخاصة التي كانت تتجه إليها سياسة مصر بالنسبة للإمارات العربية في الخليج العربي إذ أن الأمر الذي لاشك فيه أن وصول القوة المصرية الناشئة إلى تلك الأنحاء كانت عاملا فعالا في تجميع الكيانات الصغيرة والسعى إلى تحقيق الوحدة فيما بينها تحت حكم واحد . وليس أدل من الحرص على تحقيق ذلك الهدف أن التوسع المصري لم يتجه إلى إمارة معينة وإنما نظر إلى إمارات الخليج العربي نظرة شاملة فامتدت محاولات التوسع المصري شمالا وجنوبا في آن واحد . كما أن احتمال نجاح مصر في تحقيق الوحدة بين إمارات الخليج كان أمرا مؤكدا . ولم يقف عائقا دون تحقيقها لذلك الهدف سوى الظروف التي طرأت على الموقف الدولي واجبار مصر على الانسحاب من تلك الجهات ، وإن كان مما يسترعى الانتباه أن الجهود المصرية لم تذهب سدى وإنما سيستفيد السعوديون منها إلى حد كبير في محاولة تجميع قوى الخليج تحت لوأهم ، كما سيظهر ذلك واضحا على أثر انبعاث

الدولة السعودية الثانية ووصولها إلى أقصى توسع لها خاصة خلال العهد الثاني للامام فيصل بن تركي ١٨٤٣ - ١٨٦٥ الذي يعد من أبرز حكام تلك الدولة .

ومن ناحية أخرى أثر وصول القوات المصرية إلى سواحل الخليج تأثيرا كبيرا في تطور علاقة بريطانيا بالامارات العربية في الخليج العربي إذ لم تقتصر أهداف بريطانيا على مراقبة الأوضاع البحرية في المنطقة وإنما امتدت أهدافها إلى أبعد من ذلك في فرض حمايتها على إمارات الخليج . وكما تعبر المصادر البريطانية بصدد ذلك بالقول إنه بينما كانت بريطانيا تعمل على تأكيد الهدنة البحرية بما يكفل فرض السلام البريطاني على المنطقة أخذت الأحداث ؛ أوما عبرت عنه تلك المصادر بالخطر تعم الخليج بسبب التوسع المصري الذي كان مناقضا للضمانات التي قدمها محمد علي لمثل بريطانيا في القاهرة بأن توسعاته في الجزيرة العربية لن تصل إلى سواحل الخليج وهذه الضمانات لم يلتزم بها محمد علي أو على الأقل خورشيد باشا قائد القوات المصرية الذي وضح بعد حملاته التي قام بها في سواحل الخليج أنه كان يستهدف إخضاع البحرين ومشيخات الساحل العماني وسلطنة مسقط ومن ثم اتجهت بريطانيا إلى إثارة شيوخ المنطقة ضد التوسع المصري مستخدمة الترغيب تارة والتهديد تارة أخرى ، كما أوفدت حكومة بومباي أحد ضباطها لزيارة البريمي ليعمل على إثارة قبائل النعيم ضد التحركات المصرية ، كما توسطت بريطانيا في إنهاء النزاع الذي كان قائما بين السيد سعيد سلطان مسقط وابن عمه حمود بن عزان الذي استقل بصحار حيث أبرم تحالف بين الطرفين بوساطة الحكومة البريطانية لمقاومة التوسع المصري في سلطنة مسقط في عام ١٨٣٩ .

على أنه مما يسترعى الانتباه أن التوسع المصري في سواحل الخليج العربي أظهر تعاطفا كبيرا من شيوخ الخليج تجاهه ، ومن المحتمل أن يكون ذلك تعبيراً عن مناهضة الشيوخ للضغوط البريطانية التي كانوا يعانون من آثارها ومن ثم فإن وصول القوات المصرية إلى التعامل مباشرة مع أولئك الشيوخ قد نبه بريطانيا إلى خطورة الأوضاع على إحدى المنافذ الحيوية

الموصلية إلى إمبراطوريتها في الهند ومن ثم عملت على احكام حلقات سيطرتها على إمارات الخليج العربي في أعقاب انسحاب القوات المصرية في عام ١٨٤٠ . حقيقة أن بريطانيا قد تنهت إلى أهمية الخليج العربي بالنسبة لمواصلاتها الامبراطورية إلى الهند منذ عهد الحملة الفرنسية على مصر في أواخر القرن الثامن عشر مما دفعها لكي تبدأ أولى معاهداتها مع سلطنة مسقط ولكنها لم تصل إلى توطيد علاقتها بامارات الخليج إلا بعد أن نهها التقدم المصري إلى ضرورة توطيد تلك العلاقات وهو الأمر الذي تحقق لها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ولعل مما تجدر الإشارة إليه بصدد ذلك أن التوسع المصري في الجزيرة العربية والخليج العربي كان من أهم الأهداف التي سعى إليها محمد علي لتحقيق أمله في تأسيس إمبراطورية عربية كبيرة ، ومن الواضح أن نجاحه في تحقيق ذلك الهدف كان يشكل خطراً كبيراً على بريطانيا لأن سيطرته على سواحل جنوب وشرق الجزيرة العربية سوف تجعله متحكماً في كل من طريق البحر الأحمر والخليج العربي وهما المنفذان الحيويان الموصلان إلى المستعمرات البريطانية في الشرق (١) .

وتكشف لنا الوثائق المصرية عن مخطط محمد علي للتصدي للنفوذ البريطاني في سلطنة مسقط ومشيعات الساحل العماني ، كما تكشف لنا أيضاً عن المحاولات التي بذلها محمد علي للسيطرة على المناطق التي لم تكن قد امتدت إليها السيطرة البريطانية في السواحل الشمالية الغربية من الخليج ، ونعني بذلك البحرين والكويت والبصرة بل والعراق كله وخاصة أن التقارير التي كان يتلقاها خورشيد باشا القائد المصري في الاحساء من عملائه في البصرة وبغداد كانت تكشف عن تدهور الأوضاع في هاتين الولايتين العثمانيتين حتى أن بعض القوات العثمانية في البصرة تمكنت من الفرار لكي تلتحق بقوات خورشيد باشا في الاحساء . وبينما كان من المتوقع أن تحرز القوات المصرية نجاحاً كبيراً في تحقيق أهدافها إلا أن الوقت جاء متأخراً حيث كان

الموقف الدولي قد أخذ يحتدم ضد محمد على وجاءت النتائج على عكس ما كان يتوقعها واضطر في عام ١٨٤٠ أن يصدر أوامره إلى خورشيد باشا بأن يغلق باب مصروفات هذا المشروع ويعد العدة لسحب قواته من الخليج والجزيرة العربية والعودة بها إلى مصر^(١).

ولعله من المفيد أن نشير هنا إلى أن التوسع المصري في الخليج العربي مر بمرحلتين الأولى من عام ١٨١١ - ١٨١٩، والثانية من ١٨٣٣ - ١٨٤٠ وتتميز المرحلة الأولى بعدم معارضة بريطانيا لوصول القوات المصرية إلى سواحل الخليج بل حدثت محاولات للتعاون من قبل الإنجليز ولعل ذلك يرجع إلى أن النفوذ البريطاني لم يكن قد تدعم بعد كما أن وصول القوات المصرية إلى سواحل الخليج في هذه المرحلة كان مقتصرًا على تأمين العمليات العسكرية في نجد، أما المرحلة الثانية فقد اختلفت عن المرحلة الأولى وفيها كان النفوذ البريطاني قد وضح في منطقة الخليج كما وضحت الأهداف المصرية في التوسع في المنطقة، ولذلك كان من الطبيعي أن يحدث الصدام فيما بينهما. ولعل مما يستلفت الانتباه أن الوثائق المصرية تحدد بدء العلاقات بين محمد علي وشيوخ الخليج العربي منذ عام ١٨١١ أي أنها ترجع هذه العلاقات منذ بدء وصول حملة طوسن باشا إلى الحجاز في عام ١٨١١ وليس بوصول إبراهيم باشا إلى الاحساء في عام ١٨١٩. ووضحت تلك العلاقات الأولى مع سلطنة مسقط بصفة خاصة التي كانت في ذلك الوقت على عداوة مع السعوديين الذين تطلعوا إلى السيطرة على كثير من مقاطعاتها ولذلك ما أن علم سلطان مسقط بتقدم القوات المصرية لقمع الحركة الوهابية حتى أسرع بتقديم عرض صريح إلى طوسن باشا الذي كان على رأس القوات المصرية التركية الزاحفة على نجد ويقضي هذا العرض بإنجاد تحالف بين محمد علي وسلطان مسقط^(٢)، وبذلك التحالف يستطيع محمد علي أن يعتمد على

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن : من وثائق شبه الجزيرة العربية في عصر محمد علي ١٨١٩ -

١٨٤٠ ص ٣٩ - ٤٠ - الدوحة ١٩٨٢ .

(٢) عن علاقة محمد علي بسلطنة مسقط راجع كتابنا دولة بوسعيد في عمان، وشرق إفريقيا

ص ١٨١ - ١٨٦ حيث رجعنا إليه لتوضيح تلك العلاقة .

المساعدات التي سوف يبعث بها إليه سلطان مسقط بهدف القضاء على العدو المشترك بينهما^(١).

وعندما أرسل طوسن باشا إلى والده محمد على يستطلع رأيه في شأن ذلك أجاب محمد على أنه لا يجد ثمة حاجة لعقد مثل ذلك التحالف ولذلك اكتفى طوسن باشا بطلب تأجير عشرين سفينة من مسقط لأنه كان في حاجة إلى قطع بحرية لنقل المئون والإمدادات إلى جنوده^(٢). وقد يعمل رفض محمد على التحالف مع سلطان مسقط في أنه كان لا يريد التورط في عقد معاهدة تحالف مع مسقط حيث كان النفوذ الإنجليزي قد تغلغل في تلك السلطنة ومن ناحية أخرى أن الموقف العسكري في داخل نجد أخذ يتحول سريعاً إلى صالحه بعد مقتل القائد السعودي مطلق المطيري في أواخر عام ١٨١٣ ثم وفاة الإمام سعود الكبير في العام التالي. ومع توالي الانتصارات التي حققتها القوات المصرية التركية في نجد رغم المشكلات الكبيرة التي تعرضت لها تم لإبراهيم باشا إسقاط الدرعية عاصمة الدولة السعودية في عام ١٨١٨، ومن الدرعية انجبت القوات المصرية التركية بقيادة إبراهيم باشا إلى الاحساء وتذكر بعض المصادر أن إبراهيم باشا تلقى دعوة صريحة من آل عريعر الذين شجعوه على فتح الاحساء على أن يكونوا نواباً عنه في حكم تلك البلاد^(٣). والحقيقة أن إبراهيم باشا وجد في الاحساء خير قاعدة يمكنه بواسطتها الانطلاق لتحقيق أهدافه في التوسع في سواحل وإمارات الخليج ولذلك لم يكن الأمر في تقديرنا مجرد وفاء من قبله للوعود التي قدمها لآل عريعر بقدر ما كان ذلك يتفق مع السياسة المصرية التي رسمها

Shaikh Mansour, History of Sezyid Said P. 89. (١)

Burchardt, Notes on the Bedouins and Wahabys (٢)
P. 252 London 1830.

(٣) محمد بن عبد الله الأنصاري: تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد ج ١ ص ١٤٤ الرياض ١٩٦٠.

للسيطرة على تلك الأنحاء فالأسر الذى لا شك فيه أن ابراهيم باشا أدرك أهمية الاحساء الاقتصادية والاستراتيجية بالنسبة للتواجد المصرى فى نجد ولعله استجاب لطلب آل عريعر لكى يمهّدوا له الاستيلاء على الاحساء دون أن يكلفه ذلك الكثير من النفقات والرجال . وبفضل الدعم المصرى لشيوخ بنى خالد من آل عريعر تمكن بنو خالد من السيطرة على الاحساء دون مقاومة ؛ لأن فهد بن عفيصان عامل الوهابيين عليها قد تركها وفر إلى البحرين كذلك نجح شيوخ بنى خالد فى السيطرة على القطيف وعاد بذلك إقليم الاحساء لبنى خالد ولكن ذلك لم يستمر طويلاً حيث أرسل إبراهيم باشا محمد بك كاشف وبرفته مائتان وأربعون رجلاً حيث أمرهم بالاستيلاء على ما فى بيت المال وما كان لآل سعود من أموال وسلاح وخيل ففعلوا ذلك ؛ بل وصادروا أموال كل من كان له علاقة بآل سعود وقتلوا قاضى الاحساء الشيخ عبدالرحمن بن نافع وجميع أعضاء هيئة الوعظ والارشاد التابعة للوهابيين ، وعندما رأى آل عريعر تلك الفظائع ترتكب أمام أعينهم أيقنوا أن وضعهم لن يستتب فى الاحساء فغادروها هرباً إلى العراق ^(١) .

وعلى أثر سقوط الدرعية رأت بريطانيا أن تنهز تلك الفرصة لتضرب بشدة على القواسم بعد أن فقدوا السند المعنوى الذى كانوا يعتمدون عليه بعد سقوط الدولة السعودية ، وكانت الخطة البريطانية تهدف إلى التنسيق بين السيد سعيد ومحمد على للقضاء على نفوذ القواسم البحرى ، ولعل مما ساعد بريطانيا على تنفيذ تلك الخطة مشاعر السرور التى عبر عنها السيد سعيد على أثر سقوط الدرعية حيث أرسل كتاباً إلى محمد على يهنئه فيه على الانتصارات التى أحرزتها قواته فى نجد وعبر عن استعداده للتعاون معه ، ومن ثم بادرت حكومة بمباى بارسال أحد ضباطها وهو الليفتنانت جون فوستر سادلى Sadlier ومعه رسالة إلى كل من إبراهيم باشا والسيد سعيد تحثهما على توثيق أواصر الصداقة والتعاون فيما بينهما بهدف تحقيق الأمن البحرى

(١) محمد عرابى نخلة : تاريخ الاحساء السياسى ١٨١٣ - ١٩١٣ ص ٣٥ وعن الوثائق المصرية الخاصة بأهمية فتح الاحساء انظر عبد الرحيم عبد الرحمن : من وثائق الدولة السعودية الأولى فى عصر محمد على ج ٢ القاهرة ١٩٨٣ ص ٦٥٦ وثيقة رقم ١٨ .

في الخليج والقضاء على نفوذ القواسم البحرية . على أن بعثه سادلر لم تحرز أى تقدم يذكر وربما يرجع ذلك إلى رفض محمد على التورط في تلك المشروعات^(١). ومن ناحية أخرى أن مركزه في الاحساء أخذ يهتز بشدة حين تمكن شيوخ بني خالد الذين أصبحوا في ذلك الوقت مناوئين للحكم المصرى التأثير على والى العراق العثمانى الذى لم يكن بدوره ينظر إلى تقدم القوات المصرية إلى الخليج بعين الرضى ، وكان والى العراق في ذلك الوقت هو والى المملوكى داود باشا الذى كان يخشى من أن تلتقى مطامع محمد على مع المطامع البريطانية في الخليج ، واستطاع بذلك التأثير على الباب العالى الذى أوعز بدوره إلى محمد على بضرورة الانسحاب من الجزيرة العربية ونفذ ابراهيم باشا أوامر أبيه في يولييه ١٨١٩، وعاد آل عريعر إلى الاحساء بمثابة ولاة من قبل الدولة العثمانية ويتبعون بغسداد من الناحية الإدارية أى أنهم عادوا إلى الوضع السابق الذى كانوا عليه قبل الغزو السعودى لأراضيه في أواخر القرن الثامن عشر^(٢).

وعلى الرغم من أن الخطة البريطانية قد باءت بفشل ذريع ولم يتحقق التحالف بين محمد على والسيد سعيد إلا أن العلاقات ظلت ودية بين الحاكمين ويتضح لنا من إحدى الوثائق أن السيد سعيد وفد حاجاً إلى مكة في عام ١٨٢٤ وهناك استقبله والى جدة استقبالا طيباً كما أرسل محمد على بعثة من كبار رجاله لاستقباله تقديراً للكفاح الذى قام به لمواجهة النفوذ السعودى في بلاده^(٣). كما أحسن شريف مكة يحيى بن سرور استقبال السيد سعيد، وكان السيد سعيد قد وفد من مسقط إلى جدة على ظهر سفينة الكبيرة ليفربول التى استقبلت من والى جدة استقبالا حافلا ، وفيما يبدو

Ruete, R. Said Bin Sultan pp. 37—38. (١)

(٢) محمد عرابى نخلة : مرجع سبق ذكره ص ٣٦ .

(٣) Guillain, Documents Sur L'Histoire, Geographie et le Commerce de l'Afrique Orientale Tome I P. 186.

أن السيد سعيد حرص على توقيت حجه في ذلك العام لكي يعبر عن تأييده لمحمد على بعد أن نجحت القوات المصرية في السيطرة على نجد والحجاز .

وعلى الرغم من أن الوثائق المصرية قد سجلت لنا العديد من الرسائل الودية التي تبودلت بين محمد على والسيد سعيد ^(١) إلا أن علاقة الاثنين فيما بينهما لم تقتصر فقط على تلك العلاقات الودية وإنما يسترعى الانتباه أن الأمور تخرجت بين الحاكمين تخرجاً شديداً ، ويحدثنا الشيخ منصور ، وهو طبيب ايطالى عمل في خدمة السيد سعيد ورافقه في كثير من حروبه ضد السعوديين وتسمى بذلك الاسم ، أنه عقب نجاح المصريين في الاستيلاء على الحجاز كان والى جدة لا يكف عن تحذير السيد سعيد بعدم تخطي حدود ممتلكاته بالانغول في الداخل ^(٢) ، ومن المؤكد أن تلك التحذيرات كانت نتيجة لما كان يبذله السيد سعيد من محاولات للامتداد بسيطرته على أنقاض السلطة السعودية المتداعية وإن كان السيد سعيد أثر التراجع عن هذه المحاولات لتقديره أنه في حاجة إلى الاحتفاظ بممتلكاته الأصلية قبل أن يفكر في توسعات أخرى .

وإذا كانت المرحلة الأولى من مراحل التوسع المصري في الجزيرة العربية قد شهدت بعض العلاقات بين مصر وسلطنة مسقط فإن المرحلة الثانية من مراحل الوجود المصري في الجزيرة العربية ١٨٣٣ — ١٨٤٠ شهدت علاقات أكثر اتساعاً إذ أنها لم تقتصر على سلطنة مسقط فحسب وإنما امتدت لكي تشمل معظم إمارات الخليج خاصة الكويت والبحرين ومشيعات الساحل العماني . ويمكننا أن نؤرخ للمرحلة الثانية من التواجد المصري في الجزيرة العربية منذ عام ١٨٣٣ وهو العام الذي شهد توقيع صلح كوتاهية بين محمد على والسلطان في إبريل من ذلك العام إذ أتاح توقيع تلك المعاهدات انسحاب قسم كبير من القوات المصرية من آسيا الصغرى وانجهاها

(١) حفلت بحافظ الحجاز بالكثير من المراسلات الودية التي تبودلت بين محمد على والسيد سعيد - راجع وثائق عايدن (القلعة) محافظ الحجاز رقم ٢٦١ - ٢٦٢ و ٨ بحر برا

١٢٣٤ - ١٢٣٦ هـ .

Shaikh Mansour (Vincenzo), History of Seyyid Said (٢)
pp. 90—91.

إلى الجزيرة العربية، وفي السنوات التالية تحركت تلك القوات التي كانت تتألف من عدة آلاف مقاتل من قلب الجزيرة العربية صوب سواحل الأحساء بقيادة خورشيد باشا حيث أحرزت نجاحاً كبيراً في إخضاع القبائل العربية تحت لوائها وعند مصب شط العرب كان مقدراً أن تلتقى هذه القوات بالأسطول المصرى الذى كان قد أبحر عن طريق البحر الأحمر لتحقيق أهداف التوسع المصرى فى سواحل الخليج العربى^(١). وكما سبق أن أشرنا أن هذه المرحلة من مراحل التوسع المصرى كانت تختلف اختلافاً كبيراً عن المرحلة التى سبقتها من حيث موقف بريطانيا فبينما كانت بريطانيا فى المرحلة الأولى حريصة على الاستفادة من وصول القوات المصرية فى قمع النشاط البحرى للقواسم نجد أنها وقفت فى المرحلة الثانية موقفاً معارضاً للتوسع المصرى وذلك بعد أن نجحت فى توقيع معاهدات الصلح البحرى مع شيوخ الساحل العمانى وأخذت فى تدعيم نفوذها فى المنطقة ومن ثم كان من المستبعد بطبيعة الحال أن تقبل ظهور قوة جديدة تنازعها النفوذ فى الخليج وظهر ذلك واضحاً فى معارضتها لأى اتصال يقوم به خورشيد باشا مع شيوخ الخليج خاصة حينما حاول خورشيد باشا أن يتخذ من القطيف مركزاً للاتصال بالإمارات المجاورة محاولاً إغراء شيوخها بالانضواء تحت سيادة محمد على، حيث لقيت هذه المحاولات معارضة شديدة من بريطانيا التى قدرت أن وصول القوات المصرية إلى سواحل الخليج سيمكن مصر من السيطرة على الخطوط الملاحية التى تصل أوروبا بالهند^(٢). وما يستلقت الانتباه أن محمد على لم يشأ فى البداية الاصطدام بالانجليز إذ أعلن أنه لم ينبغ من توسعه فى الجزيرة العربية وسواحل الخليج العربى أكثر من إخضاع السعوديين وحماية الحرمين الشريفين^(٣)، كما أعلن عن استعدادة لتقديم كافة الضمانات لتيسير سبل الاتصال بين مصر

Dodwell, op. cit. pp. 142—145.

(١)

(٢) عن المعارضة البريطانية للتوسع المصرى فى الخليج انظر كتابنا الخليج العربى دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ - ١٩١٤ ص ص ٦٥ - ٧١ الذى رجعنا إليه فى توضيح بعض جوانب هذه المعارضة.

Palmerston to Colonel Campell 29th November 1838 (٣)

F.O. 78/343.

راجع الأرشيف الأورى بوثائق عابدين (القلمة حالياً) محفوظ رقم ١٢

See also Temperley, Documents Old and New Doc. No. 27.

والهند ، غير أنه لم يكن من السهولة أن تسلم بريطانيا بذلك وإنما سارعت بتوطيد علاقاتها بشيوخ الخليج كما كلفت بعثة كسنى بمسح نهري دجله والفرات واختبار صلاحيتهما للملاحة البخارية في عام ١٨٣٤ ، وذلك لكي تفتح طريقا آخر للمواصلات بدلا من طريق البحر الأحمر الذي أصبح تحت السيطرة المصرية حتى احتلال بريطانيا لعدن في عام ١٨٣٩ ، كما أرسلت بريطانيا بعض قواتها إلى البصرة واحتلت جزيرة خرج ١٨٣٨ ، التي تقع عند مدخل الخليج العربي في ناحيته الشمالية ؛ بهدف مراقبة التحركات المصرية في الأجزاء الشمالية من الخليج العربي^(١) . وفي عام ١٨٣٨ أخذ الموقف يتأزم بين بريطانيا ومحمد علي تأزما شديدا حيث كتب الليفنتان كولونيل تايلور المقيم البريطاني في بغداد إلى الأورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانية يوضح العواقب التي سوف تترتب على تقدم القوات المصرية في سواحل الخليج ، وبادر بالمرستون بالكتابة إلى الكولونيل كمبال ممثل بريطانيا في القاهرة يباخه بتلك المعلومات التي كان مفادها اتجاه القوات المصرية إلى الاحساء والقطيف تمهيدا للسيطرة على البحرين وطلب منه الاستفسار من السلطات المصرية في القاهرة عن صحة هذه المعلومات مؤكدا أن هذه التحركات تنظر إليها الحكومة البريطانية نظرة غير ودية . وسلم كامبل احتجاج بالمرستون إلى باغوص بك وزير محمد علي حيث كان محمد علي متغيبا في السودان في ذلك الوقت ، وحصل كامبل على وعد من باغوص بك بأنه سيبادر بتبليغ ذلك الاحتجاج إلى الوالي فور عودته وأنكر باغوص بك بأن يكون لمحمد علي أية أطماع في جزر البحرين^(٢) ، ومما تجدر الإشارة إليه أن تحركات القوات المصرية في الخليج قد أثارت وزارة الخارجية بلندن ، ومن المعروف أن شئون الخليج كانت من اختصاص

(١) من نخورشيد باشا إلى الباشاعاون الخديوي ١٦ أبريل ١٨٣٩ حول احتلال الانجليز لجزيرة خرج محافظ الحجاز - مخططة رقم ٢٦٧ ، ٧ أصلية و ٥٠٠ حمراء ٢١ عزم ١٢٥٥ هـ .
عن عبد الرحيم عبد الرحمن : محمد علي وشبه الجزيرة العربية ١٨١٩ - ١٨٤٠ - الجزء الثاني ص ٥١٣ - القاهرة ١٩٨١ .

(٢) جون كلى : بريطانيا والخليج العربي ج ١ ص ٥٢٥ - ٥٢٧ .

حكومة بومباي ولم يكن تدخل الحكومة البريطانية في لندن في شئون الخليج إلا في الأمور الهامة التي تستوجب تدخلها ومن ثم فإن اهتمام وزارة الخارجية بلندن بالتحركات المصرية في الخليج العربي يؤكد لنا أهمية تلك التحركات ليس بكونها خطراً على حكومة الهند فحسب وإنما على الامبراطورية البريطانية بأسرها وبصدد ذلك أرسل بالمرستون إلى حكومة الهند يلفت نظرها إلى ضرورة معارضة أى تقدم يقوم به خورشيد باشا في الخليج ويطالبها بالتدخل المسلح إذا ما اقتضت الضرورة ذلك^(١). وقد ركز بالمرستون ، وقد عرف بسياساته العدائية ضد محمد علي ، على جزر البحرين وما يمكن أن يشكله استيلاء مصر على تلك الجزر من خطر على مركز بريطانيا في الخليج العربي . والحقيقة أن خورشيد باشا كان يتجه فعلاً للسيطرة على البحرين ، كما كان يعمل على استغلال المطالب السعودية لتحقيق نشاطه في منطقة الخليج برمتها وقد وضح ذلك حين أسر فيصل بن تركي وبعث به إلى القاهرة وأحل بدلاً منه الأمير خالد بن سعود الذي كان يتحرك وفقاً لمشورته^(٢). وباسم الأمير خالد تحرك خورشيد باشا للسيطرة على الاحساء . وقد يكون من المفيد أن نشير إلى أن الاحساء قد عادت إلى حكم بنى خالد في عام ١٨١٨ ثم نجح السعوديون في استردادها على يد الامام تركي بن عبد الله في عام ١٨٣٠ ، ولكن الاضطرابات التي حدثت في الاحساء بعد أسر الأمير فيصل جعلت الفرصة سانحة أمام خورشيد باشا لاستردادها باسم الأمير خالد بن سعود ، كما شدد خورشيد باشا جهوده على البحرين خاصة بعد أن التجأ إليها عدد كبير من السعوديين المناوئين لخالد ابن سعود وعلى رأسهم القائد السعودي عمر بن عفيصان^(٣).

Hoskins, Background of the British Position in Arabia (١)
Middle East Journal vol. 1 No.2 April 1947 pp. 138—143.

(٢) كان الأمير خالد بن سعود من الأسرى السعوديين الذين اعتقلهم ابراهيم باشا عند تحطيم الدرعية في عام ١٨١٨ وأرسلهم إلى مصر وعندما كبر خالد بن سعود نال حظوة لدى محمد علي الذي رأى أن يجعله أميراً على نجد ولذا أرسله إلى نجد بصحبة خورشيد باشا وبعد القبض على فيصل بن تركي أعان خالد بن سعود أميراً على نجد راجع الزيني دحلان : خاصة الكلام في بيان أمراء بيت الله الحرام ص ٣١٢ .

(٣) ج . ج . لوريمر دليل الخليج ج ٣ ص ١٣٠٦ - ١٣٠٧ .

ومما تجدر الإشارة إليه أن خورشيد باشا استكتب خالد بن سعود عدة مطالب قدمت باسمه إلى شيوخ البحرين، ومن بين هذه المطالب إعادة قلعة الدمام وجزيرة طاروت إلى السعوديين وتسليم عمر بن عفيصان. وقد أفرغت تلك المطالب شيخ البحرين، الشيخ عبد الله، الذي بادر بطلب الحماية الفارسية كي يتخلص من تقدم القوات المصرية خاصة وأنه كان يعتقد بأن السيد سعيد بن سلطان يتآمر مع محمد علي للاستيلاء على البحرين وحكمها نيابة عنه، وقد بادر أمير شيراز بارسال مبعوث من قبله هو حاجي قاسم ليقم في البحرين، ولم يكن لذلك التحرك أى أثر في تهدئة مخاوف شيوخ البحرين الذين أذعنوا للتقدم المصرى وخاصة لما أشيع في ذلك الوقت عن احتمال إبرام تحالف بين محمد علي والشاه لمواجهة الأطماع الإنجليزية في الخليج العربى^(١). وفيما يرجح لدينا أن محمد علي كان يفكر بالفعل في إيجاد تحالف بينه وبين فارس ولكن حال دون ذلك معارضة بريطانيا لقيام تحالف من ذلك النوع إذ استغلت بريطانيا الادعاءات الفارسية على البحرين لكي تقاوم التقدم المصرى إلى تلك الجزر كما يفهم ذلك من تأكيد التوصل البريطانى في الاسكندرية لمحمد علي بأن البحرين لا تكون جزءاً من الجزيرة العربية حيث أنها تابعة لفارس وعلى ذلك فإن بريطانيا لن تسمح للدولة العثمانية والقوات محمد علي بالسيطرة عليها^(٢). وهكذا اتجهت السياسة البريطانية إلى منع القوات المصرية من السيطرة على البحرين لأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية، وشدد بالمرستون على استخدام القوة أو إلى احتلال فعلى تقوم به حكومة بومباى من أجل ذلك^(٣)، ولذلك سارع الأدميرال فردريك ميتلاند Maitland قائد البحرية البريطانية في الهند إلى الخليج العربى

Claim to Bahrein Islands—Foreign Secretary to the (١)
Govt. of India, 1937. See also Adamyat F. Bahrein Islands
pp. 134—136.

(٢) من خورشيد باشا إلى الباشاعوان الخديوى ١٣ أكتوبر ١٨٣٩ وثائق عابدين (القلعة)
مخاف الحجاز ١٢٥٥ هـ مخفظة رقم ٢٦٧ وثيقة ١٣٩ أصلية ٦، حراء .

I.O, Political and Secret Dept, 20th Feb. 1840 302 A. (٣)
See also Dodwell, op. cit. pp. 142—143.

ليقدم ما يلزم من حماية إلى شيوخ البحرين وغيرهم من شيوخ الخليج العربي^(١). وقد وصل ميتلاند إلى البحرين في الوقت الذي كان فيه خورشيد باشا قد انتهى من احتلاله للقطيف والعقير ووجد أن شيوخ البحرين كانوا على استعداد للاعتراف بالسيادة المصرية ، ولذلك رأى من الحكمة عدم القيام بأى عمل عسكري ، وطلب من الكولونيل هنل المقيم البريطاني في الخليج أن يعمل على وقف الضغط المصرى بالطرق السلمية. ويقرر هنيل في تقرير بعث به إلى حكومة الهند أنه وجد من الأمراء الذين زارهم أنهم كانوا أكثر تقديرا لعظمة القوات المصرية^(٢)، كما فوجيء هنل بأن هناك معاهدة تم توقيعها بين خورشيد باشا وشيوخ البحرين في مارس ١٨٣٩ ويتضح لنا من توقيع تلك المعاهدة أن شيوخ البحرين أبدوا ترحيبهم بالوجود المصرى أملا في التخلص مما كان يحيق بهم من خطر الانجليز والفرس وسultan مسقط جميعاً ، وخاصة أن محمد على لم يتجه إلى طلب جزيرة كبيرة كما كان يفعل الفرس أو السعوديون ومما هو جدير بالذكر أن خورشيد باشا كان قد أوفد أحد مبعوثيه ويدعى محمد أفندى رفعت إلى البحرين ، للتفاوض في عقد معاهدة ود وصداقة . وقد حفظت لنا وثائق القلعة بمصر نص المعاهدة التي وقعت بين الطرفين^(٣) . كما حفظت لنا لنا التقارير التي كان يبعث بها محمد أفندى رفعت عن مهمته التي قام بها في البحرين والتي استند فيها على تبعية جزر البحرين للسعوديين وكما هو واضح أن محمد أفندى رفعت كان يحاول أن يسبغ شرعية على

(١) Rihani (Ameen), Ibn Saud P. 140.

(٢) Henell to Willoughby 14th Feb. 1839 Enclosure No. 3

letter from Abdullah Bin Khalifah to the Resident in the Persian Gulf 26th January 1839 F.O. 78/386 No. 140 Political Department, (عابدين سابقا) وثائق القلعة

(٣) من خورشيد باشا إلى عبد الله آل خليفة ٧ مارس ١٨٣٩ مرفق عربي الوثيقة ١٣٧

حراء وثائق عابدين (القلعة حاليا) محافظ الحجاز ١٢٥٤ هـ محفظة رقم ٢٦٧ .

التحرك المصري في البحرين الذي كان يتم خلال تلك المرحلة باسم الأمير
نخالد بن سعود . وتؤكد لنا الوثائق المصرية أن محمد أفندي رفعت نجح في عقد
معاهدة مع شيوخ البحرين قبلوا فيها الخضوع للحماية المصرية وأن يسلموا
كل سنة ثلاثة آلاف فرانسة على سبيل الزكاة ، ولعل توقيع هذه المعاهدة
أثار قلقاً شديداً لدى الإنجليز حتى أن هنل المقيم البريطاني في الخليج
وجه احتجاجاً شديداً إلى خورشيد باشا محملاً إياه أى ضرر يحدث للرعيا
الإنجليز في البحرين . كما أخذ ينشر النشرات المعادية للحكم المصري وطلب
من شيخ البحرين أن يعطيه المعاهدة ليمزقها وأن الإنجليز على استعداد لتقديم
الحماية للبحرين وضمان الحكم لأسرة آل خليفة وألا يتقاضوا إيرادا من
البحرين لمدة عشرين عاماً . وعلى الرغم من الضغوط التي استخدمها هنيل
إلا أن الشيخ عبد الله امتنع عن قبول الحماية البريطانية وأجاب المقيم
البريطاني بقوله . . « إني وإن كنت طالبت منكم الحماية قبل ولكن ماقلت
لكم أن أكون من جملة رعايا الإنجليز ، وأما اليوم فقد تصالحنا والله الحمد
مع خورشيد باشا وربطنا الصلح بشروط » ولم يكتف هنل بتهديد شيخ
البحرين وإنما أرسل إلى خورشيد باشا محتجاً أن البحرين تتبع فارس
ولا يجوز الاستيلاء عليها ومذكراً له بما كان قد سبق أن صرح به محمد علي
إلى ممثل بريطانيا في القاهرة بأن قوائمه لن تتعدى على بلاد الغرب المتصلة
بخليج فارس ^(١) وقد أجاب خورشيد باشا على احتجاج هنل بأن ماقام به
لايستوجب أى اعتراض وبرر ذلك بأن المناطق التي يعمل على فتحها كانت
فيما مضى خاضعة للسعوديين وحيث أن محمد علي قد أنعم على نخالد بن سعود
بالحكم فلا موجب إذن للاعتراض خاصة وأن المعاهدة التي وقعت مع شيخ
البحرين كانت لاختلف عما كانت بين هذا الشيخ والسعوديين من قبل ^(٢) .

(١) وثائق عابدين (القلعة حالياً) - محافظ الحجاز ١٢٥٥ هـ - محفظة رقم ٢٦٧ انظر
اعتراض هنيل على اتفاق خورشيد باشا مع شيخ البحرين - صورة المرفق العربى لوثيقة رقم ١٤٧
خبراء ٢٧ يونية ١٨٣٩ .

(٢) وثائق عابدين (القلعة حالياً) : محافظ الحجاز ١٢٥٥ هـ - صورة للمرفق العربى
لوثيقة رقم ١٣٧ - رد خورشيد باشا على اعتراض هنل ٢١/٧/١٨٣٩ .

ولعل مما يسترعى انتباهنا الموقف الذى اتخذته شيوخ البحرين فى علاقتهم بكل من الانجليز والمصريين ، وعلى وجه خاص تحولهم إلى صداقة المصريين وفى تحليلنا لذلك الموقف ينبغى أن نؤكد هنا أن الأوضاع الداخلية فى البحرين كانت من أهم أسباب ذلك التحول إذ شهد عهد الشيخ عبد الله بن خليفة خروج بعض أفراد أسرته عليه وحين استنجد ببريطانيا لم تستطع أن تلتزم نفسها بضمان الحكم له فى الوقت الذى تعرض فيه للمنافسات الأسرية ، وعلى الرغم من أن الشيخ عبد الله حاول أن يستعين بفارس إلا أن منافسيه سبقوه إليها ولذلك لم يجد أمامه قوة تسانده سوى اللجوء إلى خورشيد باشا . بيد أن أسلوب الضغط الذى استخدمته بريطانيا ضد البحرين كان من أهم العوامل التى أدت إلى تراجع الشيخ عبد الله عن اتفاقه مع خورشيد باشا إذ أوضح للمقيم البريطانى أنه عدل عن اتفاقه بعد أن أدرك أن خورشيد باشا يهدف إلى احتلال البحرين واتخاذها قاعدة لشن هجوم بحرى على البصرة وأنه كان يريد استخدام السفن التابعة لآل خليفة لتحقيق تلك الغاية ، وأكد الشيخ عبد الله أنه بعد أن تراجع عن اتفاقه هذا فإنه يطلب من الحكومة البريطانية ضمان الحكم له ولأسرته . وقد أوصى هنل حكومة بومباى بقبول مبدأ الحماية للبحرين وأكد فى التقرير الذى بعث به إلى حكومته بأن تصرفات الشيخ عبد الله وتردده بين القوى المختلفة كان منشؤها الرغبة فى مسالمة أية دولة قوية تطمع فى السيطرة على البحرين : وكانت هذه هى النتيجة التى توصلت إليها بريطانيا فى نهاية الأمر ، ومما يذكر بصدد ذلك أن البحرين كانت أولى إمارات الخليج التى خضعت للحماية البريطانية وذلك منذ توقيعها معاهدة ١٨٦١ مع الحكومة البريطانية (١) .

لم يقف نشاط خورشيد باشا فى علاقته بإمارات الخليج العربى عند إمارة البحرين فحسب بل حاول أيضا الاستيلاء على المقاطعات التابعة لسلطنة مسقط منتزعا فرصة التفكك الإقليمى الذى كانت تعانيه تلك السلطنة بانتقال عاهلها إلى زنجبار وإلى الثورة التى تزعمها حمود بن عزان فى عام ١٨٣٠ ، والتى أدت إلى استيلائه بميناء صحار فى عام ١٨٣٩ ، ومن الثابت أن

محمد علي كان يفكر جديدا في السيطرة على سلطنة مسقط تحقيقا لمشروعه الذي كان يستهدف منه السيطرة على جميع سواحل شبه الجزيرة العربية وخاصة لتقديره أهمية موقع ميناء مسقط ورغبته في التحكم في مداخل الطرق البحرية للخليج العربي^(١)، يضاف إلى ذلك أهمية ميناء مسقط في نقل الامدادات إلى القوات المصرية في الخليج والجزيرة العربية إذ أن نقل الغلال من مسقط أسهل وأقل تكلفة من نقلها عن طريق القصير وجدة^(٢). وتؤكد بعض المصادر أن القوات المصرية سببت فزعا كبيرا للحكام مسقط ولولم تبادر بريطانيا بمساعدتهم لسقطت السلطنة وملحقاتها في قبضة خورشيد باشا^(٣).

والجدير بالذكر أن معاهدة ١٨٣٩ بين السيد سعيد ومحمد بن عزان عقدت بمشورة بريطانيا بهدف توحيد الجبهة العمانية ضد القوات المصرية وقد نصت المعاهدة على أن يحتفظ كل طرف بممتلكاته وأن يتعهد الطرفان بأن يعيش كل منهما داخل ممتلكاته دون عدوان واشترط السيد سعيد أن تعاونه سحار عسكرياً حين يطلب منها ذلك. كذلك بادرت بريطانيا في عام ١٨٣٩ بعقد معاهدة مع سلطنة مسقط بعد أن استنفدت معاهدة ١٧٩٨ أغراضها^(٤).

ومما يسترعى الانتباه أن مخاوف سلطان مسقط من التوسع المصري في سلطنته لم يتضح إلا في عام ١٨٣٩ أما قبل ذلك فقد كان موقف سلطان مسقط مؤيداً للتقدم المصري في الجزيرة العربية إذ أن ذلك التقدم قد أعنى سلطنة مسقط من دفع الزكاة السنوية للسعوديين؛ ولذلك كان سرور السيد

(١) Tamisier, Voyage en Arabie Tome I P. 359.

(٢) عبد الرحيم عبد الرحمن : من وثائق الجزيرة العربية في عصر محمد علي المجلد الأول ص ٧٢٤ - ٧٢٥ الدوحة ١٩٨١.

(٣) Jackson, European Powers and South East Africa CF. (٣) Muscat and the Powers P, 170.

(٤) ج. ج. لوريمر : دليل الخليج ج ٢ ص ٧٠٠.

سعيد عظيمًا عندما تمكن خورشيد باشا في فترة سابقة على ذلك التاريخ من القضاء على حكم الإمام فيصل بن تركي ، ولكن يبدو أن سروره لم يستمر طويلا حينما أصدر محمد علي فرمانه الخاص بتعيين خالد بن سعود بدلا من الإمام فيصل أميراً على نجد . ويتضح لنا قلق السيد سعيد من رسالة بعث بها إلى محمد علي في عام ١٨٣٩ يحذره فيها من خالد بن سعود وقد جاء في تلك الرسالة « وقد فرحت الخلق برواح فيصل بن سعود ويدعون لكم أثناء الليل وأطراف النهار وإن تمكن خالد بن سعود يقع منهم (أى من السعوديين) أكثر مما مضى »^(١). وتؤكد لنا الوثائق المصرية أن السيد سعيد رغب في تنسيق سياسته مع محمد علي وأنه أرسل له ثلاث رسائل توضح له أهمية ذلك التنسيق ولكن محمد علي أهمل عروض السيد سعيد حتى قرر خورشيد باشا التدخل في البريمي والساحل العماني فبدأت المراسلات من جديد للوقوف على مدى استعداد السيد سعيد للتنسيق أو التعاون ، وربما كانت العقبة التي حالت دون ذلك الموقف العدائي الذي وقفه خالد بن سعود الذي تابع التقاليد السعودية في اصراره على أن تدفع مسقط الزكاة السنوية التي كانت مقررة للسعوديين^(٢)، وكتب إلى أبناء السيد سعيد ثويني وهلال اللذان كانا يقومان بالحكم في مسقط نيابة عن أبيهما أثناء تواجده في زنجبار بأن يكونا في علاقتهما معه على الوضع الذي كان عليه أبوهما مع أسلافه تركي و فيصل . وليس من شك في أن رسالة خالد بن سعود هذه أزعجت سلطان مسقط فأرسل كتاباً إلى محمد علي عن طريق حاكم الحجاز موضحاً له استياءه من تلك التصرفات مبدئياً استعداداً للتفاهم مع محمد علي وإجابة مطالبه ، ولما لم يكن محمد علي يرغب في تضيق الخناق على السيد سعيد لأنه كان لا يزال يراوده الأمل في الاستعانة به لتحقيق مشروعاته التوسعية

(١) وثائق عابدين (القلعة حالياً) - محفظة رقم ٢٦٦ حجاز ١٢٥٥ هـ صورة المرفق العربي للوثيقة رقم ١٨١ حمراء و ٤٣ أصلية .

(٢) وثائق عابدين (القلعة حالياً) : محفظة رقم ٢٦٦ حجاز ١٢٥٥ هـ من خالد بن سعود إلى أبناء السيد سعيد - صورة المرفق العربي للوثيقة رقم ١٨١ حمراء و ٤٣ أصلية (ذكرت بدون تاريخ) .

في الخليج فقد بادر بالكتابة إلى خالد بن سعود يقول له « إنه بالنظر للصفاة القائمة بيننا وبين حضرة الإمام المشار إليه لا نوافق على كسر خاطره أصلاً فاجتنب المعاملة التي توجب اضطراب حضرة الإمام المشار إليه وبادر إلى إدخال السرور عليه وتطبيب خاطره^(١) ». كما أمر في نفس الوقت أحمد باشا قائد جيش الحجاز بأن يكتب إلى السيد سعيد يؤكد له « أن ما كتبته خالد بك لحضرتكم إنما هو من مقتضيات صботه وخفة مزاجه وقد كتبنا له بأن يرجع عن مثل هذه الكتابة وأن يراعى خاطركم في كل حال^(٢) » .

وبينا كان محمد علي يتجه إلى استخدام تلك السياسة التلطيفية كان خورشيد باشا يعمل على السيطرة على المقاطعات العمانية وأخذ يمهّد لمشروعه هذا عن طريق سيطرته أولاً على واحات البريمي التي هي بمثابة المفتاح الرئيسي لعمان، وكان من المتوقع نجاح خورشيد باشا في السيطرة على سلطنة مسقط بأسرها نظراً لما كانت تعانيه السلطنة من تفكك في ذلك الوقت ولعل هذا التفكك كان يهّم خورشيد باشا الذي لاحظ حالة البلاد جيداً وكتب إلى محمد علي يقول « إن عمان ثلاثة أقسام جانب في حكومة سعيد ابن سلطان إمام مسكت (مسقط) وجانب في حكومة ولد عمه حمود بن عزان وجانب من الظاهرة في حكومة السعوديين^(٣) » . وقد مهد خورشيد باشا لمشروعه هذا بايقاد سعد بن مطلق إلى واحة البريمي في عام ١٨٣٩ لكي يعمل على تهية الأذهان لتقبل الحكم المصري القائم في نجد^(٤) ، في الوقت الذي

(١) وثائق عابدين (القلعة) - محفظة رقم ٢٦٦ حجاز ١٢٥٥ ترجمة لوثيقة ١٠٤ حمراء .

(٢) وثائق عابدين (القلعة) - محافظ الحجاز انظر إرادة رقم ٢٥ من محمد هل بتاريخ ٣

ذي القعدة ١٢٥٥ هـ .

(٣) وثائق عابدين (القلعة) محفظة رقم ٢٧٠ وثيقة عربية ١٩٠ حمراء بتاريخ ١٢ جمادى الآخر ١٢٥٥ هـ رسالة من خورشيد باشا إلى الباشمعاون الخديوى .

(٤) ترى الوثائق السعودية بصدد ذلك أن سعد بن مطلق المطيرى تعاون مع خورشيد باشا بدافع من ولائه لآل سعود إذ كان محمد علي لا يزال يظهر حتى ذلك الوقت أنه يعمل في نجد باسم خالد بن سعود، انظر التحكيم لتسوية النزاع الاقليمي بين مسقط وأبو ظبي. وبين المملكة العربية السعودية عرض الحكومة السعودية ج ١ ص ١٧٣ القاهرة في ١٩٥٥ .

وقف فيه السيد سعيد موقفاً مضاداً حيث أخذ يعمل على تأليب شيوخ بني النعيم ويحرضهم على عدم الاذعان للوضع القائم وأن يحتفظوا باستقلالهم^(١) والأمر الذي لا شك فيه أن السيد سعيد كان يفضل استقلال تلك الواحة على وقوعها في أيدي المصريين فهو لا يمكن أن يرحب بطبيعة الحال بأن تقوم إلى جواره قوة عسكرية فتية أثبتت كفاءتها العسكرية في الجزيرة العربية وقضت على أكبر قوة بها وهي القوة السعودية . ومما لا شك فيه أيضاً أن الإنجليز اشتركوا مع السيد سعيد في تحريك قبائل النعيم على الثورة ضد سعد بن مطلق المطيري ويتضح ذلك من رسالة بعث بها إلى خورشيد باشا يؤكد فيها « إن الفتن والثورات القائمة في البريمي إنما هي من حركات الإنجليز »^(٢). ولعله من المفيد أن نشير هنا إلى أن العلاقة بين آل النعيم والدولة السعودية التي أقامها المصريون في نجد قد أصابها الفتور ذلك أن آل النعيم لم يعترفوا بامارة خالد بن سعود كما لم يعترفوا بالوجود المصري واعتبروا ذلك انحرافاً عن العقيدة الوهابية، وقد استغل هنل هذا الوضع لإرسال أحد ضباطه إلى البريمي ليقوم بتوزيع السلاح والعتاد والمواد الغذائية وإجراء المصالحات بين قبائل الظواهر والنعيم والشوامس ، كما بادر هنل بإرسال احتجاج شديد اللهجة إلى خورشيد باشا جاء فيه « إنه ينبغي من جنابكم الكف والسكوت عن المداخلة والتصرف في أمور البحرين وعمان إلى أن تصل المخاطبة فيما بين الدولتين الإنجليسية والمصرية وتقضى على نهج معلوم » ، كما ذكر له أيضاً أنه إذا ما أرسل عساكر إلى طارفة البريمي سواء من البر أو البحر فسيؤخذ ذلك دليلاً واضحاً على أن جنابكم غير

(١) وثائق سعودية : التحكيم لتسوية النزاع الاقليمي بين مسقط وأبو ظبي وبين المملكة العربية السعودية عرض الحكومة السعودية ج ١ ص ١٧٣/١٧٥ .

(٢) وثائق عابدين - محفظة رقم ٢٧٠ وثيقة عربية رقم ٩٤ بتاريخ ١٢ جمادى الآخر ١٢٥٥ هـ .

راغب في استقامة الصداقة فيما بين الدولتين بدون خلل^(١) » وثمة ما ينبغي الإشارة إليه أيضاً أنه في خلال موجة التوسع المصري كانت الحكومة البريطانية لا تكف عن تنبيه السيد سعيد بأن يكون على أهبة الاستعداد لمقاومة القوات المصرية الزاحفة في أى وقت^(٢). وبما لا شك فيه أيضاً أن محمد علي كان يعمل فعلاً على الاستيلاء على سلطنة مسقط وقد أعرب عن رغبته هذه في حديث بينه وبين الكولونيل هودجس Hodges القنصل البريطاني العام في القاهرة في إبريل ١٨٤٠^(٣)، والتي لم تتحقق بسبب اضطرابه إلى الانسحاب من الجزيرة العربية، ويذكر شارل ديبدييه إن علاقات الصداقة لم تلبث أن استؤنفت من جديد بين محمد علي والسيد سعيد كما تبادل خلفاء محمد علي، عباس وسعيد، الهدايا مع السيد سعيد وقد حفلت وثائق القلعة بكثير من الرسائل التي تؤكد استمرار العلاقات الودية بين مصر وسلطنة مسقط وزنجبار^(٤).

وقد أدت محاولات خورشيد باشا السيطرة على البريمي وغيرها من المقاطعات العمانية إلى إيجاد علاقات بينه وبين شيوخ الساحل العمانى التي تعرضت بدورها لموجة التوسع المصري مما استلزم من الأدميرال ميتلاند الالتقاء بشيوخ الساحل وتذكيرهم بروابط الصداقة بينهم وبين بريطانيا وعلى حين أكد الشيخ سلطان بن شعبوط شيخ أبوظبى الذى التقى بالأدميرال ميتلاند على مقربة من المنامة حرصه على توثيق الروابط بينه وبين بريطانيا أعرب سلطان بن صقر شيخ القواسم عن ثقته بأن السكان العرب لا يستطيعون وقف خورشيد باشا، وأجاب ميتلاند بأن قبائل الساحل العمانى فى وسعها

(١) وثائق عابدين (القلعة حالياً) - مخطوطة رقم ٢٦٧ صورة المرفق العربى المؤرخ فى ١٧ جمادى الآخر ١٢٥٥ هـ .
انظر رسالة من هنيل إلى خورشيد باشا .

(٢) Coupland, R. East Africa and It's Invaders P. 470.

(٣) Ruete, R. Said Bin Sultan P. 78 1929.

(٤) جمال زكريا قاسم : دولة يوسف سعيد فى عمان وشرق إفريقيا ص ١٨٧ القاهرة

التصدي لخورشيد باشا لو أنها وجدت صفوفها وأن قبائل القواسم التي تضم رأس الخيمة والشارقة وعجمان وأم القوين تستطيع تعبئة أحد عشر ألف مقاتل . وما تجدر الإشارة إليه أن سلطان بن صقر رفض تعبئة هذه القوة تحت إشراف بريطانيا لما قد يؤدي إليه ذلك من كثرة الخزانات القبلية وقد ورد في التقرير الذي كتبته ميتلاند وبعث به إلى حكومة بومباي إنه لما يحز في النفس أن أرى زعماء القبائل غير مدركين (للخطر) الذي يداهمهم وأنهم رغم المخاطر التي يتعرضون لها فلأنهم لم يتخذوا أية خطوة لمواجهةها^(١).

ولم تلبث الأمور أن تأزمت في الساحل العماني حينما وصل سعد بن مطلق المطيري إلى الشارقة وأبلغ سلطان بن صقر أنه جاء موفدا من الأمير خالد بن سعيد لاحتلال البريمي وقد بادر سلطان بن صقر باحلاله في إمارته خوفا من أن ينصرف إلى منافسه خليفة بن شخبوط ولكن المقيم البريطاني في الخليج الكولونيل إدموندز Edmonds نصيح الشيخ سلطان بضرورة التخلص منه مهما تكن مخاوفه من ردود الفعل لأنه من المؤكد أنه وفد إلى الساحل بتكليف من خورشيد باشا وليس من الأمير خالد بن سعود وفي ذلك الوقت كانت الشائعات منتشرة في الساحل العماني بأن عملاء خورشيد باشا موجودون في جميع أنحاء الخليج^(٢).

ولم تلبث أن تحققت صدق المخاوف البريطانية حينما أبلغ سعد بن مطلق الشيخ سلطان صراحة بأنه جاء ممثلا عن خورشيد باشا ولذلك أدرك هنل الذي وصل إلى المقيمة البريطانية في الخليج بأنه إذا سمح لسعد بن مطلق بالبقاء في منطقة الساحل العماني فلن يمضي وقت طويل حتى يكون جميع شيوخ الساحل قد خضعوا لمحمد علي ، ولذلك أسرع هنل بالحصول على تعهدات خطية من شيوخ الساحل بمقاومة نفوذ خورشيد باشا وأضيف نص خاص بالنسبة للشيخ سلطان بن صقر يتعهد فيه صراحة بعدم إجراء أية

(٢) جون كل : بريطانيا والخليج ج ١ ص ٥٤٥ .

(٣) نفسه ص ص ٥٦٠ - ٥٦١ .

علاقات أو مراسلات أو اتفاقيات مع محمد على أو أنصاره أو أية قوة أجنبية أخرى قبل موافقة الحكومة البريطانية وأن يعتبر حلفاء تلك الحكومة حلفاءه وأعداؤها أعداءه . وطبقا لما تقررته الوثائق البريطانية بعث الشيخ سلطان ابن صقر إلى المقيم البريطاني يطلب منه التعرف على موقف الحكومة البريطانية إذا ما تعرض لتوسع القوات المصرية ، وكتب المقيم البريطاني إلى حكومة الهند معلقا على رسالة الشيخ سلطان بأنه كان يريد أن يؤكد للشيخ بأن الحكومة البريطانية تمتنع عن التدخل في الشؤون الداخلية ، كما كان يفعل ذلك في الماضي ، ولكن الظروف تبدو مختلفة الآن اختلافاً كبيراً عما كانت عليه قبل ظهور القوات المصرية ولعل ذلك مادفعه إلى تقديم ضمانات الحماية للشيخ سلطان بن صقر مما كان له الأثر في الزام الشيخ نفسه بالتعهد الذي أشرنا إليه ^(١) . ومما تجدر الإشارة إليه أن سعد بن مطلق كان يحمل معه رسائل من خورشيد باشا يطلب فيها من شيوخ الساحل تقديم المساعدة له ومخذرا إياهم من عدم الانصياع له ^(٢) ، وقد أحدث هذا التحرك أثر كبيراً لدى شيوخ الساحل إلى درجة أفزعت الكولونيل هنل المقيم البريطاني في الخليج الذي وجه تحذيرات إلى الشيوخ في ٥ يونيو ١٨٤٠ جاء فيها « فليكن معلوماً أننا قد أئذنا العامة ^(٣) أن كل أحد من المشايخ الداخلين في سلك الصلح البحري مع جناب حضرة السركار بها دور يعطى لسعد بن مطلق مكاناً عنده يقع الخلل في صداقته مع حضرة السركار ذي الاقتدار ولا

(١) Campell to Fackrouse—Secret No. 6 of 1839 29th January 1839. See also Hennell to Willoughby Secretary to the Govt, of Bombay, Enclosure in India Board 6th May 1839 F.O. 78/336. انظر الأرشيف الأوربي بوثائق القلمة محفظة ١٢

(٢) Hennell to the Govt. of Bombay 12th Feb. 1839, CF. Enclosure No. 6 from Molla Hussein, The Native agent of Sharga to the Resident in the Persian Gulf 14th January 1839, F.O. 78/336. راجع الأرشيف السابق

(٣) الشيوخ الذين اشتركوا في توقيع معاهدة السلام العامة في يناير ١٨٢٠ .

يلومن إلا نفسه^(١). ونجح هنل في الحصول على تعهدات من شيوخ الساحل بعدم التعاون مع سعد بن مطلق أو خورشيد باشا إذ أن هذا التعاون يعد خرقاً صريحاً لروابط الاتحاد والصلح القائم بينهم وبين الحكومة البريطانية وكان أبرز الشيوخ الذين كتبوا هذه التعهدات الشيخ خليفة بن شخبوط شيخ بني ياس ومكنوم بن بطي حاكم دبي وسلطان بن صقر شيخ القواسم ، ولم تكن هذه التعهدات إلا مقابل وعد شفهي بأن يعد أولئك الشيوخ بالآلات الحرب ومعدات القتال إذا ما اقتضت الضرورة ذلك^(٢).

كذلك امتدت التحركات البريطانية إلى قبائل النعيم في قطر الذين ظلوا على موقفهم المعارض لتقدم القوات المصرية على عكس قبائل البوكرارة التي أخذت تدفع الجزية إلى شيخ البحرين لصالح القوات المصرية. ومما تجدر الإشارة إليه أن الصدام بين القوات المصرية وبريطانيا كاد أن يتم في منطقة الساحل العماني ويتضح لنا ذلك من رسالة بعث بها خورشيد باشا إلى محمد علي يؤكد فيها أن هدف الانجليز الاستيلاء على الخليج العربي لينفذوا إلى فارس ويشكلوا عقبة أمام روسيا، ويتساءل خورشيد باشا فيما يجب عمله ضد الانجليز ولكن محمد علي وكان متورطاً في مشاكل الشام كتب إليه في سبتمبر ١٨٤٠ بأن الوقت أصبح غير مناسب للتدخل في شئون البحرين والساحل وأنه يتعين عليه العودة إلى مصر ويغلق باب المصروفات الذي فتحه في نجد بعد أن يترك عليها خالد بن سعود. ولعل محمد علي كان يأمل باتخاذ قرار الانسحاب من منطقة الخليج العربي كسب ود بريطانيا لكي تغض الطرف عن مشروعاته التوسعية في الشام وهو أمل لم يتحقق له بطبيعة الحال. وقبل أن نعرض

(١) هنل إلى سلطان بن صقر ٢١ ربيع آخر ١٢٥٥ هـ (٥ يونية ١٨٤٠) وثائق عابدين (القلعة) محفوظة رقم ٢٧٠ حجاز ١٢٥٥ هـ المرفق العربي للوثيقة ١٩٤ حمراء.
(٢) وثائق عابدين (القلعة) محافظ الحجاز ١٢٥٥ هـ محفوظة رقم ٢٦٧ حجاز صورة المرفق العربي المؤرخ في ١٧ جمادى الآخرة ١٢٥٥ - من هنل باليوز خليج العرب إلى خورشيد باشا سر عسكر نجد.

(٣) وثائق عابدين (القلعة) - محافظ الحجاز محفوظة رقم ٢٦٧ حجاز من خورشيد باشا إلى الباشا معاون الخديوى ٣ شعبان ١٢٥٥ هـ وثيقة رقم ٣٩ أصلية ٧ حمراء ..

للعوامل التي أدت إلى انسحاب القوات المصرية من الخليج والجزيرة العربية قد يكون من المفيد أن نشير إلى أن التوسع المصري كان يضع الكويت ضمن مخططاته العسكرية على الرغم من أن النشاط المصري لم يتضح في الكويت بالقدر الذي كان عليه في الاحساء والبحرين ومنطقة الساحل العماني وسلطنة مسقط . ولكن من الثابت لدينا أنه حينما وصلت القوات المصرية بقيادة خورشيد باشا إلى سواحل الاحساء في عام ١٨٣٨ أرسل خورشيد باشا مندوبا عنه ليقم في الكويت على أنه وكيل لشراء الامدادات اللازمة للقوات المصرية ولا شك أن خورشيد باشا كان في حاجة شديدة إلى الاستعانة بسفن الكويت التي كانت مجهزة تجهيزا طيبا وإن لم يثبت مع ذلك استفادة القوات المصرية بالأسطول الكويتي باستثناء شحنة واحدة من الذخيرة والعتاد نقلتها سفن الكويت إلى القوات المصرية خلال وجودها في الاحساء من ميناء الجديدة على ساحل البحر الأحمر^(١) . على أنه لم يلبث أن اتضح الهدف الحقيقي من إقامة الوكيل المصري بالكويت وهو أن يكون مبعوثا سياسيا وجامعا للأخبار المتعلقة بإمكانية نجاح خطة خورشيد باشا في تطويق العراق بقوات من الاحساء والكويت بالإضافة إلى القوات المصرية في الشام بهدف انتزاع العراق من الدولة العثمانية^(٢) . وقد استرعى وجود المندوب المصري في الكويت نظر الانجليز ، ولما كان الشيخ جابر بن الصباح حاكم الكويت ١٨١٣ - ١٨٥٩ يحرص على علاقات حسن الجوار مع الدولة العثمانية والصلوات الودية مع الحكومة البريطانية فقد أثر الوقوف على الحياد وإن لم يمنع ذلك من أنه منح المندوب المصري مكانة خاصة في مجلسه كما أبدى في بعض المناسبات تعاطفا مع التقدم المصري في سواحل الخليج العربي^(٣) . وتذكر بعض المصادر أنه حدث خلال وجود المندوب المصري في الكويت أن

(١) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج ج ٣ ص ١٥١٥ .

(٢) جمال زكريا قاسم : موقف الكويت من التوسع السعودي في نجد وسواحل الاحساء العدد ١٧ من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٣) Earl Brampton to J.W. Parren 28th August 1841 F.O.

عن الأرشيف الأوربي بوثائق القلعة (عابدين سابقا) محفظة رقم ١٢ 78/469.

عامل الشيخ جابر مسئولاً بريطانيا وهو اليفتنانت إدموندز Edmonds معاملة تجافى اللياقة وذلك أثناء زيارته للكويت من أجل مفاوضة حاكمها بشأن انشاء خط حديدى عبر صحراء نجد بين الكويت والبحر المتوسط وتضيف تلك المصادر أن حكومة الهند لم تجسد مع ذلك ما يلزم تأنيب الشيخ على تصرفه هذا مبررة أن الأمر لم يصدر عن نوايا سيئة ولكن بهدف خداع الوكيل المصرى . وإن كنا بطبيعة الحال لانتفق مع ذلك التبرير إذ أن شيخ الكويت لم يختلف عن بقية شيوخ ورؤساء الخليج في ترحيه بالتقدم المصرى تحليفاً من الضغوط البريطانية من ناحية وتعاطفاً مع القوات المصرية من ناحية أخرى أو على الأقل تقديراً لما أحرزته من انتصارات كبيرة في أواسط الجزيرة العربية .

وعلى الرغم من التقدم الكبير الذى أحرزته القوات المصرية في سواحل الخليج العربى إلا أن الأوضاع المتأزمة في نجد واغتيال مندوب خورشيد باشا في البحرين^(١)، وعدم استطاعة إرسال المزيد من القوات العسكرية إلى الاحساء بسبب عدم مقدرة السفن المصرية من الوصول إلى الخليج العربى بسبب احتلال الانجليز لميناء عدن في عام ١٨٣٩ كانت من أهم الأسباب التى أدت إلى الانسحاب المصرى من سواحل الخليج العربى ، هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى من بينها ما تردد في بعض المصادر عن كثرة الأوامر المشددة التى كان يطلب فيها محمد على من خورشيد باشا ضرورة الانسحاب مما دعى البعض إلى التشكيك في غيرة محمد على من قائده خورشيد باشا وما حققه من انتصارات متوالية مما دعاه إلى التفكير في ضرورة الحد من نشاطه ومطالبته بالعودة إلى مصر^(٢) . ولعل ما ذهبت إليه تلك المصادر كان بسبب أن الانسحاب المصرى من الخليج والجزيرة العربية حدث قبل أن تجبر مصر على الانسحاب من المناطق التى توسعت فيها بمقتضى اتفاقية لندن

(١) عن اغتيال محمد أفندى رفعت مندوب خورشيد باشا في البحرين راجع ابن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ج ٢ ص ٨٧ . وعبد الرحيم عبد الرحمن : محمد على شبه الجزيرة ج ٢ ص ٥٩٠ القاهرة ١٩٨١ .

(٢) ج . ج . لوريمر : دليل الخليج العربى ج ٣ ص ١٤٤٠ / ١٤٤١ .

١٨٤٠ والفروانات الصادرة على أساسها والتي وضعت نهاية المخططات محمد على التوسعية ولتطلعاته في انشاء امبراطورية عربية تمتد من النيل إلى الفرات وذلك بعد أن توالى الهزائم على الجيش المصرى من قبل قوات التحالف المشتركة من الدولة العثمانية والنمسا وبريطانيا . على أنه مما تجدر الإشارة إليه أن انسحاب القوات المصرية من الخليج والجزيرة العربية قد أوجد فراغاً كبيراً وفي منطقة الخليج لم تتمكن الدولتان الاسلاميتان الكبيرتان فارس والدولة العثمانية أن تقوموا بملء هذا الفراغ ، فعلى الرغم من أن فارس كانت تجد تأييداً من روسيا في مناوأة النفوذ البريطانى في الخليج إلا أن فشلها في السيطرة على هيرات . وهى منطقة جبلية صغيرة تقع على الحدود الهندية الأفغانستانية واستيلاء الإنجليز على جزيرة خرج ١٨٣٨ الواقعة في المدخل الشمالى للخليج بالقرب من مصب شط العرب ، وبقاء الاحتلال البريطانى في تلك الجزيرة حتى عام ١٨٤٢ قد أبعدت فارس عن أن يكون لها دور ملموس في وراثة التوسع المصرى في منطقة الخليج ، أما عن الدولة العثمانية فقد كانت منشغلة بتنظيماتها الداخلية وبمشاكلها الخارجية كما كانت الإمارات العربية في الخليج قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف والتفكك بحيث لم تستطع أن تسد جانباً من هذا الفراغ بما في ذلك سلطنة مسقط التى انصرف عاهلها إلى زنجبار ولم تعد هناك قوة محلية يعتد بها سرى القوة السعودية التى أتاحت لها الفرصة للاستفادة من الأوضاع السياسية التى أعقبت انسحاب القوات المصرية من الخليج العربى ، وقد ظهرت تلك القوة على أثر انبعاث الدولة السعودية الثانية بعد أن وضع السعوديون نهاية لحكم الأمير خالد ابن سعود الذى اعتبر صنيعة للمصريين ، وتولى الحكيم عبد الله بن ثنيان في عام ١٨٤٢^(١) ، ثم خلفه الإمام فيصل بن تركى الذى امتد حكمه من عام

(١) وثائق الحكومة السعودية : التحكيم لتسوية النزاع الاقليمى بين مسقط وأبو ظبى

وبين المملكة العربية السعودية - العرض التاريخى ج ١ ص ١٨٠ - ١٨١ .

١٨٤٣ إلى ١٨٦٥ ، ورغم محاولة الدولة السعودية الثانية التوسع في سواحل الخليج إلا أن بريطانيا وقفت حائلا دون امتدادها إلى الامارات العربية المرتبطة بمعاهدات وعلاقات خاصة معها ، كما عملت في الوقت نفسه على تأكيد نفوذها السياسى في منطقة الخليج العربى بصورة أقوى مما كانت عليه في النصف الأول من القرن التاسع عشر^(١) :

Hoskins, Background of the British Position in Arabia (١)
CF. M.E.J. April 1947 pp. 138—143.

الخصامة

(م ٣١ - الخليج العربي)

تناولت الفترة التي تعرضنا لها في هذا الكتاب تاريخ الامارات العربية في الخليج العربي منذ أوائل القرن السادس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا . وهذه الفترة تواكب عصر التوسع الأوربي الأول منذ بداية السيطرة البرتغالية على الخليج العربي حتى تدعيم السيطرة البريطانية ، وقد أوضحت الدراسة أن السيطرة على منطقة الخليج العربي تتطلب قوة بحرية كبيرة بسبب الطبيعة البحرية للمنطقة ، ولذلك استطاعت القوى البحرية التي ظهرت في عصر التوسع الأوربي الأول أن تحقق سيطرتها على المنطقة ، ونعني بذلك القوى البحرية البرتغالية والهولندية والفرنسية ، حتى استطاعت بريطانيا بفضل تفوقها البحري أن تنزع من تلك القوى مجال التفوق والسيادة ، في الوقت الذي عجزت فيه القوى الغير بحرية أن تحقق لها سيادة فعلية ، ونعني بذلك الدولة العثمانية التي افتقرت إلى قواعد بحرية في بحار الشرق ؛ رغم أن مركزها الديني كان يتيح لها قدراً كبيراً من النجاح ، كذلك لم تتمكن فارس من أن تصل إلى مجال التفوق في الخليج العربي بسبب ضعف إمكاناتها البحرية . ولعل مما يستلفت النظر أن حركات المقاومة التي قامت ضد السيطرة البرتغالية والهولندية والانجليزية ارتكزت على القوى البحرية أيضا ، ونعني بذلك قوة اليعاربة البحرية في صراعهم ضد البرتغاليين ، وقوة عرب الساحل الشرقي للخليج في صراعهم ضد الهولنديين ، وقوة القواسم البحرية في مواجهتهم للسيطرة البريطانية على الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر .

ولعل مما يسترعى الانتباه أن انهيار السيطرة البرتغالية في الخليج العربي قد نتج عنها ظهور تنظيمات محلية بدأت في شكل تجمعات قبلية كاتحاد العتوب واتحاد القواسم واتحاد بني ياس ، وقد أتيح لتلك التنظيمات أن تصل إلى قدر كبير من النمو السياسي والاقتصادي ، وساعدها على ذلك انشغال القوى الأوروبية التي ظهرت في أعقاب السيطرة البرتغالية بالتنافس الذي قام فيما بينها ، ولكن هذه التجمعات القبلية لم تلبث أن تفرقت إلى مجموعات من التشكيلات الأقل حجماً بسبب طبيعتها القبلية من ناحية ، ولتعاملها مع القوى الاستعمارية من ناحية أخرى ، إذ كان من الطبيعي أن تقف بريطانيا - حين بدأت تنفذ إلى الخليج العربي - ضد حركات التجمع السياسي في المنطقة ، ولذلك فإنه يعزى إلى السياسة البريطانية إلى حد كبير تفتت منطقة الساحل العماني إلى العديد من الوحدات السياسية ، كذلك وقفت بريطانيا حائلاً ضد حركات التجمع في المنطقة ويتضح ذلك في وقوفها ضد امتداد السعوديين إلى الإمارات العربية وضد محمد علي حين تطلع إلى بسط نفوذه على سواحل الخليج العربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وعلى الرغم من أن العلاقات البريطانية بالخليج العربي يمكن إرجاعها إلى أوائل القرن السابع عشر أي منذ تأسيس شركة الهند الشرقية الإنجليزية إلا أن الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت ١٧٩٨ هي التي كان لها أثر كبير في شد انتباه بريطانيا سياسياً واستراتيجياً إلى المنطقة وبالتالي توسيع دائرة اهتمامها من المجالات التجارية إلى المجالات السياسية والاستراتيجية ولعل مما يؤكد ذلك أن بدء العلاقات البريطانية السياسية بمنطقة الخليج وضحت في المعاهدة التي أبرمت بين شركة الهند الشرقية البريطانية وسلطنة مسقط في عام ١٧٩٨ ، ثم بالسيطرة البريطانية على الساحل العماني بموجب اتفاقية السلام العامة في عام ١٨٢٠ وما أعقبها من اتفاقيات الهدنة البحرية . وقد تعاملت بريطانيا مع إمارات الخليج العربي باعتبارها قوى ساحلية غير مرتبطة بالأراضي الظهيرة لها ، وبالتالي كانت تعمل على

تأكيد فصل تلك الإمارات عن أية قوة داخلية في أواسط الجزيرة العربية وربما يتضح لنا ذلك خلال صراع بريطانيا ضد القواسم إذ اتجهت إلى تحييد السعوديين ، وليس من باب الصدفة أن بريطانيا كانت تطلق على الإمارات العربية في الساحل العماني اسم المشيخات البحرية ، كما كانت تطلق على حكماها الرؤساء البحريين . ولعل دراستنا لتاريخ السيطرة البريطانية على إمارات الخليج العربي تتطلب منا ضرورة إعادة النظر حول كثير من المفاهيم وعلى سبيل المثال السلام البريطاني الذي كانت بريطانيا تفخر بتحقيقه في منطقة الخليج العربي كان سلاماً من أجل المصالح البريطانية وليس من أجل صالح المنطقة ، وأن أعمال القرصنة التي ذكرت في كثير من المصادر الأجنبية لم تكن إلا محاولات يائسة قامت بها القوى البحرية المحلية لكي تحقى لنفسها أسلوباً من الحياة في خضم المنافسات الاستعمارية والتجارية الكبرى التي لم تكن قادرة على مواجهتها .

وعلى الرغم من أن الفترة التي عاجلناها في ذلك الكتاب كانت بطبيعتها فترة تسلط استعماري إلا أنه أمكننا مع ذلك تسجيل بعض الصفحات المشرقة لأبناء المنطقة في كفاحهم ضد السيطرة البرتغالية والهولندية وفي تصديهم للوجود البريطاني وفي محاولتهم تأسيس كيانات خاصة بهم واكساب الخليج شخصيته العربية ، وكان ذلك بفضل موجات الهجرة التي اندفعت من أواسط الجزيرة العربية إلى سواحلها الشرقية ، وامتداد تلك الموجات إلى السواحل الشرقية للخليج العربي ، وقد أكد على تلك الحقيقة الكثير من الرحالة الأوروبيين الذين جابوا سواحل الخليج الغربية والشرقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

ولعل مما ينبغي التركيز عليه استخلاصاً من تلك الدراسة إلى أهمية الوحدة في تاريخ الخليج العربي إذ أن أزهى الفترات التاريخية تلك التي كانت تمتع فيها القوى العربية في الخليج . بقدر من الوحدة السياسية

والاقتصادية . كما أن استقراء الأحداث التاريخية يؤكد لنا أن الخلافات الطائفية والقبلية كانت أقصر الطرق للمخططات الاستعمارية في المنطقة . وليست الخطورة في استغلال القوى الاستعمارية لتلك الخلافات بل إن الخطورة تتفاقم حين تعتمد القوى المحلية المتنافسة إلى الاستعانة بالقوى الخارجية لتصفية حساباتها فيما بينها . ولعل في وقائع التاريخ ما يفيد القوى العربية والإسلامية في منطقة الخليج العربي في وقتنا الحاضر .



الملاحق

- ملاحق (١) البرتغاليون .
- ملاحق (ب) العلاقات الخارجية لسلطنة مسقط وعمان .
- ملاحق (ح) بريطانيا وإمارات الخليج العربي .
- ملاحق (و) محمد علي وإمارات الخليج العربي .



ملحق (١)

البرتغاليون

- هرمز على عهد السيطرة البرتغالية

نورد فيما يلي مقتطفات عما أوردته بعض الرحالة البرتغاليين عن مملكة هرمز في زمن خضوعها للسيطرة البرتغالية .

والنص الأول جاء فيما ذكره باربوسا عن بناء القونسودي البوكيرك للقلعة البرتغالية في هرمز وكيف استغل البرتغاليون الخلافات الداخلية في هرمز لتدعيم سيطرتهم .

أما النص الثاني فقد سجله بلرو تيكسيرا الذي قام برحلاته إلى الشرق بين عامي ١٥٨٦ و ١٦٠٥ ويفهم من ذلك النص أن هرمز لم تفقد مكانتها التجارية ويدل على ذلك كثرة الرسوم الجمركية التي كان يجبيها البرتغاليين لحسابهم في هرمز وعلى ذلك فإنه من الخطأ المبالغ في أن البرتغاليين حولوا تجارة الشرق بكاملها إلى طريق رأس الرجاء الصالح إذ ظلت الطرق التقليدية القديمة مستخدمة في تجارة الشرق وإن كانت تحت السيطرة البرتغالية .

وقد نقلنا للنصين التاليين عن الترجمة الانجليزية لأعمال دورات باربوسا وبلرو تيكسيرا .

- خضوع هرمز للبرتغاليين

To this City of Ormuz came a fleet of the King our Lord of which the Captain in Chief was Afonso D'Albuquerque, he desired to have peace with them in all things but, they would not, seeing which Afonso D'Albuquerque began to make war on this kingdom, more especially on the seaports, where he caused them great loss proceeding thus, he came with the whole

fleet to take the city of Ormuz itself in the harbour whereof he fought a mighty battle with a fleet of very great ships full of brave men and well armed. This fleet the Said Afonso D'Albuquerque defeated, and took and sank many ships, also taking and burning many others which were an anchor hard by the walls of the city. The King and the Governour beholding such destruction of their people and ships and having no power to prevail against him, sued for peace, which the Captain in chief accepted on the condition that they should allow him to build a fortress on one point of city, to which they agreed. But when the building of the fort began, the Moors repented, and were not willingly that it should be carried further. Seeing this the Captain in chief began to do them so much harm, and to slay so many of their people, that he made them tributaries of the King our Lord at fifteen thousand Xerafins yearly, and this they always pay.

A few years later the King and Governour of Ormuz sent an ambassador with great train to the King of our Lord, and with the reply which His Highness sent them Afonso D'Albuquerque came again with a very fine fleet to Ormuz, where they received him in all peace, agreed that he should finish the fortress, which he had begun before. He then ordered that it should be undertaken and made very large and strong as if it had been Just now begun.

At this time the King, who is youth of no great age, seeing himself so oppressed by the dominion of the Governour that he dared not do anything of himself, found a way of letting the Captain in Chief know secretly how little liberty he had, and how the Governour kept him almost a prisoner taking by force the Governance of the Kingdom and delivering it over to the others who held it, and also how it seemed to him that letters had been sent to the Xequé Ismael, offering to betray the Kingdom to him.

The Captain in chief when he knew this, kept it quite secret and arrange to see the king, agreeing with him that the

interview should take place in a certain large house close to the sea, The appointed day having arrived, the Captain [in [Chief entered this house with ten or twelve Captains leaving his people draw up without, and every thing as it should be. The King and the Governour came with a great band of followers, and when the King had entered the house, and no other person had entered, the gates were at once shut, and as they went in the Captain in Chief ordered that the Governour should be slain with dagger strokes. Seeing this the young King began to be angry, but Afonso D'Albuquerque told him not to fear, for what he had done was only to make him a King like the other Moorish Kings, and that he should no longer live in subjection,(١)

— الأوضاع الاقتصادية في هرمز —

And so the Kings of Ormuz went on prospering such manner that they became rulers of all the Islands in this strait and all the country along the Coasts of Arabia as far as Lassa(٢) and Catifa(٣) and also others on the shore of Persia, by which they formed a very great rich and prosperous kingdom : principally because the trade of Cays Passed entirely to the Island that is now Called Hormuz, wherefore Cays was utterly ruined, both in buildings and in wealth, so that is now totally deserted after having been a sterile and desert island, and a mountain of salt, is, among all the wealthy countries of India, one of the wealthiest through the many and rich goods that come thither from all parts of India, and from the whole of Arabia

The book of Durate Barbosa by Mansil Dames vol. I (١)
pp. 101—103. An account of the countries bordering on the Indian Ocean and their inhabitants written by Durate Barbosa and completed about the year 1518,

(٢) الاحساء .

(٣) القطيف .

and Persia as far as the territories of the Mogores,^(١) and even from Russia in Europe I saw merchants to there and from Venice. And this the inhabitants of Ormuz say that the whole world is a ring and Hormuz is the stone thereof. Wherefore it is Commonly Said that the custom house of Ormus is a conduit of silver that is always running. The last year^(٢) that I was in Hormuz having been there, the officials assured me that the custom house had yielded one hundred and fifty thousand Pardaos for the King of Portugal beside what it is to be Presumed is stolen by the Moors and the Goazil, who are officers of the customs house.^(٣)

— مقتطفات مما أورده ابن إياس عن مواجهة السلطان قنصوه الغوري للبرتغاليين واستخدامه الضغوط الدينية من أجل ذلك بعد هزيمة ديو ١٥٠٩ وقتل البرتغاليين للسلطان مقرر بن زامل سلطان البحرين .

« . . . وفيه (٤) حضر إلى الأبواب الشريفة رهبان القيامة التي بالقدس وكان السلطان أرسل خلفهم بسبب الفرنج الذين قتلوا الأمير محمد بيك قريب السلطان ونهبوا ما في المراكب التي جهزها السلطان صحبته فلما وقفوا بين يدي السلطان وبخهم بالكلام على لسان تغرى بردى الترجمان وقال لهم : كاتبوا ملوك الفرنج بأن يردوا ما أخذوا من المراكب والسلاح وإن لم يردوا ذلك هدمت القيامة وأشوق الرهبان فتسلمهم ناظر الخاص على ما يحرم من أمرهم وكانوا نحو من عشرين راهبا » .

(١) لعله يقصد هنا امبراطورية المغول في الهند .

(٢) ١٥٦٩ .

The Travels of Pedro Teixeira with His Kings of (٣)
Harmuz and Extracted from His Kings of Persia—Translated by William F. Sinclair Hakluyt Society 1902 CF.
appendix D Relation of the Chronicle of the Kings of Ormuz pp. 265—266

(٤) حوادث شهر رجب ٩١٦ هـ ابن إياس : ج ٤ ص ١٩٥ .

- وأشيع قتل الأمير مقرن أمير عربان بنى جبر متملك جزيرة بين
النهرين (١) إلى بلاد هرمز الأعلى وكان أميراً جليل القدر معظماً مبعجلاً في
سعة من المال . وكان مالكي المذهب سيد عربان الشرق على الإطلاق وكان
أتى مكة وحج في العام الماضي وكان يجلب إلى مكة اللؤلؤ والمعادن الفاخرة
من المسك والعنبر والحام والعود القاري والحرير الملون وغير ذلك من
الأشياء التحفة قليل لأنه لما دخل إلى مكة والمدينة تصدق على أهل مكة
والمدينة بنحو خمسين ألف دينار فلما حج ورجع إلى بلاده لاقتة الفرنج في
الطريق وتحاربت معه فانكسر الأمير مقرن منهم وقبضوا عليه باليد وأسروه
فسألهم أن يشتري نفسه منهم بألف ألف دينار فأبوا الفرنج من ذلك وقتلوه
بين أيديهم ولم يغن ماله شيئاً وملكوا جزيرة بين النهرين وملكوا قلعها التي
هناك واستولوا على أموال الأمير مقرن وبلاده وكان ذلك من أشد الحوادث
في الإسلام وأعظمها وقد تزايد شر الفرنج على سواحل البحر الهندي والأمر
لله تعالى (٢)

- الصراع العماني البرتغالي

نورد فيما يلي نص مكاتبتين متبادلتين بين البرتغاليين والإمام سيف بن
سلطان اليعربي وفيهما يتضح أسلوب البرتغاليين المتعنت والتحدى العنيف
الذي قابل به عرب الخليج البرتغاليين . وقد نشر جيان هاتين المكاتبتين بعد
ترجمتهما إلى اللغة الفرنسية أما النصوص العربية فقد أوردتها السالمى في
كتابه تحفة الأعيان بسيرة آل عمان

رسالة من البرتغاليين إلى إمام عمان سيف بن سلطان

(١٦٩٨ - ١٧١١)

هذا كتاب من النصارى للإمام سيف بن سلطان اليعربي

الحمد لله فاطر السموات والأرض ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا
فيه مختلفون .

(١) البحرين .

(٢) ابن أبياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٥ ص ٤٣١ حوادث شهر

لأعلم بأننا جنود الله مخلوقون من سخطه مسيطرون على من يحل عليه غضبه
لأنرق لشاكي ولا نرحم عبدة باكي قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل
كل الويل لمن لا يمتثل لأمرنا قد خربنا البلاد وأهلكنا العباد وأظهرنا
في الأرض الفساد فإن أعجبكم شرطنا كان لكم مالنا وعليكم ما علينا
وإن أنتم أبيتم وعلى بغيتكم تهاديتهم فالحصون منا لا تمنع والعساكر لدينا
لا ترد ولا تدفع لأنكم أكلتم الحرام وضيعتم الجمع فأبشروا بالذل
والجشع اليوم تجزون عذاب الهوان بما كنتم تعملون فإن أعجبكم
كلامنا أننا كفرة وقد صار عندنا أنكم فجرة قلوبنا كالجبال وعددنا
كالرمال كثيركم عندنا قليل وعزيزكم عندنا ذليل قد ملكنا الأرض شرقا
وغربا . قد أرسلنا إليكم هذا الكتاب فأسرعوا برد الجواب قبل أن
ينكشف الغطاء ولم تبق لكم باقية وينادى عليكم بالفناء هل تحس
منهم من أحد أو تسمع لهم ذكرا . وقد أنصفناكم وأرسلنا عليكم جواهر
الكلام والسلام .

رد الإمام سيف بن سلطان على البرتغاليين

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء
وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . وقد
حصل الوقوف على هذه الكتبة الشاهرة لقولكم قد نزع الله الرحمة من
قلوبكم فهذا من أقبح عيوبكم وأشد وأشنع وبغيتهم وذكرتم لأنكم كافرون
ألا لعنة الله على الكافرين . من تعلق بالأصول فلا يبالي بالفروع . ونحن
المؤمنون حقا لا يصدنا عنكم عيب ولا يدخلنا شك ولا ريب . والقرآن
علينا قد نزل فهو رحيم بنا لا يزل وحيولنا برية وبحرية وهمنا سامية
عالية . إن قتلناكم فنعم البضاعة وإن قتلتمونا فبيننا وبين الجنة ساعة
« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون
فرحين بما آتاهم الله من فضله » .

وقولكم قلوبكم كالجبال وعددكم كالرمال . الجزار لا يبالي بكثرة
للغنى الكثير ، وإن الله مع الصابرين . فنحن بالمنع عالية أمنية إن عشنا سعداء

وإن متنا شهداء . « ألا إن حزب الله هم الغالبون » . لقد جئتم شيئاً إدا
تكد السّموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال » . فقل لصاحبك
إذا رصع وشيد مقالته حصل الوقوف على هذا الكتاب كصير باب وطين
ذباب سنكتب ما قالوا ونمد لهم من العذاب مداً . وما عندنا بعد ذلك إلا
الخليل تمطر بالويل والنار مظهرة العار والسيوف مسقيه بالخشوف والسلام
على من اتبع الهدى وخشى عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى واختار
الآخرة على الأولى . والصلاة والسلام على خير الأنام محمد عليه أفضل
الصلاة والسلام ^(١) .

ملحق (ب) المعاهدات والعلاقات الخارجية

لسلطته مسقط وعمان

١ - رسالة من هلال بن أحمد إلى الكونت داستان الذي قام
بمناورة عسكرية في الخليج العربي عام ١٧٥٩ يعتذر فيها عن بعض
التصرفات التي حدثت من حاكم ميناء مسقط إزاء الفرنسيين ^(٢) .

Je suis amis de Francais. Je me regarde Comme Fils de
France. Vous avez Pris le Monudy, Puis que vous avez garde
le visseux, vous devries du moins, renvoyer les gens ce gens la
ne sont pas esclaves Pourquoi les garder avez vous ? Ils sont
de Pauvres miserables que vous devriez relacher J'ai beaucoup
blame le gouverneur de mon Port d'avoir on la hardiesne de rompre
l'amitie qui etait entre les Francais et moi, Je vous demande
excuse, et Je offre mon Port et tout ce qui dependra de moi
l'eau, les boeuff.

Hela

Fils de Roi

(١) انظر الترجمة الفرنسية في :

Guillain, Documents sur L'Histoire, la Gcographie et le
Commerce de l'Afrique Orientale Tome I. pp. 512-514.

ولزيد من التفاصيل عن الصراع العماني البرتغالي انظر المجلد الثاني

Expose critique P. 518 ff.

ومن النصوص العربية انظر السالمى : تحفة الأعيان بسيرة آل عمان ج ٢ ص ١٠٦ -
١٠٧ طبعة القاهرة ١٣٤٧ هـ .

CF. Auzoux. France et Mascate pp. 6-7.

(٢) "

٢ - الاتفاقية المبرمة بين الكابتن جون مالكولم و سلطان بن أحمد

في ١٨ يناير ١٨٠٠ بهدف تأكيد اتفاقية أكتوبر ١٧٩٨

Agreement entered into by the Imam of the State of Oman with Captain John Malcolm Bahadoor, envoy from the Right Honourable the Governor General. Dated 21st of Shabaan 1213 Hegira or 18th January 1800.(١)

Article I

The Cowlnamah entered into by the Imam of Oman with Mehdy Aly Khan Bahadoor remains fixed and full force.

Article II

As improper reports of atendency to interrupt the existing harmony and create misunderstanding between the States have gone abroad, and have been Communicated to the High Honourable the Governor General, the Earl of Mornington K.N.P. with a view to Prevent such evils in future, we actuated by Sentiments of reciprocal Friendship, agree that an English gentleman of respectability, on the part of the Honorable Company shall always agent through whom all intercourses between the states shall be Conducted, in order that the actions of such Government may be fairly and Justly Stated, and what no opportunity may be afforded to designing men who are over eager to Promote dissensions and that the friendship of the two states remains under shock till the sun and moon finished their revolving career.

Sealed in my Presence John Molcolm (Envoy) approved by the Governor General in Council on 26th, April, 1801.

٣ - معاهدة الصداقة والتجارة بين الولايات المتحدة الأمريكية و سلطان مسقط وتوابعه ١٨٣٣ (٢).

Aitchison, A Collection of Treaties, Engagements and (١) Sands relating to India and Neighbouring Countries, vol. XII pp. 208—209.

Ibid. vol. XII P. CIXI—CIXIII, Bombay Govt., op. (٢) cit. vol. XXIV pp. 262—264.

- 197 -

Treaty of Amity and Commerce between the United States of America and his Majesty Sayeed Saeed Bin Sultan of Muscat and his Dependencies.

Article I

There shall be a perpetual peace between the United States of America and His Majesty Saeed Bin Sultan of Muscat and His dependencies.

Article 2

The citizens of the United States shall have free from liberty to enter all the Ports of His Majesty Sayeed Saeed Bin Sultan, with their cargoes, of whatever kind the Said cargoes may consist, and they shall have liberty to sell the same to any of the subjects of the Sultan, or others who may wish to purchase the same or barter the same for any produce or manufactures of the kingdom or the other articles that may be found there.

No Price shall be fixed by the Sultan or his officers on the articles to be sold by the merchants of the United States, or merchandise they may wish to buy, but the trade shall be free on both sides to sell or buy or exchange on the terms and for the prices the owners may think fit, and whenever the Said citizens of the United States may think to depart they shall be at liberty to do so, and if any officer of the Sultan shall contravene this article he shall be severley punished.

It is understood and agreed, however that the articles of the Muskets, Powder and ball can only be sold to the government in the island of Zangubar, but in all other Ports of the Sultan the Said Munitions of War may be freely sold without any restriction whatever to the highest bidder.

Article 3

Vessels of the United States entering any Port within the Sultan's dominions shall pay no more than five percent duties on the cargo landed and this shall be in full consideration of all

— ٤٩٧ —

import and export duties, tonnage, license to trade, Pilotage, anchorage, or any other charge whatever. Nor shall any charge whatever be paid on any vessel of the United States which may enter any of the Ports of His Majesty's for purpose of refitting, or for refreshments to inquire the state of market.

Article 4

The American Citizens shall pay no other duties export or import tonnage, license to trade, or other charges whatsoever than the nation of the most favoured shall pay.

Article 5

If any vessel of the United States shall suffer shipwreck on any Port of the Sultan's dominions, the Persons escaping from the wreck shall be take care and hospitatiy entertained at the expense of the Sultan, until they shall find an opportunity to be returned to their country, for the Sultan can never receive any remuneration whatever for rendering succour to the distressed and the property save from such wreck shall be carefully preserved and delivered to the owner, or the Consul of the United States, or to any authorized agent.

Article 6

The citizens of the United States resorting to the Ports of the Sultan for the purpose of trade shall have leave to land and reside in the Said Ports without paying any tax on the importation whatever for such liberty other than the general duties on imports which the most favoured nation shall pay.

Article 7

If any citizens of the United States or their vessels or other Property shall be taken by Pirates, and brought within the dominions of the Sultan the persons shall be set at liberty and Property restored to the owner if he be present, or to the American Consul or to any authorized agent.

(م ٣٢ - الخليج العربي)

— ٤٩٨ —

Article 8

Vessels belonging to the subjects of the Sultan which may resort to any Port in the United States shall pay no other or higher rate of duties or other charges than the nation of the most favoured shall pay,

Article 9

The President of the United States may appoint Consuls to reside in the Ports of the Sultan where principal commerce shall be carried on, which consuls shall be exclusive judges of all disputes on suits where in American citizens shall be engaged with each other; they shall have power to receive the property of any American citizen dying within the Kingdom and to Send the sums to his heirs, first paying all his debts due to the subjects of the Sultan.

The Said Consuls shall not be arrested nor shall their property be seized, nor shall any of their household be arrested, but their persons and their property and their houses shall be inviolate. Should any consul, however, commit any offence against the Imam of the Kingdom, complaint shall be made to the President, who will immediately displace him.

Concluded, Signed and Sealed at the Royal Palace in the city of Muscat, in the Kingdom of Oman, the 21st day of September, in the year one thousand eight hundred and thirty three of the christian era. and the fifty seventh year of the independence of the United States of America.

Corresponding to the sixth day of the moon called Jumada e Al Awal in the year of the Higree one thousand two hundred and forty nine.

S.D. Edmund Roberts

ملحق (ج) بريطانيا ومشيكات الساحل العماني

١ - قولنامه (اتفاقية) وقعت في ميناء بندر عباس بين الشيخ عبد الله ابن كروش نيابة عن الشيخ سلطان بن صقر بن راشد والكاتبين دافيد سيتون نيابة عن شركة الهند الشرقية في ٦ فبراير ١٨٠٦ وأكدها سلطان بن صقر بتوقيعه ووافق عليها حاكم بومباي في ٢٩ أبريل ١٨٠٦ . وقد عقدت هذه الاتفاقية في أعقاب الحملة البريطانية على القواسم في عام ١٨٠٥ . وتتميز باحتفاظ القواسم بزعامتهم الموحدة حيث وصف الشيخ سلطان بن صقر بكونه شيخ وأمير القواسم وذلك على خلاف الاتفاقيات التالية التي عقدها شركة الهند الشرقية البريطانية مع شيوخ الساحل بعد تفكيك الاتحاد القاسمي في عام ١٨٢٠ حيث أصبح يطلق على كل شيخ اسم المنطقة التي آلت إليه (١) .

Coulnamah or agreement between Sheikh Abdulla Bin Croosh, on the Part of Sheikh —U—Mus Sheikh Ameer Sultan Bin Suggur Bin Rashid Joasmee, and Captain David Seton, on the Part of the Honourable East India Company in Bunder Abbas, this 6th day of February 1806.

Article I

There shall be peace between the Honourable East India Company and Sultan Bin Suggur, Joasmee and the whole of the dependants and subjects on the shores of Arabia and Persia, and they shall respect the Flag and Property of the Honourabl East

(١) عن هذه الاتفاقية وغيرها من الاتفاقيات الخاصة بملاحة بريطانيا بمشيخات الساحل العماني انظر المجلد الماشر فارس والخليج الفارسي من مجموعة معاهدات ايتشيسون طبعة كلكتا عام ١٨٩٢ وكذلك :

Hughes, Thomas, Treaties, Agreements and Engagements between the Honourable East India Company and the Native Princes, Chiefs and States in Western India, The Red Sea, The Persian Gulf etc. also between Her Britanic Majesty's Govt. & Persia Portugal, Turkey Compiled Under instructions of Govt. of Bombay, 1851 pp. 21—35. See also : Copies of Treaties and Areements entered into by the Honourable East India Company with the Arab tribes of the Persian Gulf (Annex to Kempall Report S.R.B.G. vol. XXIV P. 80 ff Bombay 1856.

— ••• —

India Company and their subjects wherever and in whatever it may be, and the same the Honourable East India Company towards the Joasmee.

Article 2

Should the Joasmee infringe the above, they shall be liable in the sum of Dollars(١) 30,000, and on this Condition Captain David Seton agrees to receive from Ameer Sultan Bin Suggur the Brig now laying at Muscat, and to drop the claims to the cargo guns, etc. of the Said vessel and the Shanon(٢).

Article 3

Whatever British Property shall be found in the Sorie Fleet shall be restored.

Article 4

Should any British vessel touch on the coasts of the Joasmee for wood or water or be forced on shore by stress of weather, or any other cause the Joasmee shall assist and protect the Said vessel and property and Permit it be disposed of or carried away, as their owners shall see fit without claim or demand,

Article 5

Should Johood(٣) Compel the Joasmee to infringe this peace, they shall give three month's previous notice in all places.

Article 6

When the above is confirmed and ratified by both Parties, the Joasmee shall frequent the English Ports from Surat to Bengal as be before.

[S.D David Seton

Scaled Abdullah Bin Croosh

(١) المقصود بالدولار ريال مارياتريزا وهو العملة التي كانت سائدة في منطقة الخليج العربي .

(٢ ، ٣) اسمان لسفينتين كان قد استولى عليهما القواسم في عملياتهم ضد الانجليز .

(٤) واضح أنه يوجد هنا خطأ في اسم الأمير السعودي وصحة Saud وهو الأمير سمور أمير الدولة السعودية الأولى ١٨٠٣ - ١٨١٣ .

٢ - المعاهدة العمومية مع الأقوام العرب

في خليج فارس في سنة ١٨٢٠ ع^(١)

عقدت هذه المعاهدة بين بريطانيا وشيوخ الساحل الجنوبي للخليج العربي عقب الحملة البريطانية التي دمرت رأس الخيمة معقل القواسم في عام ١٨١٩ .

وتعتبر هذه المعاهدة الأساس الذي ارتكز عليه النفوذ البريطاني في المنطقة ، إذ أنها كرست أوضاع التفكك والتجزئة فهي لم تعقد بين بريطانيا وقوة موحدة وإنما بين بريطانيا و « الطوائف » العربية في الخليج وتتميز هذه المعاهدة بمجموعة من الأنظمة والإجراءات البحرية التي كانت وسيلة لضرب القوى البحرية المحلية بحجة المحافظة على الأمن والسلام البريطاني . وقد آثرنا أن نعرض لتلك المعاهدة بنصها العربي للتعرف على نموذج للنصوص العربية لتلك المعاهدات^(١) .

(١) يرمز حرف ع إلى التاريخ العيسوي أو الميلادى .

(٢) ما يستلقت النظر أن قمم شئون الدولة بحكومة الهند قد نشر بعض الترجمات العربية للاتفاقيات والتعهدات التي عقدتها بريطانيا مع شيوخ الخليج إلى جانب النصوص الانجليزية وذلك ضمن المجموعات الوثائقية التي نشرت بين عامي ١٩٠٦ و ١٩١٤ انظر :

Government of India (Department of State) Treaties and Engagements in force between the British Government and the Trucial chiefs (Calcutta, 1906), Treaties and undertakings between the British Government and the Rulers of Kowiet (Calcutta, 1913), The Rulers of Bahrein (Calcutta, 1914) and the Sultans of Muscat and Oman (Calcutta, 1914).

راجع أيضا النصوص الانجليزية في مجموعة معاهدات أيتشيسون :

A Collection of Treaties, Engagements and Sands relating to India and Neighbouring Countries vol. X Persia and The Persian Gulf Calcutta, 1892.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل الصلح خيراً للأنام وبعد فقد صار الصلح الدائم بين دولة سركار الانكريز وبين الطوائف العربية المشروطين على هذه الشرط .

الشرط الأول : أن يزال النهب والغارات فى البر والبحر من طرف العرب المشروطين فى كل الأزمان .

الشرط الثانى : إن تعرض أحد من قوم العرب المشروطين على المترددين فى البر والبحر من كافة الناس بالنهب والغارات بلا حرب معروف فهو عدو لكافة الناس فليس له الأمان على حاله ولا ماله والحرب المعروف هو الذى مناداه به مبين مأمور به من دولة إلى دولة وقتل الناس وأخذ المال بغيره مناد وتبين وأمر دولة فهو النهب والغارات .

الشرط الثالث : إن العرب المصالحين لهم فى البر والبحر علم أحمر فيه حروف أو بلا حروف على مطلوبهم وهو فى كفه أبيض وعرض الأبيض الذى فى الكفة يعادل عرض الأحمر كما هو مصور فى الحاشية وإن هذا هو علم العرب المصالحين فيستعملون به ولا يستعملون بغيره .

الشرط الرابع : إن الطوائف المصالحين كلهم على حالة الأوان إلا أنهم صار الصلح بينهم وبين دولة سركار الانكريز وأن لا يحارب بعضهم بعضاً والعلم هو الشاهد على ذلك فقط وليس هو شاهد على غيره .

الشرط الخامس : إن مركب العرب المصالحين كلهم بأيديهم قرطاس مرشوم بخط أميرهم فيه اسم المركب وطوله وعرضه وكى يحمل من كارة وبأيديهم أيضاً مكتوب آخر مرشوم بخط أميرهم فيه اسم صاحب المركب واسم الناخداة وعدد الرجال وعدد السلاح ومن أين سار وفى أى وقت وإلى أى بندر يتوجه فإن تعرض لهم مركب من الانكريز أو غيرهم يعرضون عليه القرطاس والمكتوب .

الشرط السادس : إن العرب المصالحين إن كان مرادهم يرسلون رسولا إلى سركار الانكريز في بحر الفارس ومعه الذى يحتاج إليه فيجلس مع السركار حتى يقضى غرضهم منه وسركار الانكريز إن كان مراده يرسل رسولا أيضاً إلى عندهم كذلك والرسول يلحق خطه إلى خط أميرهم في قرطاس مراكبهم المذكور الذى فيه طول المركب وعرضه وكم يحمل من كارة وينبغي خط الرسول يتجدد في كل سنة وأيضاً كل من المرسلين خرجته على قومه .

الشرط السابع : إن كان طائفه أو غيرهم لا يزالون من النهب والغارات فالعرب المصالحون يقومون عليهم على قدر حالهم ويصير بين العرب المصالحين وبين الانكريز كلام في ذلك في وقت وقوع ذلك النهب والغارات .

الشرط الثامن : إن قتل الناس بعد تسليم السلاح فهو من الغارات ولا من الحرب المعروف وإن كان طائفة يقتل الناس مسلمين أو غيره بعد تسليم السلاح فهو قد أخلف الصلح فإن العرب المصالحين مع الانكريز يقومون عليهم وإن شاء الله تعالى فلا يزال عليهم الحرب إلا بعد تسليم من فعل بذلك وحكم به .

الشرط التاسع : إن نهب الرقيق الرجال والنساء والأولاد في سواحل السودان أو غيره وحملهم في المراكب فهو من النهب والغارات فالعرب المصالحون لا يفعلون من ذلك شيئاً .

الشرط العاشر : إن مراكب العرب المصالحين الحاملة علمهم المذكور يدخلون في كل بنادر دولة سركار الانكريز وفي بنادر رفيقهم على قدرهم يشتررون ويبيعون فيها وإن كان أحد تعرض لهم فذلك على سركار انكريز .

الشرط حادى عشر

إن هذه الشروط المذكورة فهم على جميع الطوائف والناس يقبلونها في المستقبل كما قبلوها في الحين تم الشروط .

وإن تحرير القول في رأس الخيمة بثلاثة نسخ في تاريخ ظهر يوم السبت اثنين وعشرين من شهر ربيع الأول في سنة ١٢٣٥ الهجرية مائتين

خمس وثلاثين بعد الألف ورشموه المشروطون في الأماكن والتواريخ المكتوبة ذيلاً فرشموه في رأس الخيمة في تاريخ تحرير القول^(١).

خط السردار بيده وخاتمه كتبته حسن بن رحمة بيده كتبه قضيب بن أحمد بيده .

S. b W. Grant Keir
Major General

ملحق (٥) محمد علي وإمارات الخليج العربي

١ - مكاتبة صادرة من محمد علي إلى الصدر الأعظم بتاريخ ١٣ رمضان ١٢٣٦ (١٥ يونيه ١٨٢١)^(٢) حول التحركات الانجليزية في سواحل الخليج والجزيرة العربية وفيها يحذر محمد علي الصدر الأعظم بعدم التغافل عن تلك التحركات ويطلعه على التحالف القائم بين سلطان مسقط والإنجليز وعن الحماية البريطانية على القواسم وبني بوعلی في جعلان .

حضرة سلطاني ومولاي صاحب الدولة والعناية والعطوفة والرأفة والأبهة ولي النعم العالی المهم الكثير اللطف والكرم .

كان حرر من مقام الصدارة سابقاً إلى صوب عبدكم أنه حيث سمع وقوع تعرض الانجليز لطرف مخا يلزم مد أنظار البصيرة إلى حوالى مخا وأفيد أيضاً من طرف خادكم بعض الكيفيات المتعلقة بهذا الشأن وأنه يجرى العمل على مقتضى الإرادة السنية وقد صار معلوما لخادكم مضمون

(١) تضمنت الاتفاقية توقيعات وأختام الشيخ شخبوط بن سعيدي ٢٥ ربيع أول ١٢٣٥ والشيخ حسين بن علي ٢٩ ربيع أول ١٢٣٥، وزايد بن سيف من طرف محمد بن هزاع شيخ دبي وقع في الشارقة ١٢ ربيع الثاني ١٢٣٥ وتوقيع سلطان بن صقر في الشارقة بتاريخ ١٢ ربيع الثاني ١٢٣٥ والسيد عبد الجليل بن السيد حسين الوكيل عن الشيخ سليمان بن أحمد والشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة شيخى البحرين عشرين ربيع الثاني ١٢٣٥ ثم وقعه عبد الله بن أحمد في ٩ جمادى الأولى في البحرين وتوقيع راشد بن حميد وعبد الله بن راشد في ٢٩ جمادى الأولى ١٢٣٥ هـ .

(٢) مقيدة في دفتر رقم ٤ ص ٦٣ من محفوظات دار المحفوظات العمومية ومترجمة عن اللغة التركية ، وثائق القلعة - (عابدين) ملف الهجاز ١٢٣٦ هـ .

ما حرر بالآخرة من طرف قائمقامكم العالى صاحب العطوفة عبدكم صالح باشا أنه أفيد في مضمون ترجمة الخطاب العربى الوارد في الحالة الحاضرة من طرف متسلم البصرة والمقدم من طرف حضرة صاحب العطوفة والى بغداد (١) أن طائفة الانجليز أقبلوا من مرفأ بومباى بست سفن وبعد أن أقاموا في المحل المسمى مسقط توجهوا إلى المحل المدعو جعلان الذى يقطنه قبيلة بنى أبى على من توابع الجواسم تحت مسقط وأتى أيضا إمام مسقط السيد سعيد برا إلى جعلان فاحتلوا بالاتفاق مع الانجليز قلعة جعلان وأخذوها وبعد ذلك جمع قبيلة بنى أبى على المذكورة عساكر واستردوا القلعة المذكورة وأعدم قائد واحد من قواد الانجليز في مرفأ مخا فجهز الانجليز لأجل ذلك عساكر وافرة وأرسلوهم بالقوارب إلى جانب مخا فإذا تردد أهالى مخا في تسليم قاتل القائد المذكور تنصدى لإنجلترا للحرب والقتال وقد تجمع أهل نجد كما في السابق في المحل المدعو قصيم وفي بعض المحلات في تلك الحوالى وهم يتجهزون وأرسلت ست سفن للاستيلاء على بعض المحلات الصغيرة في طرف اليمن كما استبان ذلك من الورق الوارد من القنصل (باليوس) في أبوشهر المستربروس إلى وكيله فإذا استولى الانجليز على تلك الجهات يسهل مجيئه من بحر السويس إلى ذلك الجانب فلا يبعد من الملاحظة إذ ذاك أن يحدث فتنة وأنه خلا ذلك قد حرر من طرف ملك إنجلترا للاعلان في الأطراف والاكتفاف أنه قد عين قائد من طرف دولة إنجلترا لأخذ الثأر ببيان أنه دفع نهب أموال طائفة الانجليز وأشياهم والاغارة عليهم والمساورة إلى الظلم والمضايقه عليهم من طرف حاكم مرفأ مخا الذى هو تحت تصرف إمام صنعاء من توابع إقليم اليمن كما استفيد من ترجمة الصورة المعربة من البيان المقدم من طرف المشار إليه وأن تلك المواد لما عرضت على الأعتاب السلطانية صدر الخط الهمايونى المقرون بالكرامة بافادتها لصوب خادكم وتأكيد لإجراء العمل على مقتضى الارادة السنية الصادرة سابقا فيلزم مد أنظار البصيرة على الدوام إلى تلك الحوالى وعدم التغافل عن أحوال الانجليز وحركاته فعلى ذلك

(١) كان في ذلك الوقت الوالى المملوكى داود باشا .

كان ينبه أمين جمر ك جدّة على أن يتجسس ويحقق أحوال الانجليزى وحركاته وكيفيات تلك الحوالى وأن يكتبها إلى طرفنا وها هو يفيد فى مضمون ورقه الوارد فى هذه المرة أن قبيلة بنى أبى على من توابع جواسم كانت فى الأصل تحت طاعة إمام مسقط (مسكت) ثم عصت وقامت ضد الإمام المذكور وحاربت الامام محاربة كثيرة ولم يتمكن الإمام من الغلبة عليها حتى تراجع منقلبا إلى مسقط واستمد من الانجليزى فأمدّه الانجليزى بالعساكر على وفق مطلوبة فزحفوا متفقين تكرارا على القبيلة المذكورة وجرت محاربة عظيمة إلا أنهم لم يتمكنوا من التغلب على القبيلة المذكورة لثلاثة قلاعها وقتل فى أثناء الحرب من القبيلة المذكورة مقدار مائة وعشرين نفرا وهلك رئيس عساكر إنجلترا (سر عسكر) وثمانية وأربعون نفرا من العساكر الانجليزىين وأصيب إمام مسقط من ذراعه فراجع فى نهاية الأمر منهزماً إلى مسقط وأما الكيفية الواقعة بين الانجليزى وأهالى مخا فعلى الوجه المعروف لمقام الصدارة فيما سبق وبعد أن دامت الحرب عدة أيام وقعت المصالحة على بعض شروط وأقام الانجليزى قنصلا فى مخا وقد سطر فى ورق آخر وارد من عبدكم أمين الجمر ك المومى إليه أن سفن إنجلترا التى كانت تجاه مخا قد اجتازت مضيق باب المندب وذهبت وإنما بقيت لهم فى مخا سفينة واحدة ذات عمودين واجتمعت تلك السفن فى مرفأ بومباى فأقلعوا تكراراً بست عشرة سفينة إنجليزية وتسع سفن شواطىء من ستة مراكب خشبية مقطورة من صنع العرب استأجروها من المرفأ المذكور ووصلوا إلى مسقط تكرارا وزحفوا متفقين أيضا على قبيلة بنى أبى على فالانجليزىون من جهة البحر والامام المذكور من جهة البر ووصلوا إلى تجاه القبيلة المذكورة لكن لم يعلم بعد هل وقعت المحاربة ولا كيف يتم الأمر وأنه توجد بين مسقط وبين القبيلة المذكورة من جهة البحر مسافة يوم ومن جهة البر مسافة خمسة أيام وقد بين أمين الجمر ك المومى إليه فى عريضته الواردة عقب ورقة المذكور أنه تحقق أن قبيلة بنى أبى على بعثوا إلى المحل الذى حل فيه الانجليزىون هاتى هجان وخمسين هجانا مزدوجة وباغتوا جيش إنجلترا الحاضر فقتلوا مقدارا يراوح بين سبعين وثمانين من الانجليزىين وأفاد الأمين المومى إليه فى المرة الرابعة أنه وقعت

محاربه عظيمه بن القبيله المذكوره والانجليزين لكن لم يعلم بعد في أى
جهة بقيت الغلبة وقد صار بيان تلك الكيفيات باعثا لعرض عبوديتي فالأمر
والارادة لدى وصول هذه العريضة وإحاطة علمكم العالى بها بمشيئة الله
تعالى لصاحب الدولة .

٢ - أمر من محمد على إلى قائد جيش الحجاز يأمره بالكتابة إلى
سلطان مسقط يعتذر له عن تعديات خالد بن سعود بتاريخ ٣ ذى القعدة
١٢٥٥ هـ رقم ٣٥^(١) .

من محمد على إلى قائد جيش الحج

اطلعت على كتابكم المؤرخ في ٢٩ رمضان ١٢٥٥ رقم ٤٣ المشتمل
على أنه ورد لظرفكم خطاب حضرة إمام مسقط وبضمنه الخطاب الذى
أرسله خالد بك لأولاد سعيد بن سلطان إم م مسقط .

ونظراً للصفاء القائم والولاء الدائم والمحبة الحاصلة بيننا وبين حضرة
الإمام المشار إليه فقد كتبنا لخالد بك أن لا يبدو منه ما يكسر خاطره
وأنتم اكتبوا للإمام المشار إليه جواباً على كتابه وقولوا فيه أن ما كتبه
خالد بك لحضرتكم إنما هو من مقتضيات صبوته وخدمة مزاجه وقد
كتبنا له بأن يرجع عن مثل هذه الكتابة وأن يرعى خاطركم في كل حال
ومحل بكل توفيق وهذا ما لزم اشعاركم به .

٣ - أمر من محمد على إلى خالد بن سعود أن لا يأتى أفعالا تستوجب
غضب مام مسقط .

من محمد على إلى خالد بن سعود^(٢) .

إن الخطاب الذى أرسلته أنت إلى ثوينى وهلال ابنى سعيد بن ساط

(١) وثائق القلعة - محفظة رقم ٢٦٦ حجاز ١٢٥٥ هـ .

(٢) وثائق عابدين (القلعة) محفظة رقم ٢٦٦ رقم ١٠٤ حمراء حجاز ١٢٥٥ هـ .
مترجمة عن اللغة التركية .

إمام مسقط بعثه حضرة إمام مسقط إلى ولدنا صاحب النجابة أحمد باشا سرعسكر الحجاز وأعرب فيه عن انكسار خاطره قائلاً أحتاج المحسوب عليكم أن يكون هدفاً لمثل هذا التعريض وأن السير عسكر الموما إليه قد أرسل لنا كتاباً بتاريخ ٢٩ رمضان ١٢٥٥ هـ رقم ٤٣ وبضمنة الكتاب الذى أرسلته أنت لابنى الإمام المشار إليه وكتاب الإمام الذى أرسلته إلى أحمد باشا واطلعت على ذلك كله وما نحن قد أرسلنا لك صورة خطابك الذى أرسلته أنت إلى الموما إليهما لتعلم ما جاء فيه ضمن خطابنا هذا فيا أيها الولد أنه بالنظر للصفوة القائمة والولاء الدائم والمودة الحاصلة بيننا وبين حضرة الإمام المشار إليه لا نوافق على كسر خاطره أصلاً فاجتنب المعاملة التى توجب اضطراب حضرة الإمام المشار إليه وبادر إلى إدخال السرور عليه وتطبيب خاطره وهذا ما أؤمله منك من كل وجه ومن أجله كتبنا لك .

٤ - مكاتبة من خورشيد باشا سرعسكر نجد إلى هنل باليوز خليج فارس ١٧ جمادى الأولى ١٢٥٥ هـ ٣٠ يولييه ١٨٣٩^(١) .

يرد خورشيد باشا فى هذه المكاتبة على احتجاج هنل على الاتفاق الذى أبرم بينه وبين شيوخ البحرين (١٨٣٩) ويؤكد أن هذا الاتفاق قد صار طبقاً لما كان الوضع عليه على عهد السعوديين بالنسبة لعلاقتهم بالبحرين وغيرها من إمارات الخليج الأخرى . ويعنى ذلك أن الحكم المصرى كان يستند على الشرعية السعودية كما هو واضح فى تعيين محمد على لخالد بن سعود حاكماً لنجد تحت التبعية المصرية .

ورد إلينا جوابكم المؤرخ فى ١٣ ربيع الثانى وبه تشيروا عن خصوص التجرك على بنادر العرب المتصلة بسواحل خليج فارس وعن عدم قبول مصالحه البحرين مما نفيد سعادتكم أن الأقاليم النجدية والتابع إليها فى السابق

(١) وثائق عابدين (القاهرة) محفوظة رقم ٢٦٧ ملف الحجاز ١٢٥٥ هـ صورة المرفق العربى للوثيقة ١٢٧ .

حكم السعوديين حيث أن خالد بك هو ولد سعود وسعادة ذو السطوة والجلالة أفندينا محمد على باشا قد أنعم عليه بتملك آل سعود وأن يكون ما كانوا عليه وكذلك قد صار الاتفاق مع عبد الله بن أحمد الخليفة على قدر القانون الذى كان جارى عليهم بمدة السعود فقط وهذا شىء صار فى شريف علم سعادتكم ولا يخفى الجناح العالى أن عبد الله الخليفة فهو الأمين على البحرين وليس المقصد بسوق عما كره إليه أو خلافه ولا يكون عندنا مقصد آخر إلا لراحة العباد وإصلاح البلاد وأما من خصوص الدولة العلية الانكليزية والدولة المصرية فتعلم أنهم أصدقاء لبعض زيادة عن غيرهم وبحول الله وقوته لا يزالون على هذه الحالة على الدوام وأنه بتاريخه قد أرسلنا كتبكم الشريفة مع هاجانه مخصصين من طرفنا على حسب السرعة وبعثنا أنه لا يحصل أمر يوجب للاختلاف بين الدولتين العليتين ولا بد أن يصدر إليكم أوامر سعادة ذو الشوكة والاقتدار حضرة السركار ونحن بالمثل يصدر إلينا أوامر سعادة أفندينا ولى النعم وبمقتضاها تنفيذكم كما تفيدونا ولكم العز والبقاء .



المصادر والمراجع

أولاً : وثائق باللغة العربية

— الدار القومية لوثائق التاريخية بالقلعة

محافظ الحجاز ٢٦٠ - ٢٦١ - ٢٦٣ - ٢٦٦ - ٢٦٧ - ٢٧٠

— وثائق المملكة العربية السعودية

التحكيم لتسوية النزاع الاقليمي بين مسقط وأبو ظبي وبين
المملكة العربية السعودية .

المجلد الأول (الأساس) - المجلد الثاني (الوثائق)

القاهرة ١٩٥٥

ثانياً : وثائق باللغة الإنجليزية

Factory Records.

— Gombroon Diary and Consultation.

— Persia and the Persian Gulf Letters from Bussorah, Gombroon, Bushire,

Vols 15, 16.

Public Foreign Office.

F.O. 78/366, 386, 388(١) F.O. 371/13010, 15279,

F.O. 60 Persia/21.

ثالثاً : مصادر وثائقية بلغة أجنبية

Aitchison, C.U.

A Collection of Treaties, Engagements and Sands Relating to
India and Njighbouring Countries ed. 1892, 1909 Calcutta 12 vols.

— Bombay Government.

Selection from the records of Bombay Government.

(١) تتضمن الملفات المذكورة الكثير من الوثائق المتعلقة بالتوسع المصري في سواحل
الخليج العربي وقد نقلت لنسا وثائق عابدين (القلعة) المراسلات المتعلقة بهذا الموضوع انظر
محفظة رقم ١٢ من الأرشيف الأوربي .

(م ٣٣ - الخليج العربي)

Historical and other Information Connected with the Province of Oman, Muscat, Bahrein and other places in the Persian Gulf New Series vol. XXIV Bombay 1856.

— Bruce, James.

Annals of the Honourable East India Company—London 1810;

— Brydges (Sir Harford Jones)

An Account of His Majesty's Mission to the Court of Persia in the year 1807—1811 to which is appended a brief History of the Wahabaux 2 vols London 1834.

— Great Britain Foreign Office.

Handbooks Prepared under the Direction of. . The Persian Gulf No, 67 London 1920.

— Greenville—Freeman.

Select Documents—The East African Coast Oxford 1962.

— Guillain, Charles.

Documents Sur l'Histoire, La Geographie et le Commerce de l'Afrique Orientale 3 Tomes, Paris 1856.

— Hughes, Thomas.

Treaties, Agreements and Engagements between the Honourable East India Company and Native Princes, Chiefs and States in Western India, the Red Sea, the Persian Gulf etc. Also between Her Britannic Majesty's Government and Persia, Portugal and Turkey Compiled under the Instructions of the Government of Bombay, 1851.

— Kaye (John).

The life and correspondence of Sir John Malcolm. 2 vols London 1856.

Saldanha, A.

East India Companies Connection with the Persian Gulf (1600—1800) Selection from Bombay State Papers. Calcutta 1908.

رابعاً : المصادر والمراجع والدراسات العربية

— أبو الفوز البغدادي السويدي

سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب

بغداد ١٢٨٠ هـ

— أبو عبد الله محمد بن بطوطه

تحفة النظار في عجائب الأسفار وغرائب الأمصار

مجلدان — القاهرة ١٩٣٣

— أحمد محمود صبحي

البحرين ودعوى ايران

الاسكندرية ١٩٦٢

— أحمد مصطفى أبو حاكمه

تاريخ الكويت

المجلد الأول — القسم الأول

الكويت ١٩٦٧

— آدم منز

الحضارة الإسلامية

ترجمة عبد الهادي أبو ريده — مجلدان

— أرنولد ويلسن

الخليج العربي

ترجمة محمد أمين عبد الله — نشر وزارة الثقافة والتراث

القوى (سلطنة عمان)

— أمين الريحاني

ملوك العرب أو رحلة في البلاد العربية — مجلدان بيروت ١٩٢٩

— أنور عبد العليم

ابن ماجد الملاح العدد ٦٣ من سلسلة أعلام العرب

القاهرة ١٩٦٦

- جاكولين بيرين (مترجم)
اكتشاف جزيرة العرب

بيروت ١٩٦٣

- جان جاك بيريجي (مترجم)
الخليج العربي

بيروت ١٩٥٩

- ج . ج . لوريمر

دليل الخليج
القسم التاريخي ٧ مجلدات ،
ترجمة مكتب ديوان حاكم قطر

الدوحة ١٩٦٧

- جمال زكريا قاسم (دكتور)
الخليج العربي

دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ - ١٩١٤

القاهرة - جامعة عين شمس ١٩٦٧

الخليج العربي

دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٩١٤ - ١٩٤٥

دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٧٣

- الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية

معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٧٥

- دولة بوسعيد في عمان وشرق إفريقيا

١٧٤١ - ١٨٦١

القاهرة ١٩٦٧

- مختارات من وثائق الكويت والخليج العربي المحفوظة في دور

السجلات البريطانية - جامعة الكويت ١٩٧٢

الإدعاءات الإيرانية في الخليج العربي

من أعمان المؤتمر الدولي للتاريخ بغداد ١٩٧٣

- الدوافع السياسية لرحلات الأوربيين إلى نجد والحجاز
من أعمال ندوة مصادر تاريخ الجزيرة العربية
الرياض ١٩٧٧
- وحمه بن جابر الجلاهية
- حوليات كلية الآداب — جامعة عين شمس المجلد التاسع ١٩٦٤
- موقف الكويت من التوسع السعودي في نجد وسواحل
الاحساء
- العدد ١٧ من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
القاهرة ١٩٧١
- الأسس التاريخية لوحدة الإمارات العربية ودور الاستعمار
في تجزئتها
- من أعمال ندوة تجربة دولة الإمارات العربية
التجارب الوحدوية العربية المعاصرة — مركز دراسات
الوحدة العربية — بيروت مارس ١٩٨١
- استقرار العرب في ساحل شرق إفريقيا
العدد العاشر — حوليات كلية الآداب
جامعة عين شمس ١٩٦٥
- جون كلي (مترجم)
- بريطانيا والخليج ١٧٩٥ — ١٨٧٠
- مجلدان — نشر وزارة التراث القومي والثقافة
سلطنة عمان ١٩٧٩
- حسن أحمد إبراهيم (دكتور)
- المطامع الأوربية في الخليج العربي من مطلع القرن
السادس عشر حتى منتصف التاسع عشر
- من أعمال مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية
المجلد الثاني الدوحة — قطر ١٩٧٦

- حسين بن غنام
تاريخ نجد المعروف بروضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال
الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام
تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد القاهرة ١٩٦١
- حميد بن محمد بن رزيق
- الفتح المبين فى سيرة السادة البوسعيدين
تحقيق عبد المنعم عامر ودكتور محمد مرسى عبد الله
وزارة الثقافة والتراث القومى - سلطنة عمان ١٩٧٧
- زين الدين (الشيخ)
تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين
ترجمة دافيد لوبز ونشر جمعية لشبونة الجغرافية ١٨٩٨
- سالم بن حمود السيابى
إيضاح المعالم فى تاريخ القواسم
مراجعة أحمد التدمرى - دمشق ١٩٧٦
- سرحان بن سعيد الأزكوى العماني
- كشف الغمة مخطوطة بالمتحف البريطانى بلندن
رقم 0r6568
- تاريخ عمان « المقتبس من كتاب كشف الغمة .
تحقيق عبد المجيد القيسى
وزارة الثقافة والتراث القومى - سلطنة عمان
- سعيد بن على المغيرى
جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار
تحقيق عيد المنعم عامر
ونشر وزارة الثقافة والتراث اقومى - سلطنة عمان
- شارل ديل (مترجم)
البندقية جمهورية أرستقراطية

ترجمة الدكتور توفيق اسكندر والدكتور أحمد عزت عبد الكريم
الجمعية الملكية للدراسات التاريخية - القاهرة ١٩٤٧

- شركة الزيت العربية الأمريكية
عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي - إدارة العلاقات
شعبة البحث - القاهرة ١٩٥٥

- صادق نشأت (ميرداماد) - مترجم عن الفارسية
تاريخ الخليج السياسي - ترجمة وتحقيق دكتور أحمد كمال
حلمي وبدر الدين عباس طبعة أولية على الآلة الكاتبة
الكويت ١٩٧٢

- صادق عبدواني
علاقات الدولة السعودية الأولى مع دول شرق الجزيرة
عمان - ساحل عمان - قطر - البحرين ١٧٥٠ - ١٨٢٠
القاهرة ١٩٧٢

- صالح أوزبران (مترجم)
البرتغاليون والأتراك العثمانيون في الخليج العربي
ترجمة دكتور عبد الجبار ناجي - منشورات مركز دراسات
الخليج العربي - جامعة البصرة ١٩٧٩

- صالح محمد العابد
- موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي
١٧٩٨ - ١٨١٠ بغداد ١٩٧٩
- دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ - ١٨٢٠
بغداد ١٩٧٦

- صلاح العقاد (دكتور)
- التيارات السياسية في الخليج العربي القاهرة ١٩٧٤
- عباس إقبال

مطالعاني درباب بحرين وسواحل وجزاير خليج فارس
القاهرة ١٩٥٦

- عبد الحميد البطريق (دكتور)
ابراهيم باشا فى بلاد العرب — من أعمال ذكرى البطل
الفاتح ابراهيم باشا — الجمعية الملكية المصرية للدراسات
التاريخية القاهرة ١٩٤٨
- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور)
الدولة السعودية الأولى القاهرة ١٩٦٩
- من وثائق الدولة السعودية الأولى فى عصر محمد على
١٢٢٢ هـ — ١٢٣٤ هـ — ١٨٠٧ — ١٨١٩ م
القاهرة ١٩٨٣
- محمد على وشبه الجزيرة العربية ١٨١٩ — ١٨٤٠
القاهرة ١٩٨١
- عبد الأمير محمد أمين (دكتور)
القوى البحرية فى الخليج العربى فى القرن الثامن عشر
بغداد ١٩٦٦
- المصالح البريطانية فى الخليج العربى ١٧٤٧ — ١٧٧٨ منشورات
مركز دراسات الخليج العربى بغداد ١٩٧٧ .
- مقاومة إمارات شرق الجزيرة العربية وقبائل الخليج
العربى للاستعمار الأوروبى ١٥٠٠ — ١٨٢٠ من أعمال ندوة
تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة — مركز دراسات الوحدة
العربية بيروت — مارس ١٩٨١
- عبد الله بن خلفان بن قيصر
سيرة الإمام ناصر بن مرشد
تحقيق عبد المحيد القيسى — وزارة الثقافة والتراث القومى
سلطنة عمان ١٩٧٧
- عبد الله صالح العثيمين (دكتور)
العلاقة بين الاحساء وحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

من أعمال مؤتمر تاريخ شرق الجزيرة العربية
المجلد الثاني - الدوحة - قطر ١٩٧٦

- عبد العزيز الرشيد

تاريخ الكويت

طبعة منقحة وضع حواشيها وأشرف على تنسيقها يعقوب

عبد العزيز الرشيد - منشورات مكتبة الحياة - بيروت

- عبد العزيز الشناوي (دكتور)

المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية

من أعمال مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية

المجلد الثاني . الدوحة - قطر ١٩٧٦

- عبد العزيز عبد الغني (دكتور)

- علاقة ساحل عمان ببريطانيا دراسة وثائقية في العلاقات

التعاهدية - مطبوعات دار الملك عبد العزيز رقم ٢٥ -

الرياض ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م وكذلك طبعة البصرة ١٩٧٨

- حكومة الهند البريطانية والإدارة في الخليج العربي دراسة

وثائقية . الرياض ١٩٨١

- عبد الفتاح ابراهيم

على طريق الهند

الرسالة الأولى من رسائل الأهالي

بغداد ١٩٣٥

- عبد القوى فهمي

القواسم ونشاطهم البحري ١٧٤٧ - ١٨٥٣

رأس الخيمة ١٩٨٣

- عبد اللطيف ناصر الحميدان (دكتور)

- التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة

العربية ٨٢٠ - ٩٣١ هـ (١٤١٧ - ١٥٢١ م)

العدد ١٦ من مجلة كلية الآداب - جامعة البصرة ١٩٨٠

- نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية ١٥٢٥ - ١٧٨١
العدد ١٧ من مجلة كلية الآداب - جامعة البصرة ١٩٨١
- عبد الهادي التازي (دكتور)
العلاقات التاريخية بين المغرب وعمان ، من حصاد ندوة الدراسات العمانية المجلد الثاني وزارة الثقافة والراث القومي
سلطنة عمان نوفمبر ١٩٨٠
- عثمان بن بشر النجدي
عنوان المجلد في تاريخ نجد
جزءان مكة المكرمة ١٣٤٩ هـ
- عثمان بن سند البصري
سبائك المسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد
بومباي ١٣١٥ هـ
- علي رضا ميرزا محمد
أسانيد الخايج « الفارسي »
دار الرائد العربي : القاهرة ١٩٧٦
- علي عبد الرحمن أبا حسن
— تاريخ البحرين خلال المخطوطات والوثائق
من أعمال الحلقة الرابعة لمراكز دراسات الخليج والجزيرة العربية .
أبوظبي ١٩٧٩
- علي نعمة الحلو
الأحواز إمارة كعب العربية (المحمرة)
بغداد ١٩٦٩
- فاروق عمر فوزي (دكتور)
الخليج العربي في العصور الإسلامية
دار القلم دبي ١٩٨٣

— فضلو حوراني (مترجم)
الملاحه العربيه في المحيط الهندي

القاهرة ١٩٥٨

— فؤاد حمزه

قلب جزيرة العرب

مكة المكرمة ١٣٥٢ هـ

— فالج حنظل

المفصل في تاريخ الإمارات العربية

جزءان - نشر لجنة التراث والتاريخ بدولة الإمارات

العربية المتحدة ١٩٨٣

— مجهول المؤلف

لمع الشهاب في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

تحقيق أحمد مصطفى أبو حاكم بيروت

— مجيد خدوري (دكتور)

البحرين وإيران العدد الأول من منشورات صوت البحرين

بيروت ١٩٥٣

— محمد بن أحمد (ابن لياس) الحنفى

بدائع الزهور في وقائع الدهور

تحقيق محمد مصطفى ج ٤ ، ج ٥ الطبعة الثانية نشر

فرائز شتاير فيسبادن القاهرة ١٩٦٠ ، ١٩٦١

— محمد بن خليفة النهأى

التحفة النهائية في تاريخ الجزيرة العربية

٦ - البحرين القاهرة ١٣٤٢ هـ

— محمد بن عبد الله السالمى وناجى عساف

عمان تاريخ يتكلم دمشق ١٩٦٣

— محمد بن عبد الله بن عبد القادر الأنصارى

تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء في القديم والجديد
مجلدان . الرياض ١٩٦٠

— محمد مرسى عبد الله (دكتور)
— إمارات الساحل و عمان والدولة السعودية الأولى
١٧٩٣ — ١٨١٨ القاهرة ١٩٧٨
— دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها
الكويت ١٩٨١

— محمد عرابي نخلة
تاريخ الاحساء السياسى ١٨١٨/١٩١٣
دار السلاسل الكويت ١٩٨٠

— محمود على الداود (دكتور)
• محاضرات فى التطور السيامى لقضية عمان
معهد الدراسات العربية العالية — القاهرة ١٩٦٤
• تاريخ العلاقات الهولندية فى الخليج العربى — مجلة كلية
الآداب — جامعة بغداد العدد الثانى يناير ١٩٦١

— مصطفى عبد القادر النجار (دكتور)
التاريخ السياسى لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربى فى
شط العرب دراسة وثائقية
من منشورات جمعية الدفاع عن عروبة الخليج
البصرة ١٩٧٤

— مصطفى مراد الدباغ
الجزيرة العربية موطن العرب ومهد الاسلام
المجلد الأول — دار الطليعة — بيروت ١٩٦٣
— معهد البحوث والدراسات العربية
— دولة الامارات العربية المتحدة
دراسة مسحية شاملة

القاهرة ١٩٧٧

- نورالدين عبد الله السالمى
تحفة الأعيان بسيرة آل عمان
مجلدان — تحقيق اسحق طفايش الجزائرى
القاهرة ١٣٤٧ هـ . وكذلك طبعة ١٩٦١
- هولى (دونالد) — مترجم
عمان ونهضتها الحديثة
ترجمة فؤاد حداد وعادل صلاحى وتحقيق محمد
نينى — نشر مؤسسة ستايس الدولية — لندن
(بدون تاريخ)
- ياقوت الحموى
معجم البلدان
المواد المشار إليها
القاهرة ١٩٠٦
- يعقوب الرشيد
الكويت فى ميزان الحقيقة والتاريخ ١٩٦٣
- يوسف الفلسكى
قضية البحرين بين الماضى والحاضر
القاهرة ١٩٥٣
- يوسف القناعى
صفحات من تاريخ الكويت
الكويت ١٩٤٦

المراجع والدراسات الأجنبية

- Aubin, Jean.
Les Princes d'Ormuz du XIII^e au XVE siècles. Journal
Asiatique CDXLI, 1953.
- Auzoux, A.
La France et Mascate aux XVIII et XIX siècles. Extraits de la
Revue d'Histoire diplomatique. Paris 1910.
- Bahrna (Hussain El),
The Arabian Gulf States their Legal and Political Status &
their International Problems. Manchester 1968.
- Barbosa (Durate)
The Book of Durate Barbosa 2 vols. London 1918.
- Bartlett (Moyse H).
The Pirates of Trucial Oman. London 1966.
- Bent (Theodore).
Southern Arabia. London 1900.
- Bertram, Thomas.
Arab Rule under the Al Bu Said Dynasty in Oman and East
Africa. London 1938.
- Alarms and Excursions in Arabia, London 1931.
- Buckingham.
Travels in Assyria, Media and Persia 2 vols. London 1829.
- Burchardt, L.
Notes on the Bedouins and Wahabuys London 1830.
- Boxer, C.
New light on the relationship of Oman and Portuguese
1613—1633,
Proceeding of Omani Studies Symposium vol. 2 November,
1980.

Ministry of Culture and National Heritage — Sultanate of Oman.

Glimpses of the Goa Archives Bulletin of S.O.A.S. vol. XIV London 1952.

Some Aspects of the struggle between Omanis & the Portuguese AD 1650—1730. Proceedings of Arab Gulf centres Abu Dahabi 1979.

— Brich (Welter de Gray) The Commentaries of Alfonso Dalbuquerque 4 vols Hakluyt Society 1875—1884.

— Chappuis, F.

Visite à l'Imam de Mascate au Zangubar.

Extrait de Memoires de la Socite de Geographie de Geneve 1860.

— Chardin, John

Travels in Persia and East Indies, London 1691.

— Colomb R.N.

Slave Catching in the Indian Ocean,

A Record of Naval experience London 1873.

— Coupland, Sir Reginald.

East Africa and It's Invaders from the Earliest Times to the Death of Seyyid Said in 1856, London 1938.

Exploitation of East Africa 1856—1890. London 1939.

— Curzon, George N.

Persia and the Persian Question 2 vols London 1892.

— D'Avrille.

Le Golfe Persique route de l'Inde et de la Chine.

Extrait de la Revue des Questions diplomatique et Coloniales Paris, 1905.

— Danvers, F.C.

The Portuguese in India 2 vols, London 1894.

— Dennis, Alfred.

Eastern Problem at the Close of the 18th Century. Cambridge 1901.

- Dickson, H.R.P.
Kuwait and Her Neighbours. London 1956.
- Dodwell, H.H.
The Founder of Modern Egypt Cambridge 1951.
The Cambridge Shorter History of India, Delhi 1964.
- Farinha, A.D.,
Arabic Documents in the Toro Do Tombo Proceeding of the
fourth Seminar of Arab Gulf Centres. Abu Dhabi, 1979.
- Farrouhy (Abbas),
Bahrein Islands 750—1951.
A contribution to the Study of Power Politics in the Persian
Gulf New York 1951,
- Feredoun (Adamyiat).
Bahrein Islands.
A Legal and Diplomatic Controversy New York, 1955.
- Flasseon.
Histoire de la Diplomatie Francaise. Livre II.
- Foster, William.
England's Quest in Eastern Trade London 1933.
- Fryer (John) A new account of East India and Persia 1672—
1681 London.
- Gaffrel (Paul).
Les Colonies Francaise Quatrieme edition Paris 1882.
- Gardane, Comte Alfred, la Mission du General Gardane en
Perse sous le Premier Empire Paris, 1865.
- Goldsmid, F.
Telegraph and Travel. A Narrative of the formation and
development of Telegraphic communication between England and
India under the orders of Her Majesty's Government with in-
cidental notices of the countries traversed by the lines. London
1874.
- Grover, B.L. and Sethi, R.R. Studies in Modern Indian
History, Delhi 1963.

- Haje Khalefah.
The History of the Maritime Wars of Turks. London 1831.
- Hawley (Donald)
The Trucial States, London 1970.
- Hoskins Harford L.
British Routes to India. London 1928.
- Huede, William,
A voyage up the Persian Gulf and Journey overland from India to England in 1817. London 1819
- Huart. (C.L)
Histoire des Arabes. 2 Tomes Paris 1912.
- The Imperial Gazetteer of India vol. II Historical Oxford 1908.
- Ireland Philip.
Iraq London 1945.
- Kajare, Firouz.
Le Sultanate d'Oman et la Question de Mascate Etude d'Histoire diplomatique et Droit Internationale, Paris 1914.
- Kassem, G.Z.
Omani—Portuguese Conflict in the 17th century.
Bulletin of the Arab Research and Studies Institute, Cairo 1980.
- Kelly, John.
Britain and the Persian Gulf 1795—1880. London, 1968,
- Krapf. Rev. Dr, Lewis,
Travels, Researches and Missionary labours during an eighteen years Residence in Eastern Africa London 1860,
- Landen, R.G.
Oman Since 1856 Disruptive Modernisation in a Traditional Arab Society, Princeton University 1967.

— Lockhart, L.

The Fall of the Safavi Dynasty and Afghaistan Occupation to Persia. Cambridge 1938.

Nadir Shah.

A Critical study based only upon contemporary sources London 1938.

— The Navy of Nadir Shah,

Proceedings of the Iran Society vol. I Part I London. 1936.

— Lopes, David (Editor).

Historia des Portuguese No Malabar Lisbon 1898.

— Low, Charles R.

History of the Indian Navy 1613—1863 2 vols London, 1877.

— Mann (Clarence) Abu Dhabi Brith of an Oil Shaikhdom Belrut 1969.

— Mason.

Histoire de Commerce Francaise dans le levant Paris, 1911,

— Maurizi (Vincenzo)

History of Seyyid Said of Muscat together with an account of the countries and people on the Shores of the Persian Gulf London 1819.

— McMillan (Mona).

Introducing East Africa London 1945.

— Miles, Samuel.

The countries and Tribes of the Persian Gulf 2 vols, London 1919 2nd Ed. in one volume 1966.

— Morrier, James.

A Journey through Persia Armenia and Asia Minor to Constantinople London, 1812.

— Neibuhr, Carsten.

Travels through Arabia and other countries in the East Translated by Rupert Heren 2 vols Edinburgh 1792.

Description de l'Arabie Paris Paris LXXIX.

- Owen, Roderick.
The Golden Buble, Arabian Gulf Documentary London 1957.
- Palgrave, W. G.
Narrative of a year's Journey through Central and Eastern Arabia 1862—1863 2 vols, London 1865.
Personal Narrative of a year's Journey through Central and Eastern Arabia. London 1877.
- Pankhurst, E Sylvia, Ex-Italian Somalj and London 1951.
- Pearce : Zanzibar, The Island Metroplis of Eastern Africa London 1920.
- Parsons (Abraham)
Travels in Asia and Africa London 1808.
- Perrin, N.
Relation de la Compagne d'Ibrahim Pacha Contre les Wahabites Paris, 1913.
- Philips, Wendell.
Oman A History London 1967.
- Rabaud, Alfred,
Zanzibar—La cote Orientale d'Afrique Equatoriale—Extrait de Bulletin de la Societe Geographie de Marsailles 1881.
- Ravenstein.
Journal of the first voyage of Vasco de Gama, Hakluyt Society London 1898.
- Rouire. M.
La Question de Golfe Persique—l'Angleterre en Arabie, Revue des deux Mondes LXIII Année, Cinquieme Periode, Tome XIV Paris, 1903.
La Question de Golfe Persique les Reglement des Questions de Mascate et de Koweit, Revue des deux Mondes LXXIIIe Cinquieme Periode XVII, Paris 1905.
- Ruete, Said.

Said Bin Sultan Ruler of Oman and East Africa 1791—1856
London 1929.

— Ruete, Emily.

Memoires d'une Princesse Arabe Paris 1905.

— Salil Bin Razik.

History of the Imams and Seyyids of Oman.

Translated from the Original Arabic and Edited with Notes,
appendices and introduction Continuing the History down 1870
by G. Percy Badger London 1871,

— Sanger, R.

The Arabian Peninsula New York 1954.

— Sirhan Bin Said.

Annals of Oman Translated by E.C. Ross, London 1872.

— Staven. John,

Translation of a Manuel de Faria Sousa.

The Portugese Asia 3 vols London 1695.

— Skeet, Ian.

Muscat and Oman.

The End of an Era London 1974.

— Sykes, Percy.

History of Persia 2 vols London 1951.

— Tadjibakche, Gholma Reza la Questlon de iles Bahrein Pub-
licailon de la Revue Grenerale de Droit Internationale Publie
Nouvelle Serle Numero, Paris 1960.

— Texiera, Pedro

Travels of Pero Texiera with His Kings of Harmuz, Translated
by William F. Sinclair Hakluyt Society 1902.

— Vambery, A.

Sidi Ali Reis, Travels and adventures of the Turkish Admiral
Sidi Ali Reis in India, Afghanistan, Central Asia and Persia
during the years 1553—1556 London 1899.

— ۵۳۳ —

— **Watson, Robert Grant.**

**History of Persia from the begining of the 19th century to
the year 1858 London 1866.**

— **Wellested.**

Travels in Arabia 2 vols. London 1838.

— **Whigham E.J.**

The Persian Problem London 1903.

تصويبات

صواب	خطأ	السطر	الصفحة
1834	1871	٢٧	٢٠
1957	1937	٢٦	٢٧
1877	1847	٢٨	٢٧
Bruce روس	Ross روس	١٨	٣٤
Sketsh	Skereh	٢٥	٣٤
Tribe	tribo	٢٤	٣٥
between	beween	٢٢	٣٦
أداميات	أميات	٢١	٣٧
Controversy	Controvesy	٢٧	٣٧
Portuguese	Porruguesa	٢٢	٣٩
Salil Bin	Salil by	٢٤	٤٠
Annals of Oman	of Oman	٢١	٤١
Cambridge	Cambride	١٨	٤٥
1795—	1498—	٢١	٤٦
1880, 1968	1885, 1963	٢٢	٤٦
1884	1284	٢٦	٤٩
نبدأ	نبد	٣	٥٣
إلى	إلى	١١	٥٣
بريطانيا وإمارات الساحل ص ٢٦	الدراسة المشار إليها	٢٥	٥٦
التاريخ السياسي الجبور	" "	٢٨	٧٤
أطلها	أطلها	١١	٧٦
172	192	٢٥	٧٦
٣ ص ١٢٦٧	٣ ص ٢٦٧	٢٨	٧٦
١ ص ١١	٣ ص ١١١	٢٦	٨٨
٧٤ ص	٤٧ ص	٢٧	١٠٣
Ian	John	٢٥	١١٠
لوريمر ص ١ ص ١٢٦	Wilson, A	٢٣	١١٣
" " ص ٨٦	The Persian Gulf	٢٨	١١٥
دولة البوسعيد ص ٨ - ١٠	المصدر المذكور	٢٣	١٢٦
٢ ص ٦٢٧	٢ ص ٦٣٧	٢٤	١٢٨
القاهرة ١٩٧٨	بدون تاريخ	٢٦	١٣٤

(تابع) التصويبات

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
١٣٨	١٧	١٧٢٧	١٧٣٧
١٤٢	٢٦	٢ ص ٤٧	٢ ص ١٤٧
١٤٥	١٧	أرملة سيف بن سلطان	أخت ناصر بن محمد
٤٤٥	٢٤	المرجع المشار إليه	ابن رزيق ص ٣٨٢
١٦٩	١٧	كينفهاوزن	كينفهاوزن
١٧٠	٢٧	٣ ص ٢١٧١	١ ص ٢٠٨ / ٢٠٧
١٧٣	٢٥	٤ ص ٢٦٣١	٥ ص ٢٤٢٨ - ٢٤٣٠
٢١٣	٤	كوبلان	كوبلان
٢٢١	٢٧	مويس	موريس
٢٢١	٢٥	Expoitation	Exploitation
٢٢٤	٢٣	Priccesse	Princesse
٢٢٤	٢٣	Chapitne	Chapitre
٢٦٤	٣	البثلية	القبيلة
٢٧١	٢٦	٨٧ ص	٧٨ ص
٢٧٦	٢٣	مخالفة	مخالفة
٣٨٥	١٠	نائب الملك	حاكم بومباي
٢٨٥	٢١	في الهند	»
٣٠٢	٢٦	لوريمر ١	لوريمر ٢
٣٠٩	٢	ابن بشر (١٨٠٩)	ابن بشر (١٨١٩)
٣٠٩	٢٢	١ ص ٣٢٣	١ ص ٢٢٣
٣١٣	٢٤	٢ ص ٩١٣	٢ ص ٩٩٤
٣١٤	٥	١١٨١	١٨١١
٣١٦	٢٦	القرب	العرب
٣٥١	١٥	Porpetual	Perpetual
٣٦٥	٢٢	١٢٥٤	١٢٠٨
٤٠٠	٢٤	موقعها	موقفها

رقم الإيداع : ٨٥/٤١٥٥

الترقيم الدولي : ٣ - ١٠٥٢ - ١٠ - ٩٧٧

مطابع النجوى - عابدين - القاهرة

